الفهرس العام

للسنة الخامسة (سنة ١٣٥٣) هـ من مجلة نور الاسلام

المقالات

الفتـــاوى

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٥	١١	وإخماد	وإحماد
١٠٠	٥	بألف وأربعمائة	بـ١٦٢و١٣١٠و١
١١٤	١٦	المشهور.على أن	المشهور أن
١١٩	٥	وماذا	فماذا
١٣١	١٩	إذا كان	إذ كان
١٥٢	١٣	وتواصو	وتواصوا
١٧١	٩	فى اللقلب	فى اللقب
١٧٣	١٣	ويخرج الميت	ونخرج الميت
١٧٧	٢	مؤلوفة	مألوفة
١٨١	١٦	الذى تضمه	الذين تضمه
٢٥٤	٢	إن الله لا يضيع	إنا لا نضيع
٢٦١	١٣	ذى القريحة	ذا القريحة
٢٨٩	١٠	وماذا	فماذا
٣٠٥	٧	رأو الآيات	رأوا الآيات
٣٦٢	١٠	وحدائق غلبا متاعا لكم ولا نعامكم	وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم
٤٠٦	٢٠	ما أنزل ربكم	ماذا أنزل ربكم
٤٢٤	٣	واستقر	وتوفى
٤٧٩	١٣	كليمات	كلمات
٤٨٤	١٣	وهذا هو المعمول به	وهذا غير المعمول به
٦٥٤	١٣	مستعيذ	مستعيذا

(فى القسم الانكليزى)

ص	س	خطأ	صواب
٣٨	١٧	فاتهم	فآتهم
٤٢	٢١	برفعُ الله	برفعِ الله
٤٤	١٣	لِلْنَاس	للنَّاس
٤٤	٢٧	من الْسَماء	من السَّماء
٥٦	٢٥	فلا تستعجلونَ	فلا تستعجلونِ
٦٩	١	لِلْنّاس	للنّاس
٧٠	١٠	الْدّار	الدّار
٧٠	١٠	علواً	علوًّا
٧١	١١	للنْاس	للنّاس
٧٢	١٦	وأُبشروا	وأبشروا
٧٨	١	ولا بنونٌ	ولا بنونَ
٩٣	٢	غَلبَاً	غلباً



الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٣	المجلد الخامس

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		صـ
داخل القطر المصرى		٣٠
خارج القطر المصرى		٤٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ومصالح الحكومة ومجالس المديريات	داخل القطر	٢٠
للطلاب وأئمة المساجد	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صـ صاغ داخل القطر و ٤ صـ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م

فاتحة السنة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمت بفضل الله وقوته السنة الرابعة لهـذه المجلة ، ودخلت بصدور هـذا العدد فى سنتها الخامسة . فنحن فى هـذه المناسبة لا نتمدح بجهود بذلناها ، ولا بقوًى أنفقناها فى سبيل توفيتها حقها من البحوث الجديرة باسمها ، المناسبة لمكانتها ، فإن كل جهد بذلناه ، وكل وقت أنفقناه فى هـذه السبيل لا نعتبره إلا دون الواجب على من يتحمل تبعة هذه المجلة ، لأنها لسان أكبر وأقدم جامعة إسلامية لها الزعامة الأدبية على مثيلاتها فى العالم كله .

فالشعور بهذه التبعة العليا يحفزنا للاضطلاع بأعبائها على أكمل ما نستطيع ، وأبعـد ما تبلغه جهودنا ، ونحن واثقون أن ما نعمله أول واجب ، لأقـدس قضيـة .

فاذا كنا اليوم نستقبل عاما جديدا فى عالم الجهاد العلمى ، فقد أعددنا له كل قوى عقولنا وقلوبنا ، وجملة مدارك علومنا ومعارفنا ، راجين الله أن يسدد خطواتنا فى أداء واجباتنا ، وأن يمدنا بروح منه فى بلوغ رغباتنا .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه بمحيي النهضة المصرية من جميع نواحيها ، وباعث روح الثقافة والرقى فى الأمة وهو حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك « فؤاد الاول » فقد اختص النهضة العلمية الدينية العليا بعناية بها وطد وطائدها ، وأرسى قواعدها ،

وبث فيها مقوماتها ، فأثمرت ثمراتها ، مما يرى ويلمس اليوم ، وسيكون له فى المستقبل القريب الأثر الضخم المقدر له .

فالله نسأل أن يمد فى عمر مولانا الملك حتى يرى بعينيه ثمرات عنايته الملكية ، بهذه الناحية الدينية ، وأن يقر عينيه بحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد ولى عهد المملكة المصرية ، إنه سميع مجيب ؟

محمد فريد وجدى



بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

- ٧ -

نشره المبادىء الانسانية

علم الله أن الناس وإن اتفقوا فى الفطرة ، وفى بداهات العقل ، فإن العوامل المفسدة من التربية الضالة ، وتأثير الوراثة ، وسلطان التقليد ، والجهل والعصبية ، تمنع كثيرا منهم من الخضوع لأصول واحدة من الدين الحق ، فتبقى أمم برمتها على أديان متخالفة ، ونحل متباينة . وعلم سبحانه وتعالى أن الأمة الإسلامية ستضطر الى مجاورتهم ومعاملتهم ، والسيادة على كثير منهم . فاقتضت حكمته أن يجعل لهذه الحالة من الحياة الاجتماعية أصولا يأخذ بها المسلمون حيالهم ، فوضع لذلك أصلا عاما فقال تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) . أى لا ينهاكم الله أن تعاملوا بالحسنى الأجانبَ عن دينكم ، الذين لم يقاتلوكم بقصد إخراجكم من دينكم ، وإجلائكم عن دياركم ، وأن تعدلوا فى معاملتهم ، إن الله يحب العادلين .

هذا أصل لم تعهده البشرية قبل الإسلام ، فقد كان أهل كل دين يعتبرون الخارج عنه عدوا مهدور الدم ، فكانوا إذا وقع فى أيديهم استعبدوه أو قتلوه . وقد ظلت الأمة الرومانية ، وهى التى خلفها المسلمون فى الملك ، طوال عهد سلطانها لا تسمح لأجنبى أن يدخل بلادها ولو متجرا ، إلا إن حصل على ترخيص رسمى ، أو كان تحت حماية رجل من كبرائهم .

فلما جاء الإسلام تغيرت الحال فجأة ، وأصبح للأجانب عنه الحماية والرعاية اللتان لكل فرد من المسلمين ، فكان يتنقل سائحهم وتاجرهم فى البلاد آمنا على نفسه وماله ، واعتبر ذلك من أكبر الأسباب فى دخول عشرات الملايين من الأجانب فى الإسلام بدون دعوة غير ما يرونه من مبادىء الإنسانية الحقة فى ظل الدولة الإسلامية .

أظهرُ مجالٍ تتجلى فيه المبادىء الفاضلة لأهل ديانة من الديانات هو مجال الدعوة اليه ، فإن الغيرة والحماسة وحب الإقناع وعزة السيادة تتعاون كلها فى الحصول على أنصار جدد للديانة الجديدة ، فإن لم يكن لأصحاب تلك الديانة منطق دينى انحدرت كل هذه الصفات الى طرفها الأقصى ، فاستحالت الى وحشية لا تعرف لشفاء غليلها حدا . على هذا النحو سار جميع دعاة الملل السابقة حتى التى حَرَّم عليها دينها حمل السلاح والدفاع عن النفس . فكان دعاتها يصحبون الجيوش الفاتحة ، فاذا أتم الجنود عملهم الحربى تولوا هم إدخال المقهورين الى ملتهم ، فإن أبوا أشاروا على تلك الجنود بإعمال السيف فيهم ، حتى قتلوا بهذه الطريقة ملايين من الأمم ، بل وأفنوا شعوبا برمتها . وفى تاريخ أمريكا معتبر .

ولكن الإسلام الذى كتب له أن يرث الأديان كافة وضع للدعوة اليه منطقا دينيا تجلت فيه مبادئه الإنسانية تجليا كان أثره فى نشره وتحبيب الأمم فيه فائقا كل أثر أثمره العسف والإيغال فى الوحشية من دعاة الملل السابقة .

فأول أساس وضعه فى هذا الصدد ، قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ، وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فأمر أن تكون الدعوة بالحكمة ، وهى العدل والعلم والحلم ، وكل كلام سديد موافق للحق ، فإن لم تغن الحكمة ، وتقمص المدعو روح العناد والجمود ، عومل بالموعظة الحسنة ، لأن حاله يكون أدعى اليها فى ذلك الوقت ، فإن لم تجده

الموعظة الحسنة ، فبالجدل وقرع الحجة بالحجة ، ولـكن بالطريقة التى هى أحسن الطرق فى المحافظة على آداب البحث ومراعاة كرامة الخصم .

قد يعجب بعض الناظرين فى هذه الآية من وجوب مراعاة كل هـذه الآداب العالية حيال مدعوين ليسوا من دينهم على شىء من العقـل ، ولا من سيرتهم على ما يوجب لهم من الـكرامة أقل حق ، ولـكنهم لو تأملوا فى أن الاسلام يدعو الى التحلى بأكمل الصفات فى كل الحالات ، وجميع المواطن ، حتى فى الحرب ، لأدركوا أن ظهورهم بهذه الصفات أوجبُ فى موطن الدعوة الى دينهم من كل موطن آخر ، ليكون حالهم صورة حية لما يدعون اليه ، وإلا ذهب جهدهم سـدى . ألم تر الى الذين يستخدمون فى دعوتهم الأمور الشائنة : من اختطاف القاصرين ، وإغراء المرضى والمحتاجين ، والتحايل على الجاهلين والغافلين ، كيف تؤثر سيرتهم هذه على دعوتهم ، فلا تثمر لهم غير الخيبة على كثرة ماينفقون فى سبيلها من الجهود والأموال ، مصداقا لقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

وقد شفع الإسـلام أساس الدعوة بأصول من صميم العلم الاجتماعى والنفسانى تجعل سلوك جادة الحكمة فيها أمرا محتما ، حرصا على أهله أن تستحيل فيهم الصفات المحمودة : من الغيرة ، والحماسة ، ومحبة الإقناع ، الى رعونات نفسية ليست من الإسلام فى شىء ، بله كونها عوامل للخيبة ، ودواعى للنفور والملاجّة .

من تلك الأصـول العلمية ما كشفه تعالى لأنصار ملته من أن اختلاف الناس فى مذاهبهم هو مقتضى اختلافهم فى مدارك عقولهم ، وأن الله لو شاء أن يجعلهم أمة واحدة من طريق الخلقة لفعل ، فقال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يألم كثيرا مما يرى عليه الناس من الجمود على

تقاليدهم، والمقام على موروثاتهم، وتشددهم فى مطالبته بآية تظل أعناقهم لها خاضعين، وقد علم الله أن ذلك كان منهم معاندة للحق، لا طلبا للدليل، فأنزل الله على رسوله قوله: (فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ) وقوله: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقوله: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) وقوله: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ).

حاط الله الدعوة الإسلامية بهذه الأصول العالية من العلم، حتى لا تتقمص غيرة الدعاة روحا من الإكراه والخاشنة تجردهم من الصفات الكريمة التى أمر كل مسلم أن يتحلى بها، ويأخذ نفسه بأدبها، ليقوم على حد وسط بين الطرفين، فلا التقصير المعيب فى نشر الحقيقة، ولا التطرف الشائن فى التحمس لها، والله بعد ذلك يفعل ما يريد.

فهل عهدتَ فيما اطلعت من تاريخ الدعوة الى الأديان سبيلا أعدل من هذا السبيل، ومراعاة لمبادىء الإنسانية أدق من هذه المراعاة؟

لقد طالب الإسلام أهله بمراعاة مبادىء الإنسانية حتى فى مواطن الحرب، فأمر أهله إذا دفعتهم الضرورة لخوض غمراتها، أن يعلنوا عدوهم بها، فإذا حمى الوطيس أوجب عليهم أن لا يسرفوا فى القتل تشفيا من العدو، وأن لا يجهزوا على جريح، ولا أن يقتلوا من يستسلم، ولو علموا أنه يحتال بذلك على نجاته من القتل، ولا أن يقتلوا الخدم الذين يكونون مع الجيوش ولا يباشرون القتال، فإذا أمكنهم الله من عدوهم فليس لهم أن يتبعوا مهزوما، وإذا أسروا عددا من عدوهم أوجب عليهم الاسلام أن يحسنوا مثواهم، وأن يعطفوا عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أوصيكم بالأسرى خيرا» فكان الرجل من المسلمين إذا لم يجد خبزا يكفيه ويكفى أسراه اكتفى هو بالتمر وآثرهم على نفسه بالخبز.

فإذا دخلوا بلاد العدو حرّم عليهم الدين قتل الشيوخ والزمنى ، ورجال الدين والنساء والأطفال . ونهاهم عن التمثيل بأعدى أعدائهم ، وعن إحراق مزارعهم ومنازلهم .

فهل عهد فى تاريخ النوع الإنسانى مثل هذه السيرة الكريمة ، والمبادىء الرحيمة حتى فى المواطن التى يذهل فيها الإنسان عن نفسه وولده ؟

إن أوروبا التى تفخر بعلومها ومدنيتها لم تصل بعد فى حروبها الى هذه المنزلة العالية من المبادىء الإنسانية ، فبعد الذى رأيناه من الجوائح التى أنزلها المتحاربون بالوادعين من الأهلين ، إذ أسقطوا عليهم من الجواء وابلاً من النار أحرقتهم إحراقا ، وهدمت دورهم فوق رءوسهم ، ما زلنا نسمع عن هول الغازات السامة التى يعدها للحروب المقبلة أولئك الذين يزعمون أنهم أرقى الناس عقلا ومدنية ، تلك الغازات التى إذا سلطت على المدن والقرى لا تدع فيها نسمة حية من شيوخ ونساء وولدان وحيوانات !

فإذا كان المتمدنون أنفسهم لا يزالون يفتنون فى إزهاق نفوس غير المحاربين الى هذا الحد ، وقد بلغ العلم فيهم الى مدى بعيد ، ووصلت المدنية عندهم الى ما لم تبلغه فى عهد من عهود الإنسانية ، أفلا يكون من أكبر الآيات أن يسبق الإسلام مجموع البشرية الى هذا النظام الحكيم الرحيم بالإنسانية ، وأن ينجح فى حمل أهله ، وهم قريبون من عهد الجاهلية ، على احترامه والعمل به ، حتى أصبحوا مضرب الأمثال فى الرفق بالبشرية ؟ .

ولم يكن المسلمون فى عهد السلم بأقل رعاية لمبادىء الإنسانية منهم فى وقت الحرب ، فقد شهد التاريخ ، حتى الذى كتبته الأجانب عن هذا الدين ، بأن المسلمين قد عاشوا مع المخالفين لهم فى الدين على أكمل حال من الصفاء والمودة ، وساووهم بأنفسهم فى حسن الجوار ، وفى التقاضى أمام المحاكم ، وتركوهم وشأنهم فى الاختلاف على معابدهم وقساوستهم ورهبانهم ، وحموا أموالهم وأعراضهم ، حتى حملت هذه المعاملة بعض الأمم

على أن سلموا لهم بلادهم ليحكموها ، مؤثرين إياهم على أبناء ملتهم ، طمعا فى العيش فى ظلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، ومستنيمين الى عدالة حكومتهم .

كان المسلمون يراعون ماهو أخص من مبادىء العدل والمساواة مع الأجانب عن دينهم ، وهو التودد اليهم والبر بهم . وقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بوضع أساس هذا العهد الانسانى ، فكان يزورهم فى دورهم ، ويعود مرضاهم ، ويحضر ولائمهم ومآتمهم . وزاد فأباح مصاهرتهم ، والمصاهرة هى غاية ما يتوقع من روابط الألفة بين الطوائف. وأمر بأن من كانت له امرأة منهم أن لا يكرهها على ترك دينها ، وأن لا يسىء اليها من ناحيته ، وأن يدع لها كل الحرية فى إقامة شعائره ، وأن لا يمنعها الذهاب الى كنيستها لأداء ما تعتقده واجبا عليها من الصلاة .

وفوق هذا فقد أمر فى مجال البر والصدقة أن لا يفرق بين المسلم وغيره ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » .

وقد راعى أصحابه هذه الأوامر فقاموا بها خير قيام . قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال له : ياغلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا ، فقلت له : كم تقول هذا ؟

فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

وروى أن أحد اليهود شكا عليا الى عمر رضى الله عنهما ، فلما مثل أبو الحسن أمام عمر قال له : اجلس يا أبا الحسن ، فظهر عليه أثر الغضب . فقال له الفاروق : أغضبت يا على من أجل أن سويت بينك وبين اليهودى ؟ فأجابه حيدرة قائلا : لا ، ولكنى غضبت من أنك رفعتنى عنه بتكنيتك إياى ولم تكنه .

فهذا وأمثاله فى أول عهد أمة كانت جاهلية بالأمس لا يعتبر عظيما فحسب ، ولكنه يعتبر عجيبا مدهشا ، آية فى العدل والإحسان والمواساة .

إن أعمق فلسفة فى الأرض تعجز عن تعليل هذا الانقلاب الفجائى فى أخلاق أمة بالأسباب العادية، ولو كان هذا الانقلاب نتيجته رفع مستوى إنسانيتها الى الحد الذى كانت عليه لدى الأمم المتمدنة فى ذلك العهد، لاعتبر عجيبا مدهشا، فما ظنك وقد كانت نتيجته رفع مستواها الى درجة لم تصل اليها أرقى الأمم فى هذا العهد، بعد أن بلغ العلم والفلسفة فيها الى المدى الذى وصلا اليه اليوم ؟

لا جرم أن هـذا الانقلاب الخلقى يجب حسبانه من معجزات الاسلام التى لا تحصى، والتى كلما ارتقى العلم اكتشف العقل من أطوارها عجبا : (سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) ؟

محمد فريد وجدى

الحلم عند العرب

سئل الأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : تعلمته من قيس بن عاصم المنقرى : حضرته يوما وهو محتب يحدثنا، إذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف، فقالوا : هذا قتل ابنك هذا ! فلم ينقطع عن حديثه، ولا حل حبوته، حتى فرغ من الحديث.

فالتفت إليهم وقال : أرعبتم الفتى ! ثم أقبل عليه فقال : يابنى ! نقصت عددك، وأوهنت ركنك، وفتت فى عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت الى قومك.

ثم التفت الى قومه وقال : أين ابنى فلان ؟ فوقف بين يديه، فقال له : يابنى ! قم الى ابن عمك هذا فأطلقه، والى ابن أخيك فادفنه، والى أم القتيل فأعطها مائة ناقة، لأنها غريبة لعلها تسلو عنه.

وصف الاحنف للبنين

ودخل الأحنف على معاوية ويزيد بين يديه وهو ينظر اليه إعجابا، فقال : ياأبا بحر ماتقول فى الولد ؟ فعلم ما أراد، فقال : يا أمير المؤمنين ! هم عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، وقرة أعيننا، بهم نصول على أعـدائنا، وهم الخلف منا بعـدنا، فكن لهم أرضا ذليلة، وسماء ظليلة، إن سألوك فاعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم ؛ ولا تمنعهم رفـدك، فيملوا قربك، ويستثقلوا جنابك، ويتمنوا وفاتك. فقال : لله درك ياأبا بحر، هم كما قلت !



سورة الحجرات

- ١ -

قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

تتناسب هذه السورة وسابقتها سورة الفتح من جهة احتواء السابقة على شرح واقعة كان فيها المسلمون يجنحون الى شيء غير ماقبله النبي صلى الله عليه وسلم في صلحه مع مشركي مكة ، تلك واقعة الحديبية المشار اليها في قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ) فقد اشتط المشركون في شروطهم حتى طلبوا أن يمسح البسملة من الشروط قائلين : لا نعرف « الرحمن الرحيم » وطلبوا أن يكتب بدلها « باسمك اللهم » على عادتهم ، وأن يحذف كلة « رسول الله » قائلين : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . فقبل صلى الله عليه وسلم منهم ذلك كله وغيّره ، فتذمر المسلمون ،

وكان من الشروط أن يرجع من عامه، فشق على بعض المسلمين وقالوا: أليس قد وعد الله رسوله أن ندخل المسجد الحرام؟ فقال أبو بكر: أَوَ قال فى هذا العام؟ والواقعة مشهورة، والنتائج الحسنة التى ترتبت على هذا الصلح وقبول تلك الشروط معروفة. فجاءت هذه السورة عقب تلك السورة متصلتين بسبب ما ذكر.

وأيضا فقد ختمت السورة السابقة بالتنويه بشأن النبى صلى الله عليه وسلم وبيان علو درجته عند الله، وبالثناء على المؤمنين بذكر مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل. فكان جديرا أن يعلم هؤلاء الخيرة الأبرار مايجب عليهم مع صفوة الرسل عليه الصلاة والسلام من التبجيل والاحترام.

وأما سبب نزول هـذه الآية، فقد روى فيه المفسرون عدة حوادث لا يبعد أن تكون كلها حصلت ونزلت بعدها الآية، وسبب النزول لا يخصص عموم اللفظ المنزل، وإنما هو يشرح شيئا من دواعى التشريع، حتى يتبين جمال الحكم ومطابقته لمصلحة المكلفين، ويعين على قبوله بانشراح، ويقوى داعية امتثاله. فما ذكروه أنها نزلت فى صوم يوم الشك. وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومعنى لا تقدموا: لا تفتاتوا فى أمر من عند أنفسكم حتى تعلموا حكم الله فيه، فالله أعلم بمصلحتكم، وما كانت أنظاركم ببالغة من العلم شيئا مما علمه الله، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكم من أناس غرتهم بوارق الوهم، فزعموا لأنفسهم كامل الفهم، فافتاتوا على الله ورسوله يؤوّلون بأهوائهم صريح ما نزل الله ليجروه الى مزاعمهم، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن. هؤلاء وأمثالهم يدخلون دخولا أوليا وأولويا فى الخطاب بهذه الآية الكريمة، فإنه إذا كان قد نهى المؤمنون عن التسرع فى حكم قبل أن ينزل به الوحى، فما بالك بمن يعمد الى وحى محكم فيحاول صرفه عن دلالته المتبادرة انسياقا مع ما يظنه مصلحة محكَّمة، ولو أنه تجرد عن هوًى مَلَكه حتى

اتبعه ، لعقل من سر التشريع ما يوافق مصلحة البشر العامة كما أرشد اليها العليم الحكيم ، ولكنهم ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله .

وبدء الآية بيأيها الذين آمنوا للتنبيه الى عظم خطر ما يتلقى بعدها ، فإن الأمر العظيم يبدأ الكلام فيه بالنداء، استرعاء لذهن السامع الى ما سيلقى عليه . واختيارصيغة « الذين آمنوا » لينبه فيهم شعور الإيمان الذى يقتضى المسارعة الى امتثال الأمر الملقى اليهم ، وأنه من مقتضى الإيمان .

وقوله : « لا تقدموا » معناه لا تبدوا رأيا أو قولا أو فعلا فى أمر ينتظر أن يقضى الله بأمره فيه . وقرىء تَقَدَّموا بفتح التاء والقاف بمعنى لا تتقدموا ، أى لا تتقدموا بأمر أو نحوه بين يدى الله ورسوله ، ولا تفتاتوا من عند أنفسكم قبل أن يوحى الله الى نبيه . كأن من بادر بإبداء أمر ، تقدم على منزلته التى يجب عليه أن يلزمها . وفى هذا التعبير إيضاح وجه الأدب الذى يليق بالمؤمن بالنسبة الى الله ورسوله . وقراءة تقدموا بضم التاء قد ترجع الى هذا ، فإنّ قدّم يأتى بمعنى تقدم ، كقولهم مقدمة الجيش للفئة المتقدمة منه . ويجوز أن يكون الفعل متعديا ، أى لا تفعلوا تقديما بين يدى الله ورسوله متعلقا ذلك التقديم بأى أمر كان .

وقوله : « بين يدى الله ورسوله » أصل كلمة « بين يدى » لبيان المكان الذى يكون أمام الشخص محصورا بين جهتى يمينه وشماله ، ولكنها توسع فيها للتقدم ولو فى الأمور المعنوية أو الأمور الزمانية ، كقولك : بين يدى الساعة . وحسن استعمالها فى هذا المقام لأنها تساعد على تهجين ما صنعوا بتصويرهم بصورة من يتقدم حساً بين يدى من هو أعظم منه مقاما ، ففى ذلك خروج عن مقام المتابعة ، وتقدم على من له حق التقدم . والإتيان بلفظ الجلالة فيه من تعظيم مقام النبى صلى الله عليه وسلم ومن تفظيع افتياتهم ما لا يخفى ، فقد جعل التقديم بين يدى الله و بين يدى رسوله سواء فى الحكم . وحاصل المعنى : لا تفتاتوا على الله قبل أن يوحى الى رسوله ويبين لكم .

أولا تفتاتوا على رسول الله قبل أن يوحى الله اليه ويبين لكم وفى إرداف ذلك بالأمر بتقوى الله تربية لداعية الامتثال لما أمروا به، فقد جعل ذلك من تقوى الله. كما أن قوله: « إن الله سميع عليم » فيه هذا، أى يسمع مايبدو منكم، ويعلم ما يجول فى سرائركم، فاخشوا عقابه، واحذروا بطشه.

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول): شروع فى بيان الأدب الواجب مراعاته فى حال مخاطبته صلى الله عليه وسلم، فبعد أن بين لهم أنه لا يجوز الافتيات فى حكم ومسابقة بيان الله عز وجل، أخذ ينهاهم عن تجاوز حد الأدب فى كيفية القول. وأما الأول فكان نهيا عن نفس القول الذى لا ينبغى. وإعادة النداء بيأيها الذين آمنوا للإشعار بأن هذا أيضا أمر عظم فى ذاته، مستقل باستدعاء العناية بشأنه. ورفع الصوت معناه الجهر به وإعلاؤه أكثر مما يصل الى سمع المخاطب. وهو يدل على قلة الاحتشام وضعف المهابة، فإن المتهيب يخشع صوته عادة، ولا يعلو صوت امرىء على آخر إلا عند قلة احتشامه منه وتهيبه له. ويجوز أن يكون المعنى: لا تجعلوا كلامكم هيئة كلام المترفع المتعالى فى قوله، كما يقول الشخص لآخر: « أنا قلت لك كذا » « أنا أمرتك بكذا » ونحو ذلك من العبارات التى تنم عن الاستعلاء. وكلاهما منهى عنه فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى الأول أظهر. وقوله: « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » نهى عن مساواته عليه السلام فى رفع الصوت، أو فى كيفية الخطاب، بعد النهى عن رفع الصوت على صوته، أو التعالى عليه، فهو من باب الترقى فى التأديب.

وقوله: (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) ينبهنا الى أن من العادات ما يكون فى أول أمره محتملا وخاليا مما يتوهم فيه من جراءة على المخاطب أواستهانة بشأنه اعتمادا على ماله فى النفوس من الاجلال الموجب لليقظة والاحتراس، ولكنه إذا تكرر حتى صار عادة مألوفة تغفل النفس عما ينبغى له من الاحترام، وما يحسن معه من الاحتراس،

ويلحقها التهاون ، فيجره ذلك الى عدم المبالاة ، فانّ تكرر الشيء يهون ما فيه من قبح ، فإن المرء قد يرتكب مالا ينبغي فيأسف على ما صدر منه ويحترس من عاقبته ،فإذا حصل منه ذلك مرة ثانية خف الأسف والاحتراس ، فاذا ما عاوده مرارا حتى صار عادة مألوفة زال تنبهه الى آثاره وما قد يجره عليه ، فتورط فى ارتكاب أمور تلازمه عادة ولم تكن له على بال ، فيكون قوله : « وأنتم لا تشعرون » معناه أنكم اذا لم تصونوا أنفسكم من أول الأمر عن مستقبح الأعمال فستقعون بعد اعتيادها وتمكنها من نفوسكم فى شرورها التى تدهمكم بحكم الاستخفاف بارتكاب الأمر المعتاد ولو كنتم فى أول أمركم محترسين .

وقوله : «أن تحبط أعمالكم» فى موضع المفعول لأجله ، أى كراهة أن تحبط أعمالكم ، أو حذر أو خشية ، أو نحو ذلك . ومن النحويين من يجعلها على تقدير (لا) أى لئلا تحبط أعمالكم . وبعض المفسرين يقول إنه مفعول لفعل محذوف دل عليه لفظ اتقوا الله ، أى اتقوا أن تحبط أعمالكم . والحبوط : البطلان وذهاب الشيء هدرا . وبطلان الأعمال إنما يكون بالمكفرات ، وما هنا لا يكون مكفرا إلا اذا اقترن به التهاون بشأن النبى صلى الله عليه وسلم والتعالى عليه أو قصد إيذائه ، وذلك قد يدرك المرء بلا شعور منه اذا اعتاد ما يجر الى ذلك ، لأن مهابته تكون قد خفت من نفسه ، فلذلك قيل فيه : احذروا أن تنساقوا الى الوقوع فى هذا وأنتم لا تشعرون . وفى هذا تنبيه الى باب عظيم فى تربية النفس ، وهو أن التهاون بالأمر الصغير قد يجر الى الوقوع فى الكبير ، ولا يحسمه إلا سد الباب وقطع الذرائع . واعتبر ذلك فى كثير من أحكام التشريع التى جاءت الشرائع فيها بسد بابها جملة ، مع أنها فى نظر العقل قد يحتمل اليسير منها لبعض المصالح ، كالربا وبعض أنواع الميسر ، ومنها عملية (اليانصيب) ، فإن ذلك باب إذا فتح انزلقت فيه النفس من حيث لا تشعر الى ما لم يكن فى حسبانها (ومعظم النار من مستصغر الشرر) .

وها نحن أولاء نشهد فى المعاملات الربوية التى استهان الناس بالدخول فيها باعتبار

أنها أمر يسير يحتمل — نشهد ما خربت من بيوت ، وما جرت من ويلات ، وما أوقعت فيه من بلايا ومصائب ، كما نشهد من هياج النفوس وتذمر الكثير ودبيب الحقد يغلى فى الصدور حين تسحب ورقات النصيب ، فكم من ذمم تخرب ، وكم من أعراض تنتهش . فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

هذا واعلم أنه كما أوجب الله على المؤمنين أن يكونوا فى منتهى الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد حلاه الله تعالى وجمله بالرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فقال تعالى فى صفته عليه الصلاة والسلام : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) وقال تعالى فى أمره له وتأديبه إياه : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقال : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) وذلك لكيلا تكون خدمته وطاعته صلى الله عليه وسلم من خدمة الجبارين المبنية على مجرد الخوف والرهبة ، بل سياجها المحبة واستشعار أن فى وجوده نعمة وأى نعمة . وإن أفضل أنواع الاحترام ما كان أكبر دواعيه المحبة واستشعار الفائدة من وجود المحترم . وهذا ما عليه خاصة المؤمنين الذين ملك الإيمان قلوبهم ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)

غض الصوت أو الطرف معناه حفظه ، وأصل معنى الامتحان الاختبار ليعلم حال الشىء ، وهذا المعنى محال فى جانب الحق جلا وعلا ، لأنه عليم من الأزل بكل شىء . فالمراد به تمرين النفوس على الشىء حتى يتمكن منها ، لأن شأن الممتحن المختبر أن يجرى على من يمتحنه تجربة بعد أخرى ليعلم آخر قوته ، وهذه التجارب تفيده تمرنا وتمكنا . ويجوز أن يكون معنى الامتحان التخليص والتصفية من قولهم : امتحن الذهب بالنار إذا خلصه من الشوائب . وقوله : « للتقوى » يتعلق بامتحن ، أى أعد قلوبهم للتقوى

بالتجارب التى أجراها عليها ، فقد أجرى عليهم من المحن والتكاليف ما جعلها خالصة للتقوى .

وهذا الثناء من الله تعالى على من اتصف بتلك الصفة ، للترغيب فى امتثال النهى السابق ، وضبط النفس عن الاسترسال فيما لا يرضاه الله ، وهو من الأسلوب الحكيم فى تربية الأحكام الشرعية فى نفوس المؤمنين . ولقد كان ممن ينطبق عليهم هذا الوصف بعد نزول النهى السابق أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقد كانا لا يكلمانه عليه السلام إلا السرار ، أى كالمناجاة السرية . وكذلك يروى أنه حين نزلت الآية السابقة جلس ثابت بن قيس فى بيته وأغلقه عليه وأخذ يبكى ، فافتقده صلى الله عليه وسلم فقال : ماشأن ثابت ؟ قالوا : ماندرى ماشأنه غير أنه أغلق باب داره فهو يبكى ، فأرسل عليه السلام اليه فسأله ماشأنك ؟ قال : يارسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخشى أن يكون قد حبط عملى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لست منهم ، ألاترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ فقال : رضيت ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد قتل يوم اليمامة فى حرب مسيلمة ، فكان شهيدا كما أخبر عليه السلام . وما كان رفع ثابت صوته استهانة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فهو من خير الصحابة إيمانا ، وإنما كان فى أذنه صمم ، ومن عادة كثير ممن به صمم أن يرفع صوته ، ولكن خشيته واحتياطه لنفسه وحرصه على سلامة عمله دعاه الى هذا ، كما قالوا : إن الحريص بسوء ظن مولع .

وقد ألحقوا برفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعه أمام قبره الشريف ، فإن حرمته عليه السلام ميتا كحرمته حيا . ومثل ذلك رفع الصوت فى مجلس الحديث الشريف . وليس ببعيد إلحاق مجالس العلم النافع بهذا فى منع رفع الصوت الموجب للإيذاء وقطع التفكير حيث كان من العلوم النافعة .

وعلى الجملة فالآية تعطينا أدبا فى المخاطبة مع من له منزلة التعظيم ، وأن خطابه

ينبغى أن يكون بقدر، وأن الإساءة فى كيفية أداء الخطاب لا تنزل عن الإساءة فى نفس الخطاب . ولقد يحسب بعض الناس أن رفعهم الصوت فى خطاب نظرائهم أو من هم أعلى مقاما منهم يكسبهم رفعة وعلو قدر، ويكتفون بهذا الصخب عن أن يقوّموا حججهم ويصححوا فكرتهم، وإذا بهم لا يزدادون بهذه الرذيلة إلا حطة ومقتا. وأسوأ حالا منهم من يعمد الى هجر القول وإغاظة مخاطبه ليكسب منه الحجة بلا وجه حق، زاعمين أنهم بذلك ينتصرون، ولكن لا تلبث الأمور أن تنكشف وقد باءوا بالخزى والمذام وهم لا يشعرون. وإنك لتجد فى قوله تعالى: «امتحن الله قلوبهم للتقوى» إشارة دقيقة الى ما ينبغى مراعاته والتفطن له فى أدب الخطاب، وأن ليس الأمر كما يبدو للناظر لأول وهلة من زعم غلبة أو إحراز نصرة، وإنما هو أدق وأخفى. والعبرة بالجوهر الرزين لا بالصلصلة الجوفاء، فهذا هو امتحان النقى من الزائف.

ثم قال تعالى: (لهم مغفرة وأجر عظيم) وفيه من الثناء عليهم وإحماد ما صدر منهم ما يرغب فى الاقتداء بهم واقتفاء سننهم. والمغفرة: ستر الذنب بإزالة أثره من العقوبة. والأجر العظيم: ما يمنحه الله عباده من الثواب المقيم فى دار النعيم.

قال تعالى: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم):

اتصالها بسابقتها ظاهر واضح، فقد أثنى فى السابقة على من يغض صوته عند رسول الله، وذم فى هذه من لا يرعى حقوق الأدب معه عليه السلام.

وسبب نزولها أن قوما من بنى تميم وفدوا على المدينة وجاءوا المسجد وقد أذن للظهر والناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم للصلاة، فلم ينتظروا مع المنتظرين، بل أخذوا ينادون: يامحمد اخرج لنا يامحمد اخرج لنا، وكان ذلك بصوت جاف، فخرج صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن مدحنا زين وإن شتمنا شين. فقال عليه السلام: بل مدح الله تعالى زين وشتمه شين. فقالوا: إنا جئنا نفاخرك، وذكروا من مفاخرهم،

فأمر عليه السلام ثابت بن قيس فرد عليهم مفاخرهم فكان أبلغ منهم ، ثم قام شاعرهم ، فأمر عليه السلام حسان بن ثابت فرد عليهم ، فقال قائلهم: إن هذا الرجل لمؤتى له[1] لخطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا ، وكان خطيبهم عطارد بن حاجب وشاعرهم الزبرقان بن بدر ، وقد أسلموا بعد ذلك ، وأجازهم عليه السلام بصلات وأحسن جوائزهم ، وكانوا من المؤلفة قلوبهم . ففيهم نزلت هذه الآية . قيل كان مجيئهم للتفاخر ، وقيل بل جاءوا يفتدون أسرى لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان أرسل اليهم سرية أسرت منهم . ومعنى « وراء » خلف . وقد يطلق بمعنى أمام ، كقوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » ومن أهل اللغة من يقول : معنى وراء : ما توارى عنك واختفى ، سواء أكان خلفا أم أماما ، فيكون مشتركا معنويا بين الخلف والأمام . وأما على الأول فمشترك لفظى . والحجرة : اسم المكان المحجور لا يُدخل إلا بإذن صاحبه. والنداء من وراء الحجرات يقتضى أن يكون المنادِى خارجها والمنادَى داخلها ، كقولك : كلمته من وراء الباب . أما بحذف من فلا يدل على ذلك ، فتقول : ناديته وراء الحجرة أو وراء الباب وكلاهما خارجها . وقوله : « أكثرهم » يعطى أن منهم من لم يكن راضيا ، أو الأكثر معناه الجميع ، كما قد يدل لفظ القليل على العدم فى مثل قولهم : فلان قليل الحياء ، يريدون لا حياء عنده . ومعنى « لا يعقلون » أنهم لا يعملون ما يقتضيه العقل ويليق بالعقلاء ، وليس معناه أنهم لا عقل عندهم أصلا .

وإن فى جفوة الخطاب من الوافد المحتاج لدلالة على حمقه وابتعاده عن نيل مقصده الذى له جاء ، فمن كان مجيئه لافتداء أسراه أولى به أن يكون أدبه خيرا من لفظه ؛ ومن كان إتيانه للمفاخرة من حقه أن يكون فيه من كرم الخلق وحسن الأدب ما تظهر به مزيته ، وليست جفوة الخطاب فى شىء من هذا ولا من ذاك ، كيف وقد كان النداء بهذه الجفوة ملابسا لوجوده عليه السلام فى حجرته ، وهو مكان يوجب الأدبُ مراعاة

(١) اى لذو حظ .

حرمته واحترام خلوته . وما أحسن ما أدبنا أسلوب الكتاب العزيز فى قوله تعالى : « أكثرهم لا يعقلون » ؛ ولعل المراد كلهم ، وإنما أتى بهذا كأنه على أسلوب الأدب العربى فى مثل هذا ، من الاحتياط بنسبة هذا التهجين للأكثر ، مع أنه فى الحقيقة صادر عن الكل ، فكأن فى مراعاة أدب الاحتياط الخطابى ردا عليهم بأدق إشارة ، وتعليمهم كيف يكون أدب الخطاب .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) :

بعد ما نعى عليهم فعلهم ، أرشدهم الى ما كان ينبغى لهم بطريق الصراحة . وكلمة « حتى » تغاير لفظ «الى» وإن كانت كلتاهما لانتهاء الغاية : بأن حتى تستعمل فيما هو غاية بنفسه وإن لم يجعله جاعل ، وأما الى فتستعمل فى النهاية الطبعية أو الجعلية ، يقال: سهرت الليلة حتى آخرها أوالى آخرها ، ويقال : سهرت الليلة الى نصفها ، ولا يقال فى الفصيح : حتى نصفها ، فكان اختيار لفظ حتى للإشارة الى أن خروجه عليه السلام اليهم هو الغاية الطبيعية لصبرهم ، فكان حقهم أن يفهموه بأنفسهم . وضمير كان فى قوله : « لكان خيرا لهم » يرجع للصبر ، وهو ظاهر . وقوله : « والله غفور رحيم » تلطف بعد الإرشاد ، حتى يجعل له الطريق مفتوحا للإنابة ، فقد بلغت الهداية مبلغها . ولقد أسلموا وقال صلى الله عليه وسلم للأقرع بن حابس حين قال له أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله : لن يضرك ما كان قبل هذا .

وإن من تمام الحكمة فى الهداية أن يردف الترهيب بالترغيب ، وأن يكون التلطف فى الآخر بعد ملء قلب المدعو بالرهبة فى الأول إذا دعت الحاجة الى الإرهاب ، وذلك لتكون الإجابة المنشودة سليمة من مطاوعة العنف ، ولابسة ثوب الاختيار والرغبة ، فإنها أخف على نفس المدعو وأشرف لموقفه . ولقد كان يغلب على نفس العرب معنى الإباء فيشق عليهم مطاوعة الإرهاب ، حتى إذا ملكوا حريتهم أجابوا لما دعوا اليه عن طريق الطواعية . ولا نزال نشاهد ذلك فى ذوى الشمم والنفوس الأبية . فلتكن

الدعوة الدينية محلاة دائما بما يحفظ على المدعو كرامته ، وإن تلبست أحيانا بالشدة فلتكن على قدر محدود ، واعتبر ذلك فى قوله تعالى لموسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما لفرعون: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) وليس هذا من المداهنة الممقوتة المزرية ، وإنما هو من الحكمة المطلوبة المجدية .

وفقنا الله الى مافيه رضاه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

المرء بأصغريه

قدم وفد الى عمر بن عبد العزيز فى أول خلافته ، فتقدم فتى منهم حدث السن ليتكلم عنهم ، فقال عمر : ليتقدم من هو أسن منك . فقال الفتى : يا أمير المؤمنين لو أن الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أحق بكرسيك هذا . ولكن المرء بأصغريه: قلبه ، ولسانه . فقال عمر: تكلم فانى أراك تبين عن لسان وجنان ، فقال الفتى : لقد جئنا اليك ياأمير المؤمنين ولسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، لسنا وفد الرغبة فقد دخلت علينا رغائبك فى بيوتنا ، ولا وفد الرهبة فقد أمنا بعدلك من حيفك . قال عمر : فوفد ما ذا أنتم ؟ قال : نحن وفد الشكر ، جئنا لنشكر اليك الله الذى وكل أمور المسلمين الى إمام عادل مثلك . فأدرك عمر هزة الارتياح ، وكان يصطفى لمجالسته عالما ناصحا صالحا ، فقال جليسه هذا : يا أمير المؤمنين لا يغلبن جهل القوم بك علمك بنفسك . فانكمش عمر حتى كاد تنقلص أضلاعه وقال : لا أحرمنى الله من جليس صالح مثلك . ثم صرفهم مكرمين .

عمر الفاروق رضى الله عنه

أعماله الاصلاحية وآثاره العمرانية

إن هذا الرجل الذى كان فى ثوبه أربع عشرة رقعة كان اذا ذكر اسمه ارتعدت له فرائص ملوك الارض .

(من التاريخ العام الفرنسى) لامان وكوتان

إن خلافة الفاروق رضى الله عنه كانت كلها خيرا وبركة على المسلمين ، فقد فتح لهم فى عهد خلافته القصير ثلاثة أقطار كان كل واحد منها يصح أن يكون مقرا للدولة ، ومد عليها من رواق عدله ، وشملها من نظام حكمه ، بما جعلها معاقل للاسلام ومادة لجنده . فإن لم يكن لعمر إلا تدويخه للدولتين اللتين تقاسمتا السلطان على الأرض كان هذا وحده كافيا فى رفعه الى مقام أكبر الفاتحين ، وأعظم القادة العالميين . فما ظنك وقد وفق لأن يربط هذه الأقطار برباط من الوحدة الاجتماعية عجزت عن حله أعاصير الفتن ، وعوامل الإحن ، ولم يوفق الى مثلها غيره من الزعماء الأفذاذ كالاسكندر ، فإن جميع البلاد التى افتتحها ثارت على خلفائه بعد وفاته ، فأصبح ملكه نهبا بين قواده ، فذهب كل واحد منهم ببقعة ممزقة الأوصال ، ثم لم تلبث هذه البقع أن لفظتهم بعد فتن كقطع الليل المظلم .

توفيق جالل ، خص الله به عمر ، فأعز به خير الملل ، فإن أراد الباحث أن يَعد بناة مجد الإسلام كان الفاروق فى مقدمة الرعيل الأول منهم .

إن الإصلاحات التى أحدثها عمر فى ملكه البعيد الأكناف ، وكانت أساسا لكل ما بنى عليها بعده ، قد لا يمكن أن تحصر ، ولكننا نذكر منها ضبطه للتاريخ الإسلامى وجعله بدايته على الهجرة ، وتدوينه الدواوين ، وترتيبه الجنود فى القلاع والثغور ، وسكه النقود ، وبناءه مدينة البصرة ثم الكوفة .

وأكبر من هذه الأعمال وضعه دستورا للقضاء كان ولا يزال معمولا به الى اليوم ، جمع فيه من أصول النظام ما يتجلى بها العدل الإسلامى فى أجل مميزاته ، وقد أرسل بهذا الدستور الى أبى موسى الأشعرى أحد ولاته ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم أُدْلِ اليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك ؛ والبينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ؛ والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما ؛ ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

« الفهم الفهم فيما يتاجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ، ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبها الى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى ؛ واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمداً ينتهى اليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ للعذر .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالشبهات .

« ثم إياك والقلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإن من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه ، هتك الله ستره ، وأبدى فعله ؛ والسلام » .

نبذ من أخبار الفاروق :

لقد سار عمر فى خلافته سيرة المؤسس لدولة ، والمنظم لمملكة ، والمصلح لأمة ،

لذلك كانت سيرته وأقواله وأعماله وخطبه مجموعة جهود مبذولة لهذه الأغراض العالية، فكانت ثمرتها أنها حفظت وحدة العالم الاسلامى حفظا تعذر مثله على أكبر القادة والمصلحين، فإن الجمع فى قرن بين العرب والفرس والديلم والفنيقيين والقبط بغير عسف ولا إراقة دم لمن الحوادث المدهشة فى تاريخ العالم.

نعم: إن هذه الوحدة لم تكن ثمرة نظم استعمارية كالتى يحاول بها الاستعماريون اليوم حفظ النظام فى مستعمراتهم ويفشلون فيها، ولكنها كانت ثمرة نظام معنوى أكمل من تلك النظم، وهو أخلاق عمر ومبادئه التى كانت صورة حية لأصول الإسلام وفضائله، عمّت هذه الأقوام فأوجدتها فى حالة من الحياة الفاضلة أنستها كل ما بينها من الفروق، وشلت فيها عوامل الشقاق، فآثرت أن تعيش فى بحبوحة هذا العدل الشامل على أن تحاول الخروج منه الى ما كانت فيه تحت السلطان الجائر لحكوماتها الوطنية.

هذه آية للإسلام يجب أن يتأملها علماء الاجتماع، ليدركوا أن فوق النظم الحديدية التى يوجدها الغالب، روحا اختص بها الإسلام وحده تحدث العجائب العمرانية فى عهد لم يكن فيه للاستعمار وسيلة غير القوة الغاشمة، فإن من أغرب ما يراه الراءون أن أمة خرجت من البداوة منذ أمس، تستطيع أن تسود أمما أرقى منها علما وأعرق تمدنا، وتربط ما بينها برباط معنوى يمنعها الشغب، ويمحو منها ذات البين، على تنافر أجناسها ولغاتها، ثم يؤول بها الأمر تحت هذا الرباط المعنوى نفسه الى أن تندمج فى جسم الأمة الإسلامية، فتصبح مادة لعلمائها وقادتها، ووزرائها وصناعها وحماتها، إن هذا لهو فوق العجب، بل هو آية من آيات هذا الدين، وهى لا تعد ولا تحصى.

وإذا كان الفضل فى هذه الآية وغيرها يرجع الى أصول الإسلام نفسه، فإن عمر قام بتطبيقها خير قيام، فكان مثلا أعلى لكل من تولى أمر هذه الأمة بعده.

الروح التى بثها عمر فى معاصريه:

إن عمر ما كان يغنى وحده فيما اضطلع به من بناء مجد الإسلام، وإذا كان لا بد له

من الاستعانة بغيره من أهل الكفايات العالية ، فاستطاع بنظره الثاقب وسياسته الحكيمة أن يجمعهم حوله ، وأن يوجههم جميعا نحو غايته القصية ، بما كان يبثه فيهم من روحه القوى ، بسيرته القويمة .

فكان رضى الله عنه من العدل والرحمة بالمكان الأرفع ؛ وكان يخشى أن يصدر من عماله وولاته ما يرهق الناس دون أن يصل إليه خبره ، فكان يطوف المدينة يستطلع أمور الناس ، ويسمع شكاياتهم ، فلم يهمل طائفة منهم حتى غير المسلمين ، فكان يزورهم فى دورهم ، ويسألهم عن حقيقة أحوالهم ، ولا يطمئن حتى يسأل كبار الصحابة عن دخيلة أمورهم ، خشية أن يخشوا بطش عماله فيكتموه ما يشكون منه .

وأما ماغاب عنه من أخبار الأقطار النائية ، فكان إذا قدم عليه بعض أهلها سألهم عن أحوالهم ، وبالغ فى استطلاع دخائلهم .

روى الأسود بن يزيد قال : كان الوفد إذا قدم على عمر سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا ، فيسألهم : هل يعود مرضا كم ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ، وهل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا : لا ، عزله .

وبلغه مرة أن عامله بالأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه فيه ، والجبل كؤود يشق على من رامه ، فكتب اليه ماصورته : « أما بعد : بلغنى أنك نزلت منزلا كؤوداً ، لا يؤتى فيه إلا على مشقة ، فأسهل ولا تشق على مسلم ، ولا على معاهد ، وقم فى أمرك على رجل ، تدرك الآخرة ، وتصف لك الدنيا ، ولا تدركنك فترة ولا عجلة ، فتكدرَ دنياك ، وتذهب آخرتك » .

وكتب الى أبى موسى الأشعرى :

« إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم ، فأكرم من قبلك من وجوه الناس ، وبحسب الضعيف من العدل ، أن ينصف فى الحكم وفى القسم » .

وخطب عمر بن الخطاب يوما فقال :

« يأيها الناس ! إنى والله ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا

أموالكم ، ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصّنه منه » أى ليمكنن له من ضربه كما ضربه .

فوقف عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدّب بعض رعيته (أى بالضرب) أإنك لتقصنه منه ؟ (أى لتفعلن بالأمير مثل ما فعل هو ؟) .

فقال عمر : إى والذى نفس عمر بيده إنى لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمّروهم [1] فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض [2] فتضيعوهم »

واستعمل عمر رجلا على عمل فجاء يأخذ عهده ، فأُتى عمر ببعض ولده فقبّله ، فقال الرجل : أتقبل يا أمير المؤمنين ؟ والله ما قبلت ولدا قط .

فقال له أمير المؤمنين : « والله أنت بالناس لأقل رحمة ، هات عهدنا لا تعمل لى عملا أبدا » :

روى الحسن البصرى قال : حضر بابَ عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس (أى من كبار السادة) ، وصهيب وبلال (أصل الأول مملوك رومى ، وأصل الثانى عبد حبشى) من أولئك الموالى الذين شهدوا بدرا ، فخرج إذن عمر لهم (أى للموالى) وترك أولئك .

فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ؟!

---

(١) يقال جمر الجيش أى أبقاه فى أرض العدو ولم يرده الى بلاده . (٢) الغياض جمع غيضة وهى مجتمع الشجر فى مغيض ماء .

فقال سهيل بن عمرو - وكان رجلا عاقلا : أيها القوم ! إني والله أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم (أى للاسلام) فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟.

وروى أبو حاطب عن أبيه قال : قدمنا مكة فأقبل أهل مكة يسعون وقالوا لعمر : يا أمير المؤمنين : أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا .

فأقبل عمر وبيده الدرة (وهى السوط يضرب به) فاذا أبو سفيان قد نصب أحجارا ، فقال له : ارفع هذا ، فرفعه ، ثم قال : وهذا ، وهذا ، حتى رفع خمسة أو ستة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال : الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أباسفيان ببطن مكة فيطيعه !

وكما أبان عمر رضى الله عنه عن كفاية إدارية ، واجتماعية عالية ، أبان كذلك عن سياسة للنفوس قلّ أن تتفق لذى سلطان غيره ، فقد كان يكره لأمته التنطع فى الدين ، أى التعمق فيه . فقد روى أن جماعة من الصحابة انقطعوا للعبادة ، نخشى أن يقلدهم الناس فتثبط الحركة العمرانية ، ويختل النظام الاجتماعى؛ فجعل ينهى الناس عن التنطع ، ويحذرهم الابتداع فى الدين .

ونقل أنه رأى بحضرته يوما شابا منكسا رأسا تخشعا ، فقال له : ياهذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يجوز أن يزيد على مافى القلب منه ، فمن أظهر للناس خشوعا فوق مافى قلبه فإنما أظهر للناس نفاقا على نفاقه .

وأُخبر عمر برجل يصوم الدهر ، فجعل يضربه بخفقته وهو يقول : كل يادهر كل يادهر .

وروى أن رجلا وجد يوما تمرة فى الأرض فرفعها وأخذ ينادى : من الذى ضاعت منه هذه التمرة ؟ فأبصر به عمر ، فقال له : كلها ياصاحب الورع البارد .

وسمع أن من الناس من يذهب فيقف تحت الشجرة التى بايع النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه تبركا بذلك ، فأمر بقطعها حماية للدين من البدع .

وأنا أشهد أن مثل هذا العمل لا يصدر إلا عن مصلح عظيم، فهم الإسلام حق فهمه، فقام على صراطه القيم يرفع عنه ما عسى أن يلقيه فيه بعضهم من القواطع عن غرضه الأسمى، فسلام على عمر فى الخلفاء الراشدين!

تواضعه :

أما تواضعه فحدث عنه ولا حرج. قال كعب الأحبار وهو أحد علماء بنى إسرائيل أسلم بعد أن تبين جميع ما كان يعرفه من علامات نبى آخر الزمان مما كان قد أنبأ عنه علماء بنى إسرائيل، قال: نزلت على رجل يقال له مالك، وكان جارا لعمر بن الخطاب، فقلت له: كيف بالدخول على أمير المؤمنين؟ فقال: ليس عليه ولا حجاب، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس.

وعن الحسن البصرى قال: كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شىء، فقال له الرجل: اتق الله. فقال رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟! فقال له عمر: دعه فليقلها لى، نعم ما قال، لا خير فيكم اذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها.

وروى أن عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده، فخاض الماء ومعه بعيره، فقال له قائده أبو عبيدة: قد صنعت صنيعا عظيما عند أهل الأرض. فصدّه عمر فى صدره وقال: أواه لو غيرك يقولها يا أباعبيدة! إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله.

وروى الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس — وهو الذى قيل فيه: إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألون فيم غضب — قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق، قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجز بعباءة (أى ملتف بها) يهنأ بعيرا من إبل الصدقة (أى يدهنه بالهناء وهو القطران). فقال: يا أحنف دع ثيابك وسلم، فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم

والأرملة والمسكين . فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ فقال عمر : يابن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ ، إنه مَن ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده : من النصيحة ، وأداء الأمانة .

وقد كان يقوم بنفسه فيشارف الأسواق ، ويراقب المكاييل والموازين ، ويأمر بإماطة الأذى عن الطريق .

قال المسيب بن دارم : رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا ويقول : حملت جملك ما لا يطيق .

مع كل هذا التواضع والرحمة بالضعفاء ، كان عمر يكره عدم النظام ، ويحب أن يرى كل شيء فى موضعه . روى عن أبى ساعدة الهذلى قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار المتجولين بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ، ويقول : لا تقطعوا علينا سابلتنا . وهو نظام يفعله الشرطة اليوم من منع الباعة من الوقوف بالشوارع العامة ، وحملهم على التجوال ، حتى لا يزحموا المارة ، ويعيقوا حركة الغادين والرائحين .

مقتل عمر رضى الله عنه :

ما كان يخطر ببال أحد من معاصرى الفاروق أنه يموت قتيلا ، وقد أعز الله به الإسلام ، ولم يوجد فى المسلمين إلا مغتبط بخلافته ، مطمئن الى عدل حكومته ، ولكن طبيعة العمران اقتضت أن يندس فى المسلمين من يستبطنون الكفر ، ويسرون الحقد على الفاروق لقضائه على دولهم . فكان منهم مملوك فارسى الأصل للمغيرة بن شعبة يدعى أبا لؤلؤة ، فحدث منه أنه شكا الى أمير المؤمنين ثقل الأتاوة التى وضعها عليه سيده ، وهى درهمان كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته ، فقال : نحاس نقاش حداد . فقال له عمر : ما هذا بكثير على ما تصنع .

فأعد أبو لؤلؤة خنجرا وتحيّن أمير المؤمنين ، حتى إذا خرج للصلاة ، فلما كبر خرج

الفارسي من الصف وطعنه بخنجره ست طعنات، فسقط، فلما هم الناس أن يقبضوا عليه أخذ يطعنهم حتى جرح ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة، فألقى عليه أحد المصلين برنسا وقبض عليه، فلما أحس أنه أُخذ طعن نفسه فمات، فلما سقط أمير المؤمنين قال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم. قال: فليصل بالناس. فصلى بهم صلاة خفيفة وعمر طريح، ثم حمل الى داره. فلما اجتمع الناس قال لابن عباس: اخرج اليهم واسألهم: أَعَن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟ فسألهم، فقال القوم: لا والله، ولوددنا أن زاد الله في عمره من أعمارنا.

فلما ثقل على عمر مرضه قال لابنه عبد الله: ضع خدي على الأرض، فوضعه، فجعل عمر يقول: ويلي وويل أمي إن لم يغفر لي ربي! ثم مات، فصلى عليه في المسجد، وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغسله ابنه عبد الرحمن، وصلى عليه صهيب وأصله مملوك رومي؛ وكان تقدم علي وعثمان للصلاة عليه فمنعهما ابنه عبد الرحمن وقال: ما أحرصكما على الإمرة، أما علمتما أن أمير المؤمنين قال: ليصل بالناس صهيب؟.

لا يجوز لنا في هذا الموطن أن نغفل لفت نظر القارىء الى أي حد بلغ من المسلمين مبدأ الديموقراطية الصحيحة، ومحق الفوارق الجنسية، فقد سمح أن يصلي عليه مملوك رومي الأصل، وأوثر على سيدين عظيمين من قريش، وهذا ما لم يوجد له شبيه الى اليوم في أعرق الأمم في المساواة.

تحوط عمر للخلافة:

روى عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما طعن عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت:

فقال عمر: إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني (يريد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد توفى ولم يعين من يخلفه)، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو

خير منى (يريد أبا بكر ، فقد استخلف الفاروق) ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالما ليحب الله حبا لو لم يخفه ما عصاه .

هنا يجب أن ننبه أيضا الى هـذه المساواة الحقة التى لم تبلغ اليها أمة من الأمم الى اليوم ، فإن سالما هذا الذى يذكره أمير المؤمنين الراحل كان عبدا لأبى حذيفة فأعتقه ، فانظر كيف علّم الإسلام هؤلاء الناس أن لا يزنوا الناس بأموالهم وأجناسهم وأصولهم ، ولـكن بمزاياهم وأعمالهم .

ثم قيل : يا أمير المؤمنين ، فلو عهدت الى عبد الله بن عمر فإنه للخلافة أهـل : فى دينه ، وفضله ، وقديم إسلامه . فأبى قائلا : بحسب آل الخطاب أن يتحمل تبعتها منهم واحد ، ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا لا لى ولا على .

ثم راجعوه فقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت ؛ فقال لهم : قد كنت أجمعت بعد مقالتى لـكم أن أولى رجلا أمركم أرجو أن يحملـكم على الحق (وأشار الى على بن أبى طالب) ثم رأيت أن لا أتحملها حيا وميتا ، فعليكم بهذا الرهط الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : إنهم من أهل الجنة ، فذكر منهم ستة وأمرهم أن يختاروا منهم رجلا .

ودعا بعـلى وعثمان والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأمرهم أن يتشاوروا فى أمر الخلافة ، وقال لهم : انتظروا أخاكم طلحة ثلاثة ، فإن جاء ، وإلا ولوا أحدكم ، وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شىء ، قوموا فتشاوروا ، وليصل بالناس صهيب .

ثم قال لأبى طلحة الأنصارى :

يا أبا طلحة ؛ إن الله أعز بـكم الإسلام ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هـؤلاء الرهط وقم على رءوسهم ، فإن انقسموا فى الرأى ثلاثة وثلاثة ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف .

فاجتمعوا كما أمرهم ، ولما اختلفوا طلب إليهم عبدالرحمن بن عوف أن يحكموه على أن يتنازل عن حقه ، فحكموه ، فخرج كل من صادفه من صنوف الناس فرآهم مجمعين على تولية عثمان ، فاختاره للخلافة .

محمد فريد وجدى

حكم

قال حكيم : إن نخوة الشرف تناسب بطر الغنى ، والصبر على عقوق الثروة أشد من الصبر على ألم الحاجة ، وذل الفقر يسعى على عز الصبر ، وجور الولاية مانع من عدل الانصاف إلا من كان بعيد الهمة .

وقال بعض بنى تميم : حضرت مجلس الأحنف وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الكرم منع الحرم ، ما أقرب النقمة من أهل البغى ! لا خير فى لذة تعقب ندما ، لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر من زهد ، رب هزل قد عاد جدا ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح فانه يورث الضغائن ، وخيرالقول ما صدقه الفعل ، احتملوا لمن أدل عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر اليكم ، أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، إياكم ومشاورة النساء ، واعلم أن كفر النعم لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذمم ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الود ، لاتكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا الى البخل أسرع منك الى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت فى مثواك ، فأنفق فى حق ، ولا تكن خازنا لغيرك ، وإذا كان الغدر موجودا فى الناس فالثقة بكل أحد عجز ، اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، قال : فما سمعت كلاما أبلغ منه ، فقمت وقد حفظته .

باب الأسئلة والفتاوى

أحكام فى الرهن والمزارعة والسماد

ورد الى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع الاسئلة الآتية :

١ — ما حكم ما يفعله الناس فى الأرياف من أخذ مبلغ معين على الفدان بصفة رهنية وصاحب المبلغ يضع يده على الفدان ويأخذ ما ينتج منه لحين أخذ مبلغه ؟

٢ — وإذا أخذ الدائن ريع الفدان وضمه الى ماله الحلال مدة أربع سنوات فما يكون الحكم ؟

٣ — مزارع يزرع قطعة أرض بالنصف عند أحد الملاك وينتج منها قيمة النصاب ، فهل المزارع ملزم أن يخرج الزكاة عنه وعن المالك من نصيبه خاصة ، أم كل منهما يخرجها عما يخصه ؟

٤ — ما حكم أخذ الأسمدة والبذور من الحكومة وتوقيع الاستمارة وفيها أن الثمن كذا وخمسة قروش فائدة ؟

محمود معوض شرف الدين
إمام مسجد الفخفاخ بالظواهرية

الجواب عن السؤال الاول :

إذا شرط فى عقد الرهن أن منفعة المرهون تكون للمرتهن (الدائن) كان الشرط لاغيا والعقد فاسدا ، لأن الرهن إنما شرع لتكون العين المرهونة تحت يد المرتهن وثيقة فقط ، وضمانا لأداء الدين الذى له ، فليس له فيها إلا حق حبسها ليستوفى منها دينه عند تعذر الوفاء .

الجواب عن السؤال الثانى :

إذا استولى الدائن على ريع الفدان المرهون فإن ذلك يكون أثرا من آثار العقود

الفاسدة ، ويلزم فى هذه الحال بأجرة المثل لهذا الفدان عن المدة التى استولى على ريعه فيها ، ويدفعها لصاحب الفدان أو يخصمها من الدين الذى عليه .

الجواب عن السؤال الثالث :

الزكاة واجبة عليهما معا ، يخرجانها من الحب المشترك بينهما قبل القسمة ، أو يخرج كل منهما ما عليه من نصيبه بعد القسمة .

الجواب عن السؤال الرابع :

إذا كانت خمسة القروش فى مقابلة أجرة مخزن أو أجرة عمال لم يكن ذلك من الربا فى شىء ، وإذا كانت هذه الزيادة فى مقابلة تأخير الثمن بحيث تزيد إذا زادت المدة ، وتنقص إذا انقصت المدة ، فهى من الربا . وفى هذه الحالة لو أن هذه الفائدة أضيفت الى الأصل واعتبر المجموع ثمنا ، لخرج هذا العقد عن كونه ربا . والله الموفق ؟

الحسينى سلطان	يوسف المرصفى
مدرس فى كلية الشريعة الاسلامية	من كلية الشريعة الاسلامية

أحكام فى قراءة القرآن

والتطلع لزينة الدنيا

وورد أيضا الى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع الأسئلة الآتية :

١ — ما قولكم فى رجل متعود أن يقرأ كل يوم جزءين أو أكثر من القرءان : هل الوضوء ضرورى وقت القراءة ؟ وهل يحرم ذلك أم يجوز ؟

٢ — هل لو حصل لحن وقت القراءة غير مقصود يعاقب القارىء عليه ؟

٣ — ما حكم الشرع فيمن يقرأ القرءان وهو مضطجع ليلا ؟

٤ — هل حمل المصحف للتبرك بصفة مستمرة محرم ، ولا يخفى الأحوال التى يضطر لها حامل المصحف ؟

٥ — أرجو تفسير قوله تعالى مخاطبا نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) والسبب فى نزولها.

٦ — هل الأفضل الاستمرار على قراءة القرءان وقت الفراغ، أو قراءة الدلائل والأوراد؟

نصير حموده
بوزارة الزراعة

الجواب عن السؤال الاول:

إن كانت القراءة فى المصحف وجب الوضوء، لأنه لا يجوز مسه بدون طهارة، لقوله تعالى: (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وهو وإن كان خبرا فى اللفظ إلا أنه نهى فى المعنى، لئلا يلزم الكذب فى خبره تعالى لكثرة من يمس المصحف بدون طهارة. أما إن كانت القراءة من حفظ القارىء بدون مس للمصحف فليس الوضوء لها واجبا، وإنما هو مندوب فقط.

الجواب عن السؤال الثانى:

على القارىء أن يجتنب اللحن فى قراءته والخطأ فيها بأى وجه من الوجوه، سواء أكان راجعا الى مخالفة اللغة العربية، أم كان راجعا الى مخالفة أحكام القراءة من مد وقصر وما إليهما من الأحكام المدونة، لقوله تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا). الترتيل هو التمهل والترسل حتى تتبين الحروف والحركات، والخطاب وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم، إلا أنه عام للأمة أيضا.

ومتى اجتهد القارىء فى المحافظة على أحكام القراءة فلا إثم عليه بعد ذلك إن زل لسانه أو سها فأخطأ، لقوله تعالى: (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) أما إذا قصر فى رعاية الأحكام فإنه يكون آثما، وعليه أن يتعلم قبل أن يقرأ إن كان غير عالم بها وبكيفية الأداء.

الجواب عن السؤال الثالث :

لا إثم على القارىء إذا قرأ القرءان وهو مضطجع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ القرءان على كل حال إلا وأنت جنب » وإن كان الأفضل أن يكون جالسا ، متطهرا ، مستقبل القبلة ، متجملا بأحسن الهيئات ، الى غير ذلك من الآداب التى ترجع رعايتها والمحافظة عليها الى تعظيم القرءان .

الجواب عن السؤال الرابع :

حمل المصحف بصفة مستمرة ليكون كحرز للحامل مما يهابه من إنس أو جن أو غيرهما جائز ، بشرط أن يكون مستورا بساتر يقيه من وصول النجاسة أو أى قذر اليه وإن كان طاهرا ، وليس عليه أن يلتزم الطهارة فى حمله .

الجواب عن السؤال الخامس :

بيان المفردات فى الآية — (مد العينين) إطالة النظر بهما الى الشىء إعجابا به واستحسانا له . ومن لوازمه تمنى أن يكون مثله حاصلا للناظر . (متّعنا) التمتيع : الإلذاذ والترفيه . (أزواجا) أصنافا (منهم) أى الكفار . (زهرة الحياة الدنيا) زينتها وبهجتها . (لنفتنهم فيه) الفتنة : الابتلاء والاختبار بما فيه نفع أو ضر للمرء ، وقد يكون من آثارها الاغترار والطغيان ، كما هو شأن من لم يشكر نعم المولى سبحانه وتعالى ، بل جعلها عونا على البغى ومجاوزة الحدود . (ورزق ربك) ما مُنحه النبى صلى الله عليه وسلم من كمال العلم بربه تعالى واصطفائه للرسالة والنبوة ، وكذلك ما مُنحه المؤمنون من الإيمان والمال القليل حيث اقترن بالرضا والطاعة . (خير) مما أوتى الكفار من زخارف الدنيا وزينتها . (وأبقى) أدوم بدوام ثوابه وأجره .

خلاصة المعنى : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التطلع الى ما أوتى الكفار على اختلافهم وتنوعهم من الأموال التى هى زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، وبيان أن هذه

الزخارف إنما كانت فتنة لهم أورثتهم طغيانا وعنادا فضلوا عن سواء السبيل فساءت عاقبتهم ، وأن ما أنعم الله به على حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم خير من تلك الأموال الزائلة السيئة العاقبة (وأبقى) لما أعد للنبى صلى الله عليه وسلم فى دار الآخرة من عظيم الجزاء وجزيل العطاء .

والمقصود من الآية — والله أعلم — تحقير أمر الدنيا وما فيها من زخارف وزينة ، وتعظيم أمر العلوم والمعارف وما يتصل بها من الطاعات ، وتعليم أمته صلى الله عليه وسلم فضل الرضا والقناعة ، وحثهم على عدم التطلع الى الدنيا ، وألا يكونوا كمن قال : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » بل يكونوا كما قال الله تعالى : « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا » .

وليعلم أن النهى عن الشىء لا يستلزم أن يكون المنهى متلبسا بالمنهى عنه ، ولا أن يكون على شرف التلبس به ، فلا يختلجن فى صدر القارئ الكريم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان متطلعا الى المال ، أو هو على شرف ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم سيد الزاهدين فى الدنيا المعرضين عنها ، وإنما جاء النهى موجها للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه هو السيد الذى تجب طاعته على الأمة ، فإذا كان منهيا عن ذلك كان غيره بالنهى أولى .

وسبب نزولها : أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل الى يهودى يستقرضه فأبى اليهودى إلا برهن ، فلما عاد الرسول الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إنى لأمين فى السماء لأمين فى الأرض » وأرسل بدرعه يرهنه ، فنزلت هذه الآية دفعا لما عساه يختلج فى نفوس من يعلم هذه الحادثة من الأسف لقلة المال والتطلع لكثرته ، وأن يكون لدى المؤمنين مثل مارزق به الكفار من الأموال ، وتنبيها للمؤمنين على أن هذا المال عرض زائل لا قيمة له ، وأن عاقبته ربما كانت سيئة كما هو حال الكفار ، وأن مارزقه المؤمنون من الإيمان

والطاعة والمال القليل إذا اقترن بالرضا والقناعة خير وأبقى مما عند الكفار ومن على شاكلتهم ممن لم يشكر نعم المولى سبحانه وتعالى ولم يقم بحقوقها المطلوبة فيها .

الجواب عن السؤال السادس :

قراءة القرءان والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستغفار والذكر وقراءة الأدعية والأوراد كل ذلك مرغب فيه شرعا ، وللقائم به أجر عند الله تعالى تفضل به سبحانه لا بطريق الوجوب عليه : والقرءان وإن كان جامعا للكل إلا أن لزوم شيء واحد من أنواع الطاعات ربما كان سببا الملل والسآمة ، فتبغض الطاعة فتنقلب معصية .

لذلك كان الأفضل عدم ملازمة نوع واحد ، فمن وُجد عنده فراغ من الوقت يعبد الله تعالى فيه فليقرأ القرءان تارة ، وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم تارة أخرى ، وليستغفر ويدع الله تعالى فى وقت ثالث ، وهكذا ، يفعل كل ذلك فى كل يوم ، أو موزعا على الأيام بحسب ما ينشرح صدره وينشط ، والكل خير وثوابه عظيم ، والله ذو الفضل العظيم ؟

محمد عبد الفتاح العنانى | محمد يوسف البربرى
بكلية الشريعة الاسلامية | بكلية الشريعة الاسلامية

أحكام الارضاع

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

أفهم من قول الله تعالى فى سورة البقرة : (وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ) ومن قوله تعالى فى سورة الطلاق : (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) أن الله

تعالى جعل المرأة المسلمة فى حل من الرضاعة : فإن شاءت أرضعت صغيرها، وإن شاءت أرضعته بالأجر ، وإن شاءت امتنعت ، مع العـلم بأن الولد للأب والأم معا لا للأب وحده، فضـلا عن أن الرجل والمرأة يتعاونان على أعباء الحياة وما يصادفهما من عقبات فى سبيلها كما هى الحـكمة من الزواج .

فهل لسيدى الأستاذ أن يتفضل ببيان وجهة نظر الشرع الشريف وحكمته فى ذلك ؟

ابراهيم غمرى محمد البواب
مدرس بمدرسة بلاط بالواحات الداخلة

الجواب :

إن ما حام حوله المستفتى هو رأى من الآراء المذكورة فى تأويل الآيتين . ويتلخص فى أن قوله تعالى: « والوالدات » عام فى الزوجات والمطلقات، وأن قوله تعالى : « يرضعن » خـبر فى معنى الأمر الذى للنـدب لا للوجوب ، فيكون المعنى : يندب للوالدات إرضاع أولادهن .

وإنما ندب لهن ذلك لما لهن من وفور الشفقة ومزيد العناية بالأولاد ، ولا كذلك غيرهن من المراضع . وإذا كان الإرضاع غير واجب على الأم فلها الأجر إذا قبلت أن تكون مرضعة لولدها ، وهذا الأجر هو المشار اليه فى آية (والوالدات) بقوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » والمصرح به فى سورة الطلاق فى قوله تعالى : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » .

وقد فات المستفتى أن الأم قد يجب عليها الإرضاع لا محالة ، وذلك فى حالين :

(١) أن يعجز الأب عن استئجار مرضع ولا مال للولد يمكن منه الاستئجار .

(٢) ألا يقبل الولد سوى ثدى أمه .

ففى هاتين الحالين يجب على الأم إرضاع ولدها ، تفاديا من ضرر يلحقه ، أو هلاك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

ولعل الحكمة فى عدم وجوب الإرضاع على الأم مطلقا أن الإرضاع من قبيل الإنفاق على الأولاد، والمعقول اختصاص الأب به دون الأم، فإنه الولى على الأولاد، وله خاصة النظر فى شئونهم وأموالهم، لوفور عقله، ولما له من الهيمنة على الأسرة بتمامها.

والمرأة وإن كانت شريكة الرجل فى الحياة، ولكن الى حد مخصوص، فإن المقصود الأصلى من النكاح الائتناس، والعفة، وتكثير النوع الإنسانى، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) وقال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» وقال عليه السلام: «تناكحوا تكثروا».

ومن الخطأ فى الفهم أن تفهم مشاطرة المرأة الرجل على عمومها وبكل معناها، وإلا لكلفتْ العمل لتحصيل ما تحتاج اليه أو يحتاج اليه أولادها أوزوجها من النفقة مساعدة الرجل فى ذلك، وهو غير معقول، لما فيه من إخراج المرأة عن استعدادها، ووظائفها فى الحياة: من الحمل، والولادة، وتنظيم البيت، والنظر فى شئونه، وتربية الأولاد بحسب ما يناسب حالها وقدرها.

وأما أن نخلق منها رجلا آخر يكون شريكا للزوج فى أعباء الحياة تمام المشاركة فهو على خلاف المعقول والطبيعة. ومن تأمل قوله تعالى: (ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) سهل عليه التسليم لما ذكرناه بكل وضوح وجلاء.

ويمكن فهم الآيتين بوجه آخر، وذلك أن يحمل قوله تعالى «والوالدات» على خصوص الزوجات ومن فى حكمهن من المطلقات طلاقا رجعيا، ويحمل قوله تعالى: «يرضعن» بمعنى الأمر الذى للوجوب، كما هو الأصل فى صيغة الأمر، ويخص قوله

تعالى فى سورة الطلاق : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » بالمطلقات طلاقا بائنا .
فيصير مفاد الآيتين هكذا :

(١) يجب الإرضاع على الأم إذا كانت زوجيتها باقية ، أو كانت مطلقة طلاقا رجعيا ، لأنها كالزوجة .

(٢) لا يجب الإرضاع على المطلقة بائنا ، فإن أرضعت فلها الأجر .

ربما يقال : حمل الأمر فى قوله تعالى : « يرضعن » على الوجوب يتنافى هو وقوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » فإن الرزق والكسوة أريد بهما الأجرة فى مقابلة الإرضاع ، ولو كان واجبا على المرأة ما استحقت أجرا فى مقابلته .

وجوابا عن ذلك نقول : الظاهر أنه لم يرد من الرزق والكسوة الأجرة ، وإنما أريد بهما نفقة الزوجة الواجبة لها فى مقابلة الاستمتاع بها ، بدليل التعبير بالرزق والكسوة دون الأجرة ، وبدليل قوله تعالى : « بالمعروف » كما هو الشأن فى نفقة الزوجية ، فإنه يرجع فى تقديرها الى العرف وما يناسب حال الزوجين ، ولا كذلك الأجرة على عمل ما ، فإن الرجوع فى تحديدها الى ما يتفق عليه الطرفان ، فكأنه تعالى يقول : على الوالدات إرضاع أولادهن ولا يكلف الوالد شيئا لهن فوق ما هو واجب عليه بمقتضى عقد النكاح من النفقة والكسوة بالمعروف .

الى هنا ظهر ما قررناه من وجوب الإرضاع على الزوجة ومن فى حكمها .

وأما عدم وجوبه على المطلقة طلاقا بائنا ، فيكاد يكون صريح الآيات فى سورة الطلاق ، لأن الله تعالى قال هناك : (وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) ومعلوم أن الحامل متى وضعت الحمل صارت بائنا ، إذا كان طلاقها فى الأصل رجعيا ، ومثلها البائن من أول الأمر . والإرضاع بعد وضع الحمل ، فالتى فرض الله لها الأجرة فى مقابلة الإرضاع

هى من بانت بوضع الحمل ، أو من كانت بائنا من حين الطلاق ، فحينئذ كل بائن إذا قبلت إرضاع ولدها فلها الأجرة .

ولعل السر فى وجوب الإرضاع على الأم أن الولد فلذة كبدها وقد تحملت الآلام فى حمله وولادته ، فلا ينبغى تركه بعد هذا لشفقة الغير وعطفه ، بل يكون عليها إرضاعه مجانا بدون أن تنتظر الحصول على أجر فى مقابلته . وإنما اختص الوجوب بالزوجة ومن فى حكمها — وهى المطلقة طلاقا رجعيا الواجبة نفقتها على المطلق مدة العدة — دون المطلقة بائنا ، لأن الأخيرة مكلومة الفؤاد من ألم الفراق ، وعلى أهبة الاتصال بزوج آخر قد يعيد لها ما فقدته من الهناءة والسرور ، فكان من الحرج إلزامها بالإرضاع وإطالة مدة التأيم عليها .

نعم إذا اختارت أن تكون مرضعة لأولادها فلها ذلك ، وإذاً يكون لها الأجرة . والله أعلى وأعلم .

محمد عبد الفتاح العنانى محمد يوسف البربرى
بكلية الشريعة الاسلامية بكلية الشريعة الاسلامية

أحكام فى صلاة الجمعة والبيع

وورد من أحد قراء المجلة السؤالان الآتيان :

١ — بلاد كبيرة يجمع أهلها سوق واحد وقاض وحاكم واحد ، وبالبلاد قرى متعددة ، وفى كل قرية مسجد جمعة ، وفى بعض الأيام حضرت صلاة الجمعة فى قرية وفى مسجدها من أهلها عشرة رجال غير الامام ورجلان من قرية ثانية ، وبين القريتين نحو نصف ميل فيه بساتين غير مسكونة ، فهل يتم العدد المطلوب حضوره فى صلاة الجمعة بمن حضر من أهل القرية الثانية لكون الجميع من بلاد واحدة ، أولا يتم بهم العدد المطلوب لكونهم من قرية ثانية ولا يرتفقون ببعضهم ارتفاقا خاصا كطلب النار والماعون وما أشبه ذلك ؟

٢ — رجل اشترى من غيره بضاعة بألف فرنك مثلا الى أجل أربعة أشهر ،وعند تمامه طلب منه الخلاص فقال من عليه الدين لربه : بعنى بضاعة ثانية تساوى الآن ألف فرنك الى ثلاثة أشهر بألف ومائة لنبيعها ونخلص بها دينك السابق . أفيدونا . الجواب على مذهب إما منا مالك رحمه الله .

الجواب عن السؤال الاول :

ينبغى فى الإجابة عن هذا السؤال التعرض لأمرين إتماما للفائدة :

الأول — هل تصح الجمعة فى كل مسجد من مساجد القرى المتقاربة ؟

الثانى — هل تنعقد بمن هو خارج عن قريتها ؟

فعن الأول : مذهب مالك — رضى الله عنه — عدم صحة الجمعة فى كل مسجد من مساجد القرى المتقاربة ، وإنما تصح فى مسجد واحد فقط وهو العتيق . والعتيق ما أقيمت فيه الجمعة أولا أى قبل غيره فى أول مرة وإن تأخر أداؤها فيه عن غيره بعد المرة الأولى . وكل من كان متوطنا بقرية خارجة عن القرية التى فيها المسجد العتيق يجب عليه السعى لأدائها فيه ، متى كانت قريته لا تبعد عن قرية العتيق بأكثر من ثلاثة أميال وثلث ، وكل جمعة أديت فى غير العتيق فهى باطلة . ويستثنى من ذلك ثلاث حالات :

(١) أن يضيق العتيق عمن يغلب حضوره لصلاتها ولا يمكن توسعته .

(٢) أن يخشى من اجتماع الناس فى العتيق حدوث فتنة .

(٣) أن يحكم حاكم بصحتها فى غير العتيق إذا كان الحاكم ممن يرى جواز تعدد الجمعة فى البلد الواحد وما فى حكمه .

ففى هذه الحالات يجوز تعدد الجمعة ، ولكن بقدر الحاجة فيما عدا الحال الأخيرة . ولعل السر فى عدم جواز تعدد الجمعة إلا فى هذه الأحوال المستثناة ، أن الحكمة فى مشروعيتها تقوية الرابطة بين المسلمين ، فكلما كان الاجتماع فى مسجد واحد كان

حصول ذلك المعنى أكمل وأتم . نعم إذا دعت حاجة الى التعدد فإنه يجوز ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ، ولأن الدين يسر لا عسر (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) .

وعن الثانى : لا تنعقد الجمعة إلا بحضور اثنى عشر رجلا غير الإمام . ويشترط فى الاثنى عشر شروط ، منها : أن يكونوا متوطنين بالقرية التى تقام فيها الجمعة ، فلو حضرها أقل من هذا العدد فلا تصح ولو تم بمن هو متوطن بقرية أخرى — كما فى صورة الاستفتاء — ولا عبرة بقربها جدا من قرية الجمعة ، ولا بكون البساتين بينهما ، ما دامت كل قرية تستغنى بنفسها عن الأخرى .

الجواب عن السؤال الثانى :

مذهب مالك — رضى الله عنه — أنه يحرم فسخ الدين فى الدين ، ومن صوره أن يكون لشخص على آخر ألف فرنك مثلا قد حل أجلها وعجز المدين عن القضاء فيتفقا على تأخيرها الى أجل آخر نظير زيادة يلزم بها المدين كعشرة فى المائة . وهذا هو ربا الجاهلية بعينه ، المحرم بالكتاب والسنة والإجماع . ومن قواعد المذهب أن كل عقد أدى الى محرم لا يجوز الإقدام عليه متى كان ذلك المحرم مما يكثر قصده للمتعاقدين بحسب العادة ، كبيع يفضى الى فسخ الدين فى الدين ، أو الى اجتماع البيع والسلف ، الى غير ذلك مما هو مبسوط فى المذهب بماله من أحكام وتفاصيل . ومن المعلوم أن الغالب فى المعاملات الجارية بين الناس الآن إنما هو القصد الى استثمار الأموال ، ولا يبالى بعد هذا بعدم موافقتها لقواعد الشرع الشريف .

لذلك نرى أن البيع المسئول عنه يتهم فيه المتبايعان بالقصد الى محرم ، وهو تأخير الألف الفرنك التى عجز المدين عن قضائها الى ثلاثة أشهر نظير زيادة المائة ، وأنهما يريدان عقد هذا البيع كمبرر لقصدهما ، فرارا من صريح الربا ، و حينئذ يكون هذا العقد محرما لا يجوز الإقدام عليه ؟

محمد عبد الفتاح العنانى — بكلية الشريعة الاسلامية
محمد يوسف البربرى — بكلية الشريعة الاسلامية

ايمان العلماء

للفيلسوف الكبير (با كون) الانجليزى مؤسس الدستور العلمى كلمة يتمثل بها العلماء كلما رأوا شذوذا من بعض الباحثين فى الطبيعة عن الإيمان بالله ، وهى قوله : « علوم الطبيعة إذا رشفت بأطراف الشفاه أبعدت عن الله ، وإن شربت عبا أوصلت اليه » .

نعم : من الباحثين فى الطبيعة من يقفون مع الظواهر ، ويعمون عن القوى الباطنة التى تحركها ، وتقودها الى الأغراض التى خلقت لها ، ولقد يعتريهم من الزهو والخيلاء ما يوهمهم أنهم أدركوا العلل الأولية لتلك الظواهر ، وهم فى الواقع لم يروا إلا مظاهرها . فوقع كثير منهم فى الضلال ، فملأوا الجواء بمزاعم باطلة ، ذهبوا بها مذاهب لا تتفق والبدهيات التى لا يجوز أن يعمى عنها من له بصر نافذ ، وعقل ناضج ، حتى لوثوا العلم الطبيعى بما هو منزه عنه فى الحقيقة من التهم التى ليس لها أساس .

وقد كان أكثر ما مُنوا بهذا الداء الناجس من قصر النظر فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، وكان أكبر ما رمى بهم فى هذه الحمأة قصور العلم الطبيعى فى الأجيال التى كانوا عائشين فيها .

من أمثلة ذلك ما نشره فى سنة (١٧٧٠) الأستاذ (البارون هولباخ) الألمانى فى كتابه (نظام الطبيعة) وهو قوله : « إن العالم كله مادة وحركة ، وسلسلة أسباب ومسببات لا تنتهى عند حد ، وإن المادة والحركة أزليتان ، وإنه ليس فى الطبيعة أمر عجيب إلا للذين لم يدرسوها حق دراستها ، وإن الحسن والقبح اعتباريان فى الوجود مثل النظام والاتفاق فيه » .

فالناظر فى هذا القول من الذين لهم إلمام بالعلم الطبيعى الحديث ، وبما جد من المكتشفات فيه ، يدرك لأول وهلة أن السبب فيه تسرع (البارون هولباخ) فى الحكم

على ما لم يكن يعلم من حقيقة المادة وحقيقة نظام الكون ، فقد استند فى إلحاده الى ما كان يذهب اليه علماء عصره من أن المادة والحركة أزليتان ، وقد تحطم هذا الرأى فى القرن العشرين ، وثبت أن المادة ليست بأزلية ، وأنها تؤول الى قوة محضة تلحق بقوى الكون العامة ، وأنها ليست مؤلفة من جواهر صلبة ولكن من حركة زوبعية حاصلة فى الأثير ، كما قررنا ذلك فى مقالة سابقة هنا . فالذى دعا البارون هولباخ لقول ما قاله هو الجهل . والاعتماد على الجهل فى مثل هذا الموطن الدقيق ليس من التحفظ الخليق بأهل التثبت . وأدخل فى الجهل من هذا قوله : إن الطبيعة ليس فيها من عجيب إلا للذين لم يدرسوها . وسنسرد عليك من أقوال أئمتها المعاصرين بعد ما اكتشف من ظواهرها ما اكتشف أنها من العجب بحيث تحتقر علومهم بإزاء أصغر حوادثها .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما نشره الفيلسوف (ديدرو) الفرنسى فى كتابه (المادة والحركة) حوالى سنة (١٧٥٠) وهو قوله : « إن ما نراه من خروج كائن حى من البيضة بواسطة الحرارة وحدها ينقض كل تعاليم اللاهوتيين ، ويهدم كل هيا كل الأرض » .

فكان يتخيل الفيلسوف (ديدرو) أن ذلك الكائن الحى يتولد فى باطن البيضة تولدا ذاتيا بوساطة الحرارة ، ولوعاش الى أن نبغ الأستاذ (باستور) الفرنسى لما قال مثل هذا القول الذى خيل اليه أنه ينقض جميع التعاليم اللاهوتية ، ويهدم جميع معابد الأرض . فقد أثبت باستور هذا أن الحى لا يتولد من حى ، وأن التولد الذاتى محال . فإذا كان الحى يخرج من البيضة فقد ثبت وجود جرثومة حية ميكروسكوبية فيه تنمو بالحرارة المناسبة ، وتغتذى مما حولها من المواد المشمولة فى البيضة حتى يتم تكونها ، ثم تخرج فتسعى لحياتها مع مثيلاتها اللاتى من نوعها .

فهذا القول أيضا قد ورطه فيه الجهل بهذه الحقائق العلمية التى يعرفها اليوم تلاميذ المدارس . فلو كان تحلى بفضيلة التثبت لما ألقى بمثل هذه التأكيدات جزافا لتصبح خرافة من الخرافات المضحكة فى أجيال أخرى تأتى بعد الجيل الذى نشأ فيه .

وقد وقع فى مثل هذا التسرع علماء من الذين خلد تاريخ الفلسفة أسماءهم ، ومن أمثلهم الفيلسوف الكبير (أوجست كومت) الفرنسى واضع الفلسفة الوضعية وعلم العمران . فقد ذكر فى عرض كلامه على ما يمكن الانسان اكتشافه وما لا يمكن ، أن من المحال أن يكتشف الإنسان المادة التى تتركب منها الكواكب . فاتفق أنه بعد ما توفى بخمس سنين فقط اكتشف أحد الطبيعيين آلة التحليل الطيفى المسماة بالسبكتروسكوب ، فأثبت بها أن المواد الداخلة فى تركيب الأجرام السماوية هى المواد نفسها الداخلة فى تركيب الأرض ، أى أنها الصوديوم والبوتاسيوم والمغنيسيوم والحديد والرصاص الخ .

ويحسن بنا هنا أن نورد بعض أقوال علماء الطبيعة المعاصرين لنا فى سمو نظام الوجود ، وفى عجزهم عن إدراك القوى التى تعمل فيه ، وفى حيرتهم فى فهم عجائبه وإبداعاته ، وهى أقوال يجب أن توضع حيال أقوال أولئك الملحدين الذين تقدموهم ، وينقلها بعض الذين يلفون لفهم من الأغرار اليوم .

وما يدرون أنهم يحيون بذلك عهدا أراد الله أن لا يعود بعد أن منح الناس من البينات العلمية مالا قبل لأحد على طمسه . قال الأستاذ (بيو) فى كتابه (شذرات علمية وأدبية) :

« بقدر ما أتدبر فى نظام هـذا الوجود وسعته ، وفى جملة عجائبه ، أعجب من هذا الإبداع المدهش ، وأرانى عاجزا عن تعليله وإنى لأتجاسر على القول بأن تلك التفسيرات الناقصة ، والتعليلات الكاذبة أو المبهمة التى يريد أن يقنعنا بها بعض الكتاب المعاصرين باعتبار أنها مدارك سامية ، لا تظهر مجحفة وتافهة إلا إذا قوبلت بالطبيعة نفسها ، وإن الذين تشرفوا بإدراك بعض جمالها وتذوقوه وجدوا أنفسهم مرغمين على أن يعتبروا الذين يريدون أن يشوهوا هذا الجمال بتدليسهم القبيح كفارا ملحدين » .

وقال الفيلسوف الانجليزى المشهور (ستوار ميل) كما نقله عنه (اللورد أفبرى) فى كتابه ثمرة الحياة :

« تبدو لنا الحياة الإنسانية محاطة بغوامض الأسرار ، فترى دائرة تجاربنا الضيقة كأنها جزيرة صغيرة ضالة فى بحر لا نهاية له يرفع إحساساتنا ، ويساعد قوتنا التصورية بعظمته وجلاله ، ويزيد ذلك السر غموضا أن مجال حياتنا الدنيا ليس كجزيرة فى فضاء غير متناه فحسب ، ولكن فى زمان غير متناه أيضا »

وقال العلامة (أوليفر لودج) عميد جامعة برمنجهام فى انجلترة من خطبة خطبها فى جمعية تقدم العلوم :

« إن الذى نعلمه ليس بشىء فى جانب ما يجب علينا أن نتعلمه . قد يقول ذلك بعضهم بغير عقيدة راسخة ، أما بالنسبة لى أنا فهى الحقيقة الحرفية . ثم إن إرادة قصر مباحثنا على المجالات التى افتتحناها نصف افتتاح ، يعتبر خيانة لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث ، وتخييبا لأقدس آمال العلم » .

وقال الأستاذ (كاميل فلامريون) الفلكى الفرنسى المشهور فى كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« ليس لنا علم مطلق بشىء من الأشياء ، فكل معارفنا نسبية أى ناقصة وقاصرة . فالعقل العلمى يوجب علينا أن نتحفظ فى إنكاراتنا ، ولنا الحق فى أن نكون متواضعين ولنقل مع (أراغوا) : « إن الشك لدليل على التواضع ، وما أضر بتقدم العلوم إلا نادرا » ، ولكننا لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن الانكار المطلق .

« إن الذين يقولون حاشانا أن نصدق هذه المستحيلات ، لالا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة وهذه النواميس معروفة ، هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون فى رسمهم الى جبل طارق هذه العبارة :

(هنا تنتهى الدنيا) ، ولم يعرفوا أن فى تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون فى ذلك الحين .

« ألا إن كل ما نعرفه من العلوم الإنسانية يمكن أن يشبه بجزيرة صغيرة ، صغيرة للحد الأقصى ، محاطة بإقيانوس لا ساحل له » انتهى .

نقول : إن هذا القدر الكبير من التبصر ما وصل اليه الباحثون فى الكون إلا بعدما تبحروا فى العلم ، وأداهم تبحرهم نفسه الى أنهم لا يزالون لا يعلمون شيئا .

من أحسن ما نسجله فى هذا الباب لأستاذ كبير من أركان العلم العصرى وهو السير (وليم كروكس) الإنجليزى الذى تولى رياسة جمعية العلماء البريطانية قوله فى خطبة له :

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذللت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، قلت : من تلك الصفات اعتقادى الصحيح الراسخ بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا الى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم ، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمى محض »

ألا تعجب بعد هذه الأقوال أن ترى رجالا لا يصلحون أن يكونوا تلاميذ لهؤلاء العلماء يتناولون الكون والكونيات بالإجمال والتفصيل ، ويبتون فى أحكامهم عليها كأنهم وضعوها بأيديهم ؟ ! (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا) .

محمد فريد وجدى

التقوى زينة الصالحين

خرج بعض الزهاد فى يوم عيد وليس عليه جديد ، فقيل له : لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة والناس متزينون ؟ فقال ما تزين لله تعالى بمثل طاعته .

الهجرة النبوية

من أكبر الحوادث فى تاريخ الاسلام هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة مهبط الوحى ، ومشرق ختام النبوة ، الى يثرب ، ملاذ الاسلام ، ومعشش أنصاره ، على أثر اعتراك الحق والباطل ، وطغيان الجاهلية طغيانا دفع بأهلها الى اتخاذ أفظع الوسائل للقضاء على الاسلام ، والتعفية على معالمه .

وإنا لآتون على لمعة من تاريخ هذه الهجرة ، ثم معقبوها بما يجب أن يعرف من أثرها فى تقوية أدلة الاسلام ، وحياطة آيته الكبرى الخالدة :

لما اشتد اضطهاد قريش للمسلمين كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب فيفضى اليهم بأنه رسول من الله الى الناس كافة ، وأن نشر الدين الذى أتى به يستدعى أن ينتدب قوم للذياد عنه وحمايته ، ثم يسألهم هل فيهم من يتحمل هذا العبء فيكون لهم ثواب الدنيا ونعيم الآخرة . فكانوا ينصرفون عنه قائلين : قوم الرجل أحق بذلك منا ، حتى قيض الله له رجالا من أهل يثرب (المدينة) عقلوا دعوته وفهموا مغزاها ، فوعدوه أن يفاتحوا بذلك قومهم وضربوا له موعدا العام المقبل . فلما جاء موسم الحج حضر منهم نحو سبعين رجلا ، فتواعدوا أن يجتمعوا ليلا فى بعض شعاب مكة حتى لا يشعر بهم أهل مكة ، فاجتمعوا وبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فشرح الله صدورهم له ، وعاهدوه على أن ينصروه ويؤيدوه بأموالهم وأنفسهم ضد الأبيض والأحمر ، وطلبوا اليه أن يهاجر اليهم .

فلما وثق النبى صلى الله عليه وسلم من صدقهم أمر أصحابه أن ينتقلوا الى المدينة مستخفين ، فأخذوا يتسللون من مكة فى خفية حتى لا يشعر بهم المشركون فيمنعوهم ، فكان أول من وصل الى المدينة مصعب بن عمير بارسال من النبى صلى الله عليه وسلم ،

ثم تلاه عبد الله بن عبد الأسد المخزومى . ومن النساء أم سلمة زوجة عبد الله المذكور [1] ثم تلاها عمار وبلال وسعد . وتتابع سواهم ، فنزلوا على أهل المدينة فآووهم وواسوهم . ثم قدم المدينة عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين راكبا . وكان هشام ابن العاص واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه ، وقال له : تجدنى أو أجدك فى محل كذا ، ففطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة .

قال على بن أبى طالب : ماعلمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا مستخفيا إلا عمر ابن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى أسهما فى يديه ، واختصر عنزته (أى علقها عند خصره ، والعنزة هى الحربة الصغيرة) ومشى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة وهو يقول : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أى الأنوف)من أراد أن تثكله أمه (أى تفقده) فليلقنى وراء هذا الوادى . قال على: فما تبعه أحد .

واستمرت المهاجرة حتى لم يبق فى مكة غير النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعلى ونفر من المستضعفين .

فلما رأى ذلك أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام [2] شخصا الى المدينة فكلما عياش بن أبى ربيعة ، وكان أخاهما لأمهما ، وابن عمهما ، فقالا له : إن أمك نذرت ألا تغسل رأسها ، ولا يمسه مشط ، ولا تستظل من شمس حتى تراك وأنت فى دين منه البر بالوالدين ، فارجع الى أمك واعبد ربك كما تعبده على دينك الجديد لتنقذ والدتك مما وقعت فيه . فرقت نفس عياش وصدقهما . فقال له عمر : ما يريدان إلا فتنتك عن دينك فاحذرهما . فرد عليه عياش بقوله : أبر بأمى ولى هناك مال آخذه ،

---

(١) عبد الله بن عبد الاسد المخزومى زوج أم سلمة قبل النبى صلى الله عليه وسلم وهو أخوه من الرضاع وابن عمته «ص٥٥ السيرة النبوية لاحمد زينى دحلان» : (٢) الحارث بن هشام أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه

وخرج . فلما بعدوا عن المدينة أوثقاه كتافا وضربه كل منهما مائة جلدة ، ثم دخلوا به مكة فألقوه فى الشمس ، وحلفت أمه أن لا يخلى عنه حتى يرجع الى ما كان عليه . ثم حبس مع هشام وغيره مقيدين بالحديد . فنجا منهم الوليد بن الوليد وهاجر الى المدينة ، ثم عاد الى مكة مستخفيا واحتال حتى خلص عياشا وهشاما من الأسر .

ولما أراد صهيب الهجرة [1] خرج وراءه رجال وأرادوا القبض عليه ، فنزل عن راحلته وانتثل ما فى كنانته من سهام ثم قال : يامعشر قريش قد علمتم أنى من أرماكم رجلا وايم الله لا تصلون الى حتى أرمى بكل سهم من كنانتى ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى شيء منه ، ثم افعلوا ماشئتم . وإن أردتم غير هذا دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى . فقالوا : نعم . فدلهم على ماله وتركوه .

فلما لم يبق فى مكة غير النبى صلى الله عليه وسلم وعلى وأبى بكر والمستضعفين المعتقلين عند المشركين ، استأذن أبو بكر فى الهجرة ، فلم يأذن له قائلا : لعل الله يجعل لك صاحبا . فطمع أبو بكر فى أن يكون ذلك الصاحب هو رسول الله نفسه ، وسأله : أترجو يارسول الله أن يأذن لك الله فى الهجرة ؟ قال : نعم . فأخذ أبو بكر يعد لنفسه وللنبى صلى الله عليه وسلم راحلتين نجيبتين ، وكان يعلفهما ويعتنى بهما ليصلحا لهذه المهمة .

فلما رأت قريش أنه قد صار للمسلمين ركن يأوون إليه ، وسند يعتمدون عليه اجتمعوا فى دار ندوتهم ، وهى دار قصى بن كلاب ، وكان لها باب الى المسجد أعدت للاجتماع والمشاورة ، وكانت قريش لا تمضى أمرا إلا فيها ، وكانوا لايدخلون فيها غير قرشى إلا إذا جاوزت سنه أربعين سنة . فاجتمع فيها للتشاور فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم نحو مائة من شيوخهم وأولى الأمر فيهم من بنى عبد شمس و بنى نوفل و بنى عبد الدار ، و بنى أسد ، و بنى مخزوم ، وبنى جمح ، و بنى الحارث ، و بنى كعب ، وبنى تيم ، وبنى عدى ، وغيرهم ، فافتتح الكلام رجل منهم فقال : إن هذا الرجل يعنى (محمدا)

(١) أصله عبد رومى أسلم وخرج مهاجرا .

قد كان من أمره ما رأيتم وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا .

فقال أبو البحترى بن هشام : نعم وأنا أرى أن تعتقلوه وتكبلوه بالحديد ، ثم تتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله .

فقال شيخ كان بالمجلس ، كأنه من أهل نجد : ما هذا برأى ، والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلا تشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا برأى ، فانظروا فى غيره .

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامرى : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالى أين ذهب .

فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم ، ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه ، أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، ويتفرق دمه فى القبائل ، فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فنعقله لهم (أى نعطى ديته لهم) .

فقال الشيخ النجدى : القول ما قال ، لا أرى غيره . فأجمع رأى قريش على قتله ، وتفرق زعماؤها على ذلك ، واعتزموا أن يبادروا بتنفيذه .

فأوحى الله الى النبى صلى الله عليه وسلم ما أجمعوا عليه من أمرهم ، فاحتاط له . فقرر أن لا يبيت فى داره ، وأن يجعل فى سريره غيره . ففاتح عليا بما عزم عليه من الهجرة

مع أبي بكر فى غفلة من المشركين ، وأمره أن يبيت على فراشه فى بردته التى كان اعتاد أن يتغطى بها ، ثم أن يلبث بمكة حتى يؤدى الودائع التى كانت لديه الى أصحابها ، ثم يلحق به . وكان الناس لشهرة النبي صلى الله عليه وسلم بالأمانة يودعونه أموالهم ونفائسهم فيجعلها لديه تحت طلبهم .

فلما جن الليل وأقفل كل إنسان بابه احتشدوا حول داره مدججين بالسلاح ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد لزم دار أبي بكر تلك الليلة يستعد للخروج سرا . ونام عليّ فى سريره وتغطى ببردته ، فكان المحاصرون ينظرون من خصاص الباب (أى شقوقه) فيجدون عليا فوق فراشه فيظنون محمدا ، فأخذوا يأتمرون أيهم يدخل اليه فيوثقه كتافا ، ثم اتفقوا أن يتسوروا عليه الجدار ، ففعلوا . فقام عليّ يدفعهم ، فلما رأوه سقط فى أيديهم . فسألوه أين صاحبك ؟ فقال لهم علي : لا أدرى ، فضربوه واستاقوه الى المسجد ، فحبسوه به ساعة ثم خلوا سبيله .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فلبث فى دار أبى بكر يتجهز للسير ليلا ، وأتى أبو بكر بالبعيرين فركب أحدهما وركب الآخر صاحبه ، وخرجا جادين فى السير حتى انتهيا الى غار يقال له غار ثور فتواريا فيه ، وكان موحشا لا يجرؤ أحد أن يدخله تحاميا مما عسى أن يكون فيه من الحيوانات السامة .

فلما أصبح المشركون وعلموا أن النبي وأبا بكر قد خرجا تتبعوهما ، ومعهم قائف يقص أثرهما حتى انتهوا الى ذلك الغار ، فجعل بعضهم ينظر فيه ، وبعضهم يطوف حوله ينظر هل تجاوزاه ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يدخله خشية أن يكون فيه من الأفاعى والعقارب مايورده حتفه ، ثم لما أعياهم الأمر انصرفوا عنه .

لبث النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار ثلاث ليال فى حالة لم تتفق لبشر قبلهما ، حتى كاد ييأس أبو بكر من الخلاص ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يهدىء روعه ويقول له كما رواه عنه الكتاب الكريم : « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا »

وكان يبيت معهما فى الغار عبد الله بن أبى بكر ، وكان غلاما فطنا حاذقا ، فكان يدلج من عندهما بسحر حتى يأتى مكة فيصبح مع قريش كبائت فيها ، فيتسمع أخبارهم حتى إذا جن الليل لحق بهما فأخبرهما بما سمع به ، ويقضى الليل معهما ، ثم يعود بغلس الى مكة ، فعل ذلك طوال مكثهما بالغار ، فلم يفطن اليه أحد .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى غنما لسيده ، فكان يروح عليهما بالغنم كل ليلة فيحلبان ويشربان ، ثم يسرح بكرة فيصبح فى رعيان الناس فلا يفطن له أحد ، وكان عامر هذا مملوكا لبعض المشركين ، فلما أسلم والنبى بمكة كان مولاه يعذبه عذابا نكراً ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه فيمن أعتقهم من مسلمى العبدان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استأجر قبل خروجه من مكة دليلا هو عبد الله بن أريقط ، فأتاهما براحلتين صبح ثلاث ، فركباهما وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما فى الطريق ، فكان أبو بكر يردفه خلفه تارة ، ويتعاقب معه فى الركوب تارة أخرى . فأخذ الدليل بهما طريق الساحل ، ثم أجازهما حتى عارضا الطريق . وكان أبو بكر إذا سأله سائل ممن يمر بهم من معارفه عن الذى معه ، يجيبه بأنه هاد يهديه الطريق .

وبلغ أهل المدينة أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من مكة مهاجرا إليهم ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه فى ضاحيتها لا تردهم إلا الهاجرة ، فانقلبوا يوما وقد طال انتظارهم وإذا رجل من اليهود صعد على محل مرتفع لأمر ينظر إليه ، فبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لابسين ثيابا بيضاء كساهم إياها الزبير وطلحة وقد صادفاهم فى الطريق ، فلما رآهم ذلك اليهودى نادى بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم ، أى حظكم الذى تنتظرونه ، فثار الناس الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وهما فى ظل نخلة كانت فى ضاحية المدينة ، وكانوا زهاء خمسمائة ،

فركبا وعدلا ذات اليمين الى قباء فى محلة بنى عمرو بن عوف ، فنزلا عند شيخها كلثوم ابن الهدم ، وقيل سعد بن خيثمة ، وبنو عمرو هؤلاء من بنى الأوس .

وكان تعريج النبى صلى الله عليه وسلم على قباء ليصلى الجمعة التى أدركته وهو سائر . فما حفظ من خطبته فى ذلك الموطن قوله : « فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجده فبكلمة طيبة فإنها تجزئ الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ثم ركب متوجها الى المدينة وهو مردف أبا بكر رضى الله عنه خلفه إكراما له وتواضعا لله جل وعز حتى دخل المدينة .

قال البراء بن عازب : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس بن مالك : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أضاء منها كل شىء وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير (أى الأسطحة) يهتفن بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

فكان النبى صلى الله عليه وسلم كلما مر بمحلة من محلات الأنصار يدعونه للنزول عندهم فيشكرهم ، وما زال سائرا حتى أناخ عند بيت أبى أيوب الأنصارى ، وهو من بنى النجار أخوال جده عبد المطلب .

هذا حديث عن الهجرة المحمدية ، والهجرة على إطلاقها كانت فى كل أدوار التاريخ مظهرا من مظاهر الصراع بين الحق والباطل ، فقد يطغى هذا الباطل ، وتشتد صولته ، ويتفاقم خطره ، حتى يخيل لرائيه أنه قد تغلب على خصمه ، فلا يلبث أن يكر الحق عليه فيرديه قبل أن يفيق من سكرة وهمه .

هكذا كان الشأن فى كل زمان ومكان ، وعلى هـذه السنة الإلهية نفسها كانت العاقبة للاسلام : (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) .

للمدافع عن الاسلام ضد سفسطات المستشرقين ومقلديهم مدد برهانى ناحيته الهجرة ليس فى وسع أدهى محاولة كلامية أن تقف فى سبيله ، وذلك أن بعض هؤلاء المستشرقين لما هالهم نجاح النبى صلى الله عليه وسلم فى المهمة التى ندبه الله لها فى بيئة من أعصى البيئات على مثلها ، زعموا أن قريشا كانت قبيل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فى دور نهضة اجتماعية ودينية ، وأن دعوة النبى صادفت هذا العهد فنجحت نجاحا لايحدثنا التاريخ عن مثله ، فاحتاج المدافع عن الاسلام أمام هذه الشبهة الى دليل محسوس يدل على فساد هذه السفسطة ويكون من القوة ووضوح الدلالة بحيث لايدع للزخارف الكلامية سلطانا على العقول .

فوجد فى الهجرة هذا الدليل المحسوس ، فان قوما يلبث فيهم مصلحهم الاجتماعى ثلاثة عشر سنة يدعوهم الى تحكيم العقـل فيما يعبدون وما يعتقدون ، والقيام على سنة الحق فيما يعملون وما يقصدون ، ضاربا لهم الأمثال ، ومستشهداً التاريخ وما جريات الأحوال ، قلنا : إن قوما على هذا النحو من الجمود على القديم الرث ، والمقام على الباطل المحض ، لجـديرون بأن لا يعتبروا فى دور نهضة دينية أو اجتماعية ، بل لخليقون بأن يكونوا مضرب الأمثال فى العض بالنواجذ على التقاليد البالية ، والاستنامة المطلقة للأباطيل الموروثة .

فبطلت بذلك تلك الشبهة التى كان يثيرها أعداء الاسلام للغض من هذه المعجزة الخالدة لخاتم المرسلين ، وكانت الهجرة النبوية وقاء لهذه المعجزة الـكبرى من أن تتناولها أقلام المشككين ، وتطفىء من نورها أفواه المارقين ، والله غالب على أمره ؟

محمد فريد وجدى

ذكرى الهجرة النبوية

القصيدة التي أنشأها فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح بدوى المدرس بالمعهد الأزهرى وألقاها فى الحفلة التى أقامتها المشيخة بالجامع الازهر الشريف فى مفتتح المحرم سنة ١٣٥٣ هـ .

أضاء فاستخرج الدنيا من الظلم ... نور من الله فى نور من النسم
ونفحة من حياة الحق خالصة ... فاضت فأحيت بنى الانسان من عدم
وقبسة من جمال الله زان بها ... أرض الحجاز فكانت روضة الحرم
محمد سيد الدنيا إذا نفقت ... سوق الفضائل والأخلاق والهمم
تبلجت عن جبين الصبح طلعته ... فكشّفت عن جليل الخلق والشيم

* * *

فى معشر لهم فى كل مجهلة ... سوق من الحرب أو سوق من الكلم
طارت بهم فى مهاوى النجم واغتربت ... ضغائن خضبت أحقادها بدم
تصدهم عن مجالى المجد شعوذة ... ألقت عقولهم فى غيهب الظلم
يستوقدون من النيران آلهة ... وينحتون من الأحجار والرُّجَم
فقام فيهم رسول الله منصلتا ... كالسيف يدعو الى التوحيد والحِكَم
لا تعبدوا غير رب واحد أحد ... هو الذى برأ الدنيا من العدم

* * *

ياصيحة هزت الأيامَ فازدهرت ... وأنبتت أى خير نافع عمم
وفتَّحت من علوم الكون أعينها ... كأنها قبل ما أغفت ولم تنم
تضوعت واستطارت صحوة وغدا ... يجرى اليها ذوو الأبصار والفَهَم

السابقون الى الاسـلام يحفزهم شوق الى ورد هذا السائغ الشبم

* * *

فاستكبر الجمع واستغشوا ثيابهم من الحديد وقادوا الخيل فى اللجم
واستصرخوا كل مكروه ومظلمة واستنصروا كل بغى معتد أثم
وقطعوا لك أرحاما مُوَشَّجة وكنت فيهم لذًا قربى وذا رحم
تغريهمو نخوة بالكفر جاهلة تلقى الخلائق منها شر مقتحم
إن الخفافيش إن تُلْفِ الظلام تطر فيه وإن تظهر الأنوارُ تنعدم

* * *

فلت تطالب بالحسنى هدايتهم سرا وما الطيب فى سر بمنكتم
يادار (أرقم) كم شاهدت معجزة من الرسول وكم شاهدت من عظم
عَهْد الأراقم أن السم يسكنها ودار أرقم فيها البرء من سقم
فجمّعوا لك ما شاءت غوايتهم ودبروا لك ما اسطاعوا من التهم
السحر والشعر أو جِنٌّ يعلمه أو الكهانة بالأفلاك والنجم
بل السموات مَهْداه ومَرْشَدُه وفى السموات مجرى اللوح والقلم

* * *

يُبَيِّتون وعين الله ساهرة ترعاك والله يحمى كل معتصم
سلّوا السيوف وقاموا عصبة ندبا بباب بيتك فى داج من الظلم
أيهجمون وهذا السيف منصلت أم ينظرونك حتى الملتقى بهم ؟
فيم التردد إلا أن باطلهم سل العزيمة واستولى على الهمم ؟
الحق يعلو . يد الرحمن ترفعه والظلم إن قيل هذا الحق لم يقم

* * *

ضاقوا عن الرشد ذرعا فالتمست له أرضا سواهم وسست الأمر بالحكم

نم يا على مكانى لا تخف ضررا ... تَسَجَّ بالبردة الخضراء واعتصم
واردد على الناس من بعدى أماناتهم ... إن الرسول لأوفى الناس بالذمم

* * *

فداك أمى أبى روحى وكلهمو ... فداك ياخير مبعوث الى الأمم
أنام ملء جفونى غير مكترث ... فقولك الحق لى لا ضير ثَمَّ نم
وأىَّ يوم أخاف الموت مضطربا ... وأرهب الحتف يلقانى على أَمَم؟
إن كان قُدِّر فى يومى فلا هرب ... ولا فوات ولا منجا لمنهزم
وإن يكن غير مقدور على جسدى ... فكيف أهرب مما ليس من قسمى؟
الله أكبر هذا منطق نسجت ... أمشاجَه قوةُ الايمان بالحِكَم
إنى هنا يارسول الله، فانطلقت ... ملائك الله فى رعياه كالحشم
يقول مولى الموالى ياملائكتى ... هذا على وهذا موقف الكرم
إنى أباهى به الأملاك فانطلقوا ... لتحرسوه من الأعداء فى الظلم

* * *

وقمت تخرج لا نِكْساً ولا وَجِلا ... وتنثر الترب رغما فى وجوههم
ناموا وقوفا؟ لئن ناموا لقد وقعوا ... لكنهم لبثوا ساقٌ على قدم
(يس) كانت عليهم سكرة هبطت ... فبدلت كل طرف مبصر بِعَمٍ
لا نور فى العين يهديها ويرشدها ... نور الرسالة غشَّى من عيونهم

* * *

للغار للغار ياصديق، فانطلقا ... والغار أقرب فى رأى الى التهم
إن كنت بالله معتزا وذا ثقة ... فألق نفسك إن البحر كالأُطُم
قَصُّوا الطريق فلما أوشكوا وَدَنَوْا ... عادوا بخيبة واهى العزم منفحم
من يحمه الله يأمن كلَّ كارثة ... ويستظل بأمنٍ فى حماه حَمٍ

يأثانى اثنين لاسيفٌ يُذاد به ولا أُؤَمّل من درع ومن لُؤَم
تقول لا تحزن أنّ الله يمنعنا نعم فاست على غيب بمتهم

* * *

سلُوا سراقة كم ساخت قوائمها فى باطن الأرض صخرا جاثى الأدم
تجرى به فرس كالريح سابقة تكاد تدرك إلا سيد الأمم
وتستطير به فى الجو جائزة ينالها مائة عداً من النعم
قف ياسراقة ، بل يا أرض فابتلعى قوائم الفرس النّهّابة القُدُم
فكان قولك قولا لا مَرَدَّ له وكانت الأرض قيداً غير منفصم

* * *

واسْتَشْهِدوا النعجة العجفاء من كِبَرٍ تكاد تسقط من ضعف على وضم
يا أم معبدٍ ائتينا على عَجَلٍ بما استطعت لأضيافٍ من الكرم
فاسترحمت وأجابت ليس يالهفى عندى من الزاد شىء يرتجى لفم
أنا ونعجتى العجفاء من سَغَبٍ نطوى وننتات جوعا مُحْرِق الضَرَم
قومى اليها فهاتيها مباركةً سينزل الله منها الدّر فى عُقُم
ومس ضرعها كف النبى فما أكدت وَدَرّت بغيث هاطل عَمَم
كف يسبح فيها الصخر معجزة وينبع الماء منها سائغ الطُعَم
وترجع العين للإبصار ثانية من بعد ما قُلعت واضّرجت بدم

* * *

كم معجزات وكم عزم بهرت به يغدو ويرجع فى حرب وفى سلم
حتى توطد للإسلام مأمنه وظلل الناسَ من عرب ومن عجم
وهد للفرس ركنا كان معتسفا وسلّ الروم عرشا كان فى شَمَمِ
وبث بالخير والمعروف دعوته يدعو الى شِرْعةٍ وضّاحة القَسَمِ

هنا لك العز تقوى ، والعلا عمل　　والمجـــد بر وخير للعباد عَمِ
والله معبود كل الناس قاطبة　　والعقل فى ضوء دين غير متبهم

* * *

لعلما ترجع الأيام سيرتها　　ويصعد الدهر بالاسلام للقمم
فى ذمة الشرق عهد فلْيوفّ به　　أن يدعو الناس بالحسنى لدينهم

* * *

وللمليك فـؤاد همـة عرفت　　فى نصرة الدين تغنى القول عن قسم
فى كل مشرق شمس من مكارمه　　تسرى الفواضل مسرى البرء فى السقم
يوفـــق الله مسعاه ويكلؤه　　ويحفظ الله دين الله للأمم

تبعات الغنى والفقر

روى عن ابن المعتمر السلمى قال :

الناس ثلاثة أصناف : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط . فالفقراء موتى إلا من أغناه الله بعز القناعة ، والاغنياء سكارى إلا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير . وأكثر الخير مع أكثر الاوساط . وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء ، لسخف الفقر وبطر الغنى .

وكان الاوزاعى الفقيه المشهور كثيرا ما ينشد :

المال ينفد حله وحرامه　　يوما ويبقى بعد ذاك أثامه
ليس التقى بمتق لالهه　　حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجنى ويكسب أهله　　ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبى لنا به عن ربه　　فعلى النبى صلاته وسلامه

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فان أحسنت رقيتها وإلا فلا تأخذها .

ومعنى هذا الكلام أن فى المال تبعة ، فان أحسنت وضعه فيما يجب أن يوضع فيه ، وإلا فابتعد عنه إلا ما لا بد لك منه .

الجمع بين البنت وامرأة أبيها

فى عصمة رجل واحد

وورد إدارة المجلة ما يأتى :

تزوج رجل امرأة وأنجب منها بنتا ، فتزوجت البنت رجلا ، ثم ماتت أمها فتزوج والدها امرأة أخرى ثم توفى ، أيحل لزوج البنت زواج امرأة أبيها أم لا ؟

زكى عبد الجواد ابراهيم
مدرس بمدرسة كفر المناش — بيا

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

يحل لزوج البنت أن يتزوج امرأة أبيها ، لأن الضابط فى ذلك أننا نقدر إحداهما ذكرا والأخرى أنثى ، فاذا حلت الأنثى للذكر جاز الجمع بينهما ، وإلا لم يجز الجمع . ولا بد أن يكون التقدير المذكور لكل منهما ، فلا يجوز مثلا أن يجمع بين البنت وخالتها ، لأننا لو قدرنا البنت ذكرا لم يجز أن ينكح الأخرى لأنها خالته ، ولو قدرنا الخالة ذكرا لم يجز له أن ينكح الأخرى لأنها بنت أخته .

أما مسألتنا هذه فالتحريم فيها على هذا التقدير ليس إلا من جهة واحدة ، فإن البنت لو قدرت ذكرا لم يحل له نكاح امرأة أبيه ، ولكن امرأة الأب لو قدرت ذكرا لجاز له نكاح الأخرى ، فإنها تكون أجنبية منه . ولا يتصور فى هذا الحال أن تكون بنت زوج ، بل تكون بنت رجل أجنبي .

والمسألة واضحة لا تحتاج الى إطناب . وقد علمت القاعدة فى ذلك .

هل للحسد تأثير فى المحسود

وجاءنا من حضرة محمد محمد نصار بزفيتة مشتول السؤال الآتى :

هل لعين الحاسد تأثير يعود على المحسود ؟ فإن عندنا قوما ينكرون ذلك . نرجو شرح هذا الموضوع شرحا وافيا ، مع إقامة الدليل القاطع من الكتاب والسنة .

ثم ذكر أسئلة أخرى نأتى عليها فى العدد القادم إن شاء الله .

الجواب

نعم للحسد تأثير كبير . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ويدل عليه كتاب الله أيضا . وهو من قبيل التأثير النفسانى الذى لا يتوقف على تلك القوانين المعروفة فى تأثير الأجسام . ومن الغلط البين إنكار كل ما لم يعرف سره ولم يوقف على كنهه . ومن الجهل الفاحش أن ترجع كل شيء الى ما عرفت من نواميس المحسوسات ، وأن تقيس مالم تعلم على ما علمت ، فإن لكل عالم من العوالم أحكاما تخصه .

وقد أمر الله نبيه أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد ؛ ووصى يعقوب صلى الله عليه وسلم بنيه عند ما توجهوا الى مصر ألا يدخلوها من باب واحد وأن يدخلوها من أبواب متفرقة خوفا عليهم من الحسد ، كما عليه جمهور المفسرين ومحققوهم .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » .

والنصوص صريحة فى ذلك ، وهى كثيرة ، وكل شيء لا يؤدى الى قلب حقيقة ولا مصادمة برهان قاطع فهو من الممكنات التى يجوزها العقل . وما أخبر الشرع بوقوعه من ذلك وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره .

وإجمال القول أن قول المنكرين مدفوع بالأدلة المتكاثرة ، وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفا وخلفا ، وبما هو مشاهد فى الوجود .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » . وكان يقول : « كان أبوكما ابراهيم يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق عليهم السلام » .

وقد قالوا إن النفوس الخبيثة التى تقوى فى خبثها ويتأصل الشر فيها بسبب من الأسباب كالرياضة والمجاهدة والمثابرة على خطتها الشريرة مثلا ، يمكنها أن تتسلط على من أرادته بالتوجه التام والعزيمة الصادقة ، الى أن يحصل تأثره بنحو مرض وذبول جسم ، وقد يصل ذلك الى الهلاك . وكما يحصل تأثير جسم عنصرى فى جسم عنصرى كالأدوية والسموم فى متعاطيها ، كذلك يحصل تأثير نفس قوية فى نفس أخرى . وهاهى ذى نفوسنا تؤثر فى أبداننا ، فاذا قويت أمكنها أن تؤثر فى غير بدنها ، كما قرره فلاسفة الاسلام وغيرهم . والأشياء المحسوسة مختلفة الخواص كما هو معروف ، فكذلك النفوس مختلفة أيضا جد الاختلاف .

الخلاصة

والخلاصة أن الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فإنها أقبل للفيض الإلهى فى كل شىء . وكل ما كان من العالم الأدنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الأعلى دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين تأثيرات الأجسام ، فإنها تؤثر فى الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة ولا مجاورة .

وحال الحاسد مع المحسود هو من هذا القبيل ، والحوادث فى ذلك متواترة ، وإن شئت فقل مشاهدة محسوسة . فإن كنت ممن لا ينكر المتواترات ولا يؤول القطعيات ، فانظر كيف يؤثر الحاسد بنفسه الشريرة فى المحسود ، ولو كان من أقوى الأقوياء وأعظم الأشياء ، بمجرد توجهه اليه وانفعال نفسه باستحسانه . وأما تعليل الدكتور رشدى بك

فى كتابه فى التنويم المغناطيسى لذلك بأنه من تأثير الاعتقاد ، فلا يكاد يقرب من الصواب ، فإن الحاسد يؤثر فى الحيوان الأعجم ، وفى النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد . وإن أردت البرهان الحسى على ما ذكرناه من كلام أرباب العلوم الحديثة والمكتشفات الجديدة فطالع ما ينقل عن علماء الا بنوتزم (التنويم المغناطيسى) حتى تعرف مقدار ماوصلت إليه روح المنوم (بالكسر) من التأثير فى المنوم (بالفتح) الذى يكون طوع إشارته فى كل شيء ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار ما استطاع أن يخالف له أمرا أو يعصى له إرادة . بل ذكروا أغرب من هذا ، وهو أنه إذا وقع فى نفسه أن يقتل أحدا بادر المنوم الى قتله من غير أن يأمره بشيء أو يتلفظ له بكلمة . ولا بعد فى هذا فإن النفوس تحس بما فى النفوس ، فاذا أحست به (وقد فرضناها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لإرادتها) لم يكن ما سمعناه عنهم بدعا من العلم أصلا .

وللتنويم المغناطيسى عجائب كثيرة تبكت الماديين وتشهد الروحانيين ، وكلها تؤيد ماجاء فى الكتاب والسنة من عمل الأرواح التى خرقت نواميس المادة وقضت على الماديين: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) .

ويمكن كل إنسان الآن أن يعرف تلك العجائب النفسية بالمشاهدة ، فإنها أصبحت لمس اليد ورأى العين . ولا يمكننا فى هذه العجالة أكثر من هذا .

أسأل الله ألا يجعلك ممن كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه بمنه وكرمه .

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف

الاسلام والعقل

سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام له بالإسلام صلة كبيرة ، والإسلام له به مزيد عناية وعظيم اهتمام ، حتى ذكره فى سمت العبادة وأقدس الواجبات ، بل قرن اسمه باسم رسول هذه الأمة فى كثير من الشئون الدينية . حضّنا التشريع الاسلامى على اقتفاء أثره وتتبع خطواته ، وأن نقتاس به اقتياسا ، ونتسم بسماه ، ونستنهج سبيله ، ونأخذ مأخذه . وما كان هذا كله عن حسن صدفة ولا جاء عن غير قصد . نعم جاء دفعا للمسلمين وحفزاً لهم الى طريق البرهان ، وسوقا لهم الى سبيل النظر والاستدلال ، واستعمال العقول فيما خلقت له من بحث فى أسرار الموجودات ، واستكناه حقائق الأشياء .

حقا لقد دفع الاسلام المسلمين الى استعمال عقولهم ، واستخراج المجهولات بواسطة استعمال تلك العقول ، كما استعمل عقله واستنتج المجهولات بثاقب فكره سيدُ أهل النظر والاستدلال : سيدنا ابراهيم عليه السلام .

يشير التشريع الاسلامى بمجموع تلك الآيات التى وردت تحضنا على ترسم خطوات الخليل عليه السلام واقتفاء أثره الى أن هذين الطريقين (طريق الاسلام وطريق الخليل) كأنما شقا من نبعة واحدة ، وجاءا على غرار واحد ، وقدّا من أديم لا يختلف .

ونحن إذا ذكرنا لك شيئا مما ورد عن سيدنا ابراهيم استبان لك فى وضوح وجلاء أحقية ما ذهبنا اليه ، وبان لك سر تلك الآيات العديدة التى تدفعنا الى فيالة الرأى وصائبه من اتباع ملة ابراهيم وأنه أبو المسلمين ومن المسلمين « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين » « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » ووضح لك أنها حنيفة مائلة عن كل ما تقدمها فى أسلوبها ومنهجها « لكل جعلنا منكم شرعة

ومنهاجاً » وعلمت ما تشير اليه تلك الآيات من الصلة بيننا وبين سيدنا ابراهيم ، صلة تزيد عن النسب ، وتتجاوز تلك الصلة وتعلو عليها . تلك الصلة التي تجعل شريعتنا وسبيل سيدنا ابراهيم فرعيْ نبعة وغصني دوحة، فكأنهما نشآ في عش، ودرجا من وكر، ومهدا في حجر ؛ وبان لك أنها صلة علمية تزيد فضلا عن صلة القرابة والنسب .

اشتهر سيدنا ابراهيم بمتابعة ماثبت عليه الوجود ، ودل عليه البيان، وقبلته الطبائع، فتحدى قومه بهذا الأسلوب المفحم ، وأخذ عليهم جميع السبل بذلك المنهاج الوضاء ، فلو لم يرد ذكره في عداد الأنبياء والرسل لكان بحق صديق العقل الحميم، والمضطلع بالبرهان، وحامل لواء الفلاسفة . كم يكون انبهار الفيلسوف عندما تشرق عليه شمس البرهان من قول سيدنا ابراهيم عليه السلام للذي آتاه الله الملك : « ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر » انظر كيف تنال الحجة من أقفية أولئك الذين تلفح وجوههم حرارة البرهان المحرقة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها .

انظر كيف يتصرف مع أبيه وقومه تلك التصرفات التي تلجئهم الى الانقياد لها أو التسليم له ، فإن لم يفعلوا كانوا معاندين ، وبذلك يسقطون عن مصاف العقلاء « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين » ثم يتربص بهم حتى يجن عليهم الليل لينال منهم بالبرهان الحس ، ويصدف بهم عما هم عليه من زيغ وبهتان ، وليبين لهم أن أكبر العوالم في نظرهم وأعظم آيات الوجود المشاهدة لديهم مسخرة في جو السماء والأرض ما يمسكهن إلا الله ، وأنها لم تعْد باقي المخلوقات « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجّهت وجهيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

يرخى العنان لخصومه ثم يستدرجهم حتى يضع أيديهم على الشواهد المحسّة، والبراهين الملموسة، والدلائل الواضحة الجلية.

لم يكتف ابراهيم بإقامة الحجة فحسب، بل أراد أن يلجئهم الى الايمان إلجاء، أو يضطرهم اليه على الرغم من معاطسهم ومراغمهم حيث يقول لأبيه وقومه: « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين. فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » الى أن قال: « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ». ثم يقول فى موضع آخر: « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين. الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذى يميتنى ثم يحيين » الخ. وهكذا مما يطول ذكره وتعداده. فانظر الى سيدنا إبراهيم كيف يناضل، وكيف يكافح، وكيف يهاجم، وكيف يهادن، حتى لا يبقى لهم عذرا، وكيف يوقفهم أمام أمر واقع لا حيدة لهم عن أحد أمرين: إما التسليم ويكون قد نجا بهم من ظلمات الضلال والشرك، وإما العناد وبذلك يكون قد بالغ فى التبليغ عن ربه وأعذر.

لذلك كله تجد التشريع الاسلامى محشوا بالاشادة بذكر ابراهيم عليه السلام، آمرا بتتبع خطواته، كما جاء القرآن، لينصر العقل ويصافيه، ويتخذه خليلا له ويناجيه، فلم يهمله فى ناحية، ولا خذله فى موقعة، بل دائما العقل قبلة التشريع وعليه قامت الدعوة،

وله وحده حل الأمور وعقدها، وإيرادها وإصدارها، وما كان للاسلام معاصم إلا العقول، ولا أخذ على أعدائه مهار بهم إلا بمناجاة الألباب.

انظر الى القرآن وهو يستجاب الناس الى هدايتهم ويأمرهم باستعمال عقولهم « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ».

انظر الى القرآن وهو يقرب الناس من ربهم عن طريق العقل وسبيل النظر فيناجيهم بقوله : « أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أإله مع الله، قليلا ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته، أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وناهيك بشريعة تجعل مناط تكاليفها ومحور الأخذ بها العقل .

وعلى الجملة فقد بلغ التشريع الاسلامى فى إنصاف العقول غاية لا متجاوز وراءها لطالب، ولا فوقها مرتقى لمجتهد . ولو كان على الجهد مزيد لبلغه هذا . ولو رجعت الى أولئك الذين نضب ماء الحياء من وجوههم، أولئك الذين يحملون على الشرائع مرة، ويتفيئون ظلالها مرات، لسانهم سلم، وقلبهم حرب، يقولون إذا لم تغلب فاخلب، لرأيتهم :

كأبى براقش كل لون لونه يتخيل

هذه سبيل القرآن وطريقته ، لا تجده قد اعتمد إلا على العقل، ولا ارتكز إلا على البرهان ؟

عبد ربه مفتاح
مفتش الوعظ والارشاد

كلمات فى الادب والحكمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تجاوزوا لذوى المروءات عن عثراتهم ، فوالذى نفسى بيده إن أحدهم ليعثر وإن يده لبيد الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لادين إلا بمروءة » .

هذا مكان المروءة من الدين ، فما هى وما حدودها ؟

المروءة : هى النخوة وكمال الرجولة . وفى المصباح : « المروءة آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الانسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات » .

فلا عجب بعد هذا أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم : لا دين إلا بمروءة . فإن من لم يكن ذا رجولة وليس لديه آداب تحمله على محاسن الأخلاق وجميل العادات ، كان متنكبا صراط الدين لا محالة ، وهل روح الدين إلا محاسن الأخلاق وجميل العادات ؟

ولكن محاسن الأخلاق كلمة مجملة ربما فهم بعض الناس منها أنها تنحصر فى بِشْرٍ يقابل به صاحبُه الناس ، وآدابٍ يجالسهم ويعاملهم بها ، حتى إذا عض الفقر واحدا منهم بنابه ، أو احتاج لمن يعينه على مصابه ، قبض يده ، وضم من إزاره ، وتوارى عنه يلتمس لنفسه مهربا .

كلا ؛ إن محاسن الأخلاق لا تقف عند حدود آداب المعاشرة ، ولكنها تتمداها الى إغاثة الملهوف ، وإعانة المضطر ، والعمل على تنفيس كربة المكروب ، فإن لم تصل الى هذه المناطق ، فلا يعتبر صاحبها ذا مروءة ، ولا يقبل أحد أن يطلق عليه هذا الوصف ولو كان من أقرب الناس اليه ، وربما استجاب بفعله هذا من ذم الناس مالم يستجلبه المجاهر بالشح بماله وجاهه .

وقد أكبر الناس أصحاب المروءات قديما وحديثا ، وأشادوا بذكرهم ، وبالغوا

فى تبجيلهم ، ودونوا سيرهم فى كتب الأخبار ، فاتخذت طرائفَ يقرؤها الناس ويترحمون على أصحابها ، فاذا كانت خصلة من الخصال تبنى مجدا لصاحبها لا يبليه الجديدان فهى هذه . وما ذلك إلا لأنها أمس بحياة الاجتماع ، وأدعى من سواها الى تماسك آحاد المجتمع وتكافلهم .

وقد ورد فى الكتاب الكريم من الآيات فى الترغيب فى بذل المال أكثر مما ورد فى غيره من الفضائل ، وفى الإيعاد على الإمساك بالعقوبات أشد مما ورد فى سواه ، فقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

فالشح بالمال شر الآفات الاجتماعية ، وأدعاها الى تفكك عرى المجتمعات ، وتراخى أواخيها ، وتهدم أركانها ، لأن المال جعل لأن يكون دُولة بين الناس ، فاذا اتفق لرجل أن نجح فى أعماله فحصّل مالاً جما يفوق حاجته ويضطره لحبسه عن الجولان ، أثّر فعله هذا فى مهمة النقد من الناحية التعاملية ، فأصبح حقا عليه أن يتدارك هذه الخلة بالبذل فى سبيل الخير العام ، تخفيفا لوطأة النضوب المالى الذى يحدثه عمله . فقال عليه الصلاة والسلام : « ما أديت زكاته فليس بكنز » أى لا يعتبر من الكنز الذى أوعد الله عليه الممسكين الأشحاء بأشد العقوبات .

وهذا من الاسلام تخفيف ورحمة ، وهو طريق وسط بين الرأسمالية المتطرفة وبين مذهب الاشتراكيين الغلاة ، فإنهم يحرمون اكتناز المال بتاتا ، ولكن الاقتصاديين رأوا أن تحريم اكتنازه يفضى الى سقوط طبقة الأغنياء وهم أصحاب المشروعات العظيمة ، والأعمال الضخمة ، فاذا سقطوا وساووا سواهم فى التجرد من المال ، فلا يوجد فى الأمة من يقوم بتلك الأعمال الضرورية . فكانت حكمة الاسلام

فى الإبقاء على هذه الطائفة من أجلّ حكمه الاجتماعية ، وكان إيجابه للبذل عليهم حلا حاسما لهذه المشكلة الاقتصادية .

هـذا الاستطراد دعانا اليه الكلام على فضيـلة البذل الذى جرنا اليه الكلام فى المروءة . وهى لا تنحصر فى البذل ، ولكنها تشمل كل ما يستطيع الإنسان أن يسعف به غيره من علمه وجاهه وعواطفه . ولله در أبى الطيب حيث يقول :

ولا بد من شكوى الى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

اعتذار

كان موعد صدور هذا العدد أول المحرم ، وكنا قد أعددنا العدة لإصداره فيه ، ولكن مرضا أصابنا ونحن نعمل على إصداره منعنا من مواصلة العمل ، فتأخر عن موعده أياما . وقد اعتزمنا بحول الله أن نتدارك هذا التأخير فى الأعداد المقبلة حتى يصدر كل عدد فى مستهل شهره ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى



which could not have taken place up to the last century. The French had risen against their king Francis I for having sought the aid of the Turks against Charles V Emperor of Germany and Austria who threatened to occupy their country in the sixteenth century.

The present day disregard of these considerations is a new departure in international relations and affords ample evidence to the impending overthrow of the barriers that once separated nations.

All this and the like is fast paving the way for the golden age promised by Islam to humanity. It rests with Moslems to make public the great principles inculcated by the Koran and draw the attention to the study of Islam so that it may become known unto whole world.

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" We will shew the unbelievers Our signs in distant climes through the signal victories achieved by Islam, and through the wonders wrought in the creation of man till it becomes manifest unto them that the Koran is the truth. Doth it not suffice that thy Lord is witness over all things ?"

(Baidawy's Commentary).

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Do the unbelievers seek a religion other than Allah's and to Him had everyone in heavens and earth submitted in obedience or by force, and unto Him shall they return. "

(Baidawy's Commentary) .

classes of people and the independent thinking and formulation of personal opinion inspired by wide reading have paved the way for the adoption of these Islamic principles. But they should be presented to people in a form well-wrothy of the greatness of the ideals inculcated by them.

And now that Islam has allied itself with reason and science which rests on no hypothesis or conjecture, nothing stands between it and the far-flung dominion anticipated for it, save the organisation of the proper propaganda and the expounding of its universal principles in every language. Once this is done, no power on earth could stand in its way or stem its tide.

Indeed, the religious beliefs of nations have become so interwoven with their national life that they constitute a principal element of that life. Many nations still hold to these beliefs to maintain their national existence though they no longer believe in them. But through the succession of events which gave rise to a spirit of friendly co-operation between nations and confirmed the belief that their safety lies in mutual understanding, nationalism is losing ground day by day. Further, the economic crises brought about by trade competition have indicated to nations the necessity of setting up a universal system for agricultural and industrial production so that the world may be spared the economic dearth which induce nations to war in the same way as their early ancestors did. This method has not only become abominable, but it has also proved detrimental, for the economic relations between nations based on the modern business system are so greatly affected by war that the victor so often looses the fruits of his so called victory by the great losses in souls which may exceed those of the vanquished nation itself. It has now become evident that economic depressions affect all nations, victors or vanquished alike.

These considerations have induced the nations of to-day to seek fresh means of life commensurate with the present changes and the degree of cultural progress which science has brought about in every sphere of life. The efforts are calculated to save humanity from the dangerous passes that may take her back to the early days of barbarism.

Every advocate of unity to-day brings to the tortured humanity a new remedy with which to heal its wounds. The call to unity is everywhere received with general approval though the beliefs of men have become an elemental part of nationalism in every country. But nationalism has been badly shaken and human communities have felt the need to reorder their time-worn systems to conform with their present and future requirements. We find to-day nations of different creeds and religions concluding defensive offensive alliances, a thing

مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Say ye believers : We believe in Allah and that which hath been sent down to us (1), and that which hath been sent down to Abraham and Ismael and Isaac and Jacob and his offspring, and that which was given to Moses and Jesus and that which was given to the Prophets from their Lord. We make no distinction between any of them and unto Allah we are resigned. If therefore they believe in what ye believe, then they are rightly guided; but if they turn away from the true Faith, then they are divided among themselves and God will suffice to protect you against them, for He is the Hearer, the Knower.

The law of Allah to which we are created, there is no better law than His! And Him do we worship"

(*Baidawy's Commentary*) .

These principles which show the source of religions to be one, are readily admitted by reason on mere contemplation for they are among its primary axioms.

As to the source of religions being one in all times, no other fact could be more acceptable to reason, for truth is one and could never be more.

As to religion being a divine institution identical with the natural instincts, it is a fact that admits of no doubt for souls are prone to seek the truth and submit to its judgment so long as they are guided by the light of pure reason.

As to the tendency to iniquity, disregard of reason and blind imitation of the practices of ancestors being the cause of differences which divide people among themselves, it is a fact that no one could gainsay and is well borne out by history.

Should man rid himself of all these imperfections and appeal to reason in his search after true religion he will certainly come to Islam. The adoption of these principles in the present day has become within reach of everyone. The spread of learning among the different

(1) The Koran.

with which the Lord had sent him to mankind in its entirety to announce unto them these facts and to settle the differences which their passions have provoked. In this connection the Lord saith:

« إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Verily the true Religion with Allah is Islam and none other is acceptable unto Him; and those who were given the Scriptures (1) differed not concerning it until after the knowledge of its truth had come to them , through mutual jealousy and desire for supremacy; and whomsoever believeth not in the signs of Allah, verily Allah is prompt in reckoning with him "

(Baidawy's Commentary).

And :

« أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Do the unbelievers seek a religion other than Allah's and to Him had everyone in heavens and earth submitted in obedience or by force, and unto Him shall they return".

(Baidawy's Commentary).

In order to give this religious unity the highest consideration in the minds of men, it was included in the Koran in a purposely detailed verse so that no doubt may assail it :

« قُولُوا آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ

(1) Jews and Christians.

3 — Islam has established pure reason to be a guiding beacon in all differences in the light of divine revelation.

4 — The cause of all differences in religion which leads to division therein, is the tendency to inquity, disregard of reason and blind imitation. In this connection the Lord saith :

« وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Nor were the past generations divided among themselves, through enmity and mutual jealousy, till after the knowledge of truth had come to them".

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord also saith :

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And they shall say, if we had but hearkened to the discourse of the Apostles or had rightly considered it, we should not have been among the dwellers of burning fire".

(*Baidawy's Commentary*).

And :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And when it is said unto the unbelievers, Follow ye what the Lord hath sent down, they say, Nay, but we will follow only that which our fathers practised.

What ! will they do so even though their fathers were utterly ignorant and were not guided to the truth ? "

(*Baidawy's Commentary*).

5 — Islam which God had revealed to the seal of His prophets Mohammed on whom be peace, was the first aud initial Faith

" Allah hath ordained to you the religion which He commanded unto Noah, and which We revealed to thee and which We commanded unto Abraham, Moses and Jesus:

Observe thou this religion by true belief and obedience, and divide not into sects concerning it. The worship of one God to which thou callest them is untolerable unto the unbelievers. Allah will choose to that Faith whomsoever He pleaseth, and will guide thereunto whomsoever shall turn unto Him "

(Baidawy's Commentary).

2 — Religion is a divine instinct which the Lord has inplanted in human nature and no human soul is devoid thereof. In this respect it is undeniably a natural instinct and the Lord saith:

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Wherefore set thou thy face towards the true Faith deviating not therefrom : the law of Allah to which men are created and are naturally disposed. No one could change the creation of Allah. This is the true Faith but the greater part of men know it not"

(Baidawy's Commentary).

The Lord also saith :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" They who make distinctions in their religion believing part thereof and disbelieving another, and become sects, have thou no responsibility for their division "

(Baidawy's Commentary).

By division in religion is meant the differences in principles not in ramifications thereof.

are by far more effectual than all the means employed by them. The benenficial effect of those principles had been amply shown in the uniting of nations in the early days of Islam despite the great influence which racial distinctions have had over their minds at the time. But these distinctions are fast disappearing to-day so much so that they have come to be regarded as purely theoretical. This has been due to the spread of philosophic and scientific ideas among nations, and to return to-day to Islam's principle of uniting them on a religious basis, would have more effect than it ever had before on the primitive nations which were devoid of all intellectual enlightenment.

Here someone may contend that the civilised nations of to-day do not depend on religion for their ascendancy or progress and even though we granted that they answered the call of Islam and adopted one religion, they have the economic problems which may overwhelm them and bring them into conflict. What advantage would the call to unity of religion avail so long as nations remain subject to social and economic factors ?

We should say Yes ! But does not our critic agree that these nations have come to realise that war is an abominable means to settle differences and that it weakens both victor and vanquished alike particularly when their interests in the economic field have become so intricate that the least trouble that upsets the one is bound to affect the other, and that for this reason they are looking for an effectual means to abolish it once for all ? If to these world-wide efforts the inculcation of the idea of one religion be added, would it not be to the good of the world ? Would it not contribute to the unity of nations and help them to overcome the destructive forces of disunion ?

Let us now consider the principles on which Islam has founded the unity of religious belief and the historical facts on which it has relied to render this idea acceptable to the minds :

1 — Islam has proclaimed that the religion of Allah is one and the same for all times, that it was revealed to the first apostle sent to mankind and that the Lord hath continued its revelation to His apostles from time to time of the world history to renew the signs which have been obliterated, elucidate its principles and rectify the corruption which took place. In this connection the Lord saith :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ، وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَاتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD (1)

IV.

UNITY OF RELIGIOUS BELIEF.

One of the great human aspects which lends immortalitly to Islam and establishes for it an hostorical right to intercourse with all people, is the inculcation of religious unity in so far as the source of religions is one and the same. The plurality and difference of religions were due to the addition, deletion and corruption which took place in the first and original faith.

This notion of religious unity would have been regarded as a intellectual impossibility were it conceived in the olden days on account of the fundamental differences which existed between religions. Indeed, it is still regarded by the sociologists of to-day who are unacquainted with Islam, as a far-off hope because of the intermingling of religions with national and racial affairs.

The efforts they made were therefore to exclude all religions from the field of human activities and to counteract its effect in society so that humanity may attain the universal peace and understanding for which it strives with nothing to obstruct its way.

Yet, should those who study human affairs contemplate the princiiples on which Islam has established this unity and the historical facts on which it has relied, they would soon realise that these principles

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in " Nour-El-Islam " Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ٨ —

دعوته الامم لمحو آثار الجاهلية

إذا ذكرت كلمة الجاهلية انصرفت الأذهان الى الأمة العربية قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، لكثرة ما ترد هذه الكلمة مقرونة بتاريخها ، وربما توهم بعض الناس أن هذا العهد من الحياة الاجتماعية الساذجة خاص بالعرب دون سواهم . والحقيقة أن كل أمة مرّت بعهد طويل من الجاهلية الجهلاء ، وقد دون التاريخ أدوارها فيها جيلا بعد جيل .

فقد كان لأقدم الأمم كالمصرية والهندية والصينية والفارسية عهود جاهلية مكثت فيها قرونا طويلة حفظت الأساطير أخبارها وأطوارها . وكان للأمم الأقرب منها عهدا كاليونانية والرومانية ومن تلاها من الأمم الأوربية الحالية عصور جاهلية مظلمة ، قضت فيها مدى طويلا من الدهر كانت فيها تخبط فى دياجير الجهل ، ملتاثة بجميع ما يصحب هـذه الحالة من الانحرافات الخلقية ، والحرمان من جميع المقومات المدنية .

يتسلط على الأمم فى عهدها الجاهلى حكم القوة ، لا حكم العقل ولا العـدل ، ولا ما يتنزل منهما من رحمة بالضعيف ، وعطف على المريض ، وإغاثة للملهوف . فـكان الحق كله لذى الساعد المفتول ، والسنان المذرّب . وكل ما كان يربط بين آحاد تلك الجماعات من عادات محـترمة ، ونظم سائدة ، كان يصدر عن هـذا الأصل الحيوانى البحت .

بعث الله محمـدا صلى الله عليه وسلم والعرب فى معمعان هذا الدور ، وكانت سائر الأمم لا تزال فيه ، أو ارتـكست الى ما يشبهه ، بعد أن بلغ بعضها بفضل الديانات الالهية السابقة ، ومعونة العلم والحـكمة ، درجة صالحة ، فـكان العالم كله والحالة هذه فى حاجة ماسة الى قارعة سماوية تنقشع بها كسف هذه الجاهلية العالمية التى ملأت جو الأرض ، فجعلت الجماعات هملا يموج بعضها فى بعض . نعم قد كان لبعضها مظهر من النظام ، ولـكنه لم يتخـذ إلا عدة للعدوان وسببا للغَلَب ، لا وسيلة للارتقاء ، وذريعة لحسن المنقلب .

تخيلْ أمة كالعرب لا تزال منقسمة الى قبائل ، عاشت على هذه الحالة أجيالا متعاقبة ، وانقطعت عن العالم فـلم يصل اليها بصيص من نور الدين الحق ، ولا أصل من أصول الحـكمة ، فالتاثت بكل ما تثمره هذه الحالة من عادات وحشية ، ونزعات همجية ، جمدت عليها حتى اختلطت بـكيانها ، وحلت محل الوطائد من بنائها . نقول: تخيل أمة كهذه ، ثم انظر هل ترى لها مخرجا مما هى فيه إلا قرونا تنفق فى تعليمها وتهذيبها ، وجهودا جبارة تتولاها أجيالا متعاقبة ، لتقويم غرائزها ، وإصلاح ما فسد من كيانها ؟ .

فإن قلت لـكائن من كان : إن هذه الأمة قد تحولت فى أقل من ربع قرن الى أمة خلصت من جميع شوائب الجاهلية ، وتولت خلافة الله فى الأرض ، فانتدبت لتخليص العالم كله منها ، لعدّك هازلا فيما تقول ، وماذا يضرك من تـكذيبه لك وفى يدك القرآن ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه وتابعيه فى كل زمان ؟ .

أقوى معول ضربه الاسلام لهدم الجاهلية صوّبه الى أصلها الأول الذى تتنزل منه جميع أصولها ، وهو حكم القوة ، فدكّه وقرر مبدأ المساواة بين الناس كافة فى جميع الحقوق والواجبات ، فقال تعالى : (يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ) كما قال عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلـكم لآدم

وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بتقوى ، ألا هل بلغت ! اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فسقط بهذا المبدأ الكريم كل ما كان يعتز به الناس فى عهد الجاهلية من الاعتزاء للقبائل أو للبيوتات أو للسوابق الحسنة ، وأصبح الكافة أمام الحق سواء ، لا فرق بين عظيم ووضيع ، وحر وعبد ، بل ومسلم وغير مسلم .

وقد اشتد الإسلام فى دعم هذا المبدأ وتمكينه ، لأن به هدم الجاهلية من أساسها ، والتعفية على آثارها ، وما زال يتعهده بالتقوية حتى صار ملكة راسخة فى نفوس تابعيه ، وحتى صار من أوليات ما يهتم بالتنويه به القادة والحاكمون ، حتى جاء فى أول خطبة خطبها أبو بكر رضى الله عنه حيث قال : «الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، إن شاء الله » .

ولم يُغفل خليفته عمر الفاروق رضى الله عنه التنويه بهذا الأصل ، فقد جاء فى أول خطبة خطبها الناس حين انتخب للخلافة قوله : « واعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادت أضعافا عن الأول على الظالم والمعتدى ، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم ، وإنى بعد شدتى تلك واضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف » .

ومما يستشهد به فى هذا الباب ويعتبر من أدل الأدلة على ما نقول ، ما حدث لجبلة بن الأيهم ملك غسان ، وكان قد أسلم وعاش مع الناس بعد أن استولى المسلمون على ملكه ، فقد كان يطوف يوما بالبيت فداس أعرابى على طرف ردائه ، فلطمه جبلة على وجهه ، اعتزازا بمكانته ، فشكاه الرجل لعمر أمير المؤمنين ، فأحضر جبلة وحكم عليه أن يخضع للطمة مثلها من يد الأعرابى ، ولم يكترث بما يدعيه جبلة لنفسه من الترفع عن طبقة عامة الناس . فكان ذلك سببا فى هربه ولحوقه بهرقل ملك الروم وارتداده .

بعد أن أسقط الاسلامُ حكم القوة ، وهو كما رأيت مادة الجاهلية التى استمدت

منها جميع خصالها الوحشية ، لم يأل جهدا فى بث الأصول العليا للاجتماع : من العدل المطلق ، والمساواة الصحيحة ، والتعاون على إقامة دولة الحق ، وتطهير العالم من آثار الاستئثار والظلم ، والاضطلاع بخلافة الله فى الأرض . وقرن ذلك كله بما يجب أن يكون عليه المسلمون من الخلال الكريمة ، والخصال القويمة ، من الاستهداء بنور العقل ، والاستزادة من مادة العلم ، والاستفادة من مصادر الحكمة ، والعمل على استئصال شأفة الباطل حيث كان ، وبأى مظهر ظهر ، واجتثاث أصول الظلم أنى ثوى ، وتحت أى لبوس استتر . وعزز الاسلام هذه الخلال كلها بوجوب التخلق بأخلاق الله : من العطف على المستضعفين ، والحدب على المحتاجين ، والبر باليتامى والمحرومين ، وأوصى بالتراحم ، وحض على التعاون ، وإغاثة العانى والملهوف . ولم يغفل فى وصاياه الرفق بالبهم العجم والحيوانات الهامجة ، فى نصوص من معدن الوحى والنبوة لم يحفظ مثلها عن مصلح فى الأرض الى اليوم .

من هنا تميزت حالتان : (إحداهما) ما كان عليه الناس قبل البعثة المحمدية ، وقد سماها الله بالجاهلية . و (ثانيتهما) ما آلوا إليه تحت نور الوحى والنبوة ، وقد دعاها الله بالاسلام . ولم يسمِّ أحد أولى الحالتين بالجاهلية قبل القرآن ، فقد أطلق مؤرخو الفرنجة على أمثالها لدى الأمم المختلفة عهد الفروسية ، وشتان بين التسميتين وما يترتب عليهما من آثار ، من دفع الناس الى الشرور ، أو ردّهم الى حظيرة الخلق والفضيلة .

وقد وردت فى الكتاب الكريم مقارنات عدة بين الحالتين ، تحضيضا للمسلمين على اجتناب إحداهما والتمسك بالأخرى ، فقال تعالى : (وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) ؟ .

وقال تعالى فى تكريه النساء فى التبرج : (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ) يريد بها عهد الإباحة وسقوط الأخلاق ، وانحلال ربط الآداب .

وقال تعالى فى تهجين فعل المتثبطين عن نصرة الحق : (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ) .

وقال تعالى : (إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ، حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً) يريد بحمية الجاهلية نزعتها فى عدم الإذعان للحق ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، أى طمأنينته وهدوءه لتبين الحق واتباعه .

هكذا يبز الله عهد الجاهلية بجميع سيئاته وشروره ، ويدعو الناس الى التخلص من آثاره . ودعوته هذه مستمرة فى جميع الأجيال ، وموجهة الى العالم كافة ، لأنه الدين العام . ومن يستقر أحوال الأمم اليوم يجد أنها جميعا فى حاجة ماسة الى الاستفادة من هذه الدعوة ، فإن آثار الجاهلية لا تزال موجودة حتى فى أبعد الأمم شأوا فى المدنية المادية . وقد صدق الفيلسوف الانجليزى (برنارد شو) فى قوله : إن العالم لو أخذ بالاسلام لأبل من جميع علله التى يشكو منها والتى أصبحت مهددة لوجوده .

إن حكم الجاهلية كان سائدا فى أوروبا الى عهد الثورة الفرنسية التى حدثت سنة ١٧٨٩ ، فقد كان الفلاحون يباعون مع الأراضى التى يشتغلون فيها ، وكان الضعفاء يشكون عسف الأقوياء ولا نصير لهم ، وكانت الأمم منقسمة الى طبقات ، العليا منها معفاة من الضرائب والتكاليف ، ومتمتعة بامتيازات خاصة أمام القضاء بحكم القوانين ، وكانت كل الأعباء ملقاة على عاتق الفقراء والمساكين . فلما حدثت الثورة الفرنسية أزالت كثيرا من هذه المظالم ، وثارت على مثالها الأمم الأخرى ، فاستقرت أوروبا على الحال التى نشاهدها عليها اليوم .

ولـكن هل محقت أوربا كل آثار الجاهلية التى يدعو الى محقها الاسلام ؟ !

لا ، فلا تزال الخمر — وهى أم الخبائث — مباحة ، ولا تزال المقامرة شائعة ، ولا يزال الربا محللا يدفع بأموال الأمم الى خزائن أصحـاب الثروة ، ولا تزال العادات تسمح للمائلات المميلات بالتبرج ، يفتنّ الناس ويدفعن بهم الى العزوبة والإسراف ، ولا تزال النابتة ملقي حبلهم على غواربهم يغشون أماكن اللهو والفجور ، وينشأون بذلك متشبعين بمبدأ الإباحة ، ولا تزال الحـكومات تسمح لطوائف من الـكاتبين والممثلين وأصحاب دور السينما أن يمدوا أهواء النفوس بما يزيدها تأججا ، ويغريها على الإغراق فى الميول البهيمية .

كل هذه من بقايا الجاهلية التى يدعو الاسلام العالم لمحقها، والتعفية على آثارها . وكل مايعانيه العالم اليوم هو من جرائرها ، فعلى العالم الاسلامى والحالة هذه واجبان : (أولهما) أن لا يقلد الأمم فى هذه الطامات . (وثانيهما) أن يدعو العالم الى التطهر من بقايا الجاهلية إذا كان يريد حقا أن يخلص من حمأة الغى والفساد ، فإن هذه البقايا كما أنتجت كل الويلات الاجتماعية ، إذا أهملت لا بد أن تستشرى فتدفع بالأمم قاطبة الى التناحر الحيوانى ، وتحطيم كل ما بناه العلم من معالم المدنية ، كما حطمت بقايا مثلُها من الجاهلية مدنياتٍ كثيرة فى خلال العصور البعيدة .

فقد كان لدى تلك الأمم علم وحكمة وصنائع وثروات طائلة ، فلم تغن عنهم حيال عوامل الجاهلية شيئا ، وذهبوا كأن لم يغنوا بالأمس . ولقد كان الرومانيون يسمون دولتهم بالدولة الخالدة ، فلم تجدهم هذه التسمية فتيلا ، فازالت بها بقايا الجاهلية حتى أرغمت معاطس سادتها ، وفلت من غرب قادتها ، وحلت من عرى وحدتها ، فأصبحت كلحم على وضم بين يدى القبائل المتوحشة المحيطة بها ، وزالت من الوجود زوالًا أبديا . فإذا كانت أمة تحميها علومها ومعارفها وفنونها وصنائعها ووطنيتها من بقايا الجاهلية ،

كانت هى الأمة الرومانية ، وقد انفردت بالسلطان فى الأرض ، وعزت فلم يبق لها منافس فيها ، ولكنها لما اطمأنت الى هذه العزة ، وتركت عوامل الجاهلية تعمل فيها ، وهى ضروب من العسف والإرهاق والتمرد ، وإذلال الضعفاء والمقهورين ، والاستهتار فى الشهوات ، والاغراق فى اللهو والقصف ، نقول: لما أهملت هذه العوامل ولم تجتثها من أصولها ، أثمرت ثمراتها المعهودة : من انحلال الربط ، وارتخاء عرى الاجتماع ، فتمكن منها من كانوا يخشون أن يتخيلوا الغارة عليها تخيلا : (قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) .

محمد فريد وجدى

الاجواد فى الاسلام

الأجواد فى الاسلام لا يعدون كثرة ، ولكن امتاز من بينهم قوم كان جودهم عاما شاملا ، منهم عبيد الله بن العباس ، فقد أثر عنه أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه .

من جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال : يا بن عباس ! إن لى عندك يدا وقد احتجت اليها .

فصعد عبيد الله فيه بصره وصوبه فلم يعرفه ، ثم قال له : ما يدك عندنا ؟ قال الرجل : رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك من مائها ، والشمس قد صهرتك ، فظللتك بطرف كسائى حتى شربت .

قال عبيد الله : إنى لأذكر ذلك ، وإنه يتردد بين خاطرى وفكرى . ثم قال لقيمه : ما عندك ؟ قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم .

قال عبيد الله : ادفعها اليه ، وما أراها تفى بحق يده عندنا .

وفيه يقول شاعر المدينة :

وفى السنة الشهباء أطعمت حامضا ... وحلوا ولحما تامكا وممزعا
وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... إذا المحل من جود السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة ... وغوثا ونورا للخلائق أجمعا



سورة الحجرات

- ٢ -

قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

قد اشتملت هذه السورة الكريمة على خمسة أنواع من الآداب الاجتماعية أو النفسية :

الأول — الأدب فى حق المولى تبارك وتعالى ، وهو عدم الافتيات على تشريعه ، وعدم المبادرة الى اقتراح الأحكام قبل نزولها ، فهو أعلم بمصلحتهم منهم ، فيعجل ما يعجل ، ويمهل ما يمهل ، وهو الحكيم الخبير . فمن تمام الإيمان بحكمته وإسلام النفس له أن يرضى المرء بما يقضى ويحكم ، ويطمئن لما يملى ويمهل ، وذلك هو ما ذكر فى قوله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » وقد سبق الكلام فى هذا النوع .

والثانى — الأدب فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإعطاؤه من التعظيم

والإجلال ما يليق بمقامه الكريم ، فلا يخاطَب كما يخاطب غيره ، ولا يُرفع الصوتُ على صوته ، ولا ينادَى على تلك الكيفية الخالية من الاحتشام والمهابة ، عرفاناً بقدره وإذعانا لمنزلته ، وثقة بأنه إن غاب عنهم فهو فى مصلحتهم ، وإن خرج اليهم فهو لمنفعتهم ، وأن إشعار القلوب بمحبته ومهابته باب للانتفاع بهديه والفوز بإرشاده ، وذلك ماذكر فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » الى قوله عز وجل : « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » وقد سبق الكلام على هذا النوع أيضا .

الثالث — وهو المذكور فى هذه الآية التى نحن الآن بصدد تفسيرها — الأدب مع جماعة المسلمين والفئات العامة ، مما يتقى معه الفتن الهوجاء ، واستفحال أمور الشرور لو لم يتدارك الأمر بالتبين والتثبت ، وذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » الخ .

الرابع والخامس — ما سيأتى فى الآيات التالية ، وهو الأدب فى حق الأفراد من المسلمين ، وذلك قسمان: (أحدهما) الأدب فى حق الحاضرين المجالسين ، وهو الرابع المشار اليه ، وذلك ما ذكره الله عز وجل فى قوله : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » ثم فى قوله : « ولا تنابزوا بالألقاب » .

و (ثانيهما) ما يتعلق بحق الأفراد الغائبين ، وهو الخامس المذكور فى قوله عز من قائل : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » وفى قوله : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » الآية .

ولقد ترى النظم الكريم بدأ كل نوع من هذه الأنواع بالنداء بيأيها الذين آمنوا ، لينبه فيهم شعور الإيمان فيقبلوا على امتثال ما أمروا به ، راجعين به الى إيمانهم على أنه ثمرة من ثماره وفائدة من فوائده ، وليبين لهم أن هذا هو ما ينتظر من المؤمن ويليق به ، فالإيمان شجرة فائدتها ثمارها . والتفت إن شئت للتعبير السابق فى الآية الكريمة

الماضية « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » فإنك ترى فيها كيف ربط عمل الجوارح بما قر فى القلوب ووقر فى النفوس .

وسبب نزول هذه الآية أن الحارث بن أبى ضرار الخزاعى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه الى الإسلام فأسلم ، ودعاه الى الزكاة فأقرّبها ، ثم استأذن فى أن يرجع الى قومه يدعوهم الى الإسلام فمن أجابه دعاه الى الزكاة وجمعها منهم ، وسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يرسل اليه رسولا يأتيه بما جمعه من زكاتهم ، وحدد موعدا خاصا ، فلما جاء الموعد أرسل صلى الله عليه وسلم اليه الوليد بن عقبة ليأتيه بالزكاة منهم ، فلما كان فى الطريق أدركه فَرَق فرجع . وقيل بل لقيهم مقبلين فظنهم محاربين ، فرجع وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الحارث منعه الزكاة وأراد قتله ، إما لما ظنه حين لقيهم ، وإما لأنه رأى قوما غيرهم ظنهم إياهم ، فأرسل اليهم صلى الله عليه وسلم بعثا فقابلوهم بعد ما جاوز البعث المدينة ، فسألهم الحارث الى من بعثتم ؟ قالوا : اليك ، قال : ولماذا ؟ قالوا : إن الحارث زعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، فأقسم إنه ما رآه ، وإنه إنما قدم لما استبطأ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان الحارث جمع سراة قومه وقال لهم : لقد جاء موعد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان من النبى خلف فأخشى أن يكون تأخره عن سخطة ، فأخذ ما جمع وتوجه الى النبى صلى الله عليه وسلم فقابله البعث على ما ذكرنا ، ثم قدم الحارث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما كان من أمرهم ، فنزلت الآية .

ونزول الآية عند هذه الحادثة لا يعطى إعطاء قطعيا أن الوليد بن عقبة كان فاسقا ، وأنه أخبر عمدا بنبأ مكذوب بقصد الإيقاع ، وإنما يدل على أن الآية نزلت عند هذه الحادثة لأنها تنبه الى نظائرها مما يكون المبلّغ قد قصد الى السوء والكذب . وكأنها تفيد تلك بالأولى ، وذلك أن النقل خطأ عن ظن غير محقق قد يجر الى القتال والفتن ،

فكيف فى أناس جعلوا ديدنهم تشويه أعمال غيرهم ، إرادة الإيقاع بهم ، وإثارة الفتن عليهم ؟ فإذا كان النقل الخطأ قد كاد يجر الى إثارة الفتنة على قوم أبرياء ، فكيف بالجريمة المقصودة المتعمدة وصاحبها يكون عادة أوفر دهاء ، وأقوى ترتيبا للوصول الى غرضه السيء ؟

والفاسق : من الفسق . وأصله الخروج والبروز ، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها . وقد تعورف فى لسان الشرع فى الخروج من حكم الدين والطاعة . وأكثر ما يستعمل فى المعاصى الصادرة من المؤمن . وقد يستعمل بمعنى الكفر كقوله تعالى : « والله لا يهدى القوم الفاسقين » وقوله : « ففسق عن أمر ربه » . والنبأ : الخبر الذى له خطر وشأن . والتبين : التثبت والتحرى، لاكتشاف الحقيقة . والجهالة : بمعنى جهل حالهم . والكلمة تشير فى الكثير الى معنى التسرع والبدار للشر ، كما فى قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحـــد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

أى لا يعجل أحد بالتعدى علينا وإيذائنا ، ففينا قوة مبادرته بأشد مما كان منه . ولكن المراد فى الآية : أن تصيبوا قوما متلبسين بجهالة حالهم وعدم معرفة لحقيقة أمرهم .

وترى الآية تشير باستعمال كلمة «إن» وهى للأمور النادرة أو المشكوكة أو المفروضة فرضا دون الأمور الكثيرة الوقوع — تشير الى ما كان عليه المسلمون من اليقظة وحدة الذهن بحيث يندر أن يتلاعب المتقولون بعقولهم ويجيئوهم كل ساعة بنبأ مثير للفتن والقلاقل .

ونجد فى توجيه الخطاب الى المؤمنين، والتعبير عن الناقل بكلمة فاسق، إشارة أيضا الى أن مثل هذا الناقل حقه ألا يعد فى طائفة المؤمنين الذين شرفهم الله بهذا الخطاب ، وإنما يعتبر كأنه خارج عنهم إذ كان خارجا على تعاليمهم . وهذه الإشارات تعطى فى طيها من الآداب والأحكام ما ينتفع به المؤمن فى تربية نفسه وخلقه ، ويفهم به معنى إيمانه وثماره ، فيؤتى الايمان حقه ويجنى طيب ثماره .

هـذا فى الإشارات المطوية . وأما المعنى الجوهرى للآية فهو الأمر بالاحتياط والتحفظ فى كبرى الشئون ، وأن يتنزهوا عن التسرع والهوج الذى يفسد عليهم شئونهم . ولقد نرى فيما يحيط بنا أن صاحب الشأن يستعين على ضبط أموره الكبرى باليقظة والتحرى ، والتثبت قبل الإقدام ، حتى يصون نفسه وما عهد إليه به من المصالح من تلاعب الطغام واجتراء اللئام . فمن كان ذا احتياط ويقظة وحسن تأمل وتدبر ، هابه الواشون النمامون ، وأقبل على معاونته الصادقون المخلصون ، فاستقام له الأمر ، وحفظ منه الجانب . ومن أسلم أذنه وقلبه لكل ناقل ، واستفزته كل ريح هوجاء ، وخف مع كل صيحة ، كان أمره خليقا أن يختلط عليه ، وكانت الجرأة على التلاعب به مفتاحا لفتن لاحدّ لها .

فالتبين والتثبت وتعرف الأمور من مسالكها الصحيحة ، والتحرى عن الحقائق حتى تنكشف ويزول عنها اللبس ، أمر جوهرى فى الدين والدنيا جميعا .

وكيف لا ومن أهمل أمره وقع فى سوء عمله ، فأسرع الى مطاوعة جهالته ، فأصاب قوما أو أقواما بجهالة ، فيتبين له الأمر وإذا به قد وقع الشر ، والواقع لا يرتفع ، فلا يكون له حيلة إلا الندم ، وماذا ينفع الندم !

والندم : الهم الملازم المقيم . وهذه المادة (ندم) تشير الى الدوام والبقاء والملازمة على أى وجه ركبت . فمن ذلك أدمن إذا لازم ، والمدينة لأنها تتخذ للإقامة الدائمة .

وتجد فى التعبير بما فى النظم الكريم وهو قوله : «فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» مبالغة فى الندم من عدة وجوه :

أولا — كلمة « تصبحوا » فإنها وإن كانت بمعنى تصيروا ولكنها أكثر ما تستعمل فى الشىء الذى يبتدىء ثم لا يزال ينمو ويتجدد .

وثانيا — فى قوله : « على ما فعلتم » . وندم المرء على ما فعل أشد من ندمه على ما ترك أو على ما وقع من غيره ، ففى الفعل مقارفة واعتمال يجدد الهم كلما ذكره .

وثالثا — فى التعبير بالجملة الاسمية التى تدل على الملازمة والثبات ، فضلا عما تعطيه مادة الندم من الملازمة على ما قررنا آنفا .

فترتيب هـذا كله على ترك التحفظ وإهمال الأمر بالتبين والتثبت ، يعطى أهميته ، ويشرح قيمته ، فـكيف وقد علق بالايمـان فى قوله : « يأيها الذين آمنوا » ؟ .

وللفقهاء كلام فى استنباط حكم قبول خبر الواحد فى الشهادة والرواية من هـذه الآية لا نراه يتناسب وما قصدنا اليه ، فندعه لموضعه ، فليرجع اليه من يشاء .

(واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) :

تشعر هذه الآية بأنه كان فى الصحابة من يشير بالإيقاع بالحارث وقومه لمجرد خبر الوليد الذى كان أرسل اليهم بأنهم منعوه الزكاة وأرادوا قتله . وقوله : «واعلموا أن فيكم رسول الله » ليس الغرض منه إفهامهم بأن رسول الله فيهم ، فهم يعلمون ذلك ، وإنما المقصود أن يفهمهم أن بين ظهرانيهم من يعتمدون عليه فى الرشد والتبين ، وأن تركهم الاسترشاد منه بمثابة عـدم العلم بوجوده بينهم ، فلو تنبهوا لذلك ما حصل منهم الافتيات فى المشورة المتسرعة . وفضل هذا التعبير عن صريح الأمر بالاسترشاد بهديه صلى الله عليه وسلم من جهة تصويره أن مراجعته عليه السلام أوضح من أن يؤمر بها ، وإنمـا الذى يستحق التنبيه هو ما غفلوا عنه من وجوده عليه السـلام بينهم . ونظير هذا أن ترى قوما اختلفوا فيما بينهم مع وجود شيخ لهم يرجعون اليه فيهديهم ، فبدل أن تقول لهم : راجعوا شيخكم ، تقول : أليس الشيخ بينكم ؟ فـكأن الرجوع اليه أوضح من أن يؤمر به .

وقوله : « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » مرتبط بالجملة السابقة ، أى أن رسول الله فيكم على حالة تزنون بها أعمالـكم وترجعون اليها فيما اشتبه عليكم ، لا على حالة أن يتبع رأيكم ، ويسير دائمـا وراء مشورتكم ، فلو كان يتبع دائمـا رأيكم ويرجع فيما يأتى ويذر الى ما تقولون ، لوقعتم فى العنت والمشقة . وأصل العنت : الـكسر بعد الجبر .

فكأنه يشير الى أن فى مشورتهم ما يكون عن تسرع وسورة نفس ، فلا يتبينون مغبتها إلا بعد فوات وقتها ، فلو استمر على المتابعة لتكررت لهم مضارّهم فى غنى عنها وسلامة منها . وقوله : « لو يطيعكم » أى لو استمر على طاعتكم . هكذا يفيده لفظ يطيع بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدد . وأما لفظ الماضى « أطاعكم » فإنه يدل على مطلق الحصول ، فالممتنع هو استمرار الطاعة فى كثير من الأمر . أما أنه قد يطيعهم فليس بممتنع . كيف وقد قال عز وجل : « وشاورهم فى الأمر » ولولا أن فى المشورة موافقة فى بعض الأحوال ما كان منها فائدة .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعمل أحيانا بمشورة بعض الصحابة فيما لم ينزل عليه فيه وحى . من ذلك أنه لما نزل فى وقعة بدر فى محل كان غيره خيرا منه ، جاءه بعض الصحابة وقال : أهذا منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتعداه ، أم هو الرأى والحرب ؟ قال : لا ، بل هو الرأى والحرب . قال : إذاً فغير هذا المكان خير منه : ننزل على أدنى ماء من القوم فنمنعهم الماء حتى يكون ذلك أنكى لهم ، وأقصر لمدة الحرب بيننا وبينهم . فقبل صلى الله عليه وسلم منه وعمل برأيه ، وغيّر المكان الذى نزل فيه .

فالمعنى أنه صلى الله عليه وسلم بينكم على حالة هى أن يكون رأيه متبوعا لا تابعا ، ولو أنه قد يستشيركم ويعمل برأيكم ليحفزكم على إعمال الفكر والروية ، ويعوّدكم التدبير وحسن النظر ، ولو استمر على طاعتكم فى كثير من الأمر لجرّكم ذلك الى العنت ، فأين رأيكم من رأيه الموفق ؟ فالجملة إعرابها إعراب الحال من الضمير المستتر فى قوله « فيكم » أى كائن فيكم ، أى هو موجود فيكم متبوعا لا تابعا . والتعبير عن ذلك بالجملة الشرطية « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » لبيان الحكمة فى امتناع متابعته لهم ، وأن ذلك من مصلحتهم ، ولدفع العنت عنهم . والتعبير بكلمة « كثير » ينحو أيضا هذا النحو ، وهو أنه كان يقبل منهم فى قليل من الأمر .

والحاصل أن الممتنع بمقتضى « لو » هو استمراره صلى الله عليه وسلم على طاعتهم

فى الكثير من الأمر ، أما أن يقع منه قبول المشورة فى الكثير فى بعض الأحيان ، أو أن يتكرر منه قبول رأيهم فى قليل من الأمر ، فلا امتناع فيه .

وهذا هو قانون المشورة فى الاسلام ، وهو الاستعانة بأهل الرأى على أن يكونوا مرشدين موضحين ، لا أن يكونوا ملزمين جازمين ، فإن هذه القاعدة هى التى تضمن التعاون بين الحاكم والمحكوم من جهة ، وتبقى المسئولية فى عنق من يختار لإقامة أمر الأمة من جهة أخرى . ولعل ذلك أفضل الأنواع التى جرب عليها الحكم وتداولتها الأمم والأزمان ، والله بكل شىء عليم . والمدار فى كل ذلك على حسن النية وصدق الطوية ، وبالله التوفيق .

وقوله : (ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) استدراك على ما يعطيه صدر الآية من النعى عليهم وتوجيه النهى اليهم ، عن الاسترسال فى الرأى وترك التأنى حتى يعلم ما عند رسول الله ، فكأنه يقال : ولكن ليس الأمر الذى نعيناه عليكم شاملا لكل طوائفكم ، بل منكم من حبب الله اليه الايمان فجعله مستقر النفس ، موطنها على متابعته صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه . فيكون الاستدراك باعتبار اختلاف الطائفتين فى الوصف ، أى ليس ما ذكرناه مستغرقا لجميعكم ، بل منكم من ملك الايمان قلبه فألزمه حده . ومن المفسرين من جعل الاستدراك باعتبار المواضع التى يقبل فيها رأى العقل وحكمه ، والمواضع التى يجب التأنى فيها حتى يعلم أمرها ، فكأن سؤالا طرأ على قلب سائل : كيف نُنهى عن الإدلاء بآرائنا التى اهتدينا اليها بعقولنا وقد هدتنا عقولنا هذه الى الايمان فآمنا بعد ما شاهدنا آيات ربنا واطمأنت اليها عقولنا ؟ أفليست هذه العقول التى نشير بالرأى بمقتضاها هى العقول التى اهتدينا بها الى الايمان وهو أساس كل فلاح ؟ فجاء الجواب بأن لا تقيسوا تلك الأمور التى تشتبه عليكم والرأى فيها مجالات على أصل الايمان الذى اقتضت رحمة الله بكم ورأفته أن يحببه اليكم ، ويزينه فى قلوبكم ، ويشرح له صدوركم ، بما أوضح من سبله وبما بين من برهانه ، فأين ما استبان

ووضح مما اشتبه والتبس ؟ فتريثوا فى الأمور المشتبهة حتى يأمركم الرسول صلى الله عليه وسلم بما فيه مصلحتكم ، ولا تقيسوها على الايمان الذى أوضح الله سبيله لكم فضلا منه ونعمة ، فيكون استدراكا على ما ظنوه من عموم الثقة بعقولهم ومتابعة ما توصلهم اليه آراؤهم قياسا على ما وصلوا اليه من الايمان ، فيُدفع ذلك بأن هذه أمور مشتبهة ، لكن الايمان قد منّ الله عليكم بتوضيح سبله .

وقوله : « حبب اليكم الإيمان » أى قرّبه الى قلوبكم حتى قبلتموه وأقبلتم عليه .

وقوله : « وزينه فى قلوبكم » أى جعلكم دائما مغتبطين به عارفين قدر النعمة فيه ، وذلك أن بعض الأمور قد يحبب فيقبل عليه ثم لا تلبث النفس أن تسأمه وتملّه ، فللاحتراس عن هذه الحالة حسن موقع قوله عز وجل : « وزينه فى قلوبكم » بعد قوله : « حبب اليكم الإيمان » أى جعله محبوبا فأقبلتم عليه ، ثم جعله فى قلوبكم حسنا دائما فتمسكتم به ، فالأول لتحصيله ، والثانى لاستدامته .

وقوله : (وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان) لفظ كره مقابل أحب يتعدى لمفعول واحد ، فإذا شدد وقيل : كرّه تعدى لآخر بنفسه . ويقال كرهته اليه لتضمينه معنى بغضته اليه . والكفر : جحود نعمة الله وربوبيته ، أصله من الكفر بمعنى التغطية والستر ، كأن الكافر غطى وطمس آثار ألوهية الله وربوبيته ونعمته . وفى الشرع : إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . والفسوق : الخروج عن الطاعة . والعصيان : هو الوقوع فى المعصية . فالفسوق أشد من العصيان ، فكأن فى الفسوق خروجا عن الأوامر بالمرة . وأما فى العصيان فإلمام بالمعصية ووقوع فيها . وذلك لا يستلزم الخروج على الأوامر كلية . وهذه الثلاثة فى مقابلة الإيمان الكامل المعتد به ، فهو التصديق والإذعان للأوامر ، أى الخضوع لها والتزام قبولها ، والوقوف عند حدود الأحكام فى الأوامر والنواهى . وهذا حكاية لحالهم التى من الله بها عليهم ، وهى أنه حبب إليهم الإيمان على هذه الصورة الكاملة ، فلا تقتضى أن كل واحد من الثلاثة مناف للإيمان ،

فإن الكفر مناف للإيمان حقيقة ومضادٌّ له والفسوق أى الخروج عن حدود الطاعة ونبذها كلية مناف للاسلام أى الانقياد والتزام الأحكام. والايمان المعتد به والاسلام أى الانقياد متلازمان. وأما العصيان أى اقتراف المآثم فى بعض الأحيان، فليس بمناف للايمان ولا للاسلام، وإن كان مضيعا للثمرة المقصودة منهما، وهى تربية النفوس على طاعة الله والتزام أحكامه، وترقيتها بالأخلاق الطاهرة والصفات الكاملة.

وقوله تعالى: (أولئك هم الراشدون) بيان لنتيجة تلك النعمة التى أنعم الله بها عليهم، وهى تحبيب الايمان اليهم وتزيينه فى قلوبهم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان اليهم، فأتبع تلك النعمة بالثمرة التى تترتب عليها والنتيجة الحاصلة منها، وهى أن من حاز تلك الصفات وشملته تلك النعمة، كان هو المستحق للوصف بالرشاد، وهو الحقيق بأن يكون رأيه على هدى وسداد. والخطاب فى قوله «أولئك» للنبى صلى الله عليه وسلم، أو لمن هو أهل للخطاب مطلقا، فيكون قد وُجّه الخطاب لغير من وجه اليه فى السابق، فإن قوله: حبب اليكم وكره اليكم، الخطاب فيه للمؤمنين. وما أجمل موقع قوله: «أولئك هم الراشدون» بعد قوله: «واعلموا أن فيكم رسول الله»؛ فإن معنى هذه أنه فيكم يرشدكم ويهديكم، فمن اتبع هداه واسترشد بإرشاده فهو الراشد حقيقة، وأما من ركب رأسه، وتملكه هواه، واتبع ما تمليه عليه نفسه، فهو بعيد عن الرشاد.

وقوله: «فضلا من الله ونعمة» راجع الى حبب وكره، أى فعل ذلك بكم فضلا منه ونعمة، أو الى «الراشدون» أى أنهم هم الراشدون بفضل الله ونعمته. والفرق بين الفضل والنعمة، أن الفضل منظور فيه الى جانب الحق جل وعلا، أى أن ذلك كان منه تفضلا لا وجوبا، وأنه من الخير الكثير الزائد عنده فى متناول قدرته وعلمه. والنعمة ملحوظ فيها جانب العبد واحتياجه، أى هو مع كونه من فضل الله دافع لحاجتكم جالب للخير والنفع اليكم. وقد ختمت الآية الكريمة بقوله عز من قائل: «والله عليم

حكيم » لتملأ النفوس اطمئنانا لالتزام أوامر الله عز وجل ، ووثوقا بحكمته وعلمه ، فلا يتخطوا ما أمرهم به صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه ، ولا يتسرعوا فى إبداء آرائهم ، ولا يحرصوا على متابعتها ، فالله عليم بما فيه مصلحتهم ، حكيم يضع الأمور فى نصابها . فيكون كالتعليل ، أو كالتدليل لما يستفاد فى الآية السابقة من الآداب والإرشاد . ويصح أن يرجع الى قوله : حبب اليكم وكره اليكم ، أى أنه يفعل ذلك على وفق علمه وحكمته ، فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وكل ذلك بعلم وحكمة بالغين منتهى الكمال ، والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى

احترام الامراء لمجالس الحكم

قال العتبى : تنازع ابراهيم ابن أمير المؤمنين المهدى هو وبختيشوع الطبيب النصرانى بين يدى أحمد بن أبى دواد القاضى فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فزرى عليه ابن المهدى وأغلظ له بين يدى أحمد بن أبى داود ، فأحفظه ذلك ، فقال يا ابراهيم : إذا نازعت أحدا فى مجلس الحكم فلا تعلين ما رفعت عليه صوتا ، ولا تشر اليه بيد ، وليكن قصدك أمما ، وطريقك نهجا ، وريحك ساكنة ، ووف مجالس الحكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجيه الى الواجب ، فان ذلك أشبه بك ، وأشكل لمذهبك فى محتدك ، وعظم خطرك . ولا تعجل فرب عجلة تهب ريثا ، والله يعصمك من الزلل ، وخطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم .

فقال ابراهيم للقاضى : أصلحك الله ، أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بعائد الى ما يثلم مروءتى عندك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فانى عائذ معتذر اليك من هذه البادرة ، اعتذار مقر بذنبه ، باخع بجرمه ، فان الغضب مايزال يستفزنى بمواده ، فيردنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد وهبت حقى من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك اللوم يوفى بأرش الجناية ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .

الماديون وأصول الأخلاق

ينكر الماديون وجود الخير المطلق ، زاعمين أن الخير والشر أمران نسبيّان ، فما ينفع الانسان يسميه خيرا ، وما يضره يسميه شرا . ويبتنى على هـذا أن ليس للأخلاق أصول أولية أوجدها الخالق وطبع الناس على الأخذ بها فى أعمالهم وتصرفاتهم ، وإنما هى المصالح الوقتية تحتم عليهم اتباع هذه الخطة أو تلك ، تبعا لما تقتضيه تلك المصالح نفسها منهم .

وهم فى هذا الشطط إنما يصدرون عن فلسفتهم المادية ، إذ يزعمون أن الانسان حيوان ، لا فرق بينه وبين غيره من الحيوانات إلا فى كمال جثمانه ، وفى قبوله للترقى ، لقيامه على تركيب يسمح له بذلك . وهو مثل سائر الحيوان ليس له روح تخلد فى حياة بعـد هذه الحياة الأرضية . وكل ما عزاه الإنسان لنفسه من الخصائص الروحية والعقلية ، ومن الاتصال بعالم أعلى من هذا العالم ، إنما هو شيء زينه له الهوى والخيال ، وأرسخه فى ذهنه الوهم والضلال .

رأس الماديين المعاصرين (بوخنر) الفيلسوف الألمانى الذى توفى سـنة ١٨٩٩ قد حشر فى كتابه المسمى (القوة والمادة) جميع الأصول المادية ، وبالغ فى دعمها بما زعمه من المقررات العلمية ، حتى سمى أشياعُه هذا الكتاب بالكتاب المقدس للمادية .

ادعى هذا الفيلسوف فى كتابه أن ما يسمى بالناموس الأدبى خيال محض ، واتّهم الروحيين من الفلاسفة بأنهم سريعو الانخداع بالقشور ، فعاب عليهم ادعاءهم وجود خير مطلق ، زاعما أنه ليس فى الوجود أصل أدبى مقرر ، فقال :

«إن المبادئ الأدبية ثمرة التربية ، وهى تترقى وتتهذب على طول الزمان حتى لدى الأمم المتمدنة ، والوجدان الأدبى مثل الوجدان الدينى من مبتكرات قادة الأديان الذين يدعون أنهم يصدرون عن الله مباشرة ، فما الوجدان الأدبى فى حقيقته إلا الاعتقاد

بوجوب أعمال محدودة اعتبرتها الهيئة الاجتماعية أصولا يجب الأخذ بها لضرورتها لها ليس إلا »

هذا ماقاله بوخنر ، ولكن التحقيق أن للصفات السامية أصولا إلهية يجب البحث عنها من طريقها ، وقد ألهم الله الانسان أن يعيش فى هيئة اجتماعية من بنى نوعه . ولما كانت الحياة المشتركة لاتقوم إلا على أصول من العدل والأخلاق والآداب ، أوحى الله الى الانسان الأول التمسك بها ، وتتابعت الأديان السماوية على حض الناس على التقرب من مُثُلها العليا ، على قدر ما تمكنهم من ذلك الوسائل العلمية والأدبية .

ولكن بوخنر ينكر كل هذا ويزعم أن ليس هذا الوجدان الأدبى بفطرى فى النفس البشرية ، وإنما هو مجموع عادات أوجبها على الشخص المكان الذى يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجوب تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية . فالخير عنده ليس له أصل قديم ثابت وإنما هو الخلق الذى ينطبق على حاجة النوع الانسانى أيًّا كانت طبيعته .

وعليه فقد يعتبر الشر فى زعمه خيرا والعكس بالعكس . فالمجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة كما يقول ، فلئن عاقبته الهيئة الاجتماعية فإنما تعاقبه لأن ما فعله خطر على نظامها الحيوى ، وهى لها الحق فى معاقبته ، لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

ثم تصدى بوخنر للحرية الإنسانية التى اعتبرها العلماء الروحيون مبدأ للاختيار والارادة ، فهدمها قائلا : إنها وهم باطل ، فإن الانسان فى ذاته حادث طبيعى محكوم بالطبيعة التى كوّنته ، وبالمناخ الذى نشّأه ، وبالبيئة التى ربّته ، وبالجنس الذى نسله ، وبالتربية التى غُرست فيه من صغره .

يرى القارىء مما مر أن الماديين يجعلون الحاجة الاجتماعية أصلا لسائر الأصول الأدبية والاجتماعية ، وأن هذه الأصول لا أصل لها لا فى فطرة الانسان ، ولا فى الخارج .

وقد قالوا : إن الحاجات الانسانية هي : (أولا) حاجات مخية . (ثانيا) حاجات قلبية . (ثالثا) حاجات حسية . (رابعا) حاجات غذائية ، مرتبة هذا الترتيب . والذى يدعو الى اعتبار الحاجات المخية فى المقدمة كونها أرقى مما يليها ، والذى يليها أرقى مما بعده ، الى الحاجات الغذائية التى هى دون جميع الحاجات ، إذ يشترك فيها أدنى النباتات مع الانسان .

وقالوا : على هذه الحاجات قامت حياة الانسان فى كل جيل ، ونشأ منها جميع ما يتشدق الانسان به (فى زعمهم) من الألفاظ الضخمة والعبارات الطنانة ، مع أنها لا تعلو عن الحاجات الحيوانية فى كبير شىء .

ونحن لأجل الرد على هذه الشبهات نقول :

مما لا يستطيع بوخنر نكرانه بوجه من الوجوه ، أن فى الكون نظاما ثابتا لا يتغير بتغير الأزمان ، ولا يتحول بتحول الانسان . هذا أصل تعترف به كل فلسفة فى العالم . ذلك النظام مشاهد محسوس ، عليه بنيت جميع العلوم ، وبينه وبين الانسان ارتباط من جميع الوجوه ، بل الانسان لا يستطيع الافتكاك عن هذا النظام لأنه جزء من أجزاء الكون . وقد اكتشف الانسان فيما وقع عليه بصره من هذا الكون علاقات بين الحوادث والظواهر سماها نواميس طبيعية ، وتتبعها فى الحوادث المشابهة فوجدها ثابتة لا تتغير .

فوجود هذا النظام الكونى البديع ، وتلك النواميس الطبيعية الحكيمة ، حقيقة ثابتة لم نسمع بمن حاول نقضها قديما ولا حديثا حتى الماديين أنفسهم .

ثم إنه مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن الانسان امتاز عن جميع الكائنات المحسوسة بأنه كائن عاقل مدرك ، عَقَل أن له وجودا خاصا ، وأدرك أن فى الوجود العام الذى يعيش فيه نظاما له نواميس مقررة لا يحيد عنها إلا بإرادة عليا من مبدعه .

وإن الانسان فكّر وتدبر ، وقاس حاضره على ما ضيه ، وقارن بين حوادثه المختلفة ،

فأدرك بعد انتهائه الى درجة عالية من العقل أن كمال حياته مرتبط بكمال إدراكه لتلك القوة الحافظة للنظام الكونى . وتاريخ الفلسفة حافل بكل هذه المحاولات فى خلال العصور .

ولقد أدرك الإنسان أنه لم يمتز على سائر الكائنات بالعقل إلا لأنه خلق لإدراك غاية لا يدركها سواه من سكان هذا العالم ، وأنه سوف يحقق لنفسه بها كمالا يسيطر به على الطبيعة نفسها ، فيستخدم قواها لمصلحته ومصلحة ما يحيط به . هذا ما أجمع الفلاسفة على القول به ، وهو ما يسميه الإسلام بخلافة الله فى الأرض

ترقى الانسان فى العلم والشعور فرأى فى الكون دلائل ناطقة على العناية الإلهية بالكائنات ، وعلى وجود قوى لا يدرك كنهها دائبة على تربيتها وتكميلها ، وعوامل خصصت لترقيتها وتهذيبها ، فهو أينما يوجه وجهه لا يرى إلا آثار تلك العناية ، ودلائل هاتيك القوى ، وهذا ما يسميه علماء الكون بناموس الارتقاء العام .

وقد تعمق الإنسان فى البحث عن هذه القوى الدائبة على ترقية الكائنات وتكميلها فوجدها فيضا دافقا من مدبر حكيم لا يحيط به عقله ، ولا يستوعبه ذهنه ، إذ وجد فيها نظاما لا يتطرق الخلل اليه ، وإحكاما لا يجوز الخبط عليه ، وعدلاً لا تفلت منه الذرّة ، وعناية نشرت رواقها على كل كائن ، فعاش فى ظلها ما لا يحتمل اللمس ضعفا ، كما عاش ما يرجّ الأرض بمشيته قوة ، إذ أمدت ذلك الضعيف بما به قيامه وبقاؤه ، وألهمته ما يدافع به عن نفسه ويحفظ نوعه .

أدرك الانسان كل هذا وعقله ، وأعجب به وأشاد بذكره ، ولم يتخلف الماديون عن غيرهم فى هذا المجال ، فوضعوا المطولات فى سرد بدائع الطبيعة ، والنظام السائد فيها ، والترابط المحكم بين أجزائها ، ووقف الإنسان أيضا بصورة إجمالية على بعض ما فى الكون من تقدير وتدبير وقصد ومراعاة للأصلح .

وهل كل هذه الصفات الفائضة على الكون إلا أصول سامية قامت عليها

السموات والأرض ، وانتظمت بها عوالمها حتى بهرت ظواهرها العقل ؟ وهـل هى إلا خير محض ، وجمال بحت ، وكمال لا يقف جلاله عند حد ؟

فكيف يسوغ لفيلسوف بعد هذا أن يقول : إنه ليس فى الـكون أصول أدبية ، وإن الخير والشر أمران نسبيان ، فما ينفع الإنسان سماه خيرا وما يضره سماه شرا ، والواقع أن الشر كل ما خالف نظام الوجود وآدابه ، والخير كل ما وافقه وساير نظامه ، والانسان مدفوع لمحاكاة الطبيعة فى آدابها ونظامها ، فكلما بلغ من ذلك حدا قلّ شره على نسبته ، فلا يزال يتحراه ويقتاس به حتى يصبح رجلا كاملا متخلقا بأخلاق مبدعه الظاهرة فى مصنوعاته ، الواضحة فى أعلامه ، التى نصبها لمن يعقلها من كائناته ؟

كيف يزعم زاعم أن العدل والظلم يستويان ، وأن القسوة والرحمة يتعادلان ، وأن الجهل والحـكمة يتوازيان ؟ وهلا يرى أن النوع البشرى مدفوع الى الأخذ بالصفات العليا ، ودائب فى الابتعاد عن الصفات الدنيا ؟ ألم يفرد للتمدح بالفضائل كتبا ، ويقم للعاملين بها نصبا ؟

لعل الذى فتن هؤلاء المـاديين أنهم يرون القبائل العريقة فى الوحشية لا تفرق بين المحامد والمذام من الصفات الانسانية ، ولـكن أيخفى عليهم أن هذه الجماعات ما قضى عليها بما هى فيه غير الجهل ، وأنها متى أمدت ببصيص من نور العلم اندفعت بفطرتها لتحرى الفضائل ، والإملاس من الرذائل ؟

إن التمويهات الـكلامية التى ساقها بوخنر فى كتابه ، وافتتن بها بعض البسطاء من قرائه ، لا يصح أن تـكون ماثلة فى فلسفة القرن العشرين إلا على سبيل التدليل على فساد الذوق المنطقى عند ماديى القرن التاسع عشر ، فإن الفيلسوف الذى يسمح لنفسه أن يقول كما قال بوخنر : « إن المجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة ، وإنما هو يعاقب لأنه أتى فعلا يضر بالمجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه » . إن متفلسفا كهذا لا يصح أن يحشر فى عداد أهل التفـكير والروية ، فإنه بحكمه على الانسان بهذا

الانحطاط قد سلبه أخص معارفه الضرورية ، من التمييز بين الجمال والقبح ، وقد ثبت وجود حيوانات تفرق بينهما . وإذاً يكون الانسان أحط منزلة من الحيوان .

الخلاصة أن النظريات المادية الإلحادية ليست كما ترى إلاعصارة من آراء ضالة ، وسفسطات بأرة أدت الى مذهب لا يفتتن به إلا الذين تستهويهم الزخارف الكلامية ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة على تحليل المسائل الفلسفية ؟

محمد فريد وجدى

طرف من احتياط القضاة

قال الشعبى : كنت جالسا عند شريح القاضى ، إذ دخلت عليه امرأة تشتكى زوجها وهو غائب ، وتبكى بكاء شديدا .

فقلت : أصلحك الله ، ما أراها الا مظلومة . قال وما علمك ؟ قلت لبكائها . قال لا تفعل ، فان إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وهم ظالمون .

قال سفيان الثورى : جاء رجل يخاصم الى شريح القاضى فى سنور . فأمر أن يحضر بينة تشهد له . قال الرجل : ما أجد بينة فى سنور ولدت عندنا .

قال شريح : فاذهبوا بها الى أمها فأرسلوها ، فان استقرت واستمرت ودرت فهى سنورك ، وإن هى اقشعرت وأزبأرت ، فليست بسنورك .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له حتى يأتى خصمه ، فلعله قد فقئت عيناه جميعا .

وكتب عمر بن الخطاب الى معاوية . إذا تقدم الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة ، وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتعاهد الغريب فانك إن لم تتعاهده سقط حقه ورجع الى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس فى لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس مالم يتبين لك فصل القضاء .

تفسير قوله تعالى
(إِنَّ فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

وبيان بعض آيات الله فى مخلوقاته

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

اعلم أن الله أمرنا بالتفكر فى مخلوقاته وما أودعه فيها من الأسرار الناطقة بوحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ؛ وذكر لنا نماذج من تلك الآيات فى كتابه العزيز فقال : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » وقال : « ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ » « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » .

وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : « يكفينى فى الدلالة على الله وإبطال قول الماديين وجود الأنثى بجانب الذكر ، فمن الذى أشعر المادة الصماء العمياء أن بقاء نوع الانسان يتوقف على وجود المرأة بجانب الرجل ، فأوجدت له الأنثى ومتّعها بكل ما يوجب ميل النفس اليها ، وفرقت بينها و بينه فى الخصائص والمميزات حتى فى صوتها ؟ الخ » .

وقال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها » « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » وقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال :

« قُتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره »
وقال عز من قائل : « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون » . وقال : « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » وقال : « أيحسب الإنسان أن يُترك سدى . ألم يك نطفة من منيّ يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقال: « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » . وقال : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقال : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » الى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يكاد يحصى .

وقد روى : « تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة » . بل جاء في بعض الروايات : « خير من ستين سنة » . وفي بعضها « خير من ثمانين سنة » . ولكنها قد تكلم فيها وهي صحيحة المعنى . فرب فكرة توصلك من محض الإيمان وصريح الإيقان ، وتعرفك من عظمة الله وجلاله مالا تنفع فيه عبادة السنين المتطاولة ولا الجهود الشاقة . وأنى لعبادة الظواهر أن تصل من تطهير القلوب الى ما تصل اليه الفكرة في بديع صنع الله الذى يملأ قلبك هيبة وخشوعا ، وسرّك عظمة وإجلالا .

وعن عطاء بن أبي رباح قال : « انطلقت أنا وعبيد بن عمير بن قتادة الليثي قاضي أهل مكة الى عائشة رضي الله عنها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : ياعبيد مايمنعك من زيارتنا ؟ قال: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر غبا تزدد حبا ، قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا : أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : ذريني أتعبد لربي عز وجل ، فقام الى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يارسول الله

مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: ويحك يابلال : وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ؟ ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

رواه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبى الدنيا فى التفكر ، وابن عساكر ، كلهم عن عطاء .

وفى بعض الروايات « ثم قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة » ويعجبنى كثيرا قول من قال :

تبصر حيث كان لك التبصر   وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر   تأمل فى نبات الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المليك

الى أن قال :

شموس فى البرية طالعات   نجوم فى الدياجى مشرقات
عيون من لجين شاخصات   على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وكان سفيان الثورى كثيرا ما ينشد :

إذا المرء كانت له فكرة   ففى كل شىء له عبرة

وليست دلائل الوحدانية وآيات القدرة مختصة بشىء دون شىء ، بل هى فى الصغير كما هى فى الكبير ، وفى الحيوان كما هى فى الانسان ، وفى البر كما هى فى البحر ، وفى الأرض كما هى فى السماء ، ولله در أبى العتاهية حيث يقول :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

ويقول أمية بن أبى الصلت :

هاج للقلب من هواه ادكار وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى كل فج مشرقات وفى الدجى أقمار

الى أن قال :

والذى قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

وقبل الخوض فى تفاصيل بعض الجزئيات نذكر كلمة وجيزة عن سعة الكون وعظمته فنقول :

كنا نقول فيما رويناه عن سلفنا الصالح إن الأرض بالنسبة الى السماء الأولى كحلقة ملقاة فى فلاة ، والسماء الأولى بالنسبة الى الثانية كحلقة ملقاة فى فلاة ، وهكذا الى أن نقول : إن السموات السبع بالنسبة الى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة ، وكذلك نسبة هذه العوالم كلها الى العرش . ونقول عند الرفع من الركوع : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد .

فاسمع الآن مايقوله أرباب العلوم الحديثة الذين لايروون عن رسول ولايقولون بالروايات والأخبار ، ولكن بالمشاهدات التى أوصلتهم إليها آلاتهم الحديثة مثل التلسكوب (المنظار المقرب) والشعاع الطيفى الذى جعل ما كان مغيبا خفيا مشاهدا محسوسا .

وقد اصطلحنا فى بيان المسافات البعيدة بذلك المقياس الذى نعرفه فى عباراتنا العصرية أعنى الكيلو متر ، ولكنهم رأوا أن ذلك المقياس ضئيل جدا لا يغنى فتيلا فى موضوع بيان سعة العوالم وبيان أبعادها . فاذا جعلوا من المقاييس ؟ جعلوا المقياس لذلك شيئا يسمى برسكا ، وما البرسك ؟

هو مقدار سير النور مدة ثلاث سنوات وسدس ، وما مقدار ما يسيره النور في سنة ؟ أو نقول : وما هي السنة النورية ؟

السنة النورية أمر يفوق الوصف ولا يكاد يصدقه العقل ، فإن النور يسير في الثانية ٣٠٠ الف كيلو متر . وإياك أن تقول إن ذلك في الدقيقة ، وإنما هو في الثانية التي هي جزء من ستين جزءا من الدقيقة . فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس ، وهو ما جعلناه مقياسا . فانظر الآن ما يكتبونه عن بعض السدم البعيدة عنا .

يقولون : إن سديم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك ، أي نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وإن السدم التي تمكن العلم من قياسها هي كما يأتي :

١ — ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكا ، أي نحو ٢٠٧ سنة إذا سرنا اليها بسرعة النور .

٢ — ثلاثة نجوم سديمية معروفة باسم (نوفا) تبعد عنا ١٧٥ برسكا ، أي نحو ٤٣٥ سنة نورية .

٣ — خمسون سديما مظلما ونيرا تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أي نحو ١٠١٤ سنة نورية .

٤ — سبعون سديما تبعد عنا ٩٠٠ برسكا (وندع الحساب اليك فلا نطيل به) .

٥ — تسعة وستون سديما تبعد عنا ٢٣ ألف برسك .

٦ — سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ ألف برسك .

وهذا البيان مأخوذ من تقرير رفع الى أكاديمية العلوم بفرنسا في شهر مارس سنة ١٩٢٣

وقد قال بعضهم عند ما أدهشته سعة العوالم : إن هذه العوالم لا نهاية لها . وقد وقفت آلاتهم الحديثة على عظمها وشدة التفنن فيها أثناء تلك العوالم ولا يدرون ما وراء ما اكتشفوه . ألا يعرفنا ذلك صغرنا وضآلة أمرنا ويفهمنا معنى قوله تعالى : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وقوله : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقوله : « ويخلق ما لا تعلمون » وقوله صلى الله عليه

وسلم : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ؟ ويعجبنى قول اللورد (أوفبرى) الانجليزى فى كتابه (محاسن الطبيعة) عند ما ذكر شيئا من سعة العوالم التى لا تكاد تتناهى : « فليكسر الحساب أقلامهم وليطووا أوراقهم ، فإن الأمر فوق العد والحساب » .

وقد ذكروا أن أرضنا هـذه أصغر من الشمس بألف وأربعمائة مرة . وذكروا أن الشعرى أضوأ من شمسنا هذه بنحو خمسين مرة ، وأن بنات نعش أضوأ منها بنحو ثلاثمائة مرة ، وأن السماكين أضـوأ منهـا بنحو ستمائة مرة ، ولـكن بعدها الشاسع جعلنا لا نرى منها إلا الضوء الضئيل . أما شمسنا هذه فهى قريبة منا قربا نسبيا ، فإن الضوء يأتينا منها فى مدة ثمان دقائق وثمانية عشرة ثانية .

وقد اقتضت حكمة الحـكيم أن يجعل الأرض على هذا البعد ، لأنه لو جعلها بعيدة جـدا لم ننتفع بحرارة الشمس ولا ضوئها هذا الانتفاع . وإذاً لا يـكون على الأرض نبات ولا حيوان . ولو جعلها قريبة من الشمس جدا لـكانت كنار جهنم ، فـلم يعش عليها حيوان ولا إنسان . فسبحان الحـكيم العليم .

« يتبع »

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

العطية على قدر المعطى

مر يزيد بن المهلب فى طريق البصرة بأعرابية فأهدت اليه عنزا فقبلها وقال لابنه : ما عندك من نفقة ؟ فقال : ثمانمائه درهم . قال : ادفعها اليها . فقال له ابنه : إنها لا تعرفك ويرضيها اليسير . فقال له أبوه : إن كانت لاتعرفنى فأنا أعرف نفسى ، وإن كان يرضيها اليسير ، فأنا لا أرضى إلا بالـكثير .

الحياة الدينية والحياة المدنية

يخيل لبعض الناس أن الحياة الدينية تنافى الحياة المدنية ، ولهم فى إثبات هذا التنافى مذهب ليس له أصل من الفلسفة ولا من حقائق الأشياء ، إذ يتوهمون أن الحياة الدينية تقتضى الزهد والتقشف والعزوف عن كل متعة أو رفه ، وحبس قوى النفس على الأمور الأخروية ، حتى زعم زعماؤهم أن الأمم التى تأخذ بالدين لا يرجى لها تقدم فى باحات العمران ، وأنها تجمد حيث هى معطلة جميع مواهبها ، لا تستثمر علما ، ولا تكتشف مجهولا ، ولا ترقى صناعة ولا فنا ، حتى تهم بها دولة مستعمرة فتبتلعها غنيمة باردة ، أو تبقى على ما هى عليه أمدا ، ثم يضطرها الإهمال والخمول الى الانحلال ، فتفنى فى أجساد الأمم الأخرى . ومن ثم يجعل هؤلاء الزعماء ديدنهم العمل على تشكيك الناس فى دينهم بطرق شتى ، رجاء أن يضعفوا سلطان الدين عليهم ، ولا يهمهم أدفع بهم هذا التشكيك الى الإباحة أم الى المادية البحتة .

ولست أدرى أدرس هؤلاء الزعماء التاريخ فعلموا أن الإسلام أحيا أمما كان الجمود قد أناخ عليها بكلكله ، وأسس دولة لا تغرب عن ممالكها الشمس ، وبعث العلوم والفنون من أجداثها ، وزاد عليها مما فُتح على أهله علوما وفنونا جديدة ، فكان سببا فى إحياء أوربا ودفعها الى ما وصلت اليه اليوم من علومها وصنائعها التى مزجتها بمدنيتها الزائفة .

فالدين الذى حوّل الأمم الجامدة الهامدة ، الى أمم حية راقية رفعت لواء خلافة الله فى الأرض أجيالا متعاقبة ، لا يعقل أن ينقلب الى دين يكون سببا لجمود الأمم وتجريدها من أسباب الحياة وعوامل الرقى .

إن هؤلاء الزعماء يعرفون كل هذا ، ولكنهم يتخيلون أن الأمور قد حالت ، فما كان يصلح أساسا للمجتمعات فى الزمان الغابر ، لا يصلح أن يكون أساسا لها

فى العصر الحاضر، فيقولون إن الناس كانوا يُعنَون فى سالف العهود بشئون روحية مع شئونهم المادية، ويجهدون وراء التوفيق بينهما، ولكن الأمم اليوم لا تعبأ إلا بالشئون المادية، فاذا وُجدت أمم تتحرى التوفيق بينهما لزمها أن تتوقف عن الأخذ بأمور كثيرة عُدت اليوم من مقتضيات المدنية.

هذه شبهة يدلون بها الى الناس، فيتلقاها الذين لا يعلمون بالقبول باعتبار أنها ترمى الى سر من أسرار علم الاجتماع، وهى فى الحقيقة لا ترمى الى شىء غير دعوة صريحة الى التحلل من تكاليف الأخلاق، والتكالب على الأخذ بجميع آفات المدنية وأدوائها بغير حساب.

لقد سبقت من هؤلاء دعوة حارة الى ضرورة اختلاط الجنسين، والى وجوب عمل المرأة خارج بيتها، مستأنسين فى دعوتهم هذه بما عليه النساء فى الأمم المتمدنة، فافتتن بهذه الدعوة جميع من لا بصر لهم بالأمور، واطّرحوا كل ما عورضت به هذه الدعوة من طريق العلم الاجتماعى والفلسفة والأخلاق، فلم يمض على هذا القول ربع قرن حتى وقعت أوروبا وأمريكا فى شر هذه الأزمة العامة، فنظر أهلهما فاذا العامل الوحيد الذى أدى الى شيوع البطالة إنما هو أن النساء قد هجرن بيوتهن واشتغلن بأشغال الرجال، ورأوا أن ضرر هذه الرخصة لم يقف عند حد البطالة، ولكن تعداها الى نظام الأسر وتربية الأطفال، وانتشرت العزوبة الى حد مريع، وفسدت بذلك الأخلاق فسادا يعز إصلاحه على الأساة، فأخذ قادة تلك الأمم يعملون على رد الأمور الى نصابها الطبيعى، بكف يد المرأة عن العمل الخارجى، وردها الى مملكتها الطبيعية وهى الأسرة، وهيهات أن يتم لهم ذلك إلا فى أجيال يكابدون فى أثنائها من الشدائد ما لا قبل لنا ببيانه.

فماذا جنى الأغرار عندنا الذين اتبعوا هؤلاء الاباحيين من آثار دعوتهم الى وجوب اختلاط الرجال بالنساء، والى عمل هؤلاء خارج بيوتهن غير ما نشاهده

من فساد الأخلاق ، وانحطاط النفوس ، وتفاقم الشهوات ، وانتشار العزوبة ؟ واليوم يمدون من مطامحهم فيدعون الى وجوب الأخذ بكل جديد ، دون التقيد بالمبادئ الأولية للأخلاق ، كأنهم يريدون أن نأخذ بجميع أدواء المدنية .

وكأنه ما كفانا أن نقع بسبب دعوتهم الى اختلاط الجنسين فى كل ما نشير اليه من الشرور ، فقاموا يدعوننا للأخذ بجميع تلك العلل جملة ، حتى يكون تدهورنا فى تيهور الانحلال غير قابل للعلاج .

إنهم لا يقصدون ذلك كما هو بدهى ، وإنما هو قصر النظر وخطأ التحليل ، والافتتان بالظواهر تطوح بهم الى هذه المتاهات ، وهى حالات تضطر حفظة الاجتماع الى زيادة التنبه ، وشحذ الهمم لإبطال دعوتهم بالأسلوب العلمى الصحيح .

يتوهم بعض الناس أن الحياة الصالحة تنافى متع المدنية الصحيحة ، وتجعل الأمم كجماعات من المتبتلة لا يتسع لهم الوقت لغير القيام بالواجبات الدينية ، فإذا صح انطباق هذا التوهم على بعض الأديان فلا يصح مطلقا أن يوصم به الاسلام ، وهل بعد قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ وجه لإذاعة مثل هذه الشبهة بين الناس ؟

الإسلام لم يحرم على إنسان متعة من متع الحياة الصالحة ، بل أباحها بشرط أن لا تدفع به الى عالم الحيوانية ، وتدس به فى حمأة الإفراطات الشهوانية . فهو يبيح له التمتع بالملذات الى الحدود التى قرر العلم أن ما وراءها يؤدى الى شرور شنيعة ، وأخطار على المجتمع مريعة .

فهو يحرم الخمر والمقامرة ، والبغاء والتهتك والإفراط ، وكل ما ينافى كرامة الانسانية ، ويحط من قيمتها ، وهى صفات قرر العلم فى كل زمان ومكان أنها آفات يجب تجنبها ، لما يبتنى على شيوعها من العلل الاجتماعية الخطيرة . فإذا كان من الناس من يزعم أن الحياة لا تكون هنيئة سعيدة إلا إذا أبيحت فيها هذه المحظورات فقد

أخطأوا خطأ لا يغتفر . فإن الذى يرى أن هناءه لا يتحقق إلا إذا أبيح له أن يتعاطى السوائل السامة المضللة للعقل ، وأن يلقى بماله جزافا فى اللعب بالورق ، وأن يترك ما أحل له ويجرى وراء الساقطات فى الشوارع والأزقة ، وأن ينتهك حرمات الآداب ويغرى فاسدات الأخلاق على انتهاكها ، وأن يأتى كل ما بدا له مخالفا الرسن لا يبالى أحفظ كرامة الإنسانية أم أهانها فى شخصه وأشخاص مشايعيه ، نقول : إن الذى لا يرى له هناءة إلا فى هذه المقاذر المنكرة ، فهو ضال عن طريق الهناء الصحيح الذى لا يشوبه كدر ، مما يتمتع به كملة الرجال وينعمون فيه . فهو يجهل لذات العقل السليم ، والاحتفاظ بالمال ، والاقتصاد فى توفية الشهوة على الحلال ، ويجهل نعيم التصون والاعتدال ، وحفظ كرامة الانسانية ، والمحافظة على الآداب .

إن لهذه الصفات السامية لذاتٍ يشعر بها المحافظون عليها ، ويحرصون على أن لا يحرموها ، وينظرون الى أهل الإباحة نظرهم الى المحرومين من مباهج الحياة ونعيمها .

يتخيل هؤلاء المفتونون أن ليس لصفات الكمال لذات ، وهو غاية الجهل ، ومنتهى الغباوة ، ودركة بعيدة القرار من قصر النظر وسوء التقدير .

يغر هؤلاء المفتونين أن للإباحة دولة فى أرقى أمم الأرض ، ويغفلون عن أنها السبب المباشر لكل ما فيه هذه الأمم من أزمات اقتصادية وعلل اجتماعية عجز تبريزها فى العلوم ، وتفوقها فى الصنائع والفنون أن تهتدى منها الى حل حاسم . فمن كان ضاربا مثلا فليضرب بالسليم المعافى ، لا بالمريض الذى يتطلب العلاج فلا يجده ، والذى يتوقع من آونة الى أخرى أن ينفجر ما كدسه بين يديه من مواد التدمير فتلقى بالمدنية الى مكان سحيق (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

الصمت فى تشييع الجنازة

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

ماقولكم دام فضلكم فيما ورد من حديث « إن الله تعالى يحب الصمت عند ثلاث : عند قراءة القرءان ، وعند الزحف ، وعند الجنازة » وحديث « أكثروا فى الجنازة من قول لا إله إلا الله » ؟ فقد قال صاحب مصباح الظلام على نيل المرام على الحديث الأول عند قوله عند الجنازة الخ نقلا عن الحفنى : إن رفع الصوت فى الجنازة خلاف الأولى . ونقل عن البجيرمى أنه مكروه ، الى أن قال : إن هذا باعتبار الصدر الأول ، وإلا فالآن لا بأس بذلك لأنه شعار للميت لأن تركه مزر به ، بل لو قيل بوجوبه لم يبعد . مع العلم بأن الحفنى ذكر على الجامع الصغير فى معنى الحديث الثانى فقال : ولعل الحديث المأخوذ منه سن السكوت فى تشييع الجنازة والتفكر فى الموت مقدم على هذا الخ .

فهل ورد قول بأن رفع الصوت بالذكر أمام الجنازة محرم إجماعا ، وما جزاء من حكم بذلك وأنكر حديث « أكثروا فى الجنازة من قول لا إله إلا الله » ؟

محمود ابراهيم عبد ربه
رئيس مدرسة مسرع الالزامية

الجواب

اعلم أن المستحب حال السير بالجنازة وعند غسلها والصلاة عليها إنما هو الصمت وخفض الصوت والتفكر فى الموت ومابعده من أمور الآخرة ، لأن ذلك هو المناسب للحال ، ورفع الصوت فى هذه الأحوال مكروه ولو بالذكر والقرءان . وحديث الدنيا أشد كراهة .

ويدل على ذلك ما رواه البيهقى أن الصحابة رضى الله عنهم كرهوا رفع الصوت عند الجنائز والقتال والذكر، كما فى شرح الرملى على المنهاج. وفى شرح المهذب عن قيس ابن عباد أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يكرهون رفع الصوت عند الجنازة. وعن الحسن أنهم كانوا يستحبون خفض الصوت عندها. وعن أبى بردة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك. رواهما أبو داود.

ويدل على ذلك أيضا حديث الجامع الصغير، وهو « إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرءان، وعند الزحف، وعند الجنازة ». وهذا الحديث وإن لم يرد فى الصحيح بلفظه، لكن ورد فى الصحيح ما يعضده من الأحاديث المتقدمة التى استدل بها الفقهاء ومعلوم أن الفقهاء إنما يستدلون بالصحيح من الأخبار، فلا يعارضه حديث « أكثروا فى الجنازة قول لا إله إلا الله » وهو فى الجامع الصغير، لأنه ضعيف، وليس له شواهد تعضده كما ذهب الى ذلك الشيخ الحفنى. على أنه لا منافاة بين الحديثين، لأنه يمكن الإكثار من قول لا إله إلا الله سرا كما قال الشيخ العزيزى شارح الجامع الصغير.

هذا هو المنصوص عليه فى كتب الشافعية المعتمدة من المتون والشروح. وأما ما قاله بعض المتأخرين من الشافعية من استحباب رفع الصوت بالأذكار أمام الجنازة وعلل ذلك بأنه صار شعاراً لجنائز المسلمين وأن تركه مزرٍ بالميت وبورثته، فهو اجتهاد منهم مقيد بعلته، ولعله كان فى زمنهم. وأما الآن فلا نجد فى ترك ذلك احتقارا للميت ولا لورثته، بل تركه أكمل وأهيب للجنازة. على أنهم إنما استحبوا رفع الصوت بالذكر الصحيح المشروع. وأما ما يفعله بعض الناس من التغنى بالذكر، وتمطيط الحروف بالأصوات المزعجة، فهو أمر قبيح لا يستحسنه أحد، بل هو حرام فى الجنازة وغيرها يجب إنكاره كما قال ذلك العلامة الرملى فى شرحه للمنهاج، ونص عبارته: « وكره جماعة قول المنادى مع الجنازة: استغفروا الله له، فقد سمع ابن عمر رجلا يقول ذلك فقال:

لا غفر الله لك . والصواب كما فى المجموع ما كان عليه السلف من السكوت فى حال السير ، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما ، بل يشتغل بالتفكر فى الموت وما بعده ، وفناء الدنيا ، وأن هذا آخرها . ويسن الاشتغال بالقراءة والذكر سرا ، وما يفعله جهلة القراء من القراءة بالتمطيط وإخراج الكلام عن موضعه فحرام يجب إنكاره » انتهى كلامه .

وعلل بعضهم استحباب رفع الصوت بالذكر بأن ذلك يلهى الناس ويشغلهم عن الحديث فى أمور الدنيا . ذكر ذلك فى الحواشى المدنية . ومعنى هذا أنه إذا دار الأمر بين الاشتغال بالحديث الدنيوى وبين رفع الصوت بالذكر ، كان الثانى أولى . وهذا لا ينافى أن الأولى والأحب ترك الأمرين .

والخلاصة أن المستحب أمام الجنائز خفض الصوت والتفكر فى أمور الآخرة ، وأن رفع الصوت مكروه فقط ، ولم يقل أحد إنه محرم ، إلا فى حال التحريف للقرءان والذكر ، فيكون حراما لذلك ، والله الهادى والموفق الى سواء السبيل .

الحسينى سلطان — مدرس بكلية الشريعة

يوسف المرصفى — مدرس بكلية الشريعة

الصابون المتداول

وورد أيضا السؤال الآتى

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد أشيع من زمن بعيد أن الصابون المتداول الآن بين الناس غالبه مصنوع من الزيوت الحيوانية ، خصوصا من الحيوان المحرم لحمه وهو الخنزير . وقد يجهل البعض سر صناعته فيستعمله باعتبار أنه يجهل صناعته ، ويتناوله البعض وهو يعلم أمر صناعته ، لأنه أحسن استعمالا من الأصناف المصنوعة

من الزيوت النباتية ، بل قد يكون — فضلا عن جودته — أفيد طبيا من الأصناف المصنوعة من الزيوت النباتية ، مع ملاحظة أن الرغاوى لا تبقى بعد غسلها بالماء الخالص سواء كان غسلها مرة أو ثلاثا أو سبعا .

فما رأى فضيلتكم فى هذا الأمر : هل يجوز شرعا أم لا ؟ أفادكم الله وأثابكم .

حسن السيد زعزع

الجواب

الحكم فى هـذه المسألة ينبنى على أن انقلاب العين وتحولها من حقيقة الى أخرى يطهرها أم لا . وهى مسألة اختلف فيها الإمامان أبو يوسف ومحمد : فذهب أبو يوسف الى أن تحول العين لا يطهرها ، وذهب محمد الى أنه يطهرها ، لأن الحقيقة التى رتب عليها الشارع وصف النجاسة قد ذهبت والموجود عين أخرى ، فالحيوان الميت نجس بوصف الحيوانية والموت ، فاذا صار ملحا كان طاهرا ، لأن الحقيقة التى حكم عليها بالنجاسة غير موجودة .

وقـد اختار علماء المذهب قـول الامام محمد ، ونصو على أنه المفتى به ، فقد جاء فى فتح القدير على الهداية ما نصه :

« واختار كثير من المشايخ قول محمد ، وهـو المختار ، لأن الشرع رتب وصف النجاسة على تلك الحقيقة ، وتنتفى الحقيقة بانتفاء بعض أجزائها فكيف بالكل » ثم قال : « وعلى قول محمد فرعوا الحكم بطهارة صابون صنع من زيت نجس » اهـ .

ونقل ابن عابدين عن المجتبى ما نصه :

« جعل الدهن النجس فى صابون يفتى بطهارته ، لأنه تغـير ، والتغير يطهر عند محمد ، ويفتى به للبلوى » ثم قال ابن عابدين : وظاهره أن دهن الميتة كذلك . ثم نقل عن المنية ما يؤيده اهـ .

ومن ذلك يعلم أن الصابون المتخذ فى صناعته دهن نجس من حيوان ولو كان خنزيرا أوغيره ، طاهر ، ولا مانع من استعماله شرعا على ما هو المختار من مذهب الحنفية ، والله أعلم .

عبد السلام العسكرى الحنفى — المدرس فى كلية الشريعة الاسلامية

حسن يوسف البيومى الحنفى — المدرس بكلية الشريعة الاسلامية

زكاة الزرع

وورد أيضا سؤال نلخصه فيما يأتى :

بعض الملاك الذين أجّروا أرضهم لغيرهم بأجر سنوى من النقد المعلوم قدره لا يمكِّنون المستأجرين من غلة هذه الأرض حتى يستوفوا أجرة أرضهم ، ومن هذه الغلة حبٌّ تجب الزكاة فيه ، فإذا فرض أن الأرض المؤجرة أنبتت من الحب عشرين أردبا استولى عليها صاحب الملك فأخذ منها عشرة أرادب وأعطى المستأجر عشرة ، أو أخذ سبعة عشر وترك الباقى للمستأجر ، فعلى من تكون زكاة هذا الحب ؟

الجواب

إنه لا زكاة على مؤجر الأرض ، لأن زكاة الحبوب والثمار إنما تجب على مالكهما ، ومالك الحب فى هذه الحالة هو المستأجر وليس للمؤجر شىء فى هذا الحب ، إنما الذى له هو أجرة أرضه المتفق على أن تكون نقداً لا حباً .

وإذا كان المالك قد استولى على شىء من الزرع بغير حكم قضائى فهو غاصب ولا زكاة فى المال المغصوب ما لم يردّ الى صاحبه . فإذا أعطى المالك للمستأجر ما يبلغ النصاب وجب على المستأجر أن يخرج زكاة الحب الذى أخذه فقط . وأما ما أخذه المالك فهو مال مغصوب لم يتمكن صاحبه من رده ، فلا زكاة عليه فيه . وإذا أعطى المالك للمستأجر حباً لا يبلغ النصاب فلا زكاة عليه فيه .

أما إذا كان المالك قد استولى على الزرع بحكم قضائى بأن أذن له الحاكم بحجزه تحت إشراف من يرضاه ليستوفى منه دينه ، ففى هذه الحالة يكون للمستأجر صورتان : (الأولى) أن يكون مليئا قادرا على وفاء دينه من غير هذا الحب ، وحكمه حينئذ أنه يجب عليه إخراج الزكاة عن جميع ما أخرجت الأرض من حب . و (الثانية) ألا يكون قادرا على الوفاء إلا من هذا الحب بحيث إذا أدى دينه لم يبق له من الحب مقدار النصاب ، وللعلماء فى وجوب الزكاة عليه فى هذه الحالة خلاف : فمن الشافعى فى أصح قوليه أنه يجب عليه إخراج زكاة الحب كله ، لأن الدين لا يمنع وجوب الزكاة ، إذ الدين متعلق بالذمة والزكاة متعلقة بعين الحب فهى مقدمة على الدين ، فيجب إخراجها أولا ، وما بقى فللدائن . وعند أبى حنيفة وأصحابه وعند الشافعى فى قوله الثانى : لا تجب عليه الزكاة ، لأن الدين يمنع وجوبها .

الحسينى سلطان — مدرس فى كلية الشريعة

يوسف المرصفى — مدرس بكلية الشريعة

الاعجاز فى الايجاز

قيل للخليل بن أحمد : مالك تروى الشعر ولا تقوله ؟ قال : لأنى كالمسن أشحذ ولا أقطع .

ومر خالد بن صفوان برجل صلبه الخليفة ، فقال : أنبتته الطاعة ، وحصدته المعصية .

وذكر شبيب بن شبة خالد بن صفوان فقال : ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية .

قال ابن عبد ربه عقب إيراده هذا القول : «وهذا كلام لا يعرف قدره إلا أهل صناعته» .

وقال أبو جعفر أمير المؤمنين لعمرو بن عبيد الواعظ : أعنى بأصحابك يا أبا عثمان ، فقال : ارفع علم الحق يتبعك أهله .

وقال ابن الأعرابى : قلت للمفضل : ما الايجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد .

وتكلم ابن السماك يوما فأطال وجارية له تسمع ، فلما دخل قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : الى أن تفهمه من لم يفهمه ، مله من فهمه .

نظرة فى الديانة البهائية

ظهر فى نحو منتصف القرن التاسع عشر ببلاد الفرس مذهب جديد فى الدين دعا اليه الميرزا على محمد هنالك ملقبا نفسه بالباب ، يريد الباب الموصل الى الحقيقة ، وسمى مذهبه بالبابية . ولما انتهى الأمر فيه الى خليفته الملقب ببهاء الله نسخ اسمه الأول وسمى مذهبه بالبهائية . وإنا لناظرون فى أصول هذا المذهب نظرة نقد وتمحيص ، لما نراه من نشاط الدعوة اليه ، إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل ، فنقول :

للبهائية عقيدة فى الله على طريقة الذين يقولون بأنه مجموع الكائنات ، كما ورد فى كتابهم (البيان) مترجما عن الفرنسية من قوله : « الحق يامخلوقاتى أنكِ أنا »

وعندهم أن الله تعالى أرسل رسله بالحقائق الكلية على طريقة الرمز لقصور عقول الناس عن إدراكها ، مدخرا بيانها وكشف الأسرار عنها الى (بهاء الله) مظهره الأكمل فى آخر الزمان .

والرسل عندهم مظاهر لله نفسه ، يتجلى بهم على الناس لهداية خلقه ، فالسابقون على بهاء الله إنما بعثوا لينبهوا الطبيعة الانسانية النائمة ، فلما تم لها هذا التنبه ، واستعدت لقبول الحقيقة سافرة ، ظهر الله أولا بمظهر (الباب) الملقب بحضرة العلى ، ثم تم ظهوره وإشراقه أخيرا فى (بهاء الله) الذى كان منفيا فى عكاء ، فهو فى اعتقادهم المظهر الإلهى الأكمل ، تجلى على خلقه ليوحى اليهم الحقائق الخالدة التى توصلهم الى حظيرته القدسية العليا . قال داعيتهم الشيخ أبو الفضل الجرفادقانى فى كتابه (الدرر البهية) فى هذا الموضوع عن الأنبياء الأولين :

« وإنما بعثوا لسوق الخلق الى النقطة المقصودة ، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله ، وينتهى سير الأفئدة الى رتبة البلوغ ، فيظهر

(روح الله الموعود) يكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود » يريد بروح الله الموعود خليفة الباب المسمى (بهاء الله) .

وهم بعد أن قرروا هذه الأصول عمدوا الى نصوص الكتب السماوية ، وأخذوا يؤولونها تأويلات غريبة وبعيدة ، أملاها عليهم تعمقهم فى الخيال ، ليصلوا من ذلك الى ما يؤيدون به أهواءهم ومزاعمهم الزائفة ، وضلالاتهم السخيفة .

من التناقض الغريب أن يكون أساس الديانة التى تدعى كشف غوامض الأديان من الغموض والابهام ، بحيث تستعصى على الأفهام ، ولا يقبلها العقل فى أى زمان ، فإن القول بأن الله هو جميع الكائنات ، وأنه جل وعز قد يظهر فى بعض الأفراد ، ليهدى الناس الى سبيل الرشاد ، يرد عليه من النقد الداحض ما لا قبل لأحد على دفعه بالوسائل الكلامية . فاذا كان المذهب الذى يدعى بأنه كشف المشكلات ، وحل المعميات ، يجعل أساسه أغمض مسألة فى تاريخ المعقولات الانسانية ، كان ذلك خروجا منه على أصله ، وعدوانا صارخا منه على أساسه .

وإذا نظرنا من ناحية فلسفية ، فى تاريخ المسائل الدينية ، رأينا أن عاملين خطيرين قد فرقا بين الأديان ، وجعلا أهلها شيعا يضلل بعضهم بعضا (أولهما) ما تجرأ عليه قادتها من التهافت على تصوير الخالق بصورة ذهنية . و (ثانيهما) اعتمادهم على تأويل مالم يحيطوا بعلمه ، ولم يكلفوا البحث فيه من الشئون العلوية .

فبالعامل الأول اختلف أهل الملل فى تحديد ذات الخالق ، فأصبحوا بين ممدد ومجسم ، ومشبه ومعطل ، وجميعهم لا يصدرون عن علم مقرر ، ولا أصل محقق ، ولكن عن الخيال المحض . وقد تأدى أكثرهم الى تأليه أنبيائهم وقدّيسيهم ، فلما جاء الاسلام حسم مادة هذا العامل المفرق ، فقرر أن الانسان مهما حلق فى جو الخيال والتصوير ، وأبعد فى مجال النظر والتفكير ، فلن يصل الى إدراك ذات الخالق ، فأمر متبعيه بأن يقتنعوا بمحض الاعتقاد بوجوده مع تنزيهه الكامل عن كل ما يجول فى خيال المشبهين ،

وهو ما تدل عليه بداهة العقل . أما أى جهد يبذل فيما وراء ذلك ، ففضلا عن أنه لا يأتى إلا بخيال لا حقيقة له ، يكون أثره المباشر اختلاف النحل الى مذاهب لا عداد لها ، فلا تعود تجمعهم جامعة الدين الحق ، الموافق للفطرة البشرية ، والمناسب لدرجة قواها المعنوية ، فقد قال تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » وقال تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وقال تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار »

وإذا كان الانسان لم يستطع أن يدرك الى اليوم حقيقة المادة التى بين يديه ، ولا حقيقة نفسه التى بين جنبيه ، ولا تركيب الوجود الذى يراه بعينيه ، فمن الفضول أن يتطاول الى تصوير ذات الله بأى صورة تخطر بباله .

وأما العامل الثانى الذى مزق وحدة الأمم وجعلها شيعا ، فهو صرف نصوص الكتب السماوية عن ظواهرها الى ما يوافق أهواء البهائيين ، ويؤيد مزاعمهم التى يتشيعون لها .

جاء فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « إنى ذاهب الى أبى وأبيكم ليبعث لكم الفارقليط الذى ينبئكم بالتأويل » وقوله : « إن الفارقليط الذى يرسله أبى باسمى » فذهب المسيحيون الى أن المراد بالفارقليط روح القدس ، ولكن البهائية التى أولعت بصرف النصوص عن ظاهرها الى ما يؤيد أهواءهم قالوا إن المراد بالفارقليط بهاء الله . (انظر كتاب الدرر البهية) .

ومن هذا الشطط ما ذهبوا اليه فى تأويل يوم الحسرة ، ويوم التلاق ، ويوم القيامة ، والساعة وأمثالها ، مما ورد فى القرآن الكريم ، فقد أولوا كل ذلك بيوم نزول روح القدس ، وقيام مظهر أمر الله وهو البهاء فى زعمهم . وليس يخفى على عاقل أنه إذا سوغ البهائيون لأنفسهم مثل هذا التأويل الزائف ، فانه يجوز لكل طائفة أن تتخذ ما تشاء من التأويلات التى لا يرضاها عقل ليؤيدوا بها أهواءهم ، ما دام الأمر جاريا على قاعدة الترجيح بلا مرجح من أى ضرب كان .

ومن أغرب ما رأيناه من ضروب التأويل ما ذكره الشيخ الجرفادقانى فى كتابه

الدرر البهية فى تفسير قوله تعالى : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج » فقال : « إن فيها تعيين محل نزول الموعود ، وتصريحا بأن نداء الرب تعالى يرتفع من الأرض المقدسة أقرب الأراضى الى الأقطار العربية ، وهى الجزء الغربى من البلاد السورية » . يريد أن فى هذه الآية إشارة الى عكاء حيث كان يقيم بهاء الله ، وأنه هو المنادى المذكور فيها ، وبداهة العقل تشهد بأن هذه الآية وردت فى يوم القيامة ، كما هو ظاهر لا يحتاج الى تأويل .

يتضح للقارئ مما مر أن الديانة البهائية قد تأسست على العاملين اللذين فرقا الأديان وجعلا أهلها شيعا ، وهما الخوض فى تناول ذات الله بالخيال ، وإطلاق العنان للتأويل بدون ضابط من العقل ، ولا ترجيح من العلم ، ولا مسوغ من اللغة .

طموح البهائية الى أن تكون دينا عاما للبشر :

إن طموح البهائية الى أن تكون دينا عاما يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضى بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوى ، وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول اليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم . فأين هى من الاسلام الذى بنى أمما قوية ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم (برنارد شو) الفيلسوف الانجليزى المشهور . على أن مبادىء الاسلام يوشك أن تعم العالم أجمع . فهذه الحيوية القوية الدائمة فى الديانة الاسلامية ، وصلاحيتها لأن تكون دينا عاما للناس كافة ، إنما حصلتالها بسبب قيامها على حقائق إلهية خالدة :

(أولاها) موافقتها للفطرة التى فطر الله الناس عليها .

(ثانيتها) اعتمادها على العقل والعلم .

فبموافقتها للفطرة الانسانية ارتكنت على جملة الغرائز النفسية ، وينبوع قواها

المعنوية . ولا يخفى أن هذه الفطرة واحدة فى جميع أفراد النوع البشرى ، وما ترمى اليه من أغراض الوجود لا يتعدد إلا بعارض من التربية الفاسدة ، أو الوراثات الضالة ، ولكن الفطرة خلقت سليمة ، فلا تلبث حتى تستقيم على جادتها ، وتخلع كل ما صبغت به قهرا من الصبغ الوقتية ، فصيرها محتوم ومتعين ، وهو الوحدة العامة ، فلا مناص من أن الدين الذى يقوم على الفطرة الإلهية هو الذى سيكون له السيادة العامة حتما .

وباعتماد الديانة الاسلامية على العقل الكامل والعلم الصحيح ، قد ضمنت لنفسها العاقبة التى لامفر للعالم منها ، وهى الإجماع البشرى على أنها الدين الحق الذى لامعدل عنه .

فأنت ترى أن الاسلام قد استجمع جميع العوامل التى تضمن له التعميم والخلود ، وترد اليه الخلائق محفوزة بغرائزها الفطرية ، وبقوى الوجود التى تتولى الانسانية .

فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين ، أحدهما عتيق غامض ، قال به أفراد من محى السبْح فى الخيالات فى كل زمان ومكان ، ولم تصادف مذاهبهم إلا إعراضا ونفورا ، وهو تصوير ذات الله بصور المخلوقين . تعالى الله عما يقوله المبطلون علوا كبيرا . وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط ، قامت عليه فرق قبلها وجلت عن الأرض ولم تخلف أثرا .

ليس العالم فى حاجة الى البهائية :

إن من يستقرى أدوار التطورات العقلية ، والنظم الاجتماعية ، والديانات السماوية يجد أن كل تجديد فى هذه المجالات نشأ عن حاجة ماسة اليه من الشعوب والأمم ، وأن كل نجاح يصيبه دين من الأديان أو نظام من النظم يكون مناسبا للقدر الذى يحمله الى الناس من الوفاء بتلك الحاجات ، فقد نشأت الفلسفات والمذاهب متعاقبة ، فكان كل متأخر منها يكمل نقصا فى سابقه ، وجرت النظم الاجتماعية على هذا السمت نفسه ، فكان منها سلسلة متتالية الحلقات تسد كلُّ تالية منها خلة فى سابقتها .

وعلى هذا التدرج الطبيعى المطرد تتابعت الديانات على الانسانية ، فكانت كل

واحـدة منها تحمل للعالم نظاما جديدا دعت الحاجة اليه ، واقتضته الضرورة ، ناسخة ما بطلت الحاجة اليه ، أو ما كانت ضرورته محلية ، وتزيد على ذلك بيان ما أخطأ البشر فى فهمه من الوحى السابق عليها ، أو تصحيح ما تعمدوه من تحريفه .

فمن يتأمل فى الأديان السماوية الثـلاثة التى محص العـلم تاريخها ، وهى اليهودية والنصرانية والإسـلامية ، يجد هـذه التجديدات المتعاقبة ماثلة فيها مثولا محسوسا . فموسى عليه السـلام قضى على الوثنيـة فى أمته ، وجاء بشريعة هادمة لهـا ، وكافح الضـلالات التى كان يقول بها قومه كفاحا شديدا ، وبيّن أخطاءهم فيهـا بيانا صريحا . وعيسى عليه السلام أرسل لتعديل ما اعوج من أمر بنى إسرائيل ، وتصحيح ما تحرف من أصولهم ، مقررا أصولا جديدة دعت اليها ضرورة الاجتماع على عهده . ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين قضى على الوثنية التى كانت سائدة فى بيئته ، وتصدى لليهودية والنصرانية ، فرد أصولها الى حقائقها ، وقوّم نظر الآخذين بهما ، ونسخ مابطلت الحاجة اليه منهما ، ودعا العالم كله الى وحدة الدين ، ووحدة الوجهة والغاية ، مؤسسا دعوته هذه على أصل لا يمكن أن يختلف فيه عاقلان ، وهو : أن الله واحد ، ودينه لجميع خلقه واحد . فإن آنس ناقد أن الأديان متخالفة ، فإنما حدث ذلك من فعل قادتها ، والقائمين بشرحها وتأويلها ، فطالب كل آخذ بها ، بالرجوع الى أصلها ، وأصلها هو الإسلام الذى أوحى الى كل الرسل السابقين ، ثم الى خاتمهم محمد على فترة منهم . وشفع هذا البيان الحاسم بنظام اجتماعى محكم ، أقامه على الفطرة والعقل والعلم والأعلام الـكونية . وأودع ذلك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فهل العالم بعد هـذا البيان فى حاجة الى البهائية ؟ ما هى الأصول التى تسمح لها أن تطمح الى قيادة العالم كله ، وأن تقر بها السلام العام فى الأرض ؟

هى ما تحـلم به من أنهـا تفسر غوامض المسائل الدينية ، وتوفق بين نصوصها الـكتابية من طريق صرفها عن ظواهرها ، زاعمة أنها ترمى بذلك الى ربط الأمم برابطة

أخوية مجردة عن الخلافات المذهبية . وقد رأيت أثر هذا الأصل فى إفساد كيان الأديان وصرفها عن حقائقها الأولية .

هل آتت البهائية العالم أصولا جديدة :

تدعى البهائية أنها آتت العالم بجديد من الأصول لم يدر فى خلد المصلحين قبلها، كاتحاد الأديان ، وترك التعصبات ، واتحاد الأجناس ، ومساواة المرأة بالرجل ، والسلام العام ، متذرعين بذلك الى القول بأن القرآن ليس ختام الوحى السماوى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان آخر المرسلين إلا أنه ليس المظهر الأكمل لله تعالى ، وهى المنزلة التى حفظت فى زعمهم لبهاء الله وحده ، وأن الاسلام ليس بالدين العام الأخير ، فهذا الوصف لا ينصرف فى وهمهم إلا على البهائية دون سواها .

كل هذا ليس بحق ، وليس عليه مسحة من علم ، ولا عبقة من عدل .

فأما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق اليه الاسلام وأسسه على أقوى الأصول ، وحاطه بأحكم الدلائل ، فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأضاليل والأوهام ، فقد قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا واليه المصير » .
وقال تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون . قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق

ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . وقال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضا ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم ، جاعلا القول بهذه الوحدة أساسا للدين الحق ، لا يقبل إيمان يقوم على أساس غيره ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

فوحدة الدين كما ترى هى الأساس الذى يقوم عليه الاسلام ، والايمان بجميع الرسل والكتب السماوية شرط أولى فيه مع فارق كبير بينه وبين البهائية ، وهو أنه مع تأسسه على وحدة الدين ، يبين الأسباب التى ولدت من هذه الوحدة تعددا ، وهى ما دسه قادة الدين فيه من ضلالاتهم وخزعبلاتهم ، ثم يكر عليها بالنقض والتجريح ، على طريقة التمحيص العلمى الصحيح ، لا كما تفعل البهائية من تكلف تأويل كل هذه الضلالات التى ثبت علميا أنها من مولدات الأوهام فى عصور الطفولة البشرية .

أما ترك التعصبات ، فإن كان المراد منه التعصبات الجاهلية التى تحمل على اضطهاد المخالفين فى الدين ، فهذا قد سبق الى تقريره الاسلام ، وعمل به أهله ، مما أصبح مضرب الأمثال ، فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

ولكن ليس من التسامح فى شىء أن تقول للناس وهم يختلفون فى النظر ، ويتفاوتون فى الفهم ، ويتباينون فى التمحيص : إنكم كلكم على الحق ، وإن ما تتخالفون فيه له عندى وجوه من التأويل ، فاثبتوا على ما أنتم عليه منها ، فإنه يؤديكم جميعا الى غاية واحدة ! ولكن الاصلاح كل الاصلاح أن تبين الحق عند أى فريق كان ، وتؤيده ،

وأن تنقد الباطل وتدحضه وتحذر منه ، وأن تبتعد فما أنت بسبيله عن تأويل الوساوس لتعيرها مظهرا من الحق ، فإنها بذلك تصبح أفتك لأهلها ، وأضل لهم ، مما كانت عليه مجردة من الزخارف الكلامية .

هذا ما نفهمه ، وما فهمه الناس قديما ، وما يفهمه أهل البصر حديثا ، وليس وراءه مذهب ، كما قال تعالى : « وماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟

أما اتحاد الأجناس فإن الإسلام سبق العالم كافة الى الدعوة اليه ، وأيده بالدلائل العلمية التى لا تقبل الدحض ، فقال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » . وقد جرى العمل فى العالم الاسلامى على هذا الأصل منذ صدره الأول الى اليوم ، فالبهائية قد تأخرت فيه عن الإسلام نحو ثلاثة عشر قرنا .

أما مساواة المرأة بالرجل ، فإن كانت فى الحقوق الطبيعية والمدنية والشرعية والعلمية ، فان الاسلام قد بلغ من كل ذلك المدى الذى ليس بعده مطمح ، فاعتبر المرأة إنسانا حرا لها أن تتصرف فى ممتلكاتها وأموالها بدون توقف تنفيذ إرادتها على إرادة زوجها ، وهو ما لم تصل اليه المرأة الغربية بعد ، وأن تعامل أمام القضاء بما يعامل به الرجل على قدم المساواة ، وأن تطلب من العلم ما تطمح همتها اليه دون حجر ولا تحديد ، وأن تحضر الصلوات فى المساجد ، وأن تشهد الأمور العامة للمسلمين ، وأن تبدى رأيها فيها ، وأن تعلّم الناس إن بلغت مرتبة التعليم ، وأن تفتى فى المعاضل . وزادت الشريعة الاسلامية فى العناية بها ، ففرضت على أبيها ثم على زوجها أن يكفياها الكد لنيل العيش ، فإن لم يكن لها أب ولا زوج وجب على أقاربها القيام بذلك ، فإن تجردت من كل قرابة وجب على بيت المال أن يسد عنها هذه الخلة .

نعم إن الاسلام جعل نصيبها من الميراث النصف مما للذكور، ولكن لم يكن منه ذلك احتقارا لشأنها، بل لأنه لم يكلفها السعى لتحصيل قوتها.

فاذا أريد بالمساواة أن يُلقَى حبلها على غاربها، وأن تتبرج تبرج الجاهلية، طائفة الشوارع، وغاشية الأسواق لفتنة الرجال، فان الاسلام لا يسمح لها بذلك ولا يعده من الإكبار لها، بل إنه قد حرم ذلك على الرجال أيضا. وأنت ترى أن أوروبا تجنى اليوم الشر المستطير الناجم من هذه الإباحة، وتعمل جاهدة على تلافى مضارها.

بقيت مسألة السلام العام بين الأمم، وفيها نقول:

لا يجوز أن يتحدث متحدث عن السلام العام إلا بعد أن يدقق البحث فى الحوائل التى تحول دونه، ليعرف ما هو منها متأصل فى طبائع البشر، وما هو عارض من عوارض طبيعة العمران، وما هو ناشئ من تأثير التربية، وما هو صادر من التقاليد الوراثية للجماعات، وما هو مبنى على حاجات اقتصادية قاهرة الخ الخ، ليعالج ما يقبل العلاج منها، ويترك ما لا يقبله الى التطورات المقبلة. هذا إذا أراد الداعى الى السلام العام أن لا تكون دعوته كلمة جوفاء تجوب الجواء ولا تحدث أثرا، كما حصل فى كل زمان ومكان.

وفى رأينا أنه لا يجوز الكلام فى السلام العام قبل أن يتوطد السلام الخاص لكل أمة بين آحادها، فإننا نرى حروبا ومعارك تشب نيرانها بين طبقات الأمة الواحدة فيسفك بعضها دماء بعض تحت اسم ثورات أهلية، أو انقلابات اجتماعية، أو اعتصابات اقتصادية. بل نرى ما هو أخص من ذلك من العدوانات الفردية، فيقتتل الآحاد لأقل الأمور شأنا، أو لمجرد النهب والسلب، وإشباعا للشهوات البهيمية، وتضطر الحكومات إزاء هذه الحالات أن تتخذ جنودا مسلحين للضرب على أيدى المعتدين.

فإذا كانت الحرب تشب بين آحاد ذوى قومية واحدة، ودين واحد، رغما عن النظم التى تتذرع بها الحكومة لقيادتهم، ورغما عن المواعظ التى تلقى عليهم،

والآداب التى لُقنوها فى طفولتهم ، فهل يطمع طامع أن يوجد سلاما عاما بين أمم من قوميات متخالفة ، وقوى متباينة ، وهى تحت تأثير عوامل وبواعث من كل ضرب ؟

فاذا كانت البهائية تكتفى من التحكك بمبدأ السلام العام ، بمجرد الدعوة اليه ، فلها ما أرادت ، ولكنها تكون منها على حد ما سبقها وما تلاها من الطوائف والجمعيات الكثيرة .

نظر الاسلام على عادته فى كل شأن خطير الى هذه المسألة من أخفى نواحيها ، وأتى بالقول الفصل فيها .

فقرر أولاً الأصل الطبيعى الذى تقوم عليه الجماعات فى وحداتها ، وفى مجموعها ، وهو الأصل الذى يكفل بقاءها ، ويضمن استمرارها ، وينفى العوامل المفسدة عن كيانها ، فقال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

نعم : لفسدت الأرض ، ألا ترى أن الله يدفع بالحكومة عدوان العادين على نظمها المقررة ، وعلى الآحاد الوادعين منها ؟ ولولا ذلك لحلت الفوضى ، وتغلب أقوياؤها على ضعفائها وسلبوهم ما بأيديهم ، فيفسد كيانها ، وتنحل ربطها ، وتجلو عن سطح الأرض .

ولولا أن الأمم قد أُلهمت أن تستعد لرد المغيرين عليها ، ودفع الطامعين فيها ، لانحلت عراها ، وتفرق آحادها ، ولم يبق لها وجود بين الأمم .

فهل كان يراد من الاسلام أن يخالف فى ذلك السنن الاجتماعية ليُقضَى عليه وليدا فى مهده ، قبل أن يؤدى للعالم الخدم المنتظرة منه ؟

ألا تعجب أن البهائية نفسها لجأت فى آخر عهدها ببلادها الى التحاكم الى السيف ، فابتنى أشياعها حصنا لهم فى ما زندران وأصْلوا جيوش الحكومة نارا حامية ، ثم اعتراهم الوهن فأخذتهم الأسنة من كل مكان ، حتى لم تبق لهم دعوة علنية فى عقر بلادهم .

فاذا كان الذين يفخرون بأنهم يَدعون الى السلام العام اضطروا الى الالجأ الى الحرب ، أليس هذا دليلا محسوسا على أن هذه الوسيلة لا تزال من حاجيات الحياة الاجتماعية ،

وأن الضرورة قد تدفع اليها فلا يكون بد منها ، وقد شرعت فى الاسلام للدفاع عن الحوزة وحماية الدعوة : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .

وقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

خاتمة :

يتبين مما مر أن البهائية لاتصلح أن تكون دينا قائما بنفسه ، ولا إصلاحا فى دين سابق عليها ، بله أن تكون دينا عاما للبشر كافة .

فأما وجه عدم صلاحيتها لأن تكون دينا قائما بنفسه ، فقد سبق بيانه .

وأما وجه عدم صلاحيتها أن تكون إصلاحا فى دين سابق عليها كالبوذية فى البرهمية ، وكالبروتستانتية فى المسيحية ، فلأنها لم تتصد لدين واحد لتقويم نظر أهله فيه ، وتعديل عوجهم فى فهمه ، ولكنها تناولت الأديان جملة محاولة التوحيد بينها ، على ما فى غالبها من التحريفات الظاهرة ، والآراء الباطلة .

ولكن الإسلام بعد أن أسس بنيانه على الأصول الخالدة التى تذعن اليها الإنسانية ، قرر أن الله سبحانه وتعالى أوحى دين الفطرة هذا الى رسله فى خلال العصور ، ولكن قادته من بعدهم أخرجوه عن صراطه ، وحرفوا أصوله على ما تصوره لهم أوهامهم . لهذا السبب اختلفت الأديان كل الاختلاف ، فأعاد الله وحى هذا الدين الى خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم ، ليرد اليه الغالين والمقصرين ، وأمره بأن يبلغ ذلك الى الأمم كافة ، ففعل .

فهذه الدعوة التى يذعن لها العقل ويؤيدها العلم والفلسفة والتاريخ من كل وجه تصلح أن تعم بين البشر ، وهى مادة الاسلام ، وصبغته الإلهية التى واجه بها العالم كله .

فإذا كانت الفطرة الانسانية قد ألهمت أن لابد لها من دين تسكن اليه ، فلا يمكن أن يكون ذلك الدين إلا موافقا لتلك الفطرة ، ولا يجوز أن يكون مخالفا للعقل الذى جعله الله مميزا بين الحق والباطل ، ولا مناقضا للعلم الذى كتب له أن يعم الناس كافة .

وقد نقد العقل والعلم كل ما ورد عن الأمم فى دور طفولتها من التقاليد والموروثات الضالة ، واعتبرها وساوس لا يصح أن تبقى فى عهد الرشد الذى بلغته الانسانية ، فألقيا بها بعيدا عن مجال النظر . فإذا كان قد بقى فى الناس من يأخذون بتلك الوساوس ، فلن يطول عهدهم فى هذه الطفولة ، ولا بد من أن يأتى عليهم حين من الدهر يخضعون فيه تحت تأثير التربية القويمة والثقافة العلمية لمقررات العلم فيجدوا الاسلام عنده .

نحن نعلم أن الذى حدا البهائية الى سلوك طريقة التأويل إنما هو تألُّف عامة الشعوب لتسارع الى الدخـول فيها محفوزة بتقاليدها وموروثاتها ، وكان الأولى بها أن تتألف العقل والعلم ، فإنهما دائبان على القضاء على تلك البقايا الطفلية من الأوهام الرثة ، وقد لا يمضى قرن أو قرنان حتى لا يبقى لهـذه الأوهام أثر فى عقلية الجماعات الإنسانية . فإلى أية حالة يؤول أمر البهائية يومئذ ؟ لا شك فى أنها تؤول الى التلاشى الذى لا قيام لها بعده .

فالدين العام كما ترى هو الذى يكون بطبيعته وجوهره مشايعا لأدوار رقى العقل السليم ، ومنتهيا معها الى حيث تنتهى من درجات الكمال المنتظر من إدراك الحق مجردا من كل صبغة بشرية ، أو نزغة وهمية ، يوم لا تبقى إلا صبغة الله وحده ، « ومن أحسن من الله صبغة ؟ » وهذا الوصف ينطبق على الإسلام وحده كما رأيت ، سواء أكان من ناحية طريقته الإصـلاحية فى تطهير النفوس ، وإحياء القلوب ، أم من ناحية أسلوبه فى مسايرة العلم والفلسفة الى غاياتهما .

فالمآل للإسلام حتما مقضيا ، وقد أشار الله تعالى الى ذلك فقال : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، واليه يرجعون » .

وقد اعتقد هذا المصير كثير من الأجانب عن الإسلام ، فقال المؤرخ الإنجليزى الكبير بوسورث سميث فى كتابه (محمد والديانة المحمدية) : « إنه سيأتى يوم تعترف فيه أدق فلسفة ، وأخلص مسيحية بأن محمدا رسول الله حقا » .

يستخلص مما مر كله أن البشرية ليست فى حاجة الى دين جديد بعد الاسلام ، فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام ، وقام على نفس الدرب الذى تسلكه العقول للوصول الى الحقائق الخالدة . وقد أعلن كتابه أن آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ستكشف للناس بالدلائل القاطعة أنه الحق ، فيجمعون على الأخذ به ، والانضواء تحت علمه ، فقال تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟

محمد فريد وجدى

البلاغة فى الاعتذار

دخل جرير بن عبد الله على أبى جعفر المنصور وكان واجدا عليه فقال له : تكلم بحجتك . فقال جرير : لو كان لى ذنب تكلمت بعذرى ، ولكن عفو أمير المؤمنين أحب الى من براءتى .

وأتى موسى الهادى برجل فجعل يقرعه بذنوبه ، فقال الرجل : إن اعتذارى مما تقرعنى به رد عليك ، وإقرارى به يلزمنى ذنبا لم أجنه ، ولكنى أقول :

فان كنت ترجو فى العقوبة راحة فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر

وسعى بعبد الملك بن الفارسى الى المأمون ، فقال له المأمون : إن العدل من عدله أبو العباس ، وقد كان وصفك بما وصف به ، ثم أتتنى الأخبار بخلاف ذلك .

فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين إن الذى بلغك عنى تحميل على ، ولو كان كذلك لقلت نعم كما بلغك ، فأخذت بحظى من الله فى الصدق ، واتكلت على أمير المؤمنين فى سعة عفوه . فقال له المامون : صدقت .

قال الحكما : ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبا . وقال محمود الوراق :

إذا كان وجه العذر ليس ببين فان اطراح العذر خير من العذر

جريمة الانتحار

تمهيد :

إن الحياة جهاد مستمر وكفاح لا ينقطع ، ولا يكون الفوز والنجاح فيها للجبان الوعواع ، بل للشجاع المقدام الذى لا تصرعه صروف الدهر وخطوبه ، ولا تفزعه مصائبه وأرزاؤه ، ولا يكرثه رسوب فى امتحان أو فقد ثروة أو ذهاب عقار وأطيان .

الشجاع الذى لا ييئسه إفلاس أو إخفاق فى عمل من الأعمال ، بل إذا خاب أمله ولم تسعفه الأسباب فى ناحية من نواحى الحياة سلك غيرها فى عزم لا يفل وهمة لا تحد ، غير جازع جزع اليئوس القنوط (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

الشجاع حقا هو من إذا لم يواته الحظ فى أمر من الأمور لا تضيق به السبل ، لأن أبواب الأمل مفتحة ، ومطالب الحياة ميسرة ، ونواحيها كثيرة منوعة ، فليختبر فى صبر وأناة ثم ليختر ما يوافق استعداده وميله غير جاعل للأمانى الكاذبة والأوهام الخادعة سلطانا عليه . بهذا يفوز فى حياته فوزا عظيما .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وهاهم أولاء عظماء العالم فى العلم والاختراع والمال . انظر فى تاريخهم ، وتتبع سيرهم ومبدأ أمرهم ، تجد كثيرا منهم قد رسبوا فى الامتحان المدرسى أو الجامعى ولم يتوصلوا الى نيل الشهادة التى تقرحت أجفانهم وكدت أذهانهم فى سبيل الحصول عليها . هل سقط فى أيديهم وهلعوا ؟ هل استثقلوا حياتهم وجبنوا عن مواجهة الحياة ، فانتزعوا أرواحهم انتزاعا وعدوا عليها قتلا وانتحارا ؟ كلا ، بل صبروا وصابروا ، وجدوا وجاهدوا ، وخاضوا غمرات الحياة واقتحموا أوعارها ، ثابتى العزائم مثلجى الصدور ، لم يعرفوا اليأس الذى هو غول الهمم ، القاتل للأمم ، حتى بلغوا قمة المجد والعظمة ، فخدموا العلم والانسانية بمواهبهم خدمة لا تقدر .

وستجد بينهم من فقد ثروته وأفلس ، هل ضاقت به موارد الرزق ؟ هل سدت منافذ الدنيا فى وجهه وقنط من رحمة ربه ؟ كلا ، بل جد وكدح ولم يأنف من الاشتغال بالمهن الحقيرة البسيطة ، عاملا بهذه الحكمة الجليلة « قد تغوص الأصابع فى الأقذار والقلب طاهر » فكانت له معبرا وجسرا الى الغنى والثروة الواسعة .

وإنك لواجد فيهم من كان فى مستهل حياته فقيرا معدما ، فما هو إلا أن أخذ فى مصارعة الكروب ومجالدة الخطوب ، بعزم لا يعرف اليأس والقنوط ، حتى وجد منفذا الى المال أو العظمة والجاه .

أهؤلاء الذين قد نجحوا فى الحياة العامة وفازوا فى ميدانها هذا الفوز الباهر وشقوا لأنفسهم طريق العظمة والخلود : أكانت تعرف نفوسهم الخور واليأس ؟ هل تسرب اليهم فرق أو جزع من الآلام والصعاب التى اعترضتهم إبان حياتهم أو أثناءها فقتلوا أنفسهم تخلصا من هذه الحياة المريرة ؟ كلا ، فقد كانوا وما زالت منهم بقية ، زينة الدنيا وبهجتها ، وعنوان الفضل والنبوغ ، ومثال الإرادة القوية والعزيمة الصادقة ، لأنهم جميعا كانوا يقولون : « لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس »

إن الشدائد والمحن هى التى شيدت للأمم صروح مجدها وعظمتها ، وكونت أفذاذ العالم وقادته .

وهاهم أولاء أبطال الاسلام الأول أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا مُثُلا عليا فى ثبات الجأش وقوة العزم ، لا يبالون بشدة الأيام وقسوتها ، ولا يهلعون لبؤس الحياة وشقائها ، تتزلزل الجبال الرواسى من حولهم ولا يتزلزلون .

انظر اليهم فى فجر الاسلام وقد فتك بهم العدو وقتل منهم كثيرا فى غزوة أحد بعد أن كانوا من النصر قاب قوسين أو أدنى : هل ثقلت عليهم حياتهم ويئسوا من الانتصار فى المستقبل والفوز فى النهاية ؟ كلا ، فلقد هدأ القرآن الكريم نفوسهم ، ومسح ما بهم من هم ولوعة ، وأعلمهم بأن الحرب سجال : يوم لكم ويوم عليكم ، والدنيا

دول لا يزال أبناؤها يترجحون فيها ما بين يسر وعسر، وسعادة وشقاوة، وغنى وفقر، ونجاح وإخفاق، فمابالكم تجزعون؟ أفلت النصر من أيديكم في هذه الغزوة بسبب مخالفة بعضكم أمر القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم، فاحذروا أن تقعوا في مثلها، وخذوا حذركم فإنكم لابد منتصرون، لأن العاقبة للمتقين (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس).

وبعد:

فلا أجد جريمة أجمعت على استنكارها واستبشاعها جميع الأديان السماوية والقوانين الوضعية كجريمة الانتحار، فإنها كلها تعدها عصيانا وتمردا على قضاء الله تعالى وقدره، وخورا وجبنا ومسبة ومهانة لصاحبها في دنياه وأخراه. ويعتبرها جميع الحكماء والفلاسفة منتهى ما يصل اليه العقل من الاضطراب والخبل، وغاية ما تصل اليه القلوب والعواطف من القسوة والتحجر، فلا عذر للقادم على الانتحار مهما ألمت به الكروب والخطوب، ومهما اصطلحت عليه كوارث الحياة ومنغصاتها، ومهما اعتلج قلبه بالهم وامتلأت نفسه بالأسى، لأن ما أقدم عليه من تجرع آلام النزع أضعاف ما فر منه، فهنالك يشاهد من ألوان العذاب ويذوق من مرارة الموت وشدة سكراته ما لا يقاس بجانبه جميع مصائب الدنيا وأرزائها (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

ولقد أكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرة الانتحار، وأعظم جرمه، وقبح فعله، ولعن مقترفه، وتوعده بالعذاب الأليم والغضب المقيم، فقد فر المجنون من ألم موقوت ليقع في عذاب ممدود.

وفي الواقع إن الانتحار عدوى وبيلة تنشب أظفارها فيمن تمكن منه الخور وضعف الإرادة، تنقل اليه بطريق التقليد لغيره بدون عقل ولا روية ولا حسن تبصر في العواقب. أمثل هذا يستحق كلمة طيبة نودعه بها، أو دمعة حارة نذرفها من أجله ونبلل بها ثراه كما نصنع مع من قطع مرحلة حياته في جهاد وصبر؟!

يا من ضاقت عليه الأرض بما رحبت فرأى فى الانتحار تخلصا من آلامه وأوصابه : اسلك الطريق التى سلكها غيرك ففاز ، وترسم آثار العظماء الذين قالوا : « لا يأس مع الحياة » فهذا يشحذ عزيمتك ، ويعلى همتك ، ويقوى يقينك ، ويلهب عواطفك ، ويدفعك الى الأمام فى رفق وأناة ، وتوكل على مولاك (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

إن صاحب الإرادة الماضية والعقل السديد والتدبير الرشيد لينال من سعادة الدنيا فى وقت قصير ما لا يناله المتقاعدون المتواكلون فى أطول الأعمار وأفسح الأزمان . ولقد منيت بعض بلاد الغرب والشرق بفئة تطلب جسام الأمور بالأمانى الباطلة والسير وراء الأوهام الخادعة دون أن يعدوا لذلك عدته ، حتى إذا لم يفوزوا بلباناتهم خارت قواهم ووهنت عزائمهم ، ثم أنحوا باللائمة على القضاء والقدر ، وبرموا بحياتهم وأبغضوها ، ولم يجدوا ما يفرج عنهم سوى الانتحار ، فيخرجون من الدنيا مثقلين بوزر الإهمال وعدم التبصر ، ووزر الجبن والخور ، ووزر التبرم بقضاء الله تعالى وقدره ، أولئك هم الأخسرون أعمالا (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

لم تكن هذه الدنيا ولم توجد إلا ليقوم كل شخص بنصيبه وحصته منها . فإذا ساغ لكل مرزوء أو مكروب أن يتنكر لحياته ، وأن يضعف عن احتمال أوصابها ، وإذا جاز لكل من رسب فى امتحان أو أخفق فى عمل ما أن يقدم على الانتحار فرارا من هذه الحياة ، فسد النظام واختلت الأحوال ، وخلت الدنيا من عظماء الرجال ، ونضب معين الثروة والمال . فالعاقل الرشيد والأريب الحصيف من صبر وجالد وكدح وغالب ، وصمد لشدة الأيام وبؤسها ، عالما بأن المستقبل بيد الله ، وأن الكرب متى اشتد هان ، وأن الرسوب فى الامتحان سيعقبه مع الاجتهاد النجاح ، وأن العسر سيتبعه اليسر والرخاء ، مؤمنا بأنه لا سعادة لمن يئس من روح الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

محمد ابراهيم الفحيل
واعظ مركز كوم حماده

كلمات فى العلم الاجتماعى

الأســـــرة

الأسرة أساس البناء الاجتماعى، أو هى أول حلقة من حلقات السلسلة الانسانية. وهى ثمرة أصل طبيعى عام ضرورى هو حفظ الأنواع. والمتأمل فى الكون يرى أن الله تعالى قد جعل لتحقيق هذا المرمى العمرانى عوامل من ضروب شتى، أولها الألفة المتبادلة بين الجنسين، وثانيها الحنان الذى طبع قلب الأبوين عليه لتربية ما ينتج من تزاوجهما من النابتة الغضة. هذه الألفة وهذا الحنان عامّان فى جميع الكائنات الحية لم يختص به الانسان دون الحيوان، بل شوهد أن من الحيوانات ماهى أعطف على صغارها من الانسان نفسه. فهى لا تترك صغارها وشأنها إلا بعد أن تستكمل جميع شرائط المعيشة الاستقلالية. بل من أنواع الحيوانات ما يمتد حنانها على غير صغارها من بنى نوعها ومن أنواع أخرى.

إن عاطفة الحنان فى الأمهات من النوع البشرى تُرى على أشد ما تكون فى جميع البيئات، ولدى جميع الأجناس، وإن كانت فى أخس دركات الوحشية، ولكنها تختلف فى الآباء على حسب اختلاف البيئات مدنية ورقيا.

فقد ذكر الاجتماعيون وعلى رأسهم (هربرت سبنسر) أن فى بولينيزيا من استراليا لا يوجد بين الأبناء وآبائهم علاقة أكيدة، فالطوائف التى تسكن منهم زيلاندا الجديدة لا يحب رجالها أن تكثر لديهم البنات، فيعمدون الى قتل بناتهم ساعة ميلادهن. وقد فاق هؤلاء الرجالُ عرب الجاهلية فى القسوة، واختصوا بعادة لم تر لدى غيرهم من جميع الشعوب المنحطة، وهى أنهم يعمدون كل خمس أو ست سنين الى ذبح جميع أطفالهم ذكورا وإناثا الذين ولدوا فى سنة يتوقعون فيها بؤسا، فيقومون بهذه المجزرة الشنيعة ساكنى الجأش هادئى البال كأنهم لا يأتون أمرا إدًّا.

فإذا عرض لهم أن يهاجروا من مكان الى مكان هربا من القحط أو من عدو ، رحلوا تاركين الضعيفين الطفل والشيخ ، ليجتاحهم العدو فى سورة انتقامه ، أو ليقتلهم الجوع بآلامه .

وقد شوهد فى العصفور المسمى (الهيروندبل) من عواطف الرحمة بالضعفاء وبالصغار ما يصح أن يتعلمها منه الانسان . فإنها متى عرض لها أن تهاجر من مكان الى مكان محفوزة بآلام البرد القارس ، لا تتحرك من مكانها حتى يتم تفريخها ، ولو اشتد عليها الحال ، ودهمها الزمهرير ، وصارت رحلتها معرضة لأشد الأخطار . ثم إنها اعتادت أن تقف فى الطريق بقصد أن يلحق بها من تأخر من الضعاف والعجزة من أفرادها .

هل للرجل المتوحش أسرة ؟

قلنا إن الأسرة أساس البناء الاجتماعى ، ولكن المتوحشين لا يعرفون من حالات الاجتماع غير الحالة التى تكون عليها القبيلة ، فالأسرة عندهم من الكميات المهملة ، فقد دلنا تاريخ الجماعات البشرية الساذجة أن القبيلة كانت تقوم على الرجال وأبنائهم ومن نتج عنهم بالتزاوج ، فنحن نصادف فى تاريخها الأب والابن ، ولا نصادف الأم مهما أحفينا البحث عنها ، والأسرة بدون أم لا تسمى أسرة كما هو واضح . والمرأة لا يعدو حالها لديهم حال آلة للتوليد لا أكثر ولا أقل ، وكانت مستعبدة لرجلها وليس لها حق يعتد به .

هذه الحالة من أظهر النقائص فى البيئات الوحشية ، فإن الحنان الأموى من أقوى العوامل فى تهذيب النفوس ، وترقيق العواطف ، وما خلت أمة منها إلا خلت من أشرف مميزات الانسانية .

فكان من الأمور الشائعة فى المجتمعات البشرية الساذجة أنه لو اتفق حدوث اتحاد بين عدة قبائل لتكوين أمة ، كان يتولى رياستها رجل مطلق التصرف يحكم بلا دستور ولا قانون ، بيده جميع ضروب العقوبات ، ولكن حكمه كان لا يتعدى

رؤساء القبائل . وكان لهؤلاء مثل ما له من الحكم المطلق على من دونهم من أبنائهم وأحفادهم ، ففى هذه المجتمعات لا نعثر على أثر من آثار العطف على الضعيف ، والرحمة بالصغار ، بل كان الحكم للقوة ، والحق لمن غلب .

كيف وجدت الأسرة بالمعنى المعروف لنا الآن ؟

هذا مما تصعب دراسته لتطاول الأزمان على هذه الأحوال ، ولبعدها عن مآخذ التاريخ . غير أننا وجدنا الأمة المصرية فى عهد الأسر الملكية المعروف لنا تعرف الأسرة وواجباتها ، وكان للمرأة حقوق محترمة ، حتى تولى الملك منهن عدد عديد . ولكننا نجهل كيف نشأت هذه الحالة يسيرا يسيرا ، وعلى أى وجه تم هذا التطور ، وبأى العوامل حدث .

ووجدنا الأسرة فى الأمة اليونانية القديمة معروفة ، ولكن ذلك لا يتعدى تاريخه ألفا وخمسمائة سنة قبل المسيح . والذى صادفناه فى هذا العهد البعيد أن الرجل والمرأة كانا شريكين داخل البيت وخارجه ، وكان احترام الرجل لها يتعلق بأخلاقها ، فإن كانت لينة العريكة مطواعا ، خرج الرجل عن حده فى معاملتها ، وإذ كانت قوية ومحافظة على حقوقها ، هابها وحافظ على مكانتها عنده .

ورأينا فى تاريخ هذه الأمة أيضا أن الغيرة الزوجية لم تصل عندهم الى حد تكون فيه سببا لحوادث خطيرة . وكانت الخيانات الزوجية تقع بكثرة حتى لا يكاد يكون عدد العفيفات والخليعات متساويا .

ثم لما جاء عصر أفلاطون وهو القرن الخامس قبل الميلاد انجلت أمامنا مسألة الأسرة فى الأمة اليونانية ، إذا كان لكل يونانى الحق فى انتخاب زوجة له ، ولكن على شرط أن لا يتعدى مدينته التى يعيش فيها . وكان على كل وطنى أن يتزوج وإلا تعرض لعقوبات منصوصة فى قانون لديهم ، وهى غرامات تقل وتكثر على حسب الأحوال .

ومن الأمور الغريبة لدى الأمة اليونانية أن الحاكم كان يضطر بعض الأفراد

للتزوج ببنات معينات ، وذلك إذا حدث أن رجلا توفى تاركا عـددا منهن بلا عائل ، وإن لم يقبلوا ما عرضه عليهم ألزمهم بأن يدفعوا لهن مهورهن .

وكان الرجل إذا تزوج بامرأة ولم تلد له بعد عشر سنين ، انفسخ العقد من نفسه وحصل الطلاق .

من هنا يرى متتبع تاريخ اليونانيين أن مرمى مشترعيهم كان تكثير النسل بما أمكن من الوسائل .

وكان الطلاق عندهم جائزا إذا لم تتفق أخلاق الزوجين ، ولكن فى هذا العهد حرم الأب من حق قتل أولاده ومن بيعهم ، وكان ذلك مخولا له قبل ذلك . ولم يبق له إلا حق التبرؤ منهم وقطع كل صلة بينهم وبينه ، ولكن كان ذلك مقيدا بمثوله وإياهم أمام محكمة تشكل لهذا الغرض يسمح فيها للأبناء بالدفاع عن أنفسهم . ولم يكن للأب أيضا حق التصرف فى أملاكه بالوصية إلا بقيود . وكان له أن يؤثر ابنا على آخر ، ولكن لم يكن له أن يحرم ذلك الآخر حرمانا مطلقا . فإذا لم تكن وصية فالقانون كان يقضى بمساواة جميع الأبناء فى الميراث . فإذا لم يكن للرجل أولاد كان للأب أن يوصى بماله لمن يشاء ، فإن مات بلا وصية ذهب ميراثه لأخوته ثم لأبنائهم وأبناء أبنائهم . فإذا لم يكن له أخوات ولا أبناء أخوات ، ذهب ماله لأعمامه ، ثم لأخوات أمه .

مما يجب أن يذكر هنا أن اليونانيين فى هذا العهد ما كانوا يورثون المرأة . ومتى لم يجدوا للمتوفى وارثا أحفوا البحث عن أرشد الذكور من أقربائه لتوريثه ، فإذا لم يوجد فى أسرته ذكور عمدوا الى الذكور من أسرة امرأته فأعطوهم ميراثه .

منزلة الأسرة عند اليونانيين فى ذلك العهد :

لم تكن الأسرة للرجل اليونانى فى ذلك العهد كما هى لنا الآن مهد الراحة ، ومتنسم الطمأنينة ، ذلك لأنه كان منصرفا للسياسة ، فكان شغله بالأمور العامة مستوليا

على جميع قواه وعواطفه ، فلم يبق منها لأسرته إلا قدر لا يعتد به . وقد كان هنالك عذر آخر لليونانى فى انصرافه عن أسرته ، وذلك لانهماكه فى الألعاب الرياضية والمسابقات والفروسية . فكان يزاولها كل يوم متفرغا لها ، لأنه كان يعد العمل عارا ، وهو من نصيب الأرقاء دون سواهم .

فماذا كانت تصنع امرأة اليونانى فى الدار فى ذلك العهد ؟ كانت تمكث فيها منعزلة عن الخارج ، بل ولا تستطيع أن تتصل به لو أرادت ، وذلك أن زوجها كان يرفع السلم الموصل الى فناء البيت والى الباب ، فتضطر المرأة أن تمكث مع الأسرى الذين يخدمونها. فإن سألتَ كيف استحالت المرأة الى هذه الحالة بعد حريتها المطلقة فى عهد الجاهلية قبل ذلك ؟ فلا نستطيع الإجابة على سؤالك ، لأن سلسلة العوامل مقطوعة بيننا وبين ذلك العهد البعيد . وغاية ما يمكننا أن نقوله فى هذا الصدد أن ذلك قد يرجع الى استحالة حياة اليونانيين الى حياة خارجية فى ذلك العصر ، فقد كان يغيب عن بيته أياما ، فلا يأمن على امرأته إلا إذا أودعها ذلك الحبس ، فتبقى المرأة فيه ليس لها من عمل غير مشاكسة أرقائها ، لأن البيوت لم يكن فيها إذ ذاك أثاث يستحق العناية ، وأعمال المطبخ كانت غير موجودة لأن أكلهم كان قاصرا على الزيتون بلا خبز وعلى التين وبعض الفواكه الأخرى .

أما تربية الأطفال فكانت شيئا غير معروف لديهم ، وكانت الأم متى وضعت سلمت طفلها لخدمها من أولئك الأسرى ، فاذا كان غلاما وبلغ أشده أذن له بالخروج من البيت الى مدرسة ، ومنها الى المكافحات السياسية ، وذلك الانهماك السياسى من اليونانيين فى ذلك العهد كان بسبب أن حكومتهم جمهورية حرة ، ونظامهم ديموقراطى بحت ، لكل إنسان حق الإشراف عليه والتأثير فيه . فلما انقلبت حكومتهم الى حكومة مطلقة ، وجد اليونانيون فراغا من أوقاتهم للعناية بأسرهم ، فارتقت العلاقات بين الزوجين ، وعُنوا بتربية أولادهم تربية بيتية ، ووجدت تعاليم الفلاسفة : سقراط

وأفلاطون وأكسينوفون عن الأسرة ولذّاتها مكانا من القلوب ، وبقى اليونانيون على هذه الحالة حتى عدت عليهم مقدونيا تحت قيادة ملكها الإسكندر ، فأفقدتهم استقلالهم ، ونال الأسرة من جراء ذلك انقلابات لا فائدة هنا من تفصيلها ، فانا ندرس الأسرة من حيث هى .

حالة الأسرة عند الرومانيين :

أما الأسرة عند الرومانيين فقد كانت تمتاز بأمر لا نظير له فى غيرها ، وهو الحكم المطلق للأب فيها . فكان الأب يعتبر مالكا لزوجته وأولاده وعبيده ملكا مطلقا ، وكان له عليهم كل حق ، فكان له أن يعاقبهم بكل أنواع العقوبات ، وأن يبيعهم ، أو أن يتنازل عنهم لغيره جزاء لهم على أضرار أحدثوها له ، أو أن يقتلهم ، وكان كل ما يحصله الابن يعتبر ملكا لأبيه .

هذا النظام دام طوال حكم الجمهورية ، وهو نظام كما ترى يجرد الآباء من عواطف الحنان والرحمة ، لأن الانسان لا يقلع عن ظلم يدفع إليه ، وخاصة لو كان هذا الظلم مقررا على صورة قانون ، فكان الأبناء يرهبون آباءهم ويكرهونهم ويحبون لو ماتوا . فاذا مات الأب تولى الابن الأكبر بيت أبيه ، وصار مالكا لكل شيء فيه حتى أمه ، وسلك فيه مسلكه . وتاريخ الرومانيين حافل بحوادث قتل فيه الأب ابنه ، ومنهم من قتل أولاده جميعا .

فلما تولى البراطرة الحكم بعد إسقاطهم الجمهورية أخذوا فى تلطيف هذه الوحشية ، فأبطلوا حق قتل الأبناء ، واشتد فى ذلك الأمبراطور كونستنتان حتى عد قتل الابن كقتل الأب فى العقوبة . ولكن كان لم يزل للرجل الرومانى الحق فى رمى ابنه ساعة ميلاده ، فقد كان من عاداتهم أنه متى ولد لأحدهم مولود وضعوه عند رجليه ، فإن أمر برفعه صار ابنه واحتضنته أمه ، وإن صمت علموا أنه لا يريده فذهبوا به فألقوه فى جهة معلومة ، فيموت جوعا أو يصادفه من يلتقطه ويربيه . أما الأم فلم يكن لها حق فى الشفاعة لابنها ، لأنها كانت تعتبر مجردة من الحقوق .

أثّرت هذه الحالة فى النساء أسوأ تأثير ، وذلك أن المرأة ليأسها من لذة الأمومة بعد آلام الحمل والوضع الشديدة ، كانت لا تعتبر الزواج أمرا محبوبا ، فكانت تلقى بنفسها فى تيهور الشهوات ، وتعيش فى حالة عهر تام .

بطلت عادة رمى الأولاد على عهد الامبراطور كونستانتين المتقدم ذكره ، ولكن بقى للرومانيين حق بيع أولادهم ساعة ميلادهم ، لا بعد تربيتهم ، ويشترط أن يكون الدافع على البيع الفقر والإقتار .

الأُسرة عند عرب الجاهلية :

لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كان حظ الأسرة عند العرب كحظها عند اليونانيين والرومانيين قبلهم ، فلم يكن للمرأة كرامة فى بيتها ، وكان إذا مات زوجها ورثها ذووه كما تورث البهيمة ، وكانت محرومة من الميراث ، ومن كل حق على أولادها ، فكان للأب أن يقتل بناته من فقر أو خشية العار .

وكان للعرب أنكحة مختلفة ، فنها أن يتفق ولى الزوج وولى الزوجة على مهر ، فيتم الزواج . ومنها نكاح السفاح ، وهو أن يعاشر الرجل امرأة فإذا أعجبته تزوج بها . ومنها نكاح البغايا ، وهو أن يكون للمرأة رجال كثيرون فاذا ولدت ألحقت ابنها بمن يشبهه منهم . ومنها نكاح الاستبضاع ، وهو أن يرسل الرجل زوجته الى بعض أصحابه ، ثم يعيدها الى حظيرته .

ومنهم من كان يشارك أباه فى زوجته ويسمونه الضَّيزن .

وكانوا يقتنون السرارى ويعتبرون أولادهم منهن عبيدا ، إلا إذا ظهر من أحدهم ما يستوجب إلحاقه بأبيه .

فلما جاء الاسلام أبطل كل هذه الجاهليات ، وأقام بناء الأسرة على قواعدها الطبيعية ، وخول المرأة حقوقا لا تزال محرومة منها المرأة الغربية كما بينا ذلك فى مقالات سابقة . ناهيك بأنه أوصى بالأم مالم يوص به لغيرها ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« جعلت الجنة تحت أقدام الأمهات » وليس بعد هـذا منزلة من التشريف يمكن أن يطمح اليها إنسان . وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : من أحق الناس بحسن معاشرتى يارسول الله ؟ فقال له : أمك ، فسأله الرجل: ثم من ؟ فقال له : أمك ، فسأله الثالثة : ثم من ؟ فقال له : أمك ، ثم أعاد سؤاله ، فقال : ثم أبوك .

فإذا كان هذا مكان المرأة من الأسرة الاسلامية فلا مشاحة فى أن الأسرة فى الاسلام قد بلغت أرقى ما يمكن أن تصل اليه ، وما دامت هى أساس البناء الاجتماعى فلا عجب أن يجىء بناء الأمة الاسلامية من الترابط والتماسك بحيث لا تقوى على هدمه العوامل ، كما ثبت ذلك فى جميع أدوار تاريخها المجيد .

فنحن إذا قلنا إن الاسلام قـد رفع الأسرة الى أوج كمالها ، فإننـا نقصد بذلك أنه بناها على حقوق وواجبات طبيعية مقررة متبادلة بين الرجـل والمرأة والأولاد ، تحميها وتشرف عليها الشريعة نفسها ، فهو لم ينصب الرجل فيها طاغية مستبدا فى أسرته، على مثال ما فعله القانون الرومانى ، ولـكنه جعل له قوامة عليها فى حدود أصول شرعية عادلة . وهو بجعله المرأة خاضعة لهذه القوامة لم يحرمها من حقوقها الطبيعية ، ولم يحرم حتى أبناءه من حقوق تناسبهم كذلك .

فالأسرة فى الاسلام أشبه بمملكة دستورية يخضع كل من فيها لنظام عام مقرر ، ولـكل فرد منها حقوق وعليه تبعات موزعة على أفرادها بنسبة طبيعية محكمة ، بحيث لايعدو بعضها على بعض ، ليتألف من كل أسرة وحدة جزئية ، فى جسم وحدة كلية عامة بنيت على مثالها ، وهى الأمة .

وقد قامت المجتمعات الاسلامية على هذا النظام فى كل أطوارها ، فكشفت عن ترابط وثيق العرى استعصى على جميع العوامل المحللة ما بقيت متمسكة به ، وقائمة عليه . وهـذا سر المناعة التى شوهـدت فى المجتمعات الاسلامية فى خلال العصور المختلفة ، وفى معمعان الانقلابات العالمية الخطيرة .

محمد فريد وجدى

الاسلام فى بلاد الغرب [١]

فذلكة تاريخية

لم يمض على توطيد شأن الاسلام وإعلاء كلمته زمن طويل فى بلاد الشرق حتى بدأ ينشر لواءه فى ممالك أوروبا ، فخضعت له اسبانيا وصقلية مدة من الزمن ، بينما استمر حكمه فى الأراضى التركية وروسيا الأوربية وكثير من بلاد البلقان حتى هذا التاريخ ، حيث كفلت له القوى الحيوية الكامنة فيه أن يصمد أمام المناوآت المسيحية التى قامت فى سبيله .

ففى اسبانيا لما آلت دولة الغوط الغربيـة الى الزوال بسبب بذخ وإسراف ملوكها الأخيرين واستهتارهم بمصلحة البلاد وانغماسهم فى الملذات والشهوات الدنيوية ، حمل أعراب مراكش حملتهم الصادقة على بلادهم التى كثيرا ماتاقت نفسهم للاستيلاء عليها ، واستمات أهلها فى الدفاع عنها ، ولم تدم المعركة أكثر من ثمانية أيام أظهر فيها المتحاربون من ضروب الشجاعة والحنكة ما يسطره التاريخ بالإعجاب ، وانتهت بخروج العرب فائزين بأمنيتهم ، فقسم الوالى المعين من قبل الخليفة الوليد جيشه الى ثلاث فرق ، الأولى اتجهت شرقا نحو ساحل البحر الأبيض المتوسط ، والثانية غربا ، والثالثة اقتسمها مع طارق لإخضاع المقاطعات الوسطى فى داخلية البلاد ، فكان النصر حليفه أينما حل . ولم يمض على دخول العرب أربع سـنوات حتى خضعت لهم جميع البـلاد ما عدا الأقاليم الشمالية التى صدهم عنها شتاؤها القارس ، ومناوأة أمرائها المتواصلة .

ولما أن تم لهم الفتح والنصر المبين عاد قواد العرب الى دمشق تاركين مقاليد

(١) مترجمة من الالمـانية نقلا عن كتاب « محمد والعالم الاسـلامى » للمستشرق الالمـانى الـكبير الاستاذ الدكتور « هرمان زيجفريد ريم » .

الأمور فى يد الحاكم عبد العزيز الذى اشتهر بالعدل والرحمة، وبقيت البلاد تحت حكمه الى أن اغتاله أقاربه بدعوى استئثاره بالحكم ، وانفراده بالسلطة دون أن يرجع الى مشورة أحد منهم .

لم يشأ القواد الفاتحون بادىء ذى بدء التدخل فى أحوال الأهالى الشخصية أوفى لغتهم أودياناتهم ، بل حافظوا كل المحافظة على تقاليدهم ووطنيتهم ، فاستمالوهم اليهم، وزادت ثقتهم بهم ، واتخذوا فى أساليب الحكم من العدل والرحمة ما جذب اليهم محبتهم ، خصوصا بين طبقات اليهود والفلاحين غير الملاك الذين وسعتهم رحمتهم وشملهم عدلهم ، فبدلوا من حياتهم التعسة ، وخلصوهم من نير الرق والعبودية ، فكانوا بذلك سببا فى انتشار الاسلام وازدياد عدد أتباعه ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، حتى إنه وجد من الطبقات العليا أنصارا عديدين ، دون أن يلجأ الغالبون الى القهر أو الإرهاب ، فبقيت عوائد المسيحيين وتقاليدهم وشرائعهم دون أن تمسها يد التغيير ، اللهم إلا أنهم كانوا يؤدون ما يفرض عليهم من ضرائب .

ولم يعق تقدم البلاد فى الفترة الأولى من الحكم الإسلامى سوى ما منى به بعض الرؤساء من تألبهم على بعضهم بسبب الحقد والحسد والطمع ، ولكن تلك الحال لم تدم طويلا حتى أسرع عبد الرحمن آخر سلالة بنى أمية فقضى عليها وأسس دولة مستقلة عرفت فى التاريخ باسم خلافة قرطبة نسبة الى حاضرتها مدينة قرطبة ، وتركها بعد وفاته سنة ٧٨٨ ذات أنظمة ثابتة ، فاستتب الأمر لخلفائه ، ودانت لهم البلاد بعد أن قمعوا ثورات داخلية عديدة أثارها عليهم حكام الأقاليم ، وتابعوا عمل سلفهم الذى وصل ذروة المجد على يدى عبد الرحمن الثالث حيث بلغ تعداد المسلمين فى إسبانيا ٢٥ مليون نفس ، وكانت قرطبة حاضرة الدولة فى مقدمة المدن حضارة وعمرانا ، وبها من السكان ما لا يقل عن نصف مليون ، ومائة وعشرة آلاف منزل ، وثلاثة آلاف مسجد ، منها المسجد الكبير الذى لا يزال قائما حتى اليوم ، ومدارس عظيمة ، وقصور فخمة ، وحمامات آية

فى الفن والجمال ، ولم يقلّ عن ذلك جمال ورونق البلاد الأخرى مثل غرناطة ، وبها قصر الحمراء الساحر وإشبيلية ، وبها « القصر » ومدينة توليدو بمبانيها الفخمة .

وفى هذا العصر أينعت العلوم والفنون فى جميع أرجاء الدولة ، وشيدت الجامعات والمعاهد ودور الكتب فى كثير من مدن الريف ، وزاد اهتمامهم بنشر التعليم خصوصا بين طبقات الشعب الدنيا ، ووضعوا طرقا محكمة للرى والصرف ساعدت على زيادة الرخاء ، وتحسين الإنتاج الزراعى ، وتنسيق الحدائق والبساتين . ولم يقل شأن الصناعات فى هذا العصر عن الزراعة ، فشملها التحسين والارتقاء فى مختلف ضروبها ، خصوصا فى صناعة النسيج والأسلحة والخزف ، فكانت مثالا يقتدى به .

خلف عبد الرحمن الثالث ابنه حاكم ، وكان شاعرا مجيدا ، وعالما حكيما ، فصار على خطة أبيه الى أن تولى الحكم هشام الثانى ، وكان ضعيفا خائر العزيمة ، فبدأ الانحلال يدب الى جسم الدولة الفتية ، والاضطراب والفتنة ينخران فى أساسها الوطيد ، وهكذا حل الهزل محل العقل الراجح ، وضعف الإرادة محل العزيمة القوية ، الى أن أتاح الله لإنقاذها المنصور ، فقمع الثورات ، وأخمد الفتن ، وجمع السلطة فى يديه ، وغلب أمراء الشمال المسيحيين على أمرهم ، فدانت له البلاد بأسرها ، واستتب الأمن وعاد النظام ، وقطعت البلاد فى سبيل الحضارة والارتقاء شوطا بعيدا ، الى أن تولى الحكم من بعده ابنه عبد الملك ، فسار على خطة أبيه ، وبعد وفاته أغوت شهوة الحكم وسلطانه الحكام من بعده ، فجعلوا الولاية وراثية ، وسعوا فى استقلالهم والانسلاخ عن جسم الدولة الإسلامية ، وعبثا حاول هشام الثالث آخر خلفاء الدولة الأموية إنقاذ عرشه ، فما كان من حكام العرب إلا أن أعلنوا الثورة ، وأسقطوه فى قرطبة عام ١٠٣١

وتوالت فى القرون التالية حملات الملوك والأمراء المسيحيين منفردين ومتحدين على أسبانيا ، حتى تمكنوا فى عام ١٤٩٢ من إسقاط غرناطة ، وهى آخر حصون العرب

فى شبه جزيرة الأندلس ، ولم يبقوا على آثار الحضارة الزاهية التى دامت ثمانية قرون ، اللهم إلا بعض الأطلال والبقايا التى شهدت أزهى عصور الحكم الاسلامى .

وكما انتصر لواء الاسلام على اسبانيا ، فإن الفوز كان حليفه فى جزيرة صقلية ، وسرعان ما خفق علم الرسول على أرجائها ، إلا أن حكمه كان أقصر زمنا وأقل مدى منه فى شبه جزيرة إيبريا (يريد اسبانيا) .

جاء العرب الى هذه الجزيرة فى عام ٨٢٧ بدعوة من حاكم بيزنطة لمساعدته ضد الثوار ، فطابت لهم الإقامة ، وأنست الى عشرتهم الأهالى الوطنيون ، ولما يمض على دخولهم أكثر من أربعة أعوام حتى تولوا زعامة « بالرمو » حاضرة الجزيرة ، وهكذا أخذوا يستولون على مدينة بعد أخرى حتى دانت لحكمهم جميع البلاد تقريبا بعد سقوط « سيرا كوز » سنة ٨٧٨ ، واضطر المسيحيون الى الانزواء فى أقصى الشمال الشرقى من الجزيرة .

بعد ذلك كثرت الاضطرابات الداخلية بين الحاكمين بسبب الخلاف المتواصل بين قبائل العرب وقبائل البربر ، كما أن التغيير الدئم فى الأسر الحاكمة لم يكن فى صالح الحكم بشىء ، فبعد أن كان الحكم بيد القيروانيين أصبحت صقلية إمارة مستقلة بيد أمراء الدولة الفاطمية المصريين .

ولقد استنجد الأهالى الأغريق المستوطنون جنوب إيطاليا بأمراء صقلية لتخليصهم من نير الحكام المسيحيين المستبدين ، فلبوا دعوتهم مرات عديدة ، وأسرعوا لنجدتهم بطريق البر والبحر ، وكان يتولى عرش صقلية فى هذا الحين أمراء السلبيت ، نذكر منهم على الأخص الأمير يوسف الذى كان عصره من أزهى العصور التى مرت على جزيرة صقلية ، حيث نشطت التجارة وتقدمت الصناعة ، وارتقت العلوم والفنون فى ظل حكم منظم ، وأمن مستتب ، وعدل شمل جميع الطبقات لم يعهده الناس فى مثل هذه العصور .

ولما شعر بضعفه وحاجته للراحة ، تنازل عن عرشه لابنه جعفر ، فكان أقل من أبيه نشاطا واهتماما بشئون البلاد ، فاضطر للتنازل عن عرشه لأخيه أحمد ، فعاد الرخاء والتقدم ، فسادوا بتجارتهم وبأسطولهم حوض البحر الأبيض المتوسط ، الى أن انقسموا على بعضهم وتنازع الأمراء فيما بينهم الحكم ، وتسامحوا فى تدخل النورمانديين حكام جنوب إيطاليا فى شئونهم الداخلية ، وآلت الحال الى حرب طاحنة بين النورمانديين الدخلاء والعرب دامت ثلاثين عاما انتهت بهزيمة العرب وخروجهم فى عام ١٠٩٠ من الجزيرة تاركين للغالبين من قبائل النورمانديين كل ما أدخلوه من إصلاحات مادية ومعنوية .

وفود الاحنف بن قيس على عمر

قال المدائنى : وفد الأحنف على عمر فى رجال من أهل البصرة والكوفة فتكلم كل واحد منهم فيما يخصه ، وتكلم الأحنف فقال : « يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيدى الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، فهم من المياه العذبة ، والجنان المختلفة فى مثل حولاء السلى وحدقة البعير (كناية عن الأراضى الخصبة) ، تاتيهم ثمارهم غضة لم تحصر ، وإنا نزلنا أرضا نشاشة ، طرف فى فلاة وطرف فى ملح أجاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب سبخة لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها فى مثل مرى النعامة (أى درها) ، يخرج الرجل الضعيف منا يتعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، فالا ترفع خسيستنا ، وتنعش ركيستنا ، وتجبر فاقتنا ، وتزد فى عيالنا عيالا ، وفى رجالنا رجالا ، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء ، هلكنا .

فقال عمر : والله السيد هذا . واحتبس الأحنف عنده حولا وأشهرا ثم أحضره وقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافق صنع اللسان ، وإنى خفتك فاحتبستك فلم يبلغنى عنك إلا خير . ثم كتب الى عامله أن يحتفر لهم نهرا .

وفاة عالم عظيم

لبى نداء المولى الكريم فى هذا الشهر فاضل عظيم من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف هو المرحوم المبرور صاحب الفضيلة الشيخ محمد ابراهيم السمالوطى .

وافاه القدر المحتوم بعد ما خدم العلم والدين وجمهور المسلمين بتعليمه وإرشاده ونافع عظاته خدمة يذكرها له المسلمون بأطيب الثناء ، ويذكرها له العلم بالتمجيد وتسجيل الحسنات ، ونرجو أن يشكرها له الله الذى وفقه لها فى حياته الطيبة المملوءة بالحسنات والخيرات .

ولقد كان له عليه الرحمة والرضوان عناية خاصة بعلم الحديث دراية ورواية ، فكان نبراسا منيرا طالما سطع ضوءه فى أفق العلم ، فانتفع به الطلاب والعلماء وجماهير المسلمين . ولقد حاز بذلك عظيم التقدير من كل من عرف فضله وتذوق حلاوة إرشاده . وإنه إذا عم الأسى والأسف عارفى فضل المرحوم لما لحقهم من ألم فقده ، فانا نرجو أن يكون قد عمه هو البشر والسرور لما لحقه من وجدان أجره العظيم عند الله لقاء جهاده فى سبيله ، وذلك شأن المجاهدين فى سبيل إعلاء كلمة الله ونشر نور الهداية بين عباده .

نسأل الله أن يكرم وفادته ويجزل مثوبته إنه سميع الدعاء مجيب الرجاء .

موقف البشر تحت سلطان القدر

هـذا عنوان كتاب حافل لحضرة صاحب السماحة مصطفى افندى صبرى شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقا ، أيد فيه مذهب الامام الأشعرى ، وانتقد الذين خالفوه من المعتزلة والماتريدية وغيرهم ، ورد على من يرى فى عقيدة القضاء والقـدر سر تأخر المسلمين ، وأفاض فى تحقيق ماهية الإرادة الجزئية والجبر المتوسط ، ونعى على المقلدين للغربيين الخ الخ من المباحث . وقد تفضل فأهدانا هذا الكتاب . فنشكر لسماحته هديته ونرجو له التوفيق .

either, you have enticed us into this delusion and wretched indeed is our ending.

The Lord be praised has seen fit to impress on us by such variegated forms of eloquence the fact that leaders and followers will come to the one and some evil end, and it avails the latter not to be followers of others so long as they have had minds by which to distinguish between truth end falsehood.

By these solemn admonitions, Islam has demolished the principle of blind imitation of forefathers and has roused the conciousness of individual responsibility. It has delivered the weak from their bondage to the strong and smashed down the invulnerable walls of exclusiveness which the leaders raised for their own ends.

By demolishing blind imitation Islam has aimed at abolishing a state of ignorance in which men were enslaved to certain sects that made learning and religion an exclusive right only to themselves, and arbitrarily ruled the people even as absolute masters do. They suffered no censure or criticism to be passed on their actions and declined the admission, into their exclusive body, of any outsider though he may have been a noted man of learning and genius.

Should this state of things become established in a nation, learning and religion will be rendered the exclusive right of a sect which will exploit them in their own interest and subject them to the dictates of their passion. In course of time, they will become a collection of stereotyped forms which will check the onward march of progress and stand between nations and the realisation of their objects.

Freedom from the shackles of imitation was the objective of Islam and it has led its people to a perfect state of co-operations between learning and religion as well as between sentiment and reason. Through this co-operation Moslems have attained to the height of progress which gave them the world-leadership for many a century and it is earnestly hoped that they will regain that leadership once they follow faithfully, the tenets of their glorious religion.

double punishment of hell-fire; and the Lord shall say: It shall be doubled unto all, but ye konw not your deserts.

And the first of them shall say unto the last: Ye have no advantage over us and we have both been in error; taste ye therefore the punishment for that which ye have done "

(*Baidawy's Commentary*).

In the preceeding verse, the Lord points out that the followers of disbelief are just as culpable as the leaders, for the Lord has endowed all men with reason and required them to distinguish between truth and falsehood. They are therefore equally responsible for their deeds and none of them has an advantage over the other. And when the imitators have asked the Lord to deal a double punishment to their leaders whose example they have imitated, the Lord has adjudged them both responsible and has doubled the punishment to them all. Such was the Lord's warning against persistence in blind imitation.

In another chapter of the Koran the Lord saith:

« هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Unto the leaders it shall be said:

This is a company which shall be plunged with you into Hell, to which they shall say : No welcome is there for them, they shall burn in hell-fire like us. And the followers shall say unto the leaders:

But ye, too! There shall be no welcome for you. It was ye who brought us to this and wretched is the abode "

(*Baidawy's Commentary*).

On the entry of the unbelievers into Hell, angels shall say to the leaders: This a company of your followers that shall be plunged with you into Hell. The leaders shall say : No welcome is there for them, they have had minds to distinguish between truth and falsehood and their punishment is hell-fire like us. The followers will retort: No welcome for you

« إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" When those heads of unbelievers who have been followed shall declare themselves clear of their disciples on the judgment day after they witnessed its torments, and all r elations between them shall be severed, the followers shall say " Could we but once return to life, we would declare ourselves clear of them as they have declared themselves clear of us. " So will Allah shew them their actions: bitter sorrow and regret, and in hell-fire shall be their eternal abode "

(Baidawy's Commentary).

And :

«قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ ٱلنَّارِ،قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" The Lord shall say unto the unbelievers on the Judgment day: Enter ye into Hell together with nations of genii and of men who have preceeded you; so oft as one nation entereth, it shall curse its sister, until they have all entered in succession, the last of them shall say unto the first: O Lord, these have led us astray, deal Thou unto them a

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ، قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And when it was said unto the unbelievers. " Come unto that which Allah hath revealed and to the Apostle ; they say, Sufficient unto us is the faith of our fathers. ' What! though they knew nothing and were not rightly guided" ?

(Baidawy's Commentary).

That is, if the unbelievers were called to follow the guidance of the Koran they say the knowledge which we inherited from our forefathers is sufficient for us to which the Lord says.

" Will you still say so if your forefathers knew nothing and were not guided in the right way

And in this connection the Lord demanded of the unbelievers to support their claim of the so - called knowledge of their forefathers:

« هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Have ye any certain knowledge to substantiate your claim that ye may produce to us ? "

(Baidawy's Commentary).

In another verse the Lord saith:

« ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Bring me a scripture before the Koran or some vestiges of ancient knowledge to support your claim if ye are truthful.

(Baidawy's Commentary).

In describing the end of those who imitate their forefathers without any knowledge or a book to guide them, the Lord saith:

done, Islam began to attack the main cause which prevented them to consider any reform viz. the blind imitation of their foregathers even though they were completely in the wrong In this connection the Lord saith.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

« And when it is said unto the unbelievers : Follow ye what the Lord hath sent down, they say ; Nay, but we will follow only that which our fathers practised.

What ! will they do so even though their fathers were utterly ingnorant and were not guided to the truth ?

He who invites the unbelievers is like unto one who crieth aloud to the beasts which hear no more than the mere call or cry ! They are deaf, dumb, blind and devoid of understanding

(Baidawy's Commentary).

In the preceeding verse, the Lord hath given a representation of the state of those who were blinded by imitation. He who calls them to righteousness is likened to one who cries aloud to the beasts which understand not his call. They are deaf, dumb, blind and devoid of understanding on account of their holding fast to the practices of their forefathers and refusing to put them to the test of reason.

The Lord saith that if those unbelievers were asked to follow what the Lord has sent down, they will say "No, but we follow only the practices of our forebears, to which the Lord replies rousing the instinct of reason in them : "Will you still follow them even though they were utterly ignorant and were not guided to the truth ? "

Then the Lord gave the above representation of them which no one with a whit of pride would tolerate, provoking them thereby to seek an outlet of their sorry state.
In order to move them from this inaction, the Lord then applies different reasoning.

1 — To spread its life-giving principles calculated to revive humanity in its later days.

2 — To couserve for the religious sentiment its intrinsic power which enables it to restrain the human passions and safeguard the people from being carried away by wickedness.

3 — To render the system of religious investigation more advanced and more accurate than that of scientific investigation so that the latter may not overwhelm the former and put it into insignificance, attracting people thereby to it.

This is a great objective at which Islam aimed so that reason may not hold undisputed sway over souls independent of the religions sentiment which the Lord has set to mitigate the brutal tendencies attendant on the human state and which no intellectual culture could restrain.

This could only come about by convincing reason, by proof, to give due regard to that sentiment and to admit the power exercised by it. This, reason will not concede unless that sentiment is established on a like system of research and investigation and is equally free of any traces of imitation unsupported by material or mental evidence.

By so doing, Islam has succeeded to associate reason with the religious sentiment for the first time in the history of religions. It has succeeded, on the strength of these two great principles, to raise a nation which attained to the height of human progress and took the lead in both moral and scientific culture as well as in the religions leadership of the world. Islam was thus rendered equal to establish the highest civilisation on earth without the least conflict between religion and reason and without people degenerating in their morals and propensities as is the case in the present day civilisation.

Let us now consider how far has Islam succeeded to fulfil this great project.

Islam was revealed at a time when people were the slaves of false and corrupted religions which they inherited from their forefathers and from which they could not be moved. Any one who wished to move them therefrom was regarded by them as a bitter enemy merely because he attempted to bring about a new reform.

The campaign was first opened by admonitions and threats thus awakening in men the instinct of reasoning and urging them to reflection and consideration of the sad end to which past nations have come. This

minor divisions derived therefrom, could appreciate the pernicious influence exercised by blind imitation over the life of people and the harm involved in the consequent antagonism to learning and reason.

Next to the establishment of its principal beliefs, Islam had striven against the tendency of blind imitation into which people have long lapsed without having it examined or assayed by reason.

Indeed, this rational idea could never have been conceived by minds in those dark and remote times when humanity was yet under age. But now that humanity has attained maturity in the generations that followed, this idea has become an essential element of the universal religion which was ordained by the Lord in His last dispensation, not only to conform with the momentous intellectual development that took place, but also to rouse the religious sentiment in the hearts of men and inspire them to still greater and higher attainments.

Those interested in the investigation of human affairs of recent times, will find out that souls havs discarded all moral restraints and have fallen an easy prey to unbridled passion and wickedness while the religious sentiment which constitutes the supreme moral power mitigating those excesses, have become incapable to discharge its function in many a nation. It was on account of this that other agents were sought to counteract those excesses. Some have sought such agents in science, in the power of public opinion or in some human instinct. But the invistigator who goes deeply into the initial causes of things, will soon realise that, of all human instincts, the religious sentiment is best suited to countract those excesses and to wield the most benificial influence over the souls of men. If, however, it has become unequal to the task in certain nations, it is only on account of the weakness which affected their religions and which was the outcome of what was impressed on the people as being traditional matters to be followed or disregarded as a whole. But if they knew that a religion existed which severely censures imitation and imitators, and insists reasoning and consideration, a religion whose beliefs are founded on evidence and truth, and is withal framed in a system which surpasses that of modern scientific investigation in reasoning and accuracy, their hopes in regaining the influence of religion will be roused again. For once this influence is regained the religious sentiment is awakened and its power will once more be felt in the guidance of men and in setting up a virtuous civilisation for the world.

It was for this reason that Islam has striven hard to overcome the obstacle of blind imitation and has attempted to do this by different ways of reasoning aiming thereby at three objects:

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD (1)

V.

CONDEMNATION OF THE PRINCIPLE OF BLIND IMITATION.

In all ages throughout the human history, reformers were never confronted with a stronger obstacle than that of blind imitation of forefathers and leaders of old religions. This inaction has been the cause of the persistence to this day, of corrupted religions whose survival in our times is a slur on the human intellect. In was equally responsible for the continual existence of certain sects which exploited the ignorance of people who were otherwise well-fitted to take their place among the rising nations but have for this reason remained in stygian darkness down to the present day.

Only one who has made a through study of the religions professed by the majority of contemporary nations as well as of the few hundred

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى مولد النبى

صلى الله عليه وسلم

فى صبيحة الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق لعشرين أبريل سنة (٥٧١) م وضعت آمنة بنت وهب القرشية أرملة عبد الله بن عبد المطلب ولدا أسمته محمدا ، فأعطته على عادة العرب فى تنشئة أبنائهم بالبادية لحليمة بنت أبى ذؤيب السعدية فمكث لديها أربع سنين . ثم أخذته أمه وسافرت به الى المدينة لزيارة أخوال أبيه ، وبينما هى عائدة الى مكة أدركتها الوفاة ، فدفنت بالأبواء ، وهى قرية بين مكة والمدينة ، فاحتضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب سيد بنى قريش ، فتوفى جده وعمره صلى الله عليه وسلم ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب .

ولما بلغت سنه اثنتى عشرة سنة أخذه عمه معه الى الشام ولم يلبث بها طويلا .

ولما كانت سنه عشرين سنة سافر الى الشام ثانية فى تجارة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل قريش ، وكانت ذات مال ونسب ، فأربح تجارتها مالا جما . فلما آنست نجابته وأمانته ورجحان عقله أرسلت تخطبه لنفسها ، فقبل وتزوجها ، وكان لها ولد اسمه هالة من رجل يدعى أباهالة مات عنها وترك لها ذلك الولد ، فرباه النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يرث رسول الله من والده شيئا ، ولكن كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية ، وكذلك كان عمله لما عاد الى مكة . ولما شبّ مارس التجارة بمكة .

سيرته قبل النبوة :

كان أقوم الناس سيرة ، وأحسنهم سمعة ، وأكملهم أخلاقا ، لم تعهد عليه بادرة من كذب أو رياء أو خيانة .

أما صفاته الجسدية، فكان كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : «لم يكن رسول الله بالطويل المُمَغَّط (أى الكثير الطول)، ولا بالقصير المتردد (والمتردد الشديد القصر). وكان ربعة من القوم، لم يكن بالجعد ولا بالسبط (أى أن شعره لم يكن مجعدا ولا مرسلا ولكنه كان وسطا) ولم يكن بالمطَهَّم ولا بالمكلثم (المطهم السمين والمكلثم المدور الوجه)، أبيض مشربا بحمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار (أى واسع العينين مع شدة سوادهما وطويل شعر الجفون)، جليل المُشاش والكتد (أى عظيم رءوس العظام والكتد مجتمع الكتفين)، أجرد، ذو مسربة (أى قليل الشعر له شعر بين الصدر والسرة)، شثن الكفين والقدمين (أى سمينهما)، إذا مشى تقلَّع كأنما ينحط من صبب (أى مشى كأنه ينحدر)، أجود الناس صدرا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله».

بدء الوحى :

لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الأربعين من عمره، وكان ذلك فى أول فبراير سنة (٦١٠) ميلادية، بدئ من الوحى بالرؤيا الصادقة. ثم حبب اليه الاختلاء بنفسه للتعبد، فكان يمضى الى غار فى جبل حراء بقرب مكة، فيختلى فيه تارة عشر ليال، وتارة أكثر، الى شهر.

فبينما هو قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال له : أبشر يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله الى هذه الأمة. ثم قال له : اقرأ، فقال : لست بقارئ (أى أنا لا أدرى القراءة)، فأخذه فغطّه بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ به الجهد، ثم أرسله وقال له : اقرأ، فقال : ما أنا بقارئ، ففعل به كالأول، ثم قال له الثالثة، فأجاب بما أجاب به أولا وثانيا، فغطه ثم أرسله، وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم » فقرأها كما لقنها له جبريل.

فرجع رسول الله الى خديجة خائفا مروعا وهو يقول: زملونى زملونى ، أى غطونى غطونى . فلما زال عنه الروع أخبر خديجة بما حدث له ظانا أن الذى ظهر له شيطان ، فقالت له : « لا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين »

ثم أخذته وانطلقت به الى عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخا عارفا بأحوال النبوات ، وأخبرته بما حدث له ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى نَزّل الله على موسى .

ثم فتر الوحى حتى يئس رسول الله من عوده ، وأصابه لذلك كرب عظيم ، وبينما هو يمشى إذ سمع صوتا ، فنظر صوبه فإذا بالشخص الذى ظهر له ، فعاوده الرعب ، فذهب الى خديجة وهو يقول : « دثرونى دثرونى » أى غطونى ، فأنزل الله عليه قوله : « يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

فقام من فوره يدعو الناس الى دينه سرا ، فلباه نفر من قومه . ثم أمره الله بأن يدعو للإسلام عشيرته الأقربين ، فجمعهم وخطب فيهم قائلا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة »

فتكلم القوم كلاما لينا إلا عمه أبا لهب فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن يجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذاً ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم .

ثم أمره الله تعالى بدعوة الناس كافة ، فأخذ يغشى مجالس قريش يدعوهم للاسلام فهزءوا بدعوته ، وسخروا منها . ولما أخذ ينزل القرآن فى النعى عليهم والتشهير بآلهتهم تذمرت قريش وأخذت فى اضطهاده واضطهاد من آمن به ، وتمادوا فى ذلك حتى قاطعوهم واضطروهم لأن يلتجئوا الى شِعب فى الجبل يتمنعون فيه من أعدائهم ، فمكثوا فيه ثلاث سنين .

فلما اشتد عليهم الأذى استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الى الحبشة فأذن لهم ، واستمر هو يدعو الناس الى دينه ، ويعـرض نفسه على القبائل فى موسم الحج طالبا أن تحمى دعوته ، فلم تقدم واحدة منها على ما يندبها اليه .

فلما جاء الموسم فى السنة الحـادية عشرة من مبعثه ، تعرض لجماعة من بنى الخزرج الذين يسكـنون يثرب مع بنى الأوس ، فدعاهم للاسلام فصغت إليه قلوبهم فآمنوا به ، ووعدوه أن يخبروا قومهم ويعودوا اليه فى الموسم المقبل . فلما أقبل الموسم حضر منهم اثنا عشر رجلا منهم رجـلان من بنى الأوس فبايعوه على الاسلام . فلما عادوا الى مدينتهم أخذوا ينشرون بها الاسـلام . فلمـا كان موعد الحج أقبـل منهم ثلاثة وسبعون نفرا منهم امرأتان ، وواعدوه على الاجتماع ليلا فى أحد شعاب مكة حتى لا يشعر بهم القرشيون ، فاجتمعوا هنالك واتفقوا معه على الجهاد فى نشر دعـوته ومقاتلة الأبيض والأحمر فى سبيلها حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وطلبوا اليه أن يهاجر إليهم .

فأخذ النبى من ذلك الحين يأمر الذين آمنوا به أن يهاجروا الى يثرب ، ففعلوا متسللين اليها سراً ، زرافات ووحدانا ، حتى لم يبق فى مـكة غيره وغير أبى بكر وعلى والمستضعفين الذين لم يستطيعوا الهجرة . وشعر القرشيون بالأمر فأتمروا على قتله فأعلمه الله بما عزموا عليه وأمره بالهجرة ، فأمر عليا أن يبيت على فراشه ، وخرج هو وأبو بكر خفية قاصدين المدينة ، فلما انبثق الفجر لجأوا الى غار مهجور فاختبأوا به ، فلما أدركهم الطلب لم يجرؤ أحـد على دخول الغار ، ولم يدر بخلدهم أن محمدا وصاحبه قد لجآ اليه ، فتركوهما وعادوا الى مكة . فلما انصرف المشركون عاودا السير قاصدين المدينة حتى وصلاها ، فاستقبلهما كبار أهلها بالترحاب والفرح الـكبير ، وكان ذلك فى ٢٠ سبتمبر سـنة (٦٢٢) ميلادية . ثم أرسـل رسول الله صلى الله عليه وسـلم من يحضر له أهله ، فأحضروهن ، وبقى فى مكة قليل من المسلمين منعهم المشركون من الخروج منها .

أصبحت المدينة بإسلام أهلها وهجرة رسول الله اليها معقل الاسلام وبيئته ، فأخذ الوحي يتتابع على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأذن له في القتال لحماية المسلمين وحماية الدعوة ، فحدثت بينه وبين اليهود وقريش وقائع كان النصر حليفه فيها كلها إلا وقعة أحد ، فقد أصاب المسلمين فيها قرح بسبب خطأ بعض فرق الجيش في فهم كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمرهم بالثبات في أماكنهم ، وقد أظهر المسلمون فيها من ثبات الجأش والترابط ما أصبح مضرب الأمثال ، حتى مدحهم الله على ذلك بقوله : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

ثم انتهت هذه المعارك ودخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وكانت معقل قريش وبيئة أعدائه صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك نصرا لدين الله وفتحا مبينا ، واستراح قليلا ، ثم سار وبجانبه أبو بكر وهو يقرأ سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا . هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » حتى انتهى صلى الله عليه وسلم الى البيت الحرام ، فطاف به سبعا وهو راكب على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل رسول الله يطعنها بعود في يده وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، ومايبدىء الباطل ومايعيد » .

ثم أمر بهذه الأصنام فأخرجت من البيت الحرام ، وفيها صورتا إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام . ثم دخل الكعبة وكبر في جوانبها . ثم خرج الى مقام ابراهيم وصلى فيه . ثم شرب من ماء زمزم وجلس في المسجد والناس حوله . ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال عليه

الصلاة والسلام : اذهبو فأنتم الطلقاء . فأخذوا يبايعونه على الاسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

تمرد بني هوازن وبني ثقيف :

لما رأت هاتان القبيلتان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دخل مكة وصار قريبامنهم ، حسدوه على هـذه النعمة وخافوا على ما بأيديهم من الزعامة ، فاجتمع قادتهم وقرروا الهجوم عليه بمكة ، فجمعوا جيشهم وكان يبلغ ثلاثين ألفا ، وجعلوا عليه مالك بن عوف ، فأمرهم بأخذ نسائهم وأموالهم معهم ليدافع كل منهم عن أهله وماله فلا ينهزم .

فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألف مقاتل ، فقال بعض أصحابه لبعض : لن نهزم اليوم من قلة ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن نصره ما كان بكثرة العدد وإنما كان بتأييد الله .

فتقدمت مقدمة المسلمين صوب العدو فخرج لهم كمين كان قد أعده المشركون ، وقابلهم بوابل من السهام ، فولوا مدبرين ، وتبعهم في الهزيمة من وراءهم .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته ، وثبت معه عـدد قليل من الأنصار والمهاجرين ، وصار ينادي بأعلى صوته : اليّ أيها الناس ، فلا يلوي عليه أحد ، حتى بلغت فلول الجيش مكة .

ظل رسول الله ثابتا مكانه ثم قال لعمه العباس ، وكان جهير الصوت : ناد بالأنصار ، فناداهم ، فسمعه من بالوادي ، فأقبلوا اليه يقولون : لبيك لبيك ، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه تدافع المنهزمين ، فيرمي بدرعه وينزل عن بعيره ناحيا نحو الصوت ، حتى اجتمع الى النبي صلى الله عليه وسلم منهم عدد كبير ، فهجم بهم على الأعداء هجمة صادقة ، فتشتتوا تاركين أموالهم ونساءهم ، فأحصيت الغنائم فبلغت أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

وقد دعيت هذه المعركة بغزوة حنين ، وفيها أنزل الله تعالى قوله : « لقد نصركم الله

فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

فجعل الله هزيمتهم جزاءً لهم على إعجابهم بكثرتهم ، تمحيصا لقلوبهم ، وتطهيرا لنفوسهم ، ليعلموا أن الله كان ينصرهم تأييدا منه على ضعفهم وقلة عددهم ، لا بسبب كثرتهم وحسن استعدادهم .

بعد هذه المعركة لم يبق فى جزيرة العرب قبيلة يخشى بأسها على الاسلام والمسلمين.

غزوة تبوك :

لم يندب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لمحاربة أعداء الاسلام من العرب وحدهم ، ولكن من جميع الخلق ، ولذلك لما بلغه أن الرومانيين يتجهزون لقتاله دعا أصحابه لغزوهم فى بلادهم ، فخرج على رأس ثلاثين ألفا ، ولم يبال بما يروى عن كثرة عددهم ، ودربة جيوشهم وقادتهم ، فطالت ألسنة المنافقين فى التشهير بهذا الأمر، فقال كبيرهم عبد الله ابن أبي : يغزو محمد بنى الأصفر يحسب أن قتالهم معه اللعب ، والله لكأنى بهم مقرنين فى الحبال . وأرجف قوم آخرون بغير ذلك ، فلم يأبه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا كله ، لأن الله وعده النصر على أعدائه . فلما وصل الى تبوك على حدود المملكة الرومانية لم يجد أحدا ، فأقام أياما جاءه فى خلالها يوحنا صاحب إيلة ومعه أهل جرباء وأذرح وميناء ، وكانوا تابعين للرومانيين ، فصالحهم على الجزية .

ثم استشار أصحابه فى الرجوع أو التقدم فأشاروا عليه بالرجوع فرجع .

حجة الوداع :

حج النبي صلى الله عليه وسلم بالناس فى السنة العاشرة للهجرة ، وخطب فيها خطبة جامعة ودع فيها الناس ، ولم يحج بعدها . فلما وصل الى البيت طاف به واستلم الحجر ،

وصلى ركعتين وشرب من ماء زمزم ، ثم سعى راكبا بين الصفا والمروة ، وكان إذا صعد الصفا يقول : لا إله إلا الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ثم توجه الى منى فى الثامن من ذى الحجة فبات بها . وفى التاسع من الشهر المذكور قصد عرفة ، وهناك خطب خطبته المشهورة بخطبة الوداع ، وهى :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ،وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير » .

أما بعد : أيها الناس ؛ اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

«أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألاَ هل بلغت ، اللهم فاشهد .

« فمن كانت عنده أمانة فليردها الى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية .

« والعمد قوَد (أى أن فى قتل العمد قصاصا) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

«أيها الناس ؛ إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

« أيها الناس : النسىء زيادة فى الكفر [1] يضل به الذين كفروا يحلونه عاما

---

(١) النسىء المراد به تعديل الأشهر على حسب أهوائهم ، فاذا أرادوا الحرب فى شهر من الأشهر الحرم أحلوه وحرموا شهرا من شهور الحل وجعلوه حراما مكانه .

ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حـرم الله ، وإن الزمان قـد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عـدة الشهور اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حـرم ، ثلاث متواليات وواحد فرد : ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ، ولـكم عليهن حق : أن لا يوطئن فراشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لـكم أن تعضلوهن (أى تمسكوهن وتضيقوا عليهن) ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عـوان لا يملـكن لأنفسهن شيئا (أى ضعـاف) ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« فلا ترجعن بعـدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« أيها النـاس : إن الله قسم لـكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله » .

وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

مرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فى أوائل صفر من السنة الحادية عشرة ، شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانحراف فى صحته ، ثم اشتد عليه المرض حتى تعذر خروجه للصلاة وأناب عنه أبا بكر ، فلما علم الناس باشتداد المرض عليه قلقوا غاية القلق وأحاطوا بالمسجد ، فدخل على النبي عمه العباس وأعلمه بما هم عليه من الكرب ، فخرج عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس متوكئا على علىّ والفضل ، ومشى يخط برجليه الأرض حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر ، واجتمع الناس اليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خَلَد نبي قبلى فيمن بعث الله فأُخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربكم ، وإنكم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول : « والعصر إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصو بالصبر » وإن الأمور تجرى بإذن الله عز وجل ، لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، وأوصيكم بالأنصار خيرا ، فإنهم تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسنوا اليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ، ألم يوسعوا لكم فى الدار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرَط لكم ، وأنتم لاحقون بى ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى » .

ولما كان يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول والناس يصلون وأمامهم أبو بكر ، إذا برسول الله قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم صفوف ثم تبسم يضحك ،

فرجع أبو بكر على عقبه ليدخل الى الصف ، ظنا أن رسول الله يريد الصلاة بالناس ، وكاد يفتتن المسلمون فى صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ودخل الحجرة وأرخى الستر .

فلما كانت ضحوة ذلك اليوم لحق رسول الله بربه ، وكان ذلك فى ١٣ ربيع الأول سنة (١١) للهجرة ، الموافق ٨ يونيو سنة (٦٣٢) ميلادية . فيكون قد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة قمرية وثلاثة أيام .

فلما شاع الخبر اشتد الأمر على الناس وحاروا فى أمرهم ، فصعد أبو بكر المنبر وخطبهم قائلا : ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » .

فكانت هذه الخطبة سكنا للقلوب الواجفة ، ورقودا للدموع الواكفة ، ومضى الناس فى الطريق الذى نهجه لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الله يقدمهم حتى بلغوا بأمتهم الأوج الذى يحدثنا عنه التاريخ ، ولم تبلغ اليه أمة قبلهم ولا بعدهم .

نظرة عجلى على ما سبق :

هنا يتساءل العقل : أى صنف من الناس كان محمد بن عبد الله ؟ حكيما ؟ مصلحا ؟ موجدا لأمة ؟ بانيا لدولة ، مؤسسا لدين ، واضعا لدستور ؟ أم كل هؤلاء كان فى شخص واحد ؟

هنا يتدخل العلم ويقول : الحكيم مهما حلق فى سماء الحكمة ، فلا يستطيع أن يخرق نظام الكون فيقلب الأحوال الى عكس ما هى عليه فى سنوات معدودة . والأخلاق ليست من المرونة بحيث يستطيع أن يطبعها المصلح على ما يريد من طريق

الطفرة، ولكن إصلاحها يقتضى أجيالا متعاقبة لتستوفى فى خلالها أدوار التطورات الطبيعية المقررة. والقبائل ليست كالأحجار يضع منها البَنَّاء حجرا على حجر، فيشيد منها ما يشاء من المبانى الاجتماعية، ولكن لا بد لها من أدوار متعاقبة تمر بها فى عصور متتالية لتصلح أن يتألف من مجموعها أمة. والدول لا تبنى من لا شىء، فلا بد أن يسبقها دويلة قابلة للتطور بعوامل شتى تدفعها للتكمل فى آماد متواصلة. والدستور لا يكون إلا ثمرة ثقافة شرعية عميقة الجذور فى حياة الأمة التى تضطلع بأعبائه، وأين هذا الشرط فى حياة الأمة العربية، وقد كانت فى فوضى ليس وراءها مذهب؟

هذا ما يقوله العلم فى هذا الموطن، فإن عده محالا، فهو أمام أمر واقع ظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم، فإما أن يعلله بعلل عامية، وإما أن ينكر وقوعه. أما تعليله فممتنع كما رأيت، وأما إنكار الواقع فليس اليه من سبيل، فهل من مخرج من هذه الحيرة؟

نعم: هو أن نعتقد أن محمدا كان رسولا لله، صدر فى كل أموره عنه، وتأيد بروح منه. فإن قلت فما الدليل على نبوته؟ فهنا موطن العجب العاجب! رجل يدعى أنه نبى ويعجز العقل والعلم عن تعليل بعض ما قام به من عظائم بذّ بها الحكماء والمصلحين، وفاق القادة والمشترعين، وشأى العياهلة والملكين، وصغّر شأن الفلاسفة الأولين والآخرين، رجل يأتى بكل هذا لا يمكن أن يتصوره العقل مصلحا كبقية المصلحين. لأن ما قام به من الأعمال، لا يأتيه إنسان موكول الى قواه الذاتية

ما أحسن ما قاله الفيلسوف الانجليزى الكبير (كارلايل) فى كتابه (الأبطال وديانة الأبطال):

«أى دليل تريد على صحة قول من يدعى لك أنه بَنّاء، أقوى من أن يبنى لك بيتا كبيرا يسع الملايين، ومن المتانة بحيث يبقى مئات السنين؟ كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من يأتى للناس بدين يهديهم به، ويدفعهم فى طريق الحياة الفاضلة، وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثنى عشر

قرنا ؟ ألا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف يمر من يدٍ ويدين ، ثم يضبط ويعرف أنه زائف، فلا يرفع به أحد رأسا ، ولكن الاسلام هدى العقول كل هذه الأجيال ، وأهله أشد اعتدادا وتمسكا به من أية أمة بدينها فى الأرض » .

محمد فريد وجدى

طرائف الشفاعات

قال المبارك بن فضالة : كنت عند أبى جعفر المنصور جالسا فى السماط ، إذ أمر برجل أن يقتل، فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة نادى مناديين يدى الله ألا من كانت له يد عند الله فليتقدم فلا يتقدم إلا من عفا عن مذنب . فأمر باطلاقه .

وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل ، فقال له رجاء بن حيوة : ياأمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر ، فافعل ما يحبه من العفو .

ودخل ابن حزيم على المهدى وقد عتب على بعض أهل الشام وأراد أن يغزيهم جيشا، فقال : يا أمير المؤمنين عليك بالعفو عن المذنب ، والتجاوز عن المسىء ، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة ، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف .

وأمر المهدى بضرب عنق رجل فقام اليه العلامة الكبير ابن السماك فقال له : إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق . قال أمير : المؤمنين فما يجب عليه ؟ قال ابن السماك : أن تعفو عنه ، فان كان من أجر كان لك دونى ، وإن كان من وزر كان على دونك . فخلى سبيله .

وكلم الشعبى ابن هبيرة فى قوم حبسهم ليطلقهم : إن كنت حبستهم بباطل فالحق يطلقهم ، وإن كنت حبستهم بحق ، فالعفو يسعهم .

وروى الأصمعى قال : عزم عبد الله بن على على قتل بنى أمية بالحجاز ، فقال له عبد الله ابن حسين بن حسن بن على بن أبى طالب : إذا شرعت بالقتل فى أكفائك ، فمن تباهى بسلطانك ؟ فاعف يعف الله عنك .

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ٩ —

دعوته الى تجريد العمل لله لا للأغراض المادية

لقد أدهش الناظرين فى تطورات الجماعات البشرية سرعة تطور العرب من الحالة التى عليها القبائل المتفككة الأوصال ، الى حالة أمة متماسكة الأجزاء ، مترابطة الآحاد ، وزاد فى دهشهم أن هذه الأمة الفتية قاومت كل عوامل التحلل التى انتابتها فى أثناء كفاحها للأمم العريقة فى الاجتماع ، فلم تزدد إلا تماسكا وترابطا ، مع أن بعض هذه العوامل كانت تكفى فى حل الأمم القوية ، وإعادتها الى ما كانت عليه من الوهن والانقسام .

وكيف لا يَدْهش الناظرون من هـذا التطور السريع وقد بلغ العرب من سعة الملك وبسطة السلطان فى قرن واحد ، ما لم يبلغه الرومانيون فى ثمانمائة عام . هذه سرعة تحير العقل ، ويعجز عن تفسيرها العلم ، فهى معجزة خالدة تسجّل لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم الى جانب معجزاته الكثيرة . ومما يجب لفت النظر اليه فى هذا المقام أن هذا التبسط الاسلامى فى الملك لم يصحبه ما صحب التبسط الرومانى : من إذلال الشعوب المقهورة ، وتجريدها من حقوقها الطبيعية ، وحمل ملوكها وكبرائها على جر عربات النصر لبراطرة الرومانيين ، بل صحبه العـدل والحرية والمساواة والأمن ، لجميع الشعوب التى ألحقت بلادها بالخلافة الاسلامية ، حتى دعا ذلك شعوبا أخرى الى استدعاء المسلمين للاستظلال بظلهم الوارف ، والاستنامة الى عدلهم الشامل .

هذه مدهشات بل آيات لم ترو عن شعب فاتح فى الأرض غير المسلمين الأولين ، فما سر هذا الأمر الجلل ، وما وجه تعليله ليكون فيه للناس معتبر ؟

أما سره فهو أن الاسـلام دعا الآخذين به الى أن يبتغوا بعملهم وجه الله ،

لا المصلحة المادية ، ولا المرامى الدنيوية . فقال الله تعالى : « كل شئ هالك إلا وجهه » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » . وما دام كل شئ هالكا إلا وجه الله ، وما دام كل شيء فى الدنيا ملعونا إلا ما كان خالصا لله ، كان حقا على كل آخذ بهذا الدين أن يتحرى بعمله وجه الله .

ولما كان وجه الله لا يصح أن يقصد بالأعمال المنكرة ، والمقاصد السيئة ، فإن هذا الأصل الكريم كان أفعل فى تقويم أخلاق المسلمين ، وتكميل نفوسهم ، وتشريف أعمالهم ، من جميع كتب الأخلاق التى تفيض فى ذكر محاسن الخلال ، وتعجز عن حمل حفاظها بل مؤلفيها ، على العمل ببعض ما جاء فيها .

وقد عُنى الاسلام بطبع نفوس أهله على هذا الأصل عنايته بطبعها على التوحيد لأنه مكمل له ، فاعتبر كل عمل لا يقصد به وجه الله مردودا على صاحبه ، بل ووبالا عليه ، فقد جاء فى حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله تعالى يقول لملائكته : إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سِجِّين » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، أَلَا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله ، فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وقد طالب الاسلام أهله بأن يجعلوا وجه الله مطمح أنظارهم حتى فى صغريات الأمور ، لتأتى أعمالهم كلها مبنية على أساس ركين من الطهر والنزاهة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

وقد رسخ هذا الأصل فى نفوس المسلمين الأولين حتى صار أساس أعمالهم ، وصار العمل على نقيضه مسبة فيهم ، قال ابن مسعود : « من هاجر يبتغى شيئا فهو له ، فهاجر رجل فتزوج امرأة منا ، فكان يسمى مهاجر أم قيس » ، وسأل رجل سعيد

ابن المسيب وهو من التابعين فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر ، فقال له سعيد : أتحب أن تمقت؟ قال الرجل : لا ، فقال له سعيد: فاذا عملت عملا فأخلصه .

قصد الإسلام من هذا أن يجعل المثل الأعلى للانسان أشرفَ المُثل وأرفعَها وهو الإخلاص لله ، والانسان جدير بهذا المثل ، بل ولا يصلح له غيره ، لأنه منح من المواهب العقلية ، والملكات الأدبية ، والقابليات المعنوية ، ما لم يمنحه غيره من الكائنات الأرضية .

فتخيل الآن أمة أخذت بهذا الأصل فجردت أعمالها كلها لوجه الله ، كيف لا يترابط آحادها ترابطا لا تفصم عراه ، وهم إنما يعملون ما يعملون ابتغاء مرضاة الله؟ وكيف لا يتنزهون عن دنيئات الأخلاق ، وساقطات الخلال؟ وكيف لا يكون انسياحهم فى الأرض ، واختلاطهم بالأمم خيرا وبركة عليهم ، وهم لا يقصدون إلا إقامة دولة الحق ، وتشييد صرح العدل ، ورفع منار الفضائل ، وتطهير الأرض من الرذائل؟ هل يفوتهم علم لا يضعون أساسه ، ولا يوقدون نبراسه؟ هل تعدوهم حكمة لا يضيفونها الى ذخرهم ، أو سنة حسنة لا يَعُدونها من حقهم ، أو عادة صالحة لا يضمونها الى سيرتهم؟

إن الأمة التى تجرد أعمالها لوجه الله يسهل عليها أن تجرى على السمت الذى يرسمه لها الله : من الصدق ، والأمانة ، والعطف ، والرحمة ، والانصاف ، وإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وعمل الخير ، والتعاون على البر ، ومجانبة الآثام الظاهرة والباطنة ، والبغى والفسوق ، فإن كانت مدنية فاضلة تنعم فى بحبوحتها الإنسانية ، فهى هذه ، وكل ماعداها فصور غير صحيحة للمدنية التى تناسب مواهب الانسان ، وتبعده عن مشابهة الحيوان .

هذا المثل الأعلى قد جعل الأمة الإسلامية خير الأمم ، وجعل آثارها خير الآثار فى الأرض : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وصفها الله بأنها كانت خير أمة عن جدارة واستحقاق ، وهل تريد دليلا أقوى

على صحة هذا الحكم من إجماع المؤرخين الأجانب على أن العرب أحيوا موات العالم، وبعثوا العلوم من أرماسها، ونشروها بين الناس، ومصروا الأمصار، ونشطوا التجارة والزراعة، ورقوا الفنون والصنائع، وملأوا المدن مدارس ومكتبات لنشر الثقافة بين كافة الخلق، لافرق بين مسلم وغير مسلم، حتى كانت الأمم الأوربية تبعث الى بلادهم بالبعثات لتعب من معين معارفهم، وكان من بينهم الأب سلفستر الذى أخذ كثيرا من علومه عن علماء الأندلس وتولى رتبة البابوية فى رومية فيما بعد. وكانوا يبسطون أيديهم بالبر على أهل كل ملة، ويؤتون الخير طالبه من أى نحلة، حتى كان كبراء أوربا إذا أصابهم مرض انتقلوا الى بلاد المسلمين ليعالجهم أطباؤهم المبرزون، فكانوا يلقون ترحيبا، ويعنى بمعالجتهم كبار النطاسيين حتى ينالوا الشفاء ويعودوا الى بلادهم سالمين. (راجع كتاب درابر المدرس بجامعة نيويورك).

كان العالم على عهد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فى اضطراب واضطرام، فكانت الحروب ناشبة فى كل مكان، وكان القادة يسوقون الشعوب الى ميادين القتال لأحط الأسباب، كالحصول على نصر يخلدون به ذكراهم، أولحك حزازة فى النفس لا تستحق أن ينتطح فيها عنزان، ولا أن يراق فيها قطرة من دم إنسان، فماذا تركت هذه الحركات الجنونية وراءها غير الخزى والعار، والأوبئة تجتاح ما تركه منها الحديد والنار؟ فلو لم يبعث الله الأمة الاسلامية تعمل تحت نور مَثلها الأعلى من الإخلاص لوجه الله، لا لنيل نصر كاذب، ولا للتعالى على الناس، لانتهت البشرية الى شر النهايات «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين».

واليوم أصبح العالم فى أمر مريج، كل ما فيه يؤذن بالويل والثبور، وعظائم الأمور، ألا ترى الأمم قد بليت بشر ما تبلى به الجماعات من الأزمات الاقتصادية، والبطالات العملية، والانقسامات الدولية، والعداوات الحزبية، والطامات الإباحية، وجميعها تتطلب المخرج مما هى فيه فلا تجده، ولم يغن عنها ما حصلته من العلوم العالية،

والصنائع الراقية ، والمدنية الزاهية ، ولم تجـدها الأحابيل السياسية ، ولا المحاولات الدبلوماسية ، فهى بين براثن داء عياء أعجز نطس أطبائها ، وحير عقول أ لِبّائها ؟ فهل بعد كل هذه الوسائل العلاجية من دواء يرجى أن تنال به الشفاء ، وأن يرتاح العالم كله بسببه من هذا الشقاء ؟

نعم ، وهو أن يتخذ العالم مثلا أعلى مما كان له الى اليوم ، وهذا إيذان من الحق سبحانه وتعالى بأن المُثل العليا التى تستند الى الأغراض المادية أصبحت لا تفيد الأمم ، فإن المثل الذى جعلته أمثلُ الأمم اليوم شعارها وهو « إن أمتنا فوق الجميع » إعلان صارخ بمعاداة جميع الأمم ، والتنافس فيه يجرها الى المكاثرة فى التسلح ، وأخذ الأهب للحروب الطاحنة .

نعم صرح الكتاب الكريم بأن الأمة الاسلامية خير الأمم ، ولكنه علل هذه الخيرية بما اتخذته لنفسها من جليل المهام الانسانية ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله ؛ ولم يعلله بتفوقها فى الجنسية ، ولا بتبريزها فى الميادين الحربية ، ولا بقهرها للأمم الأجنبية ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، فلو تنافست الأمم كلها لاستحقاق هذه الخيرية ، لكان أثر ذلك خيرا وبركة على الكافة ، ولَتحابّت الأمم وتعاونت على البر والتقوى ، فإن التنافس فى هذا المجال يؤدى الى التكافل والتساند ، خلافا للتنافس فى المجال الأول ، فإنه يؤدى الى التباغض والتحاقد .

يقول قائل : إنك تكلف الناس اليوم ما لا طاقة لهم به ، فأين هى تلك النفوس التى تنزهت عن السفاسف لتجرد أعمالها لوجه الله ، وهى فى معمعان فتنة صماء من قشور هذه المدنية ، وهل أبقت المطالب الشهوانية من أفئدتها مكانا لمثل هذه الوجهة العلوية ؟

نقول : هم بين أمرين ، فإما أن يَبقوا على ماهم عليه ، فلا تنقطع من بينهم العداوة والبغضاء ، والتحاسد والتحاقد ، وما يجرانهم اليه من فتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم

حيرانا ، وإما أن يعملوا على حسم مادة هـذه العوامل الموبقة برفع مثلهم الأعلى الى الأوج الذى رفعه اليه الاسلام ، فينعموا بسعادة الحياتين ، وينالوا الحسنيين .

وفى يقينى أن العاقبة لما يدعـوهم اليه الاسلام إن لم يكن طوعا فـكرها ، لأن الانسان الذى منح هـذا العقل يفرق به بين الحسن والقبيح ، وهـذا الإدراك العالى يتذوق به جلال الحقائق الخالدة ، يكبر عليه أن يُبقى على حالة نفسية تجعله أحط رتبة من الحيوان الأعجم بتسخير مواهبه للأغراض السافلة ، فلا مفر له — وهو يزداد كل يوم شعورا بسيئات ما هو فيه — من الانتهاء الى حالة يطرح فيها عن عاتقه نير هذه الجاهلية ، ويخلص مقاصده لله الحـق ، فيحتل المكانة التى خلق ليحتلها بين سلسلة الـكائنات الأرضية ، ويحيا مع إخوانه فى الانسانية حياة طيبة : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة »

محمد فريد وجدى

البلاغة فى الاجابة

دخـل معن بن زائدة على أبى جعفر المنصور ، فقال له : كبرت يامعن . قال : فى طاعتك ياأمير المؤمنين . قال : وإنك لتتجلد . قال : على أعدائك ياأمير المؤمنين . قال: وإن فيك لبقية. قال : هى لك ياأمير المؤمنين .

وقال هرون الرشيد لعبد الملك بن صالح : هذا منزلك . قال : هو لأمير المؤمنين ، ولى به . قال : كيف ماؤه ؟ قال : أطيب ماء . قال: فـكيف هواؤه ؟ قال : أفسح هواء .

وقال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد . إنى أردتك لأمر . قال : ياأمير المؤمنين قد أعد الله لك منى قلبا معقودا بطاعتك ، ورأيا موصولا بنصيحتك ، وسيفا مشهورا على عدوك ، فاذا شئت فقل .

وقال المأمون لطاهر بن الحسين : صف لى ابنك عبد الله . قال : يا أمير المؤمنين إن مدحته عبته ، وإن ذممته أعتبته ، ولـكنه قـدح (بكسر فسكون ، أى سهم) فى كف مثقف ليوم نضال فى خدمة أمير المؤمنين .

وقال المنصور لاسحاق بن مسلم : أفرطت فى وفائك لبنى أمية . قال : ياأمير المؤمنين إنه من وفى لمن لا يرجى ، كان لمن يرجى أوفى .



قال الله تعالى : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ . وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » من تتمة الإرشاد المتعلق بحال المؤمنين العامة ، أى بحال شعوبهم وطوائفهم ، وذلك هو القسم المبدوء بقوله : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » على ماسبق فى المقال الماضى . وقد رتبه عليه لأن أكثر مايجىء من التناحر والتقاتل بين الفئات والطوائف مبنى على أنباء المفسدين الفاسقين ، فقد يتولى شخص بمفرده السعاية بين طائفتين ، فينقل الى كل منهما عن صاحبتها ما يوغر صدرها من ناحيتها ويغريهما بالعداوة والبغضاء ، فهو يلتقط من إحداهما الكلمة ويبنى عليها هيا كل الإفساد حتى يستفز الأخرى الى حالة قد تكون

هينة ، ولكنه يكبرها ، ويستشهد ببعض البوادر حتى يحرك الشر الكامن ، ويثير الهياج الساكن ، والطرفان عن خبثه لاهون ، وبمداهنته واثقون .

وقد تقوم فئة من المفسدين بالأمر ، وتوزع أفرادها على إيجاد الشر ، عن تآمر بينها ، فيتولى كل قسم منها الاتصال بطائفة ، يزعم إخلاصه لها ، وغيرته عليها ، وإمحاضه النصح لها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وإرشادها الى طرق الاحتياط ممن ينوى الشر لها ، ثم يكاشف بقية زملائه بما وصل إليه ، ليبنوا عليه من ناحيتهم فوق ما بنى ، ويعودون إليه ليتمم مهمته ، وهكذا لا يزالون بهما حتى تقوم كل منهما على الأخرى ، فينشب الشر بينهما الى أن يتفانيا ، وذلك ما أراده بهما الفاسقون ، وهم بنجاحهم فى سوء نيتهم مبتهجون ، وفى كل ذلك يكون الشيطان من أكبر أعوان هذا الثوران ، بما يوسوس للفريقين من العناوين الخلابة ، كالحزم والاحتياط ، والاحتفاظ بالعزة وإباء الضيم ، ثم بما يصوره فى نفس كل طائفة من احتقار الأخرى والاستهزاء بها ، وأنها ما كان لها أن تعدو منزلتها ، ولا يصح أن تتجاوز حدها ، حتى تستحكم حلقات الشر ، وتنشب بينهما الحرب ، ويستحر الضرب .

هـذا هو شأن نبأ الفاسق إذا أهملته ، لم تكن كلمة كذب وانتهت ، ولكنها بذرة السوء تنبت شجرة كشجرة الزقوم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، تتجلى بخضرتها ، وتتحلى بنضرتها ، حتى يفتتن بها قصار النظر ، ويأوى الى الاستظلال بها سيئو الفكر ، وإذا بها تذيقهم سمومها ، وتقطر عليهم من دمائها ، وما هى إلا دماؤهم استنزفتها ، وحياتهم أفنتها ، ولله القائل :

الحرب أول ما تكون فتيّة   تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها   ولّت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء ينكر لونها وتغيرت   مكروهة للشم والتقبيل

فترى بهذا — وهو أمر مركوز فى النفوس معلوم لكل مفكر — كيف أدخل

حكم الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين فى سياق الأمر بالتبين عند مجىء الفاسق بالنبأ ، ممهدا له ومشيرا اليه بقوله عز من قائل : « أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . ثم لفت نظرهم الى وجوب الرجوع الى الإرشاد الربانى والهدى الإلهى والرحمة المهداة ، وذلك فى قوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله » وهو صلى الله عليه وسلم إذا كان فيهم فى العصر الأول بجسده وروحه ، فهو فى أمته فى كل عصر بتعليمه وإرشاده وهدايته ، فيجب الرجوع الى ما أرشد ، والاقتداء بهديه ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وما أجمل ما نبه فيهم عاطفة الايمان وهز أريحيته لتعبق فى قلوبهم رائحته الطيبة ، لتضبط جوارحهم ، وتنظم تصرفاتهم ، مع التحذير من الكفر والفسوق والعصيان ، تلك العوامل التى لا تنتج إلا شراً ولا تثمر إلا ضراً ، وذلك فى قوله تعالى : « ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » : وكل امرئ يعلم أن عوامل الوقاية ليست دائما محققة الحصول ، فكثيرا ما تذهل النفس — لأمر أراده الله — عن مراعاتها ، فلا يتبين وخامة العاقبة وسوء المصير إلا بعد حين . فلا بد للحكيم إذا وصف أسباب الوقاية من المرض والخطر أن يردفه بوصف العلاج لما نزل فيها إذا أهملت الوقاية ، وكثيرا ما يكون ذلك .

فهذا هو قوله جل شأنه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . أى إذا تمكن الفاسق المفسد من إتمام جريمته ، ووصل الى سيىء بغيته ، ونفذ سهمه فى طائفتين منكم فأفسد ذات بينهما فاقتتلوا ، فعلى بقية المؤمنين أن ينقذوهما من الخطر الذى ترديا فيه ، إذ لم يستطيعا أن يعتصما منه بسبل الوقاية التى أرشدهما الحكيم العليم اليها . فواجب المؤمنين أن يصلحوا بينهما ، وأن يتوسطوا فى السعى بالخير وكسر حدة الشر ، وفهم ما يجول فى نفس كل منهما من حجج أو شبه فيمحصوها ويلطفوا من غلوائها ، ثم ينتقلوا الى الثانية فيستمعوا منها بالتى هى أحسن ، ويوازنوا بين الفريقين ، ويحكموا على حجة وشبهة الطرفين ، حتى يقربوا وجهة النظر ، ويزيلوا عوامل الضرر . وقلما اقتتل

طائفتان إلا وكل منهما تزعم أن الحق بيدها، وأنها ماثارت إلا لتبرير حقها، فكلتاهما كما يقولون تقرأ الخطاب من الصفحة التي تلائمها ، فتكون مهمة أولئك المصلحين أن ينظروا بكلتا العينين الى كلتا الجهتين ،غير متحيزين ولا متحرفين — اللهم إلا ما تقضى الحكمة بمراعاته أوغض النظر عنه وتهوين أمره ، من الهنات الهينات التى ستعترض طريقهم ، فيتصرفون فيها بالتى هى أحسن .

وإذا كانت كلمة الفاسق قد تجر الى الفتنة العمياء والحرب الشعواء واقتتال الإخوة ، فما بالك بالحرب تقوم بين طائفتين ، ونار الفتنة تشتعل بين أمتين ؟ ! أتراها تقتصر عليهما ، ولا يصلى بأوارها غيرهما ، أم هى الشر المتدافع واللهب المندلع ، لا بد أن تمتد الى القريب ثم الى البعيد ، كما قال القائل :

لم أكن من جناتها علم اللــــه وإنى بحرها اليوم صالى

هذا هو شأن الفتن بطبيعتها ، فمن عمل على إنقاذ أصحابها منها فقد عمل على سلامة نفسه من شرها ، وما أشبهها بالحريق يشتعل فى بيت من قرية ، فليس لأبعد الناس بيتا من البيت المشتعل أن يتهاون فى إطفائه ، وإلا طغى عليه وامتد لهبه إليه ، فإذا أُمر المؤمنون بإصلاح ذات البين بين الطائفتين المتقاتلتين فلمصلحتهم أمروا ، ولإنقاذ أنفسهم من الشر وجهوا . ولو فرض أنهم أمنوا من الامتداد اليهم لكان فى شفقة المؤمن على المؤمن ورأفته به أكبر الدواعى على صونه من الفناء وإنقاذه من الهلاك ، ففى كثرة المسلمين معزة لجميعهم ومهابة لجانبهم ، وقد قالوا فى المثل : « إنما أكلتُ يومَ أُكل الثور الأبيض [1] »

(١) زعموا أن ثلاثة ثيران أحدها أبيض والثانى أحمر والثالث أسود تمردت على صاحبها وفرت الى البرية فالتقت ببعض الوحوش فطمع فيها ورأى أن لا قبل له بها وجها لوجه ، فعمد الى الحيلة فعقد معها صداقة بحجة أنها تأكل العشب وهو يأكل اللحم فلا زحام بينه وبينها فليكن الجميع على تعاون هو يرشدها إلى العشب وهى ترشده الى صغار الصيد . فلما قدم جاء الى الثورين الاسود والاحمر وقال إن لونى ولونكما متقارب وغير ظاهر ولكن الثور الابيض مكشوف اللون يرشد الناس الى اقتناصنا فهلا أعنتمانى عليه ليخلص لكما العشب ونأمن كشف الناس لنا بسببه ! فأجاباه فافترسه . ثم بعد حين جاء الى الاسود بمثل ذلك فأحس الضعف فأجابه ، فلما انفرد به جاء ليفترسه فتبين له خطأ ما ارتكب أولا وقال هذا المثل .

وهنا دقيقة بلاغية، وهى أنه جمع ضمير الطائفتين فى قوله : اقتتلوا، وثناه فى قوله : فأصلحوا بينهما، مراعاة للفظ طائفتين ومعناه، لأن كل طائفة عدة أفراد. وحسّن ذلك أن الاقتتال يسرى بين الأفراد جميعا، فكل فرد منهما حريص على أن يقتل أى فرد من الأخرى، فالاقتتال منتشر بين جميع الأفراد. أما الصلح فإنه يقسمهما الى طائفتين ممتازة كل منهما بوحدتها المعنوية، ينظر الى مجموع كل منهما نظرة واحدة، ولا يوقع الصلح بين كل فرد وفرد، فلذا قال : « اقتتلوا » وقال : « فأصلحوا بينهما ».

وقوله تعالى : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » معناه: فإن ظفرتم بما أردتم وتم بينهما الصلح الذى حاولتم فالصلح خير والحمد لله، فإن حصل تعاص فلا بد أن يكون قد تبين الحق مع إحداهما والبغى والافتيات من الأخرى، فالواجب حينئذ أن تناصروا الحق وأن تدوروا على الباغى حتى يفىء الى أمر الله. وفى هذا وفاء بحقهما جميعا. وقد ورد : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » وفسر بأن نصرة المظلوم بإعانته على دفع الظلم عنه، ونصرة الظالم بردعه عن ظلمه، ففى ذلك نصرة له على نفسه الأمارة بالسوء، فأنتم بقتالكم الفئة الباغية تكونون قد نصرتم أخويكم : المبغى عليها بدفع البغى عنها، والباغية بردها الى صوابها وإنقاذها من شرور أنفسها وسيئات أعمالها.

وقوله : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » أى قاتلوها لما بغت، لا انتقاما منها واستئصالا لها، بل إصلاحا لحالها وردا لها الى صوابها، فلا يتبع منهزمها، ولا يجهز على جريحها، ولا يستحل مالها، فهو قتال إصلاح لا قتال إهلاك

والفىء معناه الرجوع. وأمر الله معناه طاعة الله فيما أمر به فى قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ومن طاعة أولى الأمر الانقياد إلى إصلاح المصلحين الداخلين بين المتخاصمين. أو أمر الله أى ما أمر به ورغب فيه، وهو الصلح، فقد قال تعالى : « والصلح خير ». أو أمر الله أى الخوف منه وتقواه، فمن اتقى الله اجتنب كل ما يغضب الله. والثلاثة متقاربة فى مآلها.

قال تعالى : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا » :

المحتاج الى التنبيه هنا أنه زاد فى الأمر بالإصلاح هنا قوله « بالعدل وأقسطوا »، وذلك أنه لما تعاصت إحدى الفئتين وتمادت فى بغيها وغيها ، كانت مظنة أن تكون أغضبت المصلحين كما أغضبت خصيمتها ، فينقلبان معا عليها بالخصومة ، فاذا تغلبا عليها فربما أخذت الحمية منهما فأنستهما حكم العدل حتى يتجاوزا الحد ، فكان المقام مقام أن ينبهّا الى العدل والإقساط فى هذه الحالة حذرا مما هم عرضة للوقوع فيه . والقسط : الجور. والإقساط : إزالة القسط ، أى الجور ، كما ترى ذلك فى قوله تعالى فى آية أخرى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » وقوله هنا : « إن الله يحب المقسطين » . وختْم هذا الحكم بقوله : « إن الله يحب المقسطين » مما يرغب فيه مزيد ترغيب ، والأمر محتاج اليه عند ثوران النفس بالغضب على تلك الفئة الباغية ، فإن مقتضى الإيمان أن يكون هوى المؤمن تابعا لما يحبه الله ورسوله .

والآية قد أمرت بالعدل والإقساط ، أما تفصيله بتضمين إحدى الفئتين ما خسرته الأخرى ، أو ترك التضمين ، أو غير ذلك ، فمحله أبواب الفقه ، أو الرجوع الى حكمة المصلحين وثاقب رأيهم .

ولقد ذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلوا على سبيل البغى منهما جميعا فالواجب أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة ، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى ، صير الى مقاتلتهما ؛ وأنهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند نفسها محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، وإطلاعهما على مراشد الحق ؛ فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ماهديتا اليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه ، فقد التحقتا باللتين اقتتلتا على سبيل البغى منهما جميعا . وهذا كما ترى لا يتيسر إلا لمن كان مؤزرا من جماعة المسلمين ، ولا بدّ لهم فى تدارك ما بينهم من هذا .

وقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » تعميم فى الإرشاد السابق ، ليشمل كل حالات المخاصمات والمنازعات بين المسلمين ، وأنها جميعها يجب تداركها بالإصلاح ، سواء أكانت بين جموع أم بين أفراد ، وسواء أكانت حالات اقتتال أم مجرد اختلاف فى أمور غير ذات بال ، فربما استفحل الأمر الصغير فصار أمرا خطيرا ، ومعظم النار من مستصغر الشرر . وحسبك بالخلاف أنه مؤذ لكل منهما منغص لحياتهما . ولا ارتياب أنه لو وجد لكل خصومة تنشب بين اثنين من يعالجها ويقضى عليها فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها ، لسلم الناس من أكثر تلك الخصومات والمشاغبات المودية بالمصالح ، المؤذية للأسر والأفراد .

والإخوة والإخوان كل منهما جمع الأخ ، إلا أنه كثر استعمال الإخوة فى إخوة النسب حتى قيل إنه مختص به ، والإخوانِ فى إخوان الصداقة حتى قيل باختصاصه به أيضا . وإيثار لفظ الإخوة على الإخوان هنا للإشارة الى استحكام الروابط بينهما حتى كأنهما من أب واحد . ويقول القائل :

أبى الاسلام لا أب لى سواه فلم أفخر بقيس أو تميم

والغرض تحريك عاطفة الصلة بينهم حتى يهتم كل واحد منهم بما يمس الآخر كما يهتم بمصلحة أخيه ، فترتيب الأمر بالإصلاح عليه مع إعادة لفظ أخويكم بهذه الصيغة حُسنه لا يخفى .

وقوله : « واتقوا الله لعلكم ترحمون » جار على مألوف النسق فى النظم الكريم ، من توجيه النفوس دائما ولكل مناسبة الى تقوى الله ، فهى أساس كل خير . وترتيب رجاء الرحمة على التقوى فى هذا المقام ، لأنها باب لشمول نعمة التعاون والتساند بينهم ، فإنهم إذا سادتهم الألفة والمودة كل تعاطفهم وتراحمهم ، وصاروا عونا بعضهم لبعض ، فشملتهم رحمة الله وإحسانه بإجراء المساعدة والمعاونة بينهم على أتم وجوهها ، وأمن كل منهم شر غيره ورجا خيرَه .

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » :

هذا هو القسم الرابع من الإرشادات التى سبق لنا الإشارة الى تفصيلها ، وقد تقدمت أقسام ثلاثة ، وهى الإرشاد الى ما ينبغى فى جانب الله تعالى المذكور فى قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » ، والإرشاد الى ما ينبغى فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » الخ ، والإرشاد الى ما يطلب فى حق جماعة المسلمين ، وذلك ما ذكر فى قوله : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ » الخ ، وهذا هو ما يجب فيما يجرى بين أفراد المسلمين حين حضورهم ومواجهة بعضهم بعضا .

وقد ذكر فى الآية الكريمة أحكاما ثلاثة ، بادئا بأعظمها وأشدها ، ثم بما يليه ، ثم بما يليه ، فقال : « لا يسخر قوم من قوم » . والسخرية : التحقير والاستهزاء ، وذلك تارة يكون بالتضحيك منه والتشهير به ، وتارة يكون بحطه عن درجة الاعتبار وإلحاقه بمن لا حرمة له ولا قيمة ، كما يقول القائل :

فذاك الذى إن عاش لا يعتنى به وإن مات لا تبكى عليه أقاربه

وكما يقول القائل : هو أحقر من أن يذكر .

وتارة بإقصائه عن أن يكون له شركة فى الأمور أو مشورة فى الرأى واعتباره كأنه نسى منسى ، ولهذا النوع أفانين يحذقها الشريرون المؤذون ، ونحمد الله على عدم الإلمام بتفاصيلها ، ولو أنادرينا كل طرقها ووسائلها لما كان بناحاجة الى شرحها وتفصيلها ، فربما كان شرحها درسا معلما لها عند من يجهلها ، وقد يكون فى بعض الجهل خير ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . وأما السخرية على وجه الإجمال فهى معروفة على كل حال ، فليحذرها من يتعرض لها ، فهى مغضبة للرحمن مرضاة للشيطان ، مثار للشر مدفنة للخير . وقد وجه النهى أولا الى القوم مع القوم أى الرجال مع الرجال ، وثانيا الى النساء مع

النساء، والمراد التعميم ولو الرجال بالنسبة للنساء، والنساء بالنسبة للرجال. وإنما سلك هـذا المسلك لأن الغالب أن السخرية تكون بين أفراد الجنس الواحد، فنخوة الرجال تأبى عليهم غالبا أن يتعرضوا للنساء بالسخرية، وما وقر فى نفوس النساء من إجـلال الرجال يصدهن عادة عن أن يتعرضن للسخرية من الرجال. كما أن اختيار التعبير بالقوم والنساء المفيدة لمعنى الجمع، لأن أغلب ما تـكون السخرية بين الجموع المحتشدة، لأن ذلك أشد فى الإغاظة.

فهذا من وضع الدواء فى موضع الداء. وفى المثل: يضع الهناء مواضع النقب. ولفظ القوم إذا قوبل بالنساء كان مختصا بالرجال، وقد يطلق على الرجال والنساء جميعا كقوم عاد وقوم فرعون. ولعل وجه اختصاصه بالرجال أنه فى الأصل اسم جمع قائم كركب وسفر، والرجال هم القائمون بالأمور غالبا.

وقوله تعالى: « عسى أن يكونوا خيرا منهم » و « عسى أن يكن خيرا منهن » من باب ذكر الحـكمة مع الحـكم تدعمه وتعين على امتثاله. والمعنى: قد يكون المسخور منه فى الواقع وعند الله متحليا بصفات الخـير والـكمال حيث يتجرد الساخر منهما، ولعلك إذا تتبعت جماعة الساخرين وجدتهم فى الغالب مجردين من كل سمات الخـير، منغمسين فى أرذل حمآت الشر. وقـد تعودنا أن نرى فى سجايا أهـل الخير الابتعاد عن السخرية بالغير، والاهتمام بتنقية أنفسهم من الأوضار، ومراقبة أحـوالهم حتى يكونوا من الأطهار، وتراهم يتلمسون لما يبدر من نقائص الغير جميل الأعـذار، وبعكسهم الساخرون المستهزئون. ويجوز أن يكون معنى عسى أن يكونوا خيرا منهم، عسى أن يصير المحتقَر خيرا من المحتقِر، وأن تنقلب صروف الزمان بكليهما فيصير العزيز حقيرا والحقير عزيزا، كما قال القائل:

لا تهين الفقير علك أن تر كع يوما والدهر قد رفعه

قال تعالى: « ولا تلمزوا أنفسكم » وهو المرتبة الثانية من هذا الإرشاد الحـكيم. واللمز: العيب. ولما جعل المؤمنون كنفس واحدة كان المؤمن إذا لمز المؤمن كأنما لمز

نفسه ، فهو على حد قول القائل : فاذا رميت يصيبنى سهمى . أولا تلمزوا غيركم فيلمزكم فتكونوا قد جلبتم العيب على أنفسكم ، على حد ما ورد فى الحديث « من الكبائر أن يشتم الرجل والديه » وفسر بأن يسبّ الرجل رجلا فيسب الآخر والديه . وكلا المعنيين داخل فى النهى . ويفارق اللمز السخرية السابقة بأن تلك ـ على ما سبق ـ مبنية على التضحيك أو الاحتقار وعدم الاعتداد ، واللمز التنبيه على العيوب وإن لم يكن على وجه التضحيك منه أو إسقاطه عن درجة الاعتبار . وفرق بعضهم بينهما بأن اللمز إشارة خفية يرسلها صاحبها للتنبيه من وجه دقيق على عيب مستكن ، وأما السخرية فواضحة ، والمعانى متقاربة .

وقوله : « ولا تنابزوا بالألقاب » أى لا يدْع بعضكم بعضا بلقب بغيض اليه . وأكثر ما يستعمل « التنابز » فى اللقب البغيض ، بل كذلك لفظ « اللقب » أكثر استعماله فى المكروه من الألقاب ، وإن كان كل منهما يستعمل فى اللقب الحسن ، كالحسن والمنصور والصديق والفاروق وذى النورين . وهذه هى الرتبة الثالثة من هذا الإرشاد ، فقد يكون لشهرة الرجل بلقب — وإن كان غير محبوب — مصرف عن إرادة الإيذاء والشرّ به ، وليس كذلك اللمز والسخرية . فيكون هذا الإرشاد الرابع قد علمنا ما يجب علينا مراعاته فى آداب عشرتنا واجتماعاتنا . وبدأ بالأهم ليقتلعه ، إذ هو مثار العداوات ، ودواعيه فى الغالب متوافرة ، وذلك هو السخرية ، فقد يدعو اليها مجرد التظرف والرغبة فى جلب السرور على الحاضرين ، بضحك من أحدهم ، غافلا عما يلحق هذا المضحوك منه من غيظ كبير ربما أدى الى شر أكبر ؛ وثنى بالنهى عن اللمز ، لأن صاحبه قد يستخف أمره لما فيه من الخفاء فيبدر منه على خفة العجلة . ثم ختمها بأخفها وهو التلقيب المكروه الذى قد يتسامح فى شأنه ، وذلك ليقتلع كل بذور الشر والعداوة من أصلها ، ترسيخا للمحبة بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم .

ولعلك إذا تأملت فى أسلوب النظم الكريم رأيت من حسن الوضع ما يملأ نفسك إعجابا ، فقد عبر فى الأول بكلمة لا يسخر قوم من قوم ، لأن المسخور منه عادة يكون كأنه

قدجعل فى نظر الساخرين فريقا وحده، ونصب هدفا لعبثهم ولعبهم، فكأنه صار أجنبيا منهم. وقال فى الثانى: ولا تلمزوا أنفسكم، لأن اللامز والملموز فى عادة التخاطب يجمعهم بساط واحد، ويكونون فى زمرة واحدة. ثم لا يلزم من لمزه من واحد أن يستحضر هو ما يلمزه به، فقد لا يحضره ذلك أو لا يقدر على مقابلته بمثله. وأما التنابز بالألقاب فهو إذا فتح بابه سرى بينهم مقابلة المثل بالمثل، فقلما يخلو واحد من أن يعرف بلقب يكرهه، فإن لم يكن استطاع أن يبتكر له لقبا من جنس ما يقول، وذلك ما تعطيه صيغة التنابز.

وما أجمل ما عقبت به هذه النواهى من إيقاظ شعور الايمان فى نفوسهم، والتنويه بما ينبغى أن يثمره فى تحايتهم، والتنبيه على ما يجب عليهم أن يسلكوه وفاء بحقه من الابتعاد عن الفسوق والعصيان، فقال تعالى: « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » أى ما أقبح أن يشين المرء كماله بنقيصة: فالنقيصة فى ذاتها ذميمة، وهى ممن تحلى بحلية الكمال أقبح. فالمعنى: بئست الحالة أن تعرضوا أنفسكم للتسمية بفاسقين بسبب مخالفتكم ما نهاكم عنه بعد أن أحرزتم شرف التسمية بالمؤمنين. فالاسم هنا بمعنى الذكر والشهرة، كما يقال: طار اسمه فى الآفاق، أى اشتهر وعرف.

وقوله جل شأنه فى ختام الآية: « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » فيه تأكيد التحذير بتسميته تلك المخالفات ظلما، بل حصر الظلم فيمن خالف. وفيه مع هذا فتح باب التوبة للخروج من تلك الورطة التى قد يقع المرء فيها عن غرة. ثم يشبه أن تكون من باب إرسال المثل. والمعنى أن من فتح أمامه باب الخلوص من مصيبة تردى فيها ثم لم يغتنم الفرصة بالفرار منها فهو الظالم لنفسه كما قال تعالى: « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

نسأل الله أن يرزقنا التوفيق للتوبة من كل الذنوب، وأن يجنبنا وساوس الشيطان وهمزاته، ويقينا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه سميع مجيب ؟

ابراهيم الجبالى

تفسير قوله تعالى

(إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

وبيان بعض آيات الله فى مخلوقاته (١)

وإنى أود أن تتخيل الأرض حينما كانت كتلة نارية كما هو باطنها الآن أو أشد، وقد ذكروا أنه يصهر الصخور. فقل لى بعيشك كيف صارت بعد ذلك محل العجائب والغرائب ؟ فقد جعلها الله مخزنا لكل ما نحتاج إليه من مساكن وملابس وغذاء ودواء، بل من رجال ونساء، فإننا خلقنا منها « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ». فكم يكون دهشك إذا قارنت ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه الى حالتها الأولى عند ما كانت كتلة نارية، وهل يشتمل الشئ على ضده ؟ وهل يكمن فيه ما يباينه ؟ وهل يكون من عناصره ما يتنافى هو وحقيقته ؟ وماذا عسى أن تكون تلك النار التى اشتملت على تلك العجائب والأسرار حتى أصبحنا نطلب منها ما نأكل وما نشرب وما نلبس وما نسكن وما ننكح الخ ؟ فسبحان من لا يعرف قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ».

ولا بأس أن نقول بعد هذا كلمة صغيرة عن السلسلة الحيوانية التى تبتدئ بتلك المكروبات المتناهية فى الصغر :

فقد ذكروا أن آلاف الآلاف منها تعيش فى نقطة ماء صغيرة وتنمو هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر فى القفار . ويقولون إن هذه الحيوانات لا يساوى هيكل الواحد منها جزءا من ١٨٧ مليون جزء من القمحة . ومع هذا الصغر المتناهى لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها ما يهضم به طعامه وماتتم به حياته من الأعضاء

(١) تتمة ما نشر فى الجزء السابق بهذا العنوان .

الباطنة والظاهرة ، فإذا تناهى الحيوان فى الصغر فاذا عسى أن تكون تلك الأعضاء . وقد كنا نمثل بالذرة لأصغر الأشياء ونؤمن تقليدا القرآن بأن هناك أشياء أصغر من الذرة ، حيث أشار اليه فى بعض آياته ، ونقول ليتنا نعرف ما هى تلك الأشياء التى تكون أصغر من الذرة ، فإن الله يقول فى بيان سعة علمه المحيط بكل شىء : « ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتاب مبين » حتى أبانت لنا الاكتشافات الحديثة أمر المكروبات فى صغرها ، وأسمعتنا غريب حديثها ، فقلنا عن عيان ووجدان : صدق الله العظيم حيث يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ثم تترقى فى سلسلة الحيوان من تلك الحيوانات الدنيا الى أن تصل الى نوع الحيوانات العليا كالفيل بل ما هو أعظم من الفيل مثل الهيشة التى تزيد على الفيل خمس مرات . ثم من حيوانات البحر ما يكبر جدا حتى يظن أنه جزيرة فى البحر .

وفى البخارى أن المسلمين وقعت لهم سمكة (من البحر الأحمر) أكلوا منها شهرا ، وكان أطول رجل فيهم يركب على جمل ويمر من تحت انحناء ضلع من أضلاعها . أو كما ورد .

فانظر رعاك الله الى هذه السلسلة العجيبة التى لا تتقيد بقيد ولا تنضبط بحال . فإن قلنا : لابد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات الدنيا . وإن قلنا إن الحياة لابد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان ، رأينا الحيوانات الهلامية لا قشور فيها . وإن قلنا إنه لا بد من رءوس ، كذبتنا الحيوانات التى ليس لها رءوس . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلب الجسم ، ورد علينا النقاعيات والاسفنجيات ، الى آخر مالا يمكننا شرحه .

فها أنت ذا ترى الحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال، فلا يصد عنها بر ولا بحر، ولا هواء، ولا رخاوة فى الجسم، ولا عدم الرأس، ولا فقد الفقرات، ولا قلة الحواس.

ثم انظر بعد هذا تجد حيوانات يقتلها الأكسوجين وتعيش تحت التراب، أو نقول لا يمكنها أن تعيش فى الهواء الخالص، وحيوانات لا تعيش إلا فى الهواء كالطيور، وحيوانات لا تعيش إلا فى البر كالانسان، وأخرى لا تعيش إلا فى الماء كالأسماك.

فسبحان القادر على كل شيء «خالق كل شيء فقدره تقديرا» «أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» «وما قدروا الله حق قدره» «سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». وإن شئت أقرب من ذلك كله فانظر الى نفسك وما فيها من عجائب الصنع وبدائع الخلقة، وما اشتملت عليه من الأسرار الظاهرة والباطنة، وقد قالوا قديما: «نظرك فيك يكفيك».

ولننقل كلمة إجمالية جدا عن بعض ما فى الإنسان:

إن فى الجسم الإنسانى أكثر من مائتى عظم، ولكل منها شكل مخصوص يناسب ما نيط به وما خلق لأجله، ولولا ذلك لتعطلت حركاتنا التى نأتيها كل وقت وساعة. ثم انظر كيف خلق لك الكبد والمعدة والرئتين والكليتين الخ الخ، وكيف ناط كل واحد منها بعمل مخصوص، ثم أوجد لك الفم وأنبت فيه الأسنان المختلفة ليقع بها الهضم الأول، ثم جعل لك غطاء يغطى مجرى النفس عند البلع، وجعل لك مجرى مخصوصا للطعام والشراب، وآخر للنفس، وجعل للمعدة بابين للدخول والخروج، وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة، ثم جعل سبيلين بعد ذلك لإخراج الفضلات التى لو بقيت

فى الإنسان لأهلكته . ثم انظر بعد ذلك الى ما فيك من المفاصل وتركيبها العجيب ، ولولا ذلك لاختلت أحوالك ووقفت أعمالك ، وكنت إذا أردت أن تنام وقعت على الأرض دفعة واحدة كالشجرة حين تقع ، أو الحائط عند ما تسقط .

ثم انظر الى العين وتركيبها الذى يدهش الأنظار ويحير الأفكار .

فانظر الى ما اختير لها من وضعها فى الحجاج ، وجعلها أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التى غطاؤها ضعيف كالبطن والوجه ، الى أسرار أخرى .

وأيضا الأعضاء الخارجية كاليدين والرجلين من الأمام ، فتكون العين مشاهدة لأعمالها . وماذا يكون الحال لو وضعها فى رأسك أو فى رجلك .

ثم انظر كيف كان الجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإقفال ، والأهداب تمنع الغبار ، وتدخل الضوء عند الحاجة اليه كما فى أوقات هبوب الرياح . وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفينى هدب العين فى الدلالة على الله » .

ثم انظر كيف ركبت العين من ست طبقات بديعة الصنع غريبة الترتيب ، وهى : القرنية والعنبية والعنكبوتية والشبكية والمشيمية والصلبة . ولهذا شرح طويل لا يسعه هذا المقال . ثم انظر كيف جعل داخل الأنف مصفاة تقيك ما عسى أن يكون من غبار يعكر عليك صفوك ويكدر منك أنفاسك . ولا يمكننا أن نسير بك فى بحر تلك العجائب التى لا يدرى الناظر فيها أيها أعجب .

ولو شرحت لك عجائب الأذن لكان عجبك أكثر ودهشك أشد . ولو ذكرنا لك ما للكرات البيضاء والحمراء من الوظائف ، وما يذكرونه الآن عن الغدد التى اكتشفوها حديثا وما لها من الوظائف التى هى أعجب من كل عجيب ، لطال القول واتسع المجال .

ولو ذكرنا ما وراء ذلك من أسرارك الباطنة كالشعور والإدراك والتذكر والتخيل الى غير ذلك ، لوقعنا من الروحانيات فى بحر لا يعرف له ساحل ولا يدرك له قرار « وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها » .

وإجمال القول أننا غارقون فى الآيات، ولكننا لا نلتفت اليها لكثرتها وتكررها حتى أصبحت مألوفة معتادة، وكل ما تكررت مشاهدته سقط وقعه. وهاهى ذى النجوم تطلع كل ليلة، والشمس تشرق كل نهار، ولا نكاد نلتفت اليها أو نفكر فيها، لكوننا نراها كل يوم وكل ليلة. وقد كنا ننظر الى الطيارات أول ما ظهرت، فلما تكررت رؤيتها سقط وقعها فلم تنفعل النفس بها فلا نكاد نلتفت اليها الآن. ولو قال لك قائل: إنه رأى نقطة ماء قذرة لا يعبأ بها، ثم رأى رجلا سميعا بصيرا مناضلا مجادلا فيلسوفا قد خرج من تلك النقطة الحقيرة، لعددته مصابا فى عقله أو هازئا بك غير محترم لعقلك. ولكنك تشاهد ذلك الذى عددته خرافة أو جنونا كل يوم، فما ذلك الشجاع الباسل، ولا ذلك العالم المتفنن، ولا تلك الغوانى الفاتنات، إلا من نقطة ماء قذرة تعافها النفس وينفر منها الطبع، نقلتها القدرة الإلهية فى تلك الأطوار العجيبة حتى جعلتها من نوع البشر ذى السمع والبصر، فسبحان القادر الذى لا تحد قدرته ولا تتناهى عظمته «إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم».

وقبل إلقاء القلم نتحفك بما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: روى أن واحدا قال له: إنى أتعجب من أمر الشطرنج، فإن رقعته ذراع فى ذراع، ولو لعب الانسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد. فقال عمر رضى الله عنه: هنا ما هو أعجب من ذاك، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر، ثم إن مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا تتغير البتة. ثم إنك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة اشتباها يوجب أن لا يتمايزا، بل سمعت من بعض المبرزين فى الطب أننا لو قارنا بين أنفين (فضلا عن الوجهين) لم نجدهما يتماثلان من كل وجه. فسبحان اللطيف الخبير. وقد قالوا إن لبنان كل إنسان هيئة خاصة لا تماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه. ولهذا تراهم يلزمون الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يوقع بإبهامه فى الأمور الرسمية علما منهم أن إبهامه لا يماثله إبهام شخص آخر ولا يمكنه فيه

ادعاء التزوير . ولعل القرآن خص البنان بالذكر فى قوله تعالى : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » لهذه الحكمة ، ولعل فيه حكما أخرى ، وقد تعرض المفسرون لشئ منها .

ولا بأس أن نذكر لك هنا ما يروى عن أبى حنيفة مما يناسب هذا المقام :

يقال إنه جاء جماعة من الدهرية لأبى حنيفة رضى الله عنه وطلبوا منه دليلا على وجود الله عز وجل ، فقال : ما تقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار ، واجتمع من تلقاء نفسه ثم كون سفينة تجرى فى البحر ، وهى مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، فقد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى مع ذلك كله تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يرعاها ؟ !

فهل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شىء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : ياسبحان الله ! إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد يرعاها ولا ربان يدبر أمرها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وشتات أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع يكلؤها وحكيم يدبرها ؟ ! فاعترفوا جميعا وقالوا : صدقت .

وقد أشير الى هذا الدليل الذى يذكر عن أبى حنيفة فى القرآن الشريف حيث يقول : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره »

ولنختم مقالنا هذا بقوله تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز »

ولنقف اليوم عند هذا الحد ، ولعلنا نعود اليه فى فرصة أخرى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم.

هذا الحديث من جوامع الكلم ، فقد أرشد كل فرد من الأمة الى أن عليه من الواجبات المسئول عنها مالو قام به لكمل نظام الأمة بأسرها ، وتضمن أن كل واحد من الناس يجب أن يعيش بما يعمل وبما يؤدى للأمة من خدم ومنافع ، ولا يعيش لنفسه فقط ، فما استحق أن يعيش من عاش لنفسه وحدها . وهذا حكم لو راعاه كل واحد فيما عهد به اليه لكانت الأمة مؤلفة من جزئيات حية حياة نافعة ، فتكون حياة الأمة أعظم حياة . ولو أنا دققنا النظر لوجدنا كل ما يقوم به الوعاظ والمرشدون والمربون يدور حول تفصيل هذه الواجبات ، وحث كل فرد أو كل طائفة على القيام بها وأدائها حق أدائها .

« فالإمام راع ومسئول عن رعيته » وهو الرأس العليا ، والقدوة العظمى ، ومنه يستمد كل ذى سلطة فى الأمة سلطته ، فحكمه يتناول كل من ولى قسطا من السلطة العامة وعهد اليه بمصلحة من مصالح الأمة : من حاكم إدارى ، وقاض ومنظم ، ومرشد

ومرب . فكل من نصب على مصلحة من مصالح المجموع فهو راع فيها ومسئول عن أدائه حقها .

« والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته » فأول الحقوق التى يسأل عنها فى شأن أهله وأسرته حقُّ السعى على معاشها واكتساب قوتها ونفقاتها ، وهذا يستدعى منه حسن التأمل والتفكير لاختيار أنفع الطرق التى يليق به سلوكها ، ثم الاجتهاد فى إحكام الوسائل التى تعود عليه بالنجاح فيما سلك ، ثم دوام اليقظة والرقابة لما عسى أن يعترضه فى طريقه من عقبات فيحيد عنها ، أو فرص فيسارع الى انتهازها واغتنامها ، مع دوام الكد فى مصلحته والجد فى أداء ما يجب عليه . بيد أنه يجب أن يحترس من التهالك المفسد لأمر دينه أو مروءته ، ومن التطوح فى الشره حتى يتجاوز حدود الله ، ومن التفريط فى الواجبات الأخرى المنوطة به نحو نفسه فى عبادة ربه ، أو نحو أهله فى رقابة أخلاقهم ، أو نحو صحابته فى القيام بحقوق معاشرتهم ، فليكن الاعتدال رائده والحكمة قائده .

ولا يقل عن هذا الواجب عليه نحو أهله ، بل قد يزيد عليه واجب حياطتهم فى دينهم ، والمحافظة عليهم من الوقوع فى هاوية الجحيم ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » فوقاية الأنفس والأهل من النار من أكبر واجبات الرعاية المسئول عنها المرء نحو أهله ونحو نفسه ، وهذا يتضمن تربيتهم على المبادئ الدينية ، وتعويدهم العادات الشرعية ، ومراقبة حالاتهم وضبط حركاتهم وسكناتهم بعين يقظة وفكرة نيرة ، ولا سيما فى عهد الشبيبة المشتعلة ، حيث النفس ثائرة ، والقوى الحيوية متوثبة ، وسلطان العقل مغلوب بثورات الهوى ، فلا يخطرن بباله أن يتعلل بما يتوهمه من ظاهر قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فقد قيد عدم ضرر المرء بضلال غيره باهتدائه هو ، ولا يكون مهتديا إلا إذا قام بما وجب عليه وأدى الحقوق التى هو مسئول عنها ، ومنها حق رعايته لأهله

ويلتحق بهذين الواجبين واجب دنيوى ، وهو إرشادهم الى مسالك الحياة

الصحيحة ، وتوجيههم نحو ما ينفعهم فى أمر دنياهم وكسب معاشهم بعد أن يكون قد هيأهم لذلك ، كل على حسب ما يناسبه ، فذلك من حقوق الرعاية المسئول عنها . وكذلك تأديبهم بالآداب الاجتماعية ، وتأهيلهم لأن يعيشوا محبوبين موفورى الكرامة ، متحلين بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق . أما تعهد الأطفال فى صغرهم بحفظ صحة أبدانهم وتنمية قوى تمييزهم ، فأظهر من أن يحتاج الى شرح .

وعلى الجملة فالرجل فى أهله كسلطان فى مملكته ، من واجبه أن يرعاها ويدفع عنها الأذى ، ويسعى فى تربيتها وترقيتها فى كل مناحى الحياة . ولو أن كل امرئ راعى فى أهله هذه الحقوق لصلحت الأمة واستقامت شئونها .

ونرى من المفيد استرعاء النظر الى أن قوله تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » محكم فى مثل هذه الحالة ، كما هو شامل لغيرها ، فليراع الحكمة فى تربية أهله وأولاده ، ومن أعظم ضروب الحكمة أن يكون هو المثل الأعلى لهم والقدوة الصالحة . فليحترس من أن يلحظوا عليه اعوجاجا فى عمل ، أو كذبا فى قول ، أو تراخيا وخمولا فى أداء واجب ، فإنهم الى الاقتداء بعمله أسرع منهم الى الاهتداء بقوله . وليجعل أنسه وقت فراغه بمحادثتهم وجلب السرور الى نفوسهم ، واضعا نصب عينيه قوله تعالى: « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » فإنه متى تعود ذلك يوشك أن يحتقر بجانبه ما يستلذه من مخالطة أصحاب السوء الذين تضمه اليهم القهوات والبارات وأندية الملاهى وأماكن المخازى . سيجد فى مرح أطفاله حوله ومداعبته لهم فى صغرهم أو جميل محاوراتهم وطريف منازعاتهم ما يكون الى نفسه أشهى من تلك السخافات والحماقات .

وإنى لعلى يقين بأن ذلك سيعود عليه هو بالتربية الحسنة فى خاصة نفسه ، فالمرء إذا اجترأ على مقارفة الفعال الخسيسة أمام أترابه الذين يشاطرونه لعبه ولهوه ، يغلبه الاحتشام أمام أهله وولده ، فلا يلبث أن يصير ذلك بالمران وطول الزمان عادة له راسخة فى نفسه ، فيكون قد أدب نفسه وأدب أهله ، ولا يلبث إلا قليلا حتى يجنى ثمرة ذلك بما حفظ

لنفسه من ثروة كانت مهددة بالضياع ، وبما أقام لأهله من ثروة خلقية وأدبية وعلمية تنفعهم وتنفعه معهم ، وينطلق لسانه بشكر الله قائلا : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

« والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » إذا كان الرجل فى أهله بمنزلة السلطان فى مملكته ، فما المرأة فى بيت زوجها إلا بمنزلة وزارة الداخلية فى المملكة العمومية : عليها يدور نظام البيت ، وهى المعوان للرجل على أداء حقوق الرعاية ، فعليها أن تكون مدبرة فى مصرفها ، مستوفية لوازمها من أقرب الطرق وأيسرها ، فلا تتغال فى جلب كل ما تاقت اليه نفسها .

فالنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد الى قليل تقنع

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وإن المرأة الحاذقة تستطيع بثاقب فكرها أن ترفه عن زوجها ، وتعدل مطامع أولادها ، وتكبح جماح رغباتها ، وتوازن بين مقدور زوجها وبين لوازمه ، حتى لا تضاعف عليه الكد ، ولا توقعه فى العنت والإرهاق . ولتحسب دائما حساب أن اليسر والعسر لا دوام لهما ، فتقتصد فى حال اليسر ما تجعله عدة لمفاجأة العسر ، وتستجمع فى حال العسر جميل الصبر وعظيم الشكر ، بالتنويه بما هى فيه من نعمة لو تنبهت لها وقدرتها قدرها لكان فيها نعم العزاء . وقلما تجد نقمة إلا وفى جوارها ألف نعمة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . إنها إذا سلكت هذا المسلك جعلت بيتها فردوس النعيم ، كما أن الإخلال بذلك يقلبه الى نار الجحيم ، وفى كلتا الحالتين هى التى تجنى ما غرست ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

يضاف الى واجبها هذا واجب هو أكبر خطرا وأعظم أثرا ، ذلك هو واجب التربية لأطفالها ، وتعهدهم بالنصائح المفيدة ، ومعاونة رب البيت بالرقابة الصادقة ، والإخلاص له بإطلاعه على ما قل وجل مما تحب ومما تكره ، ليتعاونا على تنمية ما تحب من أخلاق أطفالها ، وتنحية ما تكره منها ، ولا تدفعها الشفقة الحمقاء على مداراة عيوبهم

عنه حتى تستفحل ويصبح اقتلاعها من نفوسهم أمرا عسيرا ، ويصبح أثرها فى قلوبهم وعقولهم وأخلاقهم شرا مستطيرا . والفعل السىء يمكن تطهير النفس منه إذا تدورك قبل استفحاله ، فاذا أهمل فى بدايته تعسر أو تعذر التخلص منه . ثم عليها فى كل ذلك أن تكون بشوشة الوجه ، طلقة المحيا ، محببة الى الجميع . وأول قلب يجب أن تمتلكه هو قلب زوجها ، فتى نجحت فى ذلك فقد استمسكت بعروة وثقى ، واستطاعت أن تستكمل معه التعاون على ضم شتات الأسرة وجمع قلوبها ، فيشبوا على محبة بعضهم البعض ، وينشئوا متساندين متعاونين متحدى الإحساس والشعور ، فيمتلىء بهم البيت سعادة ، وترفرف عليهم المسرات . أفليست بذلك مركزها كبير وشأنها خطير ؟ بلى ، إنها لكذلك .

« والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » حتى الخادم الذى يظن أنه لا يؤبه له يعتبر فى نظر الشارع الحكيم راعيا فيما وكل إليه وعهد له به من تصرف فى مال سيده . فعليه أن يقوم بحق الرعاية فى ذلك ، وأن ينتخب فيما يكاف مشتراه أو مبيعه ما هو الأحظ لسيده ، وأن يجتنب الطرق السافلة التى يسلكها من لا خلاق لهم ، أو يغمض عما يحق له أخذه لسيده طمعا فى أن يستفيد لنفسه سحتا قليلا من المال يشاطره فيه التاجر ، أو يشعر منه بالريبة ، فيستبد به ويضطر هذا أن يخضع لإرادته . ولكن مثل هذا لا بد أن ينكشف أمره يوما ما فيخلع من عمله ، وبعد لأى مايتصل عيشه فينكشف غشه فيخلع من نعمته ، ويتكرر هذا حتى تتحاماه الأعمال الشريفة ، إذ يكون قد كملت ضراوته على الخيانة ، فيلتجىء الى اللصوصية المحضة حتى تضبطه يد العدالة ويساق مع المجرمين ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

أما الأمين من الخدم فإنه مغفور الزلات ، مستور الهفوات ، معفو السيئات . فهما صدر منه من غلطة كانت أمانته له نعم الشفيع . ولا نرى بأسا فى أن نستطرد بذكر رأى ابن خلدون فى شأن خدم المنازل : فقد قسم الناس الى ذكى وبليد ، وكل منهما إما أمين وإما خائن ، ثم قال : أما البليد الخائن فلا خير فيه ولا فى مقاربته ، وأما الأمين الذكى فمن

ظفر به ألحقه بأسرته ، وقلما يرضى مهنة الخدمة المنزلية لنفسه ، فسيرى من ذكائه ما يفتق له مغلاق المضايق فى الحياة ، وسيكون له من أمانته ما يكسبه ثقة الناس فتتسع أمامه السبل . فبقى للخدمة فى الغالب أحد القسمين الباقيين: إما الذكى الخائن ، أو الأمين البليد. ولعل كلمة الخائن أقوى عوامل النفرة ، وربما كان الذكاء معينا على شدة خطرها .

وما سقناه عن ابن خلدون يعبر عن الغالب ، وإلا فربما اضطرت الحالات الشاذة بعض الأمناء العقلاء أن يرضى بهذه المهنة قانعا من العيش بالكفاف ، راضيا من الدنيا بما يمسك الرمق ، ولله فى خلقه شئون .

« والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته » :

هذا سير مع ما يجرى كثيرا فى متعارف الناس ، إذ ينشأ الولد فى حجر أبيه حتى يبلغ أشده وتكمل رجولته ويدخل فى طور التكليف ، ولا تزال يده تجول بالتصرف فى مال أبيه كما يتصرف المالك فى ملكه . فالشارع الحكيم يقر هذه الحالة على ما هى عليه ، ويرشد من هو كذلك الى أنه فى تصرفه راع مسئول ، لا مطلق التصرف من جميع الوجوه ، فيجب أن يكون تصرفه تصرف القيم الأمين ، لا تصرف المالك المطلق .

وما أحوج الشاب فى نشأته الى مثل هذه النصيحة القيمة ؛ فطبيعة الشباب غالبا تهون أمر التبذير والبعثرة: (أولا) لأن تجارب الزمان لم تحكمه . و(ثانيا) لأن نفوس الشبان أسرع الى الزهو والاغترار بمكذوب الثناء من معسول اللسان ، فهو عرضة لأن يسلبه أصحاب الألسنة المذقة والنفوس المتملقة . و(ثالثا) لأنه لم يكد فى تحصيل ذلك المال ولم يذق عناء جمعه حتى يعرف قيمته ، فتصريفه على نفسه هين جد الهوان . وهنا ندرك السر فى قوله فى شأن الرجل أولا : « راع فى أهله » وفى شأن الرجل ثانيا والمراد منه الولد الذى لم يزل فى بيت أبيه : « راع فى مال أبيه » ، فالرجل فى ماله حر التصرف مطلقه ، لم يقيد تصرفه فيه بأمر الرعاية ، لأن الغالب أنه يعرف قيمة ماله ومواقع الحاجة اليه فترك لفطرته ، بخلاف الولد فى مال أبيه . ولا تحسبن هذا معناه

إباحة السرف للرجل وسوء التصرف فى المال ، وإنما هو من باب الثقة بعقول الرجال ، وأنهم مفروض فيهم أن طباعهم ترشدهم الى ما فيه فلاحهم ، فمن شذ عن ذلك فباقى النصوص له بالمرصاد ، كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وكقوله تعالى: « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وأشباه ذلك كثير .

أما هذا الحديث الشريف فإذ كان لبيان دستور عام للمجموع فى الشئون الاجتماعية الشاملة ، كان الضبط فيه مجاريا لما يغلب على طباع الناس ، ومع ذلك فرعاية الرجل فى مال نفسه داخلة فى حكم رعايته فى أهله ، على ما سبق أن بيناه من أن أول رعايته لأهله سعيه فى كسب قوتهم وتحصيل نفقاتهم ، فهذا متناول للرعاية المالية ضمنا بدون ريب .

وعبارة البخارى فى رواية هذه الفقرة الأخيرة : « وأحسب أن قد قال : والرجل راع فى مال أبيه الخ » وهذا من كمال احتياط الرواة فيما يروون ، فما كان عندهم موضع الجزم ساقوه بصيغة الجزم ، وما كان عندهم موضع الظن والرجحان ساقوه بصيغة الحسبان ، فما كان أدقهم وأشد احتياطهم فيما يروونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم !

« وكلكم راع ومسئول عن رعيته » :

هذا إجمال بعد التفصيل ، ليقرر ما سبق فضل تقرير ، ويزيده تأكيدا وتثبيتا ، وليدخل ما عساه لم يدخل فى التفصيلات السابقة ، كرعاية الجار شئون جاره ، والصديق مهام صديقه ، بل كرعاية المرء شئون نفسه الخاصة من ضبطه جوارحه وحواسه ، فهو راع فى لسانه ، راع فى جنانه ، راع فى حواسه ، مسئول عن كل ذلك . وانظر إذا شئت لما ورد « من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » ألست ترى فيه معنى المسئولية واضحا ؟ نسأل الله أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ابراهيم الجبالى

باب الأسئلة والفتاوى

ورد من حضرة عبد العزيز السيد بهندسة السكة الحديد السؤال عن هذه المسائل :

أحكام فى التعزية — اعتبار الدين من الزكاة — ربح أوراق اليانصيب
وفوائد الاموال المودعة فى المصارف ، وربح الاسهم فى الشركات التجارية

الجواب

١ — سنة التعزية :

لم يكن معهودا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عصر الخلفاء الراشدين والسلف الصالح من التابعين أن يجتمع الناس لتعزية أهل الميت ، إنما الذى كان فى عصرهم أن ينصرف أهل الميت بعد الدفن فى حوائجهم وأعمالهم ، فمن صادفهم من الناس عزاهم فدعا لميتهم ، وحملهم على الصبر ، ونهاهم عن الجزع .

أما جلوس أهل الميت فى بيت أو سرادق لتلقى التعزية فهو مكروه . وممن نص على كراهته الامام الشافعى رحمه الله فى كتابه الأم . وعبارته : «وأكره المآتم وهى الجماعة وإن لم يكن لهم بكاء ، فإن ذلك يجدد الحزن ويكلف المئونة مع ما مضى فيه من الأثر» اهـ . فالجلوس للتعزية واجتماع الناس فى دار أهل الميت أو سرادقهم مكروه ، سواء أكان فيه سماع قرآن أم حديث أم قصص .

وإذا كان الجلوس للتعزية مع خلوه من المنكر مكروها ، فكيف به إذا اشتمل على منكرات ، مثل التغنى بالقرآن وتلحينه وتمطيط كلماته حتى تخرج عن الحد المألوف فى تلاوة القرآن الكريم ، ومثل اللغو فى مجالس القرآن وعدم الإنصات لقارئه ، ومثل

الإنفاق على هذه المجتمعات من أموال القصر التى يستحقونها من تركة ميتهم كما هو الغالب الكثير فى مجالس التعزية فى عصرنا الحاضر ؟ لا شك أن مثل هذه الاجتماعات يكون محرما أشد التحريم .

٢ — اعتبار الدين من الزكاة :

الدَّين الذى يكون للمزكى على مفلس لا يجوز اعتباره من الزكاة الواجبة عليه فى ماله ، فاذا كان له عشرة جنيهات على مفلس ووجب عليه فى زكاة ماله عشرون جنيها لم يجز أن يخصم العشرة التى على المفلس من مقدار الواجب ، بل يتعين عليه أن يخرج العشرين جنيها كلها فيدفعها الى الفقراء والمساكين ومستحق الزكاة . أما ماله الذى أخرجه على سبيل القرض ، فإن تيسر له أخذه من المدين فبها ، وإلا فجزاؤه عند الله ، وسيضاعف الله له قرضه « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم » . ولو كان كل قرض مضمون السداد ، لم يكن فى القرض هذا الثواب العظيم . ولولا أن مال القرض عرضة للضياع ما مدح الله المقرضين ولا ضاعف لهم المثوبة .

٣ — ربح أوراق اليانصيب وغيرها :

الربح من أوراق « اليانصيب » ليس من الربح الحلال ، وكذلك جميع الفوائد التى تؤخذ عن الأموال المودعة فى المصارف والبنوك . أما الربح الناتج عن أسهم الشركات التجارية ، مثل شركة مصر لغزل القطن ونسجه ، فإنه ربح حلال مادامت هذه الشركات تستغل أموالها فى وجوه التجارات الشرعية ، كالبيع والشراء والإجارة والجعالة والاستصناع الخ ، وهى مع ذلك خاضعة لقوانين التجارة ، فقد تربح وقد تخسر ، وليس لحامل السهم فيها ربح معين . فهى إذا تجارة جائزة لا يعد الربح منها ربا ولا أكلا لأموال الناس بالباطل . والله الموفق .

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان
بكلية الشريعة

الحلف بالحرام

وورد من حضرة الفاضل صاحب التوقيع سؤال خلاصته :

رجل يغار على زوجته من أزواج بناتها وبناته وكانت تظهر لهم بحال لا ترضيه ، فحلف عليها قائلا : عليّ الحرام إنك ما تظهرى على أزواج بناتك وبناتى . فقالت له : وابنتى الصغيرة ؟ فأجابها : الى أن تبلغ حد الزواج تكونين قد بلغت سن الكبر .

فهل هذا تحريم بات أم طلاق ، وهل هو من الكنايات التى تحتاج الى نية أم صريح ، وهل هو معلق بظهورها أم منجز ، وهل يشمل البنت الصغيرة التى لم تتزوج ، وهل يقع اليمين إذا ظهرت متأزرة على الوجه الشرعى بحيث لا يظهر منها سوى الوجه والكفين ؟

مصطفى ذهنى

مفتش السكة الحديد فى عمان شرق الاردن

الجواب

لفظ الحرام فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه من كنايات الطلاق ، فاذا قال الرجل لزوجته : أنت عليّ حرام أو حرمتك أو عليّ الحرام منك ونوى الطلاق ، وقع طلاقا رجعيا ، فللزوج مراجعتها إن لم يسبق ذلك بطلقتين ، وإن لم ينو به الطلاق ولا الظهار فلا تحرم عليه زوجته وعليه كفارة مثل كفارة اليمين . وقول السائل لزوجته : « عليّ الحرام منك إنك ما تظهرى على أزواج بناتك وبناتى » طلاق معلق بظهورها لأزواج البنات حيث نوى به الطلاق ، فاذا فعلت الزوجة المحلوف عليه عامدة مختارة بأن ظهرت أمام الأزواج ، وقع الطلاق طلقة واحدة ، فله مراجعتها إذا لم يتقدم منه طلقتان . ولا يشمل الحلف الابنة الصغيرة ، لأن الحلف إنما هو على الأزواج الموجودين فى الحال . وظهورها أمام الأزواج متأزرة لا يعد ظهورا ، عملا بالعرف ، وأخذا من أسباب الحلف المذكورة فى السؤال ، فلا يقع الطلاق بذلك . والله الموفق والهادى الى الصواب ؟

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان

بكلية الشريعة الاسلامية

صلاة الجمعة فى العزب

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع ما ملخصه :

ثلاث عزب متجاورة يفصل بينها أرض زراعية ، وفى العزبة الوسطى منها مسجد ، وأقصى بعد بين العزبة الوسطى وغيرها من العزبتين الآخريين يبلغ نحوا من أربعين قصبة أى ١٤٠ مترا تقريبا ، فهل تجب صلاة الجمعة على أهل هذه العزب الثلاث ؟

ابراهيم احمد ابراهيم أبو المكارم
بالسكرى — رشيد

الجواب

١ — مذهب الشافعى رحمه الله :

(ا) إنه إذا كان فى القرية من أهلها المستوطنين بها أربعون مكلفا حرا ذكرا لزمتهم الجمعة ووجب عليهم إقامتها فى قريتهم ، سواء أصلوها فى مسجد أم فى غير مسجد ، لأن الأدلة على وجوب الجمعة عامة فى أهل القرى والأمصار .

(ب) وإذا لم يكن فى القرية أربعون موصوفون بالصفات السابقة ، فإن كان بجوارهم بلد تقام فيه الجمعة وكانوا بحيث يسمعون النداء من طرف بلد الجمعة الذى يليهم ، وجبت عليهم الجمعة أيضا ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود : « الجمعة على من سمع النداء »

(ج) وإذا لم يكن فى القرية هذا العدد وليس بجوارها بلد قريب تقام فيه الجمعة لم تجب عليهم الجمعة .

٢ — التطبيق :

بما أنه يتخلل هذه العزب الثلاث أرض زراعية فهى تعتبر قرى منفصلة .

فاذا كان فى إحدى هـذه العزب أربعـون موصوفون بالصفات السابقة لزمتهم الجمعة ووجب عليهم إقامتها فى عزبتهم ، سواء أكان بها مسجد أم لا ، ووجب على أهل العزبة الأخرى الذين لم يبلغوا الأربعين أن يسعوا لصلاة الجمعة فى هـذه العزبة التى أقيمت فيها الجمعة ، لأن البعد بينهما لا يحول دون سماع صوت المؤذن فى وقت هـدو الأصوات والرياح .

وإن لم يكن فى هذه العزب الثلاث عزبة اجتمع فيها أربعون موصوفون بالصفات السابقة ولم يسمعوا النداء من بلد آخر ، لم تجب الجمعة عليهم جميعا ، والله الموفق ؟

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان
بكلية الشريعة

مسجد القرية المنفصل

وورد من حضرة صاحب التوقيع ما ملخصه السؤال الآتى :

يوجد بقريتنا مسجد واقع فى أرض زراعية والبـلد مفصولة من جميع الجهات ، فهل تصح صلاة الجمعة فيه مع وجود مسجد آخر مستعمل بالبلد خلاف هذا المسجد ؟ نرجو فتوانا على مذهب الإمام الشافعى ، ونرفق مع هذا رسما (كروكيا) للمسجد المذكور .

سليمان البيومى
كفر طنبول القديم

الجواب

بعد الاطلاع على الرسم المرافق نجيب بأن هذا المسجد يعتبر من أبنية القرية وإن كان فى طرفها ، لأنه لا يفصله عن البلد شىء مما اعتبره الشافعية فاصلا كالسور والمزارع والترع والمصارف . فالمسجد والحالة هذه متصل بأبنية القرية ، وتصح إقامة الجمعة فيه ؟

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان
بكلية الشريعة

أصول علم الاجتماع

لقد أحدث الاسلام فى العالم انقلابا لم تشهده الإنسانية فى دور من أدوارها التاريخية وكان من آثاره تكوُّن أمم وتلاشى أمم ، وامتزاج شعوب بشعوب ، وفناء لغات فى لغات ، ونشوء نهضة عالمية عم نورها الناس جميعا إما مباشرة وإما بواسطة . وهذه الحركات تناولت القلوب والعقول والأخلاق ، والتقاليد وروابط الاجتماع ، والعلوم والفلسفات والفنون والسياسة ، فأحدثت فيها تطورات بعيدة المدى ، تألفت منها نفسية وعقلية ساميتان . فهذا الدين الذى مجاله كل هذه المجالات مجتمعة ، يظهر جلاله وجماله للعالمين بأصول الانقلابات البشرية ، والتطورات الأدبية والاجتماعية ، وطبائع النهضات العلمية ومناشئ الفواعل المدنية . وفى الكتاب الكريم آيات صريحة تدل على ما نقول ، كقوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقوله : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » وقوله : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . وقوله : « ولنبينه لقوم يعلمون » ولو أردنا أن نستقصى ما ورد بهذا المعنى فى القرآن الكريم لملأنا منها صحفا ، فلنكتف بما قدمنا ففيه دلالة على ما نقول .

لهذا كله لم نر بدا من التوسع فى هذه المعارف ، وأول ما نبدأ به علم الاجتماع البشرى ، مدخرين الكلام على بقية العلوم لفرصة أخرى ، إن شاء الله .

يقول علماء الاجتماع : إن الهيئة الاجتماعية كالجسم الحى تولد وتشب وتهرم ثم تموت .

قال الأستاذ (هربرت سبنسر) فى كتابه أصول علم الاجتماع :

« الهيئات الاجتماعية كالأجساد الحية ، تبدأ حياتها على صورة جراثيم ، فتولد صغيرة جدا إذا قورنت بما تنتهى حالتها اليه فى مستقبلها . فترى أنه قد نشأت المجتمعات الكبرى من عصابات صغيرة . هذا استنتاج لا يمكن الشك فيه . فإن فى المصنوعات التى يعثر عليها الإنسان تحت الأرض من صنائع الانسان الأقدم الذى كان عائشا قبل

التاريخ ، وهى أشياء أكثر غلظا من مصنوعات الإنسان المتوحش المعاصر لنا ، تدل على أن الصنائع التى لا يوجد بدونها مجتمع كبير ، لم تكن وجدت فى ذلك العهد . والاحتفالات الدينية التى شوهدت آثارها عند الأصول القديمة من النوع الإنسانى تذكرنا بالأزمان التى كان فيها أسلاف هذه الأقوام يصنعون المدى من حجر السلكس ، ويستطيعون إيجاد النار بحك الخشب بعضه ببعض ، وهى الأزمان التى كان فيها أولئك الناس عائشين على حالة جماعات صغيرة ، وهى كل ما كان يمكن حدوثه قبل نشوء فن الزراعة . وهذا يدل على أنه قد تكونت بعد ذلك جماعات أكبر بمليون مرة من الجماعات التى وجدت فى الأزمنة البعيدة جدا . وهذا نمو تدريجى يشبه فى سيره نمو الأجسام الحية » انتهى .

ليس هذا وحده كان المانع من تكون الجماعات الكبيرة ، ولكن كانت هناك أسباب قاهرة ، وصعوبات لا يمكن تذليلها تمنع من ذلك ، كعدم كفاية الأرض التى تقوم عليها الجماعة لتغذية أفراد كثيرين . مثال ذلك أنك تجد فى بلاد الفويجيين طوائف لا تستطيع أن تنمو ولا أن تؤلف قبيلة كبيرة ، لشح الأرض عليها . وكذلك الحال لدى قبائل الأندمانيين ، فإن وجودهم بين الجبال والغابات لا يسمح لهم بأن يؤلفوا شعبا كثير العدد ، أو قبيلة يصح أن تسمى قبيلة .

والذى يدفع الأفراد لتأليف جماعة هى الحاجات التى يشعرون باستحالة توفيتها إلا مجتمعين . فاذا اجتمعوا تألفت منهم روح عامة أحالتهم فى اجتماعهم الى ما يشبه الجسد الواحد ، فاندمج جميع الآحاد بعضهم فى بعض اندماجا تاما ، وتوزعت الوظائف الاجتماعية على هؤلاء الآحاد توزعا يؤدى اليه الشعور بالحياة المشتركة .

تقوم كل جماعة على هذه الحالة ، فينشأ منها الشعور نفسه الذى ينشأ عند الفرد حينما ينال قسطا من القوة الذاتية زيادة عما كان لديه منها من قبل . وهذا الشعور يولد عنده حاجات جديدة فيندفع لتحقيقها ، فيضطر أن ينسلك فى نظام يمكنه من نيل تلك

الحاجات على الوجه الذى ينبغى، فيعين له حكومة، ويهبها من تأييده بما يمكنها من قيادته على الأسلوب الكافل لنجاحه، ولا يضن أن تكون مع الحكومة هيئات أخرى تتفق وحاجاته المتنوعة.

إذا قام مجتمع على هـذا السمت ولم تصادفه عقبات خارجية عنه، كأنْ تغير عليه قبيلة فتفسد كيانه، أو يطغى على بيئته نهر فيذهب بثمراته المدخرة، ويهدم مساكنه القائمة، قلنا إذا قام مجتمع ولم تصادفه هـذه العقبات، نهض يتصيد النماء والتوسع من مظانهما، ببذل الوسع فى الأعمال المنتجة، وبالغارة على جيرانه، فيكون نجاحه فى بداية محاولاته سببا فى ازدياد نهمه بالتوسع، فلا يزال يعمل ويكدح، ويصول ويجول حتى يكبر بزيادة محصوله من العمل، وبما يدخله فى حوزته من الجماعات الضعيفة.

فإذا اتسع هذا المجتمع لقبول النمو المترادف فقد يقف فى الطريق، لا لأن للنماء الاجتماعى حدا لا تستطيع أن تجتازه الجماعات، ولكن لأن عوامل جديدة من عوامل الفساد تكون قد نشأت فى جثمانه، إما من نقص نظامه الذى قام عليه وأوصله الى هذه الدرجة المحدودة من الارتقاء، وإما من خصال جديدة يكون قد عُدى بها من احتكاكه بالجماعات المختلفة، وقصر فى تطهير نفسيته منها، فيمنى بالوقوف حيث هو، ثم يدركه الهرم ثم يموت كما تموت الأفراد، فينحل التئامه، وتلتحق آحاده بجماعات أخرى، وقد يحدث أن يترك وراءه شعبا صغيرا يتسمى باسمه ويقيم فى بيئته، ولكنه لا يكون على شىء من صفات أسلافه.

من أحسن الأمثلة على ما قدمناه الأمة الرومانية، فقد كانت فى مبدئها عصابة من المهاجرين، وألقت عصا التسيار فى المكان الذى فيه عاصمة إيطاليا اليوم، وكانت تحت قيادة أخوين: روموس وروملیوس، مات أحدهما وبقى الآخر، فأسس قرية صغيرة دعاها رومية سنة ٧٥٤ قبل الميلاد، وأخذ يغير على مجاوريه من السابانيين واللاتين والأتروسك حتى اندمجوا فى جثمان قومه، وخلفه غيره فجروا على سنته جيلا بعد جيل،

فلم تمض ثمانية قرون حتى كانت دولة رومية مالكة لجميع أوروبا وبعض الممالك الشرقية، ولم تبق دولة فى الأرض تنازعها السلطان، فكانت هذه الحالة داعية لهم الى إضاعة ما كانوا عليه من صفات البطولة والتضحية والاخشيشان، فانغمسوا فى اللهو واللعب والقصف، وأسرفوا فى شرب الخمر والفسوق، فاعتراهم الوقوف، ثم أعقبهم الضعف والفتور، فزالت مهابتهم التى كانت لهم فى قلوب الشعوب المقهورة، فأخذت تلقى نيرهم عن عواتقها الواحدة تلو الأخرى، وشرعت الجماعات الضاربة بقرب عاصمتهم فى الإغارة عليهم، ومازالت بهم حتى قوضوا دولتهم بعد أن مكثت ألف سنة، رغما عما كانوا يعتقدون من أنها الدولة الخالدة.

هذا مثل واحد من أمثال لا تحصى، كلها يدل على صدق ما قرره علم الاجتماع من أن الأمم كالأجسام الحية، تبدأ على صورة جرثومة، ثم تنمو حتى تشتد وتترعرع، ثم تشب فتبلغ أقصى ما قدر لها من قوة، ثم تقف حيث هى محافظة على ما حصلته من أسباب البقاء، ثم يعتريها الهرم فتشيخ وتتضعضع، ثم تنحل وتتلاشى فى أجساد أمم أخرى، أو يبقى مكانها أمة صغيرة تحمل اسمها وليس لها من صفاتها المميزة ومقوماتها شىء.

إذا تقرر هذا ساغ لنا أن نبدأ فى سرد العوامل الاجتماعية التى تعمل فى إيجاد جراثيم الأمم، وفى إنمائها وترقيتها حتى تقوى وتشتد، وفى إيصالها الى دور الشبيبة حيث تتوافر فيها جميع مميزاتها ومقوماتها، وفى وقفها عن النماء والترقى، وفى إبلاغها سن الهرم ودور الانحلال والتلاشى. وهذا الدرس مجال بعيد المدى لدراسة النواميس الاجتماعية التى ثبت أنها لا تتغير ولا تتحول، كما قال الله عنها: « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » فنقول:

عوامل الحوادث الاجتماعية:

كل حادث يحدث فى العالم سواء أكان أرضيا أم سماويا له عامل أو عوامل

تحدثه . وموضوعنا فى هذا البحث درس عوامل الحوادث الاجتماعية خاصة ، فلنبين هنا كيف تؤثر العوامل فى المواد الجامدة ، ثم نطبقها على أحوال الاجتماع فنقول :

كل حادث يطرأ على جسم غير حى ينتج من تفاعل القوى الذاتية لذلك الجسم ، والقوى التى تتسلط عليه من الخارج . فالقطعة من المعدن تحفظ شكلها الصلب ما دامت فى نجوة من التأثيرات الخارجية ، فاذا سلط عليها مقدار من الحرارة استحالت الى سائل بواسطة تفاعل يحدث بين قواها الذاتية والقوى الطارئة عليها .

وقد ضرب الأستاذ الاجتماعى (هربرت سبنسر) مثلا لهذا التفاعل فقال : إذا صببنا مركبة مشحونة أحجارا ، وأخرى مملوءة رملا ، وثالثة محملة كريات منتظمة ، رأينا الأكوام الحاصلة من هذا التفريغ تختلف تبعا لحالة هذه الأجسام المفرغة ، فترى الأحجار قد تراكمت وتراكبت على شكل سفح مجعد ، والرمل قد انهال على نفسه على صورة مخروط ذى سفح منتظم ، والكريات قد تبعثرت الى كل جهة ، وتفرقت شذر مذر متدحرجة هنا وهناك .

هذا التخالف بين هذه المواد ناتج من خواصها الذاتية من جهة ، ومن قوة جذب الأرض لها من جهة أخرى ، ومن قوة الاحتكاك بالحوائل من جهة ثالثة . وكل هذه المؤثرات قد أثرت على مجموع تلك المواد جملة ، وعلى كل فرد منها على حدة .

هذا التفاعل نفسه بين القوة الذاتية والقوى الخارجية ، يحدث إذا كان الاجتماع مركبا من أفراد أحياء مكونين لنوع من أنواع الحيوانات . فإن الحوادث التى تنتاب هذا النوع من زيادة أو نقص ، إقامة أو هجرة ، إبقاء على شكل المعيشة أو تغييرها ، تكون تابعة للتأثير المزدوج الواقع عليه من قواه الذاتية وعوامل الطبيعة المحيطة به من الخارج .

هـذه العوامل بنوعيها يمكن تقسيمها الى عوامل أخص منها لكل منها خصائص محدودة .

نكتفى اليوم بما قدمناه مدخرين الكلام عن هذه العوامل الى الأعداد المقبلة على التوالى .

محمد فريد وجدى

حالة الاولاد لدى المتوحشين والمتمدنين

إن حالة الأولاد لدى أكثر المتوحشين أحط من حالة الأولاد لدى الحيوانات العجم. فبينما نرى الأبوين من الحيوانات يعنيان بتربية صغارهما حتى تستطيع السعى فتتركها وشأنها، ومنها من تتحمل الأم وحدها هـذه التبعة، بينما نرى ذلك نجد الأبوين فى الجماعات المتوحشة لا يعطفان على أولادهما، فقد شوهد منهم من يئدون أبناءهم ويدفنونهم مع أمهم إذا ماتت، وشوهد منهم من يقتل أحد التوأمين ويستبقى الآخر، وبعضهم يقتلون كل ما يولد لهم إذا كان لديهم أبناء أخر.

ولا مناص لنا هنا من سرد بعض عادات المتوحشين فى هذا الصدد لتوفية المقام حقه، فنقول:

روى العـلامة (سبنسر) فى كتابه فى الاجتماع البشرى، أن الرحالة (انجاس) شاهد أن الأب الاسترالى إذا أعوزه الطعم لسنارته يقتل ابنه ويقتطع من لحمه قطعا ليصطاد بواسطتها سمكا يأكله.

وشوهد أن الفويجيين وإن كان عندهم مبدأ العطف على أولادهم فانهم يبيعونهم كالأرقاء.

وذكر الرحالة (فالكنو) أن قبائل البتاجون من أمريكا يعطون الاسبانيين أولادهم فى مقابل قليل من الخمر.

وروى الرحالة (سمبسون) أن قبائل (البيئيديس) تتنازل عن أولادها للتجار فى مقابل قطع صغيرة من الأقمشة.

ويؤثر عن قبائل (الينش) أن المرأة إذا أتت فى أول ولادتها بأنثى قتلوا الطفلة، ولا يزالون يقتلون كل طفلة تأتى بعدها حتى تلد ذكرا.

وفى جزائر فيجى حيث الغريزة الحربية على أشد حالاتها تجد حالة الأطفال مريعة جدا . وقد حسب الحاسبون عدد ضحاياهم الأطفال فبلغوا نحو ثلثى المواليد .

وروى عن هؤلاء القوم أنهم يقتلون أولادهم بدون أسباب صحيحة ، فقد يقتلونهم لهوا ولعبا ، أو لمنفعة وقتية ، أو لغضب أولغيره . وروى (أرسكين) الرحالة أن رجالا من قبائل فيجى أهدوا الى رئيس قوى فيهم أطفالا كثيرين لا بقصد أن يتخذهم أرقاء بل بقصد أن يأكلهم

ونقل عن قبائل (الشيشيميكاس) من مكسيكا أن الابن لو تجارى على الزواج دون استشارة أبيه قتله أبوه .

وقال الرحالة (كلا فيجيرو) : إن أهل مكسيكا الأقدمين كانوا يربون أولادهم على الطاعة العمياء لهم ، بحيث إن أحدهم مهما كان متقدما فى السن ما كان يستطيع أن يتكلم أمام أبيه .

وقد علل علماء الاجتماع هذه المجازر البشرية بحالة الفاقة التى فيها هؤلاء المتوحشون ، فإنهم لا يكادون يجدون ما يسدون به رمقهم ، فاذا رزقوا بأولاد عجزوا عن توفيتهم بحاجتهم ، فلا يرون فى نظرهم أسهل من التخلص منهم بالقتل .

ومما شوهد لدى المتوحشين أنهم يفضلون الذكور على الإناث ، والسبب فى ذلك الاستكثار من عدد المدافعين عن القبيلة ، وميل الآباء لوجود من يأخذ بثأرهم إذا تعدى أحد على حياتهم ، وحرصهم على من يؤدى لهم شعائر الجنازة عند موتهم ، ويقربون القرابين لآلهتهم فى سبيل أرواحهم . فإن ذهاب دم القتيل هدرا يعتبر من المحظورات الدينية ، وعدم تقديم القرابين فى سبيل روحه يعد من أكبر المصائب عندهم .

وهذا الأمر الأخير يظهر بأقوى مظاهره فى الصين ، فإنه لو مات الابن الوحيد لأحدهم ففقد بذلك من يهدى للآلهة الهدايا بعد موته ، عقدوا له المناحات وبكوا حاله بكاء مرا .

والمعروف عند المتوحشين أن البنات لا يصلحن لهذا الأمر ، لذلك لا يعبأون بهن ، ويعاملونهن على النحو الذى مر بك فى هذه المقالة .

ومما شوهد أن القبيلة متى أخذت فى الاشتغال ببعض الصنائع ، تحسنت حالة الأبناء فيها ، وكلما ازدادت حذقا فى صناعتها ازدادت فيها حالة الأولاد تحسنا . لذلك لا ترى أثرا لهذه الوحشيات لدى قبائل البودوس والدهيالس الصناعية . وقد روى عنهم أن لديهم حنواً وانعطافا على بناتهم ، حتى إنهم متى شرعوا فى زواجهن أخذوا آراءهن فى أزواجهن . ويرى الأبناء من العار أن يهملوا حقوق أبويهم فلا يدعونهم كغيرهم يقاسون آلام الفاقة والشيخوخة .

وقد نقل عن قبائل الدياكس الصناعية أن قتل الأولاد فيها نادر ، وأن الشاب منهم ينتخب امرأته ، والمرأة تنتخب زوجها بحرية .

ولا تصادف حادثة قتل للأبناء لدى قبائل الساموان الصناعية ، بل ترى للأولاد من الحرية ما يسمح للشاب منهم أن يتزوج بمن شاء ولو لم يرض أبوه بالمرأة التى يختارها .

وعند النيجريتوس الصناعيين الذين يسكنون جهات (تانا) لا تجد أثرا لقتل الأولاد ، بل هم يحبونهم ذكورا وإناثا على السواء .

وتجد للشبان والنساء لدى قبائل بويبلوس الصناعية حرية تامة لا توجد لدى غيرهم ، بل تجد عندهم للنساء امتيازات ليست للرجال .

ينتج من هذه المشاهدات كلها أن القبائل بمجرد ما تشتغل بالصنائع يحل فيها مبدأ الاعتراف بحقوق الأولاد وبمساواة الذكور بالإناث .

* * *

بقى علينا أن ندرس حالة الأولاد فى الأمم الكبيرة التى أخذت من المدنية بنصيب وافر ، فنبدأ بالصينيين فنقول :

إن قتل البنات كان أمرا شائعا لدى الصينيين ، وكان من حق الأب أن يبيع

بناته إذا شاء بلا حرج عليه . وقد بقيت هذه العادة الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، ثم صدرت أوامر مشددة من الحكومة بمنعها، وبمنع بيعهم أولادهم الذكور أيضا .

أما عند اليابانيين القدماء ، فقد كان بيع البنات جائزا ليكن خادمات أو مغنيات أوعاهرات . وقد بقيت فيهم هذه العادة الى القرن التاسع عشر، وشاهدها بنفسه الرحالة الانجليزى (متفورا) وكتب عنها بإفاضة .

أما عند الإسرائيليين ، فقد كان للدائن أن يستولى على أولاد المدين وفاء لدينه . ورد ذلك فى سفر الملوك من التوراة . وجاء فى التوراة أيضا ما يفيد إباحة بيع البنات ، وأمر صريح برجم الولد العاق .

أما عند الرومانيين ، فقد كان للأب حق قتل أولاده ، وحق إلقائهم فى الطريق ساعة ولادتهم ، ثم حرمت عليهم ديانتهم أن يلقوا أطفالهم فى الطريق إلا إذا كانوا مشوهى الخلقة ، أو كان المولود بنتا ، بشرط أن تكون أولى ماولد للرجل من الإناث .

* * *

وإذا انتقلنا من هذه الشعوب الى الأمم الأوروبية ، رأينا أنه فى عهد ملوك فرنسا من أسرة الميروفنجيين التى حكمت هذه المملكة الى سنة ٧٥٢ ، كان للأب وللأم الأرملة أن يبيعا أولادهما ، وبقيت هذه العادة جارية فى أوروبا الى ما بعد القرن التاسع .

وقد استمرت حالة الأولاد فى فرنسا بعيدة عن العطف الى عهد الثورة الكبرى سنة (١٧٨٩) . وقد صور الفيلسوف الفرنسى المشهور (شاتوبريان) حالة الأولاد فى عصره فقال : « كنت أنا وأمى وأختى ننقلب فى حضرة والدنا الى تماثيل لا تتحرك ، وما كنا نرجع الى حالتنا العادية إلا بعد أن يزايل الغرفة » .

وقال الأستاذ المؤرخ (تين) الفرنسى : « إن هذه العادة من السيطرة الأبوية كانت شائعة فى كل البيوت قبل الثورة الفرنسية ، ولكن بعد هذه الثورة تغيرت الأحوال ، وأخذ الأولاد يعرفون أن تلك الخشونة لا يصح أن يقابل بها الآدميون ، وليست هى إلا بقية من بقايا التوحش ، حتى قال عنهم (سيجور) : إن الولد الذى يبلغ

الثامنة عشرة من أهل هـذا الجيل يُرى أقل طاعة لرئيس أسرته مما كان عليه الرجل الذى بلغ الثلاثين أيام أسلافنا الصالحين » .

أما عند الانجليز فكان الأمر على هذا النحو ، فقد نقل المؤرخ الانجليزى (رايت) أن تربية البنات والأولاد فى القرن الخامس عشر فى بلاده كانت إرهاقا محضا حتى فى الأسر الكبيرة . فقد كانت سيطرة الآباء بالغة حد الإفراط .

أما فى القرن السابع عشر ، فقد كان من واجبات الأبناء لأبويهم أن يقفوا على أرجلهم ، أو يجثوا على ركبهم فى صمت مطلق ، ولا يجلسون حتى يؤمروا بالجلوس . وقد شوهد أن هذه العادة تلطفت على نسبة تقلص الحكم المطلق وانتشار الصنائع .

واليوم حيث بلغ الانجليز فى الصنائع والحكم الدستورى الى أرقى ما وصلت اليه ألمانيا وفرنسا ، تجد الأبناء فيها أكثر حرية منهم فيهما ، ففى ألمانيا ترى الشدة فى معاملة الأبناء مناسبة للشدة فى شكل الحكومة ، ومراقبة الأهل لأولادهم فيها شىء من الإفراط . فالطفل الألمانى إذا قيس بالطفل الانجليزى صح أن يقال عنه إنه أسير أبويه .

أما العرب ، فقد كان حظ الأولاد عندهم الى عهد مجىء الاسلام أوكس حظ ، فقد كانوا محرومين من الحقوق وموكولين الى إرادة الآباء إن شاءوا استبقوهم وإن شاءوا قتلوهم تخلصا من نفقاتهم فى حالة الفقر . وكان كثير من سادتهم وأهل الكبرياء منهم يقتلون بناتهم بدفنهم أحياء مخافة العار . فلما جاء الاسلام حرم ذلك كله أشد التحريم ، فقال الله فى الزجر عن قتل الأولاد : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خِطأً كبيرا » وقال تعالى فى تهجين عادتهم فى كراهة البنات ودفنهم إياهن أحياء : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء مايحكمون » .

ثم قرر الكتاب أن الأولاد زينة الحياة فقال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة

الدنيا » . وجعل الاسلام لهم حقا على الوالدين من التهذيب والتربية والتعليم . سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أبر ؟ قال : بر والديك . فقال الرجل : ليس لى والدان . فقال النبي : بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق » .

فهذا نص صريح على أن للولد حقا على أبويه ، والحق أمر واجب الأداء يسأل المقصر فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ، ويحسن اسمه »

وقد كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أولاده مثلا حسيا لقومه . روى الأقرع بن حابس أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال ابن حابس : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال له النبي : « إن من لايرحم لا يرحم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ريح الولد من ريح الجنة » .

وروى عبد الله بن شداد فقال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال النبي السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يارسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، فقال : إن ابنى قد ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » . فانظر الى هذا المثل الأعلى من العطف على الولد ، فلا جرم أن أصحابه الذين كانوا يقلدونه فى كل ما جل وقل أخذوا عنه هذا الأدب الأبوى ، فتغيرت حالة الأبناء ذكورا وإناثا من إهمال مطلق الى اعتداد لاحد له ، فأخذوا فى تعليمهم وتهذيبهم والعناية بصحتهم ، ولم يسمع بحدوث حادثة قتل لواحد من الأبناء ، أو وأد لواحدة من البنات فى الاسلام .

فتأمل فى هذا الانقلاب المحير للعقل الذى حدث فى القرن السابع للميلاد أيام كانت حالة الأولاد فى العالم كله على ما وصفت لك ، واستمرار هذه الحالة الى القرن التاسع عشر ، فمن أى مصدر استقى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الإصلاح الاجتماعى العالى غير الوحى الإلهى ؟

محمد فريد وجدى

هبة بنات القبائل والاخوات

وهبة الهرم

وجه الينا المسيو إيفون لينان هذا السؤال :

ورد فى التاسولى الجزء الثانى من كتاب «البهجة شرح التحفة» : من الهبات الباطلة هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن وهبة الهرم .

فهل صحيح حسب رأى المالكية أن الهبات المذكورة باطلة ، وهل رأى التاسولى هذا هو الرأى الراجح والمعمول به أم لا ؟

الجواب

ينقل بعض المالكية فى كتبهم أن هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن باطلة ، وهبة الشيخ الهرم والمرأة الهرمة كذلك باطلة ، ولكن ليس ذلك لنقص فى بنات القبائل والشيخ الهرم عن التصرف ، بل لعلل أخرى وسنذكرها :

أما بطلان هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن فللإكراه المعنوى وعقد المكره غير لازم ، وذلك لأن بنات القبائل قد شاع عدم ميراثهن ، ولو امتنعن من الهبات لأوجب ذلك استهانتهن وقطعهن والغضب عليهن وعدم تحملهن إذا غضبن من أزواجهن ، فاذا وهبن فى هذه الحالة كن مكرهات على الهبة . فمن النظر إليهن أن تبطل هبتهن ، لأنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس .

وأما بطلان هبة الشيخ الهرم والمرأة الهرمة ، فذلك إذا ادعى أنه وهب للنفقة عليه ، فهذه الهبة تكون باطلة ، لأنها تصير بيعا فى نظير النفقة عليه والنفقة عليه مجهولة لا يدرى كم يعيش ولا كم تبلغ نفقته ، فحصل جهل فى أحد العوضين ، فحصل البطلان لذلك . وعبارة المالكيين تفيد ما ذكرناه ، قال أبو عبد الله محمد التاودى فى شرحه على

المعاصم على أرجوزة ابن عاصم : من الهبة الباطلة هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن مع اشتهار عدم توريثهن، فلهن الرجوع فى حياتهن، ولورثتهن القيام من بعدهن ، لأنهن لو امتنعن من الهبات لأوجب ذلك استهانتهن وقطعهن والغضب عليهن وعدم الانتصار لهن إذا أصابهن شىء من أزواجهن . ولا فرق بين المتجالات ذوات الأولاد وغيرهن ، قاله الباجى وأبو الحسن ، صح من المعيار ومثله فى الدر النثير .

وقال التاسولى فى شرحه البهجة على التحفة :

من الهبة الباطلة أيضا هبات الهرم من الرجال والنساء ، كما فى العلمى وغيره ، والقول قولها أنهما وهبا ليقوم الموهوب له بنفقتهما ومؤنتهما ، فيكون من أفراد قول خليل : وكبيعه بالنفقة عليه حياته ، ومعلوم أن الإنسان مصدق فى الوجه الذى أخرج به ماله عن ملكه . ولم ينفرد التاسولى بالقول المتقدم فى بطلان هبة بنات القبائل، بل قاله الباجى وأبو الحسن ، ونقله وأقره التاودى ، وله وجه صحيح .

وأما بطلان هبة الهرم والهرمة فمبنى على أن هبة الثواب كالبيع يلزم فيها تعيين العوض وهو مرجوح ، والراجح أنه لا يلزم فيها تعيين العوض كنكاح التفويض ، وعلى ذلك لا تبطل بعدم التعيين ويرجع فيها الى ثواب المثل .

محمد عرفه
وكيل كلية الشريعة الاسلامية

الاعتذارات الموفقة

عتب المأمون على رجل من خاصته ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن قديم الحرمة ، وحديث التوبة ، يمحوان ما بينهما من الاساءة . فقال المأمون : صدقت . ورضى عنه .

واعتذر رجل الى المأمون من ذنب فقال : إن كانت زلتى قد أحاطت بحرمتى ، فان فضلك محيط بها ، وكرمك موف عليها .

الاسلام فى بلاد الغرب [1]

فذلكة تاريخية

الفتوحات الاسلامية على أيدى الأتراك العثمانيين

إن الأتراك العثمانيين هم إخوان العرب فى الدين ، فلقد اتبعوا تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم فى القرن الثامن من الميلاد ، وكانوا حينئذ بموطنهم الأصلى « طوران » ثم بدءوا هجرتهم غربا تحت قيادة زعيمهم سليمان الأول هربا من اضطهاد المغول ، فكانت هجرتهم سببا فى فتوحات عظيمة وانضمام مناطق واسعة فى الغرب الى حظيرة العالم الإسلامى .

تولى زعامة الأتراك بعد سليمان ابنه أرطغرل ، ودخل فى خدمة علاء الدين سلطان السلجوقيين فى « قونية » فأقطعه أرضا فى الشمال الغربى من « فريجيا » استعمرها الأتراك من بعده وطردوا منها الأهالى الوطنيين من الإغريق . وتولى من بعده الحكم ابنه عثمان الذى غامر فى حروب اتسع بها نطاق ملكه على أنقاض الدولة البيزنطية الآيلة الى السقوط ، وانتزع لقب السلطنة بعد وفاة علاء الدين فى عام ١٢٩٩ ، واليه ترجع تسمية الأتراك بالعثمانيين ، وفى عهده قويت شوكتهم ، وانتظمت شئونهم الداخلية ، وكثرت فتوحاتهم الى أن وقعت جزيرة « صاقص » فى حوزتهم عام ١٣٠٨ ، ومن ثم بدءوا إغاراتهم على سواحل أسيا الصغرى الغربية ، حتى تمكن أورخان بن عثمان من الاستيلاء على « بروسه » فى عام ١٣٢٦ وهى من أهم الحصون الآهلة بالسكان ، وهناك شيد له قصرا أطلق على مدخله « الباب العالى » ، وكانت هذه المدينة الى قبيل فتح القسطنطينية مقر حكم سلاطين آل عثمان ومثواهم

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « محمد والعالم الاسلامى » من تأليف المستشرق الالمانى الاستاذ « هرمان زيجفريد ريم » .

الأخير ، فبها مقابر الكثيرين من الوزراء والأعيان والشيوخ والعلماء والشعراء والأطباء والفنانين . وتمتاز مدينة « بروسة » بجمال ضواحيها ، وبمياه حماماتها الشافية ، وبمحصولاتها الزراعية والصناعية ، فكانت بهذه الميزات ولوجود مقابر العظماء بها فى نظر العثمانيين بمثابة البلد الوقور الذى يحق له إجلال خاص .

نظم أورخان دولته بمساعدة وزيره الأول علاء الدين على قواعد القرآن ونصوص الشريعة الإسلامية ، وقسم البلاد الى ثلاثة مراكز حربية ، وكان كل منها يسمى بالسنجق أى العلم ، وفى عهده تم تكوين فرقة الإنكشارية المكونة من المسيحيين الذين دخلوا فى الدين الاسلامى ، وكانت تبلى بلاء حسنا فى سبيل اتساع دولتهم ، كما عنى بتكوين فرقة من الفرسان كانت مثلا للنظام وحسن التدريب ، فكان للأتراك بذلك أول قوة حربية منظمة عرفتها أوروبا ، وكانت تتزايد عددا بالرغم من الحروب المستمرة ، وذلك بفضل دخول الناس فى دين الله أفواجا .

وكان أورخان من أعظم سلاطين آل عثمان ، بل من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ ، وقد دام حكمه خمسا وثلاثين سنة لم يشبها شائبة ، وكان محاربا شجاعا وحاكما عادلا ومشرعا بعيد النظر .

هكذا درجت الدولة العثمانية نحو التقدم حتى تولى أمرها مراد الأول (١٣٥٩ — ١٣٨٩ م) وكان قوى العزيمة متضلعا فى العلم والحكمة ، فبدأ فتوحات واسعة النطاق ، تغلغل الاسلام بواسطتها الى قلب أوروبا ، فوجد بها آذانا صاغية وقلوبا واعية ، فثبت بها قدمه حتى اليوم فى مناطق عديدة ، لم تتمكن الأجيال الطويلة والدول المختلفة من محو أثره .

فتح مراد الأول مدينة أدرنة وفيلبة ، كما وقع تحت سلطته كثير من المدن الصغيرة والحصون ، وعنى بتحسين أدرنة ، وكانت تمتاز بخيرات طبيعية وافرة ومحاصيل صناعية كثيرة ، فجعلها العاصمة الثانية للملكة ، وتمكن مراد من عقد اتفاق فى مصلحة الأتراك

مع أمبراطور الاغريق ، وخضعت له بلاد الصرب والبلغار وفرض عليهما الجزية ، كما دانت له أسيا الصغرى بأكملها .

وكما استفاد مراد من حروبه فى توسيع نطاق بلاده وإعلاء كلمتها ، لم يفته الانتفاع فى أوقات السلم من توحيد ممتلكاته والاهتمام بشئونها من جميع النواحى المادية والأدبية .

وأهم مواقعه الحربية كانت بينه وبين ملك الصرب الذى لما شعر بأغراض مراد تحالف مع ملوك البوسنة وألبانيا ، وقد أُخذ مراد فى هذه الموقعة على غرة من يد صربى طعنه طعنة نجلاء بغدر وخيانة ، ولكنه تمكن من البقاء فى ميدان القتال يصدر أوامره الى رجاله حتى تم له النصر بالرغم من وفرة عدد العدو ، وأُخذ ملك الصرب « لازار » أسيرا ، وهكذا تم له النصر وهو فى آخر رمق للحياة، وأصدر حكما بإعدام الملك الصربى الأسير ، وتوفى مراد الأول متأثرا بجراحه ، ودفن بمدينة « بروسة » .

تولى من بعده الحكم ابنه « بايزيد » وكان سياسيا بعيد النظر ، فعرف كيف يستفيد من فتوحات أبيه ، فتم له إخضاع الصرب نهائيا عام ١٣٩٠ ، ثم اتجه بنفوذه تجاه براطرة بيزنطة الضعفاء ، فظهرت سلطته فى توليتهم وخلعهم الى أن تمكن أن يعلى عليهم إرادته ، فكانوا يتبعون رغباته فى كل حركاتهم وسكناتهم ، كما تمكن من إخضاع بلغاريا ومقدونية وتساليا لنفوذه ، وفتح فتحا جديدا للإسلام لا يزال أثره حتى اليوم أمام ناظرنا ، ومن ثم اتجه بفتوحاته نحو بلاد الروم فبلاد المجر ، وتقابل مع ملك بوهيميا والمجر فى موقعة حاسمة انتهت بانتصار بايزيد انتصارا باهرا ، وكانت النتيجة أن دانت له بلاد البوسنة بأكملها ، فاتجهت مطامعه نحو القسطنطينية ، ولم يقف تيار فتوحاته فى بلاد الغرب إلا ظهور تيمور المغولى مصدر الرعب والخوف لشعوب كثيرة ، حيث هاجم الأتراك فى أسيا الصغرى ، فبادر اليه بايزيد ووقع فى أسره فى موقعة أنقرة عام ١٤٠٢ ، ومات وهو فى الأسر .

اختلف أولاده من بعده فى الحكم ، فكان ذلك مما جعل مصالح الدولة مهددة

بالخطر، الى أن استتب الأمر لأحدهم المدعو «محمد» فسار بالبلاد نحو التقدم والمدنية، وخلفه ابنه مراد الثانى الذى بدأ بحصار القسطنطينية، إلا أنه رجع عن تنفيذ مأربه بسبب الاضطرابات المتواصلة فى آسيا الصغرى، كما أن الحروب التى قامت فى عصره فى حوض نهر الدانوب ضد المجر والصرب وعلى رأسهم هنيادى، وتلك التى نشبت فى بلاد البانيا، ناهيك بالاضطرابات الداخلية، كانت قد شغلته طويلا ونهكت قواه ولم تمكنه من تحقيق حلم آل عثمان من تقويض الأمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) بالاستيلاء على القسطنطينية حاضرة ملكهم. فلما استتب للعثمانين الأمر فى ممالك نهر الدانوب وقهروا المسيحيين فى ورنه وكوسوفا وثبتت زعامتهم فى جميع أرجاء جنوب أوروبا الوسطى، تمكنوا أن يعاودوا الكرة ويتجهوا بجهودهم نحو القسطنطينية الى أن فازوا فى عصر محمد الثانى من الاستيلاء عليها فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣، وبذلك سقطت الأمبراطورية البيزنطية.

حسن الاعتذار

دخل أبو دلف على المأمون، وقد كان غضب عليه ثم أقاله (أى غفر له سقطته)، فقال له المأمون، وقد خلا مجلسه: قل أبا دلف وما عسيت أن تقول وقد رضى عنك أمير المؤمنين، وغفر لك ما فعلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسى ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة الى بها فى سالف الدهر تنظر

فقال المأمون: لك بها رجوعك الى مناصحتك، وإقبالك على طاعتك، ثم عاد الى ما كان عليه.

دحض مفتريات المستشرقين

فى سيرة أبى بكر الصديق

قرأنا بالعدد الخامس من مجلة دائرة المعارف الاسلامية التى تُترجم الى العربية سيرةً لأبى بكر رضى الله عنه كتبها واحد من مؤلفى تلك الدائرة المستشرقين غمز فيها عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فساءنا ذلك جدا كما ساء كل من اطلع على هذا العدد ، فرأينا أن نتعقبه هنا إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل :

قال كاتب ذلك الفصل : « وظل أبو بكر ثابت الايمان حتى فى الأحوال الكثيرة التى كان الناس فيها يشكون فى أقوال النبى كما فى حديثه عن الإسراء ، أو عند ما حار الناس فى تعليل مسلك النبى كما فى صلح الحديبية » .

وهذا القول يوهم أن أصحابه كانوا كثيرا ما يشكون فى أقواله صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر ، وهو كذب ومحض افتراء عليهم ، فإن إيمان أصحابه صلى الله عليه وسلم برسالته كان أرسخ من الجبال الراسيات ، وما كان يختلج بصدورهم أى شىء من الوهم أو الريب فى صدقه صلى الله عليه وسلم ، علما منهم بأنه ما كان ينطق عن الهوى وإنما هو الوحى يوحى اليه من عند الله . وآية ذلك أنهم كانوا يضعون أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يملكون من قوة فداء له صلى الله عليه وسلم وتأييدا لدينه .

ونظرة بسيطة فيما قام به الصحابة من غزوات معه صلى الله عليه وسلم تبين ذلك أجلى بيان ، فلو كانت الصحابة تنطوى قلوبهم على شك أو ريب فى رسالته لما استماتوا فى نصرته ، ولأعقب ذلك حتما تفككهم وانفصام عرى اجتماعهم ، مع أن الذى ثبت وأوجب لهم خلافة الله فى الأرض أنهم كانوا من الترابط والتماسك بحيث لا تفصم وحدتهم أشد الخطوب تأثيرا فى النفوس .

وقد مروا سنين على ضروب من المحن كان يكفى بعضها لحل أية جماعة تتعرض

لها ، حتى مدح الله إخلاصهم هذا فقال : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ثم عاد فمدحهم إذ لم يهنوا ولم يضعفوا يوم ابتلاهم الله بتألب الأحزاب عليهم فقال تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

فلو كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كانوا يشكون فى أقواله لما صدرت منهم هذه العزمات التى دكت الجبال الشم ، وغيروا بها خريطة العالم فى سنوات معدودة .

وأما صلح الحديبية الذى ضربه كاتب ذلك الفصل مثلا فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا فى ألف من أصحابه حتى شارف مكة ، فمنعه المشركون من دخولها ، فعز ذلك على أصحابه وأجمعوا أن يدخلوها عنوة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم استقدم سفيرا من أهل مكة واتفق معه على أن ينصرفوا هذا العام ويأتوا فى الذى يليه ، فكلمه أصحابه فى أن هذا الصلح يعتبره المشركون انتصارا لهم ، فقال لهم : إنى أمضيته بوحى من الله . فرجعوا مع رسول الله الى المدينة ، وما كادوا يلبثون فيها إلا قليلا حتى أراهم الله رأى العين أن هذا التسامح كان فاتحة خير كبير على الاسلام والمسلمين ، إذ أسلم فى مدته عدد جم من كبار القرشيين ، كان لهم قدم صدق فى نصرة الدين وإعلاء كلمته فى الخافقين .

وقد قال ذلك المستشرق : إن أبا بكر « استطاع فى كثير من الأوقات بفضل سداد رأيه أن يحول بين النبي وبين الاندفاع فى الأمور » .

وهذا إفك مبين . والحادثة المتقدمة تنفى ما يقوله من أن أبا بكر كان يحول بين النبي وبين الاندفاع فى الأمور ، إذ لو كان كما يصفه لاندفع باندفاع أصحابه الى دخول مكة عنوة .

على أن المجمع عليه من صفاته صلى الله عليه وسلم أنه كان حكيما فى جميع تصرفاته ، ما خير بين أمرين قط إلا اختار أرفقهما ، وكان قبل أن يبت فى أمر استشار فيه أصحابه ،

فلم يعهد عليه طوال مقامه فيهم أنه دفع بهم الى مغامرة ولا مرة واحدة ، فأى فائدة يجنيها الناس من قلب حقائق التاريخ الى هـذا الحد ؟ وقد وصفه الله فى رحمته بقومه بما لم يصف به أحدا من خلقه فقال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

أما تنويهه بمسألة الإفك وتسميتها بالفضيحة وأن التى أثارتها امرأة صغيرة طائشة فهذا منتهى التوقح ، ومن أشد ما رأينا خروجا على آداب التاريخ المقررة. وهو ما وصف هذه الفرية بأنها فضيحة إلا ليستدرج القارئ حتى يخيل اليه صحة ما لغط المنافقون به فى حق أم المؤمنين ، وما وصفها بالطيش إلا ليؤيد مزاعمهم التى اختلقوها من عند أنفسهم . وقد ضرب صفحا عن أن هـذه المسألة قد محصت وقت حدوثها أكمل تمحيص ، فقد بنيت أولا على ظن سيء بسيدة من أكمل سيدات البيت النبوى دينا ، وبصحابى جليل عرف الناس كلهم دينه وتقواه وحسن بلائه . ومن آداب التاريخ أن التهم التى لا يثبت وقوعها لا تسمى بالفضائح ، فما ظنك بالتى ثبت بطلانها بكل دليل ؟ ومنها أن لا توصم شخصية بارزة من شخصيات أى مجتمع كان بالطيش لمجرد وقوع أعدائها فيها ، وإلا لما نجا نبى مرسل ولا مصلح كبير من مثل هذه الصفات الذميمة ، فقد اتهموا جميعا بالكذب والتدليس وسوء النية .

فكان من أول واجبات كاتب هذه المقالة أن يقدر موقف النبى صلى الله عليه وسلم من أمة كان أكثر آحادها مشركين أو منافقين يترقبون به دائرة السوء ، ويسارعون الى كل خيال من نقيصة ليذيعوها ويشهروا بها ليفسدوا عليه أمره .

وكان فى المدينة قوم أظهروا الإسلام واستبطنوا الكفر لا هم لهم إلا تصيد الشبهات والإرجاف بها فى مجالسهم ، وقد وصفهم الله تعالى بقوله : «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » وقوله تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » وقوله : « إن تصبكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » وقوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين

فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » .

كان يجب على كاتب ذلك الفصل وهو بصدد الكلام عن شخصية بارزة يحاسب على الكلام عنها حسابا عسيرا أن يقدر هذه الظروف كلها ويدرك بذكائه إن كان له من الذكاء نصيب أن مثل هذه البيئة تعتمد على الإفك والبهتان لإبطال أمر خصومها بعد أن عجزت عن إبطاله بالسيف والسنان ، فكل ما قالوه يجب أن يوضع فى ميزان النقد ، وأن يحلل الى أدق عناصره حتى ولو لم يثبت خلاف ماقالوه ، تمحيصا لوقائع التاريخ ، وإنصافا لشخصياته البارزة ، وإلا لو كنا آخذين بأقوال خصوم هذه الشخصيات لكنا خائضين من آثار الأحقاد عليهم فى حمأة يكون مكاننا منها أدنى من مكان أولئك الخصوم درجات كثيرة ، فأولئك دفعهم التناظر على اختلاق ما اختلقوا ، ولكن الآخذين بأقوالهم لا عذر لهم فى تتبع خطواتهم إلا أن يكون لهم غرض فى تصيد مثل هذه الأباطيل وترويجها بين الناس من جديد .

أما مسألة الإفك فهى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا عزم على الخروج الى غزوة أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها ، فلما أراد غزو بنى المصطلق ، خرج اسم عائشة رضى الله عنها فأخذها معه ، فلما تمت الغزوة أمر جيشه بالانصراف الى المدينة ، فلما قرب منها نزل منزلا ، ثم أذن بالرحيل ، فقامت عائشة حتى جاوزت الجيش لقضاء حاجة ، فلما عادت الى رحلها افتقدت عقداً لها كان على صدرها فوجدته قد انفرط فرجعت أدراجها لتلتمسه ، وفى أثناء بحثها عنه أقبل الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فظنوها فيه لخفتها لأنها كانت حديثة السن ، وذهبوا بالبعير ، فلما عادت عائشة الى مكانها لم تجد به أحدا ، فجلست موقنة بأنهم سيعودون فى طلبها .

وكان صفوان بن المعطل من أجلاء الصحابة معيّنا ليتعقب الجنود فيلتقط ما عسى أن يكونوا قد نسوه من أمتعتهم وسلاحهم ، فعثر بأم المؤمنين ، فسألها عما خلّفها فقصت عليه أمرها ، فنزل وتنحى عن بعيره حتى ركبت ، وأمسك هو بخطام البعير

حتى أوصلها الى بيتها . فلما سمع المنافقون بما حدث أرجفوا به ، وغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولبثت عائشة فى بيت أبيها شهرا تبكى ليلا ونهارا ، حتى نزل قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

وكان من الذين خاضوا فى هذا الحديث مسطح بن أثاثة وهو رجل معوز كان أبو بكر والد عائشة ينفق عليه ، فلما حدث منه ما حدث أقسم لا ينفق عليه شيئا ولا ينفعه بنفع أبدا ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى: «ولا يأتل (أى ولا يحلف) أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» فقال أبو بكر: إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح نفقته التى ينفقها عليه قائلا : والله لا أنزعها منه أبدا .

هذا حديث الإفك ، فهل يثير فى بساطته التى تراه عليها شبهة فى نفس المؤرخ ، فينضم الى المنافقين المرجفين فى تصديق ما تقوّلوه ، متناسيا آداب التاريخ ، متعديا على أساليبه من التمحيص ، لا لشىء غير حك حزازة فى صدره ضد الاسلام والمسلمين ؟

بقيت لنا كلمة نوجهها لحضرات الفضلاء الذين يترجمون هذه الدائرة ، هى أن هذه الدائرة تشتمل على الشىء الكثير من أمثال التهم الباطلة على الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ورجالاته الصالحين ، وهم يعلمون أنه لا يدفع ببعض هؤلاء المستشرقين على التورط فى هذه الخطة المريبة إلا ما يحملونه فى صدورهم من البغضاء لهذا الدين ، فلا يصح والحالة هذه أن يحملوا أنفسهم إثم نقل هذه السفاسف الى لغتهم وبأقلامهم ليقرأها الناس فى جميع بلاد المسلمين . هذا ما لا يتصور أن تفعله شبيبة أمة فى العالم ، ونحن أولى بهذا الأدب الكريم .

فالذى أراه أن يمتنعوا عن ترجمة ما يصادفونه من هذه الأباطيل ، وأن يكتفوا بالإشارة اليها مشفوعة بما يدحضها ، ويبين وجوه فسادها بكل دليل . أليس من البلاء العظيم أن

يضطر أحدنا أن يصف أطهر نساء العالم وهى فى الوقت نفسه أمه فى الدين ، بالطيش والفجور ؟ أى فائدة أدبية ترجى من إذاعة هذه الفرية بين المسلمين فى عبارات وقحة يسمح بها لنفسه رجل أجنبي عن الدين ؟

لا يعترض أحد علينا بأن الامتناع عن ترجمة المفتريات يعتبر من الخيانة فى الترجمة ، فإننا نشير بالامتناع عن ترجمتها والإشارة اليها ، لا بترجمتها على غير وجهها وتلطيفها بما يخرجها عن صبغتها التى أرادها لها كاتبها ، فالفرق بين الأمرين كبير .

ولا يقولن قائل بأن المترجمين للدائرة قد عقبوا على حديث الإفك بقولهم : « هذه هى ألفاظ المستشرق بالنص ونحن لا نقره عليها بحال من الأحوال ، أما حديث الإفك فمعروف وقد نزل فيه قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك . الآية » .

فنقول: نعم إنهم عقبوا عليه هذا التعقيب ، ولـكنهم سخروا لنقله فى صلب كتابهم ، وما عقبوا به لا يكفى فى دحض تلك المفتريات ، فإن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا يعبأون بما نزل فيه من الآيات ، فتبقى تلك التهم لاصقة بأم المؤمنين ، وهذا إثم كبير .

ثم إنهم عقبوا على هذا الحديث ولم يعقبوا على التهم التى وجهها كاتب ذلك الفصل الى خاتم النبيين من كثرة الاندفاع مما كان يتداركه أبو بكر ، ومن الإكثار من غير المعقول مما كان يصدقه أبو بكر ، وخطر هذه الدسائس على عقول الناشئة لا يقف عند حد ، فانها تتلقح بها ويصبح القول بها من دلائل الألمعية ، فهل نأخذ على عهدتنا أن نحدث مثل هذا الحدث فى الاسلام بترويج أراجيف ساقطة كتبها قوم ليشفوا بها داء فى صدورهم ، أو تأدوا اليها ضلالا فى بحوثهم ؟!

المخرج من هذا المأزق أن يمتنع حضرات مترجمى تلك الدائرة كما قلنا عن ترجمة تلك المفتريات ، والاكتفاء بالإشارة اليها ، مع بيان وجوه الضلال فيها . أما نقلها ثم الإشارة اليها فى الهامش بأربعة أسطر ، فهى مقاومة سلبية لا يرضى بها إلا من عجز عن نقضها ، وهذا مالا يرضاه مسلم ، بل ولا يرضاه إنسان يتحرى أن يصل الى إدراك الحق له أو عليه ؟

محمد فريد وجدى

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

ستعقد جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة يومى السبت والأحد ٤ و ٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ الساعة ٨ صباحا امتحانا فى القرآن الكريم حفظا وتجويدا للذين لا تزيد سنهم عن ١٤ سنة لمن يقدم طلبا بذلك الى ٢١ يوليه ، ويرفق بشهادة الميلاد أو صورتها الرسمية . وسيعطى للفائزين جوائز أعلاها ستة جنيهات وأدناها جنيه واحد .

(مكان الامتحان مسجد السلطان أبى العلا بشارع فؤاد الأول) .

سهام الدين المارقه فى صدور الزنادقه

سلسلة محاضرات لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود حسن ربيع من علماء الأزهر تقع فى جزءين صغيرين . وهى محاضرات نفيسة ممتعة الغرض منها تقويم العقلية الراهنة فيما تشط فيه عن الدين وتشذ عن الحكمة ، وقد اختتمها بحقيقة النبوة وحقيقة الوحى ، فجاء عملا موفقا تمس الحاجة اليه . فجزاه الله خير ما يجزى به أولياءه .

بلوغ السول فى مدخل علم الاصول

كتاب يشتمل على مقدمة فى علم الأصول يتخللها أبحاث هامة فى أحكام الاجتهاد والتقليد لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى من هيئة كبار العلماء . والأستاذ ليس فى حاجة الى التقريظ ، فنرجو الله أن يمد فى عمره ، وأن يبارك فى عمله ، وأن يجزيه جزاء العاملين .

They prided themselves later that they have produced more poets than all other nations put together. In science, their superiority was due to the research system which they have borrowed from the Greeks of Alexandria and not from the Greeks of Europe. They concluded that speculation could not lead to progress and that all hope must necessarily rest in the practical observation of events. Their attachment to experimental systems was a characteristic of theirs. In their works on mechanics, hydrostatics and optics, it may noticed that they have reached the solution of their problems by way of direct experience or odservation by means of instruments. It was this that rendered the Arabs the creators of chemistry and have led them to the invention of several apparatus for distillation, sublimation, fusion, filteration etc. It was this also that made the Arabs employ, in their astronomic works, the graduated instruments, the cadrans and astrolabes. It was this that made them employ the balance in chemistry whose theory they were perfectly familiar, It was this that led them to compile the tables of specific weights and astronomic tables (almanacs) as those of Baghdad, Cordova and Samarcand. It was also this that made them attain such great progress in geometry and trigonometry; and lastly it was this that made them the inventors of Algebra and led them to adapt the Indian numeration system"

In the course of his comments on their libraries, Professor Draper remaked:

" The library of the Caliphs of Spain contained six hundred thousand volumes and the catalogue alone made forty four volumes. Apart from this, there were seventy public libraries and many private ones in Andalusia. "

" As to original works, it was the custom of university professors to prepare treatises on the subjects given. Every Caliph had his own historiographer. "

" Reference books on geography, statistics, medecine, history as well as dictionaires were abundant. There was also a scientific encyclopeadia by Mohammed Abu Abdallah."

" The Arab Empire abounded in schools and colleges. There were many of them in Mongolia, Tartary, Morocco and Spain. In one end of this vast empire which surpassed by far the Roman Empire, there rose the observatory of Samarcand while on the other was that of Giralda in Spain.

" We will exceed the limits of this book should we wish to give here all the effects of this great scientific movement. The old sciences have been greatly developped and new sciences were created."

sought knowledge in every field and have evinced genuine keenness on it, a keenness unprecedented in the history of any other nation. Have you read in the annals of history of a victorions nation who exacts from the vanquished people among other exactions the cession of a scientific library ? This was what the Moslems have done in the time of Al-Mamoun son of Haroun Al-Rachied. In their peace treaty with the Romans they stipulated the cession of a certain library of the Roman Empire which the Emperor yielded to them. They translated the contents of that library and a new wealth was thereby added to the great accumulated treasures of Moslem learning and culture. Little wonder therefore that the Moslems have worthily won the scientific leadership of the world. Their schools and universities became the seats of higher culture and were rendered the scientific Caaba of men from all corners of the globe.

Perhaps the testimony of a foreign historian will throw further light on the subject. In his book " The Conflict between Science and Religion ", Professor John W. Draper of New York Uuiversity has given the following " :

The Moslem interest goes back to the time of their conquest of Alexandria in 638 A. D. that is six years after the death of Mohammed. Within less than a century, they were familiar with all scientific Greek works. "

" When Abu Jaafar Al-Mansour became Caliph (753 — 775 A. D.), he transferred his capital to Baghdad which he made a magnificent metropolis. He gave much of his time to encourge the study of astronomy, and founded schools of medicine and law.

His grand child Haroun Al-Rachied (786 A. D.) followed his example and ordered schools to be annexed to every mosque throughout his domains. But the golden age of science in Asia did not appear until the Caliphate of Al-Mamoun (813 — 832 A. D.). He made Baghdad the scientific capital, amassed great collections of books and showered favours on the learned people.

This position and this cultivated taste acquired by the Arabs continued until the division of their empire into three parts. The Abassides in Asia, the Fatimites in Egypt and the Ommiades in Spain were not only three rival dynasties in government, but they were also rivals in quest of literature and science.

In literature, the Arabs have embibed of all that sharpens the spirit.

---

(1) Owing to the lack of an English edition of this book, the writer's views are here translated from a French edition published by M. Em. Alglave in 1900.

sciences including the proper reading of the Koran, interpretation of its meanings and methods of deduction of principles therefrom etc. etc. Others devoted themselves to the study of the traditions of the Prophet, recording it and distinguishing the authentic from the unauthentic.

Yet others have made the language their subject of study. They compiled its vocabulary, studied its dialects and edited its lexicons.

Yet other parties made physical sciences their objective including astronomy, mathematics, medicine, pharmacology, chemistry and physics etc. They studied all books dealirg with these subjects that were available at the time. But having not been satisfied with the books at their disposal, they began to translate all the treasures of the Greeks, Romans and Persians and they unearthed many a great book that was lost to the world. By those combined efforts in all spheres of learning, they succeeded to produce a wonderful collection of sciences which have never fallen to the lot of any nation prior to them.

In their gigantic efforts, to produce all useful knowledge, they were totally unaffected by tribal partisanship or racial prejudices. They remained true to their Prophet's saying (on whom be peace) " Imbue wisdom from whatever source it may come from."

They cared not what sonrce knowledge was coming from so long long as they can benefit therefrom. They never disdained to benefit of learned people and scholars even though they were of a different faith.

The rectorship of many a Moslem University was given to men professing different faiths when at one time no Moslem could have filled their place.

It has been established that our forefathers were not led astray by the knowledge they obtained from the works translated by them. They treated many and diversified subjects and carried research work to its furthest ends. As true critics, they rejected the wrong ideas and retained and commented on those that were right augmenting thereby its data and even discovering new subjects which were unknown before the advent of Islam such as chemistry and Algebra. They did not abstain from research work in any scientific doctrine on the grounds of its being inimicial to the interests of religion, or that it is forbidden by religion They inquired even into magic, charms and talismans astrology etc. etc. in pursuance of the high motto " Learn magic but practise it not"

In short the Moslems have, through the urge of their religion,

وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Dost thou not see that Allah sendeth down water from heaven and that We produce thereby fruits of varied hues; and that in the mountains there are white and red tracks of different intensity and others of a raven black colour; and of men, beasts and cattle there are likewise different hues? Verily of all the servants of Allah, those who are endued with knowledge fear Him the most: Allah is mighty, Gracious"

(Baidawy's Commentary).

It is evident from the last part of the preceeding verse that by the learned people are meant those who are acquainted with the secrets of these natural phenomena over and above their knowledge of divine matters.

The Lord also saith:

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And of His signs are the creation of heavens and earth and the variety of your languages and colours: verily herein are signs to those who have knowledge"

(Baidawy's Commentary).

By " those who have knowledge" is meant those who are acquainted with the natural and human sciences.

The knowledge to which the Koran calls and to which tradition urges is that which counteracts and banishes ignorance, be it connected with religious beliefs or material phenomena. The Lord be praised was cognisant of humanity's need of true knowledge as regards both its material and social life. Our forefathers have appreciated this in the same way as we do now and they have therefore striven after the death of the Prophet (on whom be peace) to seek knowledge in the widest sense of the word. There were some of them who specialised in religious

ficial effects on society could nowhere be found.

The Lord be praised has forcibly urged to knowledge so much so that He made perfect righteousness dependant on it for thus saith the Lord:

« إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Verily of all the servants of Allah, those who are endued with knowledge, fear Him the most"

(*Baidawy's Commentary*).

The understanding of the similitudes set by the Lord to guide men unto salvation or urge them to righteousness was made closely connected with knowledge; and in this connection the Lord saith:

« وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" These similitudes We set forth unto men: but none appreciate their usefulness excpt those who know"

(*Baidawy's Commentary*).

What more could a religion do to establish its people on learning than to make it an incumbent duty on them ? Did not the Prophet (on whom be peace) say " The seeking of knowledge is an incumbent duty on every Moslem" and did he not say. "Seek knowledge even unto china" ?

What knowledge does Islam mean by all these injunctions ?

Doubtless it means all branches of learning conveyed by the word which the human mind could so far conceive.

The Lord's saying bears this out:

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، »

وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ ٱلنَّاسِ

In his commentary on this verse, Abu Abbas says: Learned people have seven hundred grades over the believers.

In the description of the Koran, the Lord says:

» وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ «

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And We have brought unto the unbelievers a Book, we explained the meaning thereof with knowledge "

(*Baidawy's Commentary*).

Knowledge was made here the peculiar characteristic of the divine utterings.

In another verse the Lord says of the Koran :

» بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ «

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" But the Koran is clear signs conserved in the hearts of those who are given knowledge"

(*Baidawy's Commentary*).

There could be no higher honour given to knowledge than the foregoing.

The traditions of the Prophet (on whom be peace) dealing with learning are innumerable. In one of those traditions, the Prophet (on whom be peace) is recorded to have said " All that is in Heavens and earth crave forgiveness for the learned man."

Commenting on this, Al-Ghazali says that there could be no higher rank than that of him for whom the angels of heavens and earth crave forgiveness.

Another tradition of the Prophet (on whom be peace) is : "Verily the death of a whole tribe is a lesser misfortune than the death of a learned man"

Greater appreciation of the true value of knowledge and its bene-

« شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُو ٱلْعِلْمِ قَائِمًا بِٱلْقِسْطِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Allah hath witnessed, establishing the truth, that there is no God but He; and the angels and those endued with knowledge have borne witness thereto"

(Baidawy's Commentary).

In the preceeding verse, the Lord be praised has highly esteemed the testimony of the learned people in this great matter and has thereby set learning on the highest possible pinnacle.

Another of the Lord's saying in this connection:

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Say, shall they who have knowledge and they who have it not be held equal ?

(Baidawy's Commentary).

A great honour indeed is ascribed to learning as the Lord has distinguished the learned people from all others for being the torch bearers of divine light and His agents to banish ignorance from the minds of mankind.

Yet another saying of the Lord :

« يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah will raise those of you who believe to great honour, and those of you who are given knowledge to even higher grades of honour"

(Baidawy's Commentary).

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD (1)

VI.

CALL TO LEARNING

In the preceeding chapters, we have discussed the lofty principles on which Islam was established and which caused it to wield absolute influence over the minds and souls of men and make of its followers a nation well-worthy of the leadership of the world.

In this chapter, we wish to show that Islam has not omitted to imbue its people with a strong spirit which urges them to advancement and development and preserves them from the inaction and immobility that assail nations ultimately resulting in their total extinction.

This spirit is the spirit of learning in its fullest sense, a spirit which is capable of adjusting itself to the social and intellectual exigencies of the time and of answering to the needs of a nation which was destined to take a leading position in the commonwealth of the world.

Indeed, no religion or social system could claim to have set such a value on knowledge or to have urged to it so vehemently as Islam has done. In this connection, the Lord's saying is significant:

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in " Nour-El-Islam " Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ١٠ —

دعوته لتطهير القلوب

الانسان عقل وقلب ، وهما وإن كانا مظهرين لروحه المدبرة ، فإنهما لاختلاف اختصاصيهما فى حياته الأدبية قد يعتبران مستقلين : لكل منهما مقومات خاصة ، وسلطان خاص . فمقومات العقل العلوم ، ومهمته النظر والتمحيص لإدراك الواقع ؛ ومقومات القلب الشعور الفياض ، والعواطف الكريمة ، ومهمته تجلية الجمال فى كل شىء ، وإقامة الكمال كغاية قصوى للحياة . والانسان بين هذين المظهرين الروحيين يطلب اليه أن يقوم على حال تمكنه من الاستفادة منهما ، وتجنبه التدافع بينهما ، ليصل الى أرقى ما أعدله من منازل الكرامة ، ومكانات الرفعة ، وليعيش عيشة الحاصلين على السعادتين معا .

وقد شوهد من استقراء أحوال المجتمعات المختلفة فى خلال العصور أن الأمم لا تقوم على جادة الحياة الصحيحة إلا إذا تعادل فيها هذان المظهران الروحيان ، فإن طغى أحدهما على الآخر اضطربت أحوالها على نسبة ذلك الطغيان ، وتعرضت للمثلات الإلهية ، فإما اجتاحتها أمة مناظرة لها ، أو هلكت مكانها تحت كلاكل الاضطرابات الداخلية .

هنا قد يتساءل متسائل فيقول : إذا تغذى العقل بلباب العلوم فأصبح قويم النظر فى الأمور ، مدركا للواقع على ما هو عليه ، ألا يكفى ذلك فى إقامته على

صراط الحق المستقيم ، ويكون من لوازم ذلك كل ما نسبتموه الى القلب من الشعور وكمال العاطفة ، وإدراك الجمال ، وتطلب الكمال المنشود ؟

نقول : لا ، وهذه بعينها شبهة الذين وقفوا التربية على العقل وحده ، من أصحاب المذهب الحديث فى التعليم ، فقصروا التدريس على العلوم وما اليها ، وأهملوا تربية القلب جانبا ، فكان أثر ذلك أن بطل التعادل بين العقل والقلب ، فإن كان شىء يبطل هذا المذهب فهو ما نشاهده من حال الجيل الذى نُشئ هذه التنشئة ، إذ قل اعتداده بالآداب النفسية ، بل منهم من اتخذ الإباحة البهيمية مذهبا له ، وأخذ يدعو اليها فى عبارات تحتمل وجهين ، وهى بجملتها وتفصيلها ترمى الى إحلال الملاذ البدنية المكانة العليا من النفوس ؛ فكل ما يصدر من ثمرات العقول اليوم ، ويباع من مطبوعاته الملايين لا يرمى إلا الى تقديس الأهواء النفسية ، والجرى وراء الميول البدنية ، حتى أصبح الناس لا يتنفسون إلا هواءً مشحونا بالملهيات ، والمثيرات للشهوات ؛ وترى فى الأمم المتمدنة التى أهملت تربية القلب الشاهدَ العدل على ما قلنا ، فهى اليوم ترزح تحت كلاكل الإباحة التى ضربت بجرانها فيهم على عظم ما يبذلونه من الجهود الجبارة فى تربية العقول . ولسنا نرى دليلا أقوى وأوضح من هذا الدليل المحسوس على أن سلطان العقل وحده لا يكفى فى تقويم الشخصية الانسانية ، وأن لا محيد لها عن سلطان القلب لإبلاغ هذه الشخصية الى كمالها المنشود .

فالاسلام الذى أنزل رحمة للعالمين ، قد عنى بتربية القلب عنايته بتربية العقل ، فكما منح العقل سلطانه فى التمييز بين الحق والباطل ، أعطى القلب سلطانه ليقود الانسان الى العواطف النبيلة ، ويفتح له كوة الى عالم الروح ، كى يستمد من نفحاتها ما يقوى به على الدواعى البدنية الثائرة عليه .

قال الله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ولم يقل : لمن كان له عقل ، إيذانا بسلطان القلب فى الردع وعدم كفاية العقل وحده فى ذلك ، فقد يعقل الانسان

ما تجره عليه المنكرات فلا يقوى وحده على الإقلاع عنها إلا إذا أيده قلب، ولولا ذلك ما وجدت على سطح الأرض من يجرى وراء منكر قط، فإن أقل الناس يدرك سوء المنقلب مما يجترحه من السيئات، ولكنه لحرمانه من عزيمة القلب لا يصادف وازعا يزعه عن الغى، فيتمادى فيه.

وقد نبه الله الى أن القلوب بالأمراض المعنوية تضعف عن أداء مهمتها الكريمة من حياة الانسان، فقال تعالى: « فى قلوبهم مرض» علّل بذلك عدم قبولهم للحق، وإلا فلو كانت صحيحة ما منعهم عن قبوله شيء، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم من حديث بقوله: « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب ».

وقد زاد الله فى التنويه بسلطان القلب فقال تعالى: « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فصغر عاهات الجوارح فى جانب عاهات القلب، وقرر بأن سلامته تغنى عن سلامتها، وليس بعد هذا مدى فى تشريف تربية القلب، والإدلال بوجوب العناية بها.

ثم دفع بمهمة القلب الى أقصى الغايات، فجعل النجاة فى اليوم الآخر موقوفة على سلامته من الآفات المعنوية، فقال تعالى: « ولا تخزنى يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم » أى سليم من عاهات الصفات الذميمة، وأدواء الميول الخسيسة. وانظر الى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم فى مصير الإنسان بسبب جمود القلب، قال: « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ».

تحت ضوء هذه التعاليم العالية هبّ المسلمون الأولون يتطلبون عقولا وقلوبا، العقول للتمييز بين الحق والباطل، والقلوب للتنزه من الصفات الحيوانية، والتطهر

من الأدران البهيمية ، وللتعرض لنفحات الروح من طريق المشاعر الأدبية ، والحواس الباطنة ، فما عتموا أن تألفت منهم أمة بلغت الشأو الأعلى بقلوبها وعقولها معا ، فهم ليوث فى ظواهرهم ، نساك فى بواطنهم ، أجسادهم تصول وتجول ، وقلوبهم تأسو وتعول ، لم يدعوا صرحا أقيم للباطل إلا هدموه ، ولا مَعْلما للحق إلا أقاموه ، ثم ما هى إلا سنون معدودة حتى أصبحوا خلفاء الله فى أرضه ، وحفظته على وحيه .

هؤلاء الناس أتوا من الأعمال فى ردح قصير من الزمن مالم تأت به الأمم فى قرون عديدة ، أفلا تعجب إن قلت لك إن ملكهم على عهد سليمان بن عبد الملك سنة (٩٦) للهجرة بلغ الى أوسع مما بلغ اليه ملك الرومانيين فى ثمانية قرون ؟ نعم وكانت هذه السرعة المحيرة للعقل شغلا للمتسائلين ، ظلوا يبحثون عن أسبابها أمدا طويلا ، ثم عللها كل منهم بما أداه إليه تفكيره أو دفعه إليه هواه ، ولكن الحق الذى لا مرية فيه أن المسلمين الأولين لو كانوا توجهوا الى أغراضهم العمرانية بقلوب الفاتحين العاديين ، لصادفوا من عقبات التوسع ما صادفه من سبقهم من المتوسعين ، ولأجبرتهم القواطع أن يتريثوا فى توثباتهم الى حين ، ولكن هؤلاء مضوا فى سبيلهم بقلوب لا تتطلب علوا فى الأرض ولا فسادا ، وأرواح اتصلت بصميم الحق فأسعفها منه شاهد ومعين ، فبلغت يحدوها التأييد الإلهى الى حيث بلغت ، من بسطة الملك والمقام الخطير .

هذا هو الذى يمكن أن يعلل به بلوغهم هذا الشأو البعيد ، فى أقل من عشر الزمن الذى لبثه سواهم ولم يبلغ الى ما يريد . أضف اليه ذلك الفارق الكبير فى الأساس الذى قامت عليه فتوحاتهم ، فهى لم تماس الوحشية من قريب أو بعيد ، شأن بقية الأمم التى ظفرت بجار بيها فطغت عليهم ومحت شخصياتهم ، فإن المسلمين أقاموا ملكهم على أصول لا نزال نستخدم العلوم فى بيان حقيقتها ، وتجلية كرامتها ، فتضيق العبارات عن بيانها ، وتعجز الأقلام عن توفيتها حقها .

ولا يزال الاسلام وهو دين الله الخالد يدعو الأفراد والجماعات لتقويم شخصياتهم

الأدبية بتطهير قلوبهم من ران الصفات الذميمة ، والميول الوحشية ، ومتى عم هذا الأصل العالم انقشعت عن سمائه غيوم من المحن ، تلك المحن لا تفتأ تصب عليه شواظا من نار ونحاس ، ولا يكاد يخلص من آثارها حتى يتولاه صيِّب آخر أهول من سابقه ، وأشد اجتياحا لثمراته .

فإذا كان تقويم الشخصية الانسانية ضروريا للأمم كيلا تندفع فى الغى الى حيث تجتاح طيباتها ، وتفسد كيانها ، فذلك التقويم أصبح اليوم أوجب لها ، فإن سموم الجاهلية أخذت تهب أشد ما تكون عليها ، فتقذف بالآحاد والجماعات فى تيار الحياة الحيوانية ، حتى أصبحوا من التمرد على النظم المقررة ، والأصول الموطدة على حال لا يستقر معه نظام ، ولا يستتب أمان ، ولا يتقوم عوج ، ولا يعتدل أود ، وحتى صدق ما قيل :

إن دام هذا ولم تحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وما أحكم فيلسوف الانجليز الجرىء (برناردشو) حيث قال : إن العالم لا محيد له عن الاسلام ليأسو به جراحه ، ويعدل به معوجه ، ويقوم من أمره على سداد تتطلبه حياته ، ويقتضيه صلاحه : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

محمد فريد وجدى

فضيلة بذل المال

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الخلق عيال الله فأحب الخلق الى الله أنفعهم لعياله » . وقال : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » وقال : « اصطناع المعروف يقى مصارع السوء » . وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » . وسأل صلى الله عليه وسلم بعض العرب : من سيدكم ؟ قالوا : الحر بن قيس على بخل فيه . فقال النبى : « وأى داء أدوأ من البخل ؟ »

وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى : أنت متلاف . فقال : منع الجود سوء ظن بالمعبود ، يقول الله عز وجل : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »



قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ اللهَ تَوابٌ رَحِيمٌ . يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

قوله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن الخ » هو القسم الخامس من الإرشادات التي سبق أن قلنا إن هذه السورة اشتملت عليها ، وهو ماينبغي مراعاته في حق المسلم حال غيبته ، وذلك القسم مشتمل على ثلاثة إرشادات : (الأول) : النهي عن ظن السوء به ، و (الثاني) : النهي عن تتبع عوراته ، والبحث عن هتك مستوراته ، و (الثالث) : النهي عن إشاعتها بين الناس بالغيبة . وقد بدئ هذا القسم كما بدئت الأقسام السابقة ، بقوله : « يأيها الذين آمنوا » ، ليشعرهم بأن مايدعوهم اليه هو مقتضى إيمانهم ، وليثير فيهم عاطفة الإيمان التي هي منشأ كل خير وإحسان ؛ كيف لا وهي حلية القلب الذي هو ملك الجوارح ، ومتى صلح صلح الجسد كله . ولقد أخذ في هذا القسم بالتدرج الطبيعي ، فإن أول بوادر الشر أن يخطر بنفس المرء من قبل أخيه ظن

السوء، ولعل ذلك لبادرة أساء تأويلها، وهو الدور الأول، فيأخذ فى تثبيت ما خطر بباله، ويعمل على تدعيمه بتتبع حركاته وسكناته، فى خلواته وجلواته، بانيا ذلك على الأساس الذى ظنه، والتوهم الخبيث الذى ملأ قلبه، وهو سيعثر على شىء من الزلات، أو يطلع على بعض الهفوات من الهنات الهينات، فيبنى عليها الهيا كل الضخام من سيء الأحكام، ويستنبط منها قرارة الخبائث ولو أنصف لعلم أن ما اطلع عليه قلما يخلو هو وأمثاله منه، أو من أكثر منه. ولو كان قلبه سليما من ظن السوء الذى استبطنه من ناحيته، ما بنى عليه كل تلك الهيا كل، وذلك هو الدور الثانى فى ذلك الخلق المقوت، وهو دور التجسس. ثم يأتى الدور الثالث، وهو أخطرها على صاحبه وعلى المجتمع، وهو دور الغيبة، دور محبة أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، دور التقاطع والتدابر، دور التباغض والتفانى، وتفاقم الشر، واستحكام الضر، نعوذ بالله من كل شر.

قال الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم الخ»

هـذا هو الأسلوب الحكيم فى مثل هـذا الموضع، إذ لم يقل اجتنبوا الظن أو بعض الظن، أو أكثر الظن، أو ما يماثل ذلك، وإنما اختار هذا التعبير، وذلك أن الظن بإطلاق لا ينهى عن اتباعه، فان من الظن ما فيه احتياط لسلامة النفس أو النفوس، أو سلامة المال بأخذ الأهبة للدفاع، أو استنباط أحكام الدين حيث لا قاطع، أو تعرف وجوه الكسب والمعاش، وإصلاح الشئون، وكل هذه الأحوال اتباع الظن الصحيح فيها مع إعمال الروية واستقصاء الأمارات مأمور به لا منهى عنه، فإنك إذا نظرت الى رجل يسلك طريق سفر، ووجد أمامه طريقين دلت أمارات قوية على أن أحدهما مخوف الهلاك أو الضرر، وأن الثانى مأمون العاقبة، أفيقال لهذا: اجتنب مقتضى ظنك؟ كلا. وكذلك من عهد إليه بصيانة أرواح الناس وأموالهم، وكان قيما على مصالحهم، ووجد أمامه أمارات تغرس الريبة فى قلبه من نحو بعض الأفراد أنهم يعيثون فى الأرض الفساد، أو ينوون إضرار العباد، أو يبيتون نية الشر للآمنين الوادعين،

أفيمكن أن يقال له : دع هؤلاء يعبثون ويعيثون فسادا ويقلقون الآمنين وينهبون ويفجرون ولا تعمل ظنك لأخذ الطريق عليهم وصون الناس من شرهم واستعمال سبل الوقاية الواجبة حتى تكون قد قمت بما يجب عليك فيما استخلفت فيه وكنت سالما من المسئولية التي وضعت في عنقك شرعا بقوله صلى الله عليه وسلم : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ؟ وهل يصدق أنه رعاه وقام بحق الرعاية إذا هو أهمله حتى اغتاله المغتال ، ولم يستيقظ للجرائم قبل وقوعها ؟ وهل يمكن التيقظ لها قبل وقوعها إلا إذا أعمل فراسته بنفسه أو بمن يثق به ؟ إذ لا يمكن الفرد أن يقوم بالمهام الكثيرة بمفرده ، فاستقصى ما يبدر من حركات أهل الريب وتتبعهم بثاقب فكره ، يحلل حركاتهم ، ويجتهد في استخراج أغراضهم ، ويترصد لهم حتى لا يفلتوا منه ولا يكيدوا للآمنين في غفلته ؟ مثل هذه اليقظة ، ومثل هذا الظن في ضبط الأمور العامة لا يمكن أن يكون منهيا عنه بحال من الأحوال . بيد أنه لا ينبغي أن يتطوح فيه ويسترسل حتى يتخيل من حركة بريئة جريمة يجتهد في تدعيمها ، ويتصيد لها مما صح ومما لم يصح ، فهذا هو النوع المنهي عنه .

وكذلك الفقيه المستنبط لحكم لم يوجد فيه دليل قاطع ، إذا وجه تفكيره نحو عموم الأدلة وروح الشريعة ، وأخذ بالأظهر في القياس والأشبه به من الأحكام ، واتبع ظنه الذي هداه اليه تفكيره ، لم يكن ذلك من الظن المأمور باجتنابه المنهي عن اتباعه . وفي وجوه المكاسب يظن التاجر في بلد كثرة احتياجها الى نوع فيجلبه لها ، أوغناها عن عرض فيجتنبه . وفي الزارع يعمل ظنه في اختيار أرضه وانتقاء بذوره وطرق تعهده ، وأمثال ذلك .

كل هذا من الظن الذي قد يكون واجبا وقد يكون مندوبا ، وأقل أموره أن يكون مباحا ، ولكن الظن السيء الذي أمرنا باجتنابه هو ما يحيك بنفوس الأكفاء والنظراء من الناس عادة من نحو بعضهم البعض ، إذا رأى أحدهم من آخر

عملا فيه وجه محتمل للشر ولو كان بعيدا يسرح ذهنه إليه ، ويهمل ما يساويه أو يكون أقرب منه الى الذهن المعتدل من وجوه الخير ، يحمله على ذلك نوع منافسة ومناظرة ، أو قياسه على خواطر تتردد فى نفسه ، أو اعتقاد كثرة الشر والفساد فى الناس ، فيتبرم بهم ، ويتنكر لهم فى كل ما يأتون وما يذرون . ولو أنه كان مهيمنا عليهم ، أو كان ممن يقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسبة ، ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لاحتمل ذلك منه . ولكنه إنما يصدر عن موجدة فى نفسه نحو الناس ، ويشفى غليلا كامنا فى قلبه نحو نظرائه وأكفائه ، وهو إذا فتشته لم تجده يتعدى تقديس المرء لنفسه ، واعتقاده فيها الرجحان على كل الناس ، والنزاهة حيث تلوث الناس ، وما ذاك إلا الأنانية الممقوتة ، وإن خيل الى صاحبها أن ذلك غيرة على الدين والخلق والمجتمع ونحو ذلك ، وما أدق مسالك الشيطان من الانسان ، وما أبصره بتصوير الشر بصورة الخير !

هذه الأحوال ليست كل الظن وليست أكثره ، كما أنها ليست بعضا ما منه لينفر منها بكلمة بعض الظن ، ولكنها بعض كثير منه تنتشر فى ظنون كثيرة ، وتلتبس بمواضع حميدة ، فتحتاج الى الاحتياط فى تمييزها عن غيرها ، والتيقظ فى التخلص منها والابتعاد عنها . وهذا هو ما يفيده التعبير «بكثيراً من الظن» . فكأن الآية تشير الى أنا مبتلون بالتعرض للظن المنهى عنه فى كثير من الحالات ، فينبغى أن نتيقظ دائما لتمييز ظنوننا ، وأن نتنبه لها حتى نعرف حسنها من سيئها ، فلا نقع فى الشر ونحن عنه غافلون ، أو نصيب قوما بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين . وقوله تعالى : «إن بعض الظن إثم» يشرح لك هذا المعنى ، فإن معناه أن المرء إذا استرسل فى ظنونه ، وأرخى لنفسه العنان ، وأطلق لها العقال فلم يتتبعها فى ظنونها ، ولم يتجنب المسايرة لكثير من خواطره وظنونه احتياطا ، أوشك أن يقع فى الإثم ، فإن بعض الظن إثم وموقع فى الحرج . وهل يمكن اجتناب الإثم المبهم الملتبس بكثير من غيره إلا بالتباعد عن كثير مما يشبهه ؟ ويوضح لك هذا المعنى أتم توضيح ما جاء فى الحديث الشريف « الحلال

بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه » فالحديث وإن كان متبادرا منه أفعال الجوارح، فإن خطرات القلوب أشد التباسا .

وبعد فالظن إما أن يكون اختياريا أو اضطراريا، فإن كان اختياريا فالنهى فيه ظاهر، وإن كان اضطراريا كان النهى فى الحقيقة منصبا على متابعته والعمل بمقتضاه، من احتقار المظنون به وانتقاصه، وإذاعة ما ظن به مما لا موجب له إلا متابعة النفس الأمارة، أما العمل الذى له موجب صحيح كالاحتراس منه والتحفظ من أذاه المحتمل، فلا نهى فيه، على شرط ألا يلحق أذى بالآخر، وذلك محمل ما ورد « الحزم سوء الظن بالناس » و « احترسوا من الناس بسوء الظن » . فالاحتراس المأمور به هو التحفظ الذى لا يجر على الغير ضررا، وكذلك هو المعدود حزما . ويقرب من هذا وإن لم يكن مما نحن فيه ما أجاب به بعض القواد المعروفين بالشجاعة وقد سئل : هل لحقك خوف قط ؟ فقال : «ما سلمت من خوف أكسبنى الحذر، وما لحقنى خوف أفقدنى صوابى» .

قال تعالى : « ولا تجسسوا » هذا هو الدور التالى لدور سوء الظن، فإن المرء على ما سبق آنفا يخطر بباله الخاطر السيء من نحو أخيه، فيرى أسبابه واهية، فيعمل على تدعيمه وتثبيت قواعده، فلا يرى فيما يبدو منه ما يشهد له، فيتعقبه بحثا عن مساويه، فاذا رأى حسنة أغمض عنها إذ لم يكن وجدانها من غرضه، وإن رأى سيئة فرح بها، وإن رأى ما يحتمل الأمرين جره الى أسوأ التقديرين، يزعم أن ذلك كله من اليقظة والانتباه، وما هو فى الحقيقة إلا حقد دفين يتوارى عن صاحبه ويبرقعه له إبليس ببرقع اليقظة والذكاء . هذا هو منشأ التجسس فى الغالب، وفى ذلك يقول القائل :

إذا رأوا سبة طاروا بها فرحا عنى وما علموا من صالح دفنوا

وأصل التجسس مأخوذ من الجس باليد، وهو اللمس بها مع نوع من الضغط، نقل الى مطلق التعرف . وكذلك التحسس (بالحاء المهملة) من الحس، وهو أثر الجس وغايته .

والتلمس ، وهو من اللمس . والتجسس والتحسس متحدان فى المعنى أو متقاربان ، فمنهم من فرق بأن التجسس بالجيم تعرّف الظواهر ، وبالحاء تعرف البواطن ؛ ومنهم من فرق بأن الأول التعرف بالغير ، والثانى أن تفحص بنفسك ؛ ومنهم من قال : التجسس فى الشر والتحسس فى الخير ، أو مطلق . والمراد هنا تتبع العورات والبحث عن المساوئ . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال فى خطبته : « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته » . وخص النهى بمن آمن بلسانه ، لأنه الذى يكون ذلك منه غالبا .

وإذا قلنا تتبع العورات والبحث عن المساوئ ، فإنا نريد تتبعها والبحث عنها بقصد الإشاعة والتشنيع ، والاحتقار والانتقاص ، وما يماثل هذه الأغراض السيئة . أما بحث المربى عمن يلى أمره ويقوم على تأديبه ، وبحث الراعى عن رعيته لاقتلاع جرائيم الجرائم ، فلا يمكن أن يكون موضع نهى ، وإنما هو مطلوب أيما طلب ، وذلك كما يقولون فى ضرب اليتيم تأديبا وضربه إيذاء ، فالأول حسن مأمور به ، والثانى قبيح منهى عنه . ومأخذ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »

وبهذا تعرف سقوط حجة من احتج على عمر رضى الله عنه حين تجسس عليه ، فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يمر بالمدينة يتعرف أحوال أهلها ، فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى ، فتسور عليه فوجده أمامه الخمر ، فقال : ياعدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ ! فقال الرجل : ياأمير المؤمنين إن كنت عصيت الله فى واحدة فقد عصيت الله فى ثلاث : قال الله : ولا تجسسوا وقد تجسست ، وقال تعالى : وأتوا البيوت من أبوابها وقد تسورت علىّ ، وقال جل شأنه : لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وقد دخلت بغير إذن .

أقول : قد علمت أنه لاحجة للرجل فى ذلك ، فمحل هذا فى غير المربى والراعى وأمثالهما .

قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا »:

أصل الغيبة : العيب فى الغيب ، ولكن حكم تحريمها شامل للعيب فى الحضور، إما للتوسع فى إطلاق لفظ الغيبة ، وإما لجمع العملين فى حكم واحد بطريق القياس ، وذلك كما قالوا فى سجود السهو : يشمل السجود لما ترك عمدا . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » والبهت : الكذب والباطل الذى يتحير من بطلانه وافترائه . والمراد بالذكر أعم من أن يكون صريحا أو كناية ، بل يشمل بعض الأفعال التى تُفهم الانتقاص ، فقد تكون الغيبة بلفظ ظاهره الدعاء له ، كقول الرجل وقد سئل عن آخر : أصلح الله حاله ؛ وقد تكون بصيغة الاستغفار عند ذكره ، أو بحمد الله على المعافاة ، وأمثال ذلك مما يخيل لضعيف النظر أنها عبادة إذ كانت حمدا واستغفارا ودعاء ، وماهى فى الحقيقة إلا المعصية المبرقعة ؛ وقد تكون بفعل خفى لا يفهمه إلا اليقظ ، كما يكون من توجيه بصرك الى شىء معيب فى شخص ، ثم إرداف ذلك بابتسامة أو إيماء طرف ، وأمثال ذلك ، فكله حكمه حكم الغيبة ، أو داخل فى مسماها عرفا .

نعم : قد تباح الغيبة إذا اقتضاها موجب شرعى ، كالتظلم لمن يملك رفع الظلامة ، وكالشهادة فى الخصومات ، فيذكر مايعلم وإن كرهه المشهود عليه ، وكالتشنيع على المتجاهر بالفسق ليزدجر ويرتدع هو وأمثاله ، وكالجرح والتعديل فى رواية الحديث تمحيصا للأحكام الشرعية والسنة النبوية أن تتناولها ألسنة من لا يوثق بهم فيدخلوا فيها مايوافق أهواءهم . وقد كان بعض رجال الجرح والتعديل إذا جاس فى حلقته يقول: هذا مجلس تباح فيه الغيبة . والمراد بها إزالة اللبس عمن يغتر بهم ، ليؤمن شرهم وتلبيسهم فى الدين . ومنها باب المشورة حينما يريد رجل أن يعهد الى رجل بعمل يحتاج الى الأمانة والكفاية ،

ولا سيما أعمال المصالح العامة فى شئون الأمة، فالتعريف بحال مثله لا يعد غيبة منهية شرعا، إذ كانت مراعاة مصالح الأمة العامة بحق أولى من مراعاة مصلحة فرد واحد بدون حق. ولا يغرنك قول بعض المتورعين فى مثل هذا المقام: حرام علينا تمنع الخير عن الناس. فالخير العام مقدم على خير الفرد الخاص. ومثل ذلك من رآه يقدم على مصاهرته أو مشاركته أو نحو ذلك وهو يعلم عنه ما لا تطيب معه هذه المصاهرة أو المشاركة، فلا بأس أن يبين له أمره، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم». ولتكن دائما على بينة من قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

قال تعالى: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه»:

هذا تقرير للحكم، وحمل على امتثال ذلك النهى، بتعقيبه بما ضربه له مثلا من جعله بمنزلة أكل اللحم، فإن من مزق عرض إنسان فكأنما مزق لحمه ونهشه نهشا، أليس اللحم يستر ما وراءه من العظم فإذا مزق انكشف ستره؟ وكذلك قرض الأعراض فيه كشف الستر عما يحب الإنسان ستره. ثم فى نهش الأعراض من ميل النفوس الشريرة واستمرائها له ما يكون فى نهش اللحم من ميل النفوس الشرهة واستمرائها.

ولقد أبدع هذا الأسلوب فى التنفير من ذلك الأمر الذى كثر الابتلاء به أيما إبداع، فقد صوره بصورة ما حقه أن يكون فى غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ، وزاده أن صوره بصورة الميت، وحقه أن يكون منه أنفر. ومشابهته له من حيث إن كلا من الغائب والميت لا يستطيع الدفع عن نفسه. والتعبير بكلمة «أحدكم» لبيان أن أحدا مّا من الناس لا ينبغى له ذلك. وكيف وهو مع أخيه لا مع عدوه الذى قد يعذر إذا أراد أن يتشفى منه؟ ثم كيف وأخوه ميت لا يستطيع الدفع عن نفسه ولا مقاومة من يهاجمه؟ ولو كان حيا يقدر على المقاومة لالتمس لنفسه العذر بالمغالبة. هذا الى إبراز الحكم

فى معرض الاستفهام لحمل المخاطب على أن ينطق به ويعترف بقبحه من نفسه ، كأنه أظهر من أن يذكر لك ، وإنما يكفى أن تلفت اليه نظرك لتعرفه أنت بنفسك .

أما قوله بعد ذلك: « فكرهتموه » فهو من إصدار الحكم عليه حسبما وقر فى النفوس السليمة ، وهو أن هذا العمل لا يقبله أحد ، ومن أحبه فقد كرهه الناس جميعا . وقد سموا الفاء فى مثل هذا التركيب فاء الفصيحة ، وقالوا إنها تفصح عن مقدر فى الكلام ، وكأن التقدير : إن يفعل ذلك أحد فقد كرهتموه . وتغيير الأسلوب على هذا الوجه من المبالغة فى التنفير ، فبعد أن عرض الأمر على نفس المنهى ، وخوطب بما يستخلص منه الحكم بإقراره واعترافه ، وهو أنه لا يحب أحد ذلك ، عدل الى تقرير ما تقضى به العقول عند الجميع ، وهو أن من يفعل ذلك فهو مكروه بغيض ، فهذا الحكم مما لا تستريح له نفس ولا يقبله عقل ، والتصريح بالكراهية أشد من نفى المحبة .

ولما كان الاغتياب مما يتفشى فى الناس غالبا ويغفل الكثير عما فيه من المساوىء والقبائح ، أكد النهى عنه بما ترى ، ثم أردف ذلك بالبلسم الشافى ، والدواء الناجع لكل داء من أدواء النفوس ، وذلك هو تقوى الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، تقوى الله الذى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، تقوى الله الذى يعلم السر وأخفى ، فقال: «واتقوا الله» احذروا عقوبته وقوا أنفسكم من غضبه ، فلا يدَ لكم بدفع عذابه ، ولا قدرة لكم على احتمال مقته . اتقوا الله وتوبوا اليه مما فرط منكم ، فأقلعوا عنه ، وصمموا على عدم العودة اليه ، واستشعروا الندم على ما فرطتم فى جنبه ، إن الله تواب رحيم ، يقبل التوبة عن عباده مهما كثروا ، ويعفو عن السيئات مهما عظمت ، وهو رحيم بكم ، يرشدكم الى ما فيه خيركم ، ولا يغلق باب الإنابة فى وجوهكم . ولكن إياكم أن تظنوا أن مجرد كلمة « تبت الى الله » تعتبر توبة حتى مع الإصرار على المعاودة ، فالتوبة لا تكون توبة ما لم يصحبها الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما كان ، والتصميم على أن لا يعود

الى مثله، مع استحلال صاحب الحق من حقه، أو الاستغفار له إذا تعذر أن يستحله مما جنى عليه .

هذا والحق أن الغيبة من الكبائر لهذه الآية، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه» فقد جمع العرض الى الدم والمال فى حكم واحد، ولا شك فى أن التعدى عليهما كبيرة، فكذلك العرض، بل قد يتساهل المرء فى المال حيث لا يتساهل فى العرض، بل ربما تسامح المرء فيما أصابه فى بدنه ولا يتسامح فيما أصابه فى عرضه، ولله القائل :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ومن الناس من زعم أنها صغيرة متعللا بأمرين : الأول فشوها فى الناس، والثانى ما ورد أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال عمن فيهما : «إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الثانى فكان يخوض فى أعراض الناس» . ولا حجة له فيما ذكر، أما الأول فإن شيوع الجريمة لا يغير من حكمها مهما كثر فاعلوها، واعتبر بكثرة الكافرين مع المؤمنين وأنهم فيهم كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود . وأما الثانى فمعنى ما يعذبان فى كبير أنهما لم يكونا مرتكبين ما يكبر عليهما تركه ويشق عليهما اجتنابه والتخلص منه لو أرادا، فليس الاستبراء من البول والتنزه عن النجاسة من التكاليف المرهقة الشاقة، وليس ترك أعراض الناس بدون نهش مما يتعاصى على ذوى النفوس الكريمة . وما أحلى قول القائل :

وقوم راعهم منى مقامى وقدر العلم والشرف اللباب
فعابونى على فضلى عداء ومثلى لا يعيب ولا يعاب

ولا يفوتنا قبل أن ننتهى من الكلام على الآية الكريمة أن ننبه على بعض أمور يتجلى بها براعة الأسلوب الكريم :

الأول : أنه قيل فى ختام الآية السابقة : ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وقال فى ختام هذه الآية : واتقوا الله إن الله تواب رحيم، وذلك أن الأولى كانت

فى النهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ، وكل ذلك مما يظهر فيه نية الشر والتحرش بالغير والعمد الى الإيذاء ، وهـو من العدوان الشديد الذى يستتبع الشر الكبير ، فلذلك كان الحث فيه على التوبة بعبارة فيها التوعد الشديد بقوله : ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، بل مهد له بقوله: بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . أما باب الغيبة فهو وإن كان محرما وكبيرة على ماذكرنا ، فليس فيه من عوامل إثارة الشر مافى الأول ، فاكتفى فيه بالأمر بالتقوى ، والإرشاد الى أن باب التوبة مفتوح ،وأن الله تواب رحيم.

الأمر الثانى : أن قوله : « فكرهتموه » فيه ضمير منصوب إما أن يرجع الى من فعل ذلك ، وكراهةُ الفاعل تابعة لكراهة فعله ، أو يرجع الى نفس الأكل المصور بالصورة السابقة ، أو الى اللحم المأكول إذ كان لحم ميت ولحم أقرب الكائنات اليك فلا تشتهى نفسك أن تتضلع منه . والتنفير المقصود مستفاد على كل احتمال .

الأمر الثالث : أن قوله : « واتقوا الله » معطوف على اجتنبوا فى أول الآية ؛ أو على كرهتموه ، لأن بعضهم يقول إنها وإن كان لفظها لفظ الخبر فإنه أمر فى المعنى ، فكأنه يأمر بالإعراض عن ذلك الأمر الذميم وبغضه ؛ وعبر عنه بصيغة الخبر ليشير الى أنه أمر جازم وامتثاله محتوم لا محالة ، وكأنه حصل وتحقق ؛ أو هو معطوف على مضمون الآية بتمامها ، إذ كان تذييلا لهذا الحكم مقرراً له برمته .

وبعـد : فالغيبة قد يتهاون بعض الناس فى أمرها ، فيقع كثير منهم فى شرها ، ولو علموا ما تستتبعه من غرس العداوة والبغضاء ، وشحن النفوس بالشحناء ، وتفريق الشمل المجتمع ، وتمزيق الوحدة النافعة ، وحرمان الناس من نعمة التواد والتعاطف ، ما أقدموا عليها ، ولا استساغوا طعمها ؛ فكيف وقد ورد فيها وفى غيرها من آثار اللسان « وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويوفقنا لصالح القول والعمل ، إنه سميع مجيب ؟

ابراهيم الجبالى

أثر العبادة في حياة المسلمين الاجتماعية

ضمني مجلس يوما وأحد رجال القلم من غير المسلمين ممن تؤديهم بحوثهم الى تناول الكلام عن الاسلام ، فلما أخذ كل منا مجلسه ، نظر الىّ وخصني بكلمات من الثناء شكرته عليها ، ثم قال : لقد كنت أرجو أن يضمني وإياك مجلس فأطرح عليك سؤالا أطلت البحث في جوابه حتى اهتديت اليه ، وأحب أن أرى رأيك فيه .

فقلت له : وما هو ذلك السؤال ؟

فقال : بم تعلل سرعة قيام المسلمين ، وانسياحهم في الأرض ، وتأسيسهم لدولة بذت دولة الرومانيين في الاتساع وبسطة السلطان ، مما حير عقول الباحثين ولم يجدوا له تعليلا يقبله العلم الاجتماعي وتسيغه فلسفة التاريخ ؟

فقلت له : أتحفني بالجواب الذي وفقت اليه لأرى رأيي فيه أولاً .

فقال : إني أرى أن علة هذه السرعة كانت شدة تماسكهم ، وقوة ترابطهم ، حتى أصبحوا على كثرة عددهم كالجسد الواحد تديره إرادة واحدة ، ويدبر حركاته عقل واحد .

قلت : أحسنت في وجدان العلة ، فإنه جدير بأمة تصبح من الترابط كالجسد الواحد أن تأتي بالآيات في التوسع وبناء صروح المجد ، ولكن فاتك أمر جلل وهو أن تفسر كيف حدث ذلك التماسك الذي لم يكن مثله لأمة قبلهم ، وقد كانوا في أمسهم مثلا يضرب في تفرق الكلمة ، وفي التحاقد الذي كان كثيرا ما يحملهم على التناحر ، فإن انقلاب جماعات كانوا بالأمس على شر حال من التنابذ والتكافح الى جماعة واحدة متحدة المبدأ والغاية ، تضطلع بمهمة اجتماعية كالتي اضطلع بها المسلمون الأولون ، وتنجح في أدائها ، رغما عن جميع العقبات التي صادفتها ، والقواطع التي قابلتها ، قلنا : إن مثل هذا

الانقلاب المحير للعقل يعوز تفسيرا ، إذ ليس هو بالأمر العرضى ، ولا بالسبب الثانوى ، ولكنه الأصل الأصيل فى إحداث ذلك التماسك الذى أدهشكم من آثاره ما أدهشكم . وإذا كان هذا أثر التماسك بين آحاد الأمم ، فما الذى يمنعها أن تأخذ به لتصل الى أقصى غايات الاجتماع من أقرب الطرق إليها ، وبمثل السرعة التى أدت المسلمين اليها ؟

فسكت مخاطبي قليلا ثم قال لى : وماسر ترابط المسلمين هذا الترابط المتين فى نظركم ؟

قلت : إن سره فى نظرى يرجع الى الحكمة التى بنيت عليها عباداتهم ، فقد كتب على المسلمين صلاة وصوم وزكاة وحج . فالصلاة عمل تشترك فى أدائه الجوارح والقلب معا ، وقد روعى فى حركاتها الجسدانية أن تمثل الإنسان واقفا أمام خالقه خاشعا مستسلما قارئا ، فإذا أتم قراءته ركع خاضعا ، ثم قام وخر ساجدا ، واضعا جبهته على الأرض ، وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يظهره من دلائل الطاعة والعبودية لقيوم السماوات والأرض . أما عمل القلب فقد أمر الانسان أن يتجرد فيه من جميع علائقه بالدنيا ، وأن يثير فى نفسه شعورا قويا بصلته بخالقه . فيُطلب اليه أول مايدخل الى الصلاة أن يقول : «الله أكبر» قاصدا بذلك محق جميع الأغيار ، والتحلل من جميع الآصار ، مطرحا كل هوى وكل خاطر ، حاصرا جميع قواه الروحية فى مبدعه الحكيم الذى لا يحصره وصف ولا يحده مكان . فإذا تم له هذا التجرد بدأ يتلو أم الكتاب ويعقبها بما تيسر من السور أو الآيات . فهذا العمل القلبي إذا أُدى على ما ينبغى رفع من نفسية الانسان مالا ترفعه دراسة الفلسفة سنين ، وهذب من شعوره ، ولطف من إنسانيته ، وأزال من أدواء نفسه مالا تستطيعه العلوم مجتمعة .

والصوم إمساك عن الأكل والشرب ساعات معدودة ، يقضيها المسلم فى فكر أو ذكر أو عمل ، بعيدا عن المشاغبات والمعاكسات ، تفرغ فيها النفس لِذاتها تحت جو من التجرد صالح لإبراز أقصى مكنوناتها من القوى المعنوية ، والأنوار القدسية .

والزكاة مران إجبارى للنفس على أن تفكر فى حاجات غيرها ، وتسد مفاقر إخوانها ، وإخضاع للغنى بسلطان الشريعة على أداء حق المجتمع من المال الذى اجتمع لديه ، باعتبار أنه عضو من هذا المجتمع لا حياة له إلا بحياة المجموع وسلامته .

والحج رمز عملى لوحدة الوجهة ووحدة الغاية ، وإشعار للناس كافة بأنهم إخوان فى الله ، وإن فرقت بينهم المناسب ، وباينت بينهم المناصب ، وأنهم وهم محرمون فى صعيد واحد يمثلون حالة الفطرة ، إخوانا متحابين أمام معبود واحد ، لا ينظر الى صورهم ولا الى أموالهم ، ولكن ينظر الى قلوبهم وأعمالهم .

إن هذه العبادات كلها تتكافل فى إعداد النفوس الى كمالها باستثارة القوى المعنوية الكامنة فيها ، فما الذى يمنع هذه النفوس من التحاب والترابط ، وجميعها قد خلص من إسار الأوهام ، وافتك من سلطان الأهواء ، وتطهر من أدران الأدواء ؟ وكيف لا يكون الترابط بينها على أقوى ما يتخيل وقد سلمت من جميع العلل المفرقة ؟

قلت لمحدثى كل هذا ، فأظهر إعجابه به ، ثم أخذنا فى أحاديث أخرى حتى تفرقنا .

وإنى أحب فى نهاية هذه المحادثة أن ألفت نظر المسلمين الى وجوب أداء العبادات على ما أمر الشرع الحكيم : من التدبر فيها ، وإعطائها حقها من الخشوع ، والمثابرة عليها . وقد أشار الله الى ثمرات هذه العبادات فى تكميل الإنسان فقال فى حق الصلاة : « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين » . فانظر الى هذه الثمرة الكريمة التى تتحصل من الصلاة ، ثمرة لو بذل الإنسان فى سبيلها ملء الأرض ذهبا ما حصل عليها ، وهى أنه يصير من ثبات الجأش ، ورباطة القلب بحيث لو أصابه ما تطير له النفس شعاعا ، وينخلع من هوله الفؤاد ارتياعا ، لثبت له ثبوت الرواسخ ، وهذه منزلة تحدث عنها الفلاسفة ولم يصلوا اليها ، وقد نالها المسلمون بفضل إيمانهم وعباداتهم ، فكانوا إذا زلزلت الأرض تحت أقدامهم ، ومادت رواسى الخطوب أمام أعينهم ، صمدوا لها مطمئنين ، حتى تأخذ حدها وتنجلى وقد زادتهم إيمانا الى إيمانهم .

وقد أمرهم الله إذا جد الجد ، واشتد الكرب ، أن يلجأوا الى العبادة يستمدون منها روحا يقاومون بها ما يحتوشهم من خطر ، ويساورهم من أمور كُبر ، فقال تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » . فانظر كيف يأمرهم أن يلجأوا الى الصلاة يتقون بها الشدائد ، ويستفتحون بها أبواب الخير .

وقد أوعد الله تعالى الذين يعبدونه وهم لاهون بأمورهم الدنيوية ، لا يتدبرون ما يقولون ، ولا يعقلون ما يقرءون ، فقال : « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فإن مثل هذه الصلاة لا تؤدى الى الثمرة التى وضعت لها ، فلا يحصل مقيمها على شيء ، قال عليه الصلاة والسلام : « كم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

ووصف الله تعالى الصلاة بأنها طهور للانسان تدرأ عنه أدران الصفات الساقطة ، والخصال الموبقة ، فقال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، فاذا أداها الانسان حق تأديتها منعته عن محارم الله ، وحفظت له كرامة إنسانيته . وإذا أداها ساهيا أو لاهيا حرم من ثمرتها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » .

وقال الله تعالى فى ثمرة الصوم : « وأن تصوموا خير لكم » وهذا الخير لا يقف عند حد ، فإن النفس متى انقطعت عن أهوائها ورغباتها بالصوم ، استعدت لتلقى الافاضات الإلهية ، وكان اتصالها بالعالم الروحانى أكمل وأتم مما تكون عليه فى حالتها العادية ، وليس فى وسع أحد أن يقدر قدر ماينال الانسان بهذا الاتصال من الرتب المعنوية .

فلا غرو أن يكون المسلمون وهم يتعرضون لكل هذه المزايا الروحانية على أكمل ما يُتخيل لأمة من الترابط والتساند ، وعلى أعلى مايتصور من ثبات جأش أمام الزعازع ، ورباطة قلب حيال الخطوب الجسام ، فيحاولون تذليلها بعقول لم يذهب بها الهلع ، ولم يؤثر فيها الذعر . ولا عجب بعد ذلك أن يلين لهم ما استعصى على غيرهم ، وأن يبلغوا ماحاولوا أن يصلوا اليه بأسرع مما وصل اليه سواهم ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

خروج النساء من البيوت

ورد إدارة المجلة من أحد مشتركيها بالفيوم السؤال الآتى :

هل يجوز خروج النساء من البيوت أو يحرم لقوله تعالى : «وقرن فى بيوتكن»؟ وما رأى السادة العلماء فى حال النساء الآن مما هو معروف للجميع ؟

الجواب

أمر الله تعالى نساء النبى صلى الله عليه وسلم بالمكث فى البيوت وعدم الخروج ، فقال : « وقرن فى بيوتكن » وهو أمر يدخل فيه جميع النساء ، لأنه لا دليل على الخصوصية ، بل غيرهن أولى بذلك .

وقد أخرج الترمذى والبزار عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن المرأة عورة ،فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ،وأقرب ماتكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها » . غير أن هذا الحكم مقيد بما إذا لم توجد ضرورة دينية أو دنيوية تقتضى خروجها ، فيجوز أن تخرج للحج مثلا لقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»، وفى الحديث الصحيح أن النساء قالت للنبى صلى الله عليه وسلم :«غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن فقال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار . فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين » الحديث .

فأنت ترى من الآية أن الله طلب من الناس الحج ،وهو يستدعى الخروج

الى مكة ، ومن الحديث أن النساء طلبن سماع العلم وتخصيص يوم لهن فأجابهن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يستدعي الخروج أيضا بلا مرية . وما حضور النساء الى النبي صلى الله عليه وسلم وسؤالهن عن أمر دينهن بقليل .

والخلاصة أن في خروج المرأة تفصيلا ، حاصله عندنا معشر المالكية أن المرأة إذا كانت عجوزا لا أرب للرجال فيها جاز خروجها في كل وقت لقضاء حوائجها ، وجنازة أهلها وأقاربها ، ومجالس العلم والوعظ ، وإن كانت شابة غير مخشية الفتنة ، جاز خروجها أيضا لجنازة أهلها وقرابتها وقضاء حوائجها إذا لم تجد من يقوم لها بذلك ، وذلك بشروط :

١ — أن تلبس خشن الثياب لا رقيقها .

٢ — وأن لا يبدو منها ما يحرم النظر إليه .

٣ — وأن تكون الطريق مأمونة .

٤ — وأن لا تمس طيبا ولا تبدى زينة .

وإن كانت مخشية الفتنة حرم خروجها مطلقا .

أما كشف عنقها وصدرها وذراعيها وساقيها فلا يجوز بوجه من الوجوه . وكذلك مصافحتها بلا حائل : حرام ولو لم يثر فتنة ولم يحرك شهوة . فيجب على الناس أن يتنبهوا لذلك ، حتى لا تقع المصافحة بين الجنسين إلا بحائل . وقد تساهل الرجال والنساء الآن في ذلك كل التساهل .

أما إذا خشيت الفتنة ولم يؤمن الفساد ، فلا يجوز كشف وجهها ولا شيء من بدنها بحال من الأحوال عند جميع العلماء . والشريعة نظر واسع وحكمة بالغة ، فتراها تحرم وسائل الفساد وكل مايفضى إليه ولو في بعض الناس ، سدا للذرائع ، وحسما لمادة الشرور ، علما منها بأحوال النفوس البشرية وما جبلت عليه . ولذلك حرمت الخلوة بالأجنبية ولو مع أصلح الصالحين وأورع الورعين . فهذا هو حكم الله ودينه .

وقد أطنب القرآن فى ذلك غاية الإطناب لأجل مافيه من الشرور وما يجر إليه من المفاسد كما قلنا . واقرأ إن شئت قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » ، وقوله عز وجل : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ، الى غير ذلك من أمر الرجال والنساء بغض الأبصار والبعد عما عسى أن يؤدى الى مالا تحمد عقباه شاءوا أم أبوا . والاختلاط أس الشقاء والحمية رأس الدواء .

فانظر الى أى حد وصل النساء الآن من التهتك وعدم المبالاة ، وكأن امرأة القرن العشرين لا تريد أن تكون امرأة كما خلقها الله ، فتراها تخرج الى الأسواق بلاضرورة ، بل تغشى المجالس والمجامع بدون حياء ولا احتشام ولا تحفظ . وهو انقلاب فظيع وفساد كبير . وقد جعل الله لها فى المجتمع وظيفة خاصة وأعمالا تستغرق كل أوقاتها لو أرادت أن تقوم بها على ما يجب عليها . وليس قسطها من الواجب فى تربية الأطفال وإصلاح شئون البيت وما يوجب للرجل فراغ قلبه لمهمته الشاقة وإعداد وسائل الراحة والهناءة له ، حتى يكون البيت جنته التى يأوى اليها من شقائه ويستريح فيها من عنائه بأقل من قسط الرجل فى واجبات الحياة . والحكمة تقتضى توزيع الأعمال وتخصيص كل بما يليق به ، بل الحق سبحانه وتعالى راعى ذلك فى خلقه ، فخلقهم مختلفى الاستعداد ليختص كل بما هو أولى به ، فسبحان الحكيم العليم .

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء . « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك

هم الظالمون » . وقد اعتاد الناس رؤية تلك المنكرات فصاروا لا يستنكرونها ، ولا تنفعل نفوسهم من أجلها ، غافلين عن مقتضى الطباع وما للشهوات البشرية من السلطان الأكبر على النفوس ، ولذلك حرم الدين لمس المرأة بكل وجه من الوجوه ولو بلاشهوة ، ونهى أن يختلي الرجل بالمرأة ولو كانا صالحين عفيفين ، سدا للذرائع ، وقطعا لوسائل الفتنة كما قلنا .

ولسنا نعلم شهوة من الشهوات لها ذلك الأثر البالغ والسلطان القاهر فى نفس الانسان بمقتضى جبلته البشرية وتكوينه الطبعي أعظم من ميل الرجال الى النساء ، وميل النساء الى الرجال . وكم قد سمعنا من الحوادث المؤلمات ما فيه مزدجر ، ورأينا من المشاهدات المخزيات ما فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولكننا فى زمان فسدت فيه النفوس ، وانقلبت فيه الرءوس ، فظهر التدهور والانحطاط بمظهر الرقى والنهوض ، وسيئاتُ الأعمال ومساوئ الأخلاق بمستظرفاتها ومحاسنها ، وشواذ الآراء وفاسدات العقائد بصورة التجديد والابتكار ، والتمسك بالفضائل والآداب بصورة التأخر والجمود :

تشكل فينا كل شيء بشكل ما يباينه والناس عنه نيـــام

فالى الله المشتكى وبه المستغاث من زمان لبست فيه الرذيلة ثوب الفضيلة ، وتجلت فيه الفضيلة بصورة الرذيلة .

والرزية كل الرزية عدم الإحساس بذلك ، وفقد الحمية الدينية والنخوة الانسانية والرجولة الصحيحة ، وتتابع الناس على ذلك من غير شعور ولا تبصر . وكيف يستحى الإنسان من الإنسان وهما سواء فيما يقترفان ، ولا يزالان كذلك حتى يبطل منهما الإحساس بالرذيلة ، ويسهل عليهما القضاء على الفضيلة :

هـذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

صلاة الجمعة لغير المستوطنين

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل تجب الجمعة على قوم أقاموا ببلدة وعمروها غير مستوطنين لها ؟

محمود شحاته
بالغردقة

الجواب

استيطان البلد أى نية الإقامة فيه على التأبيد شرط لصحة الجمعة ووجوبها أصالة عند المالكية . فاذا عمر قوم بلدا وأقاموا به غير مستوطنين له ، لم تجب عليهم الجمعة ولا تصح منهم . ومع هـذا لو ارتحل منهم شخص الى بلدة الجمعة وأقام بها أربعـة أيام وجبت عليه الجمعة تبعا لأهل هـذه البلدة . فالوجوب الأصلى يستدعى الإقامة على التأبيد ، والوجوب التبعى يستدعى إقامة أربعة أيام فقط . والله أعلم ؟

توسعة المسجد من المقبرة

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هـل يجوز نبش المقابر ونقـل ما فيها من عظام ورفات ، وجعل ميضأة المسجد ومراحيضه مكان المقبرة عند الحاجة ؟

ابراهيم لاشين
من كفر أبرر

الجواب

صرح العلماء فى باب الجمعة أن المسجد العتيق إذا ضاق يوسع من المقبرة . وكذلك صرحوا فى باب الوقف أن المسجد يوسع من المقبرة والطريق . لـكن ينبغى أن يعلم

أن المسجد هو المكان المعد للصلاة ، فليست الميضأة والمراحيض من المسجد ، وإنما وضع كل منهما تسهيلا على المصلين فى الوضوء وقضاء الحاجة . وإذاً لا يجوز جعل الميضأة والمراحيض مكان المقبرة ، لأن هـذا العمل ليس من توسعة المسجد فى شىء .

والفرق أن إقامة الجماعة فى المسجد سنة يقاتل على تركها ، بل قيل إنها واجبة ، والوضوء من الميضأة لا فضل فيه ، بل الوضوء فى البيت أفضل . والله أعلم ؟

متى تجب الزكاة فى النقدين والحب

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى أيضا :

متى تجب الزكاة فى النقدين : الذهب والفضة ، وما مقدارها ؟ ومتى تجب فيما يخرج من الأرض العشرية أو الخراجية ، وما مقدارها فى كل منهما ؟

محمد محمد جمال الدين
بالساحل

الجواب

كل من ملك نصاب النقدين وهو عشرون دينارا ذهبا أو مائتا درهم فضة ، وحال الحول على ملـكه النصاب ، وجبت عليه الزكاة ، وهى ربع العشر ، فيخرج نصف دينار من العشرين وخمسة دراهم من المائتين ، إلا أن يكون عليه دين يساوى النصاب أو ينقصه فلا زكاة عليه . ومن خرج له من أرضه حب مقدار النصاب وجبت عليه الزكاة ، وهى العشر إن سقى بغـير آلة كالمطر ، أو نصف العشر إن سقى بآلة كالدواليب (ومنها الوابورات) . ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الأرض خراجية أو عشرية عند مالك ، فإن ذلك لا يسقط الزكاة ، كما أنها لا تسقط بالدين على مالك النصاب من الحبوب التى تخرجها الأرض . والله أعلم ؟

البيع نقدا وبأجل

وورد إدارة المجلة سؤال من أحد التجار يقول فيه :

إن البيع عند التجار يجرى على نوعين : فتارة يكون بالنقد ، وتارة يكون لأجل .
فأما البيع بالنقد فمعروف أن التاجر يحـدد له ثمنا بعد أن يضيف إليه ربحـا بسيطا مراعيا فيه عدة عوامل : منها مزاحمة أقرانه فى السوق ؛ ومنها أن يقبـل الناس على متجره وهم واثقون برخص أثمانه ؛ ومنها أن يتمكن من قضاء مصالحه بالنقد الذى يبيع به ، كسداد دين أو شراء بضائع بالنقد ، أو مصروفاته ومصروفات محله الخ الخ .

ومن أجل هذه العوامل وغيرها ربما ألجأته الضرورات الى أن يتنازل عن جزء من أرباحه أو أرباحه كلها ، بل ربما اضطر الى ترك شىء من رأس ماله حينما يكون محتاجا للنقد .

وتختلف هذه الحالة عند البيع بالأجل ، فعند بيعه بالأجل عليه أن يراعى عوامل عديدة : منها مقدرة المشترى على كيفية السداد إن كان لميعاد قصير أو ميعاد بعيد ؛ ومنها تقديره لمصروفات يضطر لصرفها كسفريات ومخاطبات ؛ ومنها انعدام بعض هذه الديون أو هلاك جزء منها .

فنى هـذه الحالة يضطر التاجر أن يعمل لمثل هذه الأحـوال حسابها ، ولا يمكن أن يبيع مبيعاته لأجل بثمن واحد ، فلـكل مشتر لأجل ظروف فى السداد كما أسلفنا .

فلهذا تجد أن البضاعة التى يكون ثمنها نقدا مائة قرش ربما يضطر الى بيعها لأجل بمائة وعشرة ، ولمشتر آخر بمائة وعشرين أو ثلاثين .

فما رأى الشرع الشريف فى هذا البيع ؟ وهل للربا دخل فى هذه الحالة ؟

الجواب

إن البيع فى جميع هـذه الصور التى ذكرت فى السؤال حلال لا شىء فيه ، فإن

العلماء صرحوا بأن الأجل له حصة من الثمن . فلا غرو أن تختلف الأثمان باختلاف الآجال نظرا الى تلك الأمور التى ذكرها السائل .

ولا يعقل فى الشريعة التى هى تنزيل من حكيم حميد ألاّ تراعى مصالح الناس فتكلفهم أن يبيعوا المؤجل كالمعجل ، أو تجعل ما قرب أجله مثل ما بعد أجله ، فليس فى ذلك شىء محرم ، إلا أن يبيع بثمن لأجل ، فإذا لم يدفع عند الأجل زيد فيه بحسب التأخير ، فهذا هو المحرم . وأما البيع بثمن متفق عليه من أول الأمر فلا شىء فيه كائنا ما كان . فعلى التجار ألا يغشوا ولا يحلفوا ، ولهم أن يبيعوا بما يشاءون ، بشرط أن يكون ذلك معروفا متفقا عليه عند البيع بحيث لا يزيد ولا ينقص .

أما إذا كان بحيث كلما تأخر عن الدفع زيد عليه شىء فى نظير ما يزاد على الأجل الذى حددوه عند البيع ، فذلك ربا محرم كما قلنا ، وهو موجب للعنة الله تعالى . فليحذر منه المسلم الذى يشفق على دينه ونفسه . والله يتولى هدى الجميع .

الحلف بأيمان المسلمين

وجاء من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

ما هو اللازم فى قول الشخص : وأيمان المسلمين لا أفعل كذا ثم فعل ، أو لأفعلن كذا ثم لم يفعل ؟

محمد شعبان رفاعى
خادم القرآن الكريم بالقوصية

الجواب

أيمان المسلمين من صيغ العموم : يتناول كل ما اعتيد الحلف به . فلذا قال المالكية فى قول الشخص : أيمان المسلمين تلزمنى : إنه يلزمه كل ما اعتيد الحلف به من المسلمين . والمعتاد الآن فى عرف مصر الحلف بالله وبالطلاق . وحينئذ فاللازم لمن حلف بذلك

كفارة يمين وبتٌّ من يملك عصمتها . ولا يلزمه مشى الى مكة ولا صيام ولا عتق كما كان فى العصور الأولى ، لعدم من يحلف بذلك الآن . هذا هو المشهور فى مذهب مالك ، وهو المفتى به عند المالكية .

وقد نقل بعض العلماء الخلاف فى هذا اللفظ فقال : وليس لمالك فى «أيمان المسلمين» كلام ، وإنما الخلاف فيه للمتأخرين : فقال الأبهرى : يلزمه الاستغفار فقط ، وقيل كفارة يمين ، وقيل ثلاث كفارات (نظرا للفظ الجمع الذى أقله ثلاثة) . وكل ذلك ما لم ينو طلاقا ، وإلا لزمه . وقيل بت من يملك عصمتها ، وعتق من يملك رقبته ، وصدقة بثلث ماله ، ومشى بحج ، وكفارة يمين ، وصوم سنة . وقد قدمنا لك ما هو المشهور من مذهب مالك ، وأنه يراعى ما اعتيد الحلف به فى كل بلد من البلدان وزمن من الأزمان ، وأن المعتاد الآن بمصر هو الحلف بالله وبالطلاق لا غير .

ومما يحسن التنبيه عليه أن الشافعية يقولون : إن من حلف بأيمان المسلمين لا يلزمه طلاق ، وإنما يلزمه كفارة يمين . وقد تقدم لك أن بعض المالكية يوافقونهم على ذلك . ومنهم من يقول : يستغفر الله ولا شىء عليه . ودين الله يسر ، والحمد لله على اختلاف المذاهب . والله أعلم .

حكم أكل الفسيخ

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يجوز أكل الفسيخ أم يحرم ؟

عبد ربه طه
مهندس كوبرى سنباره

الجواب

السمك لا شك فى طهارته ، ولكن الدم المسفوح نجس ، وهو السائل عن مقره فى حال الحياة بنحو الفصد أو بعد الموت ولو بعد التذكية الشرعية من سائر الحيوانات

ولو من السمك ، خلافا للقابسى ، وتبعه ابن العربى حيث قالا : إن الدم المسفوح من السمك طاهر .

فالسمك إذا ملح ووضع بعضه على بعض حتى صار فسيخا ولم يتحلل منه دم مسفوح ، يكون طاهرا على القولين يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من بقية الصفوف . أما إذا خرج منه دم مسفوح بواسطة الضغط عليه بثقل مثلا ، فقد صار نجسا لا يحل منه إلا الصف الأعلى (وليغسل قبل أكله) دون بقية الطبقات السفلى على القول المشهور الذى به الفتوى ، فإنها تنجست بمرور الدم عليها ، ولا يمكنك تطهيرها لامتزاجها به . ويحل أكل جميعه على ما لابن العربى والقابسى .

وعلى المشهور إن شك كونه من الصف الأعلى أو غيره أكل ، لأن الطعام لا يطرح بالشك . هذا حكم الفسيخ على مذهب مالك .

ومذهب الحنفية أن السمك لا دم له ، والسائل منه رطوبة . فإذا ملح حتى صار فسيخا ، يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من الصف الأسفل أم من بقية الصفوف ، مالم يخش ضرره ، وإلا حرم للضرر لا للتنجيس . ودين الله يسر .

وبعد : فالورع تركه على كل حال .

البيع بالزيادة الفاحشة

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يحرم البيع بالزيادة المتفاحشة على الثمن المعتاد أو يجوز ولو كانت تلك الزيادة فوق فائدة الربا بكثير ؟ عبد الوهاب حسنين وهدان — بتفهنا العزب

الجواب

متى علم البائع والمشترى قيمة السلعة التى تباع بها فى الأسواق ، وحصل الغبن بزيادة فى الثمن غير معتادة ، أو نقص فيه كذلك ، فالبيع صحيح ولا حرمة فيه ، ولو كان الربح فوق فائدة الربا بكثير . وما مثل هذا إلا كزارع وضع قليلا من الحب فى أرضه

فأنبتت عشرة من الأرادب ، فالطريق مشروع ، والكسب حلال ورزق ساقه الله الى التاجر والزارع .

أما إذا جهلت قيمة السلعة ، فإن استسلم أحدهما لصاحبه بأن أخبره بجهله وائتمنه فيما يخبره به وما يحدده من الثمن ، فقال البائع للمشترى : قيمتها فى السوق عشرون ، فاذا هى عشرة ؛ أو قال المشترى للبائع : قيمتها فى السوق عشرة ، فاذا هى عشرون فللمغبون الرد ، وعلى صاحبه المؤتمن الكذوب الحرمة . فإن لم يستسلم لصاحبه مع جهل القيمة ، بل باع أو اشترى على المغالبة والمشاحة فحصل الغبن المتفاحش ، فالبيع صحيح لا رد فيه ولا حرمة على المشهور .

وقال بعضهم : إن وصل الغبن الثلث فأكثر من قيمة السلعة ، فسخ البيع إن قام المغبون فى أثناء السنة من يوم البيع . وقد أفتى به ابن عرفة والمازرى والبرزلى . ومشى عليه ابن عاصم فى التحفة . لكن رده ابن رشد بقوله : إنه غير صحيح لحديث « لا يبع حاضر لباد ، دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » .

قال فى أقرب المسالك وشرحه : ولا رد بغبن ولو خالف العادة فى القلة أو الكثرة ، كأن يشترى ما يساوى درهما بعشرة أو عكسه ، إلا أن يستسلم أحد المتبايعين لصاحبه بأن يخبره بجهله ، كأن يقول المشترى : أنا لا أعلم قيمة هذه السلعة فبعنى كما تبيع الناس ، فقال البائع : هى فى العرف بعشرة ، فإذا هى بأقل . أو يقول البائع : أنا لا أعلم قيمتها فاشتر منى كما تشترى من الناس ، فقال : هى فى عرفهم بعشرة ، فإذا هى بأكثر ، فللمغبون الرد على المعتمد (بل باتفاق ، ولم يخالف فيه أحد) . وإنما الخلاف فى الغبن من غير استسلام ، إذا كان المغبون جاهلا . فإن كان عارفا فلا رجوع له اتفاقا ، فإن استسلم الجاهل فالرد متفق عليه . والله أعلم .

يوسف الدجوى المالكى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بدائع الطبيعة

فى الطبيعة التى أحكم صنعها الخالق القدير عجائب وبدائع لا يمكن أن يستوعبها الوصف ، فهى مَجْلى ليس له حد ، يجد فيها العقل مورده العذب ، والقلب مرتعه الخصب ، كما قال تعالى : «وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون» .

وقد آخذ الله الذين يمرون على آيات الله فلا يعيرونها نظرة ، ولا يجيلون فيها فكرة ، مع أنها خلقت وأبدع فيها لتنبيه النفوس من رقادها ، وإيقاظ المشاعر من سباتها ، وتغذية الأرواح بما تكشف عنه من أسرارها ، فقال تعالى : « وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » !

وهل بلغ آباؤنا الأولون من السلطان العامى والمدنى ما بلغوه ، إلا بفضل مثابرتهم على كشف أسرار الوجود ، وتبين قواه الخفية ، وعوامله الذاتية ، واستخدام ما وقفوا عليه فى تغذية أرواحهم وعقولهم ، وترقية علومهم وصنائعهم ؟ وهل وصلت أوروبا الى ما وصلت اليه إلا بترسمها خطواتهم ، وتتبعها لمناهجهم ؟

لهذه الاعتبارات أصبح حقا علينا أن نأتى على فذلكات فى فلسفة الطبيعة نضمنها ما يجب أن يكتشفه الناظرون فى بدائعها من الأسرار الباهرة والآيات البينة :

قال الأستاذ الفلكى الفرنسى الكبير (كاميل فلامريون) :

« الطبيعة ليست معروفة بقدر ما يجب أن تعرف ، ولذلك فهى ليست محبوبة بقدر ما يجب أن تحب . إن أكثر الناس لا يعرفونها حق المعرفة ، لأنهم يحكمون عليها من ناحية مظاهرها الساذجة ، إذ لا ينظرون إلا الى قشور أشجارها دون أن ينفذوا الى سر حياتها . وتراهم يتنسمون أريج الأزهار دون أن يدرسوا سر هذا الأريج الفياح فى صميم كئوسها العطرة . ويحُومون تحت النجوم الزهر دون أن يذكروا

المخلوقات العجيبة التى تعيش فى الكواكب الأخرى السابحة فى هـذا الفضاء . ونعيش جميعا على سطح الأرض دون أن نناجى الطبيعة ، ودون أن نعتبرها الينبوع الذى لا ينضب لكل متعة وكل هيام . إن قطعة صغيرة من العشب جديرة بأن تفيدنا من العلم أكثر ما يفيدنا تاريخ الانسانية وحروبها منذ أول رومولوس الى آخر قيصر . ولا يوجد فى جميع بدائع المدنية مظهر يقرب فى الروعة والجمال من مظهر زهرة فى بعض المروج . ولا يوجد فى جميع التوقيعات الموسيقية ، لأكبر أئمة فنونها ، قطعة غنائية يمكن أن تقارن بمطلع من مطالع الشمس . ولا يوجد بهو قد تناهى فى الإبداع فى جميع قصورنا الباريسية ، يضاهى روعة القبة الزرقاء فى ليلة حالية بالكواكب الزاهرة . فنحن معشر العمى بإرادتنا نحرم وجودنا من أكمل السعادات التى يمكن أن توجد فى هذه الدنيا بعدم تعويد أنفسنا أن نحيا حياة عقلية ، وأن نتعرف الكون البديع الذى نعيش فيه ، وأن نتمتع فى كل لحظة باستجلاء المشاهد المنوعة التى تتوالى حولنا فى مدى حياتنا » .

الى أن قال :

« كل حادث فى تاريخ الطبيعة ليس له قيمة خاصة فحسب ، ولكنه يزيدنا علما بوحدة الطبيعة أيضا ، وليس لكل وجهة نظر فى الطبيعة فائدة محدودة فقط ، ولكنها تعيننا أيضا على فهم حقائقها جملة ، فإن الحوادث الطبيعية مترابطة برباط محجوب عنا كترابط التوقيعات فى الأغنية الواحدة . فعلى المفكر أن يستمع الى صوت الأغنية الطبيعية العامة فى الوقت نفسه الذى يقدر فيه علل حوادثها الجزئية . والكون ليس بأداة كبيرة تعمل لوالبها فى عماية ، ولا هو بحركة تجرى على غير شعور منها ، ولكنه قصيدة مترابطة الأبيات ، بل هو حكمة عالية قائمة على أساس . والعلم الذى يقتصر على امتحان الناحية المادية لشىء من الأشياء ، يعتبر علما ناقصا يقتل روح المشاهدات بدل أن يحييها .

« فلا تتوهمن أن الشعر والعلم يتنافيان ، فإن الشعر يبعث روحا فى العلم ، والعلم يمد

الشعر بالإلهام والوحى . فلا نخافن من الجمع بين الحقائق الطبيعية ، والإلهامات الفنية الشعرية ، فإن الجمال هو الصورة الظاهرة للحقيقة ، ولا يسمح لأحد أن يمنعنا من الإعجاب به . وقد جرت العادة فى مجال الأدب أن الكتاب يكثرون القول على غير طائل ، ويظهر لى أن الأمر يجب أن يكون على عكس هذا ، فينبغى أن يكون لكل موضوع أدبى غرض تعليمى عام . فلماذا ينحط كاتب علمى من طبقة دالمبير ولا بلاس وأراغو وكلور برنار وبوانكاريه ، عن أى كاتب أدبى آخر ، وعن أى مصور خلق أو أى مؤرخ ؟ لقد اشتغل الأدب دهرا طويلا بالمخترعات الخيالية التى تتفاوت فى درجات السبك ، فلنكلفه اليوم أن يصف لنا مظاهر الكون الخليقة منا بالإعجاب على الدوام ».

بعد أن قدم الفيلسوف الفلكى هذه المقدمة كتب تحت عنوان (الحركة فى الطبيعة) يقول ما معناه :

« كنت جالسا الى ظل أشجار الصنوبر الفياح والأوكاليبتوس العطر التى يزدان بخضرتها النضرة الطرف الغربى من رأس (أنتيب) ، وكانت الطبيعة تظهر كأنها معجبة بنفسها فى هدوء شامل ترف فى حللها الربيعية ، وكانت الأمواج ساكنة ، والطيور صامتة ، والشمس مائلة للغروب ، والطبيعة كأنها فى تلك اللحظة تسبح فى حلم لذيذ . فى هذه اللحظة الرهيبة اخترقت مخى صورة واضحة للحركة الأرضية رأيت معها أنه رغما عن السكون الذى أنا فيه فإنى محمول من هذا الكوكب على سيارة تخترق الفضاء الرحب بسرعة محيرة للعقل هى ١٠٦٨٠٠ كيلو متر فى الساعة الواحدة .

«فتحولت فجأة صورة الهدوء الظاهرى الذى كنت فيه الى صورة أخرى من حركة هائلة لا يشعر بها أحد .

« نعم إن الكرة الأرضية التى نعيش عليها هى فى حقيقتها سيارة ثقلها ٥٩٥٧٩٣٠ كنتليون كيلو غرام ، وطول قطرها ١٢٧٤٢٢٠٠ متر ، تطوف بنا فى مدار حول الشمس

طوله ٩٣٦ مليون كيلو متر يضطرها أن تقطع يوميا ٢٥٦٣٠٠٠ كل يوم أى ١٠٦٨٠٠ كيلو متر فى الساعة ، أى ١٧٨٠ كيلو متر فى الدقيقة أى ٢٩٦٧٠ مترا فى الثانية .

«هذه حالتنا من سرعة الحركة فى أشد أوقاتنا هدوءا ، وقد أبدع الخالق فى تنظيم هذه الحركة ، حتى إن أدق حواسنا لا تحس بها ، مع أنها من هول السرعة بحيث وصفته لك .

«هذه الحركة الأرضية حول الشمس مدبرة بحيث لا تبعد الأرض عن الشمس فتضيع فى متاهات الفضاء فيهلك من عليها فى زمهرير ليس لشدته وصف ، ولا تقرب منها فتحترق بحرارتها وتستحيل الى بخار يضيع فى الجو .

«وليست هذه هى الحركة الوحيدة للأرض ، فإنها تتحرك على محورها فى كل يوم مرة ، ولها اثنتا عشرة حركة أخرى ، أشهرها حركة عامة تتحركها تبعا لدوران الشمس وتوابعها حول مركز أضخم منها ، وحظ الأرض من السرعة فى هذه الحركة يبلغ ٢٠ كيلو مترا فى الثانية الواحدة ، أو ١٢٠٠ كيلو متر فى الدقيقة ، أو ٧٢٠٠٠ فى الساعة ، وهذه المليارات من الكيلو مترات التى تقطعها جيلا بعد جيل لا تبلغ أن تساوى خطوة واحدة فى هذه اللانهاية الوجودية .

«الشمس نجم من النجوم تظهر لنا كبيرة وحارة ومضيئة ، لأننا أقرب إليها منا الى غيرها ، وكل نجم من نجوم السماء له حركة خاصة كحركة الشمس ، وشمسنا وأخواتها من مجموعة النجوم المتأثرة بحركة مشتركة يؤلفن حركة زوبعية هائلة لا يستطيع الشعر لها وصفا . وهذه المجموعة من الشموس التى لكل منها كواكب خاصة يطفن بها ، والشمس الكبرى التى يدرن حولها ، كلهن يدرن حول شمس أكبر منهن جميعا فى لا نهائية كونية لا يتصور العقل لها حدا .

« كل شىء فى هذا الكون يتحرك ، وليس فى وسعنا أن نحدد مقدار السرعة التى للأجرام بالضبط ، لأن مقاييسنا تعتمد على مراكز هى نفسها فى حالة حركة ، وبهذا

المقياس التقريبي نعرف نجوما تتحرك بسرعة مائة ومائتين وثلاثمائة وأربعمائة كيلو متر في الثانية ، فكل الأجرام السماوية التي تظهر لنا ثابتة وتؤلف مجموعات شمسية شبيهة بمجموعاتنا الشمسية، كلها مدفوعة في الفضاء الى كل جهة ، ولسنا نراها ثابتة إلا بسبب بعدها الشاسع عنا . فالنجوم السبعة للدب الأكبر تتباعد ببطء بعضها عن بعض ، وسواها من الثوابت يجري مجراها بسرعة مدهشة ، حتى إن الشمس المسماة (آلنا) تتجه الينا على خط مستقيم في سرعة لا يدركها العقل ، فجميع هذه الشموس ومجموعاتها من الكواكب والتوابع تتطاير في الفضاء في حالة زوبعية مؤلفة أجزاء جثمان ضخم عجيب حي بحياة مجهولة لنا في لا نهاية كونية ليست كرتنا الأرضية فيها كذرة لا تدرك ، ولكنها ذرة تحكمها قدرة حكيمة مدبرة ، فتجري شئونها على نظام مقرر لا تجد فيه خبطا ولا تشويشا .

«وكل شيء على أرضنا هذه في حالة حركة دائمة ، فبخار الماء يتصاعد من البحار في حالة غير مرئية ، فتتألف منه السحب في أعالي الجو، فتستحيل الى مطر مدرار يجري في الأنهار والجداول راوياً المروج والغياض ، ثم تردّ هذه الأنهار نفسها أكثر هذه المياه الى البحر الذي صدرت منه ، بعد أن تكون قد أخذت منه المزارعُ والغابات حاجتها . والهواء يتحرك أيضا فتجري تياراته الى كل جهة . ولا يستثنى من هذه الحركة حتى الخشب والمعادن والحديد ، فإن جواهرها الفردة المركبة لها تتحرك على الدوام حركات زوبعية شبيهة بحركات الأجرام العلوية . فبرج إيفل المبني في باريس من الحديد الصرف ، تجده في الليل بسبب حركات ذراته أطول منه في الصباح ، وفي الصيف أعلى منه في الشتاء . وترى الأشجار تتضاعف حجومها في الربيع ، وعشوش الأطيار ، تبني ثم تبيض وتحتضن بيضها ، ثم يفقس هذا البيض وينشق عن صغار تربها أمهاتها ، وتتفتح الأزهار ، وتطيب الثمار الخ . فالحركة الدائمة العامة لا تنقطع عن سطح الأرض لحظة واحدة من ليل أو نهار ، ونحن نشترك في هذه الحركة المستمرة ولا نشعر بذلك .

« أما كتلة الأرض نفسها فلا تستثنى من هذه القاعدة ، فهي في حركة ذرّية مستمرة ، وتفاعلاتها الباطنية متواصلة ، وقد تسبب أحيانا زلازل هائلة تهدم المدن وتبيد الأحياء .

« وأجسادنا نحن لا تخرج عن هذا النظام العام ، فحركات خلايانا لا تنقطع في ليل ولا في نهار ؛ ورئاتنا تستنشق الهواء وتزفره باستمرار ؛ وقلبنا يدق بلا فتور في اليقظة والمنام ؛ ودمنا يجرى في عروقنا لا يني ولا يستكين . وقد حسب الحاسبون أن قلبنا يخفق مائة ألف مرة في اليوم ، أو ٥٦ مليون دقة في العام ، أو ١٨٢٥ مليون خفقة في خمسين سنة . وقد يستمر خافقا مليارا أو مليارين أو ثلاثة مليارات ، فإذا وقف مات الانسان . فأى قدرة علوية ملأت هذه الدقاقة للوجود مرة واحدة لتبقى متحركة الى الأبد ؟

« كل ذرة من ذرات الهواء والماء والأخشاب والتراب والحديد ، وأى جسم كان ، كلها في حالة حركة مستمرة ، ولا توجد في هذا الوجود في حالة سكون ، فالحياة العاملة في هذا السكون لا يتصور العقل لها حدا .

« ففي الوجود وفي الطبيعة وفي الواقع وفي العدالة وفي النظام الحي للكائنات الناموسُ الأعلى واحد لا يتغير ، وهو ناموس العمل المستمر والترقى العام .

نقول : هذا ما كتبه الأستاذ (كاميل فلامريون) وأبدع فيه كل الإبداع ، وهو في تفصيله وإجماله لا يخرج عن قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . فالمسلمون مأمورون أن يتدبروا الخليقة ويتعرفوا ما أودع فيها من أسرار وما وضع فيها من أعلام ، ليزداد العقل قوة على فهم الحقائق ، والقلب تنورا بإبداع الخالق ، ويكون من أثر هذا الارتقاء الروحاني على الناس ارتقاؤهم في العلم ، وإتقانهم للصنائع ، وبلوغهم أقصى شأو في المدنية الفاضلة ؟

محمد فريد وجدى



الرفق بالحيوان

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » . رواهما البخارى .

الراحمون يرحمهم الرحمن ؛ ومن لا يرحم لا يرحم ؛ والرحمة من أجمل مظاهر الآثار التى ينتجها الإيمان بالله الرحمن الرحيم ؛ وما استجاب امرؤ رحمة الله بأقرب من رحمته هو بعباد الله . ولقد جاء من الترغيب فى التحلى بها والتنويه بشأن من اتصف بها ما يزيد القلوب الطاهرة والنفوس الزكية تعلقا بها . وحسبك من ذلك ثناؤه جل شأنه على أفضل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه بالرأفة والرحمة ، إذ يقول عز وجل فى أواخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ولو تأملت تلك الصفات لوجدتها كلها رحمة ، أو بسبب متين من الرحمة . فكونه من أنفسهم مستدع عادة لرأفته بهم وشفقته عليهم ؛ وكونه يعز عليه عنتهم وإرهاقهم لا ينشأ إلا من رحمته بهم ؛ وحرصه على منفعتهم ومصلحتهم هو من أكبر مظاهر رحمته بهم . والرأفة والرحمة إذا اختلفتا فى التحديد فبعضهما من بعض بسبب قريب .

والرحمة على ما فسروها ترجع الى رقة فى القلب تجعل المرء يحس بألم غيره ، ويشعر كأنه يحيق به ، وتجعله يسعى فى التخليص منه ، تخليصا لنفسه مما يشعر به . هى المعنى الذى يجده المرء من نفسه حين يرى ابنا له متألما ، أو عزيزا عليه يشكو من فاجعة . هى معنى وجدانى قد جعله الله فى القلوب الحية حتى فى قلوب العجماوات . واعتبر بما تراه من عطف الحيوانات الداجنة على أولادها ، بل من استماتة الوحوش المفترسة فى الذب عن أشبالها ، وجلب الخير والمير لها ، وإيثارها بهنى الطعام على أنفسها . اعتبر ذلك تجد أن الرحمة معنى أودع الله فى كل قلب جزءا منه ، قل أو كثر .

إلا أن الاستواء فى إحراز أصل الوصف بمقتضى الخلقة لا يغنى عن تتبع الأوصاف الصالحة بالتنمية ، كما تتبع الصفات السيئة بالتهذيب والتخليص من الشوائب المقوتة . وهذا ما يقصده المربون والمهذبون والمصلحون ، فهم لا يقصدون خلق معنى من العدم ، وإنما يقصدون الى غرائز كامنة فيظهرون الطيب منها ، أو أخلاق ضعيفة فيقوون واهنها . وأى مرب أعظم ومصلح أكبر ومهذب أقوى ممن يستند فى تهذيبه وإصلاحه وتربيته للأمر السماوى والوحى الإلهى الصادر من لدن حكيم عليم ، المتنزل من الله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ؟

لقد منّ الله تعالى على عباده إذ بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فكان مبعثه رحمة للعالمين ، وكانت شريعته خيرا عميما للناس أجمعين ، بل لم يقتصر خيرها وأثرها على طبقة المكلفين ، وإنما تناولت تلك الرحمةُ المهداة كلَّ ما على الأرض من نسمة ، بل كل ما على الأرض من مرافق الحياة ، فتعهدتها بالترفيه

والتهذيب ، والتنمية والإصلاح الذى يبلغ بها درجة الكمال اللائقة بها . وحسبك من هذا قوله تعالى : « إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يحسنه » وهذا بلا شك متناول لكلٍّ من عمل الدنيا وعمل الآخرة . وإتقان العمل وإحسانه فضيلة فى نفسها ، سواء أعاد على العامل من عمله أثر فى هذه الحياة العاجلة أم لم يعد .

ومن أكبر مظاهر الرحمة فى الشريعة السمحة الدعوةُ الى الرحمة والترغيب فيها بالنسبة لكل حيوان حساس يشعر بالألم والراحة ، ومنه ما نحن بصدد شرحه من الحديث فى هذه الكلمة .

وإن تعجب فعجبٌ زعم فئة من الجاهلين الذين قبعوا فى بيوتهم ، وقنعوا بما يصل عفوا الى آذانهم لا الى أذهانهم ، إذ يزعمون أن الرفق بالحيوان أثر من آثار الحضارة الحاضرة والمدنية الحديثة ، ولو كلفوا أنفسهم نظرة ناحية خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم لرأوه ينطق بالدعوة الى الرفق بالحيوان ، ومعاملته بالرحمة والحنان ، والوعد عليه من الله بالمغفرة والإحسان ، فضلا من الله ونعمة .

انظر الى هذا الحديث وما تضمنه من الترغيب فى هذا العمل الشريف ، إذ صور ذلك المحسن للكلب ، والكلب كثيرا ما يعد من أخس الحيوانات فصيلة ، وأحقرها فى النظر ، رغما عن المزايا التى غرسها الله فيه من نحو الصبر والوفاء واليقظة ، وحفظ حق العشرة وأمثالها .

نقول : قد صور الحديث الشريف هذا العمل بصورة تستلفت النظر ، وتحمل على المحاكاة ، فقال عليه السلام : « بينا رجل يمشى » . وبينا أو بينما ظرف يفيد أن ما جاء فى جوابه وقع فى أثناء ما جاء فى حيزه . فالمعنى أن هذا الذى سيتحدث عنه حصل فى أثناء مشى الرجل ، والماشى عادة حريص على اغتنام وقته والأخذ فيما هو فيه ، وقلما يعرج على شىء غير الغرض الذى يسعى فيه .

فإذا ضم الى هذا أن ذلك كان فى سفر ، وأن ذلك كان فى فلاة ، والمسافر لا يهمه إلا أمر نفسه ، وسالك الفلاة حريص على التخلص منها ، تبيَّن مقدار ما عانى ذلك الرجل فى إسداء مكرمته ، وإعمال عامل الرحمة التى أودعها الله فى قلبه .

ثم يقول بعد ذلك : « فاشتد عليه العطش » . وقد علمنا أنه لا نفس أكبر سآمة وأشد ضيقا من نفس الظمآن الذى اشتد به الظمأ ، فهو لا يكاد يُعنى بغير نفسه ، حتى إذا روى فإنه يبقى هنيهة تحت تأثير ذلك الانفعال النفسانى ، فلا يكاد يلتفت لغير نفسه . ثم يقول : « فنزل بئرا » . ومعناه أن البئر لم تكن من قرب الماء بحيث ينال ماءها من كان على حافتها . « ثم خرج » . فقد عانى فى سبيل الشرب عناء النزول والصعود . « فإذا هو بكلب يلهث » قد فاجأه حين خروجه وهو على حداثة عهد بتعبه منظرُ الكلب الذى يلهث ، فهو لا يزال فى سآمة التعب .

ولقد صورت حالة الكلب بأنه بلغ من أمره أنه يأكل التراب من العطش يتامس فيه رطوبة تطفئ أوار عطشه ، فنسى الرجل عناءه وتعبه فى الوصول الى الماء ، وذكر ألمه وظمأه الذى أصابه ، فتحركت فيه عاطفة الرحمة ، وليس معه من إناء يغترف له به ، ولا على البئر دلو يستقى بها ، وإلا ما كان قد كلف نفسه عناء النزول ليشرب هو . لم يثنه ذلك عن أن يحتال لإرواء تلك النفس العطشى — والكريم يحتال والدنىء عيال — فلم يجد سوى أن ينزل ثانيا وينزع خفه ويملأه ليسقى ذلك الكلب ، إذ قد تذكر ما كان هو فيه ، وقال : « لقد بلغ هذا مثل الذى كان بلغ بى من العطش » .

نعم : نزل ونزع خفه وملأه له ، ولكن أنى له بتوصيل الماء اليه وهو بحاجة الى أن يعمل فى الصعود كلتا يديه ، وليس معه حبل يربطه به ثم يشده بعد أن يصعد ؟ لم يثنه هذا عن أن يعمل حيلته ، ويكبد نفسه تعبا فى جوارحه ، يخلصه من ألم شديد فى قرارة نفسه : ألم الإحساس بالعطش الذى أصاب ذلك الكلب ، ولا يعرف الألم إلا من ذاقه . ولعلك تذكر هنا حكمة الصوم وأنه من بواعث الرحمة بالفقير الجائع .

نعم : لقد أعمل الرجل حيلته فملأ الخف وأمسكه بفيه . نعم : أمسكه بفيه ليسقى الكلب العطشان ، أمسكه بفيه حاملا له بأسنانه ، وأعمل يديه ورجليه فى الصعود مع أنه قد عرف ما سيعانيه قبل أن ينزل لأجل الكلب ، فقد سبق أن نزل لأجل نفسه ، فسقى الكلب من خفه حتى أرواه .

أفليس جديرا أن يشكر له الله ، وأن يغفر له الله ، وأن يرحمه الله ؟ إن هذا الرجل قد أجاب داعية شريفة فى نفسه ، وأنفذ حكم غريزة طاهرة ركبها الله فى سجاياه . وإنك إذا تخيلته وتخيلت حالته قرأت منها لا محالة أنه فعل الخير حبا فى الخير ، ونجى من الألم كراهية فى الألم .

ولو أنك جزمت بأن نفسه لم تكن متجهة إلا للخير فى ذاته بقطع النظر عما يترتب عليه من ثواب وأجر مما يدخله فى باب المعاملة والمقايضة بدل الإحسان والفضل ، أقول : لو جزمت بأن نفسيته هكذا لم تكن بمعزل عن الصواب والجادة . وأى عمل أشرف وأنبل وأفضل من عمل الخير حبا فى الخير ؟

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فشكر الله له فغفر له » من أجمل ما يبين لنا قيمة الثمرة التى جناها الرجل من وراء عمله ، فحسبك بقوله : فشكر الله له ، وإن الشكر من الله لأجر عظيم ، فهو ثناؤه على صاحبه وتنويهه بشأنه ، وذكر قصته ليتبعها غيره ، فيكون له فى اتباعها أجر ، وإن كان كل ذلك بتوفيق العليم الحكيم الرحمن الرحيم . وذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم لقصته فى معرض التعليم ليجعل عمله نبراسا يستضاء به ، من أقوى مظاهر شكر الله له . وقوله : فغفر له ، أمر مترتب ترتبا حتميا على شكر الله له ، فلم يكن الله ليشكر له حسن عمله ويبقى عليه وزر ما اقترف . فمعنى غفر الله له غفر له ما اقترف من إثم سابق . والفاء فى قوله فغفر له فاء العطف مع ترتيب ما يليها على ما قبله . وبعض شراح الحديث يجعل هذا العطف للتفسير ، أى شرح الشكر بأنه قد غفر له . ولعل الوجه الأول أدق .

« قالوا يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر » :

هذا منهم استيثاق لما فهموه من عموم هذا الحكم حتى يطبقوا أعمالهم عليه عن يقين، وليس ذلك من باب الاستغراب أو الاستنكار . ولا شك أن استيثاق المرء فى المعنى الذى فهمه من المقاصد النبيلة ليكون فى أمره على بينة . والبهائم ليس المراد منها مجرد الأنعام : الإبل والبقر والغنم ، ولا مجرد الدواب : الخيل والبغال والحمير ، بل المراد منها الحيوانات مطلقا التى انبهم عليها أمرها فلا تستطيع أن تبين عما فى نفسها ، فما من حيوان ذى كبد رطبة إلا وفى الإحسان اليه والرحمة به أجر . ورطوبة الكبد كناية عن الحياة ، إذ مظهر الحياة رطوبة الأكباد . وقد استثنى بعضهم من ذلك الحشرات الضارة كالحيات والعقارب والفأرة وأمثالها ، مما أمر بقتله أو مما أبيح قتله ، وأمر ذلك ظاهر ، فإن ما طلب قتله للتخلص من أذاه ، فى قتله تغليب سلامة الآدمى والحيوان النافع على تلك المهلكات المؤذيات .

ولقد توسع بعضهم فى معنى الرحمة وعموم حكمها لكل حيوان فقال حتى هذه الفواسق المؤذية مع الأمر بقتلها ينبغى ألا تقتل بالعطش ، وألا تقتل صبرا ، بل ينبغى إحسان قتلتها ، فلو أمكن الجمع بين إروائها وقتلها كان فى إروائها ثواب ، كما يقتل من استحق القتل من الآدميين بعد إروائه إن كان ظمآن ، وكما تسقى الشاة قبل ذبحها عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » . ولقد نهى عن المثلة فى القتل . ولقد جاء فى الحديث الثانى ذلك الوعيد الذى يتجلى لك بأشد مظاهره وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » . فقوله : دخلت النار فى هرة ، معناه بسبب هرة ، والهرة الحيوان المعروف ، وهى القطة . ودخولها فيها النار لتعذيبها لها بحبسها لها حتى ماتت جوعا فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض . وخشاش الأرض هوامها وحيواناتها الصغيرة .

فاذا كان هذا فى إيذاء الحيوان وفى إروائه ، فكيف يكون فى إيذاء الآدمى وأنعامه ؟ وإذا كان هـذا فى الحيوان الذى لا ينتظر منه نفع يعتد به ، وربما كان منه بعض الضرر كالخطف ونحوه ، فابالك بالحيوان الذى ينتظر منه النفع كالأنعام والدواب ؟ وإذا كان هذا فى مجرد الإرواء أو فى مجرد الحبس ، فكيف يكون الأجر فى تربية مواهب الحيوان حتى يبلغ مرتبة الانتفاع به على أكمل وجه ، وحتى ينتج من فصائله أكمل الأنواع وأقربها الى الانتفاع ؟ وكيف يكون الإثم فى التعذيب الفعلى بتحميل الشاق من الأثقال ، وتكليف الحيوان المرهقَ من الأعمال ؟ إن من ينظر الى بعض غلاظ القلوب وقد حملوا دوابهم عناء مرا ، وكلفوها من أمرها عسرا ، واستعانوا عليها بوسائل الضرب والتعذيب مما يجعل الناظر إليها متمثلا بقول القائل :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو عرف الكلام مكلمى

أقول : إن من ينظر الى هؤلاء وهول ما يُلقونه من العذاب على ما ملكت أيديهم يشعر من قرارة نفسه بالرحمة تتحرك فى جميع عروقه ، ويرى نفسه كأنه سينقض على ذلك القاسى بكل ما يمكنه من قسوة ، بل يعتقد أن الرحمة فى العالم هى سياج الحياة وعليها تقوم المصالح ، وبها يتم الترابط ويكمل التساند . كما أن من ينظر الى تلك الآثار الجميلة التى أنشأتها جمعية الرفق بالحيوان والحكومة الرشيدة : من أحواض للسقيا ، ومترقبين للأعمال المؤذية فيدفعونها ، ومن مستشفيات للحيوانات وعلاجات ناجعة وأدوية نافعة ، لا يسعه إلا أن يتنفس تنفس الارتياح ، ويبتسم ابتسامة السرور والاغتباط ، ويبتهل الى الله أن يزيد أولئك الراشدين توفيقا ، ويزيد مثل هذه الجمعيات توثيقا .

نسأل الله أن يمن علينا برحمته ، وأن يجعلنا من الراحمين الذين يرحمهم الرحمن ، إنه سميع مجيب ، والله المستعان .

ابراهيم الجبالى

شهادة عالم أجنبى للاسلام

يعرف كثير من قراء العربية الفيلسوف (أرنست رينان) ، ويعرفون كذلك أنه ألقى محاضرة فى جامعة (السوربون) بباريز اشتملت على كثير من الآراء الضالة فى الإسلام ، فنهض للرد عليه عالم فرنسى مثله هو المسيو (مسمر) ففند تلك الآراء تفنيدا علميا ، مستشهدا بالعقل والتاريخ ونصوص الاسلام نفسه ، وجعل هذا الرد موضوع محاضرة ألقاها على جمهور من الفرنسيين . وقد قام المسلم الغيور على أفندى يوسف المهندس بترجمة المحاضرتين ، ونحن قياما بحق هذا الدين نرى إضافة هذه الشهادة الحقة الى سائر الشهادات التى سجلناها هنا لعلماء أوربا . ولا نأخذ منها إلا فحوى القسم الذى هو أولى بالعناية ، وهو رده على ما زعمه (أرنست رينان) من أن دين الاسلام كان يصد عن العلم ، وأن ما وجد منه عند المسلمين كان بسبب خروجهم عن أصوله ، فقال العلامة (مسمر) ردا منه عليه فى هذا الموطن :

« من الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان محاضرته بيومين كان قد ألقى أحد كبار العلماء وهو (بياتره سنتا) أمام المحفل عينه محاضرة فى مآثر العرب فى علم الطب وقوانين الصحة نشرتها المجلة العلمية (رفو سيانتيفيك) اشتملت على ملخص استكشافات العرب فى علم الحياة . ولما كان الإلمام بهذا العلم يتوقف على معرفة الرياضيات والهيئة والطب والكيمياء فإن هذه المحاضرة تقفنا على حقيقة تمدن الاسلام فى مدة القرون المتوسطة . ولو كان المسيو رينان اطلع على هذه المحاضرة أو على ما كتبه المؤرخان المحققان (سديو) و (دروى) عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المعزوة الى العرب فى عصور كانت أوربا فيها تخوض فى حمأة الجهالة لما جرؤ المسيو رينان على نسبة هذه النهضة الخارقة للعادة لعلل واهية كالتى أتى بها .

« وإنى لشديد التعجب من رجل يعد فى علمائنا ومفكرينا يعزو هذا التمدن الذى عم العالم وكان الحكم فيه شوريا لطائفة قليلة من النساطرة والمجوس واليهود ، غامطا حق العرب ودينهم فى تشييد صروحه .

« ولو كان المسيو رينان صادقا فيما زعمه من أن الخلفاء العباسيين كانوا ملاحدة ، وأن مجالسهم كانت مؤلفة من أمثالهم ، لكانت مدنية المسلمين اقتصرت على بغداد ، فاذا هو قائل وقد عمت هذه المدنية دمشق والقاهرة ومراكش واسبانيا وبخارى وسمرقند وبروسة واستنبول ؟ فهل اتفق أن أولى الحل والعقد فيها كانوا ملاحدة كخلفاء العباسيين ؟

« الحق أن الاسلام جاء ليوفق بين فريق كبير من بنى آدم كان بعضهم يقاتل بعضا بسبب تخالفهم فى الأديان ، ولينشر العلم والحكمة فى أمم كانت قبل مجيئه تخبط فى دياجير الجهل .

« ولما كان كلامنا موجها لمن يعرف التاريخ ، فانقتصر على الإشارة الى حالة العالم فى القرن السادس من الميلاد ، ولنقل إن الجاهلية كانت متسلطة عليه ، وإن الأفراد القليلين من الأذكياء فى تلك الأثناء كانوا منهمكين فى المجادلات الدينية ، إذ كانت قد نشأت للنصوص الغامضة فى الدين المسيحى تفسيرات لا يقبلها العقل ، وصارت البلاد النصرانية ميدان حرب تلتطم فيه أمواج الدماء ، على حين كان الفسق والفجور يوقعان الفشل فى صفوف المجتمع ، وكان المتوحشون من قبائل الجوشيين والهونيين وغيرهم يجهزون على بقية ما كان أسسه الرومانيون من مدنية ، فلا جرم كان العالم فى هذا الوقت ، أى وقت ظهور محمد ، فى حاجة ماسة لمن ينقذها من الويلات التى كانت فيها .

« ومن شط فى هذا الموطن وزعم أن محمدا كان مدعيا للنبوة فقد زاد هذه المسألة تعقيدا بدون أن يحلها ، وأن يبين أسباب نجاحه فيما تصدى له .

« أما نحن فنقول : إن الرجال الذين تبقى أعمالهم خالدة بعدهم مدى العصور لا بد

أن يكونوا من أهل الفطنة الفائقة ، فينتدبوا لإصلاح العالم ، وعطفهم عليه يؤديهم الى إمتاعه بماهو فى حاجة اليه من الأصول ولا يستطيع هو الوصول اليه بتصوره العادى .

« إن التوحيد الذى هو أساس الدين الاسلامى كان السبب الأول فى نجاح دعوة محمد . وقد أصاب بعض المؤلفين فى قوله إن إعلان محمد هذا التوحيد فى عصر ملّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به ، وأفعله بالمقول ، حتى إنه ما كاد يفوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استنار بدعوته تلك العالم .

« أما زعم المسيو رينان بأن خلفاء بنى العباس كانوا شاكين فى دينهم ، واستناده فى توهين أصول الاسلام على هذا الزعم ، فهو باطل من أساسه .

« وفضل الدين الاسلامى يظهر مما فاه به محمد وهو يسقط الأصنام التى كانت حول الكعبة ، وهو : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وقوله : لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب» الخ .

« فهل يجوز لنا أن نجهل حقيقة الاسلام فى عهدنا هذا ، عهد المناقشات الحرة ، والآراء المستقلة ؟ فما كان أعلم (بونا برت) ذى القريحة الوقادة بمعنى الاسلام ، كما تدل عليه سيرته فى حكم مصر ، ويؤثر عنه أنه قال : «النصرانية وعيد ، والاسلام وعد » ! وما كان أذكى الكاتب (مراشى) الذى كان عائشا منذ قرنين حين مدح الاسلام بقوله: «إن الدين المحمدى حفظ ما كان معقولا من الدين المسيحى وزاد عليه كل ما هو موافق اقانون الطبيعة » · إلا أن هذا الكاتب لم يمكنه أن يعلل انتشار العلوم الذى صحب الاسلام منذ ظهوره ، مع أن هذه العلل ماثلة فى القرآن والحديث .

«فإن قيل إن ما فى القرآن والحديث يوجد عند المسلمين قولا لا فعلا ، قلنا : إنك لو سألت أى سائح عن هذا الأمر ، لأجابك بأنه ما من مسجد قديم إلا وفيه مكتب للتعليم ، وكان من عوائدهم أن يحتفلوا أول دخول الطفل الى المكتب فيولموا الولائم .

« ومن يتأمل آى القرآن يجد أن أساس الإسلام التوحيد ، وقطبيه التآخى

وتحسين شئون العالم تدريجيا بواسطة العلم . فهذه هى الأسباب الحقيقية لظهور الإسلام

وقد قَصَّر المسيو رينان عهد ارتفاع شأن المسلمين على خمسة قرون ، والحال أنها تزيد عن ذلك كثيرا ، فإنه بعد انحلال دولة بغـداد ودولة قرطبة رفع السلطان سليمان عظمة الاسلام الى الأوج ، فـكانت دولته تحكم على مائة وعشرين مليونا من النفوس يهابها جميع سكان الأرض ، لقوتها الحربية ، ونظاماتها الحـكومية ، ودرجتها فى المدنية . وما ابتدأ اضمحلال الدولة الإسلامية إلا بعـد حصار مدينة (فينا) سنة (١٦١٣) كما ابتدأ اضمحلال دولة اسبانيا بعد وقعة (ركوردا) .

« فى سنة (٧٤٣) من الميلاد أى بعد مائة وإحدى عشرة سنة من وفاة محمد كانت دولة الاسلام أكبر من دولة الاسكندر ، وبقدر مملـكة قيصر تقريبا . وفى سنة (١٥٦٦) عنـد وفاة السلطان سليمان كانت أكبر من مملـكة الرومانيين . فيتضح من هـذا أن عظمة دولة الاسلام مكثت نحو ألف سنة . وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول الى مثل هذه الدرجة العليا فى الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم ، يجزم بأن الاسلام كان الى ذلك العهد له السبق فى العلوم والمدنية .

« أما أسباب انحطاط الاسلام فى هذا الزمان فهى عدم اشتغال أهـله بالعلوم . فإذا كان فى الأرض أديان تمادى العلوم فإن الإسلام على العكس لا يقوى ولا يزدهر إلا بانتشار العلوم وتقدمها ، فإن بينه وبينها رابطة أكيدة . فعلى أى وجه يمكن عزو الانحطاط الحالى للمسلمين الى دينهم وهو كما رأيت كان السبب الوحيد فى رقيهم وعظمتهم ؟

« وبعد : فهل انحل الاسلام وبطل عمله ؟ لا يجيب على هـذا السؤال بالإثبات إلا من كان قليل العقل ، فإن الدين الذى تحتف به ملايين من النفوس تدافع عنه بأموالها وأرواحها ، لا يعقل أن يكون على شفا الزوال » .

ذكاء الحيوانات

إحدى معجزات القرآن العلمية

كان العلماء الأقدمون لا يعترفون للحيوانات بعقل ولا بذكاء من نوعى عقلنا وذكائنا ، فكانوا يظنونهم مجرد آلات حية تحس وتتألم ، ولكنها لا تجيل عقلا ، ولا تعمل روية ؛ وكان كل ما يشاهد منها من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الإلهام الذى فطروا عليه منذ نشأتهم .

بقيت هذه العقيدة العلمية الى عصور متأخرة ، فكان الفيلسوف (ديكارت) المشهور يصفهم بأنهم مجرد صور آلية حية ، وقد اشتهر عنه هذا التعريف وتناقله عنه الباحثون ، ولم يعترف للحيوان المسكين بعقل وتفكير نسبيين إلا فى القرن الثامن والتاسع عشر ، حيث استبحرت العلوم ، وعمت البحوث كل شىء حتى حياة الحيوانات ، فرأى العلماء أن بجانب الإلهام الذى فطرهم الله عليه عقلا خاصاً بهم يحيلونه فى ابتكار الأحابيل ، وفى تدبير الوسائل التى تدعو اليها الحاجة الطارئة . ومن هذا العهد كثر البحث فى عقل الحيوانات وذكائهم ، فجمع العلماء من ذلك حوادث مدهشة لا يكاد يصدقها مطالعها .

فكانت هذه الأوبة من العلم الى إنصاف الحيوانات إحدى معجزات القرآن ، فإنه قد وصف جماعاتها بالأمم ، وعزى الى بعضها عقلا وتفكيرا وكلاما ، فقال تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » . فهذا النص الكريم على إيجازه قد جمع كل ما أثبته العلم فى هذا المجال الى اليوم ، فقد دل العلم على أن جماعات الحيوان أمم يربط آحادها رباط اجتماعى متين العرا ، وأن منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل

والنحل ، وغيرها من الحيوانات التى تعيش مجتمعة ، وأن لكل جماعة منها لغة يتفاهم آحادها بها ، حتى إن بعض العلماء عاشر القردة سنين فى غاباتها وجمع من لهجتها قاموسا، وما كان أحد يتصور ذلك قبل القرن التاسع عشر ، مع أن القرآن الكريم قد سبق العلم الى هذه الحقيقة بنحو ألف وثلاثمائة سنة ، فقال تعالى حاكيا عن سليمان قوله : « عُلمنا منطق الطير » ونسب للنمل كلاما فقال تعالى : « قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

وإنا فى هذه العجالة نريد أن نتحف القراء ببعض مادونه العلماء الباحثون فى طباع الحيوانات من دلائل التعقل والتفكير عندهم :

شوهد فى شهر أبريل من سنة ١٨٦٥ بباريس أن سائحا تجاريا يسكن بشارع (فرنك بورجوا) كان يسير على شاطئ نهر السين فى نحو منتصف الساعة التاسعة مساء إذ سمع نباح استغاثة من كلب قريب من تلك الجهة ، فلم يتمالك نفسه من الاتجاه نحو ذلك الصوت ، فما انتهى الى المكان الذى صدر منه ذلك النباح حتى رأى كلبا أسود يندفع اليه ، فلما قرب منه أخذ يجذبه من طرف معطفه ويقوده نحو الساحل ، فانقاد له ذلك السائح وكان اسمه المسيو هولو ، فأبصر بحصان ممدد فى ضحضاح من الماء ، فلما تأمله وجد أن تحته رجلا يحاول أن يسحب فخذه من تحت الحصان فلا يستطيع الى ذلك سبيلا ، وكان يرفع رأسه فوق الماء بين آونة وأخرى كيلا يموت مختنقا ، وما كان ليتمكن من ذلك إلا لحظات قصيرة بسبب موضعه تحت ضغط الحصان عليه . فأسرع المسيو هولو الى إعانة الحصان على الوقوف ، وبذلك تم للرجل أن ينجو من الاختناق . وكان السبب فيما حدث أن ذلك الرجل وهو سائس ذلك الحصان كان يريد أن يغسله فى هذا الموضع ، وكان الحيوان قد أنهك قواه التعب ففضل أن يستلقى على جنبه ، فوقع على ساق سائسه ، ولولا كلبه الأسود الذى كان يصحبه لبقى هنالك حتى يهلك اختناقا .

وشوهد فى بلجيكا فى شهر يناير من سنة ١٨٦٧ أن طفلا عمره ست سنين كان

فى خلاء (فورشوتن) بقرب (بريدا) فانغمر فى ثلج كثيف نزل من السماء فلم يستطع حراكا، واشتد أهله فى البحث عنه هنالك فلم يهتدوا إليه، فمكث ست ساعات مدفونا فى ذلك الجليد حتى قيض الله له كلب الأسرة فاندفع يبحث معهم عن سيده الصغير حتى عثر عليه بسرعة مدهشة، فأخذ يصيح بشدة وهو ينبش الثلج بمخالبه ليظهر وجه الطفل، وأقبل أهله نحو الصوت فوجدوا أن كلبهم قد اهتدى إليه قبلهم، فأنقذوه وهو بين حى وميت، وأسرعوا الى تدفئته، والعناية به، حتى تماثل مما كان ألم به. فكان الكلب سبب حياته.

وقد اتخذ رهبان جبل سان برنار كلابا ترود تلك الجهات الثلجية، فإذا عثرت على رجل قد سقط وغطاه الثلج أتت فأخبرت الرهبان، فيجرى أمامهم الكلب ويدلهم على مكانه فيستنقذونه من الزمهرير.

ونقلت جريدة (اللوستراند لوندن نيوز) فى عددها الصادر فى ٨ يونيو من سنة ١٨٦٧ أن طفلا فى الحادية عشرة يدعى (هار جريفس) كان يلعب على شاطئ قناة (كولدون) فزلقت رجله ووقع فى الماء فهوى الى أسفله ثم طفا، فاتفق أن المستر (اليجاه بولتون) كان مارا مع كلبه فى تلك اللحظة، فألقى الكلب بنفسه فى الماء وأمسك بالناحية الخلفية من صدر الطفل بأسنانه، وسبح به على هذه الحالة حتى أوصله الى الساحل، ولبث بجانبه حتى عاد الى صوابه، وشرع يمشى ليعود الى داره، فتبعه الكلب يحرسه حتى وصل الى مأمنه، وهنالك أظهر الكلب دلائل الفرح والسرور، ثم تركه وعاد الى سيده.

وكتب الجراح الفرنسى المشهور (بيبراك) أنه وجد يوما قريبا من باب داره كلبا جميلا جدا مصابا بتكسر فى أصابعه، وقد برح به الألم. فأمر بإدخاله الى الدار واعتنى بأصابعه لجبر عظامها، وما زال به حتى شفى مما كان قد ألم به. وكان الكلب أثناء العناية به يظهر أكبر إخلاص نحو منقذه، حتى ظن الجراح أنه لن يبرح داره قط.

ولكن كان للكلب سيد غيره ، ومن طباع نوعه أنه لا ينسى صاحبه الأول ، ولا يبت حبل صلته به مهما كانت الأحوال ، فتفقده الطبيب يوما فلم يجده ، وانتظره فلم يعد ، فأسف عليه جدا ، وساء ظنه فى إخلاصه ، وعده ناكرا للجميل . فلما انقضى من يوم غيبته نحو خمسة أو ستة أشهر صادفه الدكتور على عتبة داره ، فأظهر له الكلب من دلائل العطف والشكر ما لا يوصف ، وبالغ فى إظهار الفرح برؤيته ، فظن الجراح بأنه كان قد انقطع عنه لسبب ، فدعاه ليدخل الى داره ، ولكن الكلب بدل أن يلبى دعوته أخذ يتملقه بلحس يده تارة ، ويستدعيه لاتباعه بجذب طرف ثوبه تارة أخرى ، مظهرا له أنه يريد أن يطلعه على شيء . فانقاد الجراح له فأوصله الى كلبة مطروحة على مقربة من الدار ، تشكو مثل ما كان يشكوه من تكسر الأصابع ، فعلم الدكتور عند ذلك أن الكلب قادها الى هنالك ليفعل منقذه معها مثل ما فعله معه من معالجة أصابعه ، فكان هذا سببا لدهش الجراح وتعجبه ، ودليلا على ذكاء هذا الحيوان وتعقله .

هذه أمثلة قليلة من ذكاء الكلب . ويروى عن كثير من الحيوانات أمثالها مما غصت به الكتب ، وشحنت المجلات ، وقد جاءت كلها هادمة لآراء الأقدمين فى تجرد الحيوانات من العقل والتفكير النسبى ، وموافقة لما قرره القرآن الكريم فى حقها من أنها أمم ، ومن نسبة الكلام والتدبير لبعضها . ومن العجيب أن مسألة حشرها قد أصبحت اليوم موضوعا للبحث لدى العلماء الذين يبحثون فى خصائص النفس ، وتقرر لديهم أن أرواحها تبقى بعد موت أجسادها ، ولا يزال البحث متواصلا فى أمرها الى اليوم . فلا جدال فى أن آية الحيوانات هذه من معجزات الاسلام العلمية التى تضاف الى سائر معجزاته التى تجلت فى عصر العلم ؟

محمد فريد وجدى

الاداب والعلوم والفنون

في ظل الاسلام (١)

كان الشعر بجميع نواحيه مزدهرا فى كافة البلاد الاسلامية قبل بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فلما جاء القرآن وتناول النواحى الاجتماعية والخلقية بالتهذيب ، ابتدأ أثره يظهر فى الأدب العربى وخاصة فى الشعر ، فدخله من هذه الوجوه تحسينات ظاهرة ، فزاد طلاوة وسهولة ، وخلص مماينافى الآداب الاجتماعية والتقاليدالاسلامية .

وفى زمن خلفاء الدولة العباسية ذاع الشعر ذيوعا واسعا وشمل جميع نواحى الحياة المتعددة ، وبه تحررت الفكرة واتسعت دائرة الأدب والعلوم والفنون ، حتى أصبحت بغداد حاضرة ملكهم مبعث النور الذى تستضيء به كافة أرجاء العالم المتمدين .

وقد اتجهت هذه العلوم والفنون بفضل تعهد أمراء الدولة العباسية الى أنبل الغايات وأشرف الأغراض ، فالتهبت لها مشاعر الأمة وقويت حميتها ، وتضافرت جميع القوى العقلية على رفعة شأنها ، والنهوض بالثقافة الى حد بهر دول الغرب ، وبذ حضارة الاغريق والدولة البيزنطية .

سطع نور هذه الآداب والفنون بأجلى مظاهره فى عصر الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد ، الذى جعل أكبر همه إحياء النهضة الفكرية وتشجيع القائمين بها وحفز الهمم على تغذيتها ، حتى امتاز من بين خلفاء الأمم الاسلامية بهذه الناحية امتيازا أظهره ظهورا بارزا فى تاريخ الثقافة العربية ، فقد شهد له كبار المؤرخين أمثال فريد ريخ ديليتش المؤرخ الألمانى الكبير بأنه اهتم اهتماما فائقا بعلوم الاغريق

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « محمد والعالم الاسلامى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ « هرمان زيجفريدريم »

وفلاسفتهم وشعرائهم ، فأمر بإحضار كتبهم من القسطنطينية لنقلها الى العربية ، وبذلك أبرز الى الذهن العربى فلسفة أرسطو وأفلاطون سائغة . وقد قام بترجمة هذه المؤلفات الكندى فيلسوف العرب الذى عرف بأبحاثه فى العلوم الطبيعية والأجرام السماوية .

عنى المأمون بعلوم الفلك والرياضة التى نقلت الى العربية عن الهنود عناية خاصة لارتباطها الوثيق بالعلوم الاغريقية ، فزادها توسعا وتحسينا ، فعهد الى الخوارزمى ترجمة أهم المصنفات الهندية فى علم الفلك الى اللغة العربية ، كما عهد إليه بوضع أول المؤلفات الرياضية فى علم الجبر . ولم يقل اهتمام المأمون بالتطبيقات الفلكية عن اهتمامه بالعلوم النظرية ، فأدخل على خريطة بطليموس الفلكية تعديلات كانت وليدة ملاحظاته الفلكية فى دمشق وبغداد ، كما أنه تمكن من قياس درجة من خطوط الطول .

وقد جمع فى دور كتبه ذخائر عديدة من الثقافة الاسلامية والغربية ، وشيد المستشفيات ودور العجزة والملاجئ والمدارس والجامعات . وسيبقى اسم هذا الخليفة العالم أبد الدهر ولا يمحى أثره من التاريخ .

ولم تكن نهضة الأدب العربى قاصرة على الأشعار الغنائية والحكمية أو النثر المسجوع فحسب ، بل إن الأدب القصصى كان له مركز ممتاز فى تاريخ الأدب على العموم . ولعل أحسن مثل يستدل منه على ذلك حكايات ألف ليلة وليلة المعروفة والذائعة فى جميع أنحاء العالم ، وبها وصف فائق وتحليل دقيق للحياة بكل مشاعرها ونواحيها المتعددة فى عصر الخلفاء ، وهى تمتاز بأسلوب شيق لم نعهده فى حكايات أو قصص أخرى .

ولم يقل شأن الشعر عند الفرس عنه فى بلاد العرب ، بل قد بذه فى نواح متعددة . ولقد قام كثير من علماء الأوروبيين المستشرقين لنقله الى اللغات الأجنبية . وأشعر شعراء الفرس القصصيين الفردوسى ، ويعتبر كتابه المسمى « كتاب الملوك » أهم ما وضع بالأسلوب المدرسى القديم « كلاسيك » . وجدير بالذكر أيضا فى هذا المقام من شعراء

الفرس السعدى مؤلف كتاب الأخلاق المسمى « حديقة الورد » وهو من أهم المؤلفات النثرية تتخلله أشعار رائعة الجمال . وكذلك حافظ ، وكان يطلق عليه منشد شيراز ، ويعد فى مقدمة ناظمى الأشعار الغنائية فى العالم ، وقد اعترف بفضله فطاحل شعراء الغرب مثل جوتيه ، وقد نقلت منظومات عديدة غاية فى الطلاوة وغزارة المعنى من وضعه الى اللغات الأجنبية ، ولاقت استحسانا فائقا وذيوعا كبيرا . وممن يستحقون الذكر فى هذه العجالة من شعراء الفرس أيضا عمر الخيام ، ويعد بحق أول الشعراء الحكميين الناقدين الساخرين من الحياة ، وولد فى مدينة نيسابور عام ١٠١٧ ، وعاش فى ظل السلاطين السلجوقيين مشمولا برعايتهم وحسن تقديرهم . وقد ظل هذا الشاعر زمنا طويلا مجهولا فى أوربا حتى قام فريد ريخ روزن سفير الألمان فى المغرب الأقصى وأحد كبار المشتغلين بشئون الشرق والشرقيين بترجمته ترجمة لاقت نجاحا كبيرا واهتماما عظيما جعله فى مقدمة شعراء الشرق وحكمائه .

أما من جهة مآثر الفارسيين الأخرى على الأدب فإننا يجب أن لا نغفل ذكر ماخلدوه فى العالم الروائى والقصصى مما كان ذخيرة يانعة — حتى فى عصرنا الحالى — لكثير من مصنفى الغرب ، ناهيك باشتغالهم بتدوين التاريخ ، فقد اهتموا به أيما اهتمام وجعلوا منه دائرة واسعة النطاق للأبحاث الفنية القيمة .

وأما القصة التمثيلية فكان اهتمامهم بها قليلا لدرجة أنهم لم يخلدوا فيها أثرا يذكر فى الأدب .

وأما العثمانيون فلم يظهر بينهم فى مضمار الأدب والشعر من يعد مبتكرا ، بل كانت الغالبية العظمى من شعرائهم مقلدين لمن سبقهم من شعراء العربية أو الفارسية . ولعل ذلك هو السبب فى وفرة عدد شعرائهم ، إذ أن التقليد لا يتطلب مجهود الابتكار . وقد أحصى « هامربور جستال » أحد علماء الألمان المستشرقين شعراء العثمانيين بما لا يقل عن ٢٢٠٠ شاعر . واشتهر من بينهم « باكى » المتوفى سنة ١٦٠٠ ، وقد أجمع العثمانيون

على أنه كبير شعرائهم الغنائيين، ومحمود لمعى ، وهو معاصر للسلطان سليمان الأكبر ، وله تآليف نثرية عديدة وأربعة منظومات قصصية كبيرة ، وأخيرا الشاعر المجيد فضلى ، وله من المنظومات الشعرية القصيدة المعروفة باسم « الورد والبلبل » وكلها مجاز وكنايات بليغة .

ولقد ورث الغرب عن الشرق كثيرا مما وضعه مؤلفوهم فى الأدب الشعبى من حكايات وقصص ، فنقله بحذافيره أو انتحل منه أو نسج على منواله ، وأمثلة ذلك كثيرة لا تخفى على مطلع .

وأما من جهة اهتمام العرب بالعلوم البحتة فإن لهم عليها أيادى بيضاء ، تشهد لهم بذلك مؤلفاتهم فى التاريخ وعلم تقويم البلدان والقانون والعقائد والطب والعلوم اللغوية وغيرها مما لا يقع تحت حصر — شهادة لا يستطيع إنكارها جاحد .

وأما من جهة الفنون الاسلامية فإن من أهم ما اشتغل القائمون بها هو بناية المساجد فجعلوا منها آيات باهرة الجمال ، وهى إما عبارة عن صحون متسعة مربعة الزوايا عارية السقوف ومحاطة بصفوف من الأعمدة ذات الأقواس ، وإما مبان تذكارية ذات قباب فخمة ، وأهم ما تمتاز به المساجد المآذن الرشيقة التى تكسب البلاد الاسلامية روعة وبهاء خاصا ، وكذلك القباب والأقواس التى تعلو الأعمدة والأبواب والمنافذ ، فقد وصلت الفنون الاسلامية بها الى درجات باهرة فى الجمال . ومن هذه الأقواس ما يزيد محيطه عن نصف الدائرة ، فيزداد روعة ويسجل إقداما وجرأة نادرة فى فن هندسة العمارة ، وأكثر ما نجد هذا الشكل فى مبانى الأندلس ، ويليه فى العظمة والرونق الأقواس المدببة المكونة من قوسين ، ولعل هذا الشكل الأخير مأخوذ عن المبانى الهندية .

ولقد اعتنت الفنون الاسلامية بوجه خاص بتنسيق الفسحات الواسعة دون الاهتمام كثيرا بزينة الوجهات الخارجية ، بسبب تحريم الاسلام لتصوير الأجسام ، إلا أن جل العناية كان يبذل عادة فى الزخرفة الداخلية فى المساجد والمدارس والقصور

والحمامات والمقابر ، وإنها حقا لما يثير إعجاب كبار رجال فن العمارة حتى اليوم تلك الزخارف والنقوش العربية الجميلة الملأى بالخطوط والمنحنيات التى تمثل أشكالا هندسية مختلفة يكاد يعجز عن أمثالها كبار الفنيين اليوم بدون الالتجاء الى أدق النماذج والآلات الحديثة .

ولقد أظهر الفن الاسلامى فى تلك الأشكال الزخرفية ابتكارات مختلفة لا تقع تحت حصر أو بيان ، كما يتضح لنا ذلك من «بهو السفراء» وهو إحدى قاعات قصر الحمراء المشهور بمدينة غرناطة ، ففيه من أنواع الزخارف المنقوشة على الجدار ما لا يقل عن مائة وخمسين شكلا مختلفا ملونة جميعها بألوان هى غاية الانسجام ومنتهى البهاء والرونق .

وفى الواقع لا يمكن للانسان أن يتخيل منظرا يأخذ بصفائه وروعته بمجامع القلوب من بيت عربى جميل بفسحته الداخلية الرحبة وأروقته ذات الأعمدة التى تعلوها الأقواس والقباب ويتردد خلالها صوت خرير المياه المنبثق من النافورات الهادئة ، وبه من زخرف المفروشات ما يلذ للعين رؤيته ، ويطيب للنفس الإخلاد اليه .

وأما الفنون التطبيقية فانها أينعت فى ظل الاسلام وتقدمت فى عصر خلفاء الدولة العباسية تقدما بعيد المدى فى جميع فروع الحرف والصناعات اليدوية ، مثل رفو الثياب ، وزخرفة الكتب وتجميلها ، وخرط الخشب والعاج ، والتطعيم بالمعادن فى صناعة الأسلحة أو المنسوجات ، إذ كان نصيب الفن الاسلامى فيها من الفوز ما فاق نجاحه فى فن العمارة ، فكانت مستحدثات الغزل والنسيج بأشكالها المتعددة فى بلاد الفرس والصناعات الخزفية والزجاجية بألوانها البهيجة فى مصر والأوانى النحاسية المطعمة المصنوعة فى الموصل وأشغال الذهب والفضة الدمشقية والأوانى الصينية المنقوشة بالألوان والرسوم الطبيعية من صناعة آسيا الصغرى ، كانت كل هذه السلع تستلفت الأنظار وتسترعى اهتمام التجار والغواة منذ أكثر من ألف عام فى أسواق المدن الاسلامية المزدهرة ، ولا تزال حتى اليوم وقفا على الصناع المسلمين المهرة لا يجاريهم فيها غيرهم من الأمم ، ولايزال الغرب ينظر الى تلك القطع الفنية نظرة الإعجاب والتقدير .

حول كرية الارض والازهر

أرسل أحد المسلمين بأمريكا يطلب الرأى فيما نشرته مجلة الباثفيندر الأمريكية خاصا بهذا الموضوع وهو قولها : « بالرغم من أن كولمبس قد أثبت سنة ١٤٩٢ م أن الأرض مستديرة فإن إحدى جامعات مصر الكبرى رفضت الاعتراف بهذه الحقيقة الى وقت حديث ، أى أن جامعة الأزهر بالقاهرة كانت تلقن طلبتها لأكثر من تسعمائة سنة أن الأرض مسطحة ، ولكن هذا المركز الفكرى السياسى للعالم الاسلامى شعر أخيرا بسلطان المدنية والعلم الحديث فأصبح يتلقن اليوم الملايين من أتباع محمد ومن خريجى تلك الجامعة أن الأرض مستديرة » .

ونحن نقول : ليست هذه أول مرة يُرمَى فيها الأزهر بالتهم الباطلة من قِبل أولئك الكتاب الذين لم يكلفوا أنفسهم أن ينظروا ولو نظرة سطحية الى موضوع خطير يريدون الكتابة فيه ، إن لم يكن خدمة للحقيقة فليكن احتراما لقرائهم، وتحاميا من التغرير بهم ، وتلقينهم الحقائق على غير وجهها . ولطالما حاول الكثير من أولئك الكتاب أن ينالوا من الأزهر ثغرة يطعنون فيها ، فكانت سهامهم ترد إليهم خائبة غير صائبة .

إن الأزهر منذ وجد ، شمس تشع منها أنوار الهداية ، وتنبعث منه الثقافة الصحيحة من مختلف العلوم : أدبية وفلسفية واجتماعية وغيرها .

نعم : إن مهمته الأولى هى تخريج علماء دينيين موثوق بهم فى العلوم الدينية ، ومتفقهين فى الدين ، ولكنه مع هذا يزودهم بالعلوم العمرانية والاجتماعية ، حتى يكونوا على بينة تامة من شئون عالمهم الذى فيه يعيشون ، وليعينهم على إتقان علومهم الدينية الإتقان الكامل ، إذ كانت مرتبطة بالعلوم الكونية أتم ارتباط .

فهم من أجـل ذلك يتلقون علوم التـاريخ والجغرافيا والمنطق، وعلم النفس والأخلاق والتربية والفلسفة والرياضة والتاريخ الطبيعي والطبيعة والـكيمياء، وذلك زيادة عما يدرسونه من علوم الدين واللغة العربية وآدابها .

وكأن أولئك الـكتاب راعتهم النهضة الأزهرية وما أحـرزه الأزهر من التقـدم والترقي العظيم في عهد حضرة صاحب الجـلالة مولانا الملك فؤاد الأول، الذي وجـه من عنايته نحو هذه الجامعة التاريخية الـكبرى قسطا عظيما على تطلع منها واستعداد للنهوض، فـكانت شجى في حلقهم، فأرادوا أن يحطوا من قيمته بما يفترونه عليه في ماضيه، ولو أنهم عُنوا بتعرف علوم الأزهر في ماضيه وحاضره وما يدرس فيه من كتب قيمة، وطريقتهم في دراستهم : من تمحيص نظريات، ومناقشة أدلة حتى يصلوا بها الى منتهى البحث العميق، لما كانت منهم تلك المفتريات .

إن أهم مايدرس من العلوم في الجامعة الأزهرية منذ الأجيال الماضية هو العلوم الدينية، وبخاصة علم أصول الدين : التوحيد، وعلم الفقه، والتفسير . وإنك لتجد في كل علم منها ما يعطيك صورة واضحة لما يتعلمه الأزهريون في هذا الموضوع . وسنورد لك في هـذا المقال جملة من مسائل أهم العلوم التي تدرس في الأزهر من أجيال قديمة حتى تعرف منها رأي الأزهر من قديم في هذه المسائل التي يفترون فيها على الأزهر ما يفترون .

فهاك عبارة المواقف للإمام عضد الدين من علماء القرن الثامن الهجري أي قبل كلومب بقرن أو يزيد، وشرحها للسيد الشريف الجرجاني، وهي من أمهات الـكتب المعني بدراستها في الأزهر قديما وحديثا، يقول في الاستدلال على كرية الأرض مانصه :

« أما في الطول أي ما بين المشرق والمغرب فلأن البلاد كلما كانت أقرب الى الغرب كان طلوع الشمس عليها متأخرا بنسبة واحدة، ولا يعقل ذلك إلا في الـكرة . فإذا رصدنا خسوفا معينا في وقت من الليل وجدناه في بلاد شرقية مثلا آخر الليل،

وفى بلاد غربية عنها بمسافة معينة كألف ميل قبله بساعة ، وفى بلاد غربية عنها بتلك المسافة بعينها قبل الأول بساعتين وقبل الثانى بساعة ، وعلى هذا القياس ، فعلمنا أن طلوعها فى الغربية متأخر بنسبة واحدة . وأما العرض فلأن السالك فى الشمال كلما أوغل فيه ازداد القطب ارتفاعا عليه حتى يصير بحيث يراه قريبامن سمت رأسه ، وكذلك تظهر له الكواكب الشمالية ، وتختفى الجنوبية . والسالك فى الجنوب بالعكس » اه .

فهل جد فى إثبات كرية الأرض ما هو أوضح دلالة من هذا ؟ وليست هذه عبارة المواقف وحدها ، بل مثلها عبارات الكثير من الكتب التى على منوالها فى هذا العلم مما يتداوله الأزهريون دراسة ومراجعة . وأكثر من هذا أنهم يقررون نظرية دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وأن مرجع الليل والنهار للحركة الأولى ، ومرجع اختلاف الفصول للحركة الثانية ، وينسبون ذلك للحكماء الأقدمين ويناقشونه ويجيبون عنه بما لا يزيد عنه ما يقرر الآن بشىء ، وذلك ما يدل على جهل بعض المستشرقين الذين يزعمون أن نظرية دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس حديثة فى هذا العلم . نقول هذا لا لنقرر النظرية فى نفسها ، وإنما لنريك أن هذا كان معروفا موضعا للبحث عند الأزهريين ، شأن النظريات العلمية ، فيختارون منها بعد التمحيص ما يختارون حسبما يرشدهم الدليل .

وترى مثل ذلك فى علم الفقه ، فهاك استدلال ابن حزم وهو من علماء القرن الخامس الهجرى على كريتها بما يرجع الى الأحكام الفقهية فى العبادات ، إذ يقول ما ملخصه :

قد أجمع المسلمون على أن صلاة الظهر تجب بزوال الشمس ، فلو كانت مسطحة لكان زوال الشمس عند أهل المشرق عقب الشروق وعند أهل المغرب قبيل الغروب ، ولم يقل أحد من المسلمين إن صلاة الظهر تحل قبل نصف النهار ، ولا أن وقتها قبيل الغروب ، بل هذا خارج عن حكم دين الاسلام ، وإنما وقتها هو نصف النهار ، فكل من هو على ظهر الأرض لا يصلى الظهر إلا عند انتصاف نهاره أبدا اه . وكل علماء الأزهر فى الفقه على تقرير هذا الحكم .

وكذلك يرتبون فى المواريث أنه إذا مات اثنان يتوارثان ، وكان موتهما ساعة الشروق مثلا وأحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، فإن مَن بالمغرب يرث مَن بالمشرق ، لأن شروق من بالمغرب متأخر عن شروق من بالمشرق . وهذا لا يتأتى إلا فى التكوير. وغير ذلك كثير فى أحكام الفقه ، كاعتبار اختلاف المطالع فى هلال الصوم وغيره .

وأما المفسرون ، فنسوق لك عبارة تفسير الفخر الرازى إذ يقول :

« ومن الناس من زعم أن الشرط فى كون الأرض فراشا ألا تكون كرة ، واستدل بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جدا ، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الاستقرار عليه . والذى يزيده تقريرا أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها ، فهذا أولى » .

وكذلك القاضى البيضاوى من علماء القرن السابع الهجرى يقول فى تفسير قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشا » ما نصه :

« ومعنى جعلها فراشا أن جعل بعض جوانبها بارزا عن الماء مع ما فى طبعه من الإحاطة بها ، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعى كونها مسطحة ، لأن كرية شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها » . وكلا التفسيرين عمدة عند الأزهريين قديما وحديثا .

فترى من هذا أن الأزهر يقرر فى علومه الدينية مسألة كرية الأرض قبل أن يوجد كلومبس بعدة قرون ، وأن علماء الأزهر كانوا يعلمون ذلك بأدلته ويعلمون ما هو أكثر منه .

ولنسلم أن بعضا من علماء الأزهر قال فى وقت من الأوقات بسطحية الأرض كما يشير اليه أولئك الكاتبون فى الرد عليه (على فرض أن المردود عليه كان من علماء الأزهر) فليس فى ذلك ما يشينه ، فإنا نرى كثيرا من النظريات العلمية تتغير وتتبدل

بمرور الزمن وظهور ما ينقضها أو يعززها تبعا لنواميس التقدم الإنسانى فى مختلف العلوم . واعتبر بمسألة دوران الأرض حول الشمس أو دوران الشمس حول الأرض ، فقد كان الرأى السابق هو الأول ، ثم عفا وظهر عليه أصحاب الرأى الثانى ومكث ذلك قرونا طويلة ، ثم ظهر ما يعزز الرأى الأول ، وهو ما استقر عليه رأى الكثير فى وقتنا الحاضر . فهل هذا يقدح فى الكفاية العلمية لأحد الطرفين ؟

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الكلمة أن نشير الى أن القرآن الكريم أشار فى آيات كثيرة الى كثير من النظريات التى أثبتها العلم الحديث فى خلق السموات والأرض ونظامهما ، وفى خلقة الانسان والحيوان والنبات مما يتبجح كثير من المعاصرين بأنهم مكتشفوسرها. فالحقيقة أن الغرب مدين فى نهضته الحديثة لما خلفه علماء الاسلام من آثار علمية ناضجة فى بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها من العواصم الاسلامية . وإن المنصفين من كتاب الغرب ليشهدون بذلك ، ولا يجحد فضل الاسلام على الحضارة الأوربية إلا كل متعنت مكابر . والحقيقة كما قدمنا أن أولئك الكاتبين قد راعتهم تلك النهضة الجليلة التى نهضها الأزهر فضم الى الاحتفاظ بتراثه القديم مسايرة أرقى الجامعات الأوربية فى نظمه وطرق دراسته ، فى مختلف الأدوار التعليمية ، وفى استمداده بجمع مايلزم لسير الدراسة من معامل وأجهزة ومصورات وغيرها ، بل فى فخامة [1] مبانيه التى استحدثت فى عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد ملك مصر صاحب اليد الطولى فى هذه النهضة المباركة ، أمد الله فى عهده . وقد كان الأجدر بخدام العلم على اختلاف نحلهم أن يغتبطوا ويبتهجوا كلما رأوا العلم متقدما وإن كان على يد غيرهم . وفق الله الجميع لما فيه خير الجميع

محمد الحسينى رخا
مفتش الآداب بالجامع الأزهر

(١) زار أحد السائحين الأوربيين معهد أسيوط الجديد وشهد بأنه أفخم من جامعة السربون الفرنسية .

تأملات فى اثبات الصانع

« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » ؟

أنا لست أزعم أنى سأبتكر لك فى هذا الموضوع ابتكارا جديدا ، فهو فى ذاته قديم جد القدم ، قديم منذ كانت العقول والأفكار ، ومنذ أدركت هذه النفوس بفطرتها أنها لم تخلق من غير شىء ولم تخلق هى نفسها ، فأخذت تبحث عن خالقها فى كل ما يقع عليه حسها من شىء ؛ قديم منذ كانت الأديان وكان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلم يعالجوا الناس ما عالجوهم فى هذا الموضوع . وإنما أنا الآن بصدد تأملات أريد منك أن تصحبنى فيها ، وإذا كان غيرنا قد سبقنا اليها فليس ذلك مما يهونها علينا ، بل هو بالعكس مما يؤكدها عندنا ويشجعنا على المضى فيها .

على أنك — إن قبلت نصيحتى — لست منتفعا بتأمل غيرك حتى يكون تأملك أنت ، وليست كل آية فى الأرض والسماء آية عندك إلا أن تعقلها وتهتدى بها . ومع كل هذا فسأحاول أن أجعلك تنظر الموضوع من ناحية شائقة ؛ وأظن أن فى تغيير الصور والأشكال بل فى تغيير الأسلوب نفسه جدة لا بأس بها . تلك الناحية هى العناية الإلهية ، العناية التى نرى قصد توجيهها فى كل ما نحسه من شىء ، فإنْ تخيلَ متخيل أن السموات والأرض ومن فيهن وجدت عن طريق الاتفاق ، فليس من المعقول أن يشك فى هذه الترتيبات والنظم التى لا يمكن أن تكون فى عظمتها ودقتها وكثرتها وتعقدها وسداد توجيهها الى غاياتها المرجوة منها إلا مقصودة لقاصد ، مرادة لمريد ، مدبرة يقينا ، تكاد تلمح اليد الحكمية الصَّناع من خلال تسييرها وتوجيهها .

هب أن الطبيعة منحتنى يدا ، والطبيعة وإن كانت ذات قوى كبيرة هى كما يقول العقل ويقول الحس غير مدركة ، فكيف اهتدت الى أن هذه اليد

لا يمكن الانتفاع بها إلا إذا ركبت من ثلاث قطع : عضد ، وساعد ، وكف ، يوضع بين كل واحد منها والآخر مفصل يتحرك به إذا شاء ويسكن متى أراد ؟ !

وكيف اهتدت الطبيعة الى أن تشقق هـذا الـكف منى ومنك الى خمسة أصابع لابد منها فى تمام الفائدة من اليد وحصول الغرض على أكمل وجوهه ؟! ثم كيف اهتدت الى أن تقسم هذه الأصابع الى أنامل ، وأن تضعها على مفاصل كذلك تتحرك بالمشيئة والاختيار ؟ ! صدقنى أنى وأنا أكتب هذا كنت أنظر الى يدى دهشا معجبا ، إذ أرى الإبهام فى مقابل الأصابع الأربعة يحوز إليها وتسند عليه ، فقلت : هل كنت أستطيع الـكتابة لو أن الإبهام وضع فى محاذاة الأصابع الأخرى ؟ ثم تأملت أصابعى فرأيتها كلها منحنية ، فلم أدر ماذا كنت أفعل لو أن كل أصبع منها جعل عمـودا مستقيما لا مفاصل فيه ؟ على أن تشقيق الأصابع وتقسيمها الى أنامل ما كان يغنى عنى شيئا لو أن كفى نفسه لم يـكن هو الآخر مفصولا عن ساعدى بذلك المفصل الذى يمكّنه من أن يدور على نفسه الى أى جهة أراد ، بل ما كان هذا كله يكفى لتمـكنى من الـكتابة لو كان العضد والساعد كلاهما قطعة واحـدة لا فاصل بينهما . وقل مثل ذلك تماما فى كل صانع وعامل يريد أن ينتفع بيده فيعمل بها عملا ما — هل كان يستطيع مزاولة عمله على وجهه الأكمل من غير أن تتم له هذه الـكيفية المحـكمة فى خلق اليد ؟ ثم قل لى بربك هل يمكن أن يـكون ذلك إلا مقصودا غاية القصد مرادا كل الإرادة ، مدبرا لهذه الغايات والمقاصد الواضحة منه ذلك التدبير المحكم ؟ (فتبارك الله أحسن الخالقين)

أترى أننا لا نفرق بين الأعمال الصناعية والأعمال التى يسمونها طبيعية بأكثر من هذا ؟ فنحن إذا مررنا ببستان قد صففت أشجاره فوضعت على خطوط متوازية مستقيمة ، ثم ضم كل صنف منها الى شبيهه فوضع الحلو والحامض والمالح كل فى مكانه لا يجاوزه ولا يختلط بسواه ، ثم رأينـا يد التنسيق والتهذيب قد تجـارت فى البستان الى طرق معبّدة ، وأرائك مصفوفة ، وزرابى من خمائل الزرع مفروشة مبثوثة ، ونوافير

تقذف بسبائك اللجين من الماء الزلال فتردها إليها الشمس ذهبا أصفر وعقيقا أحمر وزمردا أخضر وأنواعا من الجواهر على عدد ألوان الطيف ، أقول : إذا رأينا هذا البستان وعجائبه ، ألسنا نجزم ببداهة العقل بأن هذا النظام الذى شمله عمل تفكير وروية ، وأن أحدا إذا ظن أو توهم أن هذا التنظيم وذلك التنسيق قد جاء من طريق المصادفة فإننا نحكم عليه بأنه خارج عن دائرة العقل ؟

فهل نرى العناية البادية بكل صغيرة وكبيرة من الخلق ، وأثر الصنعة الذى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا فى كل نواحى الكون أقل دلالة على صانعه ومبدعه من ذلك البستان على منظمه ومرتبه ؟

عجبا لك تؤمن بالشىء وتكفر بمثاله ، أو تؤمن بالشىء وتكفر به فى آن واحد ! وإنى والله لا أدرى كيف يؤمن بشىء فى الحياة من يكفر ربه ، وكيف يستطيع الإخلاص فى أى عمل من لا يرجو ثواب خالقه !

فقد عهدنا الناس ، ولا شىء عندهم أظهر من نكران الجميل وجحود الخير ، تدفعهم الى ذلك خلائق شتى ، وطبائع من الحسد والحقد والمنافسة لا يجدون عنها محيصا ، فانتظار الثواب منهم برق خُلّب ، وأضيع العمل ما قصدت به وجوههم وابتغيت به مرضاتهم . وليس القول بإلزام النفس أن تفعل الخير لذاته دون أن ترتقب عليه جزاءً ما إلا هراء وتضليلا .

وكل ما يخيل الى الناس من تضحيات بعض الفلاسفة والعظماء أنه عمل لغير غرض دنيوى أو أخروى : لو فتشوه لوجدوه مليئاً بالغايات والأغراض المادية . لذلك لا ينقضى منا العجب حينما نتصور حياة هؤلاء البائسين الذين يرغمون أنفسهم إرغاما أن تعيش بغير إله ، ويحاولون جهد المستطاع أن يتسامع الناس عنهم بأنهم قد انتزعوا منها تلك الفطرة التى فطرها الله عليها . كيف يعمل هؤلاء بل كيف يحيون ؟ وما هو موقفهم فى الضراء والسراء ؟ ! وهل لهم أمل ؟ ! سبحانك ربى ! أ كُل هذا الشقاء والعذاب

ليقال عنهم عند أشباههم من الخلق إنهم فلاسفة وقادة فكر : ألا إن خمول الذكر خير من الذكر الذميم ، وكما قال عيسى عليه السلام : « ماذا ينفع المرء لو ربح العالم وخسر نفسه ؟ » .

نسأل الله تعالى لهم الهداية من فضله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » ؟

السيد رجب
واعظ قليوب

حسن الاحدوثة

قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » فسره بعض المفسرين بأنه أراد حسن الثناء من بعده .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا مايتبعه من حسن الثناء » .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى : « اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للناس عندك » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أفادك الدهر ؟ فقال : العلم به . قال: فما أحمد الأشياء ؟ فأجاب : أن تبقى للانسان أحدوثة حسنة .

وقال أكثم بن صيفى : « إنما أنتم أخبار ، فطيبوا أخباركم » .

أخذ هذا المعنى أبو تمام فقال :

وما ابن آدم إلا ذكر صالحة أو ذكر سيئة يسرى بها الكلم
أما سمعت بدهر باد أمته جاءت بأخبارها من بعدها أمم

قيمة العلم فى الاسلام

قال العلامة الفرنسى (مسمر) فى رده على محاضرة الفيلسوف أرنست رينان وقد نقلناه فى هذا العدد : « إن الاسلام لا ينتعش ويزدهر إلا بانتشار العلوم وتقدمها لأن بين الاسلام والعلوم رابطة أكيدة » . وهو كلام وجيه يؤيده الكتاب والسنة أبلغ تأييد ، قال الله تعالى فى مقام الدلالة على قيمة العلم : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ وهو استفهام إنكارى كبير التأثير فى النفس . وقال تعالى : « وقل رب زدنى علما » وهو أمر صريح بوجوب طلب العلم . وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قال ابن عباس : بينهما سبعمائة درجة . وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » علق فهم تلك الأمثال على العلم ، وفى هذا من الحض على طلب العلم — على وجه — ما فيه .

أما السنة فقد شحنت بالأحاديث الحاثة على طلب العلم والدءوب على تحصيله ولو من أقصى مظانه ، فروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اطلب العلم ولو بالصين » وما بين بلاد العرب والصين آلاف من الأميال ، والسفر اليها فى عصر النبوة كان من أشق الأمور ، وفى هذا من استنهاض الهمم ، وبعث النفوس مالا مزيد عليه . وروى عنه عليه الصلاة والسلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » ، فانظر رعاك الله كيف حصر الناس فى دائرة العلم وعد من عداهم همجا ، وهذا أبلغ ما يعرف فى باب الحث على العلم والترغيب فيه . وروى عنه عليه الصلاة والسلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ماجرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » . وإنا لنشهد أن هذا تشويق لطلب العلم لا يدانيه سواه ، فإن وضع الملائكة أجنحتها إكبارا لطالب العلم يدفع بالإنسان الى طلبه لنيل هذه المكانة العلوية ،

والتصريح بأن مداد أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله ، يشعر بأن أثر العلم فى بناء الشعوب ، وإقامة صروح عظمتها ، أبلغ من أثر بذل الأرواح فى الدفاع عن حوزتها ، وتوسيع دائرة سلطانها . وهذه الحكمة العليا تكشف عن إدراك بعيد المدى بأسباب الارتقاء والبقاء للأمم ، فإنه قد ثبت فى جميع أدوار التاريخ أن اعتماد الأمم على مجرد القوة للدفاع عن وجودها ، ولضمان بقائها عاملة فى مجموعة الأمم ، لا ينيلها هذه الأمنية إلا إذا ضمت الى قوتها المادية قوة أدبية توجب لها التفوق العقلى ، فقد انحلت أمم كانت من القوة الحربية على أوفر الحظوظ ، ولم تخلف وراءها أثرا يذكر ، خلافا للأمم التى جمعت بين الفضيلتين ، فقد امتدت حياتها قرونا طويلة ، ولو كانت استمرت حريصة على مكانتها منهما ، لبقيت قوية تغالب الحوادث وتتغلب عليها .

ولسنا نشك فى أن هذا الحديث الكريم من أعلام النبوة ، فإن البيئة التى كان فيها النبى صلى الله عليه وسلم كانت بيئة أمية ليس للعلم فيها شأن يذكر ، وكان للتفوق الحربى فيها القدح المعلى فى مفاخر الأمم ، فإتيانه بهذه الحكمة العمرانية السامية يدل على أنه تلقاها من طريق الوحى الإلهى ، لأن الحكيم مهما نفذت بصيرته لا يستطيع أن يسبق الى أمهات الأصول الاجتماعية التى لم تتقرر بين الناس على عهده . ألا ترى أن أفلاطون وتلميذه أرسطو قررا أن الأرقاء مجردون من الأرواح الانسانية ، وأن العاملين فى المهن اليدوية يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية ، وهما مَن هما فى العلوم الكونية والمباحث الفلسفية .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل » ، وهذه أيضا من دلائل النبوة ، فإن البيئة الأمية لا يمكن أن تكون مصدرا لمثل هذا النظر البعيد فى العلم . فإن كان يعقل أن يظهر فيها من يحبّب فى طلب العلم فلا يعقل أن ينبغ فيها من يرى أن العلم لا حد له ، وأن الانسان مهما تعلم لا يزال جاهلا بأكثر ما بين يديه ، بله ما ليس بين يديه ولا يتخيل وجوده تخيلا .

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تثبت ما قاله العلامة (مسمر) من أن بين العلوم والاسلام رابطة أكيدة . وقد ظهرت هذه الرابطة بأجلى مظاهرها فى حياة المسلمين الأولين ، فقد أظهروا كلفا بالعلم لا يمكن تعليله إلا بوجود هذه الرابطة . فإنهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أخذوا يخالطون الأمم التى سبقتهم فى العلم ويقتبسون منها أفضل ما يجدونه لديها سواء فى المعارف المادية أو المذاهب الفلسفية ، ولم يكفهم ما وجدوه شائعا بين الناس ، فهبُّوا يستثيرون دفائن العلم من مظانها ، فبعثوا من علوم اليونانيين والفرس ما كان قد جهله أهله أنفسهم ، ودأبوا على ترجمته الى لغتهم ، وتناولوه بحثا وتنقيبا ، ولم يقنعهم أن يكونوا مقلدين فيه ، بل أعملوا فيه النظر ، فأخذوا ما ثبت من أصوله وتركوا ما لم يثبت ، أو هذبوه حتى وافق الصواب ، ووضعوا علوما جديدة لا تزال أسماؤها عربية كعلم الجبر وعلم الكيمياء .

ومما حير العقل أنهم اتبعوا فى بحوثهم العلمية الأسلوب العملى الذى يؤدى الى نتائج صحيحة ، لا الأسلوب العقلى الذى يكثر فيه الخبط والخطأ . قال الأستاذ (درابر) فى كتابه (المنازعة بين الدين والعلم) :

« لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى مباحثهم ، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونانيين ، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلى المحض لايؤدى الى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى بحوثهم الأسلوبَ التجريبى والدستور العملى ، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى أدى العرب الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة

(إسالة الجوامد) والتصفية الخ ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة ، والاسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (هى آلات تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية . هذا هو سبب تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية » .

الى أن قال :

« كان الملك الاسلامى يغص بالمدارس والمكتبات ، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها ، وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة ، التى فاقت المملكة الرومانية كثيرا ، مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد (جيرالد) فى الأندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل آثار هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا (تأمل) وأوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم» .

الى أن قال :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية الحكيمة ، وإدخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف

والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها » انتهى .

وقال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسى فى كتابه (تمدن العرب) :

« العرب مع ولعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع ، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جدا . وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، فاننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأنهم برعوا جدا فى الصباغة وتمهروا فى صقل الفولاذ تمهرا بعيد المدى ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم فيها شأو للآن » (تأمل) .

أليس معنى هذا كله أن العرب اندفعوا بحافز من دينهم الى اقتباس العلم حيث وجدوه ، وجروا فيه الى آخر شوط سمح لهم الزمن الذى كانوا فيه ؟ فإذا كان فى دينهم صدٌّ عنه لما اندفعوا هذا الاندفاع الذى حير المؤرخين أجمع ، ولما كان هذا الاندفاع عاما فى جميع البقاع التى حلت فيها جماعاتهم ، إذ يستحيل أن يتواطأ المسلمون فى جميع البلدان على ما بينها من البعد على أن يجروا على خلاف ما يأمرهم به دينهم ، فشبهة المسيو رينان داحضة دحوضا لا انتعاش لها منه .

هنا يحسن بنا أن ننبه القارئين الى أن مراد الاسلام من العلم كل ما تنتفى به الجهالة ، سواء ما كان منه لتصحيح العقائد ، وتقرير الفرائض ، وتطهير النفس من الأوهام والوساوس ، وما كان منه لإدراك حكمة الله فى مخلوقاته ، وما يتأدى اليه الناظر فيها من استكناه أسرارها ، وتعرف قواها ، واستخدام ما يفيده منها فى تقويم حياته المادية ، وترقية مواهبه العقلية ، ولاستكمال شروط النظر فى الكونيات التى ندب الكتاب الكريم الى النظر فيها ، بقوله تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، إذ كلما كان الإلمام بدقائقها أوسع ، كان الاستبصار بها أكبر ، والاعتبار بها أكمل ؟

محمد فريد وجدى

مائة حديث وحديث

هـذا عنوان رسالة وضعها حضرة صاحب العـزة الألمعى محمود خاطر بك وضمنها مائة حديث وحديث للنبى صلى الله عليه وسلم اختارها من جوامع كلمه ، ونوابغ حكمه . وقد شرحها من ناحيتى اللغة والمعنى شرحا وافيا . فنشكر لحضرته هذه الخدمة الدينية ، ونتمنى لها الذيوع والانتشار .

علم الدولة

وضع هذا الكتاب حضرة الأصولى المحقق الأستاذ أحمد وفيق المحامى ، وموضوعه فقه النظم التى تقوم عليها الدولة ، وهو لأجل أن يصل الى هـذه الثمرة مر على جميع الأدوار التى كابدتها هذه النظم ، وأتى على تاريخ تطوراتها ، وعلى أشهر الآراء فى أصولها وفروعها ، وكفانا أن نقول هـذا ليدرك القارئ أن فى هذا الكتاب من لباب العلوم الاجتماعية ما لا يوجد فى غيره . فنشكر للمؤلف المفضال همته ، ونرجو أن يثاب على عمله بما هو أهله .

جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

تأسست هذه الجماعة بالاسكندرية سنة (١٣٤٨) وهى عاملة على إحياء السنة وإماتة البدعة والمساهمة فى أعمال البر . وصل الينا تقريرها لسنة ١٣٥١ — ١٣٥٢ فرأينا فيه أن عـدد أعضائها قد بلغ ٣٩٣ وبلغت إيراداتها ٢٢٥ جنيها و ٧٨٦ مليما . ومن أعمالها افتتاح مدرسة يتعلم فيها ٩٦ تلميذا ، ومنح إعانات لبعض خطباء المساجد لالقاء دروس وعظية فيها بين المغرب والعشاء ، وقيامها بعمارة زاوية السيدة ستيتة ، وإحياء مكتبها . ومساهمتها فى عمل البر كامداد بعض المعوزين بالمال . وتجهيز موتى للفقراء ، وترحيل بعض أبناء السبيل المنقطعين ، فنثنى على حضرات القائمين بها ونرجو لهم زيادة التوفيق .

الى حضرات القارئين

نلفت نظر حضراتهم الى ضرورة ذكر رقم اشتراكهم (الموضوع على غلاف المجلة) مع كل كتاب يرسلونه للادارة خاصا بتغيير عنواناتهم أو بطلب من طلباتهم ، ليسهل مراجعة أسمائهم .

"The Prophet on whom be peace had so often exhorted us to the kindly treatment of the neighbour that we feared he will give him the right even to inherit us."

It is related that a Jew complained Ali to Omar and when Ali presented himself before Omar, the latter said to him "Sit down Abul-Hassan (Father of Hassan)" Ali showed signs of being annoyed and Omar said: "Art thou annoyed Ali because I have treated you on an equality with the Jew"

"No" said Ali "But I was annoyed because you have favoured me with a nickname while you did not nickname the Jew."

Such incidents taking place in the early days of a nation which had only recently been delivered from a state of complete ignorance, are not only great, but also most surprising.

The highest philosophy on earth will fail to account for this sudden change which the morals of the Arab nation had undergone. If this change had been the result of the raising of its human standard to the same level as that of civilised nations of the time, it would have been deemed truly wonderful.

But what if the result was to raise that nation to a standard hitherto unattained by the civilised nations of our times ?

There could be no doubt that this phenomenal moral change should be regarded as one of the innumerable miracles of Islam which the progress of science reveals to the minds of men in their full significance and glory :

« سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"I will shew you my signs in this world and the hereafter, so hasten ye not their revelation"

(Baidawy's Commentary).

indicative of its superiority to all other systems? Would not the success it achieved in inducing its people to uphold and adhere faithfully to it suffice to convince one of its efficacy as a remedy for the terrible state of uneasiness which pervades the world to-day?

In peace time, the Moslems were no less strict in the observance of those humane principles. History, even that recorded by non-Moslem historians, bears testimony to the fact that Moslems have lived together with followers of other religions on the best terms of amity and friendliness. They have treated them on an equal footing in regard to neighbourly relations and litigation. They gave them complete freedom to frequent their own churches and temples and to visit their own priests and rabbis. They protected their property and defended their honour. This treatment had induced certain nations to surrender to them to benefit of the rule of Islam rather than remain under the rule of their own co-religionists.

In their treatment of foreigners, the Moslems observed even more than the bare principles of justice and equality. They observed amity and kindliness. The Prophet on whom be peace, has laid the foundation stone of this great epoch of human intercourse irrespective of creed, race or nationality. He used to visit them in their homes, come to their sick-beds, accept their invitations and attend their funerals. He even went as far as to permit marriage relationship with them an act which constitutes the highest imaginable bond between sects. He ordained that a Moslem who is married to one of their women should not compel her to disavow her religion or hurt her succeptibilities regarding it. He should allow her complete freedom to practice its ritual and should not prevent her from going to church to perform what she believes to be her duty in prayers.

In regard to charity and alms giving, the Prophet has ordained not to make distinction between a Moslem and a non-Moslem. In this connection he says: "Give ye alms to followers of all relgions,"

The Corruptions of the Prophet on whom be peace, have strictly observed these orders and have faithfully carried them out.

The following incident is recorded by Mujahed: "I was once in Abdullah Ibn Omar's house when a servant of his was engaged in skinning a sheep. "Boy, when you finish skinning, start with our neighbour the Jew" said Abdullah Ibn Omar and repeated it several times. "What! how many times are you going to say this" said I, to which he replied:

The call to Islam was circumscribed by these high principles so that the preachers might not be carried away by their zeal to use compulsion and so that they may steer a middle course between the two extremes of disgraceful neglect and excessive enthusiasm. The issue is then be left in the hands of Providence.

Could these be a more equitable way or stricter observance of humane principles in the annals of religious history?

Islam has required its people to fully observe humane principles even in time of war. It enjoined its people to make a declaration of war before they take the field against their enemy. They are not to take them unwares without previous declaration.

In the height of battle, they are enjoined not to commit brutal excesses or apply the coup de grace to a wounded enemy, Nor kill those who surrender to them or the non-combatants who accompany the army. If the Lord gives them victory over their enemy, they are not to pursue and hunt down the defeated and if prisoners fall into their hands, they are enjoined to treat them with kindness for the Prophet on whom be peace said:

"I commend prisoners unto your good care." The Moslems have remained true to their Prophet's saying and many incidents have been recorded where Moslem soldiers gave their bread to prisoners and went without themselves or contented themselves with a few dates.

If the Moslems invade the enemy's country, they are forbidden by their religion, to kill the old and infirm, religious men, women and children. They are also forbidden to mutilate the bodies of their most bitter enemies or to burn up their farms or homes.

The history of the human race fails to find a parallel of such chivalrous and noble deeds under circumstances in which man forgets even his own self.

Indeed, Europe which prides itself on its science and civilisation has failed to attain this high standard of humane principles in its warfare. We have seen the destruction caused by the belligerent forces to peaceful citizens and we hear of the terrors of poisonous gases which are being prepared for the next war by those who claim to be the most civilized and cultured people of the world, gases which will wipe out every living being including old people, women, children and animals.

If such is the civilised people pursuit, to devise death-dealing methods for non-combatants when science and civilisation have reached heights hitherto unattained in any epoch of the world history, would not the clement system ordained centuries ago by Islam be regarded as

an attitude and in this connection the Lord saith:

« فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"If thou canst seek an opening whereby to penetrate unto the earth or a ladder by which to ascend unto heaven to bring them a sign, thou wouldst do so. But if Allah pleased, He would bring them all to guidance and belief, so be thou not therefore one of the ignorant"

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord also saith:

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

Thou art not responsible for their guidance but Allah guideth whomsoever He pleaseth"

(*Baidawy's Commentary*).

and:

« أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"What! Wilt thou force men to become believers against Allah's decree? No soul can believe except by Allah's will and He shall deal out punishment and failure to those who disregarded the consideration of His signs"

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »

ترجمة تفسيرهذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily thou art responsible for preaching only and We are responsible for recompense"

(*Baidawy's Commentary*).

ignorant and unwary in an endeavour to convert them to their religion, gain nothing thereby despite the great efforts and expenses expended by them to that end.

This is borne out by the Lord's saying:

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily those who expend their wealth to turn men away from the religion of Allah and His Prophet will spend it all, then grief shall overtake them for its loss and in the end they shall be overcome."

(*Baidawy's Commentary*).

The principle of preaching in Islam is borne out by principles from psychology and social science which make the observance of wisdom and discretion an indispensable matter in preaching. Omission of this on the part of the preacher will inevitably lead to change such qualities as zeal, enthusiasm and love of conviction into weaknesses altogether foreign to Islam and constituting moreover elements of failure as well as causes of dissension and dispute.

Among these scientific principles which the Lord has revealed to the followers of Islam, is that the difference of people in religion is the result of the difference in their intellectual attainments. Had the Lord pleased, He would have made all people one single nation for thus saith the Lord:

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And if thy Lord pleased, He would have made all people Moslems, but men shall not cease to differ regarding the truth save those to whom thy Lord hath granted mercy, and for this hath He created them."

(*Baidawy's Commentary*).

The Prophet on whom be Peace, was greatly chagrined at the bigoted and blind attachment of people to the tradition and practices of their forebears. They persistingly demanded a proof to which they will submit but it was mere obstinacy to the truth that they took such

of the vanquished people into their religion. But if they refuse such conversion, the soldiery were directed to use the sword and in this way, millions have been massacred and whole nations were destroyed.

But what of Islam ? Islam that was destined to succeed all religions on earth. It has laid down for its preaching activities, a system of religious reasoning in which its great humane principles were so clearly demonstrated with the result that it has spread far and wide and won the sympathy of many a nation exceeding thereby any influence gained by the ruthless coercion and tyranny perpetrated by the preachers of past creeds.

The first principle laid down by Islam in this connection is :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Call thou unto Islam with wise discourse and good counsel and argue with the disputants in the kindliest manner, verily thy Lord knoweth them best who have deviated from the path He. ordained, and He knoweth best those who are guided thereto''

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord be praised has ordained that call to Islam should be conducted with wisdom that is, justice, knowledge and tolerance coupled with wise discourse. Should this fail and should obstinacy and bigotedness gain the upper hand, recourse is to be had to good counsel as it will be most needed then. But if good counsel proves futile, argument and conviction are resorted to provided this is done in the kindliest possible manner in wnich politeness and due consideration of the disputant's feelings are throughout maintained.

One may well wonder at all these high manners being observed in connection with people who blindly follow their religion and are not worthy of any regard. But should they consider that Islam calls to the maintenance of the highest possible qualities at all times and in all fields even in war, they would soon realise that the observance of such manners in the field of religious preaching, is much more essential than in any other field so that the Moslem preachers may offer a living example of what they preach, otherwise their efforts will be doomed to utter failure.

Unscrupulous preachers who employ such shameful means as the kidnapping of minors, tempting the sick and needy and enticing the

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah doth not forbid you to be charitable and to deal justly with those who have not waged wâr against you on account of your religion and have not driven you out of your homes; verily Allah loveth the equitable."

(Baidawy's Commentary).

That is, Allah does not forbid yon to treat with kindness and justice the nom-Moslems who do not wage war against you with the intention of forcing you out of your religion and driving you out of your homes.

This is a principle with which humanity was unfamiliar before the advent of Islam. The followers of every religion regarded those of other religions as bitter enemies to be kept in bondage or put to death should they fall in their hands.

The Roman Empire, to whose domains the Moslems succeeded, continued throughout its reign to refuse admission to its territory to any foreigner even as a trader, unless he could obtain an official permit or could claim the protection of one of their grandees.

On the advent of Islam, this state of things was completely changed. Foreigners became entitled to the same protection given to Moslem citizens. The foreign trader or traveller, moved freely about the country in full secuirity and this feeling induced millions to embrace Islam with no more preaching on its part except the true humane principles which they have witnessed under its rule.

Preaching is necessarily the most conspicuous field in which the virtuous principles of any religion are given full display. Zeal, enthusiasm, love of conviction and pride of mastery, all work together to win the sympathy of fresh supporters to the new religion. Should the followers of that religion lack religions reasoning, all these qualities will be swung to the other extreme and would be changed into a relentless barbarism which knows no limit at which to stop. In this wise, the preachers of all preceding religions even those religions which probilited the acquisition of arms and self-defence, carried propaganda. Their preachers were wont to accompany the invading armies and on the conclusion of the military operations, they took in hand the conversion

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

VII.

INCULCATION OF HUMANE PRINCIPLES.

Though men may be of the same nature and fundamentally of the same intellect, yet the corrupting elements of ill breeding and the influence of heredity and imitation coupled with ignorance and racial prejudice bar many of them from adhering to the same religiuns principles. Whole nations have professed different creeds and religious and the Lord be praised, seeing that the Moslem nation is bound to come into contact with those nations and even rule many of them, has wisely ordered certain principles for the Moslems to go by in such a state of social intercourse. A general principle was laid down by the Lord's saying:

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ١١ –

دعوته الى تأسيس دولة الحق فى الأرض

الحق الذى هو نقيض الباطل ، هو العدل الخالص ، وهو الأصل الراسخ ، روح كل نظام ، وحياة كل كمال ، وقوام كل خير فى الأرض والسماء ، يهتدى إليه العقل السليم ، ويؤيده العلم الصحيح ، ويتأدى إليه النظر القويم ، يرتاح إليه القلب ، ويطمئن له الضمير . والباطل هو الفساد الزائل ، والزور الحائل ، والشر المستطير ، علة كل متداع ، وسبب كل فتنة ، ينفر منه العقل ، ويدحضه العلم ، ويتقزز منه النظر ، لا تقوم له دولة إلا حيث تسود الجهالة ، وتعم العماية ، أو حيث تتمرد الشهوات ، وتعبد الأهواء ، وتُستهدف المَثُلات ، وتُتَعجل الهَلَكات .

الحق هو الأصل الأصيل فى كل وجود ، والباطل يعرض عليه ، فلا أقول إنهما متى تقابلا يصطرعان ، ويتنازعان السلطان ، ولكنى أقول إن الحق يدحض الباطل ويزهقه ، ويكر عليه فيمحقه ، ولا عبرة بتطاول الزمان ، فإن للخالق فى ذلك الإمهال حكمة ، ولا بد أن تذوق شيعة الباطل وبال أمرها ، فترجع الى هداها عن بينة ، أو تهلك عن بينة ، وستكون فى ترطمها فى باطلها ، وتورطها فى آثاره الحائقة بها ، حجة على نفسها ، وعبرة لغيرها من الجماعات البشرية .

ليس فيما بين أيدينا من تعاليم الحكماء الأولين ، والفلاسفة المحدثين ، ما يمكن

أن يقارن بما أتى به الاسلام فى التنويه بالحق وإعلاء كلمته ، وفى التشهير بالباطل وتقويض دولته ، فقرر أولا أن الحق أساس الوجود كله ، وقوام كل موجود فيه فقال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل » ثم جعل ذلك فى حكم المحسوسات لظهور آثاره فى كل صغير وكبير من الخلق ، فقال تعالى : « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » ، وجعل ذلك آية بينة للمؤمنين الذين يرون بأبصارهم وبصائرهم ، فقال تعالى :« خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين » .

وقد ضرب الله مثلا للحق والباطل يمثلهما للذهن بصورة تجليهما فى وصفيهما المميزين ، ليندفع الإنسان محفوزا بجميع عوامله النفسية للأخذ بالأول والركون اليه ، وترك الثانى والازراء به ، فقال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » ، يشبه الله تعالى الباطل بالزبد الذى يعلو الماء حين يتدفق سيله فى الأودية ، وبالزبد الذى يطفو على المعادن إذا صهرت لتتخذ منها الأوانى أو الحلى ، وشبه الحق بالماء الذى يروى الأرض والناس ، وبالمعادن التى تبقى بعد نفى الكدورات عنها ، يقول : فأما الزبد فيذهب سدى لعدم الفائدة فيه ، وأما الماء والمعادن التى تستخلص من شوائبها فتبقى فى الأرض لينتفع الناس بها . وأى عاقل يعول على الزبد الذى لا فائدة منه ويترك المواد التى عليها المعول فى الحياة .

وقد زاد الله الحق تشريفا فجعله من أسمائه الحسنى ، فقال تعالى : «فذلكم الله ربكم الحق » وقال : « فتعالى الله الملك الحق » وقال : « ذلك بأن الله هو الحق » .

ولشدة عنايته بالحق سمى الاسلام دين الحق ، فقال تعالى : « هو الذى أرسل

رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . ووصف آياته وتعاليمه بالحق ، فقال تعالى فى وصف القرآن : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » وقال تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا » وقال : « يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم » وقال : « لقد جئنا كم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » .

وقد أعلن الله الناس بأنه يؤيد الحق وينصره ويزهق الباطل ويبطله ، فقال تعالى : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » وقال : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . وقال : « قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » وقال : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

وقد زاد فى تجلية حقيقة الحق فقرر أن كل ما عداه ضلال ، فقال تعالى : « وماذا بعد الحق إلا الضلال » ، فهل لذى مسكة من عقل أن يعدل عن الحق ليتخبط فى دياجير الضلال ، ويتعرض للهلاك بهلاك ما تمسك به من خيال ؟

هاتان صورتان للحق والباطل لم توفق أية فلسفة فى الأرض قديما ولا حديثا الى الاتيان بمثلهما ، وقد جليتا فى الكتاب الكريم على كل وجه بحيث تتأثر بهما كل نفس بشرية ، ولا تجد مناصا من الاعتداد بأمرهما فى كل شئونها المادية والأدبية ، وقصارى همّ المصلح الاجتماعى أن يوجه الناس توجيها ذاتيا تحت سائق من صميم فطرتهم الى تحرى الطريق القصد فى محاولاتهم ، وتجنب المضال التى تؤديهم الى عكس مطالبهم ، أو الى ما يورطهم فى مشتجر شهواتهم ، ومزدحم أهوائهم .

ليس فى قدرة أى مصلح ولو كان مثلا أعلى فى الإخلاص للانسانية أن يقرن كل رجل برقيب عتيد يزعه عن الباطل ، ويوجهه الى الحق ، ويتمنى لو استطاع أن يجعل هذا الرقيب نفسانيا ، فهذه الرقابة الذاتية قد أوجدها الاسلام فى أكمل ما تكون عليه لمن يأخذ بآدابه ، ويدمن على تلاوة كتابه . وقد ظهرت آيات ذلك فى المسلمين

الأولين ، فأصبح كل منهم جلوازا للحق ، وشرطيا على الباطل ، ليس فى نفسه فقط بل وفى الخارج أيضا . روى أن يهوديا شكا على بن أبى طالب الى عمر بن الخطاب ، فلما مثلا بين يديه ، قال الفاروق لعلى : اجلس يا أبا الحسن ، فظهرت دلائل الامتعاض على وجهه ، فلحظ ذلك أمير المؤمنين ، فقال له : أكرهت ياعلى أن تجلس أمام خصمك؟ قال: لا ولكنك ناديتنى بكنيتى فرفعتنى عليه فكرهت ذلك .

فانظر يارعاك الله الى رجل يمتعض لأن الحاكم رفعه على خصمه لمجرد مخاطبته بكنيته ، وهذا كما هو مألوف بين الناس مقام اغتباط وارتياح ، ولكن عليا كرم الله وجهه كان حريصا على الحق فى نفسه ، وجلوازا له فى مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه .

إن عددا قليلا من هؤلاء الآحاد الذين يقومون على حراسة الأصول الإلهية جديرون أن يفتحوا الأرض ، وأن يقوّموا أودها ، وقد فعلوا فأدهشوا العالم ، وذهب المفكرون فى تعليل ذلك مذاهب قدداً ، والحق أنهم ما وُفقوا الى إتيان هذه الأمور الخارقة للعادة ، إلا بقيامهم على حراسة هذه الفضائل العليا التى لم يعرفها العالم الى اليوم .

نعم : أقول الى اليوم ، لأن الكلمة العليا كانت ولا تزال بين الأمم وبين الآحاد (للمصلحة) لا (للحق) ، فاعتادوا أن يتغابوا فى سبيل مصالحهم عن كل حق ، حتى إن أكيس الناس فى نظرهم هو الذى يسلك كل سبيل من التعسف لتأييد مصلحته غير مبال أخطأ الحق أم راعاه ، وأسوس الأمم وأحقها بالإعجاب هى التى تؤيد مصالحها بالحديد والنار غير آبهة بحق ولا متورعة عن باطل . لهذا أصبح الناس حتى فى الشعب الواحد متزاحمين غير متراحمين ، ومتناظرين غير متكاتفين ، لا يبالى قويهم بما جناه على ضعيفهم ، وأضحت الأمم يتربص بعضها ببعض دوائر السوء ، مما جرها الى الإسراف فى الإنفاق على الآلات المدمرة ، والذخائر الموبقة ، فوقعت فى شر أزمات اقتصادية لم يعرفها البشر الى اليوم . أسمعت عن جيوش الجياع الذين يقصدون المدن العامرة عشرات من الألوف ؟ هذا مالم يسمع فى تاريخ بنى آدم أيام كان لاحول له ولا حيلة ،

فهل يصح أن يكون على هذه الحال فى وسط هذه المدنية ، وفى مزدحم هذه الوسائل الصناعية ، وملتطم هذه العلوم الاقتصادية ؟

هذا كله نتيجة العمل على المصلحة دون الحق ، أفلا يكون العالم وهذه حالته فى حاجة ماسة الى تعاليم الاسلام العليا ، ومنها العمل على إحقاق الحق لا على ترويج المصلحة ، للخروج من هذه الفتن التى تدع الحليم حيرانا ؟

ليس معنى هذا الكلام أن الاسلام لا يعتد بالمصلحة الفردية والاجتماعية ، ولكن معناه أن الاسلام يجعل الحق فوق المصلحة ، فإذا وافقت المصلحة الحق أصبحت المصلحة حقا ، فيجب تأييدها والدفاع عنها ، وإذا لم توافق الحق كانت باطلا ، فيجب دحضها وإزهاقها .

ففى المثل الذى ضربناه فى حادثة على واليهودى كان من مصلحة أبى الحسن أن يكون مكانه أعلى من مكان خصمه ، ولكنه لما رأى أن مصلحته تتعارض والحق آثر الحق على المصلحة .

وفى قوله تعالى : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، فى هذا الموطن من المصلحة أن لا يعتد الانسان بالعدل ، وأن لا يشهد على نفسه أو والديه أو أقاربه ، ولكن الاسلام يأبى ذلك ويريد أن يقوم أهله على احترام الحق ضد النفس والوالدين وذوى القربى .

وقد أمر الاسلام بمراعاة الحق حتى فى مواطن البأس ، فقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وقد عدّ من الاعتداء الإجهاز على الجرحى ، وتعقب المهزومين ، وقتل الأتباع الذين يخدمون المحاربين ، وهذه مبادئ لم تعرف قبل الاسلام ، ولا تزال غير مرعية فى عهد هذه المدنية المادية ، فقد يخيل لبعض الناس أن المصلحة تقضى بالإثخان فى العدو ، والإغراق فى التنكيل به

ولـكن الاسلام يرى المصلحة الحقيقية فى إيثار الحق على كل اعتبار آخر ، والحق هو أن تقاتل الذى يرفع فى وجهك سلاحا دون سواه .

هنا يحتمل أن يقول قائل : إن خادمه يعتبر معينا له ؛ فهو شريكه فى عمله . ونرد عليه بأنه لو صحت هـذه القاعـدة لا عتبرت النساء وأقـوياء الصبية والشيوخ وجميع المتخلفين معينين للمقاتلين ، ويجب قتلهم متى ظفـر بهم . ولـكن الحق يقضى بأن الحـرب يجب أن تنحصر فى المتحاربين ، حصراً لسفك الدماء فى أصغر دائرة ممكنة ، وما دامت تنكسر شوكة العـدو وتبطل مقاومته بانهزام جيشه ، فيجب الاكتفاء بهذه النتيجة احتراما للحياة البشرية . وهـذا مما اختصت به تعاليم الاسـلام ، وكان أفعل فى تدويخ أعدائه من جميع الوسائل الوحشية التى يأخذ بها أعداء الانسانية ، بل كان من أقوى العوامل فى دخول الناس فيه أفواجا ، لأن النفس البشرية لما فطرت عليه من تقدير الجميل ، وذوق الفضيلة ، تنساق لحب المتصفين بشريف الخلال ، وتميل لأن تعد فى زمرتهم .

هذه الميزة من الإصلاح الاجتماعى التى اختص بها الاسلام فيها راحة الأفراد والجماعات ، وانتظام أمورهم الى أقصى حد يتخيله العقل ، لأن الحق يسع الخلق أجمعين ويصلح من شئونهم ، ويزيل من شرورهم ما لا يستطيعه العلم ولا المدنية والفنون مجتمعة ، والباطل يضيق حتى عن صاحبه نفسه ، ولا يزال به حتى يورده الموارد ويضر المتصلين به ، لأنه جرثومة شر لا تلبث أن تستشرى وتولد غيرها من العوامل المفسدة . وإذا كانت الأمم فى حاجة الى الأخذ بهذا الأصل فى كل زمان ومكان ، فهى اليوم بما تورطت فيه من آثار الباطل قديما وحديثا أشد احتياجا الى الأخذ به ، والاسلام لا يزال ولن يزال يهيب بها إليه ، الى أن تقوم الساعة : « يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لـكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

محمد فريد وجدى



سورة الحجرات

— ٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

قد اطلعت على الإرشادات العظيمة القيمة التي تربط الناس بعضهم ببعض ، وتنزع ما في صدورهم من غل ، وتجعلهم متوادين متساندين ، وذلك في قوله عز من قائل : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن

خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب» ثم فى قوله تعالى: «ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا» الخ. وهنا يبين لكم الإرشاد العام الذى يقتلع من النفوس عقيدة أن بعضهم بأصل خلقته أو بشرف نسبه خير من بعض، فوجّه الخطاب الى عموم الناس ليرشدهم الى أصل خلقتهم ومبدأ تكوينهم، وأن الجميع فى النشأة يرجعون الى أصل واحد، وهم من طينة واحدة، والذى خلقهم وصنعهم إله واحد، فهم فى مادتهم الأولى متحدون، وبالنسبة الى من خلقهم متحدون، فالتفاضل لا ينبغى أن يرجعوا به الى ماضيهم، فإذا افتخروا فإنما يكون فخرهم بصالح أعمالهم وشريف صفاتهم؛ وخير الأعمال ما قرب العبد من ربه وأناله عظيم رضاه ومنزلة قربه؛ ذلك هو تقوى الله فى عمله، لا مزية عشيرته أو أهله؛ فماذا يفيد المرء أن يكون أهله من خير الناس وهو من شرارهم، وهل له من ذلك إلا قيام الحجة عليه بأبلغ من أن تقوم على من نبت فى غير أهل الخير؟

وقد قالوا: الناس أربعة: اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما، واثنان أنت منهما على تجربة، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما فصالح بين فساق، وفاسق بين صلحة، فلوكان للصلاح الى نفس هذا أو للفساد الى نفس ذاك طريق، لكان فى بيئته ما يجذبه إليه؛ وأما اللذان أنت منهما على تجربة فصالح بين صلحة وفاسق بين فسقة، فلعل أحدهما لو تغيرت بيئته لتغيرت حالته. فيكون ذلك المفتخر بما ناله أهله من مجد وشرف وهو عار منه مع توافر دواعيه وتهيؤ أسبابه قد أقام البرهان على أن نفسه من الخبث بحيث لا يجد الخير إليها سبيلا، فهو يطعن نفسه من حيث لا يدرى.

ومما يحكى فى ذلك أن رجلا من أولاد على كرم الله وجهه كان متجاهرا بالفسق وكان فى بلده مولى أسود عرف بالصلاح والتقوى حتى أحبه الناس وأقبلوا عليه ينتفعون به ويتبركون، وكانوا يجلونه بقدر ما فيه من صلاح وتقوى، فكان يمر يوما والناس من حوله ما بين متبرك وخادم له، فلقيه الشريف سكران، فنحاه الناس عن

طريق ذلك الصالح ، فغالبهم حتى وصل اليه وقال له : يا أسود الحوافر والمشافر : يا كافر ابن كافر : أنا ابن رسول الله ، أذل وأنت تجل ، أنا أهان وأنت تعان ! فكاد الناس يبطشون به ، فحماه منهم وقال : هذا محتمل منه إكراما لجده وإن خرج عن حده . ثم التفت اليه وقال له : بيضتُ باطني وسودتَ باطنك ، فظهر بياض قلبي على سواد وجهي فحسنتُ ، وظهر سواد قلبك على بياض وجهك فقبحتَ ، وأخذتُ سيرة أبيك وأخذتَ سيرة أبي ، فرآني الناس في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي ، فعملوا معي ما يعمل مع أبيك وعملوا معك ما يعمل مع أبي .

ولا يخفى الحسن في بدء هذه الآية « يأيها الناس » وبدء الآيات السابقة « يأيها الذين آمنوا » فإن الآيات السابقة كانت مسوقة للنهي عن أحوال لا تلتئم مع وصف الإيمان ، فوجهت أنظارهم الى الإيمان ليكون عونا على اقتلاعها ؛ وأما هذه الآية فهي مسوقة لاقتلاع مبدأ الفكرة التي درج الناس على مراعاتها فوقعوا عامة في خلالها ، وهي الافتخار بأنسابهم ، وبماضي أسلافهم ، وهي فكرة وقع فيها الجميع ، فكان جديرا بها أن يوجه الخطاب المتعلق بها الى الجميع ، فقال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » والمراد بهما آدم وحواء ؛ وقد تضمنت حكمين : (الأول) أن الله هو الذي خلق الجميع ، فليس بينهم تفاوت في الصانع . و(الثاني) أن المبدأ الذي خلقوا منه واليه يرجعون واحد . وإذا أردت ترجيح شيء على آخر بماضيه فلا يعدو أن تقول : هذا صنع من معدن وذاك من معدن أعلى وأشرف ؛ أو تقول : هذا صنعه فلان وذاك صنعه فلان الذي هو أمهر منه . فأما وقد صنع الشيئان من مادة واحدة ، وصانعهما واحد ، فلا وجه لتفضيل أحدهما على الآخر بماضيه ، وإنما يكون التفاضل بينهما بما حواه كل منهما في ذاته وفي حاضره ، لا في سابقه وغابره . ونكتة ثالثة وهي ما يفيده قوله تعالى : « إنا خلقناكم » من أن هذه الخلقة لا فضل لكم فيها ، فليس لكم فيها أي مدخل ، وإنما هي من خلقنا وإيجادنا ، فكيف تفخرون بما لا دخل لكم فيه !

والخلق : الإنشاء والإيجاد . والجعل فى قوله : « وجعلنا كم شعوبا وقبائل » هو التكييف والتنويع ، أى أن الخلق يرجع الى إيجاد الذات ، والجعل الى تنويع الصفات ، ولذلك قالوا : يستعمل الخلق فيما هو من قبيل الأصول ، والجعل فيما هو من باب الفروع ، كقوله تعالى : « خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » . والشعوب جمع شَعب ، والقبائل جمع قبيلة . والشعب هو الجماعة الكثيرة التى تمتاز بوطن يجمعها ، والقبيلة الجماعة التى عرفت بأب ترجع اليه . أوالشعب الأمة الكثيرة المنتشرة كالعرب والروم والبربر والفرس وأمثالها ، والقبيلة الجماعة المندرجة تحت الشعب كقريش وتميم وأمثالها . ومنهم من يقول: الشعوب فى العجم والقبائل فى العرب ، وهو يرجع الى المعنى الأول . ومنهم من يقول: الشعب فوق القبيلة ،فالشعب ككنانة مثلا ، والقبيلة كقريش ؛ وهو قريب من المعنى الثانى . وبعضهم يرتبها درجات فيقول : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة . وهذا مبحث لغوى لا يعنينا كثيرا ، وإنما القصد فى الآية الى التنويع فى تقسيم الناس ، وبيان حكمته المقصودة منه ، وهى التعارف لا التناكر ، والتناصر لا التناحر ، والتعاون لا التفاخر . فاللام فى قوله : « لتعارفوا » لبيان العلة الغائية والحكمة المترتبة على تقسيمهم أمما وقبائل ، وهى أن يكون ذلك للتعارف لا للتناكر .

ذلك أن التعارف مبدأ لخير كثير ، فمنه صلة الرحم ، والتواد فى الله ، والتناصح بإخلاص ومحبة . وقد جاء « الدين النصيحة » . وفى النصيحة قسم من التناصر المشار اليه فى حديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقيل : هذا المظلوم ننصره فكيف ننصر الظالم ؟ فقال : تردعه عن ظلمه فتكون قد نصرته على نفسه الأمارة » فهذه كلها ثمار للتعارف ، ولا تتم على وجهها الحقيق إلا بالتعارف .

وإذا نظرنا الى ما تضمنه الكثير من الأحكام الشرعية ، نجدها قد أشربت حكمة التعارف ، انظر الى الجمعة والجماعة ، والحج وأمثالها : تجدها مسهلة لطريق التعارف .

وانظر الى قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة» والى قوله عليه السلام: «مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» تجد التعارف يتجلى فى ثنايا كلماتها. وفى التعارف معنى أزيد من معنى ع ل م وهو إلف النفس للشىء المعروف، وطمأنينتها له وسكونها اليه.

وكأن المعنى — والله أعلم — أن الله ميزكم شعوبا وقبائل، وقسمكم أقساما، ليكون أدعى الى أن يعرف بعضكم بعضا، ففى التنويع تقريب للضبط، وعون على المعرفة، فكيف انقلب عليكم القصد والتوى بكم الطريق، فاتخذتم ذلك طريقا للتفريق، ووسيلة للتناكر والتقاطع، وهل نتيجة التفاخر إلا التناكر؟ وهل ينشأ عن ترفع بعضكم على بعض واحتقار بعضكم بعضا إلا نفرة النفوس وتخاذلها، وتربية الأحقاد والأضغان بينها؟

وإذا كان لابد من أن يفضل بعضا، فاعلموا أن فضل كل امرىء إنما هو بإحرازه الفضل لنفسه، واتصافه هو به، لا بأن يعرى ويكسى غيره، فما كانت كسوة الغير مع عريه إلا مجلبة لعاره، ولا فضل يعتد به إلا ما جلب لصاحبه السعادة، وكان سببا للحسنى والزيادة، ذلك تقوى الله، فيها تتفاضل النفوس، وبها يفتخر المفتخرون، وفيها يتنافس المتنافسون، واليها يتسابق المتسابقون، كيف لا وهى جماع الخير فى الدنيا والآخرة.

ولا يذهب عليك أن تقوى الله فى العمل بأوامره واجتناب مناهيه. ولقد أمرنا بأن نصلح ديننا ودنيانا، وأن نسلك السبيل الأقوم فى معاشرتنا ومخالطتنا، وأن نقوم على ما استرعينا فيه حق القيام، وأن نحسن ما وليناه من الأعمال والمهام، فمن أدى ما طلب منه فى دينه ودنياه، وفى أعماله وما استرعاه الله إياه، فهو التقى، وبقدر مايقوم من ذلك بالنصيب الأوفى يستحق أن يكون هو الأتقى، وإذاً فهو الأكرم عند الله، وبالتالى يكون الأكرم عند عباد الله، ولو فرض وانحرفت طباع بعض الناس فلم يروا الكرامة إلا فى أسباب الشر، فلا عبرة برأيهم، ولا اعتداد بالكرامة لديهم:

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لئامها

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

نقول : إن التقوى معنى جامع لخيرى الدنيا والآخرة ، وإن من قام بحق الله فى دينه ودنياه فهو التقى الكريم عند الله ؛ ومن كرم عند الله فقد كرم عند خيار الناس ، ولا عبرة بشرارهم .

نكرر ذلك لنقتلع ما يتوهم بعض الجهلة من قصر التقوى على كلمات يهمهمون بها ، وأوراد يرددونها ، وحبات بين أصابعهم يديرونها ، وهم بعد ذلك خلو من كل ما ينفع عباد الله ، فلا يعلمون ولا يتعلمون ، ولا يجدّون فى تحصيل نفع لأنفسهم أو لغيرهم فى معيشتهم أو فى أخلاقهم ، وحسبهم من تقواهم اشمئزازهم من الجماهير ، واعتزالهم عن العالم فى ناحية ، مستبطنين من ناحيتهم الكره والتكبر ، وترى أحدهم يهش ويبش إذا ما وصلت إليه صلة من واحد ولو كان من شرار الناس ، كأن الخير كل الخير فى مرضاتهم هم على عجزهم وتكاسلهم وتوانيهم وتخاذلهم ، ويحسبون صلاحهم هذا المزعوم منة على الناس يجب عليهم أن يكافئوهم عليها ، ويخدموهم من أجلها ، فكأنهم أرادوا الناس بما هو لله ، وطلبوا الدنيا بالدين ، أولئك فى الآخرة من الخاسرين !

لا لا ، ما كانت هذه الحالة هى التقوى التى يكرم بها المرء عند الله ، وإنما التقوى هى العمل لخيرى الدنيا والآخرة ؛ فمن قام بها حق القيام استحق عند الله الإكرام . وإن من قام بحقوق التقوى على ما ذكرنا استغنى عن التفاخر ، فإنه يجد من شهادة عمله ما يغنيه عن التشدق بلسانه ، ويجد من ثناء الناس عليه ما يستحيى معه أن يضم إليه ثناءه على نفسه ؛ ولسانان لا يجتمعان على مدح شخص : لسانه ، ولسان غيره ، بل ولوعه بالثناء على نفسه يبعده عن معنى التقوى ، فيحط من كرامته التى ربما اكتسبها من عمله ، بقدر ما يفرغ على نفسه من الثناء . نسأل الله العصمة من الزلل . والتوفيق لصالح العمل !

وقوله تعالى : « إن الله عليم خبير » تذييل جميل يراد به التسجيل ، وإقفال باب القال

والقيل ، فكأن المعنى أن الله أعلم بكم من أنفسكم ، فما كان ثناؤكم على أنفسكم بغير ما علمه الله منكم ، فهو العليم بكم وبأعمالكم ، الخبير بالباطن والظاهر من أحوالكم ، إذ هو العليم بكل شيء ، الخبير بكل حال .

وقد روى أن هذه الآية نزلت يوم الفتح ، لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فأذن فوق الكعبة ، فغضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد وقالا : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ! فنزلت الآية ، فعجبا من علمه صلى الله عليه وسلم وقالا : ما أخبرك إلا الله . وكان سببا فى حسن إسلامهما ، وكان إسلامهما يوم الفتح . وروى عن ابن عباس أنها نزلت فى مولى يسمى أبا هند : خطب الى جماعة من بنى بياضة فأمرهم عليه السلام أن يزوجوه ، فقالوا : يارسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت الآية .

ولما كان بعض الناس يرى أن معنى كون الآية مكية أو مدنية أنها نزلت بمكة أو بالمدينة ، قال : إن السورة مدنية إلا هذه الآية ، واستأنس له بأن ما صُدر « بيأيها الذين آمنوا » فمدنى ، وما صدر « بيأيها الناس » فمكى . وكثير من المفسرين يفسر المكى بأنه ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى بأنه ما نزل بعدها ، ويقول : إن تصدير المكى بيأيها الناس والمدنى بيأيها الذين آمنوا أغلبى ؛ وعلى ذلك يعتبر السورة كلها مدنية .

قال تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » :

نزلت هذه الآية فى بنى أسد بن خزيمة : كانوا يقيمون فى جوار المدينة ، فأصابتهم سنة مجدبة ، فقدموا الى النبى صلى الله عليه وسلم وأظهروا الاسلام ، وصاروا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، ويقولون : آمنا فاستحققنا الكرامة ، يريدون بذلك كله أن يتصدق عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ويعطيهم مما أفاء الله عليه ، فكانوا يمنون على النبى عليه السلام بإيمانهم ويستجدون به ، فنزلت هذه الآية ؛ فالمراد بالأعراب قوم مخصوصون منهم لا كل

الأعراب ؛ والمعنى يتناول كل من أراد أن يجعل دينه وتقواه وإيمانه وإسلامه وسيلة لرزقه، فما كان الاسلام والإيمان مما يطلب عليه أجر إلا من الله . ويدخل فى هذا المعنى أولئك المتسكعون المتسقطون الذين يغشون الناس مرارا وتكرارا قائلين : كنا كفارا وأسلمنا ، فعادانا أهلنا ، وقطعوا وسائل عيشنا ، فنحن فى حاجة الى المعونة، وترى أحدهم بزى مجمّل ، وفى صحة وقوة وعافية ، ولكن أبت نفسه إلا أن يكون من المتسولين ، الشحاذين ، ودبّر هذه الحيلة ليستثير عاطفة المؤمنين ، وما كان المؤمن ليرضى أن يتاجر بإيمانه .

كانوا يمنون على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويتباهون به ،وما أشبه المانّ بالمفتخر ، بل يكاد يكون نوعا منه ، فلذلك حسن ارتباط هذه الآية بسابقتها . وترى الفعل المسند الى الأعراب هنا وهو « قالت » دخلت عليه تاء التأنيث ، لأن الجمع فيه معنى الجماعة فيؤنث ؛ ولو نظرت الى خلو الفعل المناظر له من التاء فى قوله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة » لمحت فيه معنى ساميا ، وهو إبراز أولئك النسوة بما يدل على رجاحة العقل وأصالة الرأى ، إذ قد استنكرن منها ما صدر ولمنها عليه ، بينما أدخلت التاء هنا على الفعل المسند للأعراب ، لأن ما صدر منهم ينأى بهم عن الكرامة ، وينبئ عن قلة عقولهم ، وخساسة آرائهم .

وقوله عز وجل : « قل لم تؤمنوا » تكذيب لهم فى دعوى الإيمان ، فإنه التصديق عن ثقة وطمأنينة نفس وإذعان قلب ، لا دافع يدفع اليه إلا امتلاء القلب باليقين ، ولم يكن شيء من ذلك فى نفوسهم، وإنما هى الحاجة ألجأتهم ، والجدب نزح بهم عن ديارهم الى حيث يتلقطون الصدقات ؛ ولو كانوا آمنوا حقا لعلموا أن المنة عليهم لله إذ هداهم للإيمان ، كما تراه فى آخر الآية .

وقد أرشدهم بعد هذا التكذيب الى ما لو قالوه لكانوا قد صدقوا فيه ، وهو قولهم : أسلمنا ؛ وفيه مع هذا نوع لمزٍ لهم ، وكشف عن قرارة نفوسهم ، كأنه يقال لهم : ليس

ما كان منكم بإيمان، قلبي ولكنه الإذعان والاستسلام بالجوارح لدواع أنتم تعرفونها من أنفسكم، فلا تكذبوا أنفسكم، ولا تكذبوا على الله ورسوله، فهو أعلم بكم. أليس انقيادكم لإلجاء الضرورة، وانتجاع الرزق، وضعف المقاومة؟ أفمثل هذا يحق له أن يذكر إيمانه ويمتن به، ثم يذكره لمن يعلم السر وأخفى؛

ولقد جبر خاطرهم وخفف وقع التأنيب والتبكيت على نفوسهم، بالإشارة الى أنهم على شرف الإيمان ومرتقب لهم أن يعمر الإيمان قلوبهم، ذلك قوله تعالى: «ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» فإن لمّا لنفى الفعل مع ارتقاب حصوله، ولم لنفيه فحسب، فلما كان الأول مسوقا للتكذيب، أتى بما يدل على مجرد نفى الفعل الماضى؛ ولما كان الثانى مسوقا لتخفيف وقع التأنيب على نفوسهم، ذكر بصيغة تدل على أنه مرتقب حصوله لهم، فهو كالبشارة، وفتح باب الأمل وطرد اليأس عن نفوسهم، وتخفيف الخزى الحاصل لهم بذلك التكذيب.

ثم إيثار قوله: «لم تؤمنوا» على أن يقال: لا تقولوا آمنا، لأنه أصرح فى التكذيب. ولو قال لا تقولوا آمنا، لربما توهم أن المؤمن منهى عن أن يقول آمنت. ثم قوله: «ولكن قولوا أسلمنا» تجد فيه إفادة ما كان منهم على الحقيقة وهو الاسلام، بصورة لا تحتمل المراوغة، ذلك أنه لم يخبر عنه صراحة، بل أفاده بطريق اللزوم، كأنه من الظهور بحيث لا يحتمل التحدث عنه، فأنتم عالمون بما فى نفوسكم، فحدثوا عن ذلك الذى وقر فيها؛ وذلك أبلغ من أن يقول: ولكن أسلمتم.

وبعد: فلا تعارض بين قوله تعالى هنا: «قل لم تؤمنوا» وبين قوله فى سورة أخرى: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا» مع أن هؤلاء ألقوا السلام. وذلك أن النهى فى الآية الأخرى للمؤمنين عن عدم قبولهم ممن أسلم تحت تأثير الخوف، والرعب، كما حصل لبعض الصحابة، فإنهم لم يعلموا ما فى القلوب؛ وأما هنا فهو إخبار من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم عن حالة خاصة بقوم مخصوصين، امتنوا على النبى بدعوى الايمان فأكذبهم الله وكشف لنبيه ما فى قلوبهم، فلم يتضمن هذا حكما عاما، بخلاف ذلك النهى.

وفى الآية دلالة صريحة على المغايرة بين الايمان والاسلام، وأن محل الايمان القلب ومرجع الاسلام الى الاستسلام والطاعة والانقياد. وأما الأحكام الشرعية المترتبة على كل منهما من جهة أن الايمان الذى خلا عن الاستسلام والانقياد، والاسلام الذى لم ينبن على الايمان القلبى كإسلام المنافقين يفيد فى النجاة أو لا يفيد، فمحله علم التوحيد.

والخلاصة الوجيزة فيه أن الاسلام فى الظاهر بدون الايمان القلبى يفيد فى المعاملة الدنيوية: كالتوارث، والدفن فى مقابر المسلمين، وقبول شهادته، وأمثال ذلك، حيث لم نطلع على قلبه؛ والايمان القلبى إذا أحاط بصاحبه الإكراه الذى يحول بينه وبين إظهار ما فى نفسه مع طمأنينة قلبه للايمان يفيد عند الله. ومعنى الإكراه أنه إذا علم منه ذلك تعرض لما لا يحتمله من شديد الاضرار والأذى، والله بصير بالقلوب. وليس من الإكراه زوال منصب أو مماكسة فى أموال أو نحو ذلك مما يتوهم أن فيه معنى الإكراه، والله عليم خبير.

قال تعالى: «وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم»:

هذا زيادة فى تشويقهم للايمان الخالص والطاعة الصحيحة بطريق من الترغيب، إذ كانت نفوسهم أشد تطلعا الى ما يستفيدون، فقال تعالى: إن باب الثواب والأجر مفتوح أمامكم، فلجوه بالطاعة الصحيحة والايمان الحق، فإنكم إن أطعتم الله ورسوله لا يظلمكم شيئا من أجوركم ولا ينقصكموها. «فشيئا» مفعول به، أو لا ينقصكم نقصا ما، فشيئا مفعول مطلق. إن الله غفور رحيم: يغفر الذنوب لمن تاب وأناب إليه، ورجع عن شركه ونفاقه الى الايمان والإخلاص، وعن العصيان والإصرار عليه الى الطاعة ولزومها، وعن إرادة الدنيا بالعبادة الى إرادة وجه الله؛ فأطيعوا الله ورسوله تحوزوا أجركم، والله رحيم بعباده، يتفضل عليهم فيجزيهم بالحسنة عشر أمثالها، ويضاعف لمن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ابراهيم الجبالى

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

كتبنا فى هـذه القصة بالعام الماضى، ولـكن لم نستكمل ما فيها من حكم وأسرار. وقد وعدنا القارئ الـكريم أن نعود اليها مرة ثانية فشغلتنا الشواغل وكثرة الفتاوى. واليوم نتجز ما وعدنا فنقول، وقد يكون فيما نقول بعض تكرار مقصود لزيادة الفائدة وتأكيد العائدة:

بيّنا فى مقالنا السابق أنه يؤخـذ من قصة يوسف عليه السلام أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات: «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

وقـد صبر يوسف على ما كان من إخوته إذ ألقوه فى غيابة الجب، وعلى بيعه واستعباده، وما لاقى بعد ذلك من الفتنة وكيد النساء، وسجنه بضع سنين، ثم كان عاقبة ذلك العز والملك والتمـكين فى الأرض. ومثل ذلك ما كان من يعقوب من بثه وحزنه ثم تفويضه الى الله، ففرج الله همه وغمه، فرد بصره عليه، وجمعه مع يوسف فى صفاء وبهجة بعد ما كان من حزن طويل «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الـكافرون». وفى ذلك الحث على سلوك سبيل المتوكلين، والدلالة على الانقطاع الى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد. كما أن فى القصة الدلالة على أن اصطفاء المصطفين أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى، لا يتعلق بسعى ساع ولا إرادة مريد؛ ولهذا كان ليوسف فى صغره ولم يكن لإخوته فى كبرهم؛ وأن من أراد الله به خيرا لم يكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله لم يكن لأحد رميه بسوء ولا قصده بشر؛ وأن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد حتى الأصفياء، فينبغى أن نـكون منه على حذر.

كما أن فيها الكشف عن أحوال الخائنين، وقبح طرائق الكاذبين، وابتلاء الخواص بأنواع المحن، وتبديلها بأنواع الألطاف والمنن، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك الحكيمة وحالهم مع رعيتهم، كما كان يوسف عليه السلام.

كما أنه يؤخذ منها أن الحسد متأصل فى الانسان، فهو غريزة لا يكاد يخلص منها أحد. ويؤخذ من القصة أن حب الدنيا والتنافس فيها متغلغل فى طباع البشر تغلغلا يقطع الأرحام، ويطغى على الرحمة التى تكون بين ذوى القربى ولو كانوا إخوة.

فعلى العاقل أن يحترس منها، فإنها رأس كل خطيئة، وحبها هو الذى أثار الحسد فى نفوس إخوة يوسف. والحسد هو جماع المفاسد والشرور؛ وقد أداهم الى قطيعة الرحم وعدم الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له، وترك العهد وخلف الوعد الذى وعدوه، والهم بارتكاب أكبر الجرائم. ولا غرو فالحسد هو الذى طرد إبليس من رحمة الله وأورثه الشقاء الأبدى والخذلان السرمدى.

ويؤخذ من ذلك أن أبناء العلات لا يكادون يتفقون ولو كانوا أولاد خالة، أو كان أبوهم من أكابر الأنبياء كما فى هذه القصة.

هذا ويؤخذ من قول يوسف عليه السلام: « إنه ربى أحسن مثواى » أن المعروف يقابل بالمعروف، والإحسان لا يكافأ إلا بالإحسان، فحيث إن العزيز أكرمه لا ينبغى أن يخونه وإن لقى ما لقى فى هذه السبيل على ما فصل فى القصة.

ويعلمنا قوله تعالى: « فصبر جميل » حكاية عن يعقوب عليه السلام، أنه يلزمنا فيما لا مناص منه السكون تحت مجارى الأقدار سرا وعلنا، وإن فدح الخطب وعظم المصاب، تسليما لله وثقة بحكمته، وخضوعا لربوبيته.

كما يؤخذ من قوله تعالى: « لولا أن رأى برهان ربه » أن الإنسان لا يثق إلا بمن كان مراقبا لله، عارفا بالله، خائفا من الله؛ وسواه يجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى.

ويؤخذ من قوله : « السجن أحب إلىّ مما يدعوننى اليه » أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله والتضحية بكل شىء .

وقوله : « وإلّا تصرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين » يغرس فينا ملكة التوحيد بالرجوع الى الله فى كل شىء ، موقنين أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التى لا يخرج عنها شىء .

ويؤخذ من قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » أن كثيرا من الناس لا تؤثر فيهم العظات ، ولا تفيد فيهم الآيات والبراهين الواضحات ، ولا تنهم الزواجر عما تشير به الأغراض وتسوق اليه الشهوات .

ويؤخذ من قوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » الإشارة الى أن النفس بطبعها كثيرة الميل الى الشهوات ، والدعوة الى التورط فى الهلكات . وقد قال بعض العلماء : « النفس ظلمة كلها وإنما سراجها التوفيق » . وقال بعض آخر : « من صحب نفسه صحب العجب والخيلاء ، ومن صحب الصالحين وفق لطاعة الله والقرب من الله ، ومن صحب أهل الدنيا سلكوا به طريق جهنم ، ومن صحب أهل اللسانة والتشدق بغّضوه فى خيار الناس وحبّبوه فى شرارهم » .

ومما ينبغى أن يعرف فى هذا المقام أن الانسان فى مقام النفس لا يمكنه أن يدرك علوم القلب الإلهامية ، وأسرار الروح الربانية على ما فصله العلماء الربانيون « وما منّا إلا له مقام معلوم » .

وليلاحظ بعد هذا أن كل دور من أدوار الانسان وكل حال من أحواله له علوم تخصه لا يتعداها ما دام فى ذلك الدور . فالانسان فى دور الصغر مثلا لا يمكنه أن يدرك الحقائق على ماهى عليه ، وفى حالة الشهوة كذلك ، وهكذا جميع الأدوار والأحوال ، فكل إنسان فى سجن مرتبته التى هو فيها ، والحيوان لا يمكنه أن يرتقى الى رتبة الانسان .

وحبذا لو كانت التربية بتعليم النشء ما جبل عليه الانسان من الغرائز المهلكة ، وأن الكمال إنما هو فى التخلص منها ، وبيان أن القوة الغضبية إذا هاجت حجبت العقل عن كل فهم والبصيرة عن كل خير ، وكذلك القوة الشهوية ؛ وأن لهما سياسات يجب تعليمها ، وقوانين يتحتم معرفتها ، وإلا كان الانسان حيوانا أعجم بل وحشا ضاريا . ولا أرى للتربية معنى إلا هذا ، وهى الآن على عكس ذلك على خط مستقيم ، لأنها مبنية على تقديس النفوس وغرس الأنانية فيها ، وذلك أساس كل شر ، وجماع كل بلاء . وقد قال بعض الحكماء : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . ولا بد للعبد من الرجوع الى الله فى كل شيء حتى يلهمه الرشد فيما يأتى ويذر ، فإن العقل ليس له إلا قبول إفاضة العلم لا إيجاد الاستعداد ، ورفع الحجاب بينه وبين الحقائق على ماهى عليه . وقد قالوا : إن العالم هو الذى يعلم ، والحكيم هو الذى يعمل .

وبعد : فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى ، وهى امتحان من يريد اصطفاءهم واجتباءهم ، حتى يخلصهم من وضر النفوس وظلمة الهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وينحرف بصاحبه عنه الى ما سواه ، فإن الله يريد منهم أن يتماشوا إليه ولا يعولوا إلا عليه .

ويؤخذ من قوله تعالى : « لا تدخلوا من باب واحد » أنه لا بد من الأسباب التى اقتضتها الحكمة الإلهية ، ولا بد مع هذا من اعتقاد أنها لا تغنى شيئا ولا تنافى التوكل .

وقول يعقوب : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » يعلمنا أن الانسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع الى الكبير المتعال ، وألا يعول على شيء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الاتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع اليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه . وما أحسن قول بعضهم فى هذا المقام :

فإن رحالنا حطت رضاءً بحكمك عن حلول وارتحال

وقول الآخر :

إذا ما تمنى الناس روحا وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا

من حط ثقل حموله فى باب مالكه استراح

ويؤخذ من قول أولاد يعقوب فى حق أبيهم : « إن أبانا لفى ضلال مبين » أن الجهل قد يصل بصاحبه الى حد أن يعد أعلم العلماء جاهلا ، وأهدى المهدين ضالا ؛ وكلما زاد البعد بين المراتب زاد الجهل بها وإنكار ذويها .

ويؤخذ من قوله تعالى : « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا » أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفا فيها على تلك النواميس المادية التى قدسها الجاهلون ، ووقف عندها الجامدون ، وكيف يملل ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر ، وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة ، والأرواح اللطيفة . فهو يفتح لنا بابا من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

كما أن قول يعقوب : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعرفنا أن من عباد الله خواص يعرفون من قوانينه وحسن معاملته مع من تصدق عبوديته ما لا يعرفه غيرهم ، فسنن الله كثيرة ، ولا يعرف أكثر الخلق منها إلا النزر اليسير . وهناك ما اختص به الأنبياء وورثتهم ، وهذا ماجعلهم يتحملون أعظم البلايا ولا يضعفون ، ويحملون جبال الشدائد ولا يتزلزلون .

رزقنا الله ذلك العلم الواسع ، والنور الساطع ، واليقين التام ، حتى لانعبأ بشدائد الدنيا ، والنار لم تنطفىء لإبراهيم إلا بقوة نوره ، وسمو يقينه ، وسلطانُ الروح أعظم من سلطان المادة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وقد جاء فى الحديث أن النار تقول للمؤمن : « جز يا مؤمن ، فقد أطفأ نورك لهبى » .

ويلتحق بذلك ما عرفناه من تلك السورة الشريفة من أن المنامات منها ماهو صادق

كمنام يوسف عليه السلام ، وقد صدقه أبوه ، ولم يشك فيما رأى ، ولذلك قال له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا » ، وقال : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » الى آخر الآية ، وفيها منام صاحب السجن ، ورؤيا الملك للبقرات ، وتأويل ذلك كله ، ففيه الرد على أصحاب النزعة الجديدة الذين لا يعرفون إلا أضغاث الأحلام ، وقد جاء فى الحديث : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » . وورد « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » .

وإجمال القول أن فى هذه السورة الشريفة كثيرا من الأسرار الروحانية التى لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة كما قلنا ، ومثل وجدان ريح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، ورد بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه كما شرحنا.

ولا يفوتنا أن نقول : إن من الآداب التى نستفيدها من القصة أنه قال بعد القدرة : « لا تثريب عليكم اليوم » . وقد قالوا : إن من يرجع الأمر الى الله لا يزال مستريحا ، ومن اهتم بما يكون من الناس لا يزال فى تعب وعناء ، وقال : « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن » ولم يذكر من إحسانه تعالى أنه أخرجه من الجب لئلا يخجل إخوته بذكر ما فعلوا .

فلنتعلم هذه الآداب العالية ، والأخلاق السامية ، كما أنه يمكننا أن نستفيد منها أن الرجل الطيب القلب يقدم حسن الظن ويقبل المعذرة ، ونستفيد منها أيضا أن تدبير الله لا يحيط به أحد ، وأنه لا يراعى الأهواء والأميال ، ولا يعبأ بألم المتألمين وجزع الجازعين ما دام موصلا الى غايات سامية ، وعاقبة حميدة فى علم الله تعالى ، فإن قصة بنيامين هى التى كانت السبب فى اجتماعهم بيوسف مسرورين مغتبطين . فعلى العبد أن يسلم لله وإن لم يعرف الحكمة :

يا حاكمى وحكيمى أفعالك الكل حكمة

وإن فى قصة زليخا ويوسف ما ينبه على اقتدار النساء على قلب الحقائق ، والتحيل

على إلصاق الإجرام بالبرىء، وتصوير ذلك بصورة الواجب الذى لا بد منه، والتأثير فى السامع بما يهيج عواطفه ويثير حميته، وهن أعرف بمواضع الضعف من الرجال، وأخبر بقرع الوتر الحساس من القلوب.

وإن شئت فانظر قولها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم» كيف أخرجته هذا المخرج وأتت به على سبيل الخبر المسلم الذى لا ينازع فيه، وخلطت الحق بالباطل تلبيسا وتغريرا، فإن من أراد بأهله سوءًا استحق العذاب الأليم كما تقول. ولكن أدمجت فى ذلك باطلا، وهو أن يوسف عليه السلام أراد السوء، وجعلت ذلك مسلما غير منازع فيه، الى آخر ما يرشدك اليه ذوقك وعلمك، مع ملاحظة أن زوج المرأة كان فى هذه الحالة مدهوشا مبهوتا لما رآه عند الباب مع زوجته، فهى تفهمه أن الإجرام مفروغ منه، والتفكير إنما هو فى الجزاء الذى يجب إيقاعه على المجرم.

وبعد: فمن عوارض الحضارة والمدنية قلة الغيرة، وكانت الحضارة فى مصر بالغة حدها، فكان للنساء فيها شأن وخطر، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس.

وكل أمة تساوى رجالها بنسائها فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزنا كبيراً، فهذا من مساوئ المدنيات القديمة والحديثة. وإنك لتلاحظ فى غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الاسلامية أثرها الممقوت، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم، كما هو مشاهد الآن فى أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة.

«خاتمة»

رأينا أن نتمم هذا الموضوع بفوائد لها مناسبة بالقصة، وهى مفيدة فى نفسها أكبر فائدة فنقول:

١ — روى أن يوسف عليه السلام دعا بهذا الدعاء وهو فى الجب ، ففرج الله كربته ، وهو هذا :

ياصريخ المستصرخين ، وياغوث المستغيثين ، ويامفرج كرب المكروبين ، قد ترى مكانى ، وتعلم حالى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى . ياشاهدا غير غائب ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا غالبا غير مغلوب : اجعل لى فرجا مما أنا فيه !

٢ — يقولون : إن أعظم الناس فراسة ثلاثة : العزيز حيث قال : «أكرمى مثواه» ، وبنت شعيب حيث قالت لأبيها فى حق موسى عليه السلام : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، وأبو بكر حيث استخلف عمر .

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجعلنا ممن دعا الى الله على بصيرة ، وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

فضيلة الاستشارة

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ماندم من استشار ، ولا شقى من استخار .
وسئل بعض الحكماء : أى الأمور أشد تأييدا للعقل ، وأيها أشد إضرارا به ؟ فقال : أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء : مشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحسن التثبت . وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء : الاستبداد ، والتهاون ، والعجلة .
وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأى يغب حتى يختمر ، وإياكم والرأى الفطير (أى الذى لم ينضج) .

الاسلام يحث على العمل

يخيل لبعض السطحيين أن التقرب الى الله تعالى ينحصر فى الانقطاع عن أعمال الدنيا والتفرغ للعبادات كالصلاة والصوم وما الى ذلك، وما دروا أن الله تعالى يتقرب اليه بكل عمل مباح قصد به إسداء الخير لجهة خاصة أو للناس كافة، متى تمحضت فيه النية خالصة للخير، وأريد به وجهه تعالى، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن المسلم ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته » . وهذه ميزة للاسلام جعلت منه دينا مدنيا يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة، فى أى عهد من العهود الانسانية .

لقد فتح المسلمون الأولون الأرض بعمل دائم مستمر، وحفظوها تحت سلطانهم بجهد عظيم متواصل، فلو كانوا اكتفوا بما يجبونه من خراجها، وجزية أهلها لوقعوا فى شر حالات البطر، كما حدث للرومانيين حينما أمنوا أعداءهم، وأثروا من أموال مقهوريهم، ولكن المسلمين عفُّوا عن أموال الناس، وأكبوا على الأعمال فنالوا من ورائها ثروة لم تكن لأمة غيرهم، فنهم من اشتغل بالتجارة فكانوا أبرع أهلها فى سائر أقطار العالم، ومنهم من زاول الصناعة فبلغوا منها شأوا لا يزال مضرب الأمثال الى اليوم، وعملوا فى الزراعة فأوجدوا فيها الأساليب التى يجرى عليها الأوربيون الى هذا العهد، كما اعترف بذلك العالم الاجتماعى (درابر) وغيره .

ونظروا أيضا فى العلوم والفلسفات وترجموها الى لغتهم، وتوفروا على الاشتغال بها فشرحوها وزادوا مادتها، واكتشفوا علوما جديدة، ولم يهملوا الفنون والصناعات فوصلوا منها الى حدود بعيدة لم تكن معروفة من قبلهم، ولم يهملوا حتى الكماليات من الأمور، فاقتبسوا ضروب الأعمال الزخرفية، وانتهوا منها الى نهايات لا تزال تعتبر من الإبداعات الفنية .

ولم يهملوا حتى الرحلات القصية ، فبلغوا الى أقصى ما بلغه من سبقهم من الفنيقيين واليونانيين والرومانيين ، وعادوا بمعلومات ثمينة عن الأمم والممالك ، دونوها فى كتب لا يزال يستهدى بها الأوروبيون فى تدوين معارفهم الأرضية والجغرافية .

ولم يقصروا حتى فى البحث عن المعادن ، فحفروا المناجم واستخرجوا منها ما استكن فى بطن الأرض من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس ، وأنشأوا لها المسابك فنقوها مما علقت به مما ليس منها ، وصنعوا منها ما احتاجوا اليه من الأوانى والآلات .

وتفرغ رجال منهم للغة فجمعوها ونقدوها وألفوا فيها المعاجم ، ووضعوا لها نحوا وصرفا ، ودرسوا نثرها وشعرها فصاغوا علوما خاصة بها ، تبحث فى درجات دلالاتها وفى محسنات ألفاظها ، وفى جزالة معانيها ، وفى أوزان قريضها .

ومما يدهش أنهم لم يهملوا حتى العلوم السحرية والطلسمية والسيميائية وغيرها مما كان يشتغل به الأقدمون على غير هدى ، فدونوها وبينوا رموزها ، وكشفوا مساتيرها .

هذا عجيب من أمة قامت بالدين ، واضطلعت بنشر دعوته بين العالمين ، ولكن متى أدرك الباحث أن الاسلام نفسه يعد من الخير والتقرب الى الله تعالى كل بحث ونظر واستقصاء فى كل شىء ، متى أخلص الانسان لله فى الاشتغال به ، وقصد به النفع العام أو الخاص . إذا أدرك الباحث هذا الأصل الاسلامى بطل تعجبه ، وأمكنه أن يعلل تسارع المسلمين الى اقتباس كل ما عثروا به ، والى بذل الوسع فى حذقه وترقيته الى أقصى ما يصل اليه الامكان .

ومما يثبت هذا من الآيات القرآنية قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » وقال عن المؤمنين العاملين : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » اعتبر عملهم هذا قربة منهم . وزاد الله على هذا فأمر بالانسياح فى الأرض وطلب الخير بذلك ، فقال تعالى : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

فسن الله بهذه الآيات للمؤمنين سنة الانتشار فى الأرض ، والتماس فضل الله ،

وفضل الله ليس قاصرا على التجارة ، ولكنه يشمل الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وكل ما يصدق عليه أنه فضل إلهي ؛ فندب الله الناس بذلك الى الأخذ عن الأمم .
وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنة بالعمل في وقعة الأحزاب ؛ وذلك أنه لما بلغه أن قريشا قد جمعت الجموع لحربه ، واتفقت مع قبائل مجاورة لها ومع اليهود النازلين قريبا منهم ، وتقصدته بجيش عرمرم ؛ أخذ رسول الله يستعد للقائهم ، فقال له سلمان الفارسي : يارسول الله إننا اعتدنا في بلادنا في مثل هذه الأحوال أن ننشئ الخنادق حول مدننا ، نعطل بها حركات العدو . فبادر النبي صلى الله عليه وسلم الى الأخذ بهذه الوسيلة الدفاعية ، وكان العرب يجهلونها ، وندب أصحابه لحفر الخندق ، واشترك بنفسه معهم ، وكان يحمل التراب على عاتقه . فكان أخذه بما صلح من وسائل الحرب وفنونها عن قوم كانوا يعبدون النار لا شك يعتبر سنة عملية سنها لقومه ليأخذوا بما يصلح من فنون الأمم وصنائعها مع عدم الاعتداد بعقائدها .

وقد أعد الله نفوس المسلمين الأولين لإساغة هذا الاقتباس بما كشفه لهم من الحقائق الاجتماعية ، فقال لهم في محكم كتابه : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فبين لهم بهذا أن الاستواء بين الفريقين محال ، وعدم الاستواء يفضى الى تفضيل أحدهما على الآخر في ثواب الآخرة وثواب الدنيا أيضا . وكشف لهم بقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وبقوله : « وقل رب زدنى علما » ، أنهم في حاجة الى العلم وأنهم مطالبون بالتزود منه لدينهم ودنياهم . وأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم الى أن العلم يتصيد من كل مظنة ولو من المشركين ، فقال : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » وفي حديث آخر : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » . فهذا الإعداد لنفوس المسلمين للأخذ عن الغير دفع بهم الى تناول كل ما وجدوه من العلم والفلسفة ، ولم يكتفوا بما كان شائعا منه ، فعمدوا الى مكتبات الأمم فترجموا أمهات الكتب ونشروها في بلادهم ، وزادوا مادتها بفضل جهودهم .

ومن العوامل النهضة سَنه سنة التخصص فى العلوم والفنون ، لأن المتخصص فى بعضها يستوعب من مسائلها ما لا يستطيعه الآخذ من كل منها بطرف ، فيستطيع أن يفتح لها مجالات جديدة ، وأن يزيد مادتها بما يفتح عليه من كشف مساتيرها ، فقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا عمليا كان نبراسا لكل من أتى بعده ، وعاملا قويا فى إنهاض الهمم ، وذلك أنه مر على قوم يأبرُون نخلا ، أى يضعون من الطلع المستخرج من ذكوره على الأعضاء المولدة للثمر من إناثه ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : لو تركتموه لأثمر ، فتركوه . فلما جاء وقت الإثمار لم يثمر فأخبروا رسول الله بذلك ، فقال لهم : أنتم أعلم بأمر دنيا كم .

هذا الأدب النبوى العالى سن للناس سنة الرجوع الى الخبراء والعمل بإرشاداتهم .

وهذه المجموعة من الآيات والأحاديث ، كانت عوامل رئيسية للنهضة العلمية والفنية البعيدة المدى التى دخل فيها المسلمون الأولون فى سنين معدودة ، وكانت سببا لمصير ثروة العالم اليهم . وإن دينا يعتبر كل عمل يقصد به الخير ووجه الله قربةً يتقرب بها اليه تعالى سواء أكان علميا أو فنيا ، هذا الدين جدير بأن يندفع أهله فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى والعملى ، وأن يبلغوا منه أقصى مايقدَّر للقائمين من الكفاية والتبريز . وهذا هو الذى حدث للمسلمين ، فقد أخذوا كل علم وفن عن الأمم التى اختلطوا وبرزوا فيها جميعا ، فكان علماؤهم أوسع علماء الأرض علما ، وأطباؤهم أعلى أطباء الأرض كعبا ، والمشتغلون منهم بسائر الفروع العلمية أئمة يرجع إليهم فى حل معضلاتها ، وفك معمياتها ، وكان صناعهم وفنانوهم أرفع ذوقا وأصنع يدا من جميع نظرائهم فى الأرض .

يلغو بعض الباحثين العصريين فى تعليل هـذه النهضة الاسلامية العجيبة ، وهذا التفوق الباهر الذى ناله المسلمون فى العلوم والفنون فى سنين معدودة ، ويعزونهما الى العناصر الأجنبية التى اعتنقت الإسلام كالفرس والروم والديلم الخ ، ويتغابون

عن أن هذه الأمم كلها كانت عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فى دور تدهور مستمر عقب دور من النهوض كانت فيه منذ قرون طويلة ، فكيف يعقل أنهم بعد إضاعة استقلالهم ، وزوال دولتهم يكسبون حياة جديدة ليست من الاسلام ترفعهم من تدهورهم وتوجد لهم نهضة قوية خلافا للسنن المعروفة بين البشر فى مثل هذه الأحوال ؟

لا شك فى أن هذا البعث الجديد لهم ولجميع العناصر المكونة للأمة الاسلامية كان ببركة الاسلام ، وحكمة تعليمه ، فهو الذى وحد بين هذه الأمم كلها بعد أن خلعها من جنسياتها ، وجردها من جميع الفوارق التى كانت سببا فى نزاعاتها ، وصاغ منها أمة عالمية حلاها بروح منه يبلغها أقصى مراتب الكمال الأدبى والاجتماعى والعمرانى.

ولو كان الأمر غير ما ذكرناه للفظت بنية الاسلام هذه النهضة ، وحالت بين الآخذين به وبينها ، ولوجد بين هؤلاء المجددين وبين المحافظين نزاع يفضى الى قتل الأولين وإخماد حركتهم كما حدث فى كل أمة قبل الاسلام ، ولكن المقرر تاريخيا أن الأمة الاسلامية اندفعت فى هذه النهضة موحدة الأجزاء ، متكافلة الأعضاء ، وأن خلفاء المسلمين ووزراءهم وعلية علمائهم وقادتهم فى كل بلد إسلامى كانوا ينشطون هذه الحركة المدنية بأنفسهم وأموالهم ، وليس يعقل أن يندفع الكافة فى تيار يحرمه عليهم دينهم الذى كان فى أرفع درجات سلطانه .

وها نحن اليوم وجميع عناصر العالم الاسلامى فى دور نهضة قوية ، فلم لا يحرمها علينا المحافظون ورجال الدين ، أستغفر الله ! بل هم قد أصبحوا فى مقدمة الداعين لها كما كان عليه أوائلهم من قبل . فلا شك أن شبهة أعداء الاسلام داحضة ، وتعليلاتهم لنهضة المسلمين الأولى ساقطة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟

محمد فريد وجدى

السنة

الطاعات تُفرّج الكربات

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر ، فدخلوا فى غار فى جبل فانحطت عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه ، فقال أحدهم : اللهم إنى كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجىء فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى ، فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج عنهم . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى كأشد ما يحب الرجل النساء ، فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار ، فسعيت فيها حتى جمعتها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة . قال : ففرج عنهم الثلثين . قال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيرا بفرق من ذرة فأعطيته وأبى ذلك أن يأخذ فعمدت الى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها ، ثم جاء فقال : يا عبد الله أعطنى حقى ، فقلت : انطلق الى تلك البقر وراعيها فإنها لك ، فقال : أتستهزئ بى؟

قال : فقلت : ما أستهزئ بك ولكنها لك ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ، فكشف عنهم » صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا الحديث رواه البخارى وغيره فى عدة مواضع ، حسب ما حوى من فضائل وأحكام وفوائد : من بر الوالدين ، وخشية الله حين استحكام أسباب الفتنة ، وإجابة دعاء من اتقاه ، وإكرام أهل طاعته ، وكالتصرف فى مال الغير بغير إذنه لمصلحته على ماسيجىء . وسنعرض لشرح مفرداته ثم نعود للكلام عليه جملة بتوفيق الله وتيسيره .

قوله : « خرج ثلاثة » جاء فى بعض الروايات « ممن كان قبلكم » وفى بعضها « من بنى إسرائيل » ولم يذكر الشراح أسماءهم . وقوله : « يمشون » روى بدلها : يرتادون لأهلهم ، والارتياد : البحث عن الكلأ والمرعى والماء وأمثالها مما يجعل المكان صالحا للإقامة فيه ، فالمعنى أنهم كانوا مسافرين يبحثون عن مكان يرشدون أهلهم لينتقلوا اليه . وقوله : « فدخلوا غارا » روى « فأووا الى غار » وفى رواية « حتى أووا المبيت الى غار » والمعنى أنهم دخلوا الغار ليؤويهم من المطر وليبيتوا فيه . وقوله : « فانحطت عليهم صخرة » روى « فانحطت على فم غارهم صخرة فانطبقت عليهم » أو فأطبقت عليهم ، أى انطبقت على فم غارهم فسدّته ، أو أطبقت عليهم فم الغار ، وفى رواية « فسقط عليهم حجر متجاف حتى ما يرون منه خصاصه » ومعنى متجاف : غليظ ، فهو بمعنى الصخرة ، والجفاء : الغلظ فى الخلقة أو فى الخلق ، أو متجاف متباعد عنهم لم يصبهم بل سد عليهم باب غارهم . وخصاص الباب ونحوه : الثقوب والفرج التى يرى منها الضوء . وقوله : « ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه . فى رواية أنهم قالوا : عفا الأثر ووقع الحجر ولا يعلم مكانكم إلا الله ادعو الله بأوثق أعمالكم . وروى أنهم قالوا : إنه والله ياهؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه . وروى مثل ذلك . والروايات متقاربة واضحة . وقوله : فقال أحدهم ، الروايات المعتمدة متفقة على هذه القصص الثلاث المذكورة ، وإنما تختلف بالتقديم والتأخير بينها . وفى رواية ضعيفة الإسناد عن عقبة

ابن عامر جاء بدل الأجير : أنه كان له غنم يرعاها فحضرت الصلاة فقام يصلى فعدا الذئب على غنمه فكره أن يقطع صلاته فأتم صلاته .

والحلاب : الإناء الذى يحلب فيه . والمقصود اللبن . ومعنى احتبست أى استأخرت كما فى رواية أخرى . وروى أنه نأى به الشجر أى بعد ، وهذا سبب تأخره . ومعنى يتضاغون يبكون . والضُغاء الصياح . وفى رواية يتضاغون من الجوع وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى . وقوله : دأبى ودأبهما أى شأنى وشأنهما . وروى فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما . وسبب كراهته إيقاظهما أن يسبب لهما الأرق على ماهو عادة الشيوخ إذا أوقظوا بعد هجعة ، ولأن الانسان يتأذى لإيقاظه من نومه قبل أن يستوفيه ، وكراهة أن يدعهما خشية أن يستكنا لشربتهما أى أن يضعفا بسبب فوت العشاء كما هو شأن الهرم الضعيف من الاستكانة وهى الضعف . وقوله : إن كنت تعلم هذا من باب الأدب برد كل شىء الى علم الله ، كأنه يشك فى نيته ومقصده ، ويدع ذلك الى من يعلم السر وأخفى ، وهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو أعلم به من نفسه . أو كنى بقوله : تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، عن أنه مقبول عند الله . وقوله : فافرج عنا ، روى ففرج عنا . وقوله : فقالت « لا تنال ذلك منها » فى الإتيان بضمير الغيبة مع أنها تحدث عن نفسها لطف لا يخفى مع مراعاة أن الحكاية عن غائب . وقوله : « حتى تعطيها مائة دينار » جاء فى رواية « فامتنعت منى حتى ألمت بها سَنة » أى سنة قحط ، ويكون امتناعها أولا عفة ، وإجابتها ثانيا تحت تأثير القحط الذى ألم بها . وقوله : « فقالت اتق الله ولا تفض الخاتم » روى إلا بحقه ، وهو يعطى أنها لم تكن ذات زوج ، وأنها كانت بكرا ، وإن كان يحتمل أن يراد بفض الخاتم ذلك الفعل المشين .

وقد روى أنها ارتعدت وبكت فسألها فقالت : إنى أخاف الله رب العالمين ، فقال : خفتِه فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء ، لأنا أحق أن أخاف ربى . وفى رواية أنها قالت : أذكرك الله أن تركب منى ما حرم الله عليك .

وقوله : « بفرق من ذرة » فى رواية بفرق من أرز . والفرق : مكيال يسع ثلاثة صيعان . وقوله : فأبى ذاك أن يأخذ ، روى فى سبب إبائه أنه جاء أجير آخر اشتغل نصف يوم كشغل أحد الأجراء يوما كاملا فأعطاه كأحدهم ، فغضب هذا وقال : تعطيه فى نصف يوم كما تعطى أحدنا فى يوم كامل ! فقال : يا هذا هو مالى أعطى منه ما أشاء ولم أظلمك حقك . وهذه عادة فى الأجراء الى الآن . وقوله : « حتى اشتريت منه بقرا وراعيها » فى رواية : بقرا وإبلا وغنما . ولعله اشترى الأنواع الثلاثة ، وكان أغلبها البقر ، فذكر الكل مرة ، واقتصر على النوع الغالب مرة أخرى .

أما بعد : فقد أرشدنا هذا الحديث الشريف الى طريق الفلاح ، وصور لنا طاعة الله والزلفى اليه بأجمل مظاهرها ، وجلاها فى أبهى حلاها ، على وجه أخاذ يجتذب القلوب الى التأسى بفاعليها ، وانتهاز الفرصة للحاق بمن استحقوا هذا الثناء وتخليد الذكر بسببها . انظر الى صاحب القصة الأولى وما قضى به يومه من كدح وكد فى رعى غنمه ، فهو طوال يومه فى حركة ويقظة ، يتلمس المرعى ويوجه غنمه ويحرسها ويسوسها ، ثم يجدب عليه مكان فيرتاد غيره حتى يتطوح به السير وينأى به الشجر فلا يرجع إلا وقد نام الشيوخ ومتى ينام الشيوخ ! ثم يحلب بنفسه ويجىء لتعهد أبويه وأبنائه وأهله ، ولا تسل هنا عن المعركة بين ميل الانسان الفطرى نحو أبنائه وزوجه ، وبين معرفة الجميل وتقدير الضعف المستحكم فى أبويه ، معركة وجدانية يدريها من وقع فيها ، فالمرء وإن أحب والديه وبالغ فى محبتهما فإن محبته لأبنائه أغلب على طبعه . تجد محبة الآباء مبناها الوفاء ، ومحبة الأبناء مبناها الرجاء ، وهل الأمر بينهما على حد سواء ؟ نعم يحب المرء أبويه ويكرمهما ويبالغ فى تكريمهما ، ولكنه ينظر الى ذلك نظر المرء الى ما يجب عليه ويكلف حمله وأداءه ، لا نظر الغبطة والابتهاج الذى يشمله حينما يغدق على أبنائه ويرفه لهم العيش . سأل بعض الناس : إنى ألى من أبوى الآن كل ما كانا يليانه منى فى الطفولة : أفأكون وفيتهما

كل حقهما؟ فقال : لا ، لأنك تفعل ذلك وأنت تحب أن يموتا ، وكانا يليان ذلك منك وهما يحبان أن تعيش . وسئل بعضهم : لماذا نحب أبناءنا أكثر مما يحبوننا ؟ فقال : لأنهم قطعة منا ولسنا قطعة منهم .

هذه المعركة الوجدانية الهائلة تجد فيها هذا الابن الأب يتغلب على عاطفة البنوة التي ملأت قلبه نحو أولاده وفلذات كبده ، عاطفةُ الأبوة المبنية على عرفان الجميل الماضى ، ومراعاة الشيخوخة المتهدمة ، والضعف الذى لا يحتمل معه تأخير عشاء . ثم انظر اليه وهو يضحى براحته ، ويضيف الى كده طول يومه سهره واقفا متحيرا طول ليله ، يتقطع قلبه لأطفال صغار يتضاغون من الجوع تحت قدميه واللبن فى يديه ، ولكنه ينتظر أبويه . ولقد كان يريحه من كل هذا العناء أن يوقظهما ولو بعد الوقت الذى يظن أنهما أخذا قسطهما فيه من النوم ، ولكن تأبى شفقته إلا أن يلمح أنهما قد يتأذيان من الإيقاظ قبل أن يستوفيا قسطهما من النوم ويستيقظا بأنفسهما ، وأنه قد يندّ عنهما النوم بعد ذلك فلا يجدان السبيل اليه ، فيكون قد أساء اليهما أكثر مما أحسن . أما صبيته وبكاؤهم تحت قدميه من الجوع فأمر هين ، فالأطفال مرحون بطبعهم ، وما هو إلا أن يسقيهم حتى ينسوا كل شيء ، وفى طبيعتهم قوة التحمل .

أما إنها لإحدى الفضائل العظمى التى لا تصدر إلا عن قلب ملأته خشية الله وتقواه ، وحق لمن هذا شأنه أن يرعاه الله ، ويجعل له مخرجا ، ويجعل له من أمره يسرا . مثل هذا يدخل فى مضمون ما ورد « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » . إن نفسا كهذه بين رعاة الغنم تحمل النفوس على احترام طائفة بأسرها ، ولكن من هذا وقد كان من بينهم خيرة الخلق عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . ولقد سمع الله من هذا الراعى فكشف عنهم ، ولله فى خلقه إرادة ، فلقد كان قديرا أن يكشف الباب جميعه ، ولكنه أراد أن يوجه كل من الثلاثة قلبه نحو خالقه ، ويمنحه شطرا من كرامته ، حتى يتبين للناس إكرام الله لأهل طاعته ، جعلنا الله منهم .

ثم انظر الى صاحب القصة الثانية : شاب يملأ الحب شغاف قلبه ، ويحب ابنة عمه كأشد ما يحب الرجل النساء ، يتدله فيها ويهيم ، ويسأل عنها ضوء الكواكب ويستنشق منها ريا النسيم ، تتطاول به السنون ، وهو يعلل النفس بما يكون أو لا يكون ، ثم تسعفه الفرصة ، ويكاد يبل تلك الغصة ، أصابتها سنة قحط فلوت قيادها ، وألانت عنادها ، فجاءته تزجيها الحاجة وتعلوها الذلة ، فطلبت إليه مع ذلك شططا : طلبت إليه مائة دينار فى تلك السنة المجدبة ، ليس معه منها درهم ، يقول : فسعيت حتى جمعتها ، وفى رواية : جمع لها عشرين ومائة . ما أشد سلطان الحب ! يخلق من الجبان أسدا ، ومن الضعيف ماردا . الحب ، وما أدراك ما الحب :

الحب أول ما يكون مجانة فإذا تمكن صار شغلا شاغلا

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

نقدها الدنانير الكثر ، ليصل الى ذلك الأمر . ولقد استسلمت الفريسة ، ولكن خشية الله لم تتخل عنها . الله أكبر : إن مجرد كلمة الرجل فى أذن المرأة وقوله لها : أحبك ، تعمل فى نفسها كل عمل ، وتملأ قلبها بالأمل بعد الأمل فكيف به وهو ابن عمها ، يقضى الأيام الطوال يترضاها ، ويبدو لها منه ما هى أدرى به ، ثم تتحداه بالمرهق المعجز فى السنة الجدباء ، فيحضره لها ثمنا لما أراد ، وبرهانا على صدق الوداد . وهل كانت إلا فتاة لها حظ فى الرجل كحظه منها ؟

انظر اليها فى هذه الساعة الرهيبة تدركها خشية الله ، فترتعد وتبكى ، وتذكره الله ألا يركب منها ما حرم الله عليه ، فتلاحقه هو أيضا الخشية ، وتحوطه تقوى الله ، ويتذكر حين ذكرته أن الذكرى تنفع المؤمنين ، فيقول : هذه تخاف الله فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء ، فينصرف عنها طاهرين تقيين نقيين . الحمد لله ، هذا هو مقام الخشية والخوف من الله . هذا هو ما جاء فى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » وفى قوله عز وجل : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » يردف هذا بمنة

عظيمة فيدع لها المائة الدينار ، وينفلها عليها عشرين دينارا ، كما جاء فى بعض الروايات . اللهم لا توفيق إلا توفيقك ، ولا معصوم إلا من عصمت .

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدى بها من تشاء

أما إن للشيطان فى مثل هذه الحال لجولات وصولات ، فكم يغرر بهما ويسهل الأمر عليهما ، ويضمن لهما أن لن يقترفا جرما ولا إثما ، وإنما هى المداعبات البريئة ، حتى إذا غشى قلبهما ما غشى ، ووقعا فى الشرك الذى نصبه لهما ، تولى عنهما بفرح وسرور ، وقال : ما كان لى عليكما من سلطان إنما دليتكما بغرور . اللهم إنا نعوذ بك من الشيطان ومن الهوى .

وهذا الثالث صاحب الأجير : ترى الأجير فى طمعه يحسد من عمل فى نصف يوم مثل عمله فى يوم على أن يأخذ مثل أجره ، والمالك لو أعطاه بلا مقابل فلا سبيل عليه ، فيذهب به الغضب الى الاباء ، فينصرف مغاضبا رافضا أخذ أجره ، ثم يمكث السنين الطوال كما يدل عليه أنه زرع الفرق ونماه واشترى من غلته بقرا وراعيها وإبلا وغنما ، وهل يأتى ذلك فى عام أو عامين والفرق ثلاثة آصع من ذرة أو من أرز ؟ يجىء هذا المغاضب المحتج فيطلب أجره ، ولو شاء المستأجر لتجاهله وأنكره ، ولو سمح فأعطاه ذلك الفرق لكان جميلا منه ، ولكنه امتحن الله قلبه للتقوى فوفقه لزرعه وتنمية غلته حتى اشترى منها بقرا وراعيها ، وأضاف اليها إبلا وغنما ، فأصبح مالا وفيرا ورزقا كبيرا ، ومتى تبتلى النفوس بالشح إلا حينئذ ؟ جاءه الأجير راضيا بأخذ الفرق الذى استحقه على عمل يومه ، فقال : دونك هذه النعم فاستقها براعيها ، وبروى برعاتها ، فقال الرجل — وحق له أن يقول : أتستهزئ بى ؟ وهل يظن هذا إلا أنه استهزاء ؟ يقول له : أعطنى فرق ذرة أو فرق أرز ، فيقول له : استق هذه النعم برعاتها ويصر على أن الأمر جد وأنها له حتى ليأبى أن يقول له : لقد منحتكها ولكنه يقول : أنا لا أستهزئ ولكنها لك ، فلا يقبل على نفسه ولا أنه صاحب جميل فيما أعطى ، ويقول إنها وديعة يأخذها صاحبها وكفى : هذه هى الأمانة حقا ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

إن هذا لهو القصص الحق ، يبين لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم سبيل الهدى لنسلكه ، ويقرب لنا سبب الخير لندركه ، ويصور لنا روح الطاعة لنتحلى بها ، ويجمل لنا وجه الزلفى لنتعلق بسببها . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! ثم يشرح لنا كيف كانت نجاتهم بسبب لجئهم الى من تعرفوا اليه فى الرخاء فعرفهم فى الشدة ، وكيف يكون يمن الطاعة فى الدنيا ، والدار الآخرة خير وأبقى .

نسأل الله أن يسلكنا فى زمرة المتقين ، ويجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

ابراهيم الجبالى

آداب المماشاة

وجه هشام بن عبد الملك ابنه على الصائفة ، ووجه معه ابن أخيه ، وأوصى كل واحد منهما بصاحبه . فلما قدما عليه قال لابن أخيه : كيف رأيت ابن عمك ؟ فقال : إن شئت ياأمير المؤمنين أجملت ، وإن شئت فصلت . قال: بل أجمل . فقال: عرضت بيننا جادة (أى طريق واسعة ممهدة) ، فتركها كل منا لصاحبه ، فما ركبناها حتى رجعنا إليك .

وقال يحيى بن أكثم : ماشيت المأمون يوما فى بستان مؤنسة بنت المهدى ، فكنت من الجانب الذى يستره من الشمس . فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع ، أردت أن أدور الى الجانب الذى يستره من الشمس . فقال : لاتفعل ، ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى . فقلت : يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك حر النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ فقال : ليس هذا من كرم الصحبة . ومشى ساترا لى من الشمس كما سترته .

وقيل لعمرو بن ذر : كيف بر ابنك ؟ قال : ما مشيت نهارا قط إلا مشى خلفى ، ولا ليلا إلا مشى أمامى ، ولارقى سطحا وأنا تحته .

الضمير (١)

الضمير هو مجموع الآراء الخلقية التى توجد وقتا ما فى مدركة الانسان وتكون له بمثابة مرشد لسلوكه فى طريق حياته .

وإذا كان هذا الضمير يضعف فإنه كذلك ينمو ويشحذ بالتربية الفردية والاجتماعية ، ويختلف عند الأفراد والشعوب قوة وضعفا .

إن هذه الحالات النفسية الفردية والقومية تكون فى غالب الأحيان ثابتة بحيث يمكن أن نعزوها الى مجرد الوراثة ، وأن نعتبرها من الخصائص الراسخة فى الجنس ، بيد أننا نرى أن تلك العقليات لدى الأفراد ترتقى بالنصائح الحكيمة ، ولدى الشعوب بتأثير تيار من المبادئ الدينية والخلقية .

وإن إثبات هذه الوقائع يحملنا على أن نعتبر الضمير كثمرة للتربية بشرط أن نسلم بأن هناك تأثيرا للاستعداد الفطرى يرجع الى الوراثة والأصل .

أول كل شىء يجب أن يكون كل إنسان قادرا على التفكير ، وأن يفكر بحكمة ، إلا أنه يوجد أناس كثيرون ليسوا فى حالة يلجأون معها الى الإقدام على هذا العمل (عمل التفكير) ، وهم بذلك محرومون من المبادئ التى تعتبر أساسية ولا غنى عنها .

ولكن من المفيد نظريا معرفة ما إذا كانت إحدى الفكر التى تجول بخاطرنا هى فطرية وجدت معنا منذ نشأتنا أم أن جميع أفكارنا هى ثمرة « التجربة » .

إنى لا أتبين تماما ماذا يمكن أن يوجد فى دماغ الطفل عند ولادته ، وإنه ليخيل لى أنه عند مجيئه الى هذا العالم لا يملك سوى غرائز وشعور بالحاجات المادية ، وإنه

---

(١) ملخص عن الفرنسية من كتاب تربية النفس بالنفس للدكتور (دوبو) أستاذ علم الامراض العصبية بجامعة برن .

من الجرأة أن نقول إن عنده أفـكارا وخصوصا أفـكارا مركبة كتعطشه للانسجام أو حاجته للعـدل ، ولكن منذ الأيام الأولى من الحياة تبدأ التربيـة عن طريق التجارب المحسوسة ، وبالشعور بالراحة والتعب الناشئين عن المؤثرات الجثمانية كالحر والبرد ، وهى مؤثرات تـكون ملطفة أو حادة بالنسبة لحساسية المجموع العصبى . ولهذا الإحساس تأثير على عقلية الطفل منذ الساعـة الأولى من ولادته ، ومن هذا ندرك أن تعاقب بعض المؤثرات المؤلمة يمكن أن تغير من أخلاق الطفل ، وتجعل عنده استعدادا للغضب الذى نلاحظه عند الأطفال الذين أصيبوا ببعض الأمراض ، أو أسيئت معاملتهم ، وقد لا تزول عندهم هذه الوصمة . وما يدرينا أن هذه التربية بواسطة الحواس لا تبدأ قبل الولادة والطفل فى بطن أمه حيث قـد يجد الجنين بعض الظروف السيئة لتـكوينه ويتأثر بالمؤثرات المؤلمة ؟

ويصل الطفل شيئا فشيئا الى معرفة آراء جديدة عن طريق تجاربه الشخصية ، ثم بعدئذ عن طريق تجارب الغير عندما يكون فى حالة يدرك معها الأشياء ، فهو يتخلص من عقليته الساذجة ليكوّن نفسه الانسانية المستعدة لقبول الآراء المعنوية والفكرة الأدبية ، فهو يدرك فكرة البعد عند رؤيته للأشياء التى أمام عينيه والمسافات التى تشغلها ، ويدرك نظرية الوقت بمراقبة تعاقب الحوادث ، فيتعلم فهم هذا العالم ، ويسعى فى الحصول على ما يريحه ، ويتجنب ما لا يسره . فعندما يعامل بالحسنى من جانب الناس الذين يحيطون به مثـل أمه أو مربيته فإنه يصل الى إدراك معنى الحسنى فيقدرها بشكل أنانى تماما ، ولـكن فكرة العدل تلزمه بعد ذلك بصفة شخصية دائما عند ما يتألم ممـا يصيبه من الجور .

إن المنطق يدعو الى الامتعاض من الجور لمجرد أنه وقع علينا . ونحن ندرك مقدار الألم الذى يسببه هذا الجور ، وليس هنـاك محكّ للآراء أسهل ممـا يحدث بسبب الضدية « وبضدها تتميز الأشياء » فإن فـكرة العدل يجذب اليها الوقوع فى الجور ،

وكما قال روسو فى كتابه « إميل » : « إن أول شعور لفكرة العدل لا يأتينا مما نحن مدينون به للغير ، ولكن مما يكون هذا الغير مدينا به لنا » .

وكذلك نظريتا العدل والانسجام تنطبعان فى قلب الطفل بسهولة ، إذ أنهما تنبعثان من الرغبة فى العيشة الرغدة ، فضميرنا يتكون من جميع الآراء المعنوية والأدبية التى ندين بها الى التجارب . فبعض تلك الآراء ينمو بسرعة عظيمة ، وهى الآراء التى تتصل مباشرة بحياتنا الشهوانية ، وبعض الآراء تكون مركبة ولا يمكن إدراكها إلا بالنمو البطىء للعقل الإنسانى ، تحت تأثير التجارب الناضجة التامة والأكثر دقة التى نتلقاها من جميع المربين من دينيين وفلاسفة .

إن هذا الضمير الأدبى يتكامل ما بقيت حياة الانسان باكتساب آراء جديدة ، وتهذيب الآراء القديمة ، فنظراتنا للفضيلة تتحدد أو تتعدل ، وكثيرا ما ندهش عندما نصل الى سن معينة كيف أننا أقدمنا على فعل أمر من الأمور بضمير هادىء مستريح ، ذلك لأن نفسيتنا تتغير وتتبدل فى مختلف أطوار الحياة .

(نور الاسلام) : هذا ما قاله مدرس جامعة السوربون الأستاذ دوبوا . ونحن نقول: إن أكبر مقومات الضمير هو الاعتقاد بإله قادر ، يحاسب على الكبائر والصغائر ، ويطلع على ما تكنه السرائر ، وبحياة بعد هذه الحياة ، يثاب أو يعاقب فيها الانسان على ما قدمت يداه ، فكل تربية وكل تعليم لا يغنيان عن صاحبهما شيئا ما دام ضميره مقفرا من هاتين العقيدتين ، وهذا هو المشاهد المحسوس ، فإن الناس فى أيام جهالتهم ، وعدم انتشار التعليم فيهم ، كانوا بفضل هاتين العقيدتين أفضل حالا ، وأقوم أخلاقا مما هم عليه اليوم ، يشهد بذلك كل من اطلع على التايخ ودرس أحوال الأمم فى أدوارها المختلفة ، بل إن من أدرك الناس قبل خمسين سنة يرى من تدهور الأخلاق ، وسقوط الآداب فى هذا العصر ما لا كان يتوقعه ، ولا يجول فى خياله فى ذلك العهد .

فلا يمكن أن يقال إن ما هو حاصل أثر من آثار فساد التربية ، ونقص التعليم ،

فإن هذا الأثر نفسه يشاهد فى الأمم الآخذة بأدق ضروب التربية ، وأرقى أساليب التعليم ، فالمسألة ترجع والحالة هذه الى خواء الأفئدة من العقيدتين اللتين ذكرناهما ، فهما اللتان أهملتا فى برامج التعليم العصرية ، بعـد أن كان لهما المـكانة العليا فى البرامج القـديمة .

لقد خيل لقادة الانقلابات الاجتماعية أن العقائد أمور شخصية تترك الحرية فيها للناس متى أمكنهم التمييز بين الحق والباطل ، وهذا وهم منهم ، فإن النفوس إذا لم تلقح بالعقائد منذ نشأتها شبت أجنبية عنها ، ولا تكفى شكيمة الأصول الخلقية فى ردعها عن أهوائها ، فتندفع حيث تدفعها الشهوات ولا كرامة .

هذا هو الواقع ، وقد أدرك هذا الأمر كبار الفلاسفة المعاصرين من أمثال اللورد افبرى ، وكاميل فلامريون ، وهنرى بيرنجيه وغيرهم ، حتى قال واحد منهم ، إن ضميرا بلا عقيدة بالله كمحكمة بغير قاض .

وقد صدق فيما قال ، فإن القلب متى ثارت فيه ثوائر الشهوات فلا تستطيع أن تردها قوة التربية ولا قوة العلم ، لأن النفس تجد من كليهما مخرجا بالتستر أو سواه ، ولكن تستطيع أن تردها قوة العقيدة بالله . وقد صاحت هـذه القوة أن ترد عن الشهوات جماعات لم تنل من العلم ولا التربية شيئا يذكر ، فما ظنك بأمم قد حصلت منهما على أوفر الحظوظ ، وارتفعت بهما الى أعلى الدرجات ؟

يقول قائل : صحيح ما تقول ، ولـكن كيف السبيل الى غرس العقيدة بالله والعقيدة بالخلود فى النفوس بحيث تصلحان أن تكونا قوتين رادعتين ، وقد تمردت العقول ، وتنمرت النفوس ، وامتلأت الصدور بالشبه والشكوك ؟

ونحن نقول : إن الله الذى يتولى خلقه بما يصلحهم ، لم يخلهم من إمداده فى كل دور من أدوارهم بما يقوّم عقولهم ، ويصلح نفوسهم ، فقد أفاض على الناس فى هـذا العهد الذى تمردت فيه العقول ، وتنمرت النفوس ، من نور العـلم ما يكشف كل غمة

من شبهة ، ويطفىء كل ثائرة من شك ، ويدحض كل فتنة من باطل ، وإنما المعول على استجماع هذه الفتوحات العلمية واستخدامها فى وجوهها ، وهـذه وظيفة حفظة العقائد ، وحملة أماناتها بين البرية ، فإذا خُلّى بينهم وبين نفوس النابتة رأيت لذلك أثرا مباركا فى تقويم عوجهم ، وتعديل أودهم ، ولا بد من ذلك إن لم يكن اليوم فغدا : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

فضل العقل وما قيل فيه

قيل لعمرو بن العاص : ما العقل ؟ فقال : الاصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان .

وقال زياد : ليس العاقل الذى إذا وقع فى الأمر احتال له ، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه .

قال الأصمعى : ما سمعت الحسن بن سهل مذ صار فى مرتبة الوزارة يتمثل إلا بهـذين البيتين :

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوى العقول
وقـد كانوا إذا ذكروا قليـلا ... فقد صاروا أقل من القليل

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

لعمرك ما بالعقل يكتسب الغنى ... ولا باكتساب المال يكتسب العقل
وكم من قليل المال يحمد فضله ... وآخر ذو مال وليس له فضـل
وما سبقت من جاهل قط نعمة ... الى أحـد إلا أضر بها الجهـل
وذو اللب إن لم يعط أحمدت عقله ... وإن هو أعطى زانه القول والفعل

الاسترقاق عند الامم وفى الاسلام

بمناسبة مرور مائة عام على إبطال الاسترقاق

كان الاسترقاق شائعا بين الأمم قبل عهد الاسلام بألوف من السنين ، فكان قدماء الهنود والصينيين والمصريين والأشوريين والبابليين والفرس واليونانيين والرومانيين وغيرهم يتخذون الرقيق من أسرى الحروب ، كما يحصلون عليه بالشراء من أصحاب النخاسة ، وهم رجال ينبثون فى بعض الأصقاع يختطفون من يقع فى حبائلهم من النساء والبنات والغلمان ، بقصد الاتجار فيهم كالماشية سواء بسواء ، وكانوا يعرضون سلعهم البشرية فى الأسواق ، فيتردد عليها الراغبون يقلبون هذه المخلوقات التعسة الحظ ، ولا يدعون خفيا من جسمهم إلا فحصوه ، ثم يساومون مواليهم فى أثمان ما يقع اختيارهم عليه منهم ، فيعتملونهم كما يعتملون البهائم ، ويتحكمون فى حياتهم وموتهم ، غير خاشين رقيبا ولا حسيبا ، لا من ناحية الحكومة ولا من ناحية الرأى العام .

وكانت القوانين فى هذه الأمم تعطى السادة كل حق على أرقائهم حتى حق قتلهم ؛ فكان المماليك يجلدون ويعذبون لأقل هفوة ، وكثيرا ما كانوا يقتلون لأحقر الأسباب . وكان الناس يسيغون هذه القسوة لاعتقادهم أن الأرقاء ، وخاصة السود منهم ، ليسوا من الأسرة البشرية . وقد اشترك الفلاسفة مع الدهماء فى احتقار الأرقاء حتى إن أفلاطون الفيلسوف اليونانى الكبير ، وتلميذه أرسطو الملقب بأمير الفلسفة ، قررا فى تعاليمهم أن العبيد يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية .

وقد نقل التاريخ أن الشبان فى إسبارطا من الممالك اليونانية ، كانوا يمرنون على الفتك بالأعداء فى أشخاص العبيد ، فكانوا يوقفونهم جماعات جماعات ، عزلا من السلاح ، ويأمرون شبانهم بالهجوم عليهم والتنكيل بهم ، فكانوا يقومون بما يؤمرون

به فتجرى دماء أولئك الأرقاء أنهارا ، بلا داعية معقولة غير تعويد الشبان على سفك الدماء ، والتنكيل بالأعداء !

وروى أن بعض براطرة الرومانيين كان له فرقة موسيقية من المماليك ، فارتأى أن يبتر سواعد الضاربين على الآلة المسماة بالترومبيتا ، وأن تربط مضاربها فى أعضادهم لكيلا يتكلفوا ثنى أذرعتهم وهم يضربون عليها .

وكان نساء اليونانيين والرومانيين فى ذلك العهد محجبات ، فكان الرجال يتخذون الخصيان لخدمتهن ، وكانت تزهق أرواح الألوف المؤلفة من الأطفال الذين يعدونهم لهذه الخدمة بتأثير هذا العمل الجراحى الخطير الذى كان يزاوله رجال ليس لهم أقل علم بالجراحة وتضميد الجروح .

ولما جاءت الديانتان اليهودية والنصرانية تركت الاسترقاق على ما كان عليه ، فبقى أتباعهما عاملين به الى نحو منتصف القرن التاسع عشر .

ولما اكتشف الأوربيون أمريكا واستعمروها ، وجدوا أنه تعوزهم الأيدى العاملة وخاصة بفلاحة الأرض ، وحفر المناجم ، فكانوا يرسلون بسفنهم الى شواطئ أفريقا فيشحنونها بمئات من الزنوج ويعودون بها الى أمريكا ، فيموت من هؤلاء السود من يموت فى الطريق ، فيلقون بهم فى اليم ، ويعتملون من بقى منهم فى أشق الأعمال وأشدها إرهاقا فى مقابل تغذيتهم وإيوائهم ليس إلا . أما العناية بصحتهم والاهتمام بتثقيف عقولهم ، وإعدادهم للحياة الصحيحة ، فكان لا يفكر فيه إنسان ، لأن الدهماء كانوا يعدونهم أحط من البيض من كل الوجوه . من هنا كثر السود فى أمريكا حتى ليبلغ عددهم هنالك اليوم نحو عشرين مليونا غير الذين هاجروا منهم الى أفريقا منذ أعلن تحريرهم ، وأسسوا لهم مملكة فى شمال غينيا الشمالية باسم جمهورية ليبريا ، تحت حماية انجلترة ، لا تزال قائمة الى اليوم .

ولما جاء الاسلام نظر فيما نظر فيه من أمر العالم فى حالة الأرقاء ، فلم ير من الحكمة

إبطال الاسترقاق طفرة ، ولكنه أحدث انقلابا خطيرا لم يحدث ما يشبهه ولا ما يقرب منه على يد أى مصلح عظيم ، فقرر أن المماليك إخوان لمواليهم لهم عليهم حقوق الأخوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم » . لذلك منع النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول أحدهم : عبدى وأمتى فقال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى » .

هذا تجديد فى أمر الاسترقاق لم يكن يخطر على بال إنسان فى الأرض قبل الاسلام ، وهو حد فاصل بين القسوة الجامحة وبين مخلوقات بريئة أوقعها نكد طالعها فى الأسر وليس لها غير الله من ملجأ تلجأ اليه .

ولم يقف الاسلام من عنايته بالرقيق عند هذا الحد الأدنى ، ولكنه تعداه الى أقصى حدوده المادية ، فلم يغفل طعامه وشرابه وكسوته ، فأراد أن يساوى فيها سادته فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله لقمة » وفى رواية أخرى : « اذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ، فكفاه حره ومؤنته وقربه اليه ، فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله ، أوليأخذ أكلة فليروغها (أى فليشبعها بالدسم) وأشار بيده ، وليضعها فى يده وليقل كل هذه » .

هذا مالم يسمع به أحد قبل الاسلام ، فإن الناس كانوا يتخذون الأرقاء تعظما وتكبرا ، فإذا أكلوا وقفوهم أمام موائدهم للخدمة ، فيصيب سادتهم من أطايب الأطعمة ويتركون لهم نفايتها . وكانوا من ناحية اللباس يختصون بأرقها وأثمنها ، ولا يسمحون لماليكهم إلا بأخشنها وأرخصها . من أحسن ما يروى فيما يتعلق باللباس أن عليا كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ، فلما أحضرهما له أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت ويكفينى هذا .

أما من ناحية الاعتمال فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يكلف الأرقاء ما لا يطيقون ، فقال من حديث فى حقهم : « ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « للملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » .

وكان عمر رضى الله عنه يذهب الى العوالى فى كل يوم سبت فاذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه ، فقال له : يا عبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله . ثم قال أبو هريرة : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشى خلفه .

ولما استدعى عمر أمير المؤمنين الى الشام ليمضى صلحا فى بعض بلادها كما اشترط أهلها ، كان يتناوب فى الركوب بينه وبين غلامه ، فلما قربوا من المدينة كان الدور فى الركوب للغلام ، فانتهى عمر الى معسكره وهو يمشى وعبده راكب .

وأما من ناحية الإحسان الى المملوكين والتلطف فى معاملتهم ، فإن الاسلام قد شدد فى ضرورة ذلك تخفيفا لحالة العبودية على العبيد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من ضرب غلاما له فكفارته عتقه » .

وقال عبد الله بن عمر : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة » .

وقال الزهرى من أئمة الحديث : متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر .

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : « بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : اعلم يا أبا مسعود — مرتين — فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقيت السوط من يدى ، فقال : والله لله أقدر عليك منك على هذا » .

ودخل رجل على سلمان رضى الله عنه فوجده يعجن ، فقال له : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها ، فذلك له أجران » .

مِن أعجب وأعظم ما يذكر فى هـذا الموطن أن الاسلام قرر أن الأرقاء يثابون على الطيبات فى الآخـرة ضعف ثواب الأحرار ، ويعاقبون على جرائمهم فى الدنيا بنصف عقابهم . فخل هذا جانبا وانظر الى ما كان يعاقب به الأرقاء على أصغر الهفوات بنصوص القوانين الوضعية .

أما الحياة الآخرة فقد كان ميئوسا منها بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يعتبرون مجردين من الأرواح البشرية !

ولقد حبب الإسلام فى العتق الى حد لم يعهد له مثيل فى الأمم ، فجعـل العتق جزاء فى الـكفارات عن كثير من الآثام ، وحض عليه فى أحاديث كثيرة ، وسهل على المملوكين سبيل الحـرية بواسطـة المكاتبة ، وهى أن يكاتب المولى عبده على مال يؤديه إليـه فى مقابل عتقه ، فينصرف للعمل والـكد حتى يؤدى لسيّده ذلك المـال فيصبح حرا . ومن شدة رغبة الاسلام فى العتق أن جعل الله جزءاً من مال الزكاة ينفق على مساعدة الأرقاء على الخلاص من أسرهم بإمداد المكاتبين بالمـال لتوفية ماعليهم .

ومن أجلّ وأكبر ما نذكره من آيات الاسلام أنه لم يوصد باب العـلم فى وجه عبد بحجة عبوديته ، ولـكن تركت له حرية التعلم والتبحر حتى وصل عدد كبير منهم الى درجة الإمامة ، كبلال مولى أبى بكر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ونافع مولى عبد الله ابن عمر ، وتولى كثير منهم الخطط الهامة فى القيادة والإدارة ، فولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا المدينة ، وولى أسامة بن زيد مولاه قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر .

وقد جرى المسلمون على هذه السنة ، فاتفق أن كان جميع الأئمة فى الأقطار الاسلامية

فى القرن الأول من الموالى إلا واحدا . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للقرافى : « إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى إمام الحديث يوما : « من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهرى : عطاء . قال هشام : بم سادهم ؟ فقال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم : من كان ذا ديانة حقت الرياسة له ، ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاووس ، وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله أهو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى (أى أصله مملوك أو ابن مملوك) الى أن أتى على ذكر النخعى فقال : إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » .

هذه آيات إسلامية تأخذ باللب والقلب معا ، وتدل فى جملتها وتفصيلها على أن الاسلام كان يعطى الحق لأهله بصرف النظر عن ألوانهم وجنسياتهم ، عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » وجرى المسلمون على هذه الطريقة ، فلم يحرموا العبيد من تولى أرقى المناصب ، وقد اتفق أن تولى بعضهم الملك أيضا .

قلنا فى أول هذه المقالة : إن الاسلام أقر الاسترقاق كما أقرته جميع الأديان ، ولكنه امتاز عنها بحصر وسائله فى دائرة واحدة معقولة هى دائرة الحرب الشرعية ، أما بقية وسائله التى يجمعها اسم النخاسة فقد أبطلها وعفى على أثرها ، فلا يحل لمسلم أن يشترى إنسانا اختطفه النخاسون من بين أحضان أبويه . فكان الاسلام بذلك أول من قضى على النخاسة قبل أن يفكر فى ذلك الأوروبيون بنحو ألف ومائتى سنة . فلم يبق للاسترقاق إلا هذه الدائرة وهى قابلة للضيق ، بل وللزوال أيضا على حسب الأحوال ، فقد تقل الحروب لعدم ما يقتضيها ، وقد تزول بتاتا إذا نجحت الجهود التى تبذل لا تقائها ، وربط الدول والأمم بميثاق الألفة والتعاون .

وقد قال الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وإذا فرضنا أن أمنية السلم العام لم تتحقق ووقعت حرب كان من نتائجها دخول المحاربين أسرى فى يد المسلمين ، فإن لإمام المسلمين أن يمن على الأسرى فيهبهم لأنفسهم ويطلق سراحهم بدون أى مقابل سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وعند مادعت إحدى الدول فى سنة ١٨٣٤ الى عقد اتفاق عام بإبطال الاسترقاق كانت الدول الاسلامية على اختلاف جنسياتها أول الملبين لإجابة هذه الدعوة ، لأن دينها الاسلام يسعى الى تحرير الرقيق ، بل يجعله من القربات التى يتقرب بها المسلم الى ربه .

هـذه صفحة مجيدة من صفحات الاسلام تتمثل فيها أصول إسلامية هى أعجب ما وصل الى علم البشر منذ خلقهم الله الى اليوم . وأى شىء أعجب وأدل على إلهية هذا الدين من إحاطته الأرقاء وهم أضعف طوائف البشر وأحقرها فى العرف العام بهذه الحماية التى لم يسمع بمثلها فى الأرض ، وتخويله إياهم حقوقا على سادتهم ما كان يحلم بها الأحرار أنفسهم فى العهود الخالية ؟

محمد فريد وجدى

مكانة القرآن الكريم

روى عن على أمير المؤمنين قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذى تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، والذكر العظيم ، والصراط المستقيم .

وقال عبد الله بن مسعود : إذا رتعت (أى فى تلاوة القرآن) رتعت فى رياض دمثة أتأنق فيهن .

باب الأسئلة والفتاوى

بيع المقابر المهملة — التبرع لبناء المآذن وغيرها
شهادة الزور — جريمة تسميم البهائم

ورد إدارة المجلة هذه الأسئلة :

١ — مقابر ترك الدفن فيها من مدة خمسين سنة تقريبا ، فهل يجوز بيع أنقاضها والانتفاع بموضعها فى الزرع ؟

٢ — هل يعتبر التبرع لبناء مئذنة لأحد المساجد والتبرع لبناء مقام لأحد الأولياء داخلا فى قوله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » أعنى هل يثاب المرء على ذلك ؟

٣ — ما حكم الشرع الشريف فيمن كان يؤدى شهادة أمام القاضى وظهر أنه كاذب فى شهادته ؟

٤ — ما الحكم شرعا فى سم بهيمة انتقاما من صاحبها ، وكذلك لو قلع زرعه أو حرقه ؟

محمد حسينى بدر — من أهالى ابنهس

الجواب

١ — المقابر المهجورة : إذا علم أن فى القبر شيئا من آثار الميت عظما أو غير عظم ، لم يجز نبش القبر ، ولا نقل عظام الموتى منه إلا عند الضرورة ، كأن لحق القبر سيل أو نداوة .

وإذا بلى الميت وصار ترابا جاز نبش القبر وجعل مكانه مزرعة أو غيرها ، وجاز لمالك الأنقاض الانتفاع بها ، والتصرف فيها بسائر أنواع التصرفات الشرعية .

وليس لبلى الميت زمن معين، بل ذلك يختلف باختلاف البلاد وجفاف الأرض ونداوتها. ويعتمد فى ذلك قول أهل الخبرة. وقد ثبت فى صحيح البخارى عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أنه دفن أباه يوم أحد مع رجل آخر فى قبر، قال: ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فاذا هو كيوم وضعته هيئة غير أذنه. وفى رواية للبخارى أيضا « أخرجته فجعلته فى قبر على حدة » وذكر ابن قتيبة فى المعارف أن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضى الله عنهم دفن فرأته بنته عائشة بعد دفنه بثلاثين سنة فى المنام فشكا إليها النز، فأمرت به فاستخرج طريا، فدفن فى داره بالبصرة. وذكر غير ابن قتيبة أنهم حين حولوه قال الراوى: كأنى أنظر الى الكافور فى عينيه لم يتغير، إلا عقيصته فإنها مالت عن موضعها، واخضر شقه الذى يلى الأرض من نز الماء.

٢ — يعتبر التبرع لبناء مئذنة لمسجد من عمارة المساجد التى مدح الله القائمين بها فى قوله عز اسمه: « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » الآية.

ولا يعتبر التبرع لبناء مقام لأحد الأولياء فوق قبره داخلا فى عمارة المساجد، لأن البناء على القبر مكروه عند جماهير الفقهاء، لما روى مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم عن جابر رضى الله عنه قال: « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يقعد عليه » قال العلماء: ولا فرق فى البناء بين أن يبنى قبة أو بيتا أو غيرهما. ثم ينظر: إن كانت مقبرة مسبلة حرم عليه ذلك. قال أصحاب الشافعى: ويهدم ذلك البناء بلا خلاف. قال الشافعى فى الأم: ورأيت من الولاة من يهدم ما بنى فيها. قال: ولم أر الفقهاء يعيبون عليه ذلك، ولأن فى ذلك تضييقا على الناس. وإن كان القبر فى ملكه جاز بناء ما شاء مع الكراهة ولا يهدم عليه. وحكى النووى عن أبى حنيفة رحمه الله جواز البناء على القبر المملوك بلا كراهة. وعلى كل حال لا يعتبر البناء على القبر من عمارة المساجد فى شىء.

٣ — إذا ظهر للقاضي كذب الشاهد عزره بما يراه من حبس أو ضرب ، إلا اذا كان من الشهود بالزنا ، فإن الشارع جعل للكاذب فى الشهادة بالزنا عقوبة معينة وهى جلده ثمانين جلدة ، ورد شهادته ، وتفسيقه .

٤ — من أتلف زرع غيره أو أهلك مواشيه فعليه قيمتها ، وعلى الحاكم تأديبه بما يراه من حبس أو ضرب ﷺ يوسف المرصفي الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى

« حكم بيع الصكوك »

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يعد من المرابين من يشترى الصكوك من الدائنين بأقل من قيمها ليتقاضاها بتمامها من المدينين ؟ عبد المنعم اسماعيل شلبي — القنايات

الجواب

هذه مسألة بيع الدين لغير من هو عليه ، وللشافعية فى ذلك تفصيل :

١ — فإن باعه بدين كان بيعا باطلا ، لما صح من نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الكالئ بالكالئ . قال علماء الحديث : معناه بيع الدين بالدين .

٢ — وإن باعه بعين فإن لم يتفق العوضان فى علة الربا صح البيع على المعتمد . مثاله أن يكون الدين نقدا فيبيعه بقمح مثلا .

٣ — وإن باعه بعين واتفق العوضان فى علة الربا كأن كان الدين نقدا فباعه بنقد فلا بد من قبض العوضين فى مجلس العقد ، وإلا كان البيع من الربا المحظور ﷺ

الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفي الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

حكم بعض الايمان — من مات له ثلاثة أولاد

وجاء من أحد قراء المجلة السؤالان الآتيان :

١ — ساوم رجل آخر فى ثوب مثلا بجنيه ، فحلف صاحب الثوب لا يبيعه إلا إذا زاد عن جنيه — وهو يقصد أن الثمن الذى يصل اليه ويدخل فى ملكه لابد أن يكون أزيد من جنيه — فتوسط ثالث وأبرز قرشا وضمه للجنيه وأعطاه لصاحب السلعة ليبر فى يمينه فقط ، وبعد ذلك أخذ الوسيط القرش من البائع ، فما حكم هذه اليمين ؟

٢ — ما معنى الحديث « لا يموت لمؤمن ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم » ؟

الجواب

١ — الأيمان مبنية على العرف ، ولا شك أن العرف يحكم فى هذه المسألة بأن الرجل باع الثوب بجنيه فقط ، وقد حلف لا يبيعه إلا إذا زاد عن جنيه ، فيكون حينئذ قد حنث فى يمينه .

٢ — تقول العرب : ضربه تحليلا إذا لم يبالغ فى ضربه ، قال كعب بن زهير :

تخدى على يسرات وهى لاهية ذوابل وقعهن الأرض تحليل

أى قليل ، كما يحلف الانسان على الشىء أن يفعله فيفعل منه اليسير يحلل به يمينه ، مثل أن يحلف على النزول بمكان ، فلو وقع به وقعة خفيفة أجزأته ، فتلك تحلة قسمه . وللعلماء فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا تحلة القسم » رأيان : (أحدهما) أن قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » منزل منزلة القسم لتحقق وقوعه ، فالمعنى أنه يرد النار زمنا يسيرا مقدار ما يحقق قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » .

(والثانى) أن هذا مثل، ومعناه لا تمسه النار إلا مسة يسيرة مثل تحلة قسم الحالف، ويريد بتحلته الورود على النار والاجتياز بها ﴿؟﴾

الحسينى سلطان ، يوسف المرصفى
الشافعى الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

« حكم التبليغ وراء الامام »

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع هذا السؤال :

ما حكم التبليغ وراء الإمام فى الصلاة ؟ وما حكم المبلغ نفسه : هل يقصد الذكر أو الإعلام أو يقصدهما معا ؟

عبد الرحمن ابراهيم جميل — بميت حمل

الجواب

قال أصحاب الشافعى : التبليغ مطلوب عند الحاجة اليه . وذلك لأن من شروط صحة الاقتداء العلم بانتقالات الامام ، ومن وسائل العلم بانتقالات الامام التبليغ إذا كان صوت الامام لا يصل الى جميع المصلين ، وحينئذ يكون التبليغ من الإعانة على تحصيل الجماعة ، فيكون داخلا فى المعاونة على البر . أما إذا لم تدع اليه حاجة فإنه لا يكون مطلوبا والأحسن تركه .

وينبغى للمبلغ إذا كان من المصلين أن يقصد بقوله : « سمع الله لمن حمده » مثلا الذكر فقط ، ويكون الإعلام تابعا غير مقصود ، والله أعلم ﴿؟﴾

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

« أحكام فى صلاة الجمعة »

وورد أيضا :

ما حكم الله فى سكان عزبة يقرب عددهم من الخمسين رجلا يريدون أن يؤدوا

فريضة الجمعة بزاوية عزبتهم ، مع العلم بأن عزبتهم لا تبعد كثيرا عن المسجد الجامع بقرية مجاورة ، وليس لهم من علة فيما يريدون سوى الرغبة فى الراحة ؟

ناظر مدرسة إلزامية — بمركز إتياى البارود

الجواب

إذا كان فى القرية أو العزبة أربعون مكلفا حرا ذكرا وكانوا مستوطنين بها ، وجب عليهم إقامة الجمعة فى قريتهم أو عزبتهم ، سواء أكان بها مسجد أم لا ؛ ويحرم عليهم السعى الى بلد آخر ولو سمعوا النداء منه أو كان مصرا ، لما فى ذلك من تعطيل الجمعة فى محلهم ، بل يجب على الحاكم منعهم من ذلك ، والله الموفق للصواب .

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

« أحكام فى الذبح ، وفى نجاسة الكلب ، وفى صلاة الجمعة
وفى الأمانة والاستخارة »

وورد من حضرة صاحب التوقيع الأسئلة الآتية :

١ — ما قولكم دام فضلكم فى الذكاة المغلصمة عمدا أو جهلا أو نسيانا ؟ وفيما لو افترس ذئب شاة أو دجاجة ثم تدوركت وبها أمارات الحياة ؟ وما حكم المريضة التى اشتد مرضها حتى أبطل حركاتها ثم ذكيت فلم تحرك عضوا من أعضائها ولم يخرج حال التذكية غير دم قليل ؟ وفيما لو تردى بهيم فى بئر أو سقط عليه حائط وتعذر ذبحه لبعد محل النحر أو لعدم وجود مدية ولم يكن هناك غير فأس ، فهل يجوز العقر بها أم لا ؟ وفيما لو فر المذبوح من مذكيه وقد أنفذ مقتلا وتدورك عن بعد ، أو فر قبل الشروع فى الذبح لشدة قوته كجمل أو ثور مثلا وتعذر إمساكه فأطلق عليه بندق الرصاص مكبرا

ناويا بذلك الذكاة فوقع ولم يحـرك عضوا ؟ وفيما لو ترك المـذ كى شيئا من الحلقوم ، ولا فرق فى ذلك بين طير أو غيره ؟

٢ — ما الأحكام المتعلقة بالكلب من حيث الطهارة والنجاسة ، والأكل وعدم الأكل ، والصلاة على جلده ، فى المذاهب الأربع ؟

٣ — هل هناك دليل يسوغ للسادة الشافعية أن يصلوا الجمعة بعدد يبلغ عشرين فأقل ؟ وهل يجوز لمالكى أن يصلى معهم على هذا القول مع وجود مسجد آخر لقرية مالكية ، وقد توسطت إقامة هـذا الرجل بين القريتين غير أنه يشق عليه الوصول الى جنسية مذهبه ككونه كفيفا يسهل عليه الوصول الى الأول دون الثانى ؟

٤ — ما الأمانة الواردة فى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة » الآية ، وفى قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، وما العهد المقصود من الآية ؟

٥ — ما حكم الاستخارة بالسبحة ؟ وما حكم قراءة البردة والأذكار ودلائل الخيرات أمام الجنائز ؟

عبد الحميد موسى الزعيق
خطيب وإمام بمسجد منشية القاضى فاقوس

الجواب

١ — الذبح يكون بقطع الحلقوم والمرىء ، بشرط أن يبقى شىء من الجوزة نحو الرأس ، أما لو فصلت الرأس من العنق فلا يحل أكلها ، وهى المغلصمة .

٢ — ولو افترس ذئب شاة أو دجاجة وأدركت وفيها حياة مستقرة ، حلّت . وعلامة الحياة المستقرة شدة الحركة وانفجار الدم ، وإلا فلا تحل .

٣ — أما المريضة فتحل متى كانت فيها حياة ولو ضعيفة وإن لم تتحرك ، لعدم وجود سبب يحال عليه الهلاك .

٤ — لو تردى بهيم فى بئر أو وقع عليه حائط أو شرد ولم يقدر عليه ، فذكاته

عقره فى أى موضع ولو فى غير المذبح : بأن يجرحه بآلة محددة جرحا يؤدى الى خروج الروح . أما لو قتله بمثقل كبندقية فلا يحل ، وكذا لو ضربه برأس الفأس ، أما لو جرحه بحدها فيحل .

٥ — لو ترك الذابح شيئا من الحلقوم فلا يحل المذبوح طيرا أو غيره .

٦ — الكلب نجس ولا يحل أكله ولا يطهر جلده بالدبغ ، فلا تجوز الصلاة على جلده ولا فيه .

٧ — لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين ولو بالإمام على المعتمد من مذهب الشافعى ، لأن ذلك ما كان عليه السلف .

٨ — الأمانة الواردة فى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » هى التكاليف الشرعية ، وعبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله المكلفين وائتمنهم عليها وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشىء من حقوقها ، وهى المرادة بالأمانة والعهد فى قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

٩ — الاستخارة بالسبحة لا أصل لها فى الشرع .

١٠ — الذكر أمام الجنائز وقراءة البردة سبق أن تكلمنا عليه وأجبنا عنه إجابة وافية فى العدد الثانى من هذا العام فليرجع اليه السائل .

ملحوظة : المذبوحة التى حكم فيها بعدم الحل للإخلال بشرط الذبح لا فرق فيها بين العمد وغيره .

الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفى الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

« رد اعتراض على فتوى »

ورد من الشيخ أحمد الأمين محمد عبد الله إمام مسجد الأغوات بالإبراهيمية شرقية

اعتراض على فتوى نشرت فى الجزء الأول من المجلد الخامس فيما يتعلق بزكاة الحب المشترك . وحاصل الاعتراض أن الفتوى تقتضى صحة المزارعة مع أن المزارعة باطلة عند الشافعية .

وللإجابة عن هذا الاعتراض نقول :

١ — ذهب الأكثرون من أصحاب الشافعى الى عدم جواز المزارعة منفردة والى جوازها تبعا للمساقاة .

٢ — واختار النووى فى شرح مسلم جوازها مطلقا : سواء أكانت منفردة بعقد أم تابعة لعقد المساقاة . واستدل بما روى مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع ، وبأن المعنى المجوز للمساقاة موجود فى المزارعة ، قياسا على القراض فإنه جائز بالإجماع وهو كالمزارعة فى كل شىء ، وبأن المسلمين فى جميع الأمصار والأعصار مستمرون على العمل بالمزارعة . قال : وقد صنف ابن خزيمة كتابا فى جواز المزارعة ، واستقصى فيه وأجاد وأجاب عن الأحاديث بالنهى . والله أعلم .

٣ — على أن السائل إنما سأل عن زكاة الحب المشترك بين مالك الأرض وزارعها ، ولما كان للمزارعة صور تصح فيها باتفاق حملنا كلام السائل على الصحة وأجبناه عن حكم زكاة الزرع المشترك ؟

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

« دفع اعتراض على فتوى »

وورد الى إدارة المجلة اعتراض من الأستاذ الشيخ عبد الحكيم العنانى على فتوى المجلة بصحة صلاة الجمعة فى المسجد الخارج عن القرية إذا لم يكن بينه وبين مبانيها شىء

مما اعتبره الشافعية فاصلا . وحاصل اعتراضه أن المسجد المذكور يعتبر منفصلا عن القرية فلا تصح الجمعة فيه .

ونحن نقول :

مبنى الفتوى على أن المسجد المذكور (وهو المسجد الجديد بكفر طنبول القديم) متصل بالقرية وإن كان خارجا عنها . أما اتصاله بها فهو أمر ظاهر من الاطلاع على الرسم الذى كان مرافقا للسؤال ، لأن المصرف الذى كان يفصل القرية عن المزارع قد طم وصار شارعا من شوارع القرية .

والأستاذ المعترض مسلم بأن المصرف قد هدم من أمام المسجد ، إلا أن وجهة نظره هى أن المسجد لا يزال خارج البلد ولا يعتبر بعد طم المصرف متصلا بها .

فالخلاف بيننا وبينه ينحصر فى اعتبار المسجد متصلا بأبنية القرية أو منفصلا عنها . ونحن لا نطيل معه الجدل والمناقشة ، ونكتفى بنقل عبارة شيخ الاسلام زكريا الأنصارى فى شرح الروض ص ٢٤٨ من الجزء الأول ، ولعلها أحسن شىء فى حسم هذا النزاع :

قال رحمه الله :

« ويجوز إقامتها ـ يعنى الجمعة ـ فى فضاء معدود من الأبنية المجتمعة بحيث لا تقصر فيه الصلاة ، كما فى الكن الخارج عنها المعدود منها ... بخلاف غير المعدود منها . فمن أطلق المنع فى الكن الخارج عنها أراد به هذا . والسبكى لما لم يظهر له أن كلامهم يفهم ذلك قال : كذا أطلقوه . ومعناه إذا لم يعد الكن من القرية ، فإن عد منها ولو منفصلا عنها فينبغى صحتها فيها ، ففى الأم أن المسافر لا يقصر حتى يجاوز بيوتها ، ولا يكون بين يديه بيت منفرد ولا متصل . قال الأذرعى : وهو حسن ، وأكثر أهل القرى يؤخرون المسجد عن جدران القرية قليلا صيانة له عن نجاسة البهائم ، وعدم انعقاد الجمعة فيه بعيد .

وقول القاضى أبى الطيب : قال أصحابنا لو بنى أهل البلد مسجدهم خارجها لم يجز لهم إقامة الجمعة فيه لانفصاله عن البنيان محمول على انفصال لا يعد به من القرية » اهـ .

وقال العلامة الرملى فى حاشيته على شرح الروض تجريد الشوبرى : (قوله محمول على انفصال الخ) قال ابن عجيل : إذا كان بين المسجد وبين آخر بيت من القرية ثلاثمائة ذراع فما دونها انعقدت فيه الجمعة اهـ .

الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفى الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

توريث ذوى الارحام

وورد الى المجلة السؤال :

١ — عمن مات وخلف عم الأم وخالها ، فما حكم توريثهما على مذهب أهل التنزيل ؟ ومعلوم أن عم الأم ينزل منزلة أبى الأم ، وخال الأم ينزل منزلة أم الأم ، وأم الأم وارثة ، وأبا الأم غير وارث .

٢ — وعمن مات وخلف بنت عمة وعمة الأم ، وكذلك معلوم أن بنت عمة بمنزلة أمها ، وهى بمنزلة الأب ، وعمة الأم بمنزلة أبى الأم ، وهو بمنزلة الأم ، وهكذا ننزلهما ونورثهما ، كما إذا مات وخلف أبا وأما ، أم نورث بنت عمة لتنزيلها منزلة أمها ، وهى تنزل منزلة الأب ، ونكتفى بتنزيل عمة الأم منزلة أبى الأم فلا ينزل ثانيا ، إن قلتم نعم فما علة ذلك ؟ مع أن أهل التنزيل قالوا ينزل فرع منزلة أصله درجة بعد درجة الى أن تصل الى وارث . أفتونا وبينوا لنا بيانا يشفى الغليل .

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد نبيه ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما المسألة الأولى فجوابها كما ذكره السائل ، أى أن عم الأم ينزل منزلة أبى الأم ، وخال الأم ينزل منزلة أم الأم ؛ وإذا اجتمع أبو الأم مع أم الأم فإن أم الأم ترث وأبا الأم لا يرث ، فقد سبق خال الأم الى الوارث ، فيحوز كل التركة ولا شىء لعم الأم ، وذلك حيث لم يكن من ذوى أرحام الميت غيرهما ، قال شيخ الاسلام زكريا الأنصارى فى شرح روض الطالب لابن المقرى : (فرع أخوال الأم وخالاتها بمنزلة أم الأم) فيرثون ما ترثه ويقتسمونه بينهم كما لو ماتت عنهم (وأعمامها وعماتها بمنزلة أبى الأم) فيرثون مايرثه (وأخوال الأب وخالاته بمنزلة أم الأب) فيرثون ماترثه (وعماته بمنزلة أبى الأب) فيرثن مايرثه (وهكذا كل خال وخالة بمنزلة الجدة التى هى أختها وكل عم وعمة بمنزلة الجد الذى هو أخوها) . وقال فى موضع آخر : (ويقدم) منهم (الأسبق الى الوارث) لا الى الميت لأنه بدل عن الوارث فاعتبار القرب اليه أولى (فإن استووا) فى السبق اليه (قدر كأن الميت خلف من يدلون به) من الورثة واحدا كان أو جماعة (ثم يجعل نصيب كل واحد) منهم (للمدلين به) الذين نزلوا منزلته (على حسب ميراثهم) منه (لو كان هو الميت) . الى أن قال : (مثاله بنت بنت وبنت بنت ابن يحجلان بمنزلة بنت وبنت ابن فيحوزان المال بالفرض والرد أرباعا) بنسبة إرثهما فى بنت ابن بنت وبنت بنت ابن الخال للثانية لأنها أسبق الى الوارث) . وقال : (فصل والأجداد والجدات الساقطون كل) منهم (بمنزلة ولده) بطنا بطنا لتنزيل أبى الأم منزلتها وأبى أم الأب منزلتها (ويقدم) منهم (من انتهى الى الوارث أولا) . ثم قال : (فصل) لو (اجتمع أم أبى أم وأبو أم أم فالمال لأبى أم الأم لأنه أسبق) الى الوارث إذ بعد التنزيل يصيران أبا أم وأم أم (أو) اجتمع (أبو أم أب وأبو أب أم فالمال للأول) الخ .

ومن هذا وغيره من بقية نصوصهم يؤخذ أن الحكم فى المسألة الأولى أن خال الأم يحوز جميع المال وعم الأم لا يرث ، فإن خال الأم ينزل منزلة أم الأم أى الجدة التى أدلى بها ، وعم الأم ينزل منزلة أبى الأم أى الجد الذى أدلى به ، وأم الأم وارثة

وأبو الأم غير وارث . وأن الحكم فى المسألة الثانية أنا ننزل بنت العمة منزلة العمة وعمة الأم منزلة أبى الأم ، فهذه درجة فى التنزيل لم يصل بها أحد منهما الى الميراث ، فننزل درجة ثانية لكل منهما : فننزل العمة منزلة الأب أى منزلة الجد الذى أدلت به وأبا الأم منزلة الأم ، وهذه درجة ميراث لكل منهما ، فاستويا فى الوصول الى الوارث بعد درجتين من التنزيل ، فيكون الإرث بينهما كما لومات عن أم وجد ، فيكون لبنت العمة الثلثان نصيب الجد حين فقد الأب ، ولعمة الأم الثلث نصيب الأم . والله أعلم) ؟

ابراهيم الجبالى
الشافعى

الكلم البليغة فى الاعتذار

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لم يقبل من متنصل عذرا صادقا كان أو كاذبا ؛ لم يرد على الحوض .

وقال الشاعر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا إليك فلم تغفر له فلك الذنب

واعتذر رجل الى جعفر بن يحيى فقال له : قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار ، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

واعتذر رجل لبعض الملوك فقال : أنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك فى جرمه ، ولايلتمس رضاك إلا من جهة عفوك ، ولا يستعطفك إلا بالاقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزلة .

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما من غير ذى ناصر
إن كان لى ذنب ولا ذنب لى فما له غيرك من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا أن يفسد الأول بالآخر

وقال آخر :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

نظرة فى عالم النباتات

قال الله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ (أى خارجة من أصل واحد) وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وقال تعالى : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قِنوانٌ (أى عناقيد) دانية ، وجناتٍ من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينْعِه (أى نضجه) ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

معنى الآية الكريمة أن فى الأرض قطعا متجاورة من زروع ذات أنواع شتى ، تروى بماء واحد ، ويفضل بعضها بعضا فى الطعم والمنفعة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

حقا إن فى ذلك لآيات أى آيات ، وإليك التفصيل :

إن كل بزرة من أى ثمرة كانت تحتوى على مقدار من المواد المولدة للحرارة وآخر من المواد المغذية ، وفى باطنهما خلية واحدة حية تدعى جنينا ، وهى الأصل الذى ينمو ويخرج منه ساق النبات وجذوره . وهذه الخلية كيس غشائى شفٌ داخله مادة لزجة يقول علماء النبات إنها المادة الحية ، وقد عجز العلم عن إدراك كنهها ، وعن فهم سر الحياة المستكنة فيها .

أما المواد المولدة للحرارة والمواد المغذية فحكمة وجودهما أن تمد الجنين المذكور من الحرارة الغريزية بما يحفظ حياته ، ومن الغذاء بما يسمح له بالنمو حتى يبلغ حدا يستطيع معه أن يتغذى بنفسه من مواد الأرض .

انظر الى حكمة الله فى هذا الوضع المحير للعقل : إن الجنين على الحالة البسيطة التى

هو عليها لا يستطيع أن يستمد غـذاءه من الأرض ، لأنه ليس له جـذور ماصة ولا أعضاء هاضمة ، ولا يقدر أن يستمد الحرارة الضرورية لنموه من الجو ، لأنه محروم من جهاز للتنفس ، فتدارك الله له هـذا العجز بأن خلق بجانبه مـواد خلاصية تذوب فى الماء الذى يروى به فتمده بالحرارة وبالغذاء ، حتى ينمو له جذير صغير يستطيع أن يمتص له الأغـذية من الأرض ، ويرتفع له سويق فى الهواء مجهز بجهاز تنفسى يمده بالحرارة .

إن جميع الأجنة فى البزور متجانسة التركيب لا يمتاز بعضها عن بعض فى شىء ، ولـكنك لو أخذت بزورا من القمح والتفاح والشليك والحنظل والاسفاناخ والفجل والورد ، وغرستها فى قطعة واحـدة من الأرض ، وسقيتها جميعا بماء واحد ، تحصلت على أشجار وشجيرات وأعشاب مختلفة أجحاما ، ومتباينة أثمارا ، ومنوعة أوراقا وأزهارا وطعوما وروائح . هنا وقف العلم حائرا لا يدرى كيف يعلل هذا التنوع الذريع بين متحصلات بزور أجنتها ذات تركيب واحد : فما الذى هدى جـذور هذه البزور المختلفة أن لا يمتص كل منها من المواد إلا ما يناسب شجرتها وثمرتها ، ومن الألوان والروائح إلا ما يوافق زهرتها ، وأن لا تخرج عن حـدود أصولها فى تـكوين سوقها وغصونها وأوراقها ؟

هذا مدهش حقا ، ويدل على أن القدرة الإلهية تتولى هـذه الـكائنات فتقيمها على هذه السنة ، وقد أشار اليها الـكتاب فى الآية المتقدمة بأبلغ عبارة ، وعدها من آيات الله الـكبرى لأولى النهى .

هـذه الآية يمر عليها الناس صباح مساء ، ويعملون فيها بأيديهم ، فلا يلتفت لها نظر لا لشىء غير أنهم تعودوا رؤيتها .

قلنا : إن فى كل بزرة من بزور النباتات جنينا ، فهل النباتات عوالم حية ؟

نعم إنها عوالم حية ، فالحياة ليست محصورة فى الانسان والحيوانات التى نراها بين أيدينا ، ولـكنها عامة فى جميع الـكائنات النامية .

قال الأساتذة النباتيون (دوبوى وجيرار وريفيل وهيرينك) فى مقدمة كتابهم الضخم الذى أسموه المملـكة النباتية :

« إن الميلاد والنمو والظهور بأوفر حظ من القوة والجمال ، ثم الهبوط والذبول والموت ، كل هذا هو الناموس الذى تخضع له طبقات الأنواع النباتية ، كما تخضع له طبقات الأنواع الحيوانية . ظاهرة طبيعية عجيبة ، أصلها لا يزال مستورا عنا ، كأصل الـكرة الأرضية نفسها وجميع الأجرام السماوية المعلقة فى الفضاء الذى لا نهاية له .

هذه الظاهرة الطبيعية التى هى موضع التأملات المستمرة للعلم تظهر فى صور شتى ، رغما عن الدائرة الضيقة التى يعتقد الطبيعيون أنهم يحصرون فيها أصولها الأولية . وحيثما اتجه الناظر فيها يكتشف صورا جديدة دون أن ينضب معين الخصوبة الطبيعية بسبب هذا التوليد المستمر فيها . فاذا كانت الحيوانات تظهر لنا غير قابلة للحصر ، من أول أنواعها الضخمة الى أصغر أنواعها النقاعية غير المدرَكة بالعين المجردة ، فأجدر منها بعدم قبول الحصر العالم النباتى من أول دوحاته الوارفة الظلال الى أصغر أعشابه الخضراء .

« تسود المملـكة النباتية على الطبيعة سيادة عظمى ، إذ سبقت المملـكة الحيوانية فى الوجود ، وكانت سبب وجودها ، ولا تستطيع أن تستديم حياتها إلا منها . فهذه النباتات الدنيا النامية فوق الصخور الخشنة التى تـكلسها شمس محرقة فتظهر مكسوة بطبقة خفيفة منها ، هذه النباتات تأخذ فى الـكبر بقدر ما تسمح لها به البيئات المختلفة ، فهى فى مكان تمثل آثارا بسيطة لا تستطيع العين أن تدركها إلا بواسطة النظارات المـكبرة ، وفى مكان آخر تبدو ذات تركيب معقد ، أو على حالة أنواع كبيرة الحجوم تلوح لرائيها فى الغابات من الدنيا الجديدة ، كأنها شهدت عهود الانسانية الأولى ،

كما تبدو الصخور غير القابلة للتحطم أنها تقاوم أفاعيل الزمان وتتغلب عليها »
انتهى .

هذه صورة بديعة لعظمة المملكة النباتية ، وإنك لو أمعنت النظر فى فصائل هذه النباتات لوجدت بين يديك الدليل البين على القدرة الإلهية التى أبدعت جميع هذه الأنواع ، وحمت جراثيمها الضعيفة من الدثور ، على كثرة ما مر عليها من الدهور الداهرة ، والانقلابات الأرضية الثائرة . فهذه القوة الحيوية الكامنة التى أودعها الله هذه الكائنات كانت ولا تزال موضع دهش وحيرة لعقول العلماء فى كل جيل .

وهذه الكائنات النباتية تظهر فيها ظواهر الحياة كما هى فى الحيوانات سواء بسواء ، فهى تتنفس وتأكل وتشرب وتنام .

نعم إنها تتنفس ، فلو وضعت نباتا داخل زجاجة وأفرغتها من الهواء بواسطة الآلة المفرغة ، لذبل ولم يلبث أن يودع الحياة . ولكن النباتات تؤدى هذه الظاهرة الحيوية على عكس ما يؤديها العالم الحيوانى ، لأنها تستنشق الحامض الكربونى ونحن نستنشق الأوكسيجين ، وتزفر الأوكسيجين ونحن نزفر الحامض الكربونى ، فهى تعوض الهواء مايفقده من عنصر الحياة للحيوانات ، ولولا هذا الوضع الإلهى الحكيم لنفد الأوكسيجين من الهواء وهلكت الحيوانات اختناقا وفى مقدمتها الانسان .

قلنا : إن النباتات تأكل وتشرب ، نعم وهى تأكل الكربون والنوشادر والكبريت والفوسفور ، وتشرب الماء ذائبة فيه مواد أخرى . وقد جهزها الله لتوفية هاتين الحاجتين بجذور وأوراق تسمح لها بالتقاط هذه المواد من الهواء والتراب وقد تحتال للحصول عليها .

والنباتات تنام ، فأكثرها يظل نائما من غروب الشمس الى طلوعها ، وبعضها لا يبكر فى الانتباه من النوم ويبقى نائما الى ما قبل الظهر ، وبعضها لا يستيقظ طول النهار إذا كان الجو مؤذنا بالمطر .

وقد شوهد أنه توجد علاقة خفية بين النباتات والنور ، فبعضها يجرى فى النور ، وتَفتَّح براعيمه على عادة فصائله لايحيد عنها ، ومنها ما يتبع تقلبات الجو ، ومنها ما يتبع سير الشمس بنظام محكم ، مما سمح للأستاذ (لينيه) أن يتخذ منها ساعة نباتية .

ومما لا مشاحة فيه أن للنباتات خاصة التمييز ، فهى تميز بين ما يصلح لها ومالا يصلح ، كما تميز بين الأغذية المختلفة فتمتص مايوافقها منها وتترك ما لا يوافقها . ولها أسلحة دفاعية ، فلشجرة الورد شوك ، ولزهرتها سم مخدر ، فالشوك ليحمى نفسه من هجمات الفراش عليه ، والسم لتخدير الحشرات كيلا تعدو على زهراته فتصوحها .

وقد لاحظ الأستاذ (غريمار) فى كتابه المسمى (النبات) بأن للنباتات غرائز لحفظ ذواتها تبلغ الى حدود التطرف ، كتطلب الحياة الكاملة ، والوجود الصحيح ، والتعطش للبقاء . فهى لذلك تحيد عن الموانع التى تصدها عن بلوغ كمالها ، وتتجنب مجاورة الأشياء التى تضرُّ بها ، وتبحث بشراهة عن الهواء والنور والتربة الثرية بالمواد المغذية ، وعن الماء ، وتدرك أماكن وجوده ، فتمد إليه جذورها بمهارة تحير العقل .

وقد شوهد كثيرا أن أشجارا أعوزها الماء فاخترقت جذورها الأرض الى جهات بعيدة ، حتى انتهت الى بعض الصهاريج أو الآبار فثقبت جُدُرها الشديدة الصلابة واتصلت بالماء الزلال .

وكتب المهندس (دوهامل) بأنه لما رأى أن أشجارا من الحور تمد جذورها الى أرض مجاورة لها وتمتص موادها ، فتفقدها خصوبتها ، عمد الى حفر خندق بينها وبين تلك الأشجار ، قاطعا جميع الجذور الممتدة منها الى تلك الأرض ، فلم تستسلم هذه الأشجار لهذا العمل القاسى ، ولكنها مدت الى تلك الأرض جذورا جديدة مررتها تحت الخندق ، فاستدامت بذلك طُعمتها على أكمل ما يكون من الاطمئنان .

للنباتات غرام شديد بالضياء ، فقد شوهد أن منها ما يمتد الى نحو أربعين مترا ليخرج من الظلمات الى النور .

وقد وضع المجربون شجرة ياسمين تحت سطح من الخشب المثقب ليحجبوا عنها النور ، فكانت تبرز من بعض تلك الثقوب فى طلب النور ، فأعادوها الى الظلام ثمانى مرات ، فكانت لا تلبث أن تظهر من بعض تلك الثقوب فى كل مرة .

ومن أغرب النباتات النبات المسمى بصائد الذباب ، فإنه يبسط أوراقه المستديرة القابلة للانطباق ، ويفرز عليها قليلا من المادة العسلية التى يهواها الذباب ، فإذا ماوقعت عليها ذبابة انطبقت عليها أسرع من البرق ، فلا تدعها تفلت حتى تمتص مادتها ، ثم تنفتح فتلقى بجثتها بعيدة عنها ، ثم لا تعود الى الانطباق حتى تقع عليها فريسة أخرى .

هذا معرض عام لحياة النباتات ، ولما جهزت به من القوى التى تستديم بها وجودها ، وتستكمل بها مقوماتها ، قد نقلناه عن كبار المؤلفين من العلماء بطبائعها ، وكل ما نلاحظه عليهم فيه أنهم ينسبون اليها النظر فى شئونها ، والتفكير فى أمورها ، والعمل على ما به حياتها وقوامها . ولو صحت هذه النسبة لوجب علينا أن نعزو اليها عقلا أرقى من عقل الانسان نفسه ، وشعورا أدق من شعوره ، وإلماما بمصالحها أوسع من إلمامه بمصالحه ، وهذا ينافى أبسط قواعد المنطق ، ويناقض أصول العلم التى نصبوا أنفسهم حفظة عليها .

فمن أين للنباتات أن تميز بين مختلف المواد ، فتختار الصالحة لها فتمتصها دون سواها ، تاركة ما عداها للأنواع المجاورة لها ؟

أنى للجزرة الحمراء مثلا أن تستخلص المواد الحمراء من الأرض ، تاركة المواد الصفراء لأختها المجاورة لها ، وكلتا المادتين ذائبة فى الماء الشائع بينهما مما يعجز عنه الانسان نفسه ؟

وبأى حاسة غريبة تدرك الأشجار أن الماء الذى تحتاج اليه يوجد فى بئر أو صهريج على مسافة منها ، فتتجه اليه ، فإذا صادفها جدار اخترقته لتبلغ من ورائه حاجتها المرجوة ؟

وبأى إدراك تعرف النباتات أن جذورها يجب أن تنبت متجهة الى باطن الأرض، وأن سيقانها يجب أن تتجه الى فوق متطلبة النور والهواء، فلا تحيد كلاهما عن هذين الوضعين أبدا، فإذا عكس الأمر ووجه الجذر الى أعلى، والساق الى أسفل، عادا فالتويا متطلباً كل منهما موضعه الخاص به؟

إن أطفال الحيوانات بل وأطفال النوع البشرى يعجزون عن تحرى المواطن الصالحة لهم وهم فى جهالة الطفولة وضعفها، فهل تقوى صغار النباتات على ذلك وهى دونهم فى سلم الحياة بمراحل كثيرة؟

اللهم إن هذا ليس بمعقول، وإنما المعقول هو أن القدرة الإلهية تتولى هذه الكائنات الضعيفة بالعناية، فتهديها الى طرق حياتها، ووسائل نموها، حتى تبلغ من النمو والكمال ما قدر لها، فكل ما أوردناه هنا أدلة ناطقة على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى إحاطته الكلية بما يصلح الموجودات ويربها، ويصل بها الى أكمل حالاتها، مصداقا لقوله تعالى: «أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» محمد فريد وجدى

فضيلة التثبت فى العلم

قيل لمصقلة: ما أكثر شكك! قال: محاماة عن اليقين.

وسأل ابراهيم النخعى عامرا الشعبى عن مسألة فقال: لا أدرى. فقال النخعى: هذا والله العلم، سئل عما لا يدرى فقال: لا أدرى.

وقال مالك بن أنس إمام المذهب: إذا ترك العالم لا أدرى فقد أصيبت مقاتله.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: من سئل عما لا يدرى فقال لا أدرى فقد أحرز نصف العلم.

وقال العلماء: العلم ثلاثة: حديث مسند، وآية محكمة، ولا أدرى. فجعلوا لا أدرى من العلم إذا كان صوابا. وهذا الأدب العالى الذى تحلى به المسلمون فى مجال العلم هو الذى يفخر اليوم علماء الغرب بالوصول اليه. وقد عدوا من الأدب أن يبدأ الرجل كلامه بقوله (يظهر لى) أو (يلوح لى) أو (أرجح) الخ من صيغ التثبت.

الخمس الخصال المؤدية للكمال

قال على أمير المؤمنين كرم الله وجهه : « أوصيكم بخمس لوضربتم اليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا : لا يرجونّ أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه . وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس معه ، ولا فى إيمان لا صبر معه » .

حقا إن هـذا كلام من أصفى معين الحكمة ، فإن من أخذ نفسه بهذه الخصال الخمس وصـل الى أرفع مقامات الكمال ، وأعلى مكانات الرفعة . فهى لذلك كما يقول أمير المؤمنين أهل لأن تضرب فى طلبها آباط الإبل ، وأن يبذل فى تحصيلها أقصى ما يستطيعه الانسان من مجاهدة ، وأشق ما يطيقه من رياضة نفسية وعقلية .

يقول إمام المسلمين فى أولى هـذه الخصال : لا يرجون أحد منكم إلا ربه . نعم وبهذا يسند الانسان طلبه الى القادر على إجابته ، وليس معنى هـذا أن يمتنع عن الطلب الى الناس بتاتا ، فإن بدت له حاجة دعا الله بها ، غير متخذ لها الوسائل العرفية ، ولا معتدّ بالأسباب العادية ، ولكن معناه أن يعتقـد أن حاجته فى الحقيقة بيد الله إن شاء منحه إياها بتسخيره الأسباب العادية له ، وإن شاء منعه إياها لمصلحته ، وإن خُيل إليه أن حرمانه منها شر له ، فرب شر أدى الى خير عاجل أو آجل .

وفائدة هـذه الخصلة أنها تدفع الانسان الى إتيان محابّ الله وترك مكارهه ، فإنه لا يطلب اليه وهو ماض فى عصيانه ، متسكع فى مساخطه . وبذلك يزداد صـلاحية لحاجته التى يطلبها ، ولحاجات أخرى تليها ، وقـد جرت العادة أن الصلاحية للمَطالب من أفعل أسباب النجح فى تحقيقها .

ويقول الإمام فى الخصلة الثانية : ولا يخافن إلا ذنبه . وهذه من جوامع الكلم .

فإن اقتراف الذنوب يبعد الانسان عن الفضائل ، ويدسه فى حمأة الرذائل ، ومن كان كذلك كان غرضا لكل فتنة ، وهدفا لكل نازلة ، فإن كان شيء يجب عليه أن يخشاه كل الخشية فهو الذنب الذى يقفه المواقف ، ويقذف به فى المهالك . فإذا كان يخاف الفقر أو الظلم أو المرض أو الهلاك ، فإن الذنوب تجر الى كل هذه المخاوف ، فمن يخشاها حقيقة يجب أن يخشى ما يدفع اليها من ذميم الخصال ، وقبيح الأعمال .

ويقول الامام فى الخصلة الثالثة : ولا يستحين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم . نعم فإنه لو خبط فى الجواب خبط العشواء فى الظلماء ، حشر فى زمرة المضلين ، وكفى بالمرء جناية على نفسه أن يبوء بمثل هذا الإثم العظيم ، من أجل التظاهر بالتبحر فى العلم ، وما درى أن حتفه فى هذا التظاهر بما ليس فيه ، فلو ساغ أن يستتر أمره مرة أو مرتين ، فلا يبعد أن يفتضح فى الثالثة فيعرف الناس أنه خابط فى ضلالة ، وأنه متسكع فى عماية ، وأنه مستخف بالعلم ومستهزئ بالحكمة ، ومثل هذا يلفظ لفظ النواة ، ويخسر حقه حتى فيما يحذق علمه ، وهذا هو الخسران المبين .

وقد حفظ تاريخ العلم أن رجالا من أكبر رجالاته لم يروا بأسا فى أن يقولوا فيما لا يعلمون إنهم لا يعلمون . حتى عدوا قول (لا أدرى) من العلم ، فقالوا : العلم آية محكمة ، أو سنة ماضية ، أو لا أدرى .

وكيف يخجل الانسان أن يقول فيما لا يدريه : لا أدرى ، ولم يجتمع العلم كله لإنسان فى الدنيا من يوم أن خلقها الله الى اليوم ، وقد اعترف أكبر علماء الأرض حتى من الكونيين أنهم يجهلون أكثر الحوادث الطبيعية ، وأن ما يعلمونه منها لا يتعدى العلاقات الموجودة بينها .

قال الأستاذ الكبير (وليم كروكس) الانجليزى فى خطبة له بالمجمع العلمى الملكى بلوندرة « من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذللت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، قلت : من بين تلك الصفات اعتقادى الصحيح الراسخ بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل

أمرهم عاجلا أو آجلا الى إهمالهم الـكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمى محض » .

فإذا كان هذا اعتراف رجال العلم الماديين أنفسهم، فـكيف يخجـل أن يقول إنسان فيما لا يعلمه إنه لا يعلمه .

يقول الامام فى الخصلة الرابعة : ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه . نقول : إذا كان الانسان يخجل أن يقول فيما لايدرى إنه لايدرى، فـكيف يمتنع أن يتعلم ما لا يعلمه فيستديم بذلك جهله وخبطه ؟

نعم قد يحمله التظاهر الـكاذب بالعلم أن يأنف من التعلم ، ولـكنه يضر بذلك نفسه ، فيشتهر عنه الجهل والأنفة من التعلم معا ، فيجمع على نفسه خصلتين ذميمتين لا تزالان به حتى تلحقاه بالهالـكين . فإذا كان الانسان يتحرى الـكرامة لنفسه فلا يعقل أن يطلبها حيث يفقدها ، ويسجل على نفسه الخسة والمهانة معا .

ويقول الإمام كرم الله وجهه فى الخصلة الخامسة : وعليـكم بالصبر ، فإن الصبر من الايمـان كالرأس من الجسد ، ولا خـير فى جسد لا رأس معه ، ولا فى إيمان لا صبر معه .

المراد بالصبر عدم الجزع عند نزول النوائب ، فإن الجازع يضيع على نفسه السكينة التى هى مهبط الإلهام المنجى من كل هلـكة ، الـكاشف لـكل كربة . فاذا ألمت بإنسان نائبة ولم يدرع لها بالصبر لم يهتد الى وجوه دفعها ، وذهب به الهلع كل مذهب ، فزاد ما به تأثيرا فيه ، وبلغ منه مالم يبلغه لو تلقاه بثبات جأش ، ورباطة قلب ، وطاش سهمه فى دفعه عنه ، فـكان كمن سعى الى حتفه بظلفه ، ومن جدع بكـفه مارن أنفه .

فهذه الخصال الخمس ما اجتمعت لإنسان إلا كانت سببا فى رفعه الى قمة الشرف ، وانتهت به الى أكرم النهايات ، وأخـذت بيده الى أرفع مكانات الـكرامة . فطوبى لمن وعاها وراعاها ، فهى جديرة كما قال الامام أن تضرب لها آباط الإبل ، وأن يبذل فى الحصول عليها كل مرخص وغال .

But hae Europe really done away with all the traces of the days of ignorance? No, indeed. Wine, the mother of evil, is still permitted, gambling is prevalent, usury is still lawful and custom and conventions still allow the adornment of women in public inducing men to celebacy and extravagance. The young generation is left free to frequent places of pleasures and dissipation and to grow up to countenance the laxity of morality from which the world suffers to-day. Governments still allow writers, actors and Cinema proprietors to offer such material to the public as to kindle the passions and induce to exesses in animal propensities.

All these are traces of the former days of ignorance which Islam called to abolish, and whatever the world suffers to-day is the outcome of that former state. The Moslem world has therefore two duties to discharge. First, to stop short of imitating those nations in such excesses, and second, to call the world to purge itself of the traces of that state of ignorance as they constitute the direct cause of all existent social evils. It is superfluous to mention that if such state persists it will eventually lead to the demolition and disruption of the presentday civilisation just as it had contributed to the destruction of former civilisations of bygone days.

Former nations possessed learning, wisdom and great wealth, yet this did not spare them annihilation because of the survival of certain traces of some former state of ignorance. The Romans were wont to describe their country as the 'eternal nation', but it was all futile, for factors of former days of ignorance were at work undermining its life and sapping its vitality so much so that it became, as time went on, the mere prey of the fierce and barbaric hords which overran and annihilated the glory that was Rome.

Such is the end of nations which neglect to abolish all traces of their former states of ignorance, and in this connection the Lord's saying is significant:

« قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Say, go through the land and see how Allah hath destroyed those who disbelieved in His Apostles"

(Baidawy's Commentary).

« إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ، حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"When the unbelievers had put in their hearts an affected pride, the pride of the days of ignorance, Allah enduced His Apostle and the unbelievers with steadfastness and sobriety, and chose for them to remain in righteousness and the profession of the true Faith for they were the most worthy and deserving of it; verily Allah is cognisant of all things"

(Baidawy's Commentary).

By the pride of the days of ignorance, the Lord means the tendency to gainsay the truth which was then prevalent among the pagan Arabs.

Condemning the days of ignorance and their evils, the Lord calls mankind to rid themselves of its baneful influence. His call will continue throughout the ages and is adressed to the whole world for Islam is a universal religion. Those who investigate the world conditions at present will find out that the world stands to-day in greater need of it than in any other time.

Vestiges of former days of ignorance could still be detected in even the most civilised of nations and Bernard Shaw was right when he remarked that Islam constitutes a remedy for the many ailments from which the world of to-day complains.

The 'state of ignorance' existed in Europe up to the time of the French Revolution in 1789. Farmers were then purchased along with the land they tilled. The weak were forever in deadly fear of the injustices of the strong. The nation was divided into classes. The upper class was exempt from taxation and duties and enjoyed certain priveleges before the law.

The farmers and the poor bore the whole brunt of misery and privation. The French Revolution removed many of those injustices and like revolutions broke out in other nations but even to-day Europe itself is far from being settled.

يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Wherefore do thou judge between them according to that which Allah hath revealed unto thee and follow not their desires, but beware of them lest they beguile thee and cause thee to disregard some of the laws which Allah hath revealed unto thee; and if they turn away from the revealed injunctions, then know thou that Allah chooseth to punish them for some of their transgressions, for verily most men are perverse. What! Do they desire the law of the days of ignorance? But who is a better judge then Allah for a people who consider things and believe firmly in what He revealed ".

(Baidawy's Commentary).

The Lord be praised saith in connection with the public adornment of women:

« وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And bedeck not yourselves in public in the same wise as of former days of ignorance"

(Baidawy's Commentary).

thereby referring to the laxity and degenration of morals which existed in those days.

The Lord further saith in connection with those who refrain from upholding and supporting truth:

« يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The unblievers think wrongly of Allah in ihe same wise as the people in the days of ignorance have done"

(Baidawy'sCommentary).

The Lord further saith:

Roman Emperor and his disavowing Islam.

Following the demolition of the authority of brute force which constituted the mainspring of the savage practices of the days of ignorance, Islam spared no effort to inculcate the higher principles of social life including equity, equality and co-operation to establish the truth and rid the world of materialism and injustice. Coupled with this, were the lofty ideals and noble traits to which Islam has continually urged. Guidance by the light of reason, embibing of learning, tapping the sources of wisdom, fighting against falsehood wherever it may lift its head and extirpation of injustice wherever it may appear. These are Islam's ideals. They were not left unsupported by godly qualities such as sympathy to the weak, help of the needy, charity to orphans, affection, co-operation and succour to the stricken.

Nor was kindness to dumb animals left out in the injunctions of Islam and many and diverse are the teachings which the Koran and Tradition have given in this connection.

We can now distinguish two states: the first is the state of people prior to the mission of Mohammed which the Lord called the 'state of ignorance'.

The second is the state of the people under the light of revelation and prophethood and this the Lord called "Islam".

None prior to the Koran has called the first of fhe two states, the 'state of ignorance. European chroniclers have dubbed such epochs which succeed the first in the history of different nations as 'knighthood period'. The difference of the two appelations and the consecquent results of both are none than apparent. While one induces to evil, the other urges to virtue and chivalry.

Several comparisons between the two states have been given by the Holy Koran urging Moslems to avoid the one and follow the other. In this connection the Lord saith:

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ
يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ

By this noble principle, Islam has demolished all that men boasted of in the days of ignorance' as the pride in the tribe or ancestry and all men were thereby rendered the same with no distinction between the great and the lowly, the free and the bondman, nay, even between the Moslem and non-Moslem.

Ialam has greatly insisted upon the establishment of this principle, for by means thereof, it has succeeded to demolish the state of igno-norance and exterminate it from its very roots.

It continued to infuse it into the hearts of its followers until it became a characteristic of theirs and was regarded as one of the most essential elements of government so much so that the Caliph Abu Bakr had said in his first sermon to the people:

"The weak among you is strong in my sight until I have given him back his right, and the strong among you is weak in my sight until I have taken that right from him"

His succesaor the Caliph Omar was no less insistent on this principle. In his first sermon to the people following his election to the Caliphate, he said:

"And know ye that my severity which ye have witnessed before will increase hundred fold against the unjust and the agressor and to give back the weak the rights which the strong have appropriated. But with all my severity I would'st lay my cheek to the dust for the modest and poor"

Among the many incidents which bear out this principle the following may be given as an example:

Jabala Ibn Al-Ayham the King of Ghassam who embraced Islam and lived among the Moslems after the cession of his country, was once performing the circumbulation of the Kaaba when an Arab inadvertently trod on the edge of his mantle whereupon Jabala struck him on the face. The Arab complained him to the Caliph Omar who brought Jabala before him and ordered him to submit to be struck in the same way heedless of the high position which Jabala claims for himself over the common people.

This resulted in the fleeing of Jabala, his joining Heraculus the

Should one imagine a nation in such a state and endeavour to find a way out, he will come to the conclusion that centuries of education, culture and ceaseless efforts must elapse before it could be reformed. And yet th's very same nation had changed in less than a quarter of a century into a mighty nation which took up the viceregency of God on earth and was destined by the Lord to be the saviour of the whole world. The Koran, the story of the Prophet his companions and followers, bear ample evidence to the authenticity of this phenomenal change unprecedented in the annals of history.

Islam struck hard at the very root of this state of ignorance'.

It struck at its original source, the authority of brute force, and by demolishing it, it established the principle of equality between men in rights and responsibilities. In this connection, the Lord saith:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" O, men ! Verily We have created you all of Adam and Eve and We have made you into people's and tribes that ye might know one another and boast not of your lineage. Verily the most worthy of honour among you in the sight of Allah is the most pious''

(*Baidawy's Commentary*).

In this view, ran the seremon of the Prophet (on whom be Peace) which he delivered from the pulpit:

"O people ! Your Lord is one and your father is one. Ye all come from Adam and Adam is to dust. No merit there is to an Arab over a non-Arab except by piety. O Lord ! Bear thou witness, I have delivered thy message. Let him who is present of you convey it to him who is absent".

Ancient nations such as Egypt, India, China and Persia have all passed through states of ignorance which lasted for centuries and whose records had been retained in the myths and folk-lore of their people. More recent nations as Greece, Rome and the modern European states which succeeded them have their share of the dark days of ignorance which lasted for long periods in which they were groping for light in the stygian darkness which shrouded them and were guilty of all the excesses and moral degeneration attendant on suah a state.

In such state of ignorance the authority of brute force reigns supreme and is recognised as the sole power to govern the people to the exclusion of the authority of reason or justice and the consequent kindness to the weak, sympathy with the sick and succour of the needy. Might was right, and only him with strong muscles and sharp weapon could claim the right to anythtng. All the prevelant practices and systems which linked together individuals of those communities were the outcome of this purely material principle.

Mohammed, on whom be Peace, was sent when the Arabs were in the thick of that state. All nations were experiencing the same condition or have declined to a like state after they have attained, through past dispensations and the aid of learning and wisdom, a tolerable degree of development. The world in its entirety was in dire need to a bolt from heaven to drive away those gathering clouds of ignorance which darkened the whole horizon and threatened to strike down the human communities on the earth's face.

Indeed, some of those nations had displayed certain semblance of order and civilisation, but this was only tool for agression and not a means to development and progress.

Imagine a nation as the Arab's which was divided into several tribes and which lived in this state for successive generations. It had been virtually cut off from the rest of the world and not a streak of religion's light or truth, nor a principle of wisdom or reason could find its way thereto. It became tainted with the savage practices and brute tendencies attendant on such a state and in due course those tendencies so mingled with its very life that they became characteristic of the Arab nation.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

VIII.

CALL TO ABOLITION OF FORMER STATE OF IGNORANCE.

On referring to the 'state or days of ignorance', minds are turned to the Arab nation prior to the advent of the Prophet (on whom be Peace). This expression has so long been coupled with the history of the Arabs that some people think that period of primitive life is confined to the Arab nation to the exclusion of all other nations. The truth, however, is that every nation had experienced a long period of that 'state of ignorance' and that such periods have been recorded by history in successive generations.

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ١٢ –

دعوته الكافة الى النظر والتفكير

فى العهد الذى أنزل فيه الدين الاسلامى من لدن حكيم عليم ، كان رؤساء الأديان فى الأرض قد أحكموا حصار قوة النظر والتفكير فى دوائر ضيقة رسموها لها بحيث كانت لا تتعدى الشئون المعاشية الساذجة ، أما ما وراء ذلك من النظر والتفكير فى النفس وفى الكائنات وفى الكون ، للتأدى من ذلك الى ما وراء الطبيعة أو الى بناء علم ، أو استنباط حكمة ، أو ملاحظة على فلسفة ، أو شرح لمذهب ، فكان كل ذلك يعتبر اشتغالا من الناس بما لا يعنيهم ، ويتولاه أولئك القادة بالنقد ، فإن وجدوا فيه ما يعدونه خروجا على المعارف الضيقة التى بأيديهم استتابوا صاحبه ، فإن عاد ألقوا به فى تنور مسجور ، أو حبسوه فى جب مظلم طول حياته ، فلا يخرج منه إلا محمولا على الآلة الحدباء .

فى عهد هذه الشدة العالمية بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم بالدين الحق يخرج به الناس من الظلمات الى النور ، فطالب كل إنسان بأن ينظر ويفكر ، وأن يستدل ويستنتج ، على قدر ما تسمح له قدرته العقلية ، مستعينا بمن حوله من أولى الأبصار ، ومستهديا بمن تقدمه من الكملة الأبرار ، عاملا على زيادة مادته العلمية ، جاهدا فى استكمال مقوماته الأدبية ، (وقل رب زدنى علما) .

قصد الاسـلام بهذا الى تحقيق غرض من أسمى الأغراض ، وهو تنبيه جميع قوى العقل الى أداء وظائفها ، وبعثها من ركودها الى الحركة التى خلقت لها ، لتصبح الشخصية الانسانية مستكملة جميع عناصرها ، وتكتسب المناعة الطبيعية حيال ما يلقى اليها من التعاليم المنافية للعقل ، والمجافية للعـلم ، فيصبح الانسان بذلك صعب القياد على المضللين ، شديد الشكيمة على المتخرصين والمخرفين .

ولقد كان جهد المضللين موجها الى تحريم النظر العقلى على ذويهم ، آخذين عليهم كل طريق يؤدى الى التفكير الحر ، والرأى المستقل ، ليتسنى لهم أن يستعبدوهم بالأوهام والوساوس ، وأن يتحكموا فى ضمائرهم تحكم القادة المستبدين . وبذلك قبلت الأمم منهم كل ما ألقوه إليها حتى ما يوجب السخرية من العقائد ، ويستدعى الدهش من التقاليد . ومن يعرض الأمم من هذه الناحية يجد ما لا يتصوره عقل : من استسلام للأوهام ، واستخذاء للأضاليل ، واستنامة للخزعبلات من كل قبيل .

فجاء الاسلام ببيناته هادما هـذه الحجب الـكثيفة التى أسدلها المضللون على أدوات التعقل ، من النظر والتفكير ، والاستدلال والاستنتاج ، فـكان الآخذ به كمن أخرج من غيابة جب مظلم الى عالم النور ، فرأى بعينيه مالا يستطيع أن يطمسه المموهون ، وسمع بأذنيه ما لا يقوى أن يخفيه عنه المسيطرون ، فقبل الحق غير متردد ، وتمسك به تمسك الغريق بحبل نجاته ، وعمل به مدفوعا بعوامله الذاتية ، وقواه الأدبية .

ولقد قرر علماء الاسلام ما يعتبر نتيجة منطقية لهذا الإصلاح الأدبى الخطير وهو أن إيمان المقلد غير مقبول ، لأن التقليد كما يكون فى الحق قد يكون فى الباطل ، وقد نعى الاسلام على التقليد والمقلدين ، وندب الى النظر العقلى ، والاعتماد على الحجة والبرهان ، ولم يكلف أحدا فوق طاقته ، فأجهل الناس لا يعدم دليلا يرضاه على صحة مادعا اليه الاسلام . والمراد من هذا أن يشعر كل مكلف بالتبعة الملقاة على عاتقه ، فينساق لإعمال قواه العقلية فى الاستدلال والاستنتاج ، حماية له من التحجر الأدبى الذى يعده لقبول الأوهام التى يدلى بها إليه المضللون .

لهذا كان المسلمون أعصى الأمم قيادا على دعاة الملل فى كل زمان ومكان، فهم أكثر تمسكا بدينهم من أية أمة بدينها فى الأرض.

لقد فطرت النفس البشرية على التفكير فى الأصل الذى صدرت عنه، وفى قواها المختلفة، وفى مصيرها الذى تنتهى اليه، وجبلت على النظر فيما بين يديها من معادن ونباتات وحيوانات وجماعات بشرية، ومن سهول ووديان وجبال، وما فوقها من سحب وأجرام سماوية، ولم تقف همتها عند هذا الحد، فمالت لتعرف ماوراء المحسوسات من قوى خفية، وعوالم علوية، فتأدت النفس بالجرى على السمت الذى رسمه الله لها الى المعارف المختلفة من نفسية، وكونية، وقبلت ما آتاها به من البينات الدينية.

فاذا سد الانسان على نفسه باب النظر والتفكير، فإنما يكون ذلك لعارض من تعاليم ضارة حمل على قبولها حملا، وقهر على الجرى عليها قهرا، كما حدث ذلك فى القرون الوسطى، فسادت الجهالة، وعمت العماية، وأهملت العلوم والفنون التى فتح الله بها على الأقدمين، ووقع الناس بسبب ذلك فى شر مستطير، حتى تداركهم الله بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم يفك عنهم هذه السلاسل والأغلال، ويدفع بهم الى الصراط السوى الذى اختطه الحق لخليقته مناسبا لفطرتهم، وملائما لمصلحتهم.

لهذا السبب شدد الاسلام فى وجوب النظر فى النفس والكائنات، وحث أهله على تتبع آيات الله فى مخلوقاته، وتنور إبداعه فى مصنوعاته، فجاءت فى الكتاب الكريم عشرات من الآيات تلفت النظر الى جمال صورها، وحسن تنسيقها، والى عظمتها وكبير منفعتها، وتحث العقول على اجتلاء أنوارها، واكتناه أسرارها. قال الله تعالى: « وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم، أفلا تبصرون » وقال تعالى: « فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب». يحث سبحانه وتعالى الإنسان فى هاتين الآيتين على أن ينظر فى نفسه، وفى أصل تكوينه.

فمن النظر فى النفس يستنبط علم النفس بكل ما فيه من مختلف الغرائز والميول،

ومتباين القوى والعوامل الذاتية . وكيف يتأتى لمن طولب بهـذا النظر أن لا يكاف بسبر غـور هذا العلم ، وبلوغ الغاية منه ، ما دامت ثمـرة الإحاطة به الوصـول الى الحق اليقين ؟

ومن النظر فى أصل التكوين يتأدى الإنسان الى عـلم الحياة ، وفيه من عجائب نمو الجرثومة الانسانية ، وتقلبها فى أدوار الخلقة ، وتطورها فى الرحم ، وما يعتريها فيه من الاستحالات ، ما أصبح مادة (البيولوجيا) وانقطع لدراسته عشرات من العلماء فى كافة بقاع الأرض .

وقال تعالى : « فلينظر الإنسان الى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبـا . وعنبا وقضبا (أى رطبا) . وزيتونا ونخـلا . وحـدائق غلبا (أى ذات أشجار غليظة) . متاعا لـكم ولأنعامكم » ، تأمل فى هذه الآية الـكريمة تجد أن الخالق جل وعز قد وقف الانسان أمام أحب الأشياء اليه وهو الطعام ، فـلم يرض أن يلتهمه وهو غافل عن تكوينه ، كما تفعل الحيوانات ، ولـكن طالبه أن ينظر فيه ، ويتأمل فى كيفية وجوده ، فأراه أن الله أنزل المطر مدرارا ، ثم شقق الأرض تشقيقا لينفذ الماء الى باطنها ، فأنبت فيها الحب والعنب والرطب والزيتون والأشجار ذات السيقان الغليظة ، توفية بحاجة الانسان والحيوان من الغذاء . أفلا يتأدى الانسان من هذا النظر الى علم النباتات بجملته وتفصيله ، فإن بلغه بأن فى هذا العلم كتبا موضوعة تكفل بيان كل ما يتعلق بالنباتات من تكوين وإبداع : أفلا يكب على دراستها ، ويتيمن بزيادة مادتها ؟

وقال الله تعالى : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبـال كيف نصبت ؟ وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » هـذا تحضيض صريح على وجوب النظر على الانسان فيما بين يديه من الحيوانات والأرض والجبال والسماء . وفى كل عالم من هذه العوالم علم لا ينتهى الى مدى ، وحكم لا تقف عند حد . فليس

من العجب أن يكب المسلمون على تصيد العلوم من مظانها بنهمة الصادى المتوله، ولكن العجب أن لا يطلبوها وفى كتابهم كل هذا التحضيض عليها، والتبكيت على مهملها. قال الله تعالى: «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض، وماخلق الله من شىء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأى حديث بعده يؤمنون». وقال تعالى: «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» وليس أبلغ من هذا زجر عن الجمود أمام الآيات الإلهية، ولا أشد منه تثريب على إهمال العلوم الموصلة الى فهمها أكمل فهم. لهذا السبب لم يقنع المسلمون من العلوم بقشورها أو القليل من موادها، ولكنهم تطلبوا الصميم من لبابها، والقصى من أغراضها، فأصبحوا لها أئمة، وعلى كنوزها حفظة قرونا طويلة.

لم يكتف الاسلام بتكليفه الانسان النظر والتفكير فيما هو أمامه من الكائنات، بل دفعه للبحث فيما كانت عليه الأمم السالفة من قوة السلطان، واتساع العمران، وما كان لهم من نحل وأديان، ثم ما آلوا اليه باتباع الشهوات، وتجاهل البينات، من هلاك ودمار، فقال تعالى: «أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون». أترى أن قوما ينزل عليهم مثل هذا الوحى يهملون السياحات العلمية لتعرف آثار الأمم من ناحيتى القوة والضعف، والنظام والفوضى، والعدل والاستبداد، والعلم والجهل، والإيمان والكفر الخ؟ أفلا يؤدى هذا التعرف كله الى علمى التاريخ والاجتماع بكل ما يحتملانه من بحوث وتحقيقات، ونظر فى أسباب تكون الأمم وانحلالها، ورقيها وانحطاطها، وعمرانها وخرابها الخ الخ؟

فالمتأمل فى هذه الآيات وما ماثلها مما يكثر وروده فى الكتاب الكريم، يرى أن الاسلام ينبه ذويه الى النظر فى كل ما خلق الله من شىء فى الأرض والسماء،

وفى الانسان نفسه والجماعات البشرية . وموضوعات العلوم المختلفة لا تخرج عن هذه الدائرة ، فهو يدعو الى النظر والتفكير فى كل شىء ، لا متذرعا بالفائدة المادية فحسب ، ولكن بفائدتها الروحية أيضا ، فدعوته اليها أفعل فى النفس من دعوة رجال العلم والتربية ، لذلك اندفع المسلمون لتناول العلوم من جميع مظانها ، وبلغوا منها بعد مائتى سنة مالم يبلغه غيرهم فى مدى القرون الطويلة ، فأصبحوا أصحاب الزعامة فيها ، ولم يرو فى تاريخ البشر أن أمة تنهض فى قرنين من الأمية الصرفة الى مكانة الإمامة فى المعارف البشرية فى مثل هذه المدة الوجيزة .

فالذين يقولون من الخصوم بأن الاسلام يناهض العلم ، وأن أهله ما أخذوا فى أسبابه إلا معاصاة لدينهم ، هؤلاء الخصوم يتجاهلون أخص مميزات هذا الدين ، فإن الدين الذى ينصب العقل حكما بين الحق والباطل ، ويدعو الى العلم فى عشرات من آياته ، ويحض على النظر والتفكير فى كل شىء بعبارات تأخذ بالألباب بلاغة وحكمة ، نقول : إن مثل هذا الدين لا يعقل أن يوصم بأنه يجافى العلم ، ومن تكب هذه الفرية لا يصح أن يوصم بالعدوان على المنطق فحسب ، ولكن يجب أن يوصم بأنه يجهل الموضوع الذى يكتب فيه كل الجهل .

لو كانت حركة النظر والتفكير فى الكائنات وما أدت اليه من علوم ومعارف عند المسلمين نجمت فى عاصمة واحدة أو عاصمتين من عواصم الاسلام وبقيت سائر عواصمه تضرب فى متاهات الجهل ، لساغ لخصوم هذا الدين أن يلبسوا على البسطاء والسطحيين من القارئين مثل هذه الفرية ، ولكن إجماع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الاشتغال بالنظر والفكر فى الكونيات ، والذهاب بنتائج هذا النظر والتفكير الى أقصى ما تؤدى اليه من التبحر فى العلوم ، وترجمة ما حجب عن الدهماء فى المكتبات ، ودءوبهم على إيجاد علوم جديدة ، هذا الإجماع وحده وهذا الجهد كله يدحض كل فرية من هذا القبيل ويجعلها غير جديرة بالمناقشة .

فالاسلام دعا ولا يزال يدعو العالم كله للنظر والتفكير على أسلوبه الحكيم المؤدى للاعتبار والازدجار، وهذا المبدأ لو أخذ به الناس لوصلوا الى حسم مادة العلل الاجتماعية التى تفسد كيان الأمم، وتجعل رقيها الصناعى والأدبى وبالاً عليها، بدل أن يكون سببا للهدوء والطمأنينة والحياة الطيبة فيها .

ومن طرائف العلم فى هذا الموطن أن الاسلام علق ظهور هذا الدين على جميع الأديان، واقتناع الناس بأنه الحق فى آخر الزمان، على إجالة النظر والتفكير فى النفس والكائنات، ولم يعلق ذلك على وسيلة أخرى من وسائل الغلب وامتداد السلطان، فقال تعالى: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟.

محمد فريد وجدى

كلمات مأثورة فى الحلم

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ ؟ قال : إن شئت بخلة، وإن شئت بخلتين، وإن شئت بثلاث . قال : فما الخلة ؟ قال : كان أقوى الناس على نفسه . قال : فما الخلتان ؟ قال : كان موقى الشر، ملقى الخير . قال : فما الثلاث ؟ قال : كان لا يجهل، ولا يبغى، ولا يبخل .

وقيل لقيس بن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك .

وقالوا : ما قرن شىء الى شىء أزين من حلم الى علم، ومن عفو الى قدرة .

وقال الحسن : المؤمن حليم لا يجهل وإن جهل عليه، وتلا قول الله عز وجل : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وقال الشاعر :

ليست الأحلام فى حين الرضا إنما الأحلام فى حين الغضب



قال الله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ . قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللهَ بِدِينِكُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

قد سبق القول فيما حكاه الله تعالى عن الأعراب من قولهم آمنا وتكذيبه عز وجل لهم بأنهم لم يؤمنوا ، وكل ما حصل منهم أنهم استسلموا للطاعة خوف السّباء والقتل ، وأن الإيمان لما يدخل قلوبهم ، ولما يستيقنوا فى أمرهم . وفى التعبير بلمّاً التى تفيد نفى الفعل الذى بعدها ، وتفيد مع ذلك أنه مرتقب ثبوته بعد ذلك ، وفى إرداف ذلك بقوله : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا » المفيد للترغيب فى الإيمان الحقيقى ، الداعى الى الطاعة الخالصة — فى هذا وفى ذاك تشويق النفس الى تعرف حقيقة الايمان المدعو إليه ، المرغب فيه ، المشار الى الوعد بحصوله لهم بصيغة الارتقاب وهى لمّاً ، فإن ذلك بمثابة الوعد بأنهم سيكون منهم الإيمان الصحيح حقا ، وإن كانوا قد كذبوا الآن فى زعمهم أن ذلك قد كان .

لا جرم جاء قوله عز من قائل : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » موفيا على النفوس بما تشوقت لمعرفته وتطلعت للوصول إليه . ولفظ « إنما » على ما ذكره البلاغيون يعطى معنى الحصر فى مقام يكون سابق الكلام قد أشعر به النفس شعورا ما ، وليس مقام إنكار وردّ ، وإنما هو مقام إجابة المتطلع ، وإتمام إفادة المستشعر .

ولا شك أن ما سبق من الرد عليهم ونفى الإيمان عنهم يفهم منه عند التأمل أن الإيمان ليس بمجرد الدعوى اللسانية ، وإنما هو معنى ذو أثر عميق فى النفس ، وذلك هو ما صرح به فى قوله عز من قائل : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » أى لا أولئك الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ولا أولئك الذين يعبدون الله على حرف : فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، ولا أولئك الذين يمنون عليك إسلامهم ليشتروا به متاع الحياة الدنيا ، كلا ، ليس هؤلاء بالمؤمنين ولا بالجديرين باسم الإيمان ، وإنما المؤمنون هم أولئك الذين شرحنا حالهم وبينا صفاتهم .

وقد بين جل شأنه فى شرح حال المؤمنين المستحقين لاسم الإيمان حقيقة صفات عدة :

(الأولى) أنهم آمنوا بالله فأيقنوا بعظمته ، واستشعرت نفوسهم عظيم قدرته وواجب العبودية له ، عرفوا أنه السميع العليم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه هو العليم بخفايا النفوس وخلجات الضمائر ، علموا أنه المنعم المتفضل ، وأنه ذو الطول والإحسان ، وأنه ذو المنة على كل إنسان . علموا أنه هو الذى خلقهم ورزقهم ، وهو الذى أحياهم ويميتهم ، وهو الذى بيده خيرهم وشرهم ، أرسل إليهم الرسل لهدايتهم ، فأبلغوا أمره ونهيه ، وطريق رضاه أو سخطه ، وموجب ثوابه أو عقابه ، فرغبوا فى الزلفى إليه ، وأقبلوا بكل قوتهم على طاعته وعبادته .

(الثانية) آمنوا برسوله، وأنه إنما يبلغهم أمر ربهم، وأنه ماينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأن الله مصدقه في رسالته اليهم، ومؤيده في قيام حجته عليهم، وأن من أطاعه فقد أطاع الله، وأنه لن تكون طاعتهم له حتى يخلصوا في ذلك نياتهم، ويصدقوا ماعاهدوا الله عليه مخلصين لله الدين.

(الثالثة) «ثم لم يرتابوا» ثم يكون هذا الإيمان ثابتا غير مزعزع، فلا يكون عرضة لأعاصير الوساوس، ولا مذبذبا بين رياح الشبهات، فمهما مر على صاحبه من الإحن والمحن فلا يعصف شيء منها بإيمانه، ولا يزلزل جزءا من إيقانه، فلا يكون إيمانه محل تجربة: فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. فكلمة (ثم) التي للتراخي معناها أن إيمانهم من الثبات على مر الحوادث بحيث لا يتعرض للزلزلة مهما صادفه ومهما طال به الزمن. وفيه تعريض بما يكون من بعض الأفراد تسكن نفوسهم للعقيدة حينا حتى إذا فجأهم ما يكرهون رجعوا الى عقيدتهم هذه يتهمونها بأنها كانت سبب بؤسهم وشرورهم، وما انتابهم في حرثهم وزروعهم، ففكروا في العدول عنها، أو وقفوا أمامها وقفة المتردد لا يدري أيمضي فيها أم يحيد عنها.

ترى الرجل يجاور شخصا فاجرا قد بسط له في الرزق، بينما قُدِر على المؤمن رزقه، فيجول الشيطان في خاطره بهواجس تفسد عليه إيمانه، ويوسوس له بأن ذلك الفاجر ما وسع عليه في رزقه إلا لاجترائه على ربه، واطراحه تلك القيود التي قيد بها نفسه باسم الدين، فيدب عنده الارتياب في دينه، والزلزلة في يقينه. وهل ترى حال أولئك الذين تلوك ألسنتهم دائما عبارات الإعجاب بما عليه الأوربيون، وصوغ أساليب التمجيد والتحبيذ لهم، غافلين عن سبب ما هم عليه من ثراء وعظمة، وهو جدهم وأخذهم بالأسباب والعمل على الإنتاج الذي دعا اليه الإسلام، فيظنون أن ما هم عليه نتيجة لما دانوا به أو لما خلعوه عن رقابهم من قيود الدين — فهل ترى حالهم يعدو أن يكون ارتيابا في أمر دينهم، ما ساقهم اليه إلا غفلتهم عن رد كل شيء الى سببه الحقيقي، ثم ضعف الإيمان عندهم حتى جعلوه دائما معروضا للامتحان، بل معروضا للارتياب ؟!

(الرابعة والخامسة) ما ذكر فى قوله : « وجاهَدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله »وهذا محك يظهر به الإيمان الصادق من الدعاوى الزائفة . والجهاد والمجاهدة : بذل الجهد وأقصى الطاقة فى تحقيق الطاعة ، فمعنى جاهَدوا فى سبيل الله بذلوا أقصى جهدهم ، فلا مفعول للفعل . ويجوز أن يكون المعنى جاهدوا أعداء الله وأعداء الدين ، أو جاهدوا أنفسهم ليحملوها على الصدق فى الوفاء والإخلاص لله ، فيكون للفعل مفعول محذوف . وتقـديم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس من باب الترقى من الأدنى وهو الجهاد بالأموال ، الى الأعلى وهو الجهاد بالنفس ، كما قال القائل :

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

على أن تقديم الأموال فيه مساس بالتعريض بحال أولئك الأعراب الذين سخروا إيمانهم للاستجداء ، ونصبوه وسيلة لاستحقاق العطاء ، إذ قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا محمد آمنا فاستحققنا الكرامة » وأمثال ذلك ، فكأنه يقول لهم : المؤمن من جاهد فى سبيل الله بماله » وأنتم لم يكفكم أنكم لم تجاهدوا فى سبيل إعزاز دينكم بمالكم حتى جئتم تتجرون بالإيمان وتجعلونه شركا لاصطياد الأموال .

(السادسة) قوله : « فى سبيل الله » وهـذا هو المحك الذى يعرف به صادق الإيمان من زائفه ، ويفرق به بين الجهاد المحمود والمذموم شرعا .

وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أىّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» ومعنى أن تكون كلمة الله هى العليا ألا يعترض قائلها معترض من أجلها ويحول بينه وبين النطق بها والعمل على مقتضاها ، أى أن يكون حرا فى أن يدين بدين الله ، وأن يدعو الى سبيل الله ، لا يمنعه من ذلك مانع .

وقوله تعالى : «أولئك هم الصادقون» فيه عود على بدء ، بإعادة التعريض بتكذيب أولئك الأعراب فى قولهم آمنا وهم لا يؤمنون ، فكأنه قيل : إن المؤمن الحقيق الصادق

فى دعوى الايمان هو من ظهرت منه الآثار الجدية التى يمتحن بها الإيمان فتدل على ألا تلجلج فى نفسه ، ولا اضطراب فى عقيدته ، ولا ريب فى يقينه ، ولا نكوص لديه ساعة يجد الجد ، فهو تطيب نفسه بما يطلب منه بذله من أعز عزيز وأنفس نفيس ، هو من يبذل نفسه وماله فى سبيل الله ولإعلاء كلمة الله . هذا هو الصادق ، لا من يدعى الايمان ليشترى به عرض الحياة الدنيا .

قال الله تعالى : « قل أتُعَلِّمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم » .

روى فى سبب نزولها أنه لما نزلت الآية الأولى لتكذيبهم جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون ، فنزلت هذه الآية لتكذيبهم وتسفيههم : ببيان أنهم يخاطبون من يستتق علمه من علام الغيوب ، الذى لا تخفى عليه خفايا القلوب ، فهو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو بكل شىء عليم مما قل ومما جل ، فأين يذهب بهم حتى يحاولوا أن تمطلى أكاذيبهم أو تروج تمويهاتهم ! وليلاحظ أن هذا الإطناب فى الرد على أولئك الأعراب ليس لخصوصياتهم ، ولا لمزيد الاعتناء بأمرهم خاصة ، وإنما هو شأن القرآن الكريم فى النعى على المنافقين والتنديد بهم ، والتحذير من الانخداع بتمويهاتهم ؛ ذلك أنهم سيدخلون عضوا فاسدا فى المسلمين ، ويكونون داء دفينا فى الجسد المتماسك المتضام ، فيكون عملهم فى تفريقه وتوهينه أشد وأنكى من العدو الخارج ، فلذلك كثيرا ما نرى الكلام فى ذم المنافقين والتشهير بهم وكشف سوءاتهم يزيد على الكلام فى شأن الكافرين المعلنين . ومثال ذلك ما تراه فى أوائل سورة البقرة .

و « تُعَلِّمون » بمعنى تخبرون ، من علمت بكذا أى أحطت به وأُخبرت ، فلذلك عدى للمفعول الثانى بالباء . وقوله : « والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » جملة واقعة موقع الحال ، وهى محط الإنكار عليهم . وقوله : « والله بكل شىء عليم » تقرير لمضمونها

وتثبيت له . والمعنى : كيف تظنون أن من يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وهو عليم بكل شىء يخفى عليه منكم شىء حتى تحاولوا أن تظهروا خلاف الحقيقة فيخفى على رسوله الذى يتلقى العلم منه !

قال تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » :

هذا تنويع للكلام معهم بنوع آخر من أنواع التأنيب والتنديد ، فبعد أن سرد الدعوى التى زعموها وكذبهم فيها ، وبيّن من هو الجدير أن يصدق فى هذه الدعوى ، عاد فبين غرضهم منها ، وهو الامتنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أسلموا ولم يقاتلوه كما قاتله غيرهم . والمن تعداد النعم اعتدادا بها وإظهارا لفضل صاحبها على من أنعم عليه ، وذلك إنما يكون عند ما تصدر من المنعم دون أن ينتظر عليها جزاء ، وعند ما يكون المنعم عليه محتاجا إليها فتسد حاجته ، ويكون للنعمة رجحان ووزن كبير ، فلذلك قالوا : إن أصل اللفظ مأخوذ من منّ بمعنى قطع ، كأن المنعم قطع النظر عن أن ينتفع من نعمته بجزاء ، أو قطع احتياج المنعم عليه ، أو أنعم عليه بمنٍّ وهو الوزن المعروف أو الكيل المعروف .

ومعنى يمنون عليك أن أسلموا أى يعتدون بإسلامهم ويعدونه نعمة عليك كبيرة ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، أى نبههم الى أن إسلامهم لا تعود ثمرته إلا على أنفسهم . ففى الحقيقة المنة عليهم لله الذى هداهم ، فإن كانوا قد صدقوا فى دعواهم فقد اهتدوا بهداية الله إياهم ، واستفادوا من ثمرة رسالته صلى الله عليه وسلم اليهم ، فهم الممنون عليهم ، وإن لم يكونوا صادقين فيما ادعوا فلا معنى لهذا الامتنان منهم ، فحقهم أن يداروا سيئاتهم ، ويتواروا عن أنظار من يفحص حالهم .

وينبغى أن ننظر نظرة دقيقة الى اختلاف التعبير فى كلمات (أن أسلموا) (إسلامكم) (أن هداكم للإيمان) وقد دخلت كلها فى حيز فعل المن :

أما (أن أسلموا) و (إسلامكم) فكلاهما فيه معنى المصدرية ، من الاسلام ، ولكنهما يفترقان فى نقطة دقيقة : ذاك أن قوله : « أن أسلموا » يفيد معنى الاسلام باعتباره حاصلا منهم ، قائما بهم ، صفة من صفاتهم . فمحط القصد فيه أنه حليتهم التى تحلوا بها ، وهذا مقصدهم فى الامتنان وكلمة (إسلامكم) تفيد معنى الاسلام فى نفسه ، وإضافته اليهم لتوضيحه وبيان المعنى المراد منه ، بل لتوهينه وبيان درجته وأن إسلامهم ليس مما شأنه أن يعتد به ، فهو إسلام حقه ألا ينسب إلا اليكم ولا يرتضيه أحد غيركم ، إذ هو إسلام ما صدر إلا عن مخافة ، وهو استسلام منشؤه الرهبة من بطش من استسلمتم له ، والرغبة فى أن تنالوا به من عرض الحياة الدنيا ، فأى إسلام إسلامكم هذا الذى تمنون به ؟ فالاضافة فيه كما يقولون للتحقير .

وحاصل المعنى أنهم فى امتنانهم جعلوا إسلامهم حلية لهم يظهرون بها ، وهذا يفيده على الوجه الأكمل الاتيانُ بصيغة الفعل مسندة اليهم ، وفى الرد عليهم أظهر إسلامهم نفسه ، ونشر للأنظار معرفا بالاضافة اليهم ، فلم يكن فى نفسه مما يعتد به ، ولم تزده إضافته اليهم إلا هوانا وصغرا . وأما قوله : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » فهو لإظهار الفعل الجليل الذى حقه أن يمتن به حقيقة ، وهو أن هداهم الله للايمان الذى فيه سعادتهم ، ويحق لمن استفاد منه وقد هيىء له أن يغتبط بما أوتى ، ويبتهج بما حباه الله . وقد خالف التعبير الأول بالعدول عن الاسلام الى الايمان ، وبذكر لفظ الهداية ، أما العدول فلتنبيههم الى ما حقه أن يعتد به ويحرص عليه ويصار اليه ، وهو الايمان الذى يملأ القلب بعيدا عن الارتياب ، لا مجرد استسلام الجوارح وخضوع النفوس . وأما ذكر لفظ الهداية فلأنه هو الذى حصل لهم من الله وإن كانوا قد ضيعوه على أنفسهم ، فقد قرب لهم الجنى ، وسهل عليهم حصول المنى ، ولكن انصراف قلوبهم الى متاع الحياة الدنيا هو الذى حرمهم الوصول الى الدرجات العليا ، وعلى ذلك يكون معنى هداكم للايمان : دلكم عليه وأرشدكم الى سبيله ، وإن كنتم لم تنتفعوا

بالإرشاد ، ولم تصلوا الى المراد ؛ فالهداية بمعنى الدلالة مطلقا : وصلت أو لم توصل ؛ ويكون المعلق على صدقهم هو اعترافهم واقتناعهم ، وإلا فالمنة لله عليهم بهدايتهم متحققة ، سواء أكانوا صادقين أم كاذبين .

ويصح أن يكون المراد بهداكم أى دلكم دلالة موصلة للايمان ، ويكون ذلك معلقا على قوله : إن كنتم صادقين الآتى بعد ، أى بل إن صدقتم فيما زعمتم من أنكم آمنتم فالمنة عليكم لله بأن هداكم للايمان الذى تزعمون .

والهداية تطلق على مطلق الدلالة كقوله تعالى : «وإنك لتهدى الى صراط مستقيم» أى تهدى كل الناس ، وعلى الدلالة الموصلة كقوله تعالى : «إنك لا تهدى من أحببت» .

تأمل فى هذه الدقائق وأشباهها فى النظم الكريم ، تبصر شيأ من الأسلوب الحكيم الذى لا يكاد يدانيه فى روعته ودقة عبارته واختيار ألفاظه شىء من كلام البشر ، فهو تنزيل من حكيم حميد .

وقوله : «إن كنتم صادقين» أى فى دعواكم الإيمان ، وليس الشرط راجعا للهداية ، فهى متحققة جزما بما أرسل الله من رسول ، وبما أيده به من آيات بينات كما بينا آنفا . والتعليق يترتب عليه اعترافهم الذى كان يجب أن يحصل منهم بأن المنة لله عليهم لا لهم على رسوله ، وإلا فلله المنة ولرسوله عليهم ، سواء أصدقوا فى دعوى الايمان أم بقوا على ما هم فيه وضيعوا الثمرة على أنفسهم ، ومقامهم يجب أن يكون مقام الشاكرين لا مقام المانين .

وأما قوله تعالى : «إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون» فهو من جهةٍ مرتبط بمضمون هذه الآيات الأخيرة ، مسجل للرد عليهم فيما ادعوه كذبا ، ومرشد لهم الى طريق الجد وما حقهم أن يسلكوه فى أمر المن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يشكروا بدلا من أن يمنوا ، ولافتٌ أنظارهم الى أن ما استبطنوه فى نفوسهم إنما هو إسلام وخضوع لا يوصلهم الى السعادة التى هيئت لهم ، فيجب أن

يتنبهوا الى الغرض الأسمى وهو الإيمان ، فها هو ذا معروض عليهم بآياته البينة ، وقد هداهم الله له ، فلم يبق إلا أن يجنوا ثماره.

ومن جهة أخرى قد عاد على ماذكر فى أول السورة بالتقرير وبيان الحكمة ،وهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » والمعنى أن الله يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم النافع والضار ، ويعلم ما ينبغى ومالا ينبغى ، ويعلم نتيجة كل فعل وثمرة كل حكم ، وما يليق بكل نفس وبكل أمة ، فكيف تجترئون على الافتيات عليه فى الأحكام ، وتقدمون بين يديه أحكاما لا تعلمون مغبتها ولا آثارها المترتبة عليها ، وأين علمكم من علم الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ؟ ثم قوله : « والله بصير بما تعملون » فيه أخذ الطريق عليهم حتى لا يتفلتوا الى المراوغات والمداورات ، فقد بين لهم أنه بصير بما يعملون ، مطلع على أسرار نفوسهم، وخلجات ضمائرهم ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

بل نقول : إن هذه الآية الكريمة التى ختمت بها السورة ترتبط أتم ارتباط بكل الإرشادات والآداب التى تليت علينا فى هذه السورة الكريمة،فإن علمه غيب السموات والأرض وبصره التام بكل ما يعملون يدعو الى ترك الافتيات على الله فى الأحكام ، وهو مغزى قوله تعالى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » ومدعاة الى امتثال الأدب الكامل مع رسوله الكريم ، فلا يرفعون أصواتهم بحضرته ، ولا يجهرون له بالقول كجهر بعضهم لبعض . وكذلك يقرر فيهم معنى الامتثال لما أوجبه عليهم نحو بعضهم البعض ، وهو ما يتعلق بالطوائف العامة ، أو ما يجرى بين الأفراد بعضهم مع بعض فى حال الحضور وفى حال الغيبة من الأحكام التى سبق تفصيلها والتى إذا اتبعها المسلمون حق اتباعها كانوا أسعد أمم الأرض على الإطلاق .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويوفق جميع المسلمين الى ما فيه سعادتنا وسعادة الجميع . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

بدع الذكر

جاءتنا أسئلة كثيرة عما أحدثه الناس فى مجالس الذكر من البدع التى لا يقرها عقل ولا دين ، ومما جاء فيها أن بدع الذكر قد تكاثرت بسبب عدم العناية بالتنفير عنها ، فسدلت على رفيع جلال الإسلام وبديع رونقه ستارا أى ستار ، وأحدثت أضرارا عظيمة ومفاسد جسيمة . ومن شرها مزج الذكر باللهو كالدف والشبابة ، والذكر بأصوات ساذجة مثل (ها) و (هى) ، ومثل اللهج أثناء الذكر بأصوات يخجل اللسان من ذكرها والقلم من تسطيرها . ثم ذكر السائل شيئا من الألفاظ التى يقولونها حال غيبتهم على ما يزعمون لا نستطيع ذكرها فى المجلة ، ثم قال بعد ذلك : ومن عذلهم شهروا فى وجهه السلاح بدعوى أنهم إنما يصدر عنهم ما ذكر فى حال غلبة ناشئة عن الذكر ، ومن مدهشات العجائب أنه يوجد بقرية قريبة منا تسمى (محلة الأمير) رجل أبوه كان أحد شيوخ طريقة تسمى الحبيبية ، وهذا الرجل يؤيد تلك البدعة التى لا حد لشناعتها ولا منتهى لفظاعتها بكل ما أوتى من قوة ، حتى خدع الناس أيما خديعة ، وصار عقبة فى سبيل من يحاول تطهير ساحة الدين منها . ولا وسيلة لكف شرور مثله أو تخفيفها سوى فتوى تصدر فى مجلة نور الاسلام التى يحترمها الجميع . ولا سيما إن عززت بفتوى من مشيخة الطرق الصوفية .

فأنشدك الله أيها المجاهد الغيور أن تسرع بما تقدر عليه من تلك الكتابة الصافية الشافية فى الموضوع . وأقسم عليكم بالحق تعالى أن تغيثوا هذا الدين ، فقد تلاعب به أولئك الفجار الى حد أشعر بخلو قلوبهم من استشعار شىء ما من عظمة الجبار ، عظمت سطوته .

انتهى المقصود من السؤال الذى جاءنا من بعض أفاضل مديرية البحيرة ، وفى غيره ما يوافقه فى مغزاه ومرماه .

ونحن نقول : إن الذين يعملون هذه الأعمال المنكرة داخلون فيمن قال الله فيهم : « وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَة » ، ومن الذين اتخذوا آيات الله هزواً ، وسيقال لهم : « أَبِاللهِ وآياته ورسوله كنتم تستهزءون » ولا ندرى كيف يتكلمون بذلك الهذيان الذى تقشعر منه الجلود وتصطك الأسماع على ما جاء فى سؤال السائل .

وإنه لأكبر برهان على أنهم كانوا فى أحوال ظلمانية لا نورانية ، ووساوس شيطانية لا إلهامات ربانية . فإن الذكر يورث القلب أسرارا وأنوارا ، فاذا تكلم صاحبه تكلم بالمعارف واللطائف لا البهتان والهذيان ، فكلامهم بالفحش على ما يقول السائل أكبر برهان على أنهم ما كانوا يتلقون إلا عن الشياطين ، ولا يسيرون إلا فى ظلمات بعضها فوق بعض . فما أدل الأثر على المؤثر ، والدخان على النار ، والغايات على المبادئ ، والنتائج على المقدمات ! وإذا كان فى سماع الآلات المجردة خلاف طويل عريض ، وقد ألف فيه ابن حجر كتابه المسمى بكف الرعاع ، وأقام فيه البراهين على تحريم سماعها ، فما بالك إذا كانت فى مجلس يذكر فيه اسم الله تعالى ؟ !

وإنه ليجب أن تخشع الأصوات للرحمن ، وتطرق الرءوس ، وتخضع القلوب ، إعظاما لهيبته وجلاله . وكيف يتفق ذلك مع تلك الآلات الملهية عن ذكر الله وعن الحضور مع الله كما هو المطلوب من الذاكر ؟ ! فآلات اللهو يجب تنزيه تلك المجالس الشريفة عنها .

وربما زادوا الطنبورة نغمة ، فغنوا بالخمريات التى تحبب الخمر الى النفوس ، ثم يقولون : إن المراد بالخمرة خمرة الأرواح لا الأشباح ! وقد يكون ذلك صحيحا إلا أنه غير مأمون ولا معروف ، وقد أوشكت الدنيا أن تخلو من ذويه ، وأن لا يوجد فيها أحد الآن من ذائقيه ، إلا من اصطفاهم الله بعنايته الخاصة ، وقليل ما هم . ويوشك

أن يجر ذلك الى مالا تحمد عقباه ، خصوصا مع الآلات والأوتار . وأين ما يفهمه العامة مما يفهمه أهل المحبة الإلهية من قول ابن الفارض :

خفف السير واتئد ياحادى   إنما أنت سائر بفؤادى

الى أن قال :

ما شممت البشامة إلا وأهدى   لفؤادى تحية من سعادى

أو قول غيره :

أهل الهوى تعرف قدر الهوى   وإن هذى الجهال قالوا سلام

الى غير ذلك مما يحرك النفوس الى حمى الكئوس ، ويهيج فى أرباب الشهوات ذكرى الغانيات . والسماع لا يحدث فى النفوس جديدا ، وإنما يهيج منها ما استقر فيها من خير أو شر .

وقد سئل مالك عن الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، حتى لقد روى عنه أن الإنسان إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب . ومن عرف النفوس واستدراجها لصاحبها من حيث يشعر ولا يشعر ، لم يمكنها من أن تخطو خطوة واحدة فى طريق يوشك أن يؤديها الى الفساد ، ويسير بها الى غير السداد .

وقد قال بعض العلماء : كيف لايحرم سماع الآلات وهو شعار أهل الخمور والفسوق والفساد والمجون ؟ وما كان كذلك لم يشك فى تحريمه ولا فى تفسيق فاعله وتأثيمه . ولا ينفعهم تلك التعللات الباطلة ، ولا قولهم إن المراد بالخمرة خمرة الأسرار ، وبالحانة حانة الحضرات ، كما سمعناه من بعضهم ، فإن ذلك كله الآن خيالات وترهات ، وما هى إلا تلبيسات من الشيطان ، وألوان براقة من الهذيان . ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بما ارتكبوه حتى وقعوا فى حق السلف الماضين رضى الله عنهم ، ونسبوا اليهم اللهو واللعب ، لأنهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم هو الذى كان السلف رضوان الله تعالى عليهم يفعلونه .

وقد أذكرنى ذلك قول الامام الكبير والمحدث الشهير رزين العبدرى : ما أتى بعض المتأخرين إلا من وضعهم الأسماء على غير مسمياتها . ولهذا شرح طويل .

ولننقل لك عبارة الامام القرطبى رحمه الله تعالى فى تفسيره حين تكلم على قصة السامرى فى سورة طه :

سئل الإمام أبو بكر الطرطوشى رحمه الله : ما يقول سيدى الفقيه فى مذهب الصوفية الذين يجتمع منهم جماعة فيكثرون من ذكر الله وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم ، ويقوم بعضهم ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه : هل الحضور معهم جائز أم لا؟ (ولعمرى إن هؤلاء أحسن حالا ممن نراهم اليوم وجاء بعض وصفهم فى السؤال) . أفتونا يرحمكم الله .

فقال فى الجواب : هذه الأشياء كلها بطالة وجهالة وضلالة ، وماالاسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار ، فقاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ، وإنما كان مجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار .

ولعل من الفائدة الكبرى فى هذا المقام أن ننقل لك عبارة الإمام الكبير ابن قدامة جوابا عن مثل هذا السؤال ، قال رحمه الله : إن فاعل هذا مخطىء ساقط المروءة ؛ والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة فى الشرع غير مقبول القول ، فإن هذا معصية ولعب ذمه الله تعالى ورسوله ، وكرهه أهل العلم وسموه بدعة ، ونهوه عن فعله ؛ ولا يتقرب الى الله سبحانه بمعاصيه ، ولا يطاع بارتكاب مناهيه ؛ ومن جعل وسيلته الى الله سبحانه معصيته كان حظه الطرد والإبعاد ؛ ومن اتخذ اللهو واللعب دينا كان كمن سعى فى الأرض بالفساد ؛ ومن طلب الوصول الى الله سبحانه من غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته فهو بعيد من الوصول الى المراد .

وقد كرهه الأئمة كما ترى، ولم ينضم اليه هذه المكروهات من الدفوف والشبابات، فكيف به إذا انضمت اليه واتخذوه دينا؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله: « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية » (المكاء الصفير والتصدية التصفيق). وقال الله سبحانه لنبيه: « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا » فأما فعله فى المساجد فلا يجوز، فإن المساجد لم تبن لهذا، ويجب صونها عما هو أدنى منه، فكيف بهذا الشأن الذى هو شعار الفساق ومنبت النفاق؟ وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: « إنه بلغنى عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغانى واللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب الماء.

فما بال الواحد من هؤلاء المدعيين مذهب التصوف يلتفت عن طريقة رسول الله يمينا وشمالا، ويطلب الوصول الى الله سبحانه من سواها، ويبتغى رضاه فيما عداها؟!

وبعد فإنا نرحب بذكر الله فى كل زمان ومكان، سرا وجهرا، انفرادا واجتماعا، ولكن بشرط أن يراعوا آداب الذكر وما يجب له، فلا يتخذوا آيات الله هزوا، ولا يلحدوا فى أسمائه. أسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن، وأن يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمنه وكرمه.

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر

وصف الكملة من الرجال

قال مروان بن أبى حفصة:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ‏ ‏ أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
هم يمنعون الجار حتى كأنما ‏ ‏ لجارهم بين السماكين منزل

فوضى الاخلاق وأزمة الزواج

انقضى فصل الصيف بما له وما عليه ، انقضى وخلف تلك الذكريات المؤلمة ، والمآسى الشديدة المفزعة . انقضى ولم تنقض أحاديثه من الأفواه ، ولم تخفت تأوهاته من قلوب مكلومة ، ونفوس مألومة ، من هول ما شاهدت ، وقبح ما عاينت ، فما بال من اكتوى بناره ، واصطلى بحر أواره ، وانقضّت عليه مصائبه وأهواله ؟ اللهم لطفا بعبادك !

انقضى وانقضت سوقه ، وانتشر تجار الفسوق الذين كانوا فيه ، يحملون الى مختلف الأقطار والأمصار ما حملوا من تجارة خاسرة ، وسلع مشئومة ، بل ما لوثوا به أنفسهم من جراثيم فتاكة ، وميكروبات قاتلة للفضيلة ، والأخلاق الكريمة . فليته لم ينقض ولم ينتشر دعاته فى الآفاق ، وليت الشرّ بات محصورا فى دائرة ضيقة محدودة !

يتحدث الناس بعضهم الى بعض بعد غيبتهم عن مجتمعهم ، وعودتهم الى مزاولة أعمالهم . يتحدثون ولا بد لهم من التساؤل والتحادث :

واعلم بأن الضيف مخبر أهله   بمبيت ليلته وإن لم يسأل

ففيم مناجاتهم ، وفيم أحاديثهم ؟ إن أكثر ما يغلب على الناس من الحديث وقد تقابلوا بعد هذه الغيبة السنوية هو حديث المصايف ، وبخاصة ما كان منها فى مدن الشواطئ . وناهيك بالإسكندرية وما حوت ، فشواطئها فى أيام الصيف سوق يروج فيها الفسوق . وهل ينجر الكلام الى الاصطياف فى الاسكندرية ولا تكون تلك البقعة الآثمة ، وهى على شاطئ البحر المسماة (ستانلى باى) فى طليعة الحديث وبها اختتامه ؟ وإن حاد الكلام عنها يمنة أو يسرة فإنما هو بمقدار ما تستعرض تلك البقاع التى تنافسها فيما جرته على البلد من فسوق وفجور .

يالله للمسلمين ! لقد صادفنا غير واحد من معارفنا وأصدقائنا ، ودارت أحاديث عدة فيما قضيت فيه عطلة الصيف أو نزهته ، فكنا نسمع ذلك الحديث مكررا على أنحاء شتى ومشارب مختلفة ، فمن متعجب دهش من هذه الطفرة التي طفرتها الأمة ، مبتعدة عن دينها وخلقها ، وآدابها ونخوتها ، وكرامتها ومحاسن عاداتها . لا نقول الطفرة ، بل هي السقطة التي تردت بها في هوة عميقة لا يعلم قرارها إلا الله . ومن باك متحسر يتوجع ويتألم ، ويصب جام غضبه على من كان في مقدوره أن يصيح بالأمة صيحة الإنكار المزعجة ثم هو يسكت عليها ، قائلا : إن السكوت في الحق كالنطق في الباطل . ومن آخر مأخوذ بذلك الزخرف ، قد عشيت بصيرته بالبريق واللمعان ، واستولت على لبه بهجة المكان ، واستدرجه الخلان وإخوان الشيطان ، فكان منه ما كان ، مما يغضب الرحمن ، ويشمت إبليس العدو اللدود للإنسان . ولقد يحاول البعض من هذا الفريق ممن تدركه بقية من الحياء أن يظهر لك اشمئزازه وسخطه ، ولكنك تعرفه في لحن القول ، فتطالع من نبرات صوته ونغم حديثه ، وتلمح من أسارير وجهه ما تعرف به أنه قد وقع في الشرك ، وأنه يستغرق في ذكريات ممتعة لا يداريها ما يتستر به من سخط مصطنع ، واشمئزاز موارب فيه :

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

لسنا بصدد ما يقولون ، فذا شرح يطول . وحسبك من شر سماعه . وربما كانت تفاصيله مزلقة لقوم مستهامين . وحسبك فيما جره من شرور وأهوال تلك الأنباء اليومية عن جثث أولئك الأطفال تلقى بالليل وتلتقط بالنهار ، من ملتويات الأزقة وصناديق الأقذار ، ولسان كل واحد منهم ينادى بقول المعرى :

هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد

وإنما نريد أن نقول : ما رأى إخواننا دعاة السفور المصلحين المجددين ؟ أفراقهم هذا ؟ أأعجبهم هتك لحوم الفتيات العاريات ، أو اطمأنوا لتلك المخزيات المحزنات ، أم

هم قد استفظعوا تلك المنكرات ، وسالت منهم العبرات ، واستعاذوا بالله من تلك السيئات ؟ لا ندرى الكثير من شأنهم ، ولا نعرف ماذا تركت هذه المآسى فى نفوسهم وقد يكون منهم هؤلاء وهؤلاء ، ومن لا يعنيهم إلا أن يجأروا بالنداء فى الهواء ، وهم لا الى هؤلا ولا الى هؤلاء . ولكنا نعرف أن بعضهم قد ضاق ذرعا بذلك الشر الذى لم يكن أمره فى الحسبان الى هذا الحد ، فأخذ يعلن سخطه واشمئزازه على صفحات الجرائد السيارة ، ناقما على هذا التدهور الخلقى ، والانغماس فى أعماق الرذيلة والإفراط فى التقليد الأعمى لسفلة الفرنجة فى شر ما يرتكبون ، مع التجرد عن كل ما يتحلى به بعضهم من فضيلة واعتدال .

لقد كان المبالغون فى الدعوة الى الحجاب وزيادة التستر يخشون أن يجر بعض الشر الى بعض ، ويراعون قوله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فيها كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه » وهاهم أولاء اليوم يقولون :

قد كان ما خفت أن يكونا   إنا الى الله راجعونا

وبعد : فليس المقام مقام بكاء وعويل ، أو قال وقيل ، وإنما الواجب التضافر على علاج هذا الداء المستحكم ، والبلاء الملازم . وإن أفضل ما يصفه الطبيب المعالج إذا هاله أمر المرض أن يعنى بمنشئه فيزيله ، وأسبابه فيقتلعها ، ليجتث المرض من أصله ، ويقتطعه من أساسه ، ويسد عليه طريق العودة ، وإلا فمعالجة العوارض مع بقاء الأساس لا تفيد أكثر من تسكين موقت لا يؤمن معه العودة بنكسة ربما كانت شرا من المرض .

وإنا لنعلم أن هذا المرض الخلقى والاجتماعى ما أصاب الأمة فى أحشائها حتى فتك بآدابها وانتهك حرمة أعراضها إلا بإعراضها عن هدى ربها ، ونبذها تعاليم شريعتها . فما الذى جاءت به الشريعة الغراء فى هذا الباب ؟ هذا ما نريد أن نجلوه للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب :

يقول الله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

ولقد جاءت الشرائع السماوية كلها بتشريع حكم الزواج وسن ضوابطه التى تكفل دوامه وتحفظ المصلحة المقصودة منه ، وتقف هذه الرابطة الشريفة عند حدود الاعتدال ، إلا أن تلك الأحكام كانت تختلف فى الأديان تبعاً لاختلاف أحوال الأمم وظروفها وملابساتها ، فتجىء كل شريعة مطابقة لما يناسب وقتها ، حتى بلغ النوع الانسانى درجة الكمال ، ولاق به التشريع المناسب لجميع الأحوال ، فمنّ الله على العباد بهذه الشريعة الغراء التى تصلح لكل زمان ومكان ، ولجميع الأحوال والأطوار . والانسان كما بيّنّا فى موضوع آخر محتاج الى التربية النوعية فى مجموعه كاحتياجه الى التربية الشخصية فى مفرده ، فلقد جاءت شريعة موسى عليه السلام لأمة تحكّم فيها قوم مرهقون متعنتون ساموهم سوء العذاب ، فقتلوا أبناءهم ، واستحيوا نساءهم ، حتى استحكمت حلقات الضيق الاجتماعى فيهم ، وقل عدد الرجال وكثر عدد النساء ، فاختل توازن الأمة اختلالا بيناً فكان من حكمة العليم الحكيم أن يشرع لهذه الأمة فى باب النكاح إباحة التعدد فى الزوجات بلا وقوف عند حد . فلما تأصلت تلك العادة واستقرت فى النفوس ، وكان من شأنها أن تجر على الأسرة من عوامل الفقر والعيلة ما ينوء به الكاهل ، وتتلاشى أمامه قوة الأقوياء ، كانت الحكمة قاضية باستئصالها جملة واحدة ، حتى تقر النفوس على تركها ، وتنسى ما كان من أمرها . وهذا ما جاءت به الشريعة العيسوية على ما نقل .

فلما استقر الأمر وطابت النفوس بقبول ما يحكم به العليم الحكيم ، واستعد النوع الانسانى لقبول الهدى التام والحكمة الكاملة ، جاءت الشريعة المحمدية على الوجه الأكمل المناسب لكل أمة ولكل حال ولكل ظرف . جاءت تبيح التعدد الى حد محدود ، وبشروط وقيود تكفل للأسرة السعادة ، وللأمة النماء ، وتسوس القوة التى ركبت فى النوع الانسانى : قوة الميل الجنسى ، سياسة متوسطة معتدلة ، لا هى بالمضيقة

المقيدة، ولا هي بالمفرطة في السعة. وقد يكون في تشديد القيد إعنات شديد، أو انفلات الى بيداء الإباحة، كما يكون في الإباحة المطلقة تضرية لقوى طبعها الجموح، فأفاض المولى علينا هذه النعمة سابغة، وامتن علينا بقوله عز من قائل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فإذا شئت أن تجتلي محاسنها في هذا الباب، فاستمع لما يتلى عليك، واتبع ما يلقى اليك، والله يتولى هدانا أجمعين:

لقد ميز الله جلت حكمته كلا من النوعين الذكر والأنثى بميزة تلائم ما هيئ له من العمل الحيوي في سبيل عمران هذا الكون، فلما كانت الأنثى قد أعدت لتكون حرثا ومغرسا، ووعاء ومهادا، كان من أنسب ما يكملها في خلقتها ويعتبر فيها جمالا وعونا لها على أداء مهمتها، أن تكون من المرونة واللين والرقة بحيث تصلح لأداء هذه المهمة العظيمة، وكان حقا لها أن ترفه في حياتها بعض الترفيه، وتوفر لها راحتها، حتى يتيسر لها إيتاء ثمرتها، والوصول الى غايتها؛ وكان من المتعين ليكمل الازدواج المنتج أن يناط ما يجب لها في تقويم أودها في هذه الحياة بقرين لها يساهمها حلو الحياة ومرها، ويشاطرها شقاءها وسعادتها. يرى راحته في راحتها، وتعبه في تعبها، إذ كانت حياتهما واحدة، والثمرة الناتجة من بينهما واحدة، وهي الأولاد؛ وكانت منتسبة اليهما على درجة واحدة، يسران بها معا، ويكدان في سبيلها معا، ويقوم كل منهما لها بما يضمن كمالها. فكان من ذلك حتما أن يسكن كل منهما الى صاحبه، وتنمو بينهما المودة والرحمة، كما قال جل شأنه: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» وكما كان كمال الأنثى في لينها ورقتها، ودعتها ورفاهيتها، يكون كمال الرجل في نشاطه وقوته، ومتانته وصلابته، فهو العضو العامل في مشاق الحياة، وهي العضو الحافظ المربي لأنفس ما تتعلق به النفس، وأعز ما تقع عليه العين.

من كل هذا ترى حكمة الحكيم العليم في أن جعل أحد الزوجين للعمل والقوة،

وجعل الزوج الثانى للحفظ والدعة والسكينة . أفيتعاصى على عقل عاقل بعد هذا فهم الحكمة فى أن يجعل أمر القوامة والهيمنة والزعامة مسندة للعامل الأقوى ، للطرف الكاف بنفسه وغيره فى أداء المهمات ؟ ومعلوم أن الازدواج والانضمام يقتضى بطبيعته أن يكون أحد المتضامين هو صاحبَ التدبير والنفوذ على الآخر حتى يكمل ويدوم التضام بينهما ، فلو أن كلا منهما كان يصدر عن فكرة مستقلة وإرادة مطلقة ، لتنازعت بينهما الأهواء ، فتعرضت حياتهما للمنافرة والمباعدة .

من هنا يتضح لنا جليا سر قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » يتلو ذلك قوله تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » . ففى هذا سن القانون الكافل لمصلحة هذا الازدواج ، وقد حددت فيه السلطة ، وبين الاختصاص فى حكومة الدولة المنزلية ، وكان قانونا حكيما أعطى كل فريق ما يليق به ، بحسب ما هيئ له ، وبحسب ما نيط به .

ناشدتك الله لا يملكك الضجر ، ولا تسأم لطول الطريق قائلا : لقد ابتعدنا من المقصود ونسينا الأصل : لا ، لا ، فالغاية نفيسة ، والسر دقيق ، فلا تبخل بأناة تصل بنا إن شاء الله الى كمال الطمأنينة القلبية فيما تشعبت فيه الآراء واتبعت فيه الأهواء .

وضح لنا من هذا أن المرأة حرث والرجل غارس ، وأن ذلك يستتبع أن يكون الرجل كادًّا والمرأة وادعة . وهذا يستتبع أن من الرجال من يقدر على أن يكون غارسا فى أكثر من حرث واحد ، وقد يستطيع أن يسوس أكثر من دولة واحدة ، وقد يمكنه أن يقوم على أكثر من أسرة واحدة ، ويملك أن يهيمن على ما استطاع أن يقوم بأعبائه . وإن هذا لوتم له واستطاعه يكون فيه من نماء النسل وتكاثر الأمة ما تستحق معه أن يباهى بها ، وتملك معه أن تتبوأ المكان العلى . دعك من قول ضعفاء العقول

والنفوس : إذا كثرت الأمم ضاقت بها الأرزاق . فهو قول شاهد بالسخافة على عقل صاحبه ، فقد عودنا الله أن يهبنا الرزق على حسب كدحنا فى العمل . وما رأينا أمة كانت كثرتها سادة لطرق الرزق فى أبنائها ، بل بالعكس : نشاهد أن كثرة الأمم تدفع أفرادها للنشاط والعمل والسعى ، فقد ينتقلون الى أمم تجاورهم ، فيكونون أساتذة لهم فى نشاطهم ، فيفتحون لهم أبوابا من الرزق كانت مسدودة بالكسل الناشىء عن القلة ، المستلزمة للذلة ، فتكاثر الأمم مقصد نبيل ينبغى أن يعمل له كل عاقل غيور على مصلحة أمته . والقلة إذا اطردت أدت الى الفناء لا محالة ، ومن يرضى لأمته بالسير فى التضاؤل المؤدى الى الفناء ، وقد قال القائل :

وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وإذ قد عرفنا أن الرجل اكتسب هذا الحق : حق الهيمنة والقوامة على المرأة ، بما آتاه الله من قوة وفضل يناسبه ، فلنعرف أن ذلك يستتبع واجبا لا مناص له عنه ، ولا مفر له منه ؛ وأى حق لا يقابله واجب ؟ فكان متعينا على من يزج بنفسه فى هذا المعمان الحيوى أن يوازن بين ما سيناله من رغد ونعيم فى إمتاع نفسه ونمو أسرته ، وبسط هيمنته وكثرة نسله ، وبين ما سيلحقه من جراء ذلك من كثرة كلفه ، وشدة متاعبه ، وتضاعف واجباته . فمن أنس من نفسه الكفاية للاضطلاع بهذه المهام فلا حرج عليه أن ينتهض لهـا ويضطلع بها ، ومن رأى فى نفسه العجز فجدير به أن يلتزم حده ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه . ولكن ليس الأمر فرطا الى حد السير مع الخيال لا الى نهاية ، والابتعاد عن سنن الاعتدال دون الوقوف عند غاية ، لا ، بل لذلك كله حدود بينة ، ومعالم واضحة ، تحول بين المرء وبين أن يلعب به شيطانه ، ويغره خياله ، ذلك هو ما بين لنـا فى قوله جل شأنه : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحـدة » فقد أعطى للرجل الحق فى أن يوسع أسرته ، وينمى دولته المنزلية ، متى استطاع أن يقوم بحقها بعدالة ، وأن يوفيها ما يجب عليه لها

بلا ظلم ولا حيف . فمن لم يأنس من نفسه العدالة فى القيام بالأود ، وأداء ما يجب من الحقوق ، فليس له أن يتطلع الى منصب اختص الله به من آتاه قوة العدل والفضل . بل لو علم أن أصل الزواج سيوقعه فى إضرار من اقترن بها ، ولم تكن به ضرورة دينية تدعو الى هذه المضارة ، كان إقدامه على الزواج ولو واحدة دخولا فى الظلم والإضرار لنفسه ولغيره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

لو أن هذا القانون السماوى قد ساد بيننا على ماوضع له من هـذه التحفظات الشرعية : ما بين منها فى هذه الآية السابقة ، وما بين فى غيرها من معالم الشريعة ، فهل كنا نشهد هذه المآسى المدمية للقلوب ، القابضة للنفوس ، المميتة بتتاليها وكثرة التمادى فيها لكل شعور حى وضمير حساس ؟ لا ، لا وحقك ! بل كانت الأمة تشعر بهناءة الحياة المنزلية ، وكان الرجل أقصى ما يتمناه أن يقول ما حكاه الله عن المؤمنين فى قوله عز وجل : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » نعم ، ولكانت تلك الآنسات العانسات ، والنساء المترملات ، وجدن أمامهن أبواب الحياة السعيدة مفتحات ، وإذاً لأوصدت مغاليق الشر فى وجوه الشياطين : شياطين الانس وشياطين الجن ، ورفرفت على الأمة ألوية السعادة والطمأنينة ، وتجلت بحلل المجد والفخار ، والشرف والصون والعفاف . فوحقك ما أوقع النساء فى هذه المهاوى الساحقة إلا إعراض الرجال عن ابتناء صروح السعادة المنزلية ، وخوفهم من ثقل الأعباء فى التكاليف المعيشية ، فيسرح الرجل ويمرح ، ويتلهى ويتسلى ، بل يتسكع فى الطرقات والمجتمعات حتى يبدوله خيال امرأة تروقه فيتبعه النظرة فالحسرة ، فتحس تلك أن هذه بوادر الغرام والهيام ، فتتلكأ هى عسى أن تتصيد ، وتبدأ بينهما مناورات الخداع المتبادل من الطرفين ، كل يحاول أن يعبث بصاحبه ، وأن يكون هو الصائد للبه :

ولكم من يروم يصطاد فا صطيد ولم يلق غير خفى حنين

وما هى إلا همسة حرف ، أو لمحة طرف ، حتى يشتبكا فى معركة حامية إلا أنها باردة ، ودامية إلا أنها لذيذة ، ثم يتفاصلان متساخطين متلاعنين ، والشيطان من بينهما يضحك عليهما ، وقد بلغ منهما مراده ، وأدرك منهما ثأره ، وشفى شيئا من غيظه الذى أصابه من لعنة الله له لعدم سجوده لأبيهما آدم من قبل . ثم هل تقتصر شرور هذه المعركة وخسائرها عليهما ؟ لا ، بل تترك بين الجنسين غارات لا تنتهى ، والسلاح فى كل موقعة واحد : سلاح الخديعة والتغرير ، والمواربة والتدليس ، حتى تستحكم حلقات الشر بين الطرفين ، ويسيء كل منهما الظن بل الاعتقاد فى صاحبه ، فلم يبق إلا رضا كل منهما بأن يلابس صاحبه على علاته ، وكل منهما عالم بما فى نفسه ونفس غيره ، والله بصير بالعباد .

نعوذ بالله نعوذ بالله : تالله إنا لنخال المرأة وهى الجانب الضعيف فى هذه المعركة وإن كان كثير يظنونها أصل البلاء — نخالها ما انحدرت الى هذا الدرك إلا مضطرة مقسورة ، وإنها مهما بلغت بها الرذيلة لتأسف وتحزن على نكد طالعها وحرمانها من حياة سعيدة مضمونة العواقب ، مستقرة راسخة ، فى الشباب والشيخوخة ، فى الصحة والمرض ، فى الجمال والتشويه ، حياة راسية على قواعد ثابتة .

لا نعلم امرأة تشذ عن ذلك إلا فى ندرة لا تكاد يعتد بها ، وما انزلقت المرأة الى تلك المهاوى إلا فى طريق بحثها عن تلك الحياة السعيدة ، ومابحثت عنها ولا سعت اليها إلا بعد أن أعياها الانتظار الطويل ، لتكون هى المطلوبة المخطوبة كما هو المتبع فى محاسن العادات . وما أعياها الانتظار إلا لإعراض الرجال عن الحياة الزوجية ، وجبنهم أمام تكاليفها ، وتصورهم لها بصورة غول مفزع فظيع . ولو أن الناس عقلوا الحياة على وجهها ، وتصوروا ما تحتويه المنازل السعيدة من استمتاع بالذرية ، وقرة عين بالأهل ، وفرح قلب بمحبة حقيقية مؤنسة ، شعارها الإخلاص المتبادل ، وقوامها ارتباط سعادة كل من الطرفين بسعادة صاحبه ، إذاً لقالوا جميعا : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، وإذاً لذاقوا حلاوة السكينة والمودة والرحمة المشار اليها

فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . وإذاً لقرت النفوس فى جوانحها ، واطمأنت الفتيات فى خدورها ، واستشعرت قلوب الرجال لذة الثقة والطمأنينة لمن تعاشره ويعاشرها ، ودخل جمهور المسلمات تحت لواء قوله تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

يأيها المسلمون ! لم يقفل الباب ، ولم يزل الشر محصورا فى طبقات قليلة . ونحن إذا هالنا أمره واستفظعنا خطبه ، فإنما هو لأن القليل من المرض يُنسى الكثير من الصحة . فنناشدكم دينكم وربكم، ونخوتكم وشرفكم، إلا ما تداركتم الأمر قبل استفحاله ، وعالجتم الداء قبل استحكام وباله ! والله ولى التوفيق ، وهو الهادى الى أقوم طريق ؟

ابراهيم الجبالى

كلمات بليغة مأثورة

مدح خالد بن صفوان رجلا فقال : قريع المنطق ، جذل الألفاظ ، عربى اللسان ، قليل الحركات ، حسن الاشارات ، حلو الشمائل ، كثير الطلاوة ، صموت قؤول ، لم يكن بالبرم فى مروءته ، ولا بالهذر فى منطقه ، متبوع غير تابع ، كأنه علم فى رأسه نار .

ودخل سهل بن هرون على الرشيد فوجده يضاحك ابنه المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له فى البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ، مقصرا عن غده .

فقال له الرشيد : ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ، ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه .

فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمنى الى هذا المعنى .

فقال هرون : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بنى لؤى ... وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

باب الأسئلة والفتاوى

حديث (لا يبع حاضر لباد)

ورد الى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

جاء فى مجلة نور الاسلام فى العدد الخامس من المجلد الرابع صفحة ٢٤٥ فى بعض فتاويكم فى البيع بالزيادة الفاحشة حديث استدللتم به ، وهو : « لا يبع حاضر لباد ، دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » . ونريد أن نعرف من خرج هذا الحديث ، وهل هو صحيح أم لا ؟ ثم إن الجملة الأولى فى الحديث تفيد النهى عن بيع الحاضر للباد ، والجملة التى تليها وهى : « دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » تفيد عدم النهى عن البيع .

فظاهر الحديث يفيد التناقض ، وكذا يفيد عدم النصح للناس بعضهم لبعض .

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع ، وإثبات أيهما أصح ، وأيهما يوافق الشريعة الغراء . والسلام عليكم ورحمة الله .

احمد ابراهيم محمود — بقنا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

الحديث صحيح لا شك فيه ، وقد أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما كما ستعرف ، غير أن لفظة (فى غفلاتهم) مدرجة من بعض الرواة ، وهو هكذا فى كتب الفقه بهذا الإدراج ، والفقهاء كثيرا ما يكون فيما يذكرونه مثل هذا الإدراج ، وكثيرا ما يروون الحديث بالمعنى ، وهو جائز على الأصح عند المحدثين للعالم العارف بالمعنى المقصود .

أما قولك : إن فيه تناقضا بين قوله : « لا يبع حاضر لباد » وقوله : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » فغير واضح ، لأن المعنى أن الحاضر العارف بأثمان السوق لا يكون سمسارا للبادى الذى يجهلها ، فلندع من جاء من البادية يبيع باجتهاده ، ويأخذ منه المشترى باجتهاده .

والبيع والشراء مبنيان على المغالبة والاجتهاد من كل من البائع والمشترى . فالجملة الثانية وهى قوله : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » مؤكدة لما يستفاد من الأولى وهى قوله : « لا يبع حاضر لباد » لا مناقضة لها كما تقول .

وأما قولك : إن فى ذلك عدم النصح فغير واضح أيضا ، لأننا لم نعمل عملا يسمى غشا ، ولا قلنا قولا يخالف الحقيقة أو يعد كذبا ، وليس فى المسألة إلا ترك البائع يبيع كما يشاء ، والمشترى يشترى كما يشاء . وسنة البيع والشراء مبنية على أن الصفقة تكون رابحة للمشترى مرة وللبائع أخرى ، ولا شىء فى ذلك مالم يوجد غش أو كذب أو تلبيس ، وكل ذلك منفى فى موضوعنا هذا . وأظن أن الأمر صار واضحا لا شبهة فيه .

أما الحديث المذكور فهو صحيح ، رواه كثير من المحدثين تارة باللفظ وتارة بالمعنى :

فعن جابر رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبع حاضر لباد ، ودعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » أخرجه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود فى سننه ، والترمذى فى جامعه ، والنسائى فى صحيحه .

وفى أخرى للبخارى ومسلم وأبى داود والنسائى عن أنس « نهى عن بيع حاضر لباد وإن كان أخاه لأبيه وأمه » . وفى أخرى لأبى داود والنسائى « وإن كان أخاه أو أباه » ، الى غير ذلك ، والله أعلم ؟

الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد المغرب

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع هذا السؤال :

مولاى كثير من الناس يصلى على النبى بعد السلام من صلاة المغرب بصيغة « اللهم صل عليه » مائة مرة ، فهذا جعلنى غير مستريح الخاطر من جهة هذه الصلاة ، فلذا اضطررت للكتابة الى فضيلتكم فى هذا الصدد ، راجيا التكرم بالرد على صفحات مجلة نور الاسلام حتى يتميز الحق من الباطل . وأبتهل الى الله تعالى بالدعاء أن يعلى شأنكم ويطيل عمركم .

وتفضلوا بقبول فائق احترامى . عبد المجيد أبو بكر سعيد
مدرس بمدرسة الحوطا الغربية الالزامية

الجواب

الاستغفار ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والدعاء عقب كل صلاة مفروضة مندوب مرغب فيه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما « إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » . ولا فرق بين كون ذلك من واحد أو من جماعة ، غير أن رفع الصوت إذا أدى الى التشويش على المتلبسين بعبادة أخرى من صلاة أو تفكر ونحو ذلك ، منع ، لعارض التشويش . وعليك بالاعتدال ، وإياك والافراط فى كل ما تأتى وتذر .

وأما الصيغة التى يصلى بها على النبى صلى الله عليه وسلم فهو مخير فيها ، وكذلك العدد الذى يشاؤه ، وكلما أكثر ازداد من الخير . غير أنه يطلب منه ألا يقتصر على الصلاة ، بل يضم اليها السلام ، ويذكر الآل أيضا ، فهذا هو الأكمل والأفضل . وربما أفضنا فى بيان فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى فرصة أخرى إن شاء الله .

الرضاع

ورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

يوجد ببلدة الحامولى التابعة لمركز إبشواى بمديرية الفيوم رجل عالم تلقى العلم بمعهد طنطا من زمن ، يفتى لأهل بلده وضواحيها بأن الداية التى تولد النساء وترضع البنين والبنات بمجرد وضع الحمل لمدة يومين وثلاثة حتى ينزل اللبن بثدى المرأة التى وضعت حملها لا يحرم زواج بعضهم لبعض . وكذا الغزية التى ترضع أطفال البلد الذكور والإناث ، فإنهن كمنفعة عامة ، فهن لا يحرمن أحدا على أحد . ومثلهن المستأجرة التى ترضع ابن هذا وبنت ذاك . ثم قال : إن الجارة إذا أرضعت أولاد الغير لا يحرم بعضهم على بعض ، والحرمة لا تكون إلا للمرضعة نفسها ولأصولها وفروعها فقط ، لمن أرضعته ، سواء أكانت غزية أو داية أو جارة أو مستأجرة .

فألتمس من مكارم فضيلتكم الإجابة الشافية عن هذا الموضوع ، جعلكم الله نورا وهدى للناس فى الدارين ؟

الغنيمى ابراهيم عوض
رئيس مدرسة الحامولى الالزامية — فيوم

الجواب

كل من أرضعتهم القابلة من أطفال النساء بعد الولادة يصيرون إخوة من الرضاع لا يجوز بعضهم لبعض . وكذلك جميع من أرضعته المرأة المستأجرة من أولاد الناس يصيرون إخوة بالرضاع : لا يجوز نكاح الذكر منهم للأنثى . وأيضا جميع من أرضعته المرأة المغنية المشهورة بالغزية من أطفال الناس عند جوبها البلاد إخوة من الرضاع لا يجوز نكاح بعضهم لبعض .

قال الله تعالى فى بيان المحرمات : « وأخواتكم من الرضاعة » .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وقد حكى بعضهم الإجماع على أن الرضاع يحرم كالنسب ، إلا فى مسائل ليست هذه منها .

النشوق فى رمضان – الزنا

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤالان الآتيان :

قال السائل بعد الديباجة :

١ — هل النشوق مباح فى رمضان أم لا ؟ أرجو شرح حكمه بالبيان الشافى .

٢ — زنى رجل بامرأة فهل يجوز له أن يتزوج ابنتها ؟ أرجو أن تفتونا فى ذلك بحكم الشرع الشريف حتى يتبين الرشد من الغى . جزاكم الله عنا خير الجزاء .

محمد محمد عمر شاهين
مدرس بمدرسة بركة الرطلى الالزامية

الجواب

١ — يمنع النشوق وشرب الدخان . ومتى وصل النشوق أو الدخان للحلق أدى الى الفطر ووجب القضاء . ويكره مضغ شىء كاللادن أو التمر يمضغ لإطعام صبى مثلا ، فإن تحلل منه شىء ووصل الى الحلق أفطر الصائم ووجب عليه القضاء ، وإلا فلا .

٢ — الأرجح من مذهب مالك أن من زنى بامرأة جاز له أن يتزوج ابنتها التى لم تتخلق من مائه ، لأن الزنا لا قيمة له فى نظر الشارع فى مثل هذا ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلا ينشر الحرمة ، والمقابل يقول بالتحريم . أما بنت الزنا التى تخلقت من مائه فلا يجوز له التزوج بها ، خلافا للشافعية ، ويوافقهم ابن الماجشون من المالكية .

وقد قال فى أقرب المسالك : « ولا يحرِّم الزنا على الأرجح » . قال الشارح : « فمن زنى بامرأة جاز له أن يتزوج بأصولها وفروعها ، وجازت هى لأصوله وفروعه » وقال فى الرسالة : « ولا يحرم بالزنا حلال » .

وقال فى متن الدردير أيضا : « وحرم الأصل والفرع وإن من زنا » . أى يحرم

على الشخص نكاح أصله كأمه وجدته ، كما يحرم عليه نكاح فرعه ، سواء أنشأ عن نكاح أم عن سفاح كالبنت التي تخلقت من مائه ، والله أعلم .

الصلاة خلف المخالف

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع مايأتى :

١ — رجل مالكى المذهب صلى الظهر خلف إمام شافعى ، وبعد تمامها أعاد الإمام صلاته مع جماعة أخرى ، فهل صلاة المالكى صحيحة أم لا ؟

٢ — رجل مالكى المذهب صلى إماما لشافعية ، وبعد الصلاة أعادوا صلاتهم خلف غيره ، فماذا يكون الحكم : هل صلاته صحيحة أم لا ؟

زيدان سعد راغب الطحاوى

الجواب

صلاة المالكى فى الصورتين صحيحة . أما فى الأولى فلأنها فرض خلف فرض ، وإعادة الشافعى لها لا يؤدى الى كون صلاته الأولى وقعت نافلة حتى تبطل صلاة المالكى خلفه . فهذا هو الذى ينبغى التعويل عليه ولا يلتفت لخلافه .

وأما فى الثانية فلأن الامام المالكى أدى صلاته مستوفية لشروطها وأركانها ، فلا يؤثر فيها إعادة المأموم الشافعى بعد الفراغ ولو تكررت مرارا ، والله أعلم .

الأيمان غير المعتبرة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

إمام مسجد تفوه بألفاظ تجعله فى عداد الفقراء غير الصابرين ، فسمع هذا القول رجل يحقد على الامام فقال : « أكون على غير دين الاسلام إن صليت خلف هذا

الامام » . ومن هذا اليوم ترك الصلاة خلف الامام حتى فريضة الجمعة ، فهل يعتبر ذلك يمينا يجب التكفير عنه ؟ أرجو الإيضاح ولفضيلتكم أجمل الشكر .

استبان ابراهيم منصور مساعد

الجواب

من قال : هو يهودى أو نصرانى إن فعل كذا ، لا يلزمه غير الاستغفار ، ولو فعل المحلوف عليه . قال الشيخ العدوى فى حاشية أبى الحسن بعد كلام : « ولو قال إن فعل كذا يكون مرتدا أو على غير ملة الاسلام فكذلك » يريد لا شىء عليه غير الاستغفار ، لأن هذه الألفاظ لا تنعقد بها يمين . واليمين إنما تكون بالحلف بالله أو صفة من صفاته ، والله أعلم .

يوسف الدجوى المالكى
من هيئة كبار العلماء

سجود التلاوة — الاذان والاقامة عند قضاء الفوائت
سؤال الموءودة بأى ذنب قتلت — فضل صلاة الجماعة

وورد الى المجلة من حضرة صاحب التوقيع هذه الأسئلة :

١ — ما حكم قارىء القرآن إذا مرّ على سجدة ولم يكن بمحل يصلح السجود فيه : هل يفوتها ويقرأ ما بعدها أو وجب عليه السجود بمجرد نظره إياها ؟ فإذا كان كذلك فما العمل فى السجود ؟

٢ — معلوم فى الصلاة أن القضاء أفضل من النفل ، فهل يجب على المصلى إقامة الصلاة للقضاء ، أم يكفى الأذان الشرعى ، أو أذان قيام الصلاة إذا كان بعد صلاة الفرض ؟

٣ — ما المقصود بقوله تعالى فى سورة التكوير : « وإذا الموءودة سئلت بأى

ذنب قتلت » فلماذا لم تكن هى التى تسأله تعالى عن سبب قتلها ؟ وكيف يكون الخالق يسأل المخلوق ؟

٤ — لماذا فضلت صلاة الجماعة صلاة الفذ ببضع وعشرين مرة مع أنها لم تذكر فى القرآن الكريم والمقصد من الصلاة كلها طاعة الله وتنفيذ أوامره الكريمة ؟ وما حكم من كان محله بعيداً عن المسجد ولكنه يسمع الأذان بصعوبة وأحيانا بسهولة ؟

٥ — ما الحكم فى التاجر إذا أخذ منه أحد المشترين شيئا وقيده عليه بالصنف ولم يقيد الثمن تاركا تقدير الثمن عند الدفع ويتسلم منه بحسب طول المدة ، فهل فى ذلك تحريم ؟

٦ — هل إذا شاء الله ودخلنا الجنة نكون بشبه أجسامنا وحالتنا هذه التى نحن عليها فى الدنيا ؟ وهل يعرف القريب قريبه والصاحب صاحبه ؟ وهل نذكر ما كنا نعمله فى الدنيا من خير وشر ونحوه ؟ وهل فى الجنة ليل ونهار ؟ وهل نرى ربنا عيانا ونبينا صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء والملائكة المقربين ؟

محمد حمدان الأهتم — تاجر بالعريش

الجواب

١ — نص علماء الحنفية على أنه يكره للقارئ ترك آية السجدة وقراءة باقى السورة ، لأن فيه قطع نظم القرآن ، وتغيير تأليفه ، واتباع النظم والتأليف مأمور به. وعلل الامام محمد بن الحسن الكراهة فى الجامع الصغير بأن فى ترك قراءة آية السجدة هجر شىء من القرآن ، وذلك ليس من أعمال المسلمين ، وبأنه فرار من السجدة ، وذلك ليس من أخلاق المؤمنين .

ونصوا كذلك على أنه يستحسن للقارئ إخفاء آية السجدة عن السامعين إذا علم أنهم على حال لا يتمكنون معها من السجود ، لأنه لو جهر بها لأوجب عليهم شيئا ربما

يتكاسلون عن أدائه فيما بعد، فيقعون فى المعصية. ثم سجود التلاوة إنما يجب على التالى بالتلاوة، وعلى السامع بالسماع. وأما مجرد النظر الى آية السجدة فى مصحف أو غيره فلا يوجب السجود.

مما تقدم يعلم أنه يكره للقارئ إذا وصل الى آية السجدة أن يتركها ويقرأ ما بعدها، وأنه إذا علم أن سامعيه ليسوا متهيئين للسجود كان الأحسن له تلاوتها سرا حتى لا يعرضهم للوقوع فى المعصية. أما إن علم أنهم متهيئون للسجود جهر بها، إلا إذا علم أنه يشق عليهم أداء السجدة، فإن لم يكن له علم بحالهم فالأحسن إخفاؤها.

٢ — الأذان والإقامة سنتان مؤكدتان عند أداء الفرائض الخمس فى أوقاتها، أما إذا خرج وقتها فإن كان عليه فائتة واحدة أذّن لها وأقام فى غير المسجد، وإن كان عليه فوائت مجتمعة وأراد قضاءها فى وقت واحد فى مجلس واحد، فإنه يؤذن ويقيم للأولى منها، ويخير بين الأذان والإقامة والاقتصار على الإقامة فى الباقى. ويسن فى تأذينه للفوائت أن يرفع صوته لو كان يقضيها فى جماعة أو صحراء لا فى المسجد، وأما إذا كان يقضيها منفردا فى بيته فلا يبالغ فى رفع صوته، وإن كان يقضيها فى المسجد ترك الأذان رأسا دون الإقامة، لأن فيه تلبيسا على الناس.

٣ — كانت عادة وأد البنات فاشية عند العرب فى الجاهلية، وهى عادة مرذولة مستهجنة تنفر منها الطباع وتنكرها الشرائع، لما فيها من قتل النفس بغير حق. ولقد نعى القرآن عليهم هذه العادة وأنكرها، قال تعالى فى سورة النحل: « وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسْودًّا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب، ألا ساء ما يحكمون ».

ولقد صور الله جريمة الوأد فى سورة التكوير تصويرا ينفر الناس منها ويمنع من وقوعها، فقال تعالى: « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » فجعل الموءودة مسئولة ومن حقها أن تكون سائلة عن قتلها بغير ذنب، تحقيراً لشأن الوائد، وأنه لعظم ما ارتكب

من الإثم ساقط عن درجة الاعتبار ، فلا يصح أن يوجه اليه الخطاب . ثم هذا سؤال في يوم تجتمع فيه الخلائق ويرى كل ما اقترف من الإثم ، تسأل فيه الموءودة فتظهر بريئة لاذنب لها ، وأن الجريمة التى وقعت عليها لاشيء يبررها، وفى ذلك من الإيلام والتوبيخ لمن فعل هذا ما لا يدرك كنهه ، وفيه من التعريض بالجانى مالا يخفى .

٤ — صلاة الجماعة سنة من سنن الهدى لا يرخص فى التخلف عنها إلا لعذر ، بل لقد قيل إنها واجبة ، وقد وفق الكمال فى فتح القدير بين القولين بأن مراد من قال بالوجوب وجوب الحضور لها أحيانا ، ومن قال بالسنية سنية المواظبة عليها .

وقد طلبها الشارع وشدد فى طلبها وتوعد على تركها . وقد قال صاحب البدائع : ثبت وجوبها بالكتاب والسنة وتوارث الأمة : أما الكتاب فقوله تعالى : «واركعوا مع الراكعين» وذلك يكون فى حال المشاركة فى الركوع ، فكان أمرا بإقامة الصلاة فى جماعة ، ومطلق الأمر لوجوب العمل . وأما السنة فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس فأنصرف الى أقوام تخلفوا عن الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم » . ومثل هذا الوعيد لا يكون إلا على ترك واجب . وأما توارث الأمة فلأن الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا واظبت عليها ، وعلى النكير على تاركها ، والمواظبة على هذا الوجه دليل الوجوب .

وقد روى ابن ماجه عنه صلى الله عليه وسلم : « من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلامن عذر» . قال الحاكم: إنه على شرط البخارى ومسلم . وروى أبو داود وأحمد والحاكم عن ابن أم مكتوم : « أنه قال: يا رسول الله إنى ضرير (كفيف البصر) شاسع الدار ، ولى قائد لا يلائمنى ، فهل تجد لى رخصة أن أصلى فى بيتى ؟ قال : تسمع النداء ؟ قال : نعم . قال : ما أجد لك رخصة »

من هذا يعلم أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة إن لم تكن واجبة ، وأن بعد الدار عن مسجد الجماعة لا يرخص فى التخلف عنها مادام الأذان مسموعا .

ولما فى صلاة الجماعة من المزايا التى أهمها ارتباط قلوب المؤمنين واجتماع كلمتهم وبث روح التآلف بينهم ، فضلت صلاة الرجل فى الجماعة صلاته فى بيته أو سوقه بسبع وعشرين درجة ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

هذا وأما السؤالان الخامس والسادس ، فقد سبقت الإجابة عنهما فى المجلة مرارا ، فلا داعى لتكرار الإجابة عنهما ، والله الهادى الى سواء السبيل .

حسين البيومى الحنفى ، عبد السلام العسكرى الحنفى
بكلية الشريعة الاسلامية

الظهار — الامانة — الربا

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع الاسئلة الآتية :

١ — شاب لم يتزوج قال هذه الجملة عدة مرات : «إذا لم أتزوج بفلانة بنت فلان فالنساء علىّ كظهر أمى » وقد تزوجت المقصودة بغير الشاب الذى كان يردد الجملة السابقة ، فهل يقع اليمين ؟ وفى أى مذهب ؟ وما الذى يفعله هذا الشاب إذا أراد الزواج ؟ وما العمل إذا كان اليمين واقعا ؟ وعلى أى مذهب يكون عقد زواجه ؟ وهل لهذه اليمين كفارة ؟

٢ — رجل أعطى آخر مقدارا من المال ليحفظه له كأمانة ، ولما أخذ الرجل المال تاجر به من غير إذن صاحبه ، ولما طلبه منه قال له : إن المال ليس معى الآن ، وكتب له به إيصالا لأجل معلوم ، وهذا الإيصال ينص على فائدة قدرها تسعة فى المائة ، فهل يجوز لصاحب المال أن يشكو المدين ويأخذ منه فائدة تسعة فى المائة بحجة أن هذه الفائدة من أرباح التجارة التى استعملت فيها نقوده ؟ وهل إذا أخذها تعد ربا ، مع العلم بأن هذه النقود مستعملة فى التجارة الى وقت أجلها والمدين ليس فى احتياج إليها ، بل لم يعطها لصاحبها لوجودها عند أناس أخذوا بها أشياء تجارية للأجل المعلوم ؟

٣ — تاجر يبيع صنفا من التجارة آجلا بمبلغ يزيد على العاجل ، مثال ذلك أنه يبيع الأردب من القمح بمبلغ جنيه مصرى عاجلا ، وبجنيه ونصف آجلا ، فهل الزيادة تعد ربا ؟

٤ — رجل زنى بامرأة فأتت منه ببنت ، فهل هذه البنت تحل زوجة لابنه الشرعى ؟ وما تفصيل ذلك على المذاهب الأربعة ؟

حسن عبد الله محمد سويلم
مدرس بمدرسة الحبيلات الشرقية

الجواب

١ — نص الحنفية على أن الظهار تشبيه المنكوحة بمحرمة عليه على التأبيد ، وعلى أنه يكون منجزا كقوله لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ومضافا الى سبب الملك كقوله لأجنبية : إن تزوجتك فأنت على كظهر أمى . أما غير ذلك فلا يكون ظهارا .

فالمذكور بالاستفتاء (إن لم أتزوج فلانة فالنساء على كظهر أمى) لا يكون ظهارا ، لأن النساء اللاتى جعلهن عليه كظهر أمه لم يكنّ فى ملكه وقت صدور القول منه ، ولم يضف الظهار منهن الى ملكهن ، فكان ماصدر منه لغوا لا يترتب عليه كفارة ، وله أن يتزوج بمن يشاء من النساء من غير توقف على شىء يلزمه .

٢ — من كان عنده أمانة لغيره لا يحل له أن يتصرف فيها بتجارة ولا بغيرها ، وإذا تصرف فيها كان ضامنا ، وليس لصاحب الأمانة أن يأخذ زيادة على ما كان له كائنة ما كانت الزيادة ، لأنها ربا ، ولا عبرة بكون الزيادة من ربح اتجار الأمين بالأمانة .

٣ — سبقت الإجابة عليه فى عدد ربيع الآخر من هذه السنة .

٤ — نص الحنفية على أن من زنى بامرأة فأتت منه ببنت ، حرمت هذه البنت عليه وعلى أصوله وفروعه ، فلا يحل لابنه الشرعى أن يتزوجها ، والله الهادى الى سواء السبيل ؟

حسين البيومى ، عبد السلام العسكرى الحنفى
بكلية الشريعة الاسلامية

الكراء

وورد من حضرة صاحب التوقيع سؤال قال فيه بعد الديباجة :

إن إنسانا اكترى حانوتا من آخر بخمسة وسبعين فرنكا فى كل شهر، فاذا انقضى الشهر أعطى صاحب الحانوت ما ذكر ، ولا زالا على ذلك مدة تنوف عن سنتين ثم إن المكرى قال للمكترى : عجل لى كراء ثلاثة أشهر وأكريها لك بستين فرنكا . وعقدة الكراء الأول لا زالت على حالها بحيث إذا تمت الثلاثة الأشهر رجعا للكراء الأول ، وهو خمسة وسبعون فرنكا . فهل هذه المسألة تجوز أم لا تجوز ؟ فذهب الفقير وهو كاتب الحروف لفضيلتكم الى الجواز ، لأن مسألة منع وتعجل المنصوص عليها بالمنع عند الفقهاء لا تجىء هنا لعدم الدين بالكلية فى ذمة المكترى . وذهب الغير من حذاق بلدنا الى المنع متمسكا بتلك القاعدة ، لأنه إذا انقضى الأجل يقبض من نفسه لنفسه تلك الزيادة وهى خمسة عشر فرنكا ، وقد قرروا أن من عجل ما أجل عد مسلفا ، فيكون سلفا جر نفعا ، فقلت له : إنما يظهر ذلك لو كان المكترى ذمته عامرة بالدين ، وحيث إنه لا دين عليه بالكلية فأى شىء يضعه حتى يحكم على هذه الصورة بالمنع ، وتكون حينئذ من مشمولات منع وتعجل ؟ فصمم على المنع .

ومن أجل هذا الاضطراب كاتبت فضيلتكم قاصدا تبيين ما هو الحق فى المسألة : أهو الجواز أم المنع ؟ ابن فقرون احمد بن الحاج القربى المالكى

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فجوابنا عما سألت عنه هو أن صورة الحل التى لا شك فيها هى ألا يكون المكرى والمكترى متمسكين بالعقد الأول ، ولا متفقين على ما فيه . ولهما بعد

الأشهر الثلاثة أن يرجعا اليه إن شاءا ، وأما مادام الاتفاق بينهما على أن العقد الأول باق كما فى نص السؤال ، فالحيلة واضحة ، ونقص الأجرة إنما هو للتعجيل . فإن العقد الأول لم ينفسخ ، وسيرجعان للعمل به بعد تلك المدة بناء على ما بينهما من الاتفاق ، وهنا ظاهر جدا فى أنه لم يبطل أثره ، وأن النقص إنما هو للتعجيل ، والعقد على ما هو عليه . وقد يكون هذا فى أثناء الشهر .

والعمل على أن الشهر متى حل لزمت الأجرة المكترى ، بل تسليم المفاتيح وتمكينه من الانتفاع يعد قبولا والتزاما لأجرة الشهر فى العرف .

وبهذا الاتفاق القولى أو العرفى الجارى مجرى المعاطاة فى البيع صارت ذمته مشغولة بأجرة هذا الشهر على مقتضى العقد الأول ، فإذا عجل له ستين فرنكا عد مسلفا وقد انتفع بالخمسة عشر الباقية . ولا مناص من ذلك فى الشهر الأول الذى حصل فيه الاتفاق على النقص والتعجيل . على أن ذلك إن كان فى آخر الشهر وقبل حلول الشهر الذى يليه فلا يجدى أيضا ، لاتفاقهما على بقاء العقد الأول كما هو مصرح به فى نص السؤال .

هذا هو مقتضى قواعد مذهب مالك الذى مبناه على منع الحيل وسد الذرائع .

فالمخلص ألا يكون بينهما اتفاق أصلا ، وأن يخرجا من الاتفاق الأول الذى كان فى العقد الأول الى اتفاق جديد ساكتين عما وراء ذلك . ولهما بعد انقضاء المدة أن يرجعا للعقد الأول إن شاءا . أما الاتفاق على بقاء العقد كما هو صريح السؤال فلا ينبغى أن يفعله من يستبرئ لدينه وعرضه . وملاك الدين الورع .

ولا يسهل على وأنا مالكى عمرى أن أفتى بغير هذا ، والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء بالأزهر

العناية بالصحة فى الاسلام

شرع الاسلام ليكون دينا عمليا لا خياليا ، ولذلك لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالحياة المادية والروحيـة للانسان إلا أتى عليها ، ووضع لها من القواعد ما يناسبها ، ومن أهم ما عنى به الاسلام الصحة البدنية ، ومن أوليات هذه الصحة النظافة ، وقد ندب الله اليها بوجـه عام فقال تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

فرض الاسلام على الرجال والنساء الاستحمام من الجنابة ، وخص النساء بوجوب الاستحمام من الطمث أيضا . وندب الى الاغتسال أيام الجمع وأكد فيه ، حتى عده بعض العلماء واجبا . وشرط لصحة الصلاة الوضوء . ولما كانت الصلوات خمسا كان على كل مسلم ومسلمة أن يتوضأ فى كل يوم مرات . والوضوء من أجمع وسائل النظافة ، وأعودها على صحة الأبدان بالفوائد الجليلة . فقد ثبت أن الأتربة التى تتصاعد فى الجو تحتوى على كثير من جراثيم الأمراض ، فتثبت فى حوافى الجفنين ، فتصيب العينين بالأرماد المنوعة ، وتتسرب الى الأنف والحلق فتكون سببا فى أمراضهما المختلفة ، وتندس الى الأذن فتحدث فيها آفات السمع . وتتخلل بقايا الأطعمة ثنايا الفم فتتولد فيه جراثيم مرضية من ضروب شتى . فالوضوء يقى المسلمين والمسلمات من هـذه العوارض كلها ، فإنه يبدأ بغسل اليدين ، والمضمضة ، وتطهير الأنف باستنشاق الماء ونثره ، وبغسل الوجه وفيه العينان ، ويلى ذلك غسل الذراعين الى المرفقين ، وهو أقصى ما يحتمل أن تصل اليه الأوساخ من الخارج ، ويجىء بعده مسح الرأس والأذنين من الداخل والخارج ، ومسح العنق ، وغسل الرجلين ، فيتم بذلك للانسان القيام بعمل صحى أصبح العلم العصرى يندب إليه الناس ، مكافحة للأمراض الثقيلة التى تعترى

هذه الأعضاء وتتصل منها بالأعضاء الرئيسية فتصيبها بأفدح الأدواء .

وقد شدد الاسلام فى وجوب طهارة الماء الذى يستعمل فى الاستحمام والوضوء، وجعل هذا النظام فى النظافة مقرونا بعمل عبادى لتطهير الروح على أساس لا يمكن أن يتصور أكمل منه للوصول الى درجة الطهر حسا ومعنى .

لم يكتف الاسلام فيما يتعلق بصحة أهله بما فرضه من الاستحمام والوضوء، ولكنه سن سنة الاعتدال فى كل شىء : الاعتدال فى التغذى « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، الاعتدال فى الإنفاق « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما» ، الاعتدال حتى فى الدين « إياكم والغلو فى الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

وعلى هذا الأصل المكين بنى الرخص فى العبادات ، فقصر الصلوات فى الأسفار، وقرر أنه يجزىء الناس من أعمال الصلاة ما يستطيعون عمله مراعاة لحالتهم ، فقبل أن يصلوا جلوسا ، فإن لم يستطيعوا فضطجعين ، فإن لم يستطيعوا فبالايماء على أى وضع كانوا ، فإن عجزوا عن قراءة آية من القرآن سقطت عنهم مراعاة للتيسير عليهم، مصداقا لقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» .

ورخص للمرضى والمسافرين أن يفطروا فى شهر رمضان ، على أن يقضوا فى زمن صحتهم الايام التى أفطروا فيها

وحرم التغذى بالدم ، و الميتة ، ولحم الخنزير ، وما ذبح لغير الله ، والخمر ، واستثنى من ذلك من يدفعه الاضطرار الى تناول شىء منه محافظة على حياته ، فقال تعالى : «فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه » .

وأباح للذى يهدد بالقتل من أجل دينه أن يتظاهر بالكفر صيانة لنفسه ، فقال تعالى : « إلا من كفر وقلبه مطمئن بالايمان » .

ومن شدة عنايته بصحة أهله حظره عليهم أن يأبوا العمل بهذه الرخص ، فإن

من النـاس من يؤانسون من أنفسهم القوة ، فيحملهم حب الدين على العمل بالعزائم فى مواطن الرخص ، فنهاهم الاسلام عن ذلك وعده غلوا منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » . وزاد هذا الأمر تأكيدا فقال : « من لم يقبل رخصنا فليس منا » .

وجرى الاسلام على هذا الأصـل فى كل ما يخالف الاعتدال ، ويشبه الغـلو الذى نهى عنه . من ذلك ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا طاعنا فى السن يمشى وهو يتهادى بين ولديه ، فسأل عنه فقيل له إنه نذر أن يحج ماشيا على قدميه . فقال : « إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه » فحملوه على بعير .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم استدعى عبد الله بن عمرو بن العاص وكان ورعا كثير العبادة ، وقال له : « ألم يبلغنى أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قال : بلى يا رسول الله وإنى على ذلك لقادر . فقال : كلا ، بل نم وقم ، وأفطر وصم ، إن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك (أى لزائريك) عليك حقا » الحديث . فتأمل فى قوله إن لبدنك عليك حقا ، تعرف مبلغ ما يعنى به الاسلام من أمر الصحة البدنية ، حتى ولو كان الإنسان يبذلها فى العبادة ، لأن هـذا الدين إنما شرع لسعادة الحياتين لا لسعادة إحداهما دون الأخرى، وقد أرشد الله عباده أن يتوجهوا اليه بالدعاء ويطلبوا منه أن يرزقهم السعادتين جميعا ، فقال تعالى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسـنة » . وأمرهم أمرا صريحا بأن لا يهملوا أمر دنياهم فقال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك » .

على هذا الوجه فهم المسلمون الأولون الاسلام ، وقد حكى الله عنهم ذلك فقال : «وقيل للذين اتقوا ما أنزل ربكم ، قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » .

من الناس من يتركون الاحتياط لصحتهم قائلين توكلنا على الله ، ظانين أن التوكل

عليه تعالى ينافى الاحتياط ، وهو خطأ كبير ، فإن التوكل على الله لم يطلبه الاسلام بهذا المعنى ، ولكنه بمعنى الاعتماد عليه تعالى بعد استيفاء كل وسائل التحوط التى يدركها العقل ، وتدخل فى حيز القدرة البشرية ، قال الله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله » أى فاذا عزمت على أمر ، ورأيت أنه أولى بالمضى فيه بعد إعمال الروية فى تدبير وسائله ، فامض فيه مستعينا عليه بمعونة الله . ويدل على هذا دلالة صريحة أن رجلا قال يا رسول الله : أترك ناقتى بلا عقال وأتوكل على الله ؟ فقال : كلا ، اعقلها وتوكل . أى اتخذ كل الأسباب التى تمنعها الإفلات ثم توكل على الله . وإلا فماذا يكون معنى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ؟ أليس الانسان مأمورا بهذا النص الكريم أن لا يتعرض للهلاك ما دام يعتقد أن ما يأتيه مجازفة بنفسه ؟

ومما يناسب هذا المقام قوله صلى الله عليه وسلم : « تَنَقَّهْ وتَوَقَّه » ، أى تنظّف وتطهر واحذر ما يضرك . فالحذر لا ينافى التوكل ، بل المسلم مأمور به ، وإلا فيكون من الذين يلقون بأنفسهم فى التهلكة ، وهو عصيان صارخ للأوامر الإلهية . وزاد النبى صلى الله عليه وسلم هذا المقام تجلية فقال : « المؤمن كيس فطن حذر » فجعل من صفات المؤمن التعقل والفطنة والحذر ، وكلها حوافظ للذات لا تستقيم الحياة إلا بها .

فإن الذى لا يتعقل ما هو بصدده تغم عليه وجوه النجح فيه ، ومن كان غبيا لا يقدر العقبات ، ولا يتخيل القواطع ، يوشك أن يترطم فيما لا قبل له به فيفوته مطلوبه ، ومن لم يكن حذرا أقدم على المهالك بلا روية ولا احتراس ، فلا يبعد أن تجتاحه ولا كرامة ، وليس هذا من شأن المسلم الذى وُعد أن تكون له سعادة الحياتين .

وكما كان الناس قبل اكتشاف الميكروبات يجهلون حكمة وجوب الوضوء ، كذلك كانوا يجهلون حكمة الاسلام فى صد الناس عن البول والتغوط فى المياه حتى مياه الأنهار الجارية ، فكانوا يظنون أن اندفاع المياه بقوة الى البحر يجرف كل ما يلقى فيه من قذر وقذى ، ويبعد أذاه عن الناس أجمعين . ولكن لما اكتشف مرض البلهارسيا

أدرك النـاس حكمة الدين ورأوا فى ذلك معجزة علمية للاسـلام تضاف الى سائر معجزاته الأخرى .

ونحن وقد تأدى بنا الكلام الى ذكر البلهارسيا نرى من واجبنا أن ندلى بكلمة فيه ، فإنه الداء الذى يرزح تحت كلاكله أكثر من نصف المصريين :

داء البلهارسيا هو البول الدموى الذى يصيب القرويين لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال ، ويكون مصحوبا بضعف فى البنية ، وشحوب فى اللون ، ونحول فى الجسم وخفقان فى القلب ، وهـو منتشر فى القرى انتشارا عظيما حتى إن عـدد المصابين به فى بعضها يبلغ ٨٣ فى المائة من أهلها ، وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه ، لذلك عُنيت الحكومة المصرية بمكافحته ، وبذلت فى ذلك السبيل أموالا جمة ، حتى وفقت الى معرفة أسبابه ، وطرق الوقاية منه ، وكيفية علاجه ، ومن الغريب أن استئصاله يتوقف على الائتمار بأمر الدين فى عدم البول والتبرز فى الجداول والترع والنيل .

كان مرض البول الدمـوى معروفا للفراعنة الأقدمين وقد وجدت له وصفات طبية فى متخلفاتهم ، ولـكنها لا تشفيه .

فلما تولى مصر رأس الأسرة الملـكية ، وفتح المدارس لنشر العلم ، كان من بين مدرسى مدرسة الطب الدكتور (بلهارس) ، فهاله ما رأى من انتشار البول الدموى فى القـرى المصرية ، فأكب على دراسة سببه حتى اهتدى اليه ، فوجـد أنه مسبب من ديدان صـغيرة دقيقة ثاوية فى كليتى المصاب به ومثانته ، فإذا بال فى الماء نزل عدد منها مع بوله وسبحت فى الماء ، فإذا استحم فيها إنسان أوشرب منها علقت به واخترقته ، وسبحت فى دمه حتى تصل الى كليتيه ومثانته ، فتنشب فيها وتدميها وتصيب صاحبها بالأعراض التى ذكرناها آنفا .

وقد اجتهد كثير من الأطباء فى درس كيفية نشوء هذه الديدان ونشوبها فى جسم الانسان ، فرأوا أن هذه الديدان مثواها الأول كلية الانسان ، وأنها تنفرز منه مع البول

هى وبويضاتها . ومتى وصلت البويضات للماء فلا تلبث إلا دقائق معدودة حتى تفقس ، فتخرج الديدان الى الماء ، فإذا أصابت جسم إنسان اخترقته حتى تصل الى كليتيه ومثانته ، وإذا لم تصادف إنسانا آوت الى بعض القواقع وعاشت فيها .

فالوسيلة الوحيدة لحماية الناس من شر هذه الديدان هو الامتناع البات عن البول فى المياه كما ندب اليه الاسلام .

وهناك ديدان أخرى يقال لها الإنكليستوما تتسرب بويضاتها الى الأمعاء فتفقس فيها ، وتكبر حتى تبلغ الى شبر فأكثر ، وبعضها يصل الى نحو أربعين مترا وتسمى بالدودة الوحيدة . وأعراض هذا المرض كأعراض البلهارسيا ما عدا البول الدموى . وقد درس الأطباء سبب الإصابة به فوجدوه فى تغوط المصابين به فى المياه ، وهو ما نهى عنه الاسلام أيضا .

وقد أسست الحكومة المصرية مستشفيات لمعالجة هذين المرضين، وحثت الأهالى على تقديم أنفسهم لها ليخلصوا من أعراضها الثقيلة ، وقد نجحت فى ذلك نجاحا ما ، ولكن متى أخذ الناس بتعاليم الاسلام فى النهى عن البول والتغوط فى المياه الراكدة والجارية ، أمكن ملاشاة هذين المرضين وتخليص المصريين مما يسببانه من الآلام بتاتا.

لم يترك الاسلام شيئا مما يتعلق بصحة الانسان إلا أتى عليه حتى الأسنان ، فإنه جعل من سننه الاستياك ، ولو درى الناس ما فى الاستياك من الفوائد الصحية لأخذوا به ولم يهملوه يوما واحدا ، فقد ثبت أن بقايا الطعام تثبت فى خلال الأسنان وفى قواعدها ، فتتعفن هناك ، ومعنى التعفن فى عرف الطب حدوث ميكروبات ضارة فيها تتسرب الى المعدة فالدم بسبب علوقها بالغذاء الذى يمضغه الانسان ، فتتكاثر هنالك وتصيب الجثمان بأمراض مختلفة .

والطامة الكبرى أن يستشرى ضررها فتصيب الأسنان بالتهاب سحاقى يتسبب عنه تقيح فى اللثة ، وتكوّن أكياس صديدية فى جذور الأسنان ، فاذا مضغ الانسان

الأغذية التاثت بالقيح الذى يتحلب منها ، والقيح مرتع لأخبث الميكروبات ، فتنزل الى المعدة وتتسرب منها الى الدم فتصيب الانسان بأفدح الأمراض .

ولكن الانسان لو أخذ بأوامر الشرع من استعمال السواك أو ما يقوم مقامه من فرشاة ، زالت هذه البقايا الغذائية من بين أسنانه وجدرانها أولاً فأولاً ، فلا تتكون فيها ميكروبات ، ولا يتعرض الانسان لما تحدثه من السيئات .

وفى ترك الاستياك رذيلة أخرى وهو إصابة الإنسان بالبخر ، وهو نتن ريح الفم ، فلو لم يكن فى إهمال الاستياك إلا هذه الآفة لكان فيها أكبر باعث على استعماله .

فالإسلام كما ترى يمزج المنافع الروحية بالمنافع الجسدية ليتأهل الآخذ به لسعادة روحه وسعادة بدنه . وقد ظهر أثر ذلك فى حال المسلمين الأولين ومن جرى على سنتهم ، فكانوا أصفى الأمم أرواحا وأقواها أجسادا .

هذه المزية فى الاسلام لا توجد فى أى دين من الأديان المعروفة لنا الآن ، بل فيها عكس ما قدمنا ، فإنها تفرض على ذويها مختلف الرياضات الجسدية للحصول على سلطان الروح بإضعاف الجسم ، فكان أثر ذلك أن تمكن منها أعداؤها وصرفوها عن الفضيلتين معا .

واليوم وقد اعتبرت تقوية الأجسام من موجبات تقوية العقل ، حتى قالوا : العقل السليم فى الجسد السليم ، فسيجد الناس فى الاسلام أكبر منشط لهم فى نزوعهم هذا ، وفى هذا دليل جديد على أن الاسلام يماشى الميول الانسانية الحقة من كل وجه ؟

محمد فريد وجدى

الأجوبة السديدة المسكتة

قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم للشمس . قيل له : فكم بين السماء والأرض ؟ قال : مسيرة ساعة لدعوة مستجابة .

حول كرية الارض

ورد الى المجلة من الفاضل محمد فتح الباب بمناسبة ما جاء فى العدد الرابع من المجلد الخامس من مجلة نور الاسلام خاصا بكرية الأرض :

١ — السؤال عما إذا كان فى قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » ما يدل على أنها كرة ، كما يفهم من سياق كلام ابن الرومى أن دحا بمعنى دوّر وجعلها كالكرة فى قوله :

إن أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى لجة الماء ترمى فيه بالحجر

٢ — وهل يفهم أن الأرض تدور دائما من قوله تعالى : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب» لأنه إذا كانت الجبال وهى أوتاد الأرض تسير وتجرى فمن باب أولى الأرض نفسها لا شك أنها تدور ، أم أن الغرض فقط هو مر الجبال يوم النفخة ؟

ونحن نشكر لحضرته كما نشكر لكل مسلم مفكر عنايته بالتأمل فى آى الكتاب العزيز وتدبر معانيه والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ونقول :

إن الآيتين ليس فيهما على ما نرى هذه الدلالة التى يشير إليها .

أما الآية الأولى فلأن معنى « دحا » فيها بسط ووسع . هكذا قال علماء اللغة ، وهكذا قال المفسرون ، وهكذا هى فى كلام ابن الرومى ، فإنه يعجب من سرعة بسط ذلك الخباز لرقاقته لا من سرعة تكويرها . وسرعة بسطها هو محل العجب ، أما سرعة تكويرها فلا عجب فيه ، ولذلك شرح ما يريده فى البيتين التاليين فى قوله :

ما بين رؤيتها فى كفه كرة — وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة — فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

فما كانت دائرة الماء يلقى فيه بالحجر مكورة، وإنما هى مستديرة تتسع وتنبسط بأسرع ما ينتظر، وفرق بين التكوير وبين بسط المستدير وتوسعته. ولا شك أن الاعتبار وشهادة عظمة خالق الخالق ثم الامتنان إنما هو فى بسطها وتوسعتها، وكلا الغرضين قد أشارت اليه الآية الكريمة.

فأما شهادة عظمة قدرته فيتجلى فى صدر الآية فى قوله عز من قائل: «أأنتم أشد خلقا أم السماء، بناها. رفع سمكها فسوّاها» الى أن يقول: «والأرض بعد ذلك دحاها» أى وسعها وبسطها حتى تتسع لكل من يفترشها. فعظمة قدرته تجلت فى خلقها كما تجلت فى السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. ومعنى أغطش ليلها: أظلمه وجعله مظلما. وأخرج ضحاها: أبرزه وأظهره. وإضافة الليل والضحى الى السماء لأنها ظاهرات ترجع الى سبب فى السماء وهو الشمس ظهورا واختفاء.

وأما الامتنان فهو ما جاء فى بقية الآية الكريمة إذ يقول: «أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم». والخلاصة أن دحا بمعنى بسط ووسع فى الآية الكريمة كما قاله المفسرون، وكما ذكره أئمة اللغة، وكذلك هى فى كلام ابن الرومى بمعنى بسط ووسع. وهذا لا ينقض ما تقدم فى الجزء الرابع من المجلة من أن كرية الأرض كانت معلومة للأزهريين من قرون مديدة مضت، كما استدل عليه بكلام المفسرين وعلماء الفقه وعلماء التوحيد من نحو ثمانية قرون أو يزيد. وعدم دلالة هذه الآية على ذلك لا يمنع دلالة غيرها. هذا فى الآية الأولى.

وأما الآية الثانية فهى وإن قال فيها بعض مشايخنا بما يقوله السائل أخذا من قوله تعالى فى بقيتها: «صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء» إذ قالوا: إن هذا إنما يأتى فى عالم الصنع والإتقان وأما ما بعد النفخ فهو عالم إهلاك وتدمير، فإنا لا نرى ما قالوه فيها

وجبها ، فالآية مسوقة بعد قوله تعالى : « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين » يقول الله تعالى عقبها : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » فهذا كله فى بيان هول الآخرة وما يتجلى الله به على هذا العالم من آثار القهر والجبروت .

وأما قوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » فلا يعطى مايقولون ، فإنه حقيقة صنع الله ، وهو صنع متقن موافق للحكمة الباهرة ، والإتقان هو موافقة العمل لمقتضى الحكمة . فالمعنى : لا يتوهمن متوهم أن النفخ فى الصور ونشر الأجزاء الأرضية وما يترتب عليها من جعل الجبال كالعهن المنفوش كل ذلك من باب الإفساد والإخلال بالنظام ونقض الغزل بعد إحكامه حتى يعترض على هذا الصنع الحكيم ، وإنما هو على جارى سنن الله فى خلقه، وأن لكل شىء حكمته التى تجعله تمام النظام وكمال الإتقان ، فهو صنع الله الذى أتقن كل شىء ، فيجب الإذعان الى أنه أيضا إتقان وإن كان فى ظاهره من باب الإفساد والنقض . وكيف يكون إفسادا وهو تجلى العظمة والقدرة الباهرة والقوة القاهرة على هذه الكائنات التى كان يظن لها من قوة التماسك ما تتعاصى به على من يريد هدمها ، وإذا بها صارت كأن لم تكن شيئا مذكورا ؟ ثم كيف يكون ذلك إفسادا وهو مظهر تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وهو المستتبع لأجل الغايات ، وهو جزاء العباد بأعمالهم ، ومثوبتهم على طاعاتهم ، وعقابهم على معاصيهم ؟ ومتى علموا ذلك من طريق خبر النبوة الصادق خشعوا لله وأخلصوا عبادتهم له ، وتمت الحكمة التى أشير اليها فى قوله تعالى : « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » . فبذلك يتجلى لكم أنه صنع حكيم عليم ، وأنه متقن ، كما أن كل شىء خلقه متقن ، فلا تحسبوا ذلك عبثا ولعبا ، ولا تظنوه إفسادا وإخلالا . وبذلك يظهر أن قوله : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » من باب مايسميه البلاغيون احتراسا ، ويسميه النظريون بدفع توهم المتوهم .

ابراهيم الجبالى

الاخـــــــلاق

اختلف الناظرون قديما وحديثا فيما تناولوه من مباحث ومسائل ، واتسعت شقة الخلاف بينهم فيها نفيا وإثباتا ، ووجوبا وجوازا ، وإطلاقا وتقييدا ، إلا فى الأخلاق ، فقد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع فى جملته ، لا باعتبار أنها حلية أدبية ، ولكن باعتبار أنها ضرورة حيوية لا تستقيم حياة فردية ولا اجتماعية إلا بها . فكما أن الفرد يضيره ويفسد من أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا شريرا ما كرا ، كذلك تضر المجتمعات شيوع هذه الصفات فى آحادها ، لأن هـذه الصفات المنكرة كما تصد هؤلاء الآحاد عن النجاح فى معاملاتهم ، تحول بينهم وبين التماسك فيما بينهم لتأليف اجتماع قوى مترابط الأجزاء لا تتسرب إليه المحللات العارضة .

لهذا السبب كان أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشترعين والعاملين على إنهاض الجماعات البشرية ، الدعوة الى الأخلاق الفاضلة ، باذلين فى سبيل دعمها ، وتقوية أسسها أقصى جهودهم ، لأنها هى القوى الأدبية التى تربط الآحاد ، وتجعل منهم مجموعا متجانسا يصلح للحياة بين الجماعات المماثلة له ، ويقوى على منازعتها الحياة كما تنازعه هى إياها بقـوى متعادلة ، فـلم يبالغ الفيلسوف (شاتوبريان) حين قال : « الأخلاق أساس كل مجتمع » .

أما الاسلام فقد جعل للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات المتقدمة ، ولاعتبار آخر أعلى منها قدرا ، وأعم أثرا ، وهو إعداد النفس البشرية لقبول الإشراقات العلوية ، وتكييفها لتستطيع الاضطلاع بالمهمة التى ناطها الاسلام بكل مسلم فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » أى شهداء على الناس فى غلوهم أو تقصيرهم ، فى تعقلهم

أو تقليدهم ، فى استقامتهم أو انحرافهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، أى فى قيامكم على الصراط السوى ، وفى التخلق بأخـلاق الله ، والعمل بمحابه ، وتجنب مكارهه ، وفى دعوة الناس الى المعروف ونهيهم عن المنكر .

وضع الاسلام الأخلاق فى مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة فى الأرض على شدة عنايتها بها ، وتباريها فى الإشادة بذكرها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والمفهوم من هـذا الحصر ببداهة النظر أن الاسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية للدين الحق ، وثمرة لوسائله المختلفة ، ولا يعقل أنه يمكن وضع مكارم الأخلاق فى مكانة أسمى من هذه المكانة .

وقد بنى الاسلام كل ما ندب اليه من الآداب على هذا الأصل . قال الفضيل : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » .

لم يكتف الاسلام بمجرد الدعوة الى حسن الخلق ، فعمد الى وسيلتين فعالتين من وسائل حياطة أهله من فساد الأخلاق فجعلهما من أهم أصوله : (أولهما) تحريمه الينابيع الثلاثة للشرور ، وهى الخمر والميسر والزنا ، تحريما لا هوادة فيه . و (ثانيهما) إيجابه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابا لا هوادة فيه .

فأما الخمر فإنها بسلبها عقـل شاربها تدفعه لكل ضروب المنكرات ، الى حـد أنه قد يقتل نفسه أو يقتل غيره ، وتهيئه بالإدمان عليها لكل ضروب الاستهانة بالفضائل النفسية ، فتحريمها على النـاس يدفع عنهم كل ما يأتى من قبلها ، ويحفظ عليهم اتزانهم العقلى الذى يفرقون به بين الحسن والقبيح ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وأثر ذلك فى تقويم أخلاقهم لا يقف عند حد .

وأما الميسر فهو فضلا عن أنه رذيلة من أكبر الرذائل لابتنائه على سلب مال الغير بغـير حق ، يفضى الى التخلق بالغش والتدليس والمهاترة وغرس الغـل والحقد

والبغضاء فى النفوس ، حتى ليفضى بعض هذا الى إراقة الدماء ، وكل ذلك يقدح فى الـكمال الذى أمر المسلم بجعـله نصب عينيه ، وبالاتجاه فى كل محاولاته اليه .

وأما الزنا فهو ذريعة للالتياث بأخلاق السفلة الرعاع من العدوان على الأعراض والأنساب ،والتذرع بسفاسف الصفات من التحايل والتخفى وإفساد النفوس بالمغريات من المـال أو الوعود الـكاذبة ، وجميع هـذه الوسائل تمحق المروءة ، وتدس بصاحبها فى حمأة الخسران .

وأما الوسيلة الثانية وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد شدد فيها الإسلام كل التشديد فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال فى حق أمة هالـكة : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » جعـل عدم تناهيهم عن المنكرات التى يقترفها شرارهم سببا لهلاكهم ، وزاد على ذلك تشنيعا على إهمالهم هذا الأصل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » .

وزاد الاسلام على هـذا الأصل الـكريم نظاما تكافليا فجعل آحاد الأمة قوّاما بعضهم على بعض ، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكرا فيهز كتفيه ويمضى فى سبيله ، ولـكنه أمر أن يبذل قصارى جهده فى معالجته ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وقال : « الدين النصيحة . فقيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم » . فالنصيحة لله بالقيام بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والنصيحة لرسوله باتباع سنته ، وتأييد شريعته ، والنصيحة لعـامة المسلمين وخاصتهم بتنبيههم الى محاب الله ومكارهه ، والإهابة بهم الى سبيله .

هذا النظـام التكافلى الذى انفرد به الاسلام من أكفل النظم لحماية الأخلاق فى الأمم ، وأفعلها فى تطهير نفوسها من الرذائل .

هنا قـد يعترض علينا بعض الناس بأن هـذا النظام ينافى الحرية الشخصية ، ونرد عليه بأن الحرية الشخصية لا يصح أن يكون لها احترام إلا فى الأمور المباحة التى لا يعود منها ضرر على المجتمع ، والاسلام قد أباح لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل ما لا ينافى القانون العام ، وما لا يجافى ناموس الأخـلاق ، أما فيما عدا ذلك مما تحرمه الشريعة ، وينكره العقل ، ويفسد الآداب العامة ، ويضر بكيان المجتمع فإن الاسلام يحظره حظرا لا هوادة فيه ، ويجعل لكل فرد من أفراده حق إنكاره وإزالته بكل وسيلة يراها أصلح للقيام بواجبه حياله . فإن استطاع أن يزيله بنفسه فعل ، وإلا رفع أمره الى ولاة الأمور ليتولوا أمر إزالته بما لديهم من وسائل القمع . فهل من الحرية الشخصية الموافقة لمصلحة المجتمع أن يفتتح أحد الناس ماخورا يحشر اليه النسوة الساقطات ، ويسهل على الفساق ارتكاب الفحشاء ؟ وهـل منها أن يتخذ حانوتا لبيع الخمر وأن يسقى الناس منها على مرأى من الناس لإزهاق عقـول المولعين باحتسائها ؟ وهل منها أن يؤسس بعض أهل البطالة محلا للمقامرة لاستنزاف ثروة الناس ، أو للإتيان على ما فى أيديهم فى سبيل اللعب ؟!

إن قال المعترض : نعم ، لم نكلف أنفسنا الرد عليه ؛ وإن قال : لا ، قلنا : أفلا يكون من مصلحة الأمة إزالة هذه المنكرات لاتقاء ما تجر اليه من البلايا والويلات ؟

وغير هـذه المنكرات أمور تنافى الآداب ، وتجـرح الأخـلاق ، يتخيلها الإباحيون من الصغائر وهى تجر الى أكبر الكبائر ، وأفدح المحظورات ، كمعاكسة الغاديات والرائحات من النساء ، والرقص الخليع على مرأى من الناس الخ الخ ، فأية حرية شخصية تبيح هذه الموبقات ولها من النتائج ما تتقزز منه النفوس السليمة ؟

فالنظام التكافلى الذى اختص به الاسلام ينفى جميع هذه المفاسد دون أن تحتاج الحكومة الى شرطة وجلاوزة لمراقبته ، وكف أهل البطالة عنه . وعمل الاسلام هذا فضلا عن أنه لا ينافى نظم الحكومة الرشيدة يوافق ما هـدى اليه علم الاجتماع ، ودلت عليه أطوار المجتمعات .

قرر علم الاجتماع أن مجموع الأمة كالجسد الحى ، وأن آحادها فيه كالخلايا المكونة لمجموعه ، وأن بين الآحاد ترابطا طبيعيا يشبه ترابط تلك الخلايا بعضها ببعض ، وأن فساد بعضها أو مرضه يؤثر فى مجموعها بنسبة ذلك الفساد أو المرض ، فإذا كان هذا علما مقررا فكيف يصح للآحاد وهم الخلايا المترابطة المتكافلة فى بنية الاجتماع أن يغضوا ، وهم عقلاء مدركون ، عما يصيب شركاءهم فى ذلك الاجتماع وهم مرتبطون بهم أدق ارتباط ، وأثر تركهم وشأنهم تقع ويلاته عليهم أجمعين ، ولا تخص جماعة منهم دون آخرين ؟

أليس المنطق الاجتماعى يقضى بأن تحرص خلايا الاجتماع على صحتها وقوتها حتى لا يكون فساد بعضها وضعفه سببا فى اختلال كيانها العام ، وإصابته من جراء ذلك بالأمراض التى يعجز عنها نطس الأساة كما هو الشأن فى المجتمعات الراهنة حتى الآخذة منها بأوفر حظ من المدنية والثقافة ؟

أليس ما تشكو منه الأمم اليوم من اضطراب الأحوال وتفاقم العلل ، والتواء أمرها على القادة والهداة ، كل ذلك من أسباب تركهم الخلايا الفاسدة تعمل فى بنية مجموعهم ، ويستشرى مرضها فيها ؟

كل هذه الأسرار التى كشفها علم الاجتماع ، قد أوجزها الكتاب الكريم فى آية يجب أن تكتب بحروف من نور على صفحة الوجود ، وهى قوله تعالى : «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب» . فإذا كان عبث العابثين بمبادئ الأخلاق لا تقتصر مضاره عليهم بل سيصيبنى منها شىء ، فكيف أغضى الطرف عنهم ، وأدعهم وشأنهم يأتون ضروب المنكرات ، ولا أحاول أن أصرفهم عنها بكل الوسائل الممكنة ؟

فهل إذا جد الجد وحلت الفتن بالمجتمع ، وأصبح الناس حيارى لا يعرفون وجه الخلاص منها ، ودفعتهم الكوارث لمواجهة أخطر الانقلابات ، نقول : إن حدث ذلك

أيشفع لنا وللبريئين من أمثالنا أن نقول إنا لم نقترف من هذا شيئا وإنما تركنا غيرنا يعمل ما يشاء احتراما لمبدأ الحرية الشخصية ؟

أية حرية مشئومة هذه التي تدفع بالآحاد والجماعات في تيهور الفتن المتأججة ، ويحاط العابثون بها بحماية النظم الموضوعة ، فلا يملك أحد أن يقفهم عند حد من تهورهم ؟

فعلى الذين يدافعون عن مبدأ الحرية الشخصية بمعنى الإباحة العامة أن يثبتوا لنا أن عدوان الأفراد على الأخلاق والآداب والتقاليد المقررة لا يؤثر على بنية الاجتماع خلافا لما نصت عليه العلوم الاجتماعية ، فإن عجزوا فليدلوا لنا بعلم يدلنا على أن ذلك العدوان أجدى على الجماعات من منعه ، فإن أعيوا فعليهم تبعة ما يجنون على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم والله من ورائهم محيط .

أما نحن ففي أيدينا الدليل العلمي القاطع على أن ما قرره الاسلام وانفرد به من هذا النظام التكافلي العام ، هو خير ما تصان به المجتمعات من النصب ، وأنه سيكون في يوم من الأيام معاذا لجميع الحكومات من شرور الآثام التي يرتكبها الأفراد ، ويكون ذلك مصداقا لما قاله الفيلسوف (برناردشو) الانجليزي : إنه لا يشفي أوروبا من عللها غير الأخذ بالاسلام .

فعلى المسلمين في جميع بقاع الأرض أن يستنوا سنة الاسلام في مكافحة ما اعترى جماعاتهم من الأدواء القاتلة ، وليس لهم أن يقلدوا الغربيين فيما لا يسمح به منطق ، ولا يستقيم عليه حال ، فإن دينهم يحثهم على الأخذ بالأحسن ، لا على الأخذ عن غيرهم بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هذا القرآن الذي بين أيدينا يكفل لنا سعادة الحياتين ، فيؤاتينا بالأصول ويسندها بالدلائل القاطعة ، ويدعونا للنظر فيها وتعقلها والأخذ بها على بصيرة ، فيقول تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ويقول : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » وأي قول أصدق من هذا وقد أيده العلم والمنطق السليم ؟

محمد فريد وجدي

مآثر العرب فى علم التاريخ (١)

من أهم ما امتاز به الأدب العربى فى فجر الاسلام ما دونه مؤرخوهم فى سيرة رجالاتهم وعشائرهم ، وفى تاريخ مدنهم ووقائعهم . ولقد ظهر هذا الضرب من الأدب العربى فى أول عهده قبل الاسلام فى قالب قصصى راويا الأيام التى كانت بين قبائلهم . وكانوا بادئ ذى بدء لا يتوخون إيراد الحقائق ، بل كان جل همهم الوصف الشعرى وإشباع الخيال حتى بلغ بهم شغفهم بالمحسنات الشعرية الى إضاعة الحقيقة التاريخية أو تواريها ، وكان نصيبها ضئيلا فى مؤلفاتهم .

فلما جاء الاسلام واستضاءت بنوره الأذهان ، نشطت الحياة العقلية واتجهت اتجاها قويا ، وأخذ الاهتمام بسير الأبطال وأعمالهم يتزايد يوما بعد يوم خصوصا ما كان له علاقة بحياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه المخلصين وخلفائهم من بعدهم ، وكان سرد تاريخ النبى (صلى الله عليه وسلم) وصحبه فى أول الأمر من الأمور الدينية التابعة لعلم الحديث ، فأصبح بفضل تلك النهضة القوية من الدراسات التاريخية الثابتة .

كانت هذه البداءة هى الأساس الذى قام عليه بناء تاريخ الدولة العربية والشعوب التى سبقتها . وقد استعان مؤرخو العرب فى فجر الاسلام على وضع تاريخ الأمة العربية القديمة بمصادرها الأساسية أى بدراسة الأشعار القديمة ، فتأدوا من ذلك الى وجوب دراسة اللغة نفسها ، ولم يستطع التخلص من ذلك والتجرد للروح التاريخية البحتة سوى محمد الكلبى وابنه هشام . وأولهما ـ مع ما عنى به من وضع تفسير للقرآن ـ جعل

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب (تاريخ الأدب العربى) للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور بروكلمان .

كل همه جمع الأنساب العربية وأخبار القبائل المختلفة ، وتوفى سنة ١٤٦ ه ، واقتفى أثره ابنه الذى ولد بالكوفة ، وتوفى فى بغداد عام ٢٠٤ ه ، واليه يرجع الفضل فى إبراز ما جمعه والده فى صورة علمية سهلة . وأهم أعماله كتاب ضخم فى الأنساب العربية لم يصل الى أيدينا بكل أسف على صورته الأصلية بل بعد تعديل أدخل عليه ، والى هذا الكتاب ترجع كل معلوماتنا عن قبائل العرب . ومن مؤلفاته القيمة كتابه عن هدم الأصنام ، وهذا الكتاب لم يصلنا منه غير جزء ظهر ضمن قاموسه الجغرافى الكبير . واشتهر من مؤرخى الاسلام غير العرب سهل بن هارون ، وكان مديرا لمكتبة الخليفة المأمون ، وعلان بن الحسن وهو من معاصرى سهل بن هارون ، وكان ناسخا فى المكتبة المذكورة .

وأقدم الكتب المعروفة عن تاريخ حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) هو كتاب محمد بن إسحاق من أهل المدينة المنورة ، واضطر الى الرحيل عنها الى مصر ثم الى العراق لإكمال أبحاثه ودراساته التاريخية . وفى مدينة بغداد لقى من الخليفة المنصور رعاية وافرة ساعدته على إتمام عمله ، وتوفى هناك فى عام ١٥١ ه بعد أن أتم كتابه المذكور ، وإنا لنأسف على أن لم يصل إلينا هذا الكتاب بصورته الأصلية ، فقد قام بنشره وتعديله عبد الملك ابن هشام ، كما اقتبس منه الطبرى جزءا غير يسير فى تاريخه العام .

وكذلك تمكن محمد بن عمر الواقدى فى ظل رعاية الأمراء العباسيين من وضع كتابه عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وجهاده فى سبيل الدعوة للدين ، ولذا جعل بدايته تاريخ هجرة النبى الى المدينة ، ثم أعقب ذلك بغزوات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم يبق لهذا الكتاب من أثر إلى عصرنا هذا ، اللهم إلا بعض الأجزاء التى أعيد نشرها فى زمن الحروب الصليبية بقصد شحذ الهمم للجهاد والدفاع عن الاسلام ، كما جاء ذكر بعض نصوصه فى كتاب الطبرى . ووضع من بعده تلميذه محمد بن سعد الذى ولد فى بغداد عام ٢٣٠ ه كتابه المشهور عن النبى (صلى الله عليه وسلم) والصحابة . ويمتاز هذا

الكتاب عما سبقه بالايضاح والتفصيل ، وقد بقى الى اليوم دون تغيير أو تبديل يذكر . وقسم محمد بن سعد فى كتابه هذا الصحابة الى أقسام مراعيا فى ذلك تواريخهم .

جاء بعد تاريخ النبى فى القيمة تاريخ موطنه مكة المكرمة ، ففى أول القرن الثالث من الهجرة بدأ أحمد الأزرق بجمع الأخبار التاريخية والقصصية عن مكة ، وتولى حفيده أبو الوليد محمد الأزرق صياغتها صياغة علمية ، وأخيرا وضعها الفاسى ابن محمد اسحاق وابن أخيه محمد فى الصورة التى هى عليها الآن ، وقد زيدت وأدخلت عليها بعض التعديلات فى كتب التاريخ المتأخرة . وفى غضون القرن الثالث والرابع من الهجرة بدأ اهتمام الأدباء بتاريخ البلاد والمراكز الاسلامية الهامة ، فوضع أحمد بن أبى طاهر كتابا فى تاريخ بغداد لم يصلنا منه سوى جزء واحد . وهناك كتب أخرى يرجع عهدها الى القرن الرابع من الهجرة فى تاريخ تونس وضواحيها ، وفى تاريخ بخارى ببلاد الفرس .

وإلحاقا لما كتبه مؤرخو العرب فى سيرة الصحابة وضعت كتب عدة عن الحوادث الهامة فى التاريخ الاسلامى ، مثل ما دونه سيف بن عمر المتوفى فى صدر الدولة العباسية عن حالة العرب بعد وفاة الرسول ، وعن فتوحاتهم العظيمة ، وما كتبه عن الفتن التى ثارت على أثر قتل عثمان ، وقد جاء ذكر هذا كله فى كتاب الطبرى فى التاريخ العام ، ولو أن ابن إسحاق والواقدى كانا أكثر منه دقة وحرصا على الحقيقة . وامتاز كذلك على المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ هـ عن سيف بدقته وتوخيه الحقائق فى كل مؤلفاته التاريخية ولو أنه لم يلق نجاحا مثله ، وقد كتب كثيرا جدا فى التاريخ الإسلامى مما لم يصل الى أيدينا مباشرة ، بل عن طريق ما اقتبسه المؤرخون المتأخرون عنه مما يستدل منه على أنه من موالى قريش ، وأنه أحفى فى تتبع أخبار الحجاز . واقتفى أثره الزبير ابن بكار أحد أعضاء أسرة الزبير الشهيرة بقريش ، وكان يعيش أولا فى المدينة ، ثم ولى قاضيا فى مكة ، وكثيرا ما كان يتردد على بغداد ليحاضر فى مؤلفاته ، وتوفى عام ٢٥٦ هـ بالغا من العمر ٨٤ سنة . وأكثر مؤلفاته فى تاريخ الأدب ، ولم يبق مما وضعه

سوى كتابه فى أنساب قريش ، وجزء يسير من كتابه للمطالعة فى التاريخ الذى وضعه خصيصا للأمير الموفق ابن الخليفة المتوكل ، وسماه باسمه .

كانت المؤلفات التاريخية فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة تعتمد على المخطوطات القديمة دون التعرض الى نقدها أو التعليق عليها ، بل اكتفى معظم المؤرخين بترتيبها حسب الزمان أو المكان . وربما كان احمد البلاذرى — وهو فارسى المولد — أول من أخرج الكتب التاريخية بعد ترتيبها ترتيبا جغرافيا . وأحمد هذا كان يعيش نديما فى بطانة كل من الخليفة المتوكل والمستعين . وعهد اليه تربية الأمير الشاعر ابن المعتز ، وتوفى سنة ٢٧٩ هـ وكتابه فى نسب الأشراف كان يحتوى على معلومات وافرة وقيمة ، ولكننا نأسف على أن لم يصل الى أيدينا من هذا الكتاب سوى جزءين فقط .

بدأ المؤرخون فى القرن الثالث بفضل النهضة الأدبية الجديدة يهتمون أيضا بتاريخ الشعوب الأجنبية ، بعد أن كانت جهودهم تكاد تكون مقصورة على تدوين تاريخ العرب والاسلام ورجاله ، فاتسعت بذلك دائرة دراسة التاريخ العام ، ووضع أحمد اليعقوبى كتابا فى التاريخ متضمنا رحلاته وتنقلاته من أرمينيا الى خراسان والى الهند ثم الى مصر وبلاد المغرب حيث أتم تأليف كتابه الذى لم يبق منه — وهو أمر نأسف منه جدا — سوى الجزء الخاص ببلاد المغرب ، كما وضع سفرا آخر فى التاريخ العام أسماه تاريخ العباسيين ، ويعتبر هذا الكتاب بحق من أهم ما خلفه العرب ، ولكن يؤسفنا أنه قد ضاعت مقدمته ؛ يبدأ هذا الكتاب ببحث رائع فى نظرية الخلق وتبع ذلك دراسة وافية فى تاريخ جميع الشعوب المعروفة فى ذلك الحين من بلاد الصين من ناحية ، الى بلاد النوبة والبربر من ناحية أخرى ، جاعلا الأمة العربية أساس بحثه ومبدأ حديثه ، وجاء فى الجزء الثانى من هذا السفر بحث واف للتاريخ الاسلامى حتى عام ٢٥٩ هـ ، ويعتبر كل من الجزءين كما أسلفنا من أهم المؤلفات العربية القيمة ، لاحتوائهما على تفصيلات هامة لا سيما والمؤلف ينتمى الى أسرة شيعية وكتابه هو الوحيد المعروف الذى يعبر عن وجهة نظر الشيعيين .

وأكبر مؤرخى ذلك العصر هو بلا شك محمد بن جرير الطبرى الذى جمع كل أعمال من سبقه من المؤرخين فى كتابه فى التاريخ العام ، والطبرى ينحدر من أسرة فارسية وولد فى طبرستان عام ٢٢٤ هـ واستقر فى بغداد عام ٣١٠ هـ بعد أن أتم دراساته الطويلة فى جميع أنحاء آسيا الصغرى ومصر ، وكان أهم ما اشتغل به فى التدريس هو أصول الدين ، وأسس له مدرسة فكرية لم تعش طويلا ، وكانت سببا فى نزاع بعيد المدى بينه وبين السنيين ، ثم اهتم بالتأليف فظهر نبوغه وتفوقه ، ولو أنه لم يكن فى ذلك مبتكرا ، ولكن كانت جل جهوده منصرفة فى تكميل وتعديل المؤلفات السابقة ، وقد يكون أهم مؤلفاته هو السفر الجليل الذى وضعه فى تاريخ العالم الذى اهتم بجمعه ونشره بعض العلماء المستشرقين ، وعلى رأسهم العالم الهولندى « ده جويه » فكان فخر الكتب العربية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، ويبتدئ هذا الكتاب بنظرية الخلق أيضا وينتهى بتاريخ ما قبيل وفاته ، وعنى بترتيب الحوادث التاريخية من بعد الهجرة ترتيبا زمنيا ، ولقد أظهر المؤلف أمانة وبراعة فائقة فى الاقتباس من الأصول دون أن يخلط بعضها ببعض ، حتى جعله المؤرخون من بعده أساسا لأبحاثهم ونقل الى اللغة الفارسية .

ومن مؤلفاته الدينية ما يستحق الذكر مثل كتاب التفسير الضخم الذى وضعه للقرآن الكريم وجمع فيه كل ما قاله العلماء قبله فى تفسير كتاب الله .

ولم يفق الطبرى فى القيمة وسعة المعارف سوى على المسعودى ولو أنه لم يجاره فى كثرة تآليفه . ولد فى بغداد من أسرة عربية تمت بالنسب الى أحد الصحابة، وبدأ حياته بدراسة الديانة الاسلامية ،وصحت عزيمته على دراسة العلوم الأخرى على أثر النهضة العلمية التى ازدهرت وقتئذ فى العراق على أثر ترجمة المؤلفات الاغريقية الهامة وانتشار علم تقويم البلدان من موانى الخليج الفارسى فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ، فقام فى شبابه برحلة نحو الشرق عن طريق بلاد الفرس الى الهند وسيلان وعبر البحر الصينى ثم عاد الى زنجبار وعمان ، كما قام برحلة أخرى نحو الشمال حتى سواحل بحر

قزوين ، وكان يقيم متنقلا بين مدن سوريا ومصر ، وتوفى فى مدينة الفسطاط سنة ٣٤٥هـ.
ولقد ساعدت هذه الرحلات على اتساع دائرة معارفه فى تاريخ الثقافة الاسلامية
والمسيحية والوثنية الهندية ، فوضع سفرين عظيمين فى تقويم البلدان والتاريخ ضاع
أكثرهما ، ولم يبق سوى جزء واحد لكل منهما ، وهذا أمر يوجب الأسف ،
ووضع كتابا آخر فى مواطن الذهب والأحجار الكريمة ، وقبيل وفاته وضع ماخصا
لكل مؤلفاته فى الأدب والعلوم والتاريخ .

بلغ اهتمام العرب فى القرن الرابع بتاريخ الثقافة والأدب ذروة المجد ، وبذت
مؤلفاتهم فى هذا الضرب ما وضع فى التاريخ السياسى ، فظهرت كتب عديدة فى تقسيم
الصحابة الى علماء دينيين ومشترعين ولغويين وشعراء على أثر ظهور الكتب القديمة
التى وضعت فى تقسيمهم الى طبقات وسبق التنويه عنها ، وأقدم المصادر التى نرجع اليها
حتى الآن فى تاريخ الأدب العربى لم يكن فن الشعر أساسا لها ، بل جعلت الموسيقى
فى مقدمة أبحاثها .

وفى عصر الأمويين أى فى أوائل القرن الثانى من الهجرة وضع المدعو يونس
المدنى كتابا فى الأغانى مع أن شهرته فى الشعر كانت لاتقل عن معرفته بالألحان
والتوقيعات الموسيقية ، واقتفى أثره كثيرون من بعده ، الى أن جاء أبو الفرج
الأصفهانى ووضع كتابه المشهور فى الأغانى فبذ جميع من تقدمه من كتاب هذا النوع ،
وكان فى أول أمره يطلب العلم فى بغداد ، وزاول الأدب فى بلاط سيف الدولة
وفى بطانة وزراء الفرس ، وتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وفى مجموعة الأغانى التى ضمنها كتابه عنى
بوضع تفسيرات لها من الوجهة الموسيقية ، بل كان أكثر من ذلك يعلق عليها معلومات
وافية عن ملحنها وناظمها بكل أمانة ، وكثيرا ما كان يذكر أسبابها التاريخية ، ولا نغالى
إذا قلنا إن معظم الأخبار وأوثقها التى نرجع اليها اليوم ونعتمد عليها فى أخبار الشعراء بل
وفى تاريخ الثقافة فى فجر الإسلام إنما يرجع الفضل فى جمعها الى نشاط أبى الفرج الأصفهانى .

وجاء عمل محمد بن اسحق النديم متمما لعمل أبى الفرج حيث قام فى سنة ٣٧٧ ﻫ بوضع قائمة وافية شملت جميع أسماء الكتب العربية والمنقولة المعروفة الى ذلك الحين، وأطلق على كتابه اسم « فهرس »، واستهله بتمهيد عن موضوعات الكتب المختلفة والكتب السماوية والدينية، ثم انتقل الى ضروب الأدب المتنوعة والى الحديث عن القرآن الكريم والكتب التى وضعت فى تفسيره، وأخيرا عالج الكتب الموضوعة فى العلوم غير الدينية، وكان يذكر فى كل نبذة أسماء الكتاب بترتيب تاريخى مع سرد كل ما يعرفه عن تاريخ حياتهم الأدبية، ولا نزال حتى اليوم ندين لهذا المؤلف بجليل الشكر لما احتواه كتابه من معلومات هامة لا فى تاريخ الأدب العربى فحسب، ولكن فى تاريخ الثقافة العامة فى الشرق الادنى على العموم.

أما فى الولايات الاسلامية الغربية مثل مصر والأندلس فاقتصرت كتابات المؤرخين فى ذلك الحين على الأخبار المحلية، بينما وسمت مؤلفات العرب فى مركز الحضارة الاسلامية جميع أخبار الدولة الاسلامية بل والعالم المعروف، ففى مصر وضع مسيحى — وكان بطريقا لمدينة الاسكندرية اسمه سعيد بن البطريق، وتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ — كتابا فى تاريخ العرب أشار فيه الى العباسيين والفاطميين والى أخبار بيزنطة وآسيا الصغرى، وقام بتكملة هذا السفر يحيى بن سعيد فى عام ٤٠٣ ﻫ.

وأما فى تاريخ اسبانيا فلم يصلنا من هذا العصر سوى كتاب العالم اللغوى الكبير محمد بن القوطية، وهو من نسل الأميرة سارا الأسبانية ابنة ملك القوط، وكانت قدمت الى بلاط الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى دمشق لرفع شكوى ضد عمها، فتزوجها أعرابى اسمه عيسى عاش معها فيما بعد بمدينة اشبيلية، وولد محمد بن القوطية فى قرطبة عام ٣٦٧ ﻫ، وجمع فى كتابه تاريخ الأندلس منذ فتح العرب حتى سنة ٢٨٠ ﻫ.

« يتبع »

من عيون الحكم

قال على بن أبى طالب أمير المؤمنين :

« من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اتهم . ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . ومن نظر فى عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه ، فذاك الأحمق بعينه . ومن أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير . ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه » .

هذه جمهرة من عيون الحكم رويت عن الامام منتظمة فى سلك واحد ، فلا أقول كأنها الجمان المنضد ، ولكنى أقول كأنها جداول من معين الحياة الفاضلة ، صدرت من ينبوع النبوة المحمدية ، واتصلت بالامام من بحرها الزاخر ، فأفاضها على الناس تحيي موات قلوبهم ، وتشفى علل نفوسهم .

يقول الامام : من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره . نعم : فإن من يرى الفساد يتغلغل فى نفسه شغله إصلاحه عن النظر فى فساد غيره ، ولكنه لو أهمل النظر فى نفسه ، وقصر همه على النظر فى أحوال الناس ، غفل عن حال نفسه وهى أولى بعنايته من سواها ، فبقى على ما هو عليه حتى يرد موارد الهلكة . فاذا كان المشتغل بعيوب الناس صادقا فى حبه لخلاصهم منها ، فلا يعقل أنه يعنى بغيره ولا يعنى بنفسه .

ويقول : من رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته . نعم : إذ كيف يحزن على فوت ما ليس من حظه ؟ إما لأن الله صرفه عنه إصلاحا لنفسه ، وإما لأن مواهبه لم تصلح لتحصيله ، فيكون محزونا على ما لا يستطيع أن يناله بكدحه .

ويقول : من سل سيف البغي قتل به . كيف لا والباغي يحارب الله بعدوانه على خلقه ، فهل يعقل أن يسلم من بطشه ؟

ويقول : من كابد الأمور عطب ، أي من عالجها بغير الوسائل الموصلة اليها لم يزل يرتطم بالعقبات التي تصادفه ، ويصطدم بالحوائل التي تقوم في وجهه حتى يدركه العطب ، ولكنه لو اتخذ لكل أمر عدته ، وتذرع له بوسائله المؤدية اليه ، كان جاريا على سنة الله فوصل الى ما قدر له منه .

ويقول : من اقتحم اللجج غرق . وكيف لا يغرق ولا بد من أن يدركه الونى وهو في وسطها تتقاذفه أواذيها ، فلا هو بواجد ساحلا ينحاز اليه ، ولا بملاق سندا يعتمد عليه ، والعاقل لا يفعل ذلك . والمراد هنا باللجج كل ما يفوق الطاقة من الأمور والمطالب .

ويقول : من دخل مداخل السوء اتهم . فمن أوى الى حانة ، أو جلس حيث يكثر مرور النساء ، أو ما شى من اشتهر بالمعاصي ، اتهمه الناس ولو كان بريئا ، فالكيس يحذر من كل ذلك ولا يعرض نفسه لقالة السوء .

ويقول : من كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . نقول : إن هذه من الكلم النوابغ حقا ، وهي تتناول خصلة شائعة في الناس عجز الآباء والمربون عن تخليص النفوس من شرها وهي كثرة الكلام ، وقد قرنها الامام هنا بما تؤدي اليه من ذمائم الخصال تأدية منطقية ، فكان كلامه عنها من أنجع الوسائل للخلاص منها .

نعم : إن من كثر كلامه كثر خطؤه ، لأن الثرثار متقحم بطبعه ، يلتمس القول من جميع مظانه صوابا وخطأ ، ويضطر للمبالغة والإطلاق ، ويتصيد الغث والسمين . وكل هذا يعرف عنه ، لأن السامعين يدركون كل ما يتسامح فيه ، وهو يعرف كل ما لاحظوه عليه ، فلا يبالي به فيقل حياؤه . فإذا وصل الى هذه الدركة قل ورعه ، لأن الورع ينافي الخبط والخلط ، والتكلم بغير علم . ومن قل ورعه مات قلبه ، لأن كثرة

الآثام التى يرتكبها بشرَّته ترين عليه وتحجبه عن النور الذى هو غذاؤه فيموت . ومن مات قلبه استوجب النار لا محالة . وهل الانسان إلا قلبه ؟ قال الله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » فشرط النجاة يوم الحساب سلامة القلب ، وأين هذه السلامة فى وسط هذه الزوبعة الدائمة من الخبط والخلط والتعرض للإثم ؟ .

ويقول : ومن نظر فى عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه ، فذاك الأحمق بعينه . نقول : والله لوكان فوق الحمق دركة من الغباوة لاستحقها من كان هذا شأنه . أفلا يكون من أحط درجات الحمق أن يرى الإنسان النار تشتعل فى داره فيتركها طعمة لها ويشتغل بالكلام عن النار التى تشتعل فى دار جاره ؟ ولكن الناس قد أغرموا بالتحدث عن نقائص غيرهم مع التياثهم بها وبأشد منها ، حتى يكاد لا يخلو منها مجلس ، فإذا كانت هذه النقائص مذمومة فى نظرهم فلم يأتونها ؟ فهل يحلون لأنفسهم مايحرمونه على غيرهم ، أم هم بإفاضتهم فى عيوب سواهم يريدون أن يوهموا السامعين بأنهم براء منها ؟ فلله ما قاله زهير بن أبى سلمى :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال الإمام : ومن أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير . هذا حق ولكن المنهومين بجمع حطام الدنيا لا يذكرون الموت قط . وليس المقصود من هذا الكلام أنه يجب أن يكثر الإنسان من ذكر الموت حتى يرضى من حطامها باليسير ، فيعيش الناس كلهم فقراء ، ولكن المراد به زجر المستهترين فى طلب الدنيا على غير أساس من الأخلاق ، ولا أصل من الدين ، ولا فضيلة من الإجمال فى الطلب ، فتراهم يتكالبون على جمع الدرهم والدينار من كل سبيل ، لا يبالون بين مشروع منه وغير مشروع ، لا همّ لهم إلا جمع المال فى خزائنهم ، وحبسه عن التداول بين الناس ، متجردين لتطلبه لا يعنيهم شىء آخر . فأمثال هؤلاء الناس قد أجمع على القدح فى طريقتهم كل الذين عنوا بالبحث فى الأمور الاقتصادية حتى الذين يرون أن الإثراء ضرورى لبناء

المجتمعات ، لأنهم يرون أن للإثراء أصولا تجب مراعاتها ، وعلى من وصل اليه واجبات يطالب بها . وهذا ما يقصده الإمام فيما أرى . قال الله تمالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فلم يذم الغنى ولكنه قرر أن فيه حقا للفقراء يجب أداؤه . ويؤيد هذا الفهم قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أديت زكاته فليس بكنز » أى لا يعتبر من كنز المال الذى ذمه الله تعالى بقوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

قال الامام : ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . نقول : هذا البيان أفعل فى علاج الثرثرة من كل ما ذمها به الشعراء والكتاب شعرا و نثرا . فإن الانسان خلق حريصا على نفسه ، يكره أن يوردها موارد الهلكة لأغراض واهية ، فإذا ذكّر نفسه بأن كلامه من عمله وهو محسوب عليه ، قصر كلامه على ما يعنيه ، ولم يتجاوزه الى ما بعده ، خشية أن يجره الكلام الى ما ليس بحق فيأثم ، أو الى ما يضره فيندم ، إلا الذين لا يبالون بشىء .

إن أكثر ما يقوله الناس لغو لا فائدة فيه ، وقد يحملهم حب اللغو الى تمطيط الكلام فينفق أحدهم على تأدية الفكرة التى لا يعوزها أكثر من عشر كلمات مائة كلمة أو أكثر ، ويضطر السامع بذلك الى الإصغاء اليه ، فيتبرم من محادثته أو يهجره لهذا السبب . ولسريان هذا العيب فى دهماء الناس تجدهم فى المجلس الواحد ينقسمون الى جماعات كل جماعة يتولاها واحد بالكلام ، وإذا حمى الوطيس ألفيتهم كلهم يتكلمون فلا تصادف فيهم سامعا واحدا ، ويجهد كل منهم أن يعلو بصوته ليفوز بالإلقاء ، فيحدث فى المجالس ضجيج لا يصح أن يكون بين عقلاء موقرين .

لذلك عد الصمت من سمات كبار العقول ، وندب اليه الشرع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تكلم بخير وإلا فاسكت » وقال الحكماء : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

their ideal to the standard of Islam in order to achieve peace and salvation in this world and the hereafter.

I am convinced that in the end, they will come to Islam's ideal voluntarily or otherwise, for man is a rational being and is endowed wtth understanding to distinguish between good and evil and to appreciate the beauty of eternal truth. It behoves him not to remain in such a psychological state which lowers him to the same level of animals by devoting his higher faculties to such worthless and mean ends.

There will be no other alternative before him-with the growing consciousness of the evils of this state- except to shake off the yoke of that state of ignorance and to strive, free from the shackles of materialism, for God's favour alone, thus taking the rightful place for which he was created and leading a life compatible with his faculties as a human being.

«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily those who say " Our Lord is allah " and work righteousness, the Angels shall descend upon them and shall say:

"Fear ye not, neither be ye grieved, but rejoice in the hope of Paradise which hath been promised unto you".

(*Baidawy's Commentary*).

nations and is tantamount to a challenge to carry rivalry to its bitter end and will only lead to further increase of armaments and preparations for destructive wars.

Yes! The Holy Book has described the Moslem nation as the greatest of all, but this greatness is accounted for by the noble human tasks which it has set itself to accomplish, tasks of enjoining good, forbidding evil and inculcating faith in God. This greatness, as you may see, was not accounted for by any superiority of caste or nationality, nor by astuteness in the battle field or conquest of other countries, for thus saith The Lord:

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

"Ye are the greatest people ever raised for the benefit of mankind: Ye enjoin the good, forbid the evil and believe in Allah"

(Alucy's Commentary).

Should nations vie with one another to merit this greatness described above, the outcome of such an endeavour will be nothing short than peace and prosperity to mankind. Friendly and amiable relations will be established and benevolence and righteousness will reign supreme, for rivalry in this field will lead to better understanding and co-operation and not to dissension and animosity as in the former case.

But here someone many remark: You are asking something beyond the power of men, for where are you to find the great souls which will rise above the material trivialities of life to strive only for God's favour? Could such a change be effected when men are so completely and hopelessly taken up with the glitter of our present-day civilisation? Will the material demands which fill the hearts of men leave room for such high and divine ideals?

In reply to this, we should say that there are only two ways open before them: Either to remain as they are in this state of dissension, jealousy and animosity, or put an end to it once for all by raising

suffered from other leaders, or such other trivial causes which only left disgrace and destruction in their trial.

It was then that The Lord deemed fit to send down a new dispensation to deliver the world from the crying abuses which prevailed, and had it not been for the Moslem people striving under the guidance of their great ideal of courting God's favour and not seeking to exalt themselves on earth by spurious victories, humanity would have come to a most disasterous end.

The Lord saith:

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" As to that future abode of Paradise, We will give it unto them who seek not to exalt themselves on earth, or to do wrong; for a happy ending shall attend the pious"

(*Baidawy's Commentary*).

To-day the world is in a terrible state of disorder and unrest, and disaster looms large in the horizon of international affairs. Nations are undergoing severe trials of economic crises, unemployment, international differences, party strife and communistic tendencies. They are all seeking a way out of their ordeals but all their efforts are in vain and their science, industries and civilisation have all failed to avert the imminent catastrophe. They are on the horns of a perfect dilemma and they are already realising, to their detriment, the futility of their efforts to come to a peaceful settlement through diplomatic negotiations or political conferences.

It there any remedy for this sad state of things ? Could there be no solution for the problems of the world to-day to bring her a much-needed peace and security ?

Yes ! The world must adopt a much higher ideal than has hitherto been adopted if a permanent settlement is to be hoped for. It is a sign from Providence that the ideals and standards inspired by material ends have utterly failed to achieve peace. The ideal of "Our nation above all", which is the guiding spirit of the great countries to-day is nothing short than a declaration of hostility on other

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"Ye are the greatest people ever raised for the benefit of mankind; ye enjoin the good, forbid the evil and ye believe in Allah"

(Alucy's Commentary).

The Lord has described the Moslems in such glowing terms for they have merited the description and were well worthy of it. Indeed, there could be no stronger evidence to justify this description than the unanimous verdict of foreign historians that the Arabs have revived the world from the death-like condition which gripped the people, that they unearthed, developped and created many branches of science and arts and spread them among them, that they planned cities and contributed to the development of architecture as a work of art which survives until this very day, that they encouraged trade and agriculture and developped arts and industry, that they filled the cities with schools and libraries to spread culture and enlightenment among all people without distinction between Moslem or non-Moslem so much so that European countries used to send missions to different parts of the Moslem Empire in quest of knowledge and in order to embibe it from its true sources. Father Sylvester was among those students and he obtained much of his knowledge from the learned men of Andalusia. He succeeded later to the Papacy in Rome.

The Moslems were charitable and benevolent to all people irrespective of their religions or creeds. Great men of Europe used to go o Moslem countries when they were taken ill to be treated by their clever and famous doctors. They were received with welcome and were looked after and treated by the most proficient doctors until they were completely recovered to go back to their own countries in safety.

The world at the time of the mission of Mohammed (on whom be peace), was in a most chaotic condition. Wars were raging everywhere, leaders used to drive the people to the battle fields for the most trifling of reasons, just as a cheap victory with which to perpetuate their memory or a desire to avenge a slight or a snub which they have

the purpose of marrying a certain woman hence the nickname.

A man asked 'Said Ibn Al-Mussaib, a follower of the Prophet (on whom be peace)

"When one of us doth good, he rexpecth to be praised and recompensed thereon".

"Wouldst thou like to be hated ? " asked Said.

"No" replied the man.

"Then if thou wouldst do a thing then do it purely for Allah's favour" said he.

By this Islam has meant to render the ideal of mankind the highest possible and there could be no higher or nobler ideal indeed than loyalty and faithfulness to God, and man is well worthy of that ideal. In fact no other ideal is more suited to him, for he is endowed with such mental faculties and moral aptitudes of which no other creature on earth is possessed.

Should one imagine a nation which adopts this principle and strives in all its actions for God's favour he will not wonder at the perfect union that binds its individuals together, for do they not strive only for God's favour ? Nor will he wonder at their spread on the surface of earth and their intermingling with other nations, for do they not seek to establish the kingdom of truth, spread virtue and extirpate evil from earth ?

Do they not lend their aid to learning and pave the way for its further development and perfection ? Do they leave a wisdom which they fail to add to their store of knowledge or a good custom or tradition which they do not claim as theirs and with which they augment their wealth of morals ?

The nation which consecrates its actions for The Lord alone will find it easy to follow the path He ordained, the path of truth, faithfulness, mercy, justice, charity and avoidance of all open and concealed sin and wickedness. Such is the virtuous civilisation to which humanity should aspire and attain. All other civilisations are false and are ill-suited to the talents and faculties of man. They are below his dignity as the only rational being on earth.

This ideal has rendered the Moslem people the greatest of nations and their influence the most benign on earth.

The Lord saith in this connection:

accursed except that which is wholly and solely dedicated to Him, it in incumbent on every follower of this relogion to seek the favour of God by his actions·

And since the favour of God could not be courted by wicked actions or evil intentions, this noble principle was for more effective in reforming and perfecting the Moslem character than all the books of ethics which teem with high ideals but fail to induce their readers or even their authors to follow in practice a part of their contents.

Islam has endeavoured to impress this noble principle on the hearts of its followers in the same way as it did to impress monotheism on them as being complementary to it. It regards every actiou by which God is not meant as rejected, nay even detrimental to the doer. The Prophet (on whom be peace) says :

" Allah be praised shall say unto His Angels : " This man did not mean Me (seek my favour) by his action, assign him to Hades"

He also says :

" When the hosts meet in battle, angels descend to assign men to their grades : So-and-so striveth for the world, so-and-so fighteth for pride and so-and-so fighteth for party or tribe. Will ye not say so-and-so was killed in the cause of Allah ? For whosoever striveth to exalt the word of Allah, will be deemed to strive in His cause".

Islam has required its followers to make God's favour their coveted aim even in the smallest of things so that their actions may be founded on a solid basis of righteousness and integrity. The Prophet (on whom be peace) says :

"Whosoever scenteth himself for Allah (by righteous actions), will come on the Day of Resurrection with a fragrance far better than musk, and whosoever scenteth himself for one besides Allah, will come on the Day of Resurrection with an odour more offensive than carrion flesh."

This principle was so deeply impressed on the hearts of early Moslems that it became the sole motive of their actions, and any action which ran counter to it was regarded by them as a stigma on their reputation. In this connection, Ibn Masoud, a Companion of the Prophet (on whom be peace) says :

"Whosoever immigrateth in quest of something, will his immigration be for that which he sought. So when a man immigrated to marry a woman from us, he was called the immigrant of Um-Qais" i. e. is himmigration was not purely in the cause of Allah but was also for

Yet it emerged from those struggles more united and consolidated than before, whereas stronger nations could not survive lesser vicissitudes and had reverted to their previous state of weakness and dissension.

Well may the students of evolution marvel at the rapid development of the Arabs who attained greater dominion and power in one century than the Romans ever did in eight hundred years. This, indeed, is baffling to the mind and could not be accounted for by modern science. It is an immortal phenomenon to be recorded for the last of the Prophets (on whom be peace) and added to the host of other miracles. It should be pointed out here that Moslem dominion was not attended, as in the case of Roman dominion, by the imposition of humiliation on the vanquished people and depriving them of their natural rights to the point of forcing their kings and great men to drag the choriots of the Roman emperors on their victorious entry into their cities. The Moslem dominion, on the contrary, was attended by justice, liberty and equality to all countries ceded to the Moslem Empire, so much so that other countries have voluntarily requested Moslem protection to deliver them from the injustices and abuses to which they were subjected.

Such wonders are unheard of in the history of any other conquering nation. What then is the secret behind this great and unparalleled phenomenon and how is it to be accounted for in the light of modern science?

The secret lies in that Islam has enjoined its followers to seek by their actions the favour of God and not material ends.

In this connection, The Lord saith :

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Everything shall perish except Himself "

(Baidawy'sCommentary)

The Prophet (on whom be peace) says :

" Accursed is the world and accursed is everything in it except that which is for Allah"

So long therefore as everything shall perish and nothing shall remain except The Lord and so long as everything in the world is

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

IX.

STRIVING FOR GOD AND NOT FOR MATERIAL ENDS.

Students of evolution of human communities may well be astonished at the rapidity with which the Arabs have changed from a condition of complete disunion into a homogeneous nation of united people. But their astonishment will be doubly increased by the fact that this young nation had resisted and survived all the factors of decline which assailed her in the course of her struggles with older and stronger nations,

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ١٣ –

دعوته الى الأخذ بالأحسن من كل شىء

إن ناموس الترقى فى الجماعات البشرية يرتكز على غريزة طبيعية فى الانسان هى أنه يتخير الحسن من كل شىء ، وهذه الغريزة تنشأ مع الانسان وتنمو بنمو عقله ما لم تصطدم بما يعوقها عن نموها من تقاليد باطلة وتعاليم فاسدة . فاذا تعهدها الآباء والمربون بالتربية فى نفوس الناشئين ، وأبعدوا عنها ما يؤخر تقدمها ، شبوا عليها ، وصارت حالا لهم لا يستطيعون عنها حِولاً . ومن أثر تلك الغريزة أن تنشىء فى تلك النفوس طموحا الى ترقية كل ما يقع تحت سلطان قدرتهم ، ويكون أثر ذلك فى المجموع دوام الانتقال من حسن الى ما هو أحسن منه ، الى أن تصل الأمة الى أعلى ما قدره الله للإنسانية من الحياة الراقية ، والمدنية الفاضلة .

وعلى العكس من هذا يكون شأن الجماعات التى تضعف فيها هذه الغريزة تحت تأثير تعاليم غير حكيمة ، أو تقاليد باطلة موروثة ، فإن هذه الجماعات ينحط فيها ذوق الجمال المعنوى الى أدنى درجاته ، ولا تزال تنحط من دركة الى دركة حتى يفسد كيانها ، وتصبح عاجزة عن متابعة البقاء كأمة .

إن أكمل الوسائل لإحياء هذه الغريزة فى أمة هى أن تجيئها من طريق الدين ، فإن الدين باستيلائه على أرقى عواطف النفوس يزكى هذه الغريزة فى الآحاد ، ويدفع بمجموعهم فى سبيلها ، فتتكافل طبقاته فى إيصالها الى أرقى ما تكون عليه ، فينشأ فيها

ميـل عام للانتقال من حال الى حال ، ويضمن سلامتها من الجمود الذى قد يحـل بها فيوردها الموارد . فإذا اتفق أن ضعفت فيها هذه الغريزة ، وتغلبت عليها عوامل الانحطاط ، فإن مثول هذا الأصل فى تعاليم دينها يدفعها الى الأخذ بالأحسن ، والى مكافحة تلك العوامل التى كانت سببا فى انحطاطها وتأخرها ، فتنهض من سباتها محفوزة بوازع من دينها .

الناظر فى الاسلام من هذه الناحية يجد أنه قد بلغ الغاية من الدعوة الى الأخذ بالأحسن فى الأقوال والأفعال ، وفى كل ماله ارتباط بالإنسانية .

أمر الله بالإحسان أمرا ، وجعله فى مرتبة العدل ، ولا يخفى على أحد مكان العدل من حياة الأمم ، فقال تعالى : « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

هنا يجب علينا أن ننبه أن معنى الاحسان ليس مقصورا على الإحسان الى الفقير بإطعامه والتصدق عليه ومواساته كما يتبادر الى الذهن ، ولـكنه يتناول إحسان المرء كل مايدخل فى عمله وتحت سلطانه ، وقد أطلقه الله تعالى فى الآية المذكورة آنفا ليشمل جميع الأفعال الحميدة ، والخلال الرشيدة ، وهذا اللفظ أشمل الألفاظ لجميع خصال الخير كما ترى ، لذلك كرر الله مادته فى الـكتاب الـكريم نحو مائة وثمانين مرة .

ولهذه الميزة قرنه بالدين نفسه مكتفيا به عن سواه من محامد الصفات ، لأنه يشملها جميعا ، فقال تعالى : « ومَن أحسنُ دِيناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » فإسلام الوجه لله هو الإخلاص له والاستسلام اليه ، والإحسان هو الإتيان بكل حسن من الأقوال والأفعال ؛ ومتى اجتمع هذان الوصفان فى إنسان استـكمل جميع وسائل الحياة الطيبة فى الدنيا ، والسعادة الأبدية فى الآخرة .

ونوه الله فى آيات كثيرة أخرى بأنه يحب المحسنين ، ويتولاهم بالتأييد والتـكميل ، فقال تعـالى : « إن الله يحب المحسنين » وقال : « إن رحمـة الله قريب من المحسنين » وقال : « وبشر المحسنين » وقال : « وبُشرَى للمحسنين » .

وربط سبحانه كبريات المنح الإلهية بالاحسان ، وقرر أنها متوقفة عليه ، فقال تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » وقال : « سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين» وقال : « سلام على موسى وهرون . إنا كذلك نجزى المحسنين » وقال : « سلام على إلْ ياسينَ . إنا كذلك نجزى المحسنين » وأنت خبير بأن هؤلاء المرسلين قد أمدوا من عون الله وتأييده ، ومن العلم والحكمة ، بما جعلهم أئمة للناس أجمعين . يقول الله : إن كل ذلك كان جزاء لهم على إحسانهم، وفى هـذا من الإشادة بالاحسان ما فيه ، وأى إشادة أكبر من أن يطلقه على جميع الكمالات النبوية ، والآداب العلوية ؟

وقد وعد الله المحسنين بدوام الارتقاء فى معارج الكمال ، واستمرار التقدم فى باحات الجلال ، فقال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لَنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لَمع المحسنين » ومعناه : أن الذين يحسنون القيام بما أمروا به من إعلاء كلمتنا والقيام على صراطنا ، لنهدينهم الى سبل الوصول الينا ، وسبل الوصول الى الله تؤدى الى مالا يخطر على بال إنسان من كرامة الحياتين ، وصميم السعادتين ، وليس بعد هذا مرمى لطالب الكمال الصورى والمعنوى . وهذا هو الارتقاء الذى ينشده الانسان بأخص معانيه ، ويحاول الوصول اليه بكل العوامل التى ركبت فيه .

فتخيلْ شعبا يأخذ بهـذا الدين فيتحرى وجوه الإحسان فى كل قول وعمل ، وفى كل حركة وسكون ، ثم قل لى كيف لا يصل الى أبعد الغايات فى كل ما يتصدى لبلوغه من أغراض الحياة الدنيوية ، ومرامى الحياة الروحية ؟

إن شعبا يطالب بالأخذ بالأحسن حتى فى ردّ التحية : « وإذا حُيِّيتم بتحية فحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدوها» ، لجدير بأن يصبح فيه تطلُّب الأحسن حالاً لا يستطيع عنها تحولا.

وقد فتح الله فى وجهه جميع مغالق الخير ، فأمره أن يفتح قلبه لكل علم وكل حكمة ، وأن يأخذ بأحسن ما يسمعه منهما ، فقال تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

إن أمة تستعد لتلقى الحكمة على هذا النحو، غير متأثمة عن أخذها ولو عن مخالفيها فى الدين، لخليقة بأن تجمع فى ذاتها كل فضائل الأمم، وأن تتوجه نحو الكمال بخطى واسعة لم توفق الى مثلها أمة قبلها. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت»، وفى حديث آخر: «خذ الحكمة ولو من مشرك».

ولا غرو فإن طالب الأحسن من كل شيء لا يأنف أن يتصيده من جميع مظانه، كطالب الذهب لا تتقزز نفسه أن يبحث عنه فى خلال الطبقات الأرضية مخلوطا بغيره من المعادن الخسيسة، ويجهد فى استخلاصه منها، وإبرازه إبريزا خالصا لا تشوبه شائبة. يفعل ذلك لأنه يعلم أن الذهب ذهب حيث كان، فلا يضع من قيمته أنه مخلوط بغيره، ولا يجوز إهماله لهذا السبب. كذلك الحكمة قد تختلط عند الأمم المختلفة بشوائب من الأهواء والأوهام، فلا يجوز إهمالها لهذا السبب، ولكن يجب تخليصها مما شابها من تلك الوساوس، والاستفادة منها نقية خالصة.

من أقوى ما وقفنا عليه من ضروب الحض على طلب الحكمة قوله صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها». فالضالة لغة هى الشيء الذى يكون للانسان فيفقده، فيظل يبحث عنه حتى يجده، فهذا المجاز أبلغ ما عرف من نوعه فى بيان ضرورة الحكمة للانسان، وأبدع ما أثر عن البلغاء من عبارات الحث على تطلبها. فإذا كانت الحكمة ضالة كل مؤمن فكيف يغفل عن البحث عنها فى جميع مظانها من بطون الكتب، أو من أساطير الأولين، أو على ألسنة الناس كافة، فإذا وجدها وجب عليه أن يأخذها دون تردد؟

وإن الحكمة فى ذاتها لجديرة بكل هذا التحضيض، لأنها قبس من نور الله أفيض على النفوس المستعدة له، فأفضت به الى الناس لتدلهم على هدى، أو لتحميهم من ردى، أو لتفتح لهم بابا الى الخير موصدا، وخليق بأمة تؤتى الحكمة أن تقوم من جميع أمورها على أرسخ الأصول، وأعدل السبل، فكيف لا يجعلها الاسلام

من أهم ما يوصى أهله بتحصيله ، وهو دين الـكمال المطلق ، وسبيل الخير المحض ؟ لذلك عظم الله من شأن الحـكمة ، ونوه بفضلها ، فقال تعالى : «يؤتى الحـكمة من يشاء ، ومن يؤت الحـكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذّكر إلا أولو الألباب» .

فإذا كان قد غمضت على بعضهم أسباب انتقال العرب من همجيتهم الأولى التى كانوا عليها قبل الاسلام الى أرقى ما وصلت اليه الأمم من المدنية الفاضلة بهذه السرعة التى تشبه الطفرة ، فإن ما ذكرناه فى هذا الفصل هو بعض تلك الأسباب .

نظر الأجانب عن هذا الدين فى الاسلام من نواحيه العامة ، فتأدوا من ذلك الى ما أوجب عليهم إكباره من الأسس التى قام عليها ، وهى توحيد الله وتنزيهه ، وأمره بالعدل ونهيه عن الظلم ، ودعوته الى مكارم الأخلاق ، ولـكنهم لم يتعمقوا فى دراسته ولم يقفوا على العوامل الأخرى التى بثها فى جميع ما أمر بالقيام به من مطالبة المؤمنين بالإحسان فى كل أقوالهم وأفعالهم ، وأخذهم بقول الحق والصدق ، الى غير ذلك من الصفات الفاضلة . وقد رأيت فيما درسناه من هذه العوامل هنا أنها تستند الى أصول طبيعية ثاوية فى غرائز النفوس ، إذا غذيت بما يبعثها من سكونها أنتجت أكبر الآثار الاجتماعية ، وأعظم الانقلابات الأدبية . فالذى يدرس الاسـلام تحت ضوء هـذه الحقيقة ، يدرك من عظمته وبليغ أسلوبه فى إحياء النفوس من مواتها ، وبعث غرائزها من سباتها ، ما يملؤه دهشا وإكبارا ، ويجعله يدرك الأسباب الحقيقية لسرعة رقى المسلمين ، واستحقاقهم لخلافة الله فى الأرض .

وكل ما ننصح به الباحثين فى الاسلام أن لا يجعلوا المصطلحات العلمية الجديدة أسبابا تحول بينهم وبين معرفة ما انطبع عليه الاسلام . مثال ذلك أن الفلسفة الحديثة تعلق كل ارتقاء تبلغه الأمم فى شئونها المادية والأدبية على إدراكها للجمال المعنوى ، وتقول إنه بقدر ارتقاء شعور الأمة بهذا الجمال يكون ارتقاؤها فى عالم المدنية والفنون . والاسلام لم يتقيد بهذه التسمية ، ولـكنه حث ذويه على العب من المعين الذى يوجد لهم

الشعور بالجمال المعنوى ، فأمرهم بالنظر فى مصنوعات الله ، وبالتفكر فى بدائع الخلق ، وعاق على ذلك وصولهم الى أبعد غايات العلم ، وأقصى درجات الزلفى من الله ، فقال تعالى فى صفة المؤمنين : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » وبكّت الذين يمرون بآيات الله فلا يعيرونها التفاتا ، فقال : «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . وحض أهله على تربية قلوبهم بكل وسيلة مستطاعة حتى السياحة فى الأرض ، فقال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . ودعا النبى صلى الله عليه وسلم الى الفكر فى مصنوعات الله وجميع شئونه فى خلقه حتى فضله على العبادة ، فقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » فأنت خبير أن الاسلام إذا كان لم يسم إدراك الجمال المعنوى بالاسم الذى اصطلح عليه الفلاسفة المعاصرون ، فقد أمر ذويه بالقيام على السمت المؤدى اليه من أقرب الطرق وأقومها .

وما نحن بصدده من الدعوة الى الاحسان فى كل شىء ، يفتح الباب لناموس الترقى على مصراعيه ، فإن أمة يدعوها دينها الى تحرى الحسن فى كل قول وعمل ، لا شك أن غريزة التكمل تتنبه فيها وتبلغ بحكم التطور الى أقصى حد ، فتندفع فى سبيل الترقى محفوزة بعوامل ذاتية غير متكلفة ، ويكون تقلبها فى أطوار الارتقاء نتيجة طبيعية لحالتها النفسية . هذه النتيجة ظهرت على أشد ما تكون عليه وضوحا فى الأمة الاسلامية منذ أخذها بهذا الدين ، فإنها لصدق إيمانها به ، عملت بكل ماجاء فيه ، فكانت ثمرة عملها به ارتقاءها حسا ومعنى ، وتدرجها فى معارج السمو بسرعة مدهشة ، لخلو الطريق أمام ناموس الترقى من العواثير ، فإن الاسلام بأوامره ونواهيه المختلفة كان قد نبه جميع عوامل التكمل فى النفوس ، وأعد غرائزها لقبول كل ما هو حق وجميل ،

وأبطل جميع عوامل الفساد فيها ، فلم يستعص قيادها على أى ناموس مكمل ، ولم تلفظ بنيتها أىّ خير تأدت اليه فى حياتها النشطة القوية . انظر الى قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم؟ قالوا خيرا ، الذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » ؟

محمد فريد وجدى

تربية الولد

روى أن عتبة بن أبى سفيان أوصى مؤدب ولده فقال :

« ليكن أول إصلاحك بنى إصلاحك لنفسك ، فان عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما فعلت ، والقبيح ما تركت . وعلمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيتركوا ، ولا تدعهم منه فيهجروا . وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه . ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع ، مضلة للفهم . وهددهم بى . وأدبهم دونى . وكن لهم كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء . واستزدنى بآدابهم أزدك . ولا تتكلن على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك .

وقال أعرابى لولده وقد سمعه يكذب :

يابنى عجبت من الكذاب المشيد بكذبه . وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه ؛ فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقا لم يصدق ، وإن أراد خيرا لم يوفق . فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله . فما صح من صدقه نسب الى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب اليه ، فهو كما قال الشاعر .

حسب الكذوب من المها نة بعض ما يحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة من غيره نسبت اليه



قال الله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

قد جاءت هذه الآية بعد قوله عزمن قائل : «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدًى ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين» فما أعظم وقعها فى موقعها ، وما أشد تمكنها فى مكانها ؛ أما إنها لآية جمعت من بيان للخير والشر مع الترغيب فى الأول والتنفير من الثانى ما لا تراه قد اجتمع فى غيرها ، حتى روى فيها البيهقي فى شعب الإيمان والبخارى فى الأدب عن ابن مسعود رضى الله عنه أنها أجمع آية للخير والشر ، وروى أبو نعيم أن أكثم ابن صيفى لما بلغه بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أرسل رجلين إليه صلى الله عليه وسلم يتعرفان حاله ، فسألاه عما جاء به فتلا عليهما هذه الآية ، فرجعا الى أكثم ، فقال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مذامها ، فكونوا فى هذا الأمر رأسا ولا تكونوا أذنابا .

ولا عجب فإن هذه الآية على وجازتها قد بينت كل شيء يحتاج إليه الناس فى تربيتهم وتهذيبهم ، وأنارت طريق الهدى لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وقد جمعت من صنوف الرحمة للفرد العامل بها وللمجتمع المحيط به ما لم يجتمع فى غيرها ، إذ وجهت العامل الى ما فيه سعادته ، ووقت المجتمع من بطش بعضه ببعض ، ومكنت الناس من أن ينتفع بعضهم ببعض ، حتى يكونوا جميعا رسل رحمة ووداد ، ويسودهم الصفاء ، فيكونوا كأعضاء الجسد الواحد ، وكفى بذلك رحمة بينهم .

ثم هى تبشير صادق لمن عمل بها أن ينال من الله النعيم المقيم ، وينجو من العذاب الأليم ؛ فما أحسن موقعها بعد قوله عز وجل : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ؛ ولعلك بهذا تلمح أن قوله تعالى : « للمسلمين » فى الآية السابقة راجع لقوله : « وبشرى » وأن الهدى والرحمة فيها عامان للمسلمين وغير المسلمين ، فطلوع الشمس هاد للجميع حتى من غمض عينيه وحرم نفسه الانتفاع بضوئها ، وطلوع الشمس رحمة حتى لمن هرب من التعرض لشعاعها وزاغ عن ضوئها .

لقد أمر الله تعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها بثلاثة أشياء ، وهى العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ؛ ونهى عن ثلاثة أشياء : الفحشاء ، والمنكر ، والبغى .

أما الثلاثة المأمور بها فأولها العدل وهو رأسها ، بل هو الصراط المستقيم ، وهو مجمع الخير كله ، فما من فضيلة اعتقادية أو عملية أو خلقية إلا وتجد العدل أساسها ومالك زمامها . والعدل أصله ضد الميل والجور ، ومنه طريق معتدل ، وقد اشتهر فيما يقابل الظلم لأن الظالم مال عن طريق الحق ، فرجع العدل التوسط فى الأمر ، ولنضرب لذلك أمثلة فى الاعتقاديات والعبادات والمعاملات والأخلاق : تجد الناس فى الاعتقاد بوجود الإله ثلاثة أصناف : دهرية ينفون الإله الصانع ويقولون : إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر وقد وجد العالم بطبعه ؛ ومشركون قالوا بتعدد الإله كالثنوية أو المانوية القائلين بألوهية إلهين : النور والظلمة ؛ والوثنية عباد الأوثان والكواكب والحيوانات والأنهار وأمثالها ؛ فالأولى فرطت فى وجود الإله ، والثانية أفرطت بتأليه ما ليس بإله وتعديد الآلهة . والعدل هو الاعتقاد بوجود إله واحد لاشريك له ولا ند ولا مثيل . وتجد فى القائلين بوجود الإله فرقا كذلك ، فمنهم من يقول : إنه وحدة محضة لا تعدد فيها ولا صفة لها ولا ولا وإنما هو مبدأ واحد صدر عنه شىء واحد بطريق اللزوم لا إرادة له فيه ، ثم صدر عن الواحد آخر ، وكانت الأفلاك وحركاتها حتى جاء منها ما يسمونه بالعقل الفياض فأفاض على هذا العالم ما استعدَّ له بدون مدخلية

الإله الأعظم بشيء أكثر من أنه عنه نشأت تلك القوى بلا إرادته ولا علم له بجزئياتها ولا إرادة له في كون شيء منها أو فساده ، وهؤلاء معطلة . وآخرون يقولون : إنه جسم وذو أعضاء وأجزاء ويتنقل من مكان الى مكان وهلم جرا ، وهؤلاء مشبهة تشبيها محضا . والدين الصحيح أنه هو الفاعل المختار ، خالق كل شيء ، لا يعزب عن علمه شيء ، وهو العليم الحكيم ، وأنه منزه عن الجسمية ولواحقها ، وعن الأجزاء والتركيب ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

ومن العدل في الاعتقاديات ما يتعلق بأمر المعاد ، فمن الناس من يزعم أن المعاصي لا مؤاخذة عليها مهما عظمت متى آمن المرء بالمخلص الذي افتدى البشر بصلبه وصلب من أجلهم ، فمن آمن به فله أن يفعل ما يشاء من ظلم وبغي وفاحشة ومنكر ، فإن خطاياه قد حملها عنه المصلوب ، فالأمر إباحة لا حد لها ولا قيد ؛ ومنهم من زعم أنه لا يفعل عبد معصية إلا ويخلد من أجلها في النار مهما امتلأ قلبه بالإيمان وامتلأ عمره بالإحسان ، فمعصية واحدة كافية في هدم ذلك البنيان ولا شفاعة ولا غفران . والعدل أن من عمل صالحا من ذكر وأنثى فله أجره عند ربه ، ومن اقترف سيئة وهو مؤمن بربه فأمره الى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بها ثم أدخله الجنة جزاء إيمانه ، فالإيمان خير ولا كلام ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

ومن العدل في الاعتقاديات ما يتعلق بأفعال العباد ، فمنهم من يسلب عن المرء اختياره ويجعله كالريشة في مهب الريح لا تملك من أمرها شيئا ؛ ومنهم من يقول هو المهيمن التام على ما صُرِّف فيه ودخل تحت قدرته ليس لأحد ولا لله مدخل في توجيه إرادته ولا خلق أفعاله ، بل هو الكامل الاستقلال . والعدل أن له قدرة وإرادة وهبهما الله إياه ، بهما يتصرف فيما أقدره الله عليه ، وإن كان اختياره وإرادته لا تتعدى ما علمه الله وأراده ، فمن يهدي من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلا هادي له ، ثم ما يصدر عنه من الأفعال وإن كان منسوبا اليه ومكسوبا له وناشئا عن إرادته وقدرته ، هو بخلق الله

وإيجاده، فهو كما يخلق الله الماء ويخلق الرى بعد شربه ناشئا عنه، وكما يخلق النار ويخلق الاحتراق عقب مساسها، فالكل منه واليه، وهو خالق كل شيء.

ومما يتصل بذلك وإن كان متعلقا بالأعمال أن قوما ينفون التكاليف بتاتا ويقولون: ليس لله حاجة فى طاعة ولا ضرر من معصية، فليس له أمر ولا نهى أصلا؛ ومن الناس من أخذوا أنفسهم بالعَنَت والإرهاق وضروب التعذيب والبعد عن الطيبات من مأكل وملبس وغيرهما، أو يترهبون ويعطلون المعنى الذى وهبهم الله إياه وناط به عمران العالم. والعدل هو ما أشار اليه قوله تعالى: «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» وقوله: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون» وقوله تعالى: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وقوله عز وجل: «إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن».
وعلى الجملة فالعدل هو ما جاء فى هذه الشريعة الغراء للأمة التى شرفها سبحانه وتعالى بقوله: «وكذلك جعلناكم أمة وَسَطاً». هذا فى الاعتقاديات.

وأما الأعمال فإنك إذا نظرت الى العبادات التى هى أركان الإسلام تجد العدل واضحا فيها متجليا فى كل منها: فالصلاة وفرائضها المعلومة، والزكاة ومقاديرها المحدودة، والصوم وأيامه المعدودة، والحج ووجوبه فى العمر مرة، كلها ناطقة بأن الله لطف بنا لطفا عظيما، ورحمنا رحمة واسعة، ففى الصلاة لم يتركنا سدى بدون عبادة تتكرر يوميا لتذكر القلوب من غفلتها وتوقظها من سنتها، ولم يرهقنا بها فيجعلها خمسين فى اليوم والليلة؛ وفى الزكاة لم يحرم فقيرنا من فضل غنينا، ولم يرهقه فيجعل الأمر شيوعا يحرم العامل من ثمرة كده وجده؛ وفى الصيام لم يرسلنا على اللذائذ إرسالا حتى يكون الناس كالأنعام أو أضل سبيلا، ولم يحرم علينا الطيبات من الرزق، وإنما أمرنا أن نكف عن المأكل بياض النهار شهرا فى السنة، نتعرف بذلك مقدار نعمة الله، ويعطف به بعضنا على بعض، ونتقى أبداننا من أوضار الانهماك فى المطاعم. وكذلك لم يحرجنا فى الحج أن نجتمع كل سنة أو كل شهر، أو أن يجتمع الجميع فى وقت معين

فى بقعة معينة ، كما لم يتركنا فرطا لايلوى منا أحد على أحد . فكان العدل فى العبادات وأركان الاسلام ما نرى .

أتريد أن تستقصى فى الأمر فتنظر الى مثل قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وقوله عز وجل ثناءً على المؤمنين : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قَوَاماً » ؟ وانتقل بنظرك إن شئت الى ما شرع الله من أحكام بين الناس فى معاملتهم بعضهم مع بعض سواء أكان ذلك فى الدائرة الضيقة : الحياة المنزلية : سياسة الأسرة ، أم فى الدائرة الواسعة من معاملات وحدود جنايات ، أم فى الدائرة الأوسع نطاقا فى عهود المسلمين مع غيرهم من الطوائف ، فإنك واجد فى كل ذلك مظهر العدل الأكمل ، والانصاف الذى لا تؤخذ عليه شائبة .

ألست ترى فى باب الزواج مثلا أنه لم يطلق للشهوات العنان ، ولم يبح حيازة ما يزيد على ما يكفى ويغنى كل طبيعة ، ويسد حاجة الرجل مهما أوتى من قدرة ، كما لم يضيق السبيل فى وجه من وثق من نفسه بالقدرة على الإيواء وإيتاء ما وجب عليه مع الثقة من نفسه بالعدل بين من وكل إليه أمرهم ، فتوسط فى أمر العدد فلم يقف به عند حد زوجة واحدة ، فربما كان فى قُوّته أن يعول أكثر من واحدة ، وأنه يحتاج فى تمام عفافه الى أكثر من واحدة ، والشرع يُعنَى بصون العفاف أكبر عناية ، والرجل هو المنوط به الكلف والنفقات ، وهو بصير على نفسه فلا يحمل إلا مايطيق ، ولكن ليس مطلقا بدون تحديد ، بل أباح له عددا يمكنه معه أن يأمن على إقامة العدالة ، وبذلك لم يضيق بالإرهاق والاقتصار على الواحدة ، ولم يوسع بإباحة ما لا نهاية له ، وقد كان كلا الأمرين محتملا ، وربما جاء كل من الأمرين فى شريعة ، أو اختاره قوم .

وكذلك فى أمر الطلاق : لم يضيق على الناس ويلزمهم إفناء حياتهم وتضحية سعادتهم وهناءتهم طول عمرهم فى عشرة من لا تطيب معها أو معه العشرة ، ولم يجعل الأمر مباحا يراجعه ويتردد عليه كلما شاء له الهوى ، فأباح الطلاق وجعله مع إباحته أبغض المباحات

الى الله ، حتى لا يقدم عليه امرؤ إلا وهو جد معذور ، ثم مكنه من نقضه والرجوع فيه مرة ومرة ، فإذا جاءت الثالثة فـلا رجعة له إلا إن تجـددت عصمتها وعشرتها لغيره ثم انفصلت منه ، فوسع للناس فى حـدود معقولة ، وهيأ لهم أسباب الهناءة فى طريقة معتدلة .

وكذلك أمر النفقات : لم يغفل أواصر القربى ويجعلها نسيا منسيا ، ولم يجعل القرابات شركات لها الحق المطلق ، ولـكن قرر على الموسر من الأقرباء نفقة المعسر بالمعروف .

فإذا نظرت الى المعاملات وجدت قانون العدل محكما وطريق الإنصاف محتما فى كل باب من بيع وشراء وإجارة ورهن وضمان وقصاص فى الجنايات . أفأقول لك : إنه عدل حتى فى العدل ؟ وكيف ذلك ؟ نعم لقد عدل حتى فى العدل : فإنه لم يحتم على صاحب الحق أن يأخذ بالعدل ، كما لم يحرمه حقه فى العدل ، وإنما قال له : لك الحق فى أن تستوفى حقك بالعـدل ، ومع ذلك فإنى أرغبك فى الإحسان والفضـل . فما أشبه الإتيان بالإحسان بعد العـدل أن يكون اعتدالا فى تقرير العدل ! لقد كان فى بعض الشرائع تحتيم الاستيفاء للحقوق والاستقصاء فى العـدالة ، وأنه ليس لصاحب الحق التنازل عن حقه ، وذلك فى الشريعة الموسوية على ما يذكرون ، حيث كانت النفوس ألفت الذلة والخضوع والمسكنة ، وكانت الحـكمة فى أن ينفخ فيهم روح الأنفة والحمية والشمم ، فنعوا أن يتساهلوا فى حقوقهم ، وأن يتجاوزوا عن شىء مما لهم ، حتى إذا مر زمن اقتلعت فيه منهم روح الاستخذاء والتضعضع ، وتمكنت فيهم روح المقاصة والمشاحة ، جاءت الشريعة العيسوية ترغب فى التفضل وتأبى المقاصة ، وتدعو الى التسامح ، قائلة أو قائلا من يقول بلسانها : من ضربك على خـدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . فجاءت الشريعة المحمدية على الوجه الوسط المعتدل فى العدل ، فلم تحتمه البتة كما كان فى شريعة موسى ، ولم تهمله رأسا كما جاء فى شريعة عيسى ، وإنما قررته حقا ، ودعت الى التسامح فيه فضلا ، ولا يكون الإحسان إحسانا حتى يجىء عن طيبة خاطر ، ولا يكون كذلك

إلا إذا عرف المحسن أنه إذا تمسك بحقه كان له حق استيفائه ، فحينئذ تطيب نفسه بالفضل ، ويسمح به عن طيبة خاطر .

هذا هو العدل فى العدل ، وهذا هو الإحسان حقا . ولقد جاء رحمة من الله بالناس حين استعد له الانسان وتقلبت عليه صروف الزمان فكمل استعداده لأكمل ضروب الإحسان ، وبذلك جاءت شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان ، فكانت هدى ورحمة وبشرى للمسلمين . وإنه لولا خوف الإطالة لبينّا جريان الإحسان فى كل باب كما بيّنّا ذلك فى العدل ، ولكن هذا لا يمنعنا من الإلمام إلماما خفيفا . فناشدتك الله والعدل والإحسان لا تسأم ولا يملكك الملل ، فإنا سنوجز القول فى ذلك إيجازا :

أصل الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه الحسن الجميل ، ومنه « إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة » وقد تعورف فى الإنعام والتفضل ، ولكنه يتسع معناه لأكثر من ذلك ، ويمكن حمل الآية على المعنى الأوسع كما سنبينه لك :

ففى باب الاعتقاد تجد العدل هو ما سبق بيانه من الإيمان بوجود إله عالم قادر متصرف فى هذا العالم ، لا يشذ عن قدرته شىء ، ولا يعزب عن علمه شىء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، وما من حبة فى ظلمات البر والبحر إلا وهو عالم بها . هذا هو العدل .

والإحسان أن يرقب المرء ذلك ويطيل النظر فيه حتى يكون ذلك دائما ماثلا أمام عقله ، حاضرا لحسه مشهودا له كأنه يبصره ويشاهده ، فيدعوه ذلك الى دوام الحياء والخوف والرجاء عن شهود دائم ونظر قائم .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تستطع ذلك فباستحضار أنه مطلع على سرك وعلانيتك ، يعلم لمحة بصرك وتموجات لحظك ، وجولان خاطرك ، وخطرات نفسك ، وهو أعلم بك من نفسك ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هذا مثال من الإحسان فى باب الإيمان .

وأما الإحسان فى باب الأعمال فغير خاف على من درس الشريعة وعرف فرائضها ونوافلها . فالعدل أداء الفرائض ، والإحسان التطوع بالنوافل ، وهذا فى باب الكمية أمره ظاهر ، وأما فى الكيفيات فما أدق باب الإخلاص والصدق فى أداء العبادات ، فمن أدى فرضه مستوفيا شروطه الشرعية فالعـدل أن تبرأ ذمته ويرتفع الطلب عنه ، ولـكن أليس الإحسان فى عبادة الله تعظيما لجنابه وشكرا لنعمه ، مع استحضار أنه يناجيه فى الصلاة بكلامه القديم ، مستحضرا عظمته فى قيامه وركوعه وسجوده ، متلذذا بتوفيقـه إياه ليؤدى له ما يرضيه ، مغتبطا بشرف المثـول بين يديه واطلاعه عليه ؟ الح إن شئت قوله عليه الصـلاة والسلام : « وجعلت قرة عينى فى الصـلاة » وهذا باب لا يعرفه تمام المعرفة إلا من ذاقه ، وليس طِلابه على الراغب فيه ببعيد .

وفى الزكاة تجـد الإكثار من الصدقات من أوسـع أبواب الإحسان ، فإذا ضم اليه القـول المعروف ، والبعد عن المن والأذى ، وإخفاء الصدقة حتى لا تعـرف شماله ما تنفق يمينه ، وإذا استطاع أن يخفى نفسه عمن تصدق عليه حتى لا يكلفه منة الشكر ، كان ذلك أدخل فى باب الإحسان .

وهل ترى من الإحسان فى الصوم أن يصون لسانه عن لغو الـكلام ، بله ما حرم الله من غيبة ونميمة ، ويـكف بصره وسمعه عن الوقوع فيما لا يرضى ربه « من لم يكف لسانه وسمعه وبصره عما حرم الله فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وأما باب المعاملات والجنايات فالإحسان فيها أوضح من أن ينبه عليه ؛ وحسبك منه أن قد جعل التسامح فى البيع والشراء من باب الصدقات ، وناهيك بإنظار المعسر والبعد عن الغرور والغش وأمثالها . والقصاص : هل يخفى عليك قوله تعالى : «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » أو قوله تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » أو قوله تعالى : « والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ؟

أما بعد : فهل تريد أن أقول لك : إنه يطلب الإحسان حتى فى الإحسان ؟ نعم :

وانظر إن شئت الى قوله عليه السلام : «ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء اليك» : وليس معنى الحديث أن إحسان المرء الى من أحسن اليه إساءة وليس بإحسان، حاشا أن يفهم ذلك، وإنما معناه أن هذا الإحسان أشبه شيء بأداء الديون لم يكن ينتظر منه غير ذلك، فالفضل فيه فضل نازل عن الفضل فى الاحسان ابتداء، لا على وجه المكافأة، أو على وجه مقابلة السيئة بالحسنة، فذلك هو الفضل العظيم. فاذا كان الاحسان بدءا وتفضلا أكمل فى النظر الصحيح من الاحسان فى مقابلة الاحسان فلا شك فى أن الاحسان فى مقابلة الإساءة أكمل وأفضل، وأجزل ثوابا وأعظم عند الله أجرا. ولكن لا يفوتك أن محل كون ذلك إحسانا وفضلا إنما هو إذا تمكن من أن يستوفى حقه قصاصا وعدلا، وأما إذا أرغم على هذا فإنه يكون استخذاء وذلا. وبذلك ترى أنه لا يتحقق الاحسان إلا حيث يملك المرء زمام التصرف فيستوفى إن شاء ويسامح إن شاء.

وإن من أعظم أبواب الاحسان أجرا وأشدها على النفس أداء، الاحسان على من يزعم أنه صاحب حق فى حين أنه ليس له ذلك الحق، فإن النفوس فى هذه الحالة تشمئز أن يصور تطوعها بصورة الحق المطلوب المتقرر. وهذا أكثر ما يكون فى الاحسان الى ذوى القربى، فإن القريب دائما متطلع الى ما فى يد قريبه، يراه حقيقا أن يشاركه فى خيره ويسره، ويزاحمه فيما أنعم الله عليه به. أليسا من نبعة واحدة؟ أليس يجمعهما أب واحد أوجد واحد؟ فلماذا يستأثر علىّ بما أوتى؟ أليس كان من الجائز أن يكون ما فى حوزته فى حوزتى؟ وهلم جرا مما يخدع به نفسه حتى يدوم تطلعه؛ ويلمح الآخر منه هذا فتشح نفسه عليه بينما هى سامحة لآخر غيره.

من أجل هذا اختص الله تبارك وتعالى إيتاء ذى القربى بالذكر من بين ضروب الاحسان، حثا عليه وتأكيدا لشأنه، وتخصيصا لأحسن أنواع الاحسان، حتى لا يدعه المحسن مطاوعة لداعية نفسه، وإجابة لنفرة طبيعته من أقاربه، واكتفاء بشكر الأباعد الذين لا شبهة لهم فى ادعاء الحق فى هذه النعم التى وصلت اليهم من ناحية البعيد عنهم.

أرأيت كيف كان إيتاء ذى القربى محتاجا للتنصيص عليه بعد ذكر الاحسان مع أنه داخل فيه؟ نعم : إن الانسان لينتظر الشكر ممن أحسن عليه ، وما هو بواجده غالبا عند أقاربه ، بل ربما يرى أنه مهما أعطاهم فهو غير مرضيهم ، ويرى تطلعهم الى أكثر مما وصلت اليه أيديهم ، فينفر من إعطائهم ، ويبحث عن طريق إحسان هو أحب الى نفسه ، ولكنه ليس أحب الى الله . كيف وهذا الذى يلمحه الأقارب الفقراء فى قريبهم الغنى له حظ من النظر يجب أن يراعيه القريب الغنى ولا يغضى عنه عينه ، فلو شاء الله لعكس القضية وجعل غنى الأسرة فقيرا وفقيرها غنيا ! فيجب أن يكون مظهر الشكر هو ما يظهر فيه الاعتراف بالنعمة وتقديرها بمقدارها اللائق بها . ثم انظر الى ما يترتب على ذلك من صلة الرحم وجمع القلوب التى إذا تفرقت أبت إلا الانقياد للشرور ، ومطاوعة الشيطان فى وساوسه ، فتحرشت بغنيها حسدا وحقدا ، وقابلته على حرمانه عداوة وبغضا ، وإذا استطاعت قايضته منه أذى وفتكا . وقديما قال الأول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

فإيتاء ذى القربى إحسان فى الإحسان يجعله فى الموضع اللائق به الكثير التطلع له ، وهو إحسان الى النفس بعطف نفوس الأقربين عليها وإصفاء محبتهم لها ، وإحسان الى الغير بالترفيه عنهم ، وإزالة أدواء الحقد والحسد والبغض من نفوسهم ، واستبدالهم بها حبا وودا وصداقة .

وأما الثلاثة المنهى عنها فقد قال تعالى فى شأنها : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ومعلوم أن المنهيات فى الشرع أمور كثيرة ، ولكن هل يغيب عنك أنها ترجع الى أصول ثلاثة كما قرره علماء الأخلاق وأصحاب علم النفس ؟ لقد قرر العلماء قديما وحديثا أن فى النفس الانسانية قوى ثلاثا هى منشأ ما يصدر عنه من آثار خيرية أو شرية ، تلك هى القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة المفكرة . فالأولى لجلب النافع ، والثانية لدفع الضار ، والثالثة للتمييز . وأطالوا فى بيان اعتدال كل قوة واعوجاجها

بميلها الى جانب التفريط أو الإفراط ، وردوا كل أثر يظهر من الانسان أو خلق يرسخ في نفسه الى إحدى هذه الثلاث أو الى اجتماع بعضها ببعض ، ومحل استيفاء ذلك التفصيل وما فيه من تشعبات ، فن الأخلاق أو علم النفس . وإنما الذى يعنينا من ذلك هو أن هذه المنهيات الثلاث المذكورة فى الآية الكريمة قد استوفت آثار إفراط تلك القوى واستغرقت حالات طغيانها ، وذلك أعظم مايعنى به المربى المؤدب . أما حالات خمودها فهى وإن كانت مذمومة يتناولها النهى إلا أن العناية بعلاج طغيانها وإفراطها أحق بالقصد .

فالفحشاء والمنكر وإن كان كل منهما يطلق على سبيل التوسع على كل جريمة فاحشة ينكرها الشرع والعقل ، إلا أن لفظ الفحشاء أكثر ما يتبادر منه طغيان القوة الشهوية وبخاصة جريمة الزنا ، وهى من باب إفراط تلك القوة . ويلتحق بها فى الفحش السرقة والشره وأمثالها مما يكون ارتكابه موجبا للخزى ، ويستفحش ، ويحتقر فاعله ويستحيي صاحبه أن ينسب اليه .

وأما المنكر فأكثر ما يطلق على مظهر الإفراط فى القوة الغضبية ، كالقتل والإيذاء والتعديات على الغير استنادا الى جانب القوة ، وذلك ما يسمى بالقوة السبعية كما يسمى الأول قوة بهيمية .

فكلمتا الفحشاء والمنكر تتناولان كل الجرائم المخلة بالعفة ، وهى اعتدال القوة الشهوية ؛ والمخلة بالشجاعة وهى اعتدال القوة الغضبية . وإذا كانت الكلمتان أظهر فى النهى عن الجرائم التى تعتبر من باب الطغيان فى هاتين القوتين أى الميل الى جانب الإفراط فيهما ، فذلك لأن الطغيان والإفراط أحق بالزجر من الضعف والتقصير والتفريط ؛ فربما كان منشأ ذلك عجز المرء عن معنى الدفاع ، أو جلب ماله به انتفاع .

فتراهما كلمتين وجيزتين قد استغرقتا المنكرات المنهى عنها من باب الأعمال ، ولم يكد يشذ عنهما إلا القليل النادر . وإن شئت ضربت لك بعض الأمثلة بالجرائم

التى ترجع اليهما عند التأمل . واعتبر جرائم اللسان مثلا كالكذب وشهادة الزور والغيبة والنميمة : فهل يحصل الكذب غالبا إلا للتوصل لمنفعة أو دفع ما يظن فيه الضرر؟ وهل تقع شهادة الزور إلا لتحليل حق لغير مستحقه ، أو حرمان ذى حق من حقه ؟ وهل يقدم عليها صاحبها إلا انتظارا لجلب منفعة من المشهود له ، أو لإيقاع أذى بالمشهود عليه ؟ وهل ترى النميمة إلا محاولة لإيذاء الآمنين الوادعين بإيقاع الخصومات والعداوات بينهم حتى يصل أذى كل منهم لصاحبه فيشتفى النمام بما جلبه عليهما من ضرر وأذى ؟ والمغتاب : هل يسعى إلا لانتقاص منزلة من يغتابه وجلب الحقارة إليه ، وفى ذلك من الإضرار به ما فيه ؟ وهكذا إذا تأملت فى معظم الجرائم العملية وجدتها بسبب متين من طغيان القوة الشهوية البهيمية ، أو الغضبية السبعية . وكلمة الشهوية نريد بها مايتناول طموح النفس الى كل ما تشتهيه من مأكل وملبس ومركب وإحراز مال وما يماثلها . وكذلك الغضبية نريد بها كل ما يرجع الى الاستطالة بالقوة والجبروت ، وإيصال الأذى من أى نوع كان .

وأما البغى وهو الخصلة الثالثة المنهى عنها فرجعه الى طغيان القوة المفكرة أو النفس الانسانية ، أو الشيطانية كما هو اسمها إذا طغت وأفرط فيها صاحبها . وترجع الى الجرائم الخلقية والغرائز النفسية ، كالكبر ، والزهو ، والعجب ، والخيلاء ، واحتقار الناس والاغترار بالنعم ، والاعتزاز الممقوت . هذه جرائم تجنح إليها النفس الشريرة الشيطانية لا من باب جلب نفع أو دفع ضر ، وإن كانت كثيرا ما تلابس ذلك ، ولكنها ترجع الى ما فى الطبيعة النفسية من الميل الى العلو وحب العظمة ؛ وهذا المعنى إذا ما اعتدل عند صاحبه كان عزة وشمما ، وصيانة واحتشاما ، فاذا ما زاد عن حده أصبح صلفا وتيها واستطالة وكبرياء . وأصل البغى الطلب ، ولكنه غلب فى طلب ما ليس بحق استنادا على القوة واغترارا بالعزة واستعلاء على الغير ، كما فى قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » . وعلى هذا تجد كلمة البغى فى الآية الكريمة قد أتت على القبائح

النفسية والجرائم الخلقية . حتى لا يشذ عن تلك المنهيات شيء لا عملي ولا خلقي . وقانا الله كل شر ، ووفقنا للعمل بما يرضيه .

وبعد : فلعل السر فى ترتيب المنهيات على هـذا الوجه أن أخس الجرائم ما رجع الى القوة البهيمية ، ولذلك يخزى منه من نسب اليه ، ولا يكاد يقترفه إلا خلسة وخفية . ويليه مايرجع الى القوة الغضبية السبعية ، فترى بعض المجرمين يباهى بارتكابه ولا يردعه عن المجاهرة إلا خوف العقوبة . أما ما يرجع الى القوة الشيطانية من التطاول والترفع على الناس ، والصلف والتيه والكبرياء ، فتجد صاحبه فخورا به مباهيا مزهوا . فكأنه بدئ فى الآية بالتنزيه عن أخس الصفات ، ثم بالتطهير مما قد يرتكبه البعض جهارا ، ثم باستئصال كل مالا يليق التصاقه بنفس العبد المؤمن الخاضع لربه ، القائم بحق عبوديته .

قال تعالى : «يعظكم لعلكم تذكرون» الوعظ التنبيه لما ينفع . والفرق بين التنبيه والتعليم أن التعليم تحصيل العلم بما لم يسبق شعور به ؛ وأما التنبيه فهو لفت نظر النفس الى ما هو كامن عندها أوماهو بمنال منها بحيث تحرزه عند الالتفات اليه . وكأن اختيار لفظ يعظكم فى هذا المقام للدلالة على أن هذه المأمورات وهذه المنهيات هى الباب الذى يصل بنفوسكم الى ما هيئت له من رقى الى مناسبة العالم الملكى ، وهو المخلص مما يتهددكم من تدهور وانحطاط الى العالم الشيطانى أو البهيمى ، وأنه قد فطر فى نفوسكم من غريزة العقل وقوة التمييز ما إذا أحسنتم استعماله أوصلكم الى طريق هذا الخير ، فما أمركم إلا بما فيه رشادكم ، وما نهاكم إلا عما فيه فسادكم ، ومن حقكم لو أحسنتم التأمل أن تعرفوا ذلك من أنفسكم .

أفلا تذكر ما قدمناه لك فى أول هذه الكلمة عن أكثم بن صيفى من أنه أمر قومه أن يكونوا فى هذا الأمر رأسا ولا يكونوا فيه ذنبا ؟ أفيشك أحد فى أن منشأ ذلك أنه أمرهم بما ترتاح اليه العقول السليمة ، ونهاهم عما تنفر منه النفوس الكريمة ؟ من هذا كان المقام مقام التعبير بكلمة يعظكم أى ينبهكم الى ماحقكم أن تعلموه « لعلكم

تذكرون » أى لعل هـذا التنبيه يدعوكم الى أن تعودوا الى نفوسكم فتذكروا ما ينفعكم وما يضركم ، وتطبقوا ذلك على ما يلقى اليكم من ربكم ، فتعلموا أنه الحق ، وأنه قول رسول أمين ، ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين .

ولعظيم خطر هذه الآية الكريمة اختار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن يختم بها الخطبة الثانية من يوم الجمعة بدل ما كان يضعه خلفاء بنى أمية وأتباعهم من ختم خطبتهم بسب على كرم الله وجهه ، وما زال متبعا للآن . وكذلك روى أنه كان يتلو قوله تعالى : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » . والله أعلم ؟ ابراهيم الجبالى

من لطائف عمر رضى الله عنه

قصد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الحج فى سنة من السنين وهـو أمير المؤمنين ، فلما كان بمكان يقال له ضجنان قال : لا اله إلا الله العلى العظيم ، المعطى من شاء ما شاء ، كنت بهذا الوادى فى مـدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة ليس بينى وبين الله أحد (أى أنه بلغ أرقى الرتب فى الحكم) ثم تمثل بقول الشاعر :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته — يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه — والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له — والجن والأنس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها — من كل أوب اليها وافـد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب — لا بد من ورده يوما كما وردوا

وكان عمر رضى عنه يستعذب الشعر الفحل ويستشهد به ، وقد أوصى بالاعتداد به فقال : « رووا أولادكم الشعر تتهذب طباعهم ، وترق ألسنتهم » .

وفى هذا ما فيه من تشجيع الأدب البرىء

وكان له نظر فى الشعراء ، فقد قال يوما لبعض جلسائه من أشعر الناس ؟ فرد كل منهم بما رآه . فقال : أشعرهم من يقول : من ومن ، يعنى زهير بن أبى سلمى .

ما يقوّم المدنيات وما يفسدها

من أخص مباحث علم الاجتماع ، الأصولُ التى تقوّم المدنيات وتحفظها ، والعلل التى تفسد كيانها وتدهورها . وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأصول وتلك العلل قبل أن تدور بخلد الحكماء بقرون كثيرة .

الأسس الأولية لعلم الاجتماع هى ما كشفه النظر من أن الأمم كائنات حية ، وأنها تولد وتموت ، وأن لارتقائها وانحطاطها سننا طبيعية مقررة ، وأن أعمال آحادها وحالتهم النفسية ، تؤثر فى حيوية الاجتماع قوة وضعفا . وأن العلل الاجتماعية تقبل العلاج ، وقد تستعصى عليه إذا اشتدت ، وتكون سببا فى هلاك الأمة .

هذه الأسس يعدها مؤرخو العلم من فتوحاته فى القرن التاسع عشر ، وهى فى الواقع من فتوحات القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولسنا فى هذا الحكم بظانين ، فسيمر بك فى صلب هذا الموضوع من وجوه البسط والتطبيق ، بين أصول علم الاجتماع وآى الكتاب ، ما لا يدع لك شكا فى أن الوحى قد سبق العلم الى تقريرها ، وزاد عليه ما عجز مجرد النظر عن الوصول إليه .

قامت فى الأمم مدنيات كثيرة يرجع تاريخها الى نحو ستة آلاف سنة ، أشهرها المدنيتان المصرية والهندية ، ويزعم الصينيون أن مدنيتهم أبعد منهما عهدا ، وأنها تبلغ من السن أربعين ألف سنة ، ولكن العلم لم يحقق هذا الادعاء بعد .

كل هذه المدنيات تبدأ بنهضة فكرية ، وحركة أدبية ، تسوق الأمة الى تجديد ما رثّ من أوضاعها القومية ، وما بلى من مقوماتها الاجتماعية ، فتندفع الى الأمام بقوة لم تكن لها من قبل ، ويكون أمرها فى هذا الاندفاع كما لو حلت بها روح جديدة .

هذا الدور الذى يسمى بدور الانتقال هو أكثر الأدوار تأثيرا فى مصيرها ،

لأنها تكثر فيه من الهدم والبناء ، فقد يتفق أن تهدم ما حقه البقاء ، وأن تبنى ما حقه الزوال ، وتتسرب الى الأمة فى هـذا الدور أخلاق جديدة تتخيلها ضرورية ، وهى فى حقيقتها جراثيم أمراض قتالة يتفاقم شرها ، وتشتد أفاعيلها ، فتظهر أعراضها فيما ينتابها من علل اجتماعية ، كذيوع الإباحة ، وشيوع الفحشاء ، وانتشار العزوبة ، وتبرج النساء ، وفساد أخلاق الشبان ، وكثرة البطالة ، ونضوب معين الثروة ، فلا تلبث الأمة أن ينسخ وجودها ، وتزول كوحدة من وحدات الاجتماع العام .

وقد والى الله تعالى إرسال الرسـل الى البشر لتتولى الأمم فى أدوار تدهورها بالهداية والإرشاد ، لتتلافى وجودها من الانحلال ، وتتدارك بناءها من التداعى ، فنها من استفادت من هذه العناية الإلهية بها ، فرأبت صدوعها ، ولأمت جراحها ، وتابعت البقاء الى حين ؛ ومنها من هزئت بالقائم بالدعوة وأنكرت رسالته ، ودابرت ما أتى به ، فتحيفتها العلل ، وما زالت بها حتى ألحقتها بالغابرين . والى هذا يشير الكتاب الكريم فى قوله تعالى : «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » وقوله تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين» .

فالاسـلام يقرر أن سبب هـلاك الأمم الذنوب التى يرتكبها آحادها ، وعـلم الاجتماع يقول إن علته هى تدهور الأخلاق ، ونضوب معين الفضائل ، ومؤدى العبارتين واحـد ، وهو أن الصفات الأدبية للأفراد تؤثر فى كيان الأمم فـتركبها أو تحللها ، وتصححها أو تسقمها ، والمدار فى هذا كله على نفسية الأمم ، فهى العامل الأول فى إعداد الأمم لقبول الصفات التى يقوم عليها بناء الاجتماع كله . وقد أنفق علماء النفس والباحثون مدادا كثيرا فى تحليل هذا الموضوع وتمحيصه ، حتى شاعت كلمة النفسية شيوعا لا حد لسريانه ، وأصبح كل كاتب ومتكلم يلوكها باعتبار أنها من الأطروفات

الفلسفية الجديدة ، ولم يعلموا أنها من فيض القرآن . قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فانظر كيف أوجز الحق ناموسا اجتماعيا خطيرا فى كلمات معدودة تقوم مقام المقالات المستفيضة ، وتفعل فى النفس عمل البداهات العقلية ، والمسلمات العلمية ؟

وقد أصبحت تربية النفوس الشغل الشاغل لعلماء الاجتماع ، فقد ثبت أن العلم وحده يعجز عن تقويم النفسية ، بل ربما كان سببا فى تغلغلها فى الشر ، بما يفتحه على الانسان من وسائل العمل ، وأساليب السبك والحيل ، وهذا يوافق ماصرح به القرآن الكريم فى قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ؟ » .

فرجعت المسألة الى النظر فى الهوى وما يجره على الانسان من مضار وكيف يمكن إسقاطه والتخلص منه ، ولا سبيل الى ذلك إلا بتربية القلب ، فهو الذى يستطيع أن يخلص الشخصية الأدبية للانسان من تسويلاته وإغواءاته ، وانحصر جهد الفلسفة اليوم فى ذلك ، وهو ما نطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى فى وجوب تربية القلوب : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، وقوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . ثم زاد هذا الأمر تشديدا فعلق النجاة على سلامة القلب من الآفات ، فقال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

الخطأ الكبير الذى وقعت فيه هذه المدنية الحديثة عدم اعتدادها بالدين ، واعتبارها العلم كافيا فى توفير وسائل الحياة المادية ، وتطهير القلوب من آفاتها الأدبية . فلما تبين لزعماء هذه المدنية تصدّع هذا البناء لخواء النفوس من العقائد ، قام جمهور من فلاسفة أوروبا ووضعوا دينا أسموه بالدين الطبيعى ، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وتنزهه ، والإيمان

بحياة روحية بعد هذه الحياة، ينعم فيها الانسان بثمرات أعماله فى حياته الدنيا ؛ وقرروا وجوب التخلق بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية ، ولكنهم خابوا فى مسعاهم هذا، لأنهم لم يدعوا الناس الى هذه المبادىء باعتبار أنها وحى من عند الله جاء على لسان رسله، وإنما باعتبار أنها قد أدى إليها نظرهم ، فهى من أوضاعهم العلمية والعقلية ، فكانت نتيجة ذلك إهمالها كل الإهمال . وجرى الناس على ما هم عليه من اتباع الشهوات ، والجرى وراء اللذات ، وراجت فيهم أصول الفلسفة المادية ، فعبد الهوى ، وذاعت الغواية ، وركب كل إنسان رأسه فى تطلب الماديات ، لا يلوى على شىء ، حتى إذا جد الجد ، وأصبحت نتائج هذه الانحرافات عللا مستعصية على العلاج ، وامتدت أفاعيلها الى جميع مقومات الاجتماع ، التفت الناس فإذا بهم حيال معضلات تهدد الحياة المادية التى قنعوا بها وجعلوها غرضهم من الوجود ، فأدركوا أن الحياة المادية نفسها لا تستقيم إلا بالقيام على الفضائل ، فتطلبوها ، ولكن أنى لهم الوصول اليها ، وهى تقتضى قمع الشهوة وكبت الهوى ، والشهوة والهوى هما الغرضان اللذان جعلوهما مطمح أنظارهم ، ووقفوا عليهما جميع جهودهم ؟ فالمدنية اليوم على مفترق طريقين : فإما متابعة السير فيما كانت عليه ، وفيه الهلاك المحقق ، وإما اقتفاء أثر الأنبياء والمرسلين ، وهو شديد على نفوس لم تدع لها الأهواء قوة على الرجعى الى الطريق القويم .

لا نحب أن ندع هذه الناحية من البحث حتى نلفت القارىء الى أن علم الاجتماع يعترف بأن الذى يدك صروح المدنيات هو الفساد الذى يتطرق الى الأخلاق ، والأهواء التى تتسلط على النفوس ، فتدفعها الى سبل التمرد والعصيان ، فقوله تعالى : « فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » ، حقيقة علمية فى مستوى البداهات العقلية ، لا يمارى فيها إلا جاهل أو متعنت . فالمدنية لا تقتضى الإباحة الخلقية ، ولا الحرية الحيوانية ، ولا وقف النفس على الأهواء والملهيات ، ولكنها على عكس هذا كله تقتضى أن يحسب أهلها لكل شىء حسابا ، فإن لكل صغيرة وكبيرة نتائج تصيب المجتمع

كله على نسب مقررة لا تختل . فاذا استخفت مدنية بهذه الأصول العامية ، وخاضت غمرات الحياة على غير هدى ، فلاشك فى أنها تحاسب على ما جنته حسابا عسيرا ، وتجد جزاء أعمالها فتنا كقطع الليل المظلم . الى هـذا الناموس الثابت يشير الكتاب بقوله تعالى : «وكأين من قرية عَتَتْ عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نُكْراً » .

إن هـذه الأمم التى تفرِّط فى جنب الأخلاق ، استهانة بها أو شكا فى تأثيرها ، تتورط فى نتائج أعمالها ، وعواقب تفريطها ، فتؤول الى أسوأ منقلب ، وتصبح كأن لم تغن بالأمس ، قال الله تعالى : « أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين » . « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون » . « وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخْذَه أليم شديد» . «فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » . « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد قرر علم الاجتماع أن شئون الأمم تجرى على سنن طبيعية ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة ولا الأمكنة ، وأن ما تلقاه أمة من نتائج أعمال آحادها ، هو ما تلقاه وما لقيته جميع الأمم ، وأن ما تدخل فيه من الأطوار هى نفسها الأطوار التى دخلت فيها من تقدمتها ، وأن الحزم كل الحزم هو أن تدرك الجماعات هذه الحقائق فتأخذ لنفسها الحيطة قبل أن تتورط فيما تورطت فيه من سبقتها ، وأن سبيل ذلك أن تتعرف أحوال الذين استعمروا الأرض قبلها بالاطلاع على تواريخهم ، وما وجدوه من عنت الحياة فى دورهم ، ليكون لها من وراء ذلك عقل يرشدها الى ما يجب أن تأخذ به من التعاليم الحكيمة ، والأخلاق القوية .

هـذا ما قرره العلم فى القرن التاسع عشر ، وقد سبقه الوحى الإلهى اليه بنحو

اثنى عشر قرنا ، فقرر القرآن الكريم هذا كله بأفصح عبارة ، وأوضح إشارة ، فقال تعالى : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . وفى آية أخرى : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . وفى آية أخرى : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

من هنا يرى قارئونا أن الوحى الإلهى قد سبق العلم الى بيان أصول العلم الاجتماعى وأسرار حياة الأمم ، وما يصلح المدنيات وما يفسدها . فاذا كان من الناس من يخيل اليهم أن المدنية من لوازمها تجاوز حدود الأخلاق ، والوقوع فى الإباحة ، وأن ما فيها من فنون وصنائع وذرائع تستطيع أن تحفظها من نتائج هذه الصفات السافلة ، فقد منّوا أنفسهم بالمحال . ولما كان هذا الأمر يهم الهيئة الاجتماعية حكامها ومحكوميها على السواء ، فقد وجب عليهم أن يتعاونوا على درء كل فساد خلقى يسبب للمجتمع علة تصيب نارها الجميع : « واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » .

فالقرآن الكريم كما ترى هو موجد علم الاجتماع بأخص معانيه ، وليس موجده ابن خلدون فى القرن الثالث عشر ، ولا أوجست كومت فى القرن التاسع عشر : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثرَ شىء جَدَلاً » ؟

محمد فريد وجدى

تأثير الشعر فى النفوس

كان بنو أنف الناقة يكرهون أن يدعوا بهذه النسبة حتى مدحهم الحطيئة بها ، فانقلبت كراهتهم لها الى افتخار بها . أما قول الحطيئة فهو :

سيرى أمام فان الأكثرين حصى ... والأطيبين إذا ما ينسبون أبا
قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

ما السر فى أن الانسان يدعو فلا يستجاب له

وما فائـــدة الدعاء

جاءنا هذا السؤال وفيه تلك الأبيات :

ما قولكم فيمن دعا ودعا الكريم تضرعا
وبكى بدمع هاطل عاما وزاد أربعا
يدعو المجيب بحرقة متوسـلا متطلعا
حفظ الدعا وشروطه ودعا بخير طامعا
ومضى يمنّى نفسه ورجا عطاءً واسعا
فإذا بنحس جاءه واليأس كان اللاذعا
وإذا ببؤس هاله والعسر زاد وروعا
فتحيرت نفس الفتى يدعو فيعكس ما دعا
وتوجعت وتساءلت فى أمر ربى بالدعا
حزن الفتى متألما يبكى ويندب طالعا
يشكو الحياة وذلها يشكو زمانا روعا
وتأثرت من جرحه نفس الفتى فتزعزعا
هل بالدعاء زيادة تأتى وتبقى مرتعا
أو بالسكوت شقاوة ؟ نرجو جوابا مقنعا
كل الشواهد أيدت لا سعد يأتى بالدعا
لكن ذا متعارض بدليلٍ ادعوا تضرعا
أقدار ربى قدرت قبل الخلائق أجمعا

عبد الظاهر العمرى
بساقلته مركز أخميم مديرية جرجا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه . « ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

يظهر أنك يا أستاذ متشبع بأن الدعاء لا فائدة فيه ، وهو غلط محض من وجوه عديدة :

أما أولا ، فلأن الإجابة لها شروط كثيرة وموانع عديدة ، والأمر المطلق فى قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » مقيد بما فهم من الكتاب والسنة ، مثل الحديث الصحيح الذى فيه : « إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له » ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : « لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ؛ ومثل قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه » ؛ ومثل ما بين من أوقات الإجابة وأسبابها ؛ ومثل ما ورد من أن الداعى يستجاب له ما لم يستعجل : يقول : دعوت الله فلم يستجب لى . فهذا كله يفيدنا أن قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » ليس على ما تفهم من العموم الذى ينقدح فى نفسك .

وأما ثانيا ، فلابد فى الحكمة الإلهية من أن تكون مستعدا لما دعوت به ، وقد فسر بذلك قوله تعالى : « إنه لا يحب المعتدين » . ويقول بعضهم فى قوله : « ادعونى أستجب لكم » أى ادعونى بلسان الحال لا بلسان المقال . وسر ذلك أن الإمداد على قدر الاستعداد . ويقول سفيان الثورى وهو من كبار أئمة السلف وشيوخ الحديث : « إن الدعاء هو ترك الذنوب » .

وأما ثالثا ، فالداعى إما أن يجاب بعين ما طلب ، وإما أن يجاب بغيره . ثم هو بعد ذلك إما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يؤخر الى الآخرة (والآخرة خير وأبقى) .

فعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن الداعى لا بد أن ينال خيرا بدعائه، فإما أن يعجل له ما دعابه فى الدنيا، وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يكفر من ذنوبه بقدر مادعا، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل. قالوا يا رسول الله: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول دعوت ربى فلم يستجب لى».

ولكنك لا تريد من إجابة الدعاء إلا حصول مطلوبك أيا كان، مقدسا علمك، متحكما على ربك، وليس هذا شأن المؤمنين الذين يعتقدون أن الله أحكم الحاكمين. فإن لم تعرف الحكمة فقلد من يعرف الحكمة:

يا حاكمى وحكيمى أفعالك الكل حكمة

وأما رابعا، فقد أتيت فى صريح كلامك بما يمنع إجابة الدعاء، فقد سمعت فى الحديث أنه يجاب للداعى مالم يستعجل: يقول دعوت الله فلم يستجب لى. وأنت تقول ذلك وتقرره وتكرره. وعندك مانع آخر: فإن على الانسان أن يدعو وهو موقن بالإجابة.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» أخرجه الترمذى. وأما أنت فيظهر أنك لا تدعو إلا وأنت شاك مضطرب كأنك تجرب ربك!

وأما خامسا، فللدعاء موانع كثيرة وآداب عديدة. ومن أكبر موانعه أكل الحرام الذى لم يدع بيتا إلا دخله، ولا جوفا إلا أصاب من صريحه أو مشتبهه.

ومن شروط الدعاء الإخلاص؛ وأن لا يدعو وقلبه مشغول بغير الدعاء؛ وأن يكون المطلوب بالدعاء شيئا لا يتعارض هو والمصلحة الخاصة أو العامة فى حكمة الله تعالى، وأن لا يكون فيه قطيعة رحم، الى غير ذلك.

وأما سادسا، فالأمور كلها موكولة لمشيئة الله تعالى، الذى هو أعلم بمصالح خلقه، والذى لا يحابى أحدا فى باب المصلحة التى يقتضيها العدل والنظام.

ولو فرضنا أن حكومة من الحكومات سارت مع أهواء الناس فأعطت كلاً ما يطلبه من غير مراعاة الحكمة لاختل أمرها، وانتقض بناؤها ، وفشت ضروب الفوضى فيها . وقد أشار الى ذلك القرآن بقوله : « ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

سابعا ، أما تشبثك بالتقدير الأزلى فليس فيه غناء ، ولا فى دفعه عناء ، فإن الأسباب مقدرة كالمسببات ، والعالم كله مبنى على الحكمة ، ولذلك كانت الأسباب مشروعة أو واجبة . وهل إذا قلنا إن فلانا قدر له أن يلد ولدا : فهل يكون معنى ذلك أنه يلده بغير زواج و بلا سبب ؟ أو أن فلانا قدر له أن يكون من الأغنياء : فهل معنى ذلك أن غناه يتم له بلا تجارة ولا زراعة ولا صناعة ؟ الى غير ذلك من الأسباب التى قام عليها نظام الكون ؟ لا يا أستاذ ! إن معنى ذلك أن كل شىء جعله الله فى هذا الوجود على قدر مخصوص وبكيفية مخصوصة وسبب معين ووقت محدود الخ . وهو يعلم ذلك أزلا . فالأشياء محاطة بتلك الحدود التى يعلمها الله تعالى لا يمكن أن تتخطاها . وليس معنى ذلك أن الأسباب غير مفيدة أو غير مشروعة ، فإن الأسباب من المقدر أيضا كما قلنا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الرقَى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هى من قدر الله » أخرجه أبو داود والحاكم . ونحوه قول عمر لأبى عبيدة : « نفر من قدر الله الى قدر الله » يشير الى أن الأسباب مقدرة ، وتوصيلها الى مسبباتها هو من قدر الله ، كما أن الأسباب مقدرة بأسبابها .

وصفوة القول أنك لا تخرج عن القدر فى جميع تصرفاتك ، فإن الله يعلم ما ستفعله بعد وجودك ، وما تستعمله من الأسباب التى جعلها طريقا لمسبباتها ومنها الدعاء . فالكل مقدر معلوم ، ولا تعارض بينه وبين الاختيار ، ولا ما تسلكه من شتى الأسباب ، فأى منافاة بين القدر واستعمال الأسباب يا حضرة الأستاذ ؟!

هـذا وعليك أن تعرف أن لله قوانين كثيرة لا يحيط بها محيط : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فاتهم عقلك ، ولا تتهم ربك ولا نبيك ؛ واعلم أن السعادة كلها والعلم كله والحق كله إنما هو فيما جاء به الأنبياء . وقد ساءنى جدا قولك :

كل الشواهـد أيدت   لا سـعد يأتى بالدعا

ولو أنصفت لقلت :

نحن ندعو الإله فى كل كرب   ثم ننساه عند كشف الـكروب

كيف نرجـو إجابة لدعاء   قـد سددنا طريقها بالذنوب

وماذا تصنع يا أستاذ فى قول القرآن : «وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم » ، وفى حق يونس : « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمـين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين . وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنـا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » وفى حق نوح : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى المـاء على أمر قد قدر » الى غير ذلك وهو كثير ؟

وماذا تصنع فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من فتح باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وإن الدعاء ينفع ممـا نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء » أخرجه الترمذى . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى فى حاجة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » أخرجه الترمذى . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله : أى الدعاء أسمع ؟ قال : « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » أخرجه الترمذى . وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « ما من دعوة أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب » . أخرجه أبو داود والترمذى . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك مثله » أخرجه مسلم وأبو داود . فماذا تقول فى ذلك كله ؟

وبعد : فإن الله يسوق السحاب من الأقطار البعيدة ببركة دعاء المسلمين فى الاستسقاء عند انحباس المطر . ولئن كنت جربت عدم إجابة الدعاء (والمانع منك) فقد جرب غيرك إجابة الدعاء فيما لا يحصى من الوقائع . فارجع الى نفسك باللوم ، واقرأ قوله تعالى : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، وقوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » « قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » اللهم اجعلنا ممن سمع فوعى ، وعلم فعمل ، ثم راقب فأخلص ؛ وأزل قساوة قلوبنا ، وأنزل علينا سكينة من عندك ، حتى نطمئن لوعدك ، ولا نفرط فى عهدك .

هذا وقد قال على كرم الله وجهه : « لو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم ، فزعوا الى ربهم بصدق من نياتهم ووَلَهٍ من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد » ويقول : « إن من الإيمان ما يكون ثابتا مستقرا فى القلوب ؛ ومنه ما يكون عوارى بين القلوب والصدور الى أجل معلوم . ويقول الله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » ويقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ، ويقول : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين » ، ويقول : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » ويقول : « لتُبلونّ فى أموالكم وأنفسكم » ،

ثم يقول فى آخر الآية : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » الى غير ذلك وهو كثير .

ومما له اتصال بهذا المقام قوله تعالى : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون » ويقول : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » . ويقول : «سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » ويقول : «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » . فما أجدرنا أن نقول لك :

أيها الانسان صبرا إن بعد العسر يسرا
اشرب الصبر وإن كا ن من الصبر أمرا

أو نقول :

إذا أعطى فقد أرضى ولكن إذا أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا وأحمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت سرورا أم الأخرى التى أهدت ثوابا ؟

أو نقول :

إن الأمور إذ التوت وتعقدت نزل القضاء من السماء فحلها
فاصبر لها فلعلها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

ولكن :

كم قد سمعنا من الآثار والحكم لكن بأذن عن الإنذار فى صمم
همنا بوادى المعاصى آنسين به فالقلب من ظلمة الوادى الوخيم عمى
إنا لنعرف ما نسمو به عظما لكنَّ أنفسنا تأبى من العظم
أدلة الحق كالأعلام ظاهرة لكنَّ غفلتنا تعمى عن العلم

يا نفس وقتك سيف فى يدى أمل   إن كنت نائمة فالموت لم ينم
جدى وكونى على الخيرات عاكفة   وخالفى مرتع العصيان والظلم

وما أكثر ما يفتح الله به للمستعد من الفيض الإلهى الذى يورث النور ويزيل الغرور!

نسأل الله أن يعرفنا قصور عقلنا، وضيق علمنا، وكبير ضعفنا، وعظيم جهلنا بمنه وكرمه!

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

ان من البيان لسحرا

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال:

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال الزبرقان: يا رسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم، آخذ لهم بحقهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا يعلم ذلك، يعنى عمرو بن الاهتم.

فقال عمرو: أجل يارسول الله: إنه مانع لحوزته، مطاع فى عشيرته، شديد العارضة فيهم.

فقال الزبرقان: أما إنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدنى شرفى.

فقال عمرو: أما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن، زمن المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى. فرأى الكراهة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله.

فقال عمرو: يا رسول الله: رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الثانية.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة.

عمرو بن الأهتم هذا كان يلقب بالمكحل لجماله، وبنو الأهتم أهل بيت بلاغة فى الجاهلية والاسلام. وعبد الله ابنه هو جد خالد بن صفوان وشبيب بن شبة المشهورين بالخطابة.

السنة

الحث على العمل وقوة العزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدرُ الله وما شاء فعل ، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » . أخرجه مسلم .

نعم : علو الهمة من الإيمان ، والكدح فى العمل مع الاستعانة بالله من أعظم نعم الرحمن على الانسان . لقد نرى قوما يزعمون أن معنى التوكل على الله الجنوح الى الكسل والرضا بالقعود فى الزوايا ، منصرفة قلوبهم الى الأمانى ، عاجزة هممهم عن الأعمال ، ولكن أجسامهم قادرة على نقل الجبال . فهؤلاء قد سلك الشيطان من نفوسهم مسلكا جعلهم منقادين له مطيعين لأوامره ؛ وهو يوسوس لابن آدم من الشر بما يرى أنه ناجح معه فيه ، موافق لرغباته فى الاستماع اليه ؛ فإذا أتى واحدا من ناحية تزيين الشهوات ، جاء آخر من قبل تحبيذ التعدى والاستطالة ، وصوّر له الفخر كل الفخر فى الإيذاء ، وجعل له ذلك مصدر العلاء . ويجيء لثالث فيصور له السعادة فى التكالب على الدنيا وإحرازها من أى طريق : حل أو حرم ، عدل أو ظلم . ويجيء لرابع فيزهده فيها وينفره عنها ، ويرضيه أن يكون عالة على أبنائها يعولونه وهو قادر ، ويطعمونه

وهو أهل لأن يطعم العشرات لو أراد وعمل . ومتى رأى إبليس اللعين انقياد الانسان اليه بأى أسلوب ، بادر الى تزيينه وتصويره له بصورة الخير ، وذلك أخطر ما يدخل به على الناس .

لقد يقتحم ابن آدم شيئا من أعمال الشر عالما أنه شر ، ولكنه ينقاد فى ذلك لحركة شهوية أو ثورة غضبية ، فيستغفر الله من ذنبه وقتا ويتوب الى رشده ، فيكون ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم . ولكن الويل كل الويل لمن عميت بصيرتهم ، واستحكمت شقاوتهم ، فزعموا الشر خيرا والخير شرا ، والنفع ضرا والضر نفعا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

نعم : قد وردت أحاديث كثيرة ، وآثار شهيرة ، ترغب فى الزهد والقناعة ، وتنفر من التكالب فى الدنيا ، ولكن ليس معنى ذلك أن يكف المرء عن العمل المفيد المنتج الموسع لدائرة العمران ، واستخراج ما بث الله فى هذا الكون من خيرات وثمرات ، بطريق الزراعة والصناعة وما أشبههما ، وإنما معناه أن يكون مقتصدا فى الطلب ، فلا يضيع دينه فى تحصيل دنياه ، ولا يجلب دنياه من حيث حرم الله ، ولا يكون فى سعيه وكده ظالما باغيا ، ولا جبارا طاغيا ، وأن يكون فى استمتاعه بما أنعم الله عليه معتدلا : فلا يكون مقترفا للحرام ، ولا مسرفا فى تناول الحلال . هذا هو المذموم فى أمر الدنيا . أما السعى لتحصيلها من وجوه حلها وأداء ما فرض الله على عباده الذين أنعم عليهم بنعمها ، والاستمتاع بالطيبات من رزقها ، فلم يقل بذمه ولا تحريمه أحد : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ترى العاجز النكس ، الضعيف النفس ، قد ركن الى القعود والكسل ، ورضى بمسامرة الأمانى وغرور الأمل . امتلأ قلبه من حب الدنيا والتطلع لملاذها ، وذابت نفسه حسرات على إحراز القليل والكثير من خيراتها ، ولكنه ضعفت همته وصغرت نفسه ، فجعل نفسه عالة على غيره ، يتطلع لما فى الأيدى ، ويتردد على الأبواب ،

ويقعد على الأعتاب ، ويتمرغ فى التراب . عمد الى التجول للتسول ، وأصبح وأمسى يذرع الأرض شرقا وغربا ، يقاطع المارة فيعطلهم عن مقاصدهم ، ويزعج بصيحاته المنكرة أولئك الوادعين ليستريحوا بعد أداء أعمالهم ، لا يكل ولا يمل ، ولو صرف بعض هذا الجهد فى عمل نافع لدرّ عليه ما يصون ماء وجهه . ولقد يبتكر أحدهم من ضروب الحيل والتغرير ما يحتاج الى فضل ذكاء لو صرفه فى النافع لأفاد واستفاد . فهم يصرفون من الجهد العقلى والبدنى ما لو وفقوا فى صرفه لكان خيرا لهم وللأمة جميعا . ولكنهم رضوا بهذه الصناعة الممقوتة وانخدع لهم ذوو القلوب السليمة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

إن للعبادة حدودا ، لا بل إن من العبادة السعى فى تحصيل الرزق من الوجه الحلال . وقد جاء «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة بطلب المعيشة» . وقد ورد عن عمر رضى الله عنه أن جماعة أثنوا فى مجلسه على رجل بأنه مستغرق كل أوقاته فى العبادة ، وقالوا : إنه خير منّا كلنا ، فقال لهم : فمن يعوله ؟ فقالوا : كلنا نعوله ، فقال : كلكم خير منه . وروى أيضا أنه قال : « لا يقعدن أحدكم فى بيته ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولكن اعملوا » وانظر إن شئت الى قوله تعالى : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » وقوله جل وعلا : « هو الذى جعل لكم الأرض ذَلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقوله تعالى : «وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث ترغب فى الكسب والتعفف عن مسألة الناس — منها قوله صلى الله عليه وسلم : «اليد العليا خير من اليد السفلى» . ومنها أحاديث يقوى بعضها بعضا ، مثل «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء» حسنه الترمذى . « أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح » حديث حسن . « من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقى الله

ووجهه كالقمر ليلة البدر » . « إن الله يحب المؤمن المحترف » . وهذان الحديثان وإن ضعف إسنادهما فإن فى غيرهما ما يشهد لهما ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه » حديث صحيح . وقوله صلى الله عليه وسلم : « من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر » رواه الترمذى بالمعنى وقال : حسن صحيح .

كل هذا وما فى معناه يدلنا على أن روح الدين روح عمل لا روح كسل ، وروح إعطاء للمحتاج العاجز لاروح استعطاء من القوى الكسول . ولا تحسبن من هؤلاء القعدةِ طائفةَ الهداة والمرشدين الذين نصبوا أنفسهم الى إرشاد العباد لما فيه مصلحة المعاش والمعاد ، وأخذوا على عهدتهم معالجة النفوس والأرواح ، وتنقية القلوب من أدران الفجور والشرور ، فهؤلاء مهمتهم فى إسعاد البشر من أشق المهمات وأحقها بعظيم التقدير . ولقد رخص للعاجز الضعيف أن يأخذ ممن آتاه الله من فضله حسب حاجته لا بمقدار ما يجمع ثروة ويعيش فى بلهنية ، ومع هذا الترخيص ، ومع أن الضعف أمر قهرى غالبا ، جاء هذا الحديث الذى معنا يبين فضل المؤمن القوى على المؤمن الضعيف مع جبر خاطره بقوله صلى الله عليه وسلم : « وفى كل خير » فلا حيلة له فيما أصابه من ضعف . وكيف لا يكون فيه خير وقد تحلى بحلية الإيمان الذى هو أساس كل خير ؟

وقد أرشد صلى الله عليه وسلم فى بقية الحديث الى أنه ينبغى للمؤمن أن يحتال ويعمل ما فى وسعه ويبذل كل جهده ، مستعينا بالله وقوته على الوصول لما يريده ؛ فإنه ليس معنى القوى أنه قوى العضلات متين البنية فحسب ، لا بل هذا وإن دخل فى القوة دخولا ما فإن أساس القوة قوة الرأى ، قوة العزيمة ، قوة الهمة ، قوة تصريف الأمور . هذه معادن القوة فى الانسان . أما قوة العضلات ومتانة البنية ، فهى قوة حيوانية محضة ، فالقوى هو من يعمل رأيه الصائب بفكرة صحيحة ، ثم يصمم

عزيمته على إنفاذ ما يريده ، ثم يحرك همته بنشاط حتى يصل الى ما يبتغى ، فاذا اعترضه ما ليس له فى حساب تصرف فى أموره تصرفا حكيما حتى يزيل ما يعترضه من عقبات . هذا هو الحرص الذى أرشد اليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » . فكلمة «احرص» حث على الدأب فى العمل ، وحفز الهمة ، وصدق النية . وليس هذا هو الحرص المنهى عنه ، فذلك هو التكالب ونسيان النفس ما يجب عليها فى سبيل الوصول الى بغيتها ، وفرق ما بين الأمرين . وبعد : فهل قوة الأمة تكون إلا بقوة أفرادها ؟

وقوله : « واستعن بالله » هذا إرشاد الى معنى التوكل على الله ، وأنه يكون مع السعى والعمل ، لا مع التوانى والكسل . روى عن عمر أنه مر على جماعة قعود فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : « بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل » ! ولقد صدق عمر رضى الله عنه ، فإن المرء أكثر ما يملك من استنبات الحب أن يحرث أرضه ويلقى حبه ويتعهد ذلك بالتنظيف والرى وما أشبههما ، أما أن ذلك الحب ينبت أولا ينبت ، فأمره موكول الى الله . وهنا يجىء التوكل فيما لا يد للانسان فى تحصيله ولا قدرة له على إيجاده ، بل هو من محض آثار القادر المختار ، أما قرأت قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون » ؟ هذا هو السر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « واستعن بالله » بعد قوله : « احرص على ما ينفعك » .

ولا يفوتنك التنبيه الى أن الحرص على النافع يتناول كلا من أعمال الدنيا وأعمال الآخرة ، وأن الاستعانة بالله متناولة كذلك لكليهما ، فليس كل عمل يؤتى ثمره ما لم يصحبه المعونة والتوفيق الالهيان ، فكم من عمل فى الدنيا خانه التوفيق فأصبح وبالاً على صاحبه ، وعاد عليه بخسران لم يكن فى حسابه . ومن هذا جاء قولهم : أول ما يجنى

على المرء اجتهاده . وكم من عمل من أعمال الآخرة لحقه الخذلان فكان موجبا للخسران . وآفات النفس ومسالك الشيطان لايكاد يسلم منهما إنسان ، إلا من عصمه الرحمن . وهل يشك أحد فى أن الشيطان قد يجىء المرء من تصوير الشر بصورة الخير حتى يستدرجه الى ما لم يخطر له على بال ؟

وأما قوله : «ولا تعجز» فهو النهى عما يلحق المرء أثناء عمله إذا صادفه بعض العقبات فيقف مبهوتا مكتوف اليدين خائر العزيمة ، وقد آتاه الله من قوة العمل وسعة الحيلة ما يستطيع به أن يفتق لنفسه مسلكا مما أصابه من انسداد الأبواب . وقد قالوا : الكريم يحتال واللئيم عيال . وما منح الله العبد عقلا إلا ليؤدى به عملا ، ولو شاء لجعل الأمر سهلا ، ولكن ليبتليكم فيما آتاكم .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل » فإنه إرشاد الى أمرين عظيمين على جانب كبير من الأهمية فى شئون الحياة : (الأول) الإبعاد عن الندم على ما فات . و(الثانى) الطمأنينة لما قدر الله والرضا به مع استقبال الكثير الغزير من نعمه . فأما الندم والتلفت للماضى بالحسرة تتبعها الحسرة ، فهو مميت للهمم مخمد للعزائم ، كاسر للنفس ، مضيع لحركة العقل فى جلب النافع ودفع الضار . تجد النادم المنهزم قد قعد كاسف البال خامد القوة مضعضع الحواس مغتما ، بينما ترى الراضى بالقدر متقد العزيمة مشمرا عن ساعد الجد مهتما .

وهنا لا نرى بأسا من أن نشرح ما قالوه فى التفرقة بين الغم والهم : فالأول أن تنزل على النفس غمة تكبسها وتضعضعها وتفقدها الحركة وتجعلها مستكينة ضعيفة خائرة ، فهو من الغمة . وأما الثانى فهو من هم بالشىء تحركت نفسه له . فهما وإن كانا كلاهما يحصل عن نازلة ومصيبة ، ولكن الغم يسكن النفس عن الحركة ويسكتها عن التفكير ويجعلها تيأس من كل فوز . أما الهم فهو محرك للهمة ، مشعل للعزيمة ، محرك للنفس . ولذلك

قالوا : الغم يقتل والهم لا يقتل. وفرق بعيد بين المغتم والمهتم . فقوله عليه السلام : « وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا » نهى عن الاستكانة والتضعضع وقصر النفس على التلفت للوراء واليأس عن انفراج الكرب بحيلة من الحيل . وأما الطمأنينة لما قدر الله فهي في قوله عقبه : ولكن قل قدر الله وما شاء فعل . ففي ذلك ترضية للنفس بما قدر الله ، وهو يستتبع الموازنة بين ما فقده من هذا الذي كان ينتظره ، وما هو غارق فيه من نعم الله الكثر ، فيرى أن مافاته ليس بشيء بالنسبة للنعم التي يتمتع بها ، فتنشط نفسه الى استقبال نعمه عز وجل ، قائلا لنفسه :

لا تيأسن ولا تخف ودع التفكر والأسف
الله عودك الجميـ ـل فقس على ما قد سلف

وهذا مثار للنفس لتتحرك فيما ينفعها ، وتسد رتق ما فتح عليها من أبواب الشر ، وتفتق ما أغلق دونها من أبواب الخير . أما لو ولو ولو . . . فهي لا تفيد إلا التحسر على الماضي ، والندم على الفائت ، والنوم عن اجتناء الخير المستقبل ، فضلا عما تحويه من السخط على قضاء الله وقدره ، وما يتبعه من الاعتراض على فعله وعادل قسمه ، وما يصحب ذلك غالبا من الحسد لمن أنعم الله عليه بنعمه ، أو نجاه مما أصاب هذا النادم من كروبه وغممه . وكفى بالحسد مهلكة وبالحقد مذمة . فهل رأيت كيف كانت لو تفتح باب الشيطان ؟ وهل وراء الحقد والحسد ، والتسخط على القضاء والقدر ، من خسران للانسان ، وكسب للشيطان ، وإغارة على حمى الإيمان ؟

ومما جاء في معنى قوله عليه السلام : « قدر الله وما شاء فعل » قوله عز وجل : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا » وقوله صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » وقوله : « واعلم أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

نسأل المولى جلت قدرته أن يكسبنا الرضا بقضائه وقدره ، ويقوى نفوسنا على فتح أبواب خيره ، ويجعلنا مقتدين بالسنة الحسنه ، ومن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

البيان ووصف القرآن

قال عبد الله بن المعتز من خلفاء العباسيين :

البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول ، ومجلى الشبهة ، وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرق بين الشك واليقين ، وهو من سلطان الرسل الذى انقاد به المستصعب ، واستقام الأصيد ، وبهت الكافر ، وسلم الممتنع ، حتى أشب الحق بأنصاره ، وخلا ربع الباطل من عماره .

وخير البيان ما كان مصرحا عن المعنى ، ليسرع الى الفهم تلقيه ، وموجزا ، ليخف على اللفظ تعاطيه ، وفضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفى ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ، ووهن المتكلفين ، وتحير الكذابين . وهو المبلغ الذى لا يمل ، والجديد الذى لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحى لظلم الضلال ، ولسان الصدق النافى للكذب ، ونذير قدمته الرحمة قبل الهلاك ، وناعى الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلدة ، ومفتاح الخيرة ، ودليل الجنة ، إن أوجز كان كافيا ، وإن أكثر كان مذكرا ، وإن أومأ كان مقنعا ، وإن أطال كان مفهما ، وإن أمر فناصحا ، وإن حكم فعادلا ، وإن أخبر فصادقا ، وإن بين فشافيا ، سهل على الفهم ، صعب على المتعاطى ، قريب المأخذ ، بعيد المرام ، سراج تستضئ به القلوب ، حلو إذا تذوقته العقول ، بحر العلوم وديوان الحكم ، وجوهر الكلم ، ونزهة المتوسمين ، وروح قلوب المؤمنين ، نزل به الروح الأمين ، على محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، فخصم الباطل ، وصدع بالحق ، وتألف من النفرة ، وأنقذ من الهلكة ، فوصل الله له النصر ، وأضرع به خد الكفر .

كلمات عن بدائع العالم غير المنظور

قال الله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم » فدل بذلك على أنه توجد عوالم لا نبصرها بأعيننا ، وعلى أن فيها من آياته مثل ما فى العالم المنظور ، وفى الآية تحذير ضمنى عن الوقوف عند الحدود التى تحدها حواسنا الخمس ، وعن الزعم بأن كل ما لا تتصل به حواسنا غير موجـود . وقد تأيد هذا بما كشفه العلم للناس .

إننا تحت هذا العنوان نريد أن نكشف حياة عالم من أبدع مخلوقات الله ، كشفه العلم منذ نحو قرن من الزمان ، فلبث كل تلك الأجيال غير منظور ، وهو مبثوث فى كل مكان ، فى الهواء الذى نستنشقه ، وفى المـاء الذى نشربه ، وفى كثير من الأغذية التى نتناولها ، وله على صحتنا تأثير أى تأثير . ذلك عالم الميكروبات وإن شأنها لجد خطير .

قال الأستاذ الكبير (كاميل فلامريون) :

« إن ظواهر هذه الخليقة تدهشنا أيما إدهاش ، سواء إذا رفعنا أبصارنا للنظر فى خلق السموات ، أو خفضناها لدراسة أحقر الكائنـات ، فالعظمة الإلهية تتجلى لنا فى كل منها على السواء . وإن هذه العظمة لتنكشف لنا فى القبة الزرقاء التى يزينها عدد لا يحصى من النجوم ، وفى الذرة الحية التى تخفى عن أعيننا ما اشتمل عليه جثمانها من الإبداع » .

أول من فحص عن عالم الحيوانات غـير المرئية هو العـالم الألمانى (اهرنبرج) فقد درس أجسادها وطبائعها ، وقسمها الى طوائف وفصائل وأنواع . وكان أول من أثبت بأن هـذه الحيوانات على دقة جسومها لها تركيب باطنى شـديد التركب

الى درجة يذهل منها العقل . وقد نشر هذا العالم مباحثه هذه فى سنة (١٨٣٠) . ونحن نستخلص من هذه المباحث ما نود أن نقضى به للقراء فى هذا الموضوع الجليل ، فنقول :

كشف لنا الميكروسكوب أن أجساد هذه الحيوانات الدقيقة كأجساد الحيوانات الكبيرة ، ذات أشكال محدودة ثابتة ، إلا أجناسا منها تستطيع أن تغير أشكالها أمام نظر من يراقبها ، فلا يمكنه أن يميز بعضها عن بعض فى دقائق معدودة ، فتارة تظهر كروية ، وطورا مثلثة ، وآونة على هيئة النجوم .

لا يوجد ماهو أدعى للدهش والحيرة من تركيب هذه الكائنات غير المرئية ، ولولا أن علم هذا أمر يمكن تحقيقه بالمشاهدة لعد القارئ مايقوله العلماء عنها من الموضوعات الخيالية أو من الأكاذيب . فقد ظهر أن تركب أجهزتها الحيوية يفوق فى بعضها تركب أجهزة الحيوانات الكبيرة بل والانسان نفسه . فقد شوهد أن منها ماله أكثر من مائة وعشرين معدة ، ولبعضها نظام جثمانى يعتبر غاية فى الغرابة ، فإن لبعض هذه المعد أسنانا دقيقة جدا ترى وهى تمضغ فى باطن هذا الكائن . ويشاهد أن الجهاز الدورى فى بعضها قوى الى حد أنه يمكن القول بأن قلوبها بالنسبة لأجسادها أضخم وأقدر من قلوب أقوى الحيوانات كالثور والحصان .

ورغما من تناهى هذه الحيوانات فى الصغر فإن الله سبحانه وتعالى قد حاطها بحظ وافر من العناية ، فحمى أجساد بعضها بدروع من الكلس ، وجعل لبعضها أغطية من السليس الذى لا يقبل التحطيم .

وكما أن هذه الحيوانات الدقيقة قد تحلت بتركيب يفوق كل تقدير ، فإنها قد وهبت نشاطا لا يقف عند حد ، ذلك أنه لا يعتريها ما يعترى جميع الحيوانات من النوم ، أو هى تنام ثوانى معدودة لا يدركها من يراقب حركاتها . فإن العلماء راقبوها فى كل وقت فلم يروا لها وقتا ترتاح فيه .

وقد ظهر أن الميكروبات تعيش فى كل مكان ، وتحت أى مناخ ، حتى المواطن التى لا يقوى على العيش فيها أى كائن له روح ، فقد شوهدت فى ثلوج القطبين ، وفى أعلى

ما وصل اليه الانسان من طبقات الهواء ، وأسفل ما انتهى اليه من طبقات البحار . فقد شاهد الطبيعي (جيمس روس) أكثر من خمسين نوعا من الميكروبات على سطوح الثلوج الطافية فى البحار القطبية . فى الدرجة الثامنة والسبعين من خطوط العرض . ومن المحير للعقل أن هذه الحيوانات صودفت على عمق ثلاثة آلاف متر من سطح البحر ، متحملة ضغطا مائيا يقدر بثلاثمائة وخمسة وسبعين جواً . وهذا الثقل لا يحتمله مدفع من مدافع الميدان .

وقد أراد العلماء اختبار مقدار ما تحتمله هذه الكائنات من البرد ، فأوجدوها فى جو أسقطوا حرارته الى ٢٠٠ درجة تحت الصفر ، فاحتفظت بحيويتها ونشاطها فى هذا الزمهرير الرهيب .

وقد شوهد أن هذه الحيوانات الدقيقة توجد حتى فى مياه الشرب ، وأن فى كل قطرة من الماء ألوفا مؤلفة منها ، ولو أحصيت عدد مايدخل منها فى جوف الانسان فى كل شربة ماء ، لوجدتها تبلغ ألوفا كثيرة من الملايين .

ليست المياه هى البيئة الوحيدة للميكروبات ، بل أكثر ما توجد فى الأراضى الرطبة ، وهى تتكاثر فيها تكاثرا يفوق كل تقدير . ومن أنواعها ما لا يبلغ طوله جزءا من ألف وخمسمائة جزء من المليمتر ، وهى تؤلف فى بعض الأراضى الرطبة طبقات حية يبلغ سمك بعضها أمتارا كثيرة . فقد اكتشف من هذه الطبقات فى أمريكا ما بلغ سمكه ستة أمتار ، ووجد فى لونبرج من بروسيا طبقة مؤلفة من ميكروبات يبلغ سمكها أكثر من أربعين مترا ..

هذه معلومات تكاد توضع فى خوارق العادات ، ولكنها حقائق طبيعية مؤكدة . وقد ظهر أن أعضاءنا مرتع خصب لكثير من أنواع الميكروبات ، فهى تثوى فى أعيننا وأفواهنا وأنوفنا وآذاننا ، وتؤلف فيها مستعمرات حقيقية ، ولا شك أن الوضوء الذى فرضه الاسلام والذى يتكرر يوميا من خير الوسائل للنجاة من شرورها .

ومنها أنواع تتخذ أمعاءنا ومعداتنا مرتبعا لها ، فتتكاثر فيها تكاثرا يحير العقل ، وتصيبنا بأقتل الأمراض ، ولا شك أن الإسراف فى الطعام والشراب يعوق الجهاز الهضمى عن القيام بوظيفته على النظام الطبيعى الذى يبث فى الجسم قوة ونموا ، ويكون من نتائج النهم والجشع أن تضعف البنية عن مقاومة الميكروب ، فيشتد ويتكاثر حتى يورد الانسان موارد التهلكة ، وهنا تظهر حكمة الاسلام الذى أمر المسلم أن يكون معتدلا فى طعامه وشرابه . ولقد جاء فى الحديث الشريف « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » .

وهذا الهواء الذى نستنشقه ويخيل الينا أنه خال من كل الشوائب ، مشحون بهذه العوالم الحيوانية الى حدود لا يتصورها العقل . والهواء بتياراته الكثيرة يحملها أحياء وأمواتا الى بقاع الأرض كافة .

ليس فينا من لم ير فى أشعة الشمس الداخلة إلى حجرة مظلمة ، ذرات لمّاعة تروح وتجىء فى خلالها كأنها هباء من نور . فهذه الذرات جماعات من الميكروبات السابحة فى الهواء ، وإن كانت فى الجو المطلق لا تدركها العيون .

مما يجب أن نلاحظه هنا أن العوالم الميكروسكوبية ، أكثر انتشارا على سطح الأرض من العوالم التى ترى بالعين المجردة ، ولو أردنا تقدير النسبة بينهما لعجزنا ، فإن الأولى لا توجد لها أرقام تحصرها ، ومن الغريب أن الناس لبثوا آلافا من السنين على هذه الأرض لا يحلمون بوجودها . ولما اكتشفت شرع بعض العلماء فى التشكيك فى أمرها ، ثم اضطرتهم المشاهدات المتوالية الى الاعتراف بالخطأ فى نفيها .

إن اكتشاف الميكروبات كان فاتحة خير كبير للانسان ، فقد تسنى للعلماء دراسة ميكروبات كل مرض من الأمراض ، ومعرفة مبيداتها من المطهرات . وعلى هذا الأساس اكتشفت الأمصال الكثيرة لعلاج الزهرى والدفتريا والحمى التيفودية والجدرى ، فكان ذلك سببا لنجاة ملايين من الناس فى كل عام .

وعرفت كذلك ميكروبات الأمراض الوبائية من طاعون وكوليرا، فأمكن اتقاؤها أو تخفيف ويلاتهما بالمطهرات . وكانت هذه الأوباء تحل ببعض الأصقاع فتجتاح منها الملايين فى أيام معدودة حتى كان يعجز الأحياء عن دفن المتوفين . وقد حل الطاعون بأوروبا منذ عدة قرون، فأهلك منها خمسة وعشرين مليونا من الأنفس فى أيام معدودة، حتى إنه كان يلقى بجرانه فى المدينة العامرة فلا يدع فيها نسمة واحدة .

ولكن لما اكتشفت الميكروبات أمكن دراسة ميكروبات هذا الوباء وعرفت وسائل مكافحته بالتعقيم ، ومن ذلك العهد قل خطر الأمراض الوبائية وأصبح التوقى منها فى حيز الإمكان .

وكانت الأعمال الجراحية قبل اكتشاف الميكروبات من أخطر الأشياء، فكان الأطباء إذا اضطروا لبتر بعض الأعضاء ، أو لفتح البطن لمعالجة بعض الآفات الحشوية، حاروا فى لأم الجراح التى أحدثوها، لأن الميكروبات التى تكثر فى الهواء تتسارع اليها فلا تدعها تندمل فى أكثر الحالات ، فلما عرفت الميكروبات وعرفت وسائل تطهير الجراح منها، صارت الأعمال الجراحية قليلة الخطر سهلة الإجراء .

هذا عالم كان الناس لا يبصرونه ، وهو من أمس العوالم بحياتهم ، أفلا ترى بعد هذا أن فيما لا نبصره ما هو جدير بأن يقسم به الله شحذا للنفوس على العمل على كشفه والاستفادة منه ؟

وليس لنا أن ننتهى من هذا المقال حتى ننبه أن الميكروبات ليست كلها ضارة، فإن منها ما لا ضرر فيه أصلا ، ومنها ما هو ضرورى لحياة الانسان ، بل منها ما هو علاج لكثير من علله العضال . فالميكروبات المائية لا ضرر فيها على صحتنا إلا إذا تسربت اليها جراثيم بعض الأمراض . ولولا الميكروبات لبطل التحلل والتخمر فى المواد، ولولا هما لما أمكنت الحياة .

وأما الميكروبات النافعة فكميكروبات اللبن الخاثر ، وقد ثبت أنها عدوة

للميكروبات المعوية ، فإذا تناوله الانسان شبت بين ميكروباته وميكروبات الأمعاء حرب شعواء ، فتفنى الثانية أو يقل عددها ، ولذلك نصح الأستاذ البكتريولوجى متشنيكوف بأكل اللبن الخاثر ، وخاصة إذا كان الانسان طاعنا فى السن وصارت أمعاؤه مزدحما لصنوف المكاريب .

والأطباء يحقنون المصابين ببعض الأمراض ببعض الميكروبات المعاكسة لميكروبات تلك الأمراض لتقاتلها وتفنيها ، فيكون الشفاء ثمرة هذه الحرب الضروس .

أليس فى هذا كله آيات بينات يتأدى المتأمل فيها الى زيادة الايمان بقدرة الله ، وبأن إبداعه فى مخلوقاته أجل من أن يحيط به علم ، أو يصل إليه خيال ، فاذا كانت هذه جلالة ما استطاعت حواسنا القاصرة أن تدركه ، فماذا تكون جلالة ما تعجز هذه الحواس عن إدراكه ، من العوالم المحجوبة عنا فى عالم الملك والروح ؟ بل ماذا تكون جلالة ما لا يسمح لبشر أن يصل إليه من عالم الحقائق العلوية ، والاشراقات القدسية ؟ « إنما يخشى الله من عباده العلماء » صدق الله العظيم .

محمد فريد وجدى

كلمات حكيمة عن عمر

كتب عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لابنه عبد الله : أما بعد فان من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فانه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا جديد لمن لا خلق له .

ودخل عدى بن حاتم الطائى على عمر ، فسلم وعمر مشغول ، فقال يا أمير المؤمنين أنا عدى ابن حاتم . فقال ما أعرفنى بك ! آمنت إذ كفروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، وأقبلت إذ أدبروا .

وقال رجل لعمر : من السيد ؟ قال الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره .

وقال رضى الله عنه : ما كانت الدنيا هم رجل قط إلا لزم قلبه أربع خصال : فقر لا يدرك غناه ، وهم لا ينقضى مداه ، وشغل لا ينفد أولاه ، وأمل لا يبلغ منتهاه .

بابُ الأسْئِلةِ والفَتاوَى

حكم ازالة النجاسة — الحصير المتنجس

ورد الى المجلة الاسئلة الآتية :

١ — ما حكم إزالة النجاسة عن ثوب المصلى وبدنه ومكانه ؟ وما قولكم دام فضلكم فى شخص صلى بالنجاسة عامدا أو ساهيا ؟ .

٢ — حصير تنجس ببول حيوان غير مأكول اللحم ، مع العلم بأن الحصير موجود فى حجرة بها نوافذ عدة من كل الجهات ، ثم مضى على ذلك الحصير أيام عديدة وبمضى هذا الزمن على الحصير لم يبق أثر للنجاسة فهل هذا الحصير طاهر أم نجس ؟

الجواب على مذهب الامام الشافعى

١ — يشترط لصحة الصلاة طهارة البدن من الحدث والنجس ، وطهارة الثوب والمكان من النجس ، فمن صلى بالنجاسة عامدا حرم عليه لتلبسه بعبادة فاسدة ، ووجب عليه إعادة الصلاة بالطهارة ؛ ومن صلى بالنجاسة ساهيا أعاد إذا تذكر .

٢ — لايطهر الحصير المتنجس بالجفاف ، سواء جف بالهواء أو بعرضه على النار .

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان
بكلية الشريعة الاسلامية

زكاة الاوراق المالية — صلاة الوتر
قضاء الفائتة — تعاطى التبغ

وورد ايضا الاسئلة الآتية :

١ — ما الحكم فيما إذا كان عندى من الأوراق المالية ما يبلغ نصابا وزيادة لو فرض ذهبا أو فضة وحال عليها الحول ، فهل علىّ زكاة الذهب أو الفضة فيها ؟

٢ — هل يصح أن يؤخر نفل العشاء الراتب عن الوتر ثم يفعل بعد الوتر؟ وهل إذا تركت راتبة العشاء وصليت الوتر فقط هل يكون فى ذلك شىء ؟

٣ — نعلم من مذهب الشافعى أن من فاتته الصلاة بلا عذر وجب عليه القضاء فورا ، ويحرم النفل حتى لو كان راتبا حتى يقضى ما عليه من الفروض ، فهل له إذا جاء رمضان وهو لم ينته بعد من قضاء ما عليه وهو ممنوع من التنفل حينئذ أن يصلى التراويح نظرا لأنها لا تصلى إلا فى كل عام مرة طول شهر رمضان لا غير ، أم يمتنع من فعلها ويشتغل بالقضاء وتستوى مع غيرها من النفل ؟

٤ — هل إذا أعطيت الدخان المعروف لمعتاده الفقير الذى لا يصبر على عدم تعاطيه يعتبر صدقة ؟

الجواب

١ — تجب الزكاة فى الذهب والفضة ، سواء كانا نقدين أم لا كالسبائك ، ولا تجب فيما يتعامل به من غير النقدين كالنحاس ، وتجب فى الدين سواء كان على شخص أم على جهة معينة كجهة الوقف ، ثم إن كان حالا وتيسر أخذه بأن كان على مقر موسر وجب إخراج زكاته وإن لم يقبض ، وإن لم يتيسر أخذه فى الحال لجحد أو إعسار أو كان مؤجلا ، وجب إخراج زكاته بعد قبضه ، وحينئذ يزكى لكل حول مضى مع تحقق النصاب . هذا هو المعتمد فى مذهب الشافعى .

وعلى ذلك نقول : الأوراق المالية (البنكنوت) ليست عملة بذاتها ، بل هى مستندات بدين على جهة البنك ، كما يدل على ذلك النص المرقوم عليها ، فإن التعامل بقيمتها من الذهب والفضة ودفع الورق حال التعامل بمنزلة حوالة بالعوض على البنك ، فتزكى الأوراق المالية زكاة الديون ، فمن عنده أوراق مالية وبلغت قيمتها نصابا ، وجب عليه إخراج زكاتها فى الحال ، لإمكان أخذ قيمتها حالا ، والله الموفق للصواب .

٢ — صلاة الوتر سنة مؤكدة ، ولا يصح فعلها قبل فعل فرض العشاء ، والأفضل تأخيرها عن راتبة العشاء وعن جميع النوافل عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا » فإذا قدمها المصلى على نفل العشاء صح وإن كان خلاف الأولى ، ولو اقتصر على الوتر وترك نفل العشاء صح ولا شيء عليه ، غايته أنه ترك سنة فيحرم من ثوابها ، والله أعلم .

٣ — قال الفقهاء : من فاتته فريضة بلا عذر وجب عليه المبادرة بفعلها ، وقصروا المبادرة بأن يشغل جميع الزمن بفعل الفوائت إلا ما يضطر اليه لنحو نوم أو مؤونة أو فعل واجب مضيق يخشى فوته ، وصرحوا بأنه يحرم عليه التطوع ما دامت فى ذمته ، وظاهر كلامهم أنه لا فرق بين التراويح وغيرها .

٤ — تعاطى الدخان المعروف مكروه عند الشافعية للتأذى برائحته الكريهة ، وقد ورد النهى عن تعاطى ذى الرائحة الكريهة ، روى البخارى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكل بصلا أو ثوما أو كراثا فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » قال جابر ما أراه يعنى إلا نيئه . وألحق الفقهاء بالمذكورات فى الحديث نحو الدخان مع ما فى تعاطيه من إضاعة المال بدون فائدة ظاهرة ، بل يحرم تعاطيه على من يضره أو يحتاج لثمنه فى النفقة الواجبة عليه . وإذا كان تعاطيه مكروها فالتصدق به إعانة على مكروه فيكون مكروها فلا ثواب فيه ولو لمن لا يصبر على تركه ، كما أن التصدق بالمحرم كالخمر حرام ولو لمن لا يصبر على تركها ، فإن الصبر على ترك المحرمات والمكروهات مطلوب ، فينبغى للانسان أن يعالج نفسه حتى يعودها الصبر على ترك ما يطلب تركه ، والله الموفق للصواب ؟ يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان

بكلية الشريعة الاسلامية

زكاة الفطر

وورد أيضا هذا السؤال :

عقد شخص على امرأة قبل دخول شوال ولكنه لم يدخل عليها إلا

بعد دخوله، فعلى من تجب فطرتها والحال لم يكن هناك التمكين إن قلنا إنها تجب على الزوج ؟

الجواب

تجب زكاة الفطر على من تجب عليه نفقة الشخص، ونفقة الزوجة تجب على الزوج بالتمكين لا بالعقد على المعتمد من مذهب الشافعى، فالزوجة المدخول بها بعد شوال فطرتها على نفسها إن كان لها مال أو على وليها، لا على الزوج لعدم تمكينها وقت الوجوب .

يوسف المرصفى، الحسينى سلطان
بكلية الشريعة الاسلامية

الطلاق المعلق على شرط

وورد أيضا السؤال الآتى :

رجل كان عنده قطعة أرض بجانب أولاد أخيه، ولكن أولاد أخيه احتاجوا الى بناء قطعة الأرض التى تخصهم وتخص هذا الرجل وهو عمهم، فاتفقوا معه سرا على أن يأخذوا منه هذه القطعة ويعطوه بدلها فى جهة أخرى .

ولما تم هذا مع الرجل وأولاد أخيه سرا شرع أولاد أخيه فى بنائها، وبينما هم فى حالة البناء إذ جاء ابن هذا الرجل وقال لوالده : لماذا هؤلاء يبنون قطعة الأرض التى تخصنا ؟ ثم كرر هذا السؤال على والده على أنه يستفهم منه عن السبب لبنائهم فى ملكهم فامتنع والده من تفهيمه، فقال له ابنه : « إذا لم تكن هذه القطعة ريحه تنبنى لنا مش قاعد معك فى عيشة » ثم حلف وقال : «علىّ الطلاق ثلاثة شافعى ومالك وأبى حنيفة إذا لم تكن هذه القطعة ريحه تنبنى لنا لم أقعد معك فى عيشة أبدا طول حياتى » ولكنه فى حالة الحلف أخذ نَفَسه مقدار نصف دقيقة . ولكنها بنيت لهذه الأشخاص

ولم ينفذ قوله . فهل إذا قعد مع والده فى عيشة يقع طلاقه ؟ وإذا وقع الطلاق فماذا يفعل الحالف ؟ وما وجه هذا الحل تفصيلا ؟

الجواب

مذهب الحنفية أن الطلاق المعلق على شرط يقع عند حصول الشرط ، وأن التعليق يكون صريحا كقوله : « إن فعلت كذا فامرأتى طالق » ويكون باعتبار المعنى كالعبارة التى جرى العرف باستعمالها فى الطلاق « علىّ الطلاق لأفعلن كذا » .

وعلى هذا فالمذكور فى الاستفتاء (على الطلاق ثلاثة شافعى ومالك وأبى حنيفة إذا لم تكن هذه القطعة ريحه تنبنى لنا لم أقعد معك فى عيشة أبدا طول حياتى) . تعليق للطلاق على شرط هو قعوده معه فى معيشة إذا لم تبن هذه القطعة لهم ، وحيث إن الشرط قد وجد وهو بناء القطعة لغيرهم فإذا قعد مع أبيه بعد ذلك فقد حصل المعلق عليه ، فيقع الطلاق ثلاثا ، ضرورة أن المعلق بالشرط كالمنجز عند وجود الشرط ، ولا تحل له امرأته حتى تنكح زوجا غيره ، ولا عبرة بانقطاع نفسه نصف دقيقة لأن ذلك لا يمنع من انعقاد اليمين . وهذا هو المعمول به الآن فى المحاكم .

عبد السلام العسكرى الحنفى ، حسين البيومى الحنفى
بكلية الشريعة الاسلامية

متى يؤثر الكلام

قال عامر بن عبد قيس : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

وقال الحسن البصرى (وقد سمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته من قلبه ولم يرق لها) : ياهذا إن بقلبك لشرا أو بقلبى .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإن رأيت منهم فتورا فامسك .

فى كلية أصول الدين

كان موعد افتتاح العام الدراسى بكلية أصول الدين من كليات الأزهر الشريف يوم السبت ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ الموافق ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٤ . وقد اجتمع العلماء والطلاب بدار الكلية للاحتفال بذلك ، وبعد تلاوة آى الذكر الحكيم قام بينهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ الكلية وألقى الخطبة الآتية التى تعد دستورا فى التربية والتعليم ، ودرسا نافعا فى الأخلاق والآداب ، ومنهاجا للعمل الصالح والنظام الدراسى .

وبعد الفراغ منها طلب من الحاضرين أن يرفعوا أكفهم بالضراعة الى الله تعالى طالبين منه جل شانه أن يسبغ ثوب العافية على حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، وأن يديمه ذخرا لبلاده ، وملاذا للدين ورجاله ، فدعوا وأمنوا . وهذا نص الخطبة المشار إليها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، ونصلى ونسلم على نبيه الطاهر الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإخلاص الى يوم الدين .

أيها الاخوان :

نحن اليوم فى مكاننا هـذا على عادتنا السنوية عند افتتاح العام الدراسى الجديد : نتبادل التحية ، ونستحضر الماضى لنتبين خيره من شره ، فنصلح الشر ونسير فى عملنا على ضوء الخير كما هى سنة رواد المصلحة من الذين بيدهم زمام الأعمال ، وهى من قواعد الدين الحنيف ، أرشدنا اليها القرآن الكريم ، حيث أمرنا بالنظر فى أنفسنا ، وقص علينا سير المتقدمين ، وطلب منا التأمل فى أحوالهم .

قد انتهينا بفضل الله من دور التعليم العالى على النظام الحديث ، فكانت لنا وعلينا

منه أمور مرّ بكم تفصيلها ضمن ما وجه اليكم من التعليمات فى هذه المدة التى كشف لنا العمل منها عن هنات فى النظام كان لزاما علينا أن نصلحها .

وإنى لغتبط أن أصارحكم بأن بعض الفضل فى ذلك راجع لملاحظات أبديتموها فى تقاريركم التى رفعت الينا . ولهذه المناسبة نطلب منكم دوام استخلاص قواعد الثقافة النافعة ، وأن تزودونا بما توفقون اليه بجدكم .

فأنتم مراياانا التى نبصر بها صور الحق ، وعليكم واجب المهمة التى وضعت على عاتقنا فأصبحت أمانة فى ذممنا جميعا .

وإذا ذكرت الجد ، فأنبهكم الى أن الاجتهاد هو الدعامة التى يرتكز عليها رقى الفرد والجماعة إذا كان مقرونا بالاعتماد على النفس ، لأن الاعتماد عليها يولد فى صاحبه الاستقلال الشخصى ، ويجعله صادق العزيمة قوى الإرادة فى تفكيره ، صريحا فى كل أمره . أما الاعتماد على الغير فهو على عكس هذا : يميت العزم ، ويضعف الإرادة ، ويذهب بالنشاط .

فأدعوكم الى أن تكونوا فى اجتهادكم معتمدين على أنفسكم بالروية والتمسك بالآداب القومية ، والتزام حدود الدين فى تفكيركم ، حتى لا تخرجوا على أزهريتكم .

وإذا قلت الأزهرية ، فإنما أذكر بلسان الفخار أحسن طريقة للتربية الصحيحة المنتجة ، التى تطبع النفوس على التخلق بالدين ، وتغرس فيها الاستقلال والاستقامة ، وتثمر النبوغ والحصافة ، وتعد صاحبها لأن يكون على حد المؤمن الصادق : إلفا مألوفا ، سهلا سمحا ، بينه وبين القلوب صلة ونسب ، يمت بهما الى الحياة النافعة ، ويحمل دواء الحكمة الى مرضى القلوب فيبرئ سقمها .

هذه حقيقة التربية الأزهرية . فأستنهض هممكم للتمسك بها حتى لا تميلوا لقول من يريد أن يرميها بالعقم لمعنى فى نفسه .

نحن لا نبالى بصاحب الحفيظة ، وإنما نخشى أن يقوم من بيننا نحن رجال التعليم

من يصور له الوهم صحة هذا الخيال فيفعل ضد ما يعتقد . وإنا لنرجو الله تعالى أن يديم خلو الأزهر من هذا النوع الذى إثمه أكبر من نفعه .

نحن لا ننهاكم عن العمل بالجديد ، وإنما نكره منكم معاداة القديم بغير وجه ، ونأمل أن تتخذوا منهما معا بناء صالحا يأوى اليه الراغبون فى معرفة دينهم على وجه يلائم حال العصر . وفى النظام الحديث ما يحقق هذا الغرض إذا وجد دقة فى التنفيذ .

إن المعاهد الدينية فى طورها الحالى كالعناصر الكيمياوية فى معامل الإنتاج : تتفاعل بروح القانون وسر النهوض ، لتخرج هوية كاملة نافعة صالحة للدوام . ولا يعزب عنكم أن تلك الهوية لا تخرج فى ثوبها القشيب ، ولا تكون فى صورة حسنة مقبولة إلا باتحاد العاملين وإخلاصهم .

فأطلب إليكم أن تكونوا مخلصين فى عملكم بعد إخلاصكم لدينكم وأنفسكم ، سواء منكم المعلم والمتعلم . أما المعلم فبأن يعمل على إيجاد الاتحاد لتكون بينه وبين طلابه صلة قلبية إذا ضمت لحسن تعليمه أوجدت فى نفوسهم صفات علمية تجعل المتصف بها حاذقا قادرا على استنباط العلوم وفهم أسرارها ، مع فصاحة المنطق وقوة البرهان فى المحاورات ، وذلك شأن العالم الحقيقى ، فليس العالم هو الذى يجعل همه مقصورا على الاستظهار ويهمل التفكير فيصير قاصر النظر ضعيف الفكر والبيان .

وأرشدكم الى ما يكوّن طلابكم على هذا الخلق ، وإنه لشيئان :

(الأول) أن يحضر الأستاذ درسه تحضيرا يجعله قادرا على تكييف الموضوعات العلمية تكييفا صحيحا . و (الثانى) أن يتوسم طلبته بفراسة قوية يتعرف بها طاقتهم ، ثم يسير بهم فى طريق تربيتهم على حسبها ، فيستريح وينفعهم ، ويقوى نشاطهم فى البحث والمناظرة .

وأما المتعلم فواجبه الإخلاص لله فى السر والعلانية . ومن ذلك أن يشعر بحق أستاذه ، فيكون معه ابنا بارا يستمع الى مايلقيه ويفيده ، ويفهمه ويحرص عليه ، ثم يكون كذلك حريصا على تحضير درسه قبل الذهاب الى تلقيه كما هى سنة الأولين ، فيلزم

المكتبة لاستخلاص دقائق الفنون من أسفارها بمقياس البحث والنظر الصحيح ، ومن واجب الطالب أيضا أن يكون سلساً يمتثل الأوامر ويؤدى الواجب ، وأصارحكم بأنى أريد أن أخرجكم رجالا ذوى رأى وخطر فى التفكير ، أحرارا كبار النفوس ، أعزاءها ، قادرين على القيام بما تكلفونه من جلائل الأعمال مع الشعور بالمسئولية لدينكم ودنياكم أمام الله والناس .

وعلى مبدئى هذا سترونني على الدوام أراقب أحوالكم نفسية وعلمية وعملية ، فإن وجدت منكم خيرا شكرتكم عليه ، وإن زل أحدكم فى شىء منها بترته من سلك الطلاب وأقصيته ، حتى لا تصل عدواه الى سليم فيضره . هذا ما أقوله راجيا لكم التوفيق .

وقد شرعنا بحمد الله فى إنشاء قسم التخصص الجديد فى هذه الكلية على أن يسير بالتدريج حتى يعم جميع الأقسام . واعلموا أن الغرض من التخصص هو إيجاد علماء مرشدين متمسكين بالدين ، يدافعون عنه ، ويعملون لرفعته ، ويقومون بنشر تعاليمه .

وقد أعدت لكم المشيخة الجليلة من الوسائل ما يكفل تحقيق هذا الغرض . وهذه ميزة يجب أن يقدرها الطلاب والأساتذة الذين أتيح لهم أن ينتظموا فى سلك هذا القسم ، ليضاعفوا جهودهم فى البحث العلمى بالدرجة التى تناسب مرتبة التعليم فيه . وستكون مكتبة الكلية مفتحة الأبواب لمن يريد البحث والتنقيب . وأملى كبير فى أن تبرهنوا كما برهنتم من قبل على أنكم عنصر صالح ، ومثل حى للتربية الحقة والأخلاق الكاملة .

وبهذا تحيا آمال الأمة فيكم ، وتتحقق رغبة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فى إعلاء شأن الدين وشأنكم ، وتنالون عطفه السامى عليكم .

نسأل الله تعالى أن يديم ملكه ، وأن يحفظ عرشه ، مؤيداً بالنصر والإعزاز ، ببقاء ذاته الكريمة ممتعة بالصحة والعافية ، وأن يقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد (الأمير فاروق) إنه سميع الدعاء .

عبد المجيد اللبان

اثبات وجود الروح

صرحت الكتب السماوية بأن للانسان روحا مستقلة عن الجسد تخلد بعد الموت ويحاسب صاحبها على ما قدم من عمل فيثاب أو يعاقب عليه جزاء وفاقا ، وجاءت الفلسفة فأثبتت ذلك بأدلة لا تقبل النقض ، وجرى الناس على ذلك قرونا وأجيالا حتى جاء دور السوفسطائية فى القرن الثالث قبل المسيح ، فأنكروا الروح وشككوا الناس فيما يكون لها من المبادئ الخلقية ، فزعموا أن الفضائل والرذائل أمور اعتبارية ، وحاولوا أن يدفعوا بالناس فى هذا التيهور الخطر على كيانهم المعنوى ، ولكن جمهورهم لم يرفع بهذه التعاليم رأسا ولا أقام لها وزنا ، واستمر الناس محتفظين بعقائدهم حتى ولدت الفلسفة المادية فى القرن السادس عشر ، فاتخذت مظهرا خطرا من الاعتقاد بالعلم الطبيعى ، فافتتن بها قصار النظر ، وما زالت تؤثر فى أمثالهم فى القرنين التاليين حتى كثر أشياعهم فى الغرب ، وصارت لهم فيها دولة ، فتدارك الله الناس بما وجه عقولهم اليه من مكتشفات علمية فى المباحث النفسية ، أثبتت لهم من طريق الأسلوب العلمى أن هؤلاء الماديين على ضلال مبين ، وأن الروح الإنسانية حقيقة ثابتة لا يمكن المراء فيها . وكان من بين العلماء الممتازين الذين اشتركوا فى تطهير العقول من تلك التعاليم الضالة العالم الفلكى الفرنسى كاميل فلامريون فوضع نحو عشرة مؤلفات فى هذا الموضوع كان لها أثر عميق فى إدحاض هذه الضلالات . وقد رأينا أن نتحف قراء نور الاسلام ببحث من بحوثه القيمة فى هذا الموضوع ، ليروا مذهب العلم فى مكافحة خصوم الروح .

بدأ الأستاذ كاميل فلامريون بمناقشة الماديين فى نظرياتهم التى جعلوها أساسا لمبدئهم حتى إذا هدمها بمعاول العلم الصحيح عقد فصلا عنوانه : « ما هو الانسان ؟ هل الروح موجودة ؟ » جاء فيه قوله :

« رأينا أن النظريات المادية لا يقوم على صحتها دليل ، وليست قائمة على أساس من المتانة فى الدرجة التى كان يتوهمها بعض الناس ؛ فإن فيها جهات فراغ كثيرة ، وقد تجاهلت وجود أشياء لم يهتد العقل الى تعليلها ، فهى بعيدة عن أن تُشبَّه بالنظريات العلمية أو باليقينيات الرياضية . فالمسألة والحالة هذه معروضة برمتها أمامنا لنبحثها بحثا حرا .

« يعتقد الماديون بأنه لا يوجد فى العالم إلا حقيقة واحدة لا يجوز النزاع فيها ، وهى الأشياء الخارجية أو المادة ، أى الشىء الذى يرى ويلمس ويخضع لتقدير الحواس ، وكل ما عدا هذا عندهم فأمور تجريدية وأوهام ، أى عدم محض .

« فأقول هنا كما قال صديقى المأسوف عليه (دوران دوجرو) العالم الطبيعى : العلم الطبيعى نفسه يقرر لنا أن شهادة الظواهر ، حتى فى الحين الذى تظهر فيه حاصلة على درجة الوضوح التام ، يجب أن ينظر إليها مقرونة بالشك والريب ، وأن تمحص تمحيصا دقيقا .

« نعم ، فأى شىء أوضح من دوران الشمس ؟ إن هـذا الشعور وهذا الإدراك يدلان على أن دورانها حق ، وأن السماء وجميع كواكبها فوق رءوسنا . أما شهدت هذا الوضوح أعين الناس أجمعين فى كل زمان ومكان ؟ وهل لهذا الوضوح مثيل فى العظم والجلالة ؟ لا ، وهو مع ذلك وهم محض كما أثبته علم الفلك بالدليل القاطع .

« فما أشد ما يَظهر أشياع المذاهب سطحيين كلما اعتمدوا على محض المشاهدات الظاهرية فى تقدم المعلومات الفلسفية !

« الشمس سطح لماع يدور فوق رءوسنا من الشرق الى الغرب فى شروقه وغروبه . هذه حقيقة شهودية قد أيدتها شهادة الناس بالإجماع ألوفا من السنين ، فكيف يتجاسر العلم نفسه مع ذلك على أن يؤكد لنا بأن هذه الحقيقة المقررة بالمشاهدة من الضلالات التى لا نزاع فيها ؟ وكيف اتفق العالم كله اليوم على التحقق من أنها ضلالة فى الواقع ؟ فإن هـذا السطح اللامع ليس إلا مظهرا كاذبا ، فالشمس فى شكلها الحقيقى كرة لا سطح مستو .

« مما لا فائدة فيه الإكثار من الأمثلة في هذا الباب . فيجب علينا أن نعلن على رءوس الأشهاد أن العالم الخارجي ليس في الواقع على مايعطيه ظاهره .

« إن بعض الفلاسفة من شيعة (بركلي) في القرن السابع عشر ، و (هنرى بوانكاريه) في القرن العشرين ، ذهبوا الى أن الموجود بحق هو الفكر وحده ، وأما الشيء المشعور به أي العالم الخارجي فيمكن أن لا يكون موجودا في الواقع ؛ ولكن هذا غلو يقابل غلو الماديين ، وكلا المذهبين يستويان في الضلال .

« فالمحقق الذي لا يمكن رده هو أننا نعلم بأننا نفكر ، وأننا نجهل حقيقة الواقع وأصول الأشياء التي لا تصلنا حواسنا إلا بظواهرها فقط .

« أما الزعم بأننا ندرك حقيقة الواقع فليس من العلم في شيء ، لأننا متحققون أن مشاعرنا لا تكشف لنا إلا جزءا منه ، وهي لا تكشف هذا الجزء إلا مناسبا لمشاعرنا . فلو كانت كرتنا الأرضية محاطة بالسحب دائما لكنا جهلنا وجود الشمس والقمر والكواكب ، وكان المجموع العالمي يبقى مجهولا عندنا الى حد كان معه العلم الانساني يستحيل الى جهالات لا علاج لها .

« إذا تقرر هذا فالذي نعلمه ليس بشيء في جانب مانجهله ، فالانخداع بالظاهر هو القاعدة الواهية لأفكارنا وشعوراتنا . وأول مظهر من مظاهر هذا الانخداع الحسي هو شعورنا بسكون الأرض ، فيتخيل الانسان بأنه قائم في مركز العالم ويبني على ذلك خيالات عن طريق الاستنتاج . فالانسانية تعيش في جهالة بعيدة الغور ، وهي لا تدرى أن تركيبنا الجثماني الطبيعي لا يعرفنا بحقيقة الواقع ، فحواسنا كما رأيت تخدعنا في كل شيء ، ولكن التحليل العلمي وحده هو الذي يؤاتي عقولنا ببصيص من النور .

« كيف يتجرأ المتجرىء على الزعم بأن تحديد الكائن الانساني يمكن أن ينحصر في هذه الكلمات التي يعرفه بها الماديون ، وهي : أنه نسيج من اللحم يحيط بهيكل من العظام . أو في هذه الكلمات الأخرى ، وهي : أنه تركيب من ذرات الأوكسيجين

والايدروجين والكربون والأزوت . أو فى هـذه العبارة ، وهى : أن الانسان هو ٦ كيلو غرامات من العظام ، و ٥ من المواد الزلالية والليفية ، و ٥٠ من الماء . أو فى قولهم : إن الانسان رزمة من الأعصاب ؟

« ولكن الأفضل من هذا كله تحديد (بونالد) للانسان ، فقد قال : « الانسان عقل تخدمه أعضاء » .

« ونحن نعلن هنا أن الإنسان فى أصله عقل سواء أعلم ذلك أم جهله . أما يحمل كل منا فى نفسه عاطفة العدل ؟ أما يشعر الطفل الذى يعاقب بعدل أنه قد استحق العقوبة ؟ والذى يعاقب بظلم أما تجده ثائرا على المظلمة ؟ فمن أين أتاه هذا الشعور الأولى ؟ أتاه من عالم العقل ، ولا يوجد قياس مشترك بين هـذا العالم العقلى الروحانى الأدبى ، وبين الظواهر الطبيعية الكيماوية للمادة المخية .

« والإرادة كما لا يخفى قوة من القوى العقلية . فلنضرب لهـا مثلا واحدا من ألف : أراد نابليون أن يفتح الأرض كلها ، وضحى كل شىء فى هذا المطمع ، فامتحن أعماله كلها حتى أصغر عمل منها ، من أول وقعة فى مصر الى معركة (وترلو) التى أسر فيها ، فتأمل ترأنه لا الفيزيولوجيا ولا الكيمياء ولا علم الطبيعة ولا الميكانيكا تستطيع أن تعلل قيام شخصيته ، ولا استمرار أفكاره ، ولا ثباته وإصراره ، فهل كانت هذه الصفات كلها ذبذبات مخية كما يدعيه الماديون فى أمثالها ؟ ليس هـذا التعليل بكاف ، ولا بد من أن يكون هناك كائن مفكر ، ليس هـذا المخ إلا آلة له . فليست العين هى التى ترى ، ولا المخ هو الذى يفكر .

« إن دراسة كوكب من الكواكب بالتاسكوب لا يمكن أن تعزى الى الآلة ، ولا الى العين ، ولا الى المخ ، ولكن الى عقل الفلكى الذى يبحث ويجد .

« والإرادة الانسانية وحدها تكفى لإثبات وجود العالم الروحانى ، العالم المفكر ، مخالفا للعالم المادى المنظور المحسوس .

« إن تأثير الإرادة ليظهر فى كل شىء ، ويمكن أن نلاحظ ذلك بغاية السهولة فيما يلى :

« أنا الآن جالس على كرسى ، ويداى موضوعتان على ركبتىَّ ، فقد ألعب بأصابع يدى اليسرى فأرفع واحدا بعد آخر بيدى اليمنى ، فتسقط بعد رفعها ، ولكنى لو أردت أن لا تسقط بقيت مرتفعة . فما هو ذلك الشىء الذى يؤثر على عضلاتها ؟

الجواب هين : هو إرادتى . فتوجد إذاً قوة عقلية تؤثر على المادة ، وهذه القوة متعلقة بمخى ، هذا مما لا مشاحة فيه ، ولكن هذه الإرادة آخر ما يقال عنها أنها فكرة ، وهذه الفكرة تؤثر على المادة ، وسببها الأول ليس فى المخ ، لأن ذبذباته ليست إلا معلولات لا عللا . فلننظر الآن الى قوة الانسان المفكرة على الخصوص ، فإنها الدليل المستمر على وجود الروح . فالفكر هو أثمن ما يملكه الانسان ، وهو أشد الأشياء تميزا بشخصيته ، واستقلالا عن غيره ، فحريته لا يمكن العدوان عليها . فانك تستطيع أن تعذب الجسد ، وأن تحبسه ، وأن تقتاده ، ولكنك لا تستطيع أن تعمل شيئا ضد القوة الفكرية ، فكل ما تعمله أو تقوله لا يؤثر عليها ، فهى تهزأ بكل شىء ، وتحتقر كل شىء ؛ فإذا لعبت دورا هزليا ، أو حملها النفاق على الكذب ، أو ألبسها الطمع وجها مستعارا خداعا ، بقيت هى على ما كانت عليها ملمة بما تريده . أليس هذا شهادة واقعية على وجود الكائن النفسانى مستقلا عن المخ ؟

« فليست المادة وليست مجموعة الذرات الجسدية هى التى تفكر ، والقول بأن المخ يحس ويفكر يعتبر الآن من هذيانات الطفولة ، وهو يكون بمنزلة نسبة رسالة تلغرافية الى الآلة المولدة لها لا الى مرسلها .

« فالعقل والفكر والاتجاه النفسى ليس من المادة ولا من القوة فى شىء ، فالكرة الأرضية التى تدور حول الشمس ، والحجر الذى يسقط ، والماء الذى يجرى ، والحرارة التى تمدد أو تقصر المسافات بين ذرات الأجسام ، هذه كلها تمثل لنا المادة ، ولكن

التفكر والتعقل والاتجاه وراء مقصد معين كل ذلك شيء آخر، وفيه دلالة على وجود أصل مخالف لغيره كل المخالفة .

« البراهين على استقلال الشخصية الانسانية عن الجسم لا يحصى لها عدد ، ونحتاج في سردها الى كتاب خاص ، وقد قدرها قدرها كل منا مرات عديدة .

« هذه البراهين ماثلة أمام أعيننا كل يوم ، فاحتقار الشدائد ، والقدرة على التخلص من أنياب الحاجة الملحة ، والإخلاص للأغراض الشريفة ، وتضحية الحياة في سبيل سلامة الوطن ، وإرادة التغلب والقهر ، والتجرد للدعوة العلمية أو الدينية ، وتحمل آلام التعذيب لنصرة ما يعتقده الانسان حقا ، أليست هذه الصفات كلها مظاهر لوجود الروح ، فإن مفرزات مادية ، شبيهة كما يزعمون بمفرزات الكلى ، لا يعقل أن تولد شخصيات عقلية على ما ترى ؟

« وقد أقام منذ زمان طويل (سنة ١٨٦٨) عالم مشهور اسمه المسيو (رامون دولا سارجا) العضو في المجمع العلمي برهانا جديدا على وجود الروح بدرس تأثير الكلوروفورم والكورار على البنية الحيوانية . قال العالم المذكور :

« إن استنشاق أبخرة الأثير والكلورو فورم يبطل الحس العام بحيث يمكن أن يخضع الأشخاص الذين يقعون في تلك الحالة الفيزيولوجية لتحمل الأعمال الجراحية الخطيرة دون أن يشعروا بها. والأشخاص الواقعون تحت تأثير الأثير أو الكلوروفورم لا تقتصر حالتهم على عدم الشعور بألم بينما تمزق الآلات أنسجة أجسادهم ، ولا على بقائهم غير شاعرين بجروحهم وقروحهم التي لو حدثت لهم في حالة يقظة لحملتهم على الصياح من الألم والذعر ؛ بل يحدث غالبا أنهم وهم تحت تأثير الكلورو فورم يشعرون بتأثرات لطيفة ولذيذة بواسطة أرواحهم وهم في هذه الحالة من النوم العميق » .

« رامون دولا سارجا هذا قدم هذه الظاهرة معتبرا إياها دليلا علميا على وجود الروح ، لأنه يتضح منها أن الروح والجسد ليسا شيئا واحدا ، وقد رأينا أن الروح

تستمر على التفكر بينما الجسد تحت تأثير الأثير أو الكلوروفورم خاضع لفعل الآلات الحديدية . فهذان العنصران من المجموع الانسانى قد ظهرا هنا متميزين بفعل العامل المبطل للحس .

« وقد دهش هذا العالم الأسبانى مما حدث لامرأته وهى تحت تأثير الكلوروفورم لأنها حفظت فكرها سليما وقتما كانت متخدرة ، وأثبتت له أن عقلها لم يصب بأقل تأثير فى ذلك الحين ، فكانت تتكلم بهدوء وسكينة مع الجراح بينما كان يشق لحمها وأعصابها بمشرطه ، وقالت لزوجها وهى فى تلك الحالة إن أفكارها كانت لذيذة » انتهى .

وقد رأينا أن نلم فى المقالات التالية بالبراهين العقلية على وجود الروح وبطلان الشبه التى يدلى بها الماديون فى سبيل نفيها ؟ **محمد فريد وجدى**

اسرار سحر البيان

قال أبو العباس بن المعتز وهو من أعلم خلفاء العباسيين :

« القلب أسرع خطرة من لحظة العين وأبعد مجالا ، وهى الغائصة فى أعماق أودية الفكر ، والمتأملة لوجوه العواقب ، والجامعة بين ما غاب وحضر ، والميزان الشاهد على ما نفع وضر . القلب كالممل للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت . والعاقل يكسو المعانى وشى الكلام فى قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس فى أحسن زينة ، والجاهل يستعجل باظهار المعانى قبل العناية بتزيين معارضها ، واستكمال محاسنها » .

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكى : ما البيان ؟ فقال :

« أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويكشف عن مغزاك ، ويخرجه من الشركة ، ولا يستعان عليه بالفكرة ، ويكون سليما من التكلف ، بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التاويل .

وكان أبو داود يقول : « تخليص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشديق فى الاعراب نقص ، والنظر فى عيون الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج عما بنى عليه الكلام إسهاب » .

سيرة أبي عبيدة بن الجراح

إن ديننا كالاسلام فى سمو أصوله ، وحكمة مبادئه ، وعالمية أغراضه ، لا يمكن أن ينحصر فى بقعة واحدة من الأرض ، وإن حوصر فيها وأحيط بالموانع من كل جانب كسر كل الحوائل وامتد حتى يعم الأرض شرقا وغربا ، وكذلك كان ، فإنه بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقد كمل الدين وتمت نعمة الله على الناس ، دفعت عوامل الحياة الاجتماعية المسلمين الأولين الى الانسياح فى الأرض ، فعهد أبو بكر أمير المؤمنين الى خالد بن الوليد أن يفتح الشام على الرومانيين ، وناهيك بالرومانيين : أمة عركت الحوادث ، وبلغت من المدنية أقصى ما قدر للناس فى ذلك العهد ، ولها فى الفروسة والبطولة آيات أى آيات .

صدع خالد بن الوليد بالأمر ، وما هى إلا مناوشات بين المسلمين والرومانيين حتى فوجئ الناس بموت أبى بكر وانتخاب عمر الفاروق للخلافة ، فعزل خالدا عن قيادة الجيش وسلمها أبا عبيدة بن الجراح ، فاعتبر أبو عبيدة فاتحا للشام لأنه تولى جميع وقائعها .

فإذا قلنا إن أبا عبيدة فتح الشام ، فمعنى ذلك أنه تولى أول خطوة خطاها الاسلام فى سبيل تحقيق مبادئه العالمية ، فكان حقا علينا أن نأتى على ترجمة حياة ذلك القائد الذى فتح الله به للاسلام باب الانتشار فى الأرض :

نسب أبى عبيدة بن الجراح ونشأته واسلامه :

كان أبو عبيدة أحد كبار الصحابة وأعلام المسلمين الأولين ، وهو واحد من العشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . اسمه عامر بن عبد الله ابن الجراح بن هلال بن أهيب بن منبه بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة . اشتهر بكنيته ونسبه الى جده .

وأمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامر بن عميرة . وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر . أدركت أمه الاسلام وأسلمت .

كان أبو عبيدة فى الجاهلية محترما فى قومه ، معروفا بأصالة الرأى وسداده فيهم ، موصوفا بالدهاء والتدبير ، فكان يقال : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح .

أسلم أبو عبيدة فى أول ظهور الاسلام . روى ابن عساكر فى تاريخه عن يزيد ابن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعبد الرحمن ابن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه ، فأسلموا فى ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها سرا ، وكان إسلامهم فى بعض الروايات بدعوة أبى بكر ، رضى الله عنهم أجمعين .

كان أبو عبيدة قوىّ الاسلام ، صادقا فى حب نبيه ، حتى سماه صلى الله عليه وسلم أمين هذه الأمة . روى عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا . ابعث لنا رجلا أمينا ، فقال : « لأبعثن إليكم أمينا حق أمين» . فاستشرف لها الناس (أى تطلعوا للرجل الذى يصفه النبى بهذا الوصف) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح .

شهد أبو عبيدة المشاهد الكبرى كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد ، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجه رسول الله من المغفر يومئذ ، فانتزعت ثنيتاه فحسنتا فاه وصار أهتم ، فما رئى قط أحسن منه هتما .

روى ابن عساكر عن عمر بن الخطاب أنه قال ، وهو يجود بنفسه من الجرح الذى أصابه : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت ، فإن سئلت عنه قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

تولية أبى بكر لأبى عبيدة قيادة الجيوش ضد الرومانيين :

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة سلم أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التى

أرسلها الى الشام ، وأمره أن يقصد حمص ليفتحها . ولما تولى عمر بعد أبي بكر جعل له القيادة العامة على جيوش الشام ، ففتح أبو عبيدة دمشق بعد أن حاصرها سبعين ليلة ، وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الأمراء ، لكي يشغلوا جيش الرومان عن إمداد دمشق ، حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد . ولما فتحها استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ، ثم سار هو الى فِحل من أرض الأرْدُن وهزم هناك جيوش الرومان ، وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحاه على صلح دمشق ، ثم بعد أن وجه يزيد بن أبي سفيان الى سواحل دمشق قصد هو الى حمص عن طريق بعلبك ، وقدم اليه السمط بن الأسود الكندى ، وقدّم خالدا الى البقاع ، ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه ، فكتب لهم بذلك عهدا . ثم ذهب الى حمص ، فافتتحها أيضا . ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص . ثم سار الى حماه فصالحه أهلها . ثم توجه الى حلب وقدم خالدا الى قِنّسرين ، وعبادة بن الصامت الى اللاذقية .

فاضطر أبو عبيدة الى حصار حلب ، وسار الى حاضرها فافتتحها ، ثم قصد أنطاكية وجيوشه تحاصر حلبا ، فكتب اليه عمر بالرجوع الى حلب وإتمام فتحها فعاد وفتحها صلحا.

ثم سير جيوشه تجوس خلال الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت نهر الفرات شرقا وآسيا الصغرى شمالا ، وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا من قواده ، ورتب فيها المرابطين والجنود ، ونظم شئون البلاد ، وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل ، وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والأناة والرفق ، حتى صار سلطان المسلمين أحب اليهم من سلطان الرومان . ولم يضرب عليهم من الضرائب ما يبهظهم ، فأسقط مما كانوا يدفعون للرومانيين شيئا كثيرا .

صفات أبي عبيدة وأخلاقه :

كان أبو عبيدة متواضعا ، زاهدا تقيا ، رزينا لين الجانب ، عالما بالشرع ، ماهرا في فنون الحرب .

روى ابن عساكر فى تاريخه عن عمر بن الخطاب أنه قال يوما لجلسائه : تمنوا ، فتمنى كل رجل منهم ما فى نفسه ، فقال عمر بن الخطاب : لكنى أتمنى بيتا ممتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح . فقال له رجل : ما ألوت الاسلام يا أمير المؤمنين (أى ما نقصته حقه) . فقال عمر : ذاك الذى أردت .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : ثلاثة من قريش أصبحُ الناس وجوها ، وأحسنهم أخلاقا ، وأثبتهم جنانا ، إن حدثوك لم يكذبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح .

أخرج الجزرى فى (أسد الغابة) ، وابن عساكر فى تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه أمراء الأجناد ، وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخى ؟ قالوا : من هو ؟ قال : أبو عبيدة . قالوا : يأتيك الآن . قال : فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس : انصرفوا عنا . فسار عمر معه حتى أتى الى منزله ، فنزل عليه فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه . فقال عمر : لو اتخذت متاعا ، أو قال : شيئا ؛ فأجابه أبو عبيدة قائلا : ياأمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل .

وروى ابن عساكر عن هذه المقابلة رواية أوسع من تلك عزاها الى ابن عمر فقال : إن عمر لما قدم الشام قال لأبى عبيدة : اذهب بنا الى منزلك ، قال : وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علىّ ! قال فدخل منزله فلم ير شيئا . قال : أين متاعك فإنى لا أرى إلا لبدا وصفحة وشنا وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة أى سلة ، فأخذ منها كسيرات . فبكى عمر . فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك علىّ يا أمير المؤمنين ، يكفيك ما بلغك المقيل . قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

وروى ابن عساكر أيضا عن قتادة قال : قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام :

« يأيها الناس إنى امرؤ من قريش ، وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه (أى جلده) » .

وروى ابن عساكر عن موسى بن عقبة أن عمرو بن العاص لما كان فى غزوة ذات السلاسل بمشارف الشام على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخاف من جانبه الذى هو به بعث الى رسول الله يستمده ، فندب رسول الله رجالا من المهاجرين والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وأمد بهم عمرو بن العاص ، فلما قدموا على عمرو قال لهم : أنا أميركم وأنا أرسلت الى رسول الله أستمده بكم . فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك ، وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمددت بكم .

فلما رأى ذلك أبو عبيدة ، وكان رجلا حسن الخلق ، لين الشيمة ، متبعا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده قال : تعلم أن آخر ما عهد الىّ رسول الله أنه قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ، وإنك إن عصيتنى لأطيعنك . فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص .

وأخرج ابن عساكر عن أبى البحترى قال : قال عمر لأبى عبيدة (أى يوم انتخاب أول خليفة لرسول الله) : هلم أبايعك ، فإنى سمعت رسول الله يقول : إنك أمين هذه الأمة . فقال أبو عبيدة : كيف أصلى بين يدى رجل أمره رسول الله أن يؤمّنا حتى قبض . يعنى بذلك الرجل أبا بكر الصديق إذ أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى بالناس مكانه مدة مرضه .

وأخرج ابن عساكر عن جابر قال :

كنت فى الجيش الذى مع خالد بن الوليد أمد به أبا عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق . قال أبو عبيدة لخالد : صل بالناس فأنت أحق ، أتيتنى تمدنى . قال : ما كنت لأصلى قدام رجل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول فيه : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وروى ابن عساكر عن أبي الحسن عمران أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في العسكر فيقول : ألا رب مبيض ثيابه ، مسود لدينه ، ألا رب مكرام لنفسه وهو لها عدو مهين . ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرها .

وفاة أبي عبيدة بالشام :

لما اشتد فتك الطاعون في الشام خاف عمر على أبي عبيدة فاستدعاه اليه . فكتب اليه أبو عبيدة : إني في جند من المسلمين ولن أرغب بنفسي عنهم ، وإني قد علمت حاجة أمير المؤمنين التي عرضت له ، وإنك تستبقي من ليس بباق . فإذا أتاك كتابي هذا فخللني من عزمتك ، وأذن لي في الجلوس .

انتشر الطاعون بالشام وكان أبو عبيدة مع ستة وثلاثين ألفا من المسلمين فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ، ومات كثير من أقطابهم ، منهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان . وقد اختلف في مكان وفاة أبي عبيدة : فمن قائل إنه ميسان ، ومن قائل إنه عمواس ، ومن قائل إنه في الأردن ، ولم يمكن ترجيح إحدى الروايات على الأخرى .

وجاء في (أسد الغابة) عن عروة بن رويم : أن أبا عبيدة انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس فأدركه أجله بفحل فتوفي فيها .

وعن سعيد المَقْبُرى قال : لما طعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال :

« إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وحجوا واعتمروا ، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ، ولا تلهكم الدنيا ، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير الى مصرعي هذا الذي ترون . الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، وأكيسهم أطوعهم له ،

وأعمالهم ليوم معاده . والسلام عليكم ورحمة الله ، يا معاذ بن جبل : صل بالناس » ، ومات رحمه الله .

فقام معاذ بن جبل فى الناس فقال : « يأيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا ، فإن عبدا لا يلقى الله تائبا من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له . من كان عليه دين فليقضه ، فإن العبد مرتبط بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث . والله إنكم أيها المسلمون فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح للعامة منه ، فترحموا عليه يرحمه الله ، واحضروا الصلاة عليه » .

كانت وفاته رضى الله عنه سنة (١٨) للهجرة .

هذا الرجل هو أول من وكل اليه فتح الباب العالى فى وجه المسلمين . كان جامعا فى شخصه بين ورع النساك المتبتلين ، وخبرة القادة المحنكين ، فلم يكن يجرجر أذيال السندس والإستبرق ، ويركب الجياد ذات السرج المحلاة بالعسجد ، ويجول مختالا بين الصفوف تحتف به الكماة وترفع على رأسه المظال الحريرية ، ولكنه كان كواحد من جنوده يلبس الأسمال ، ويأوى الى كوخ ، ويركب على حصان سرجه من ليف ، لم ير أنه بصدد حرب يرجو من ورائها بعد الصيت وخلود الذكر ، فيسرف فى القتل ، ويحرق المدائن ، وينسف الدساكر ، ويؤيم النساء ، وييتم الولدان ، ويبعث الرعب فى القلوب حتى تصطك الأسنان عند ذكر اسمه ، وترتعد الفرائص من تخيل شبحه .

لم يكن أبو عبيدة كذلك ، ولكن كان هينا لينا وادعا ، يسر فى نفسه الرحمة والعدل بالمقهورين ، ويضمر العفو والصفح عن قادتهم المستسلمين .

فهذه السيرة جعلت من الشام وطنا ثانيا للاسلام ، حتى إن معاوية وبنيه اتخذوها مقرا للخلافة ، فأصبحت بيئة للذادة عن حماها ، ومعششا للذايين عن بيضتها عشرات من السنين .

محمد فريد وجدى

by the rising tide of sensual life and dissipation and have become so rebellious against the established laws of society that it seems well-nigh impossible to effect any reform or to bring them back to the fold of law-abiding individuals. The seriousness of this could not be overstimated, for it spells complete disintegration of our already effete civilisation.

But the remedy is not far to seek. Islam offers the panacea for all the world's complaints. It has proved itself equal to a similar emergency in the past when the world was plunged in the abysmal depths of chaos and disorder, and there is every indication that it will meet with the same success in its present struggle against the forces of evil which pervade the world to-day.

Bernard Shaw has rightly weighed those indications when he predicted that the world shall come to Islam before the close of the century. And in this connection, The Lord's saying is significant:

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily, herein is a warning to him who hath an understanding heart or him who hearkenth unto it and is present with an attention mind"

(*Baidawy's Commentary*).

---

other nations have failed to achieve in several centuries. Would it not be astounding to say that their dominion in the reign of Soliman Ibn Abdul-Malek in the year 96 of the Higra attained greater dimensions than that of the Romans in full eight centuries? Indeed, this surprising rapidity has baffled investigators who continued to seek its causes up to the present day and tried to account for it by different lines of thought and arguments. The truth, however, is that the early Moslems did not set out to achieve their ends with the hearts and intentions of ordinary conquerors, otherwise, they would have come across the same obstacles which other conquerors met before them. But they pursued their ends with hearts which sought not to exalt themselves on earth or to act corruptly therein. Their spirits were in communion with the very heart of truth and thus through divine support they have attained the might and dominion that was theirs.

This is the only reasonable theory which could account for the ascendancy and dominion of the Arabs in less than one tenth of the time that other nations took to establish their power yet failed to achieve their ends. One may add to this the great difference of the principle by which their conquests were inspired. For while the conquests of other nations were inspired by greed and aggrandisement, those of the Moslems were motivated by a spirit of good will to spread culture and true enlightenment over the rest of the world.

Islam is still the eternal Religion which calls individuals and communities to reform themselves through the purgation of their hearts of evil tendencies and sensual desires. Once this principle is established, the dark clouds of disaster hanging heavily over the world will lift up and new horizons will appear holding out fresh hopes of a much-needed peace.

But if the reform of human character is essential for nations to curb the tendency to moral and social abuses, it is more incumbent to-day than ever before. For the tide of evil is at its highest to-day, and individuals and communities have been carried away

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And put me not to shame on the day when mankind shall be raised, the day when neither riches nor children shall avail, except to him who shall come unto Allah with a sound heart "

(*Baidawy's Commentary*).

The Prophet (on when be peace) says of those who hardened their hearts in life :

" A woman was chastised in hell fire on account of a cat which she fed not, nor did she leave to eat of the insects of the earth "

In the light of these teachings the early Moslems had vigourrusly sought the education of both mind and heart; minds to distinguish between truth and falsehood, and hearts with which to get rid of animal tendencies and purge themselves of the taints of sensual desires. Thus through the combination of the influence of both heart and mind, the Arab people attained to the highest pinnacle of glory. They combined strength and asceticism. Their bodies presented the picture of power and animation while their hearts were founts of charity and kindness. By their concerted efforts, they succeeded to demolish the edifice of falsehood and to establish the kingdom of truth and in a few numbered years, they became truly the viceregents of God on earth !

In a short time, those people had accomplished great tasks which

" They have hearts by which they understand not the truth; they have eyes by which they behold not the creation of God and they have ears by which they hearken not to the signs and warning of Allah"

(*Baidawy's Commentary*).

And :

« فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Verily, it is not their eyes that are blind, but it is their hearts in their breasts that are blind to see the truth"

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord be praised belittled the bodily infirmities as compared with those of the heart. He declares that the soundness of the heart is all in all and that the soundness of the body is nothing to compare with it. Indeed, no greater honour could be ascribed to the education of the heart and the attention given to its purification of all moral diseases.

Nor was that all. The function of the heart was further extended to another sphere. The deliverance on the Last Day from punishment is made dependant upon the soundness of heart from all moral diseases, and in this connection the Koran says :

the active support of the heart. Were this not so, no one on earth would have committed a sin, for the least enlightened of men understands the evils involved in sin but lacks the power of heart to dissuade him therefrom.

The Lord be praised, has pointed out that hearts suffering from moral disease are incapable of discharging their noble mission in the life of man. In this connection the Lord saith :

« فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Diseased are their hearts with ignorance and disbelief"

(Baidawy's Commentary).

By the preceeding verse, The Lord has accounted for the refusal of the unbelievers to admit the truth. For if their hearts were sound, nothing would have deterred them from admitting it. In this connection, the Prophet (on whom be peace) says :

"Yea, verily, there is a small part of the body, if it is sound the whole body is rendered sound, and if it is diseased, the whole body is rendered diseased; this part is the heart".

The influence of the heart was further emphasised by the Lord in the following verses:

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

neglected the education of heart, offer the proof to bear out our assertion. They suffer much from the moral laxity which has prevailed despite the herculean efforts in the direction of mind education. We can find no stronger or clearer evidence to prove that the influence of mind alone is not enough to reform human character and that the influence of heart is most essential for the attainment of the desired perfection.

It is with that end in view, that Islam has given the same attention to the education of the heart as it has given to the mind. For, as mind was endowed with influence to distinguish between truth and falsehood, so was the heart endowed with influence to guide man to noble sentiments and to cleave for him an opening into the spirit world from which he may receive a breath to fortify himself against the passionate inclinations of the body.

The Lord be praised saith :

» إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ «

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily, herein is a warning to him who hath an understanding heart"

(*Baidawy's Commentary*).

In the preceeding verse The Lord hath said " to him who hath a heart" and not "to him who hath a mind", indicating thereby the influence of the heart as regards admonition and the insufficiency of the mind in that respect. For man could appreciate by his mind the evil consequences of sin but he could not desist from it except with

feeling and noble sentiments are the requisites of heart whose function is to appreciate the beauty in everything and to set perfection as the highest ideal to be attained in life. With these two spiritual phases, man is required to establish himself in such a way as to enable him to derive the utmost benefit from both and obviate all possible friction that might arise between them in order that he may attain to the highest status of social and intellectual development.

Investigation of conditions of different human societies has shown that unless these two spiritual phases are held in equilibrium, the life of a nation will be in jeopardy. For if the influence of one of them overwhelms the the other, disorder will set in, to the same extent, in the nation's affairs and will render her open to disaster. It will be either overcome by a rival nation or succumb to the forces of disintegration which are let loose by the internal factors of disorder.

Here some one may ask : Is it not sufficient, when mind is embued with learning and has come to consider matters in the light of facts, to set it as the sole arbiter of truth ? And does it not follow that all that you attribute to the heart, including feeling, noble sentiment, appreciation of beauty and seeking the ideal of perfection, should come as a natural consequence to the functions of mind ?

No, indeed; for this is exactly the same fallacy in which the exponents of the modern school of education have fallen. They confined education to the mind only and neglected the heart, with the result that the essential equilibrium between mind and heart was lost.

The condition of the present generation brought up in this way is perhaps the best argument against that doctrine. The present day generation is growing more and more heedless of moral codes. In fact there are individuals who hold absolute moral freedom for a code and publicly advocate it in equivocal terms, aiming thereby to glorify sensual gratification and assign to it the highest place in the hearts of men. Literature which is published in millions to-day contains nothing other than the glorification of sensual desires and gratification, and people seem to breathe in an atmosphere heavily charged with excitement and desires. Civilised nations which

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

X.

CALL TO PURGATION OF HEARTS.

Man is endowed with reason and heart, and though they are two phases of his guiding spirit, yet they many be regarded as independent on account of their different functions in his moral life. Each of them demands certain requisites and exercises certain influence. Learning is the requisite of mind whose function is the consideration and examination of things to get to the truth. While on the other hand

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in " Nour-El-Islam " Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

- ١٤ -

دعوته الى قرن العلم بالعمل وحثه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لا نعرف علة أهلكت الناس قديما وحديثا ، وأشد فتكا من إهمالهم العمل بما يعلمون . فهذه العلة كما دنست حياة الأفراد ، ورانت على نفوسهم وقلوبهم ، فحالت بينهم وبين بلوغ أقصى درجات الكمال ، وجعلت علمهم شرا عليهم من الجهل ، كذلك فعلت بالجماعات فأفسدت كيانها ، وفككت أوصالها ، وقذفت بها فى أحضان الجاهلية ، رغما من بلوغ العلم فيها الى درجة كان يصلح معها أن يوجد لها مدنية فاضلة ، خالصة من جميع رعونات الحيوانية .

خلق الله النفس البشرية وحلاها بعلم ضرورى ، من إدراك الحسن والقبيح ، والصالح والفاسد ، وكان هذا العلم الفطرى وحده يكفى لو عملت به أن يقيمها على جادّة التكمل ، ويفتح لها بابا الى الرقى المطرد ، ولكن التعاليم الفاسدة التى تحيط بها تدفعها للتهاون فى العمل بما تعلم ، فتحيق بها آثار أعمالها السيئة ، قال الله تعالى : « فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » وقال : « فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وقد صرح علم الاجتماع بهذه الحقيقة فقرر أن للحوادث منطقا لا يختل قسطاسه ، وأن كل عمل تلزمه ثمرة حسنة أو ثمرة سيئة ، مناسبة له ومقدرة به تقديرا دقيقا .

لهذه الاعتبارات جاء الإسلام مشددا فى وجوب قرن العلم بالعمل ، فقال تعالى :

«يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» وقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وزاد الاسلام الإنسان معرفة بأثر العمل فى حياته الدنيوية ، فكشف له سرا خطيرا من أسرار العلم ، وهو أن الفساد الذى يشكو منه الإنسان فى نُظُمه الاجتماعية ، وضروب الشر الشائعة فى شئونه المعيشية ، وصنوف الويلات التى تصيبه فى نفسه وعرضه وماله ، كل ذلك نتائج لمقدمات وضعها الانسان بنفسه ، وثمرات لبذور من الفتن غرسها بيده ، فإذا كان بعد ذلك شاكيا من شىء فليشكون حمقه ، ولا يلومن إلا نفسه ، فقال تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون» . فإذا كان الأمر جاريا على هذه السنة فكيف لا يسارع الإنسان الى العزوف عن الموبقات ، والإقبال على الأعمال التى تعود عليه وعلى قومه بالخير والفلاح ؟

وقد زاد الله هذا الموضوع بيانا فقال تعالى : «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

وقال تعالى : «ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

وقال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» .

وقال تعالى : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

ثم أولى الله هذا الموضوع عناية خاصة هو جدير بها ، إذ أبان أنه يشهد كل ما جل وحقر من أعمال الانسان ، وهذا موقف لو تصوره الانسان حق تصوره وهو يأتى المنكر ، لما أقدم عليه ، ولكان همه منصرفا الى الإتيان بالصالحات ، ليشهد الله منه على ما يوجب له الزلفى عنده ، وهى غاية غايات السعادة ، فقال تعالى : « وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ،

وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

وقال تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

هذا أسلوب بليغ فى تحبيب العمل الصالح الى الانسان ، فلا عجب أن ظهرت الأمة الاسلامية تحت سلطانه أمة اتخذت الفضائل روحا لوجودها ، وأساسا لأعمالها ، وهذا مالم يوجد له شبيه فى تاريخ البشر قاطبة . فإن الذى يراه المتأمل فى شئون المجتمعات المختلفة أن الفضائل كانت تعتبر فى نظر الشعوب حُلًى يتحلى بها بعض الأفراد النابهين ، والفلاسفة المقدمين ، أما الدهماء من الشعوب فكانت تُتْرك لأهوائها وميولها ، تخوض من غمراتها ما تخوض ، من غير رقيب ولا حسيب .

أما الاسلام فإنه لم يكتف بمجرد الدعوة الى الآداب الكريمة والخصال الشريفة والفضائل العلمية والعملية ، ولكنه نصب من المسلمين على أنفسهم رقباء منهم يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويراقبون أعمالهم ، فاذا آنسوا منكرا عمدوا الى منعه ومجازاة مرتكبه ، فكان هذا النظام حافظا للمجتمع الاسلامى من أن تشيع فيه المنكرات وتنتشر الموبقات .

الخلاصة أن المسلمين مكلفون بالعمل بما يعلمون تكليفا لا هوادة فيه . فإن أطاعوا وعدهم الله بأن يبارك لهم فى أعمالهم ، ويوفقهم فى محاولاتهم ، ويفتح عليهم علوما جديدة لم يكونوا يحلمون بها ، قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وإن عصوا واكتفوا من العلم بتحصيله دون العمل به ، أوعدهم الله بفتح باب الفتن عليهم ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون .

ومما يجب أن يلاحظه القارئ أنه ما من آية ذكر الله فيها (الذين آمنوا) إلا أضاف اليهم (وعملوا الصالحات) ، إشارة منه تعالى أن الايمان يجب أن يكون مقرونا بالعمل ، فهو مظهره فى عالم الشهادة ، وثمرته فى مهلة الحياة ، وما لا مظهر له فوهوم ، وما لا ثمرة له فعقيم .

وكما امتاز المسلمون بقرن العلم بالعمل فى الناحية الروحية ، كذلك امتازوا بتطبيق النظريات الكونية على التجارب العملية وكانت هذه الخصلة القوية فيهم نفحة من نفحات دينهم الذى يأمرهم بالنظر والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وتخير الأحسن من كل شىء ، واستصلاح معيشتهم بكل مايستطيعون من الوسائل المشروعة ، وأشرب نفوسهم الاعتقاد بأنه ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه ، فتيقظت فى نفوسهم غريزة التكمل فى كل شىء . لذلك ما كادوا يتصلون بالأمم ذات المدنيات القديمة ويأخذون عنها المعارف الطبيعية حتى أكبوا على العمل بها ، والاستفادة منها ، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى أصبحوا أئمة العلم والعمل فى الأرض ، وكانوا سببا مباشرا فى إحياء العلوم التى تركها الأولون ، وأهملها أعقابهم من بعدهم ، فبعثوها من مرقدها وتعهدوها بوسائل الحياة ، فنمت وازدادت مادتها ، وأدتهم الى اكتشاف علوم جديدة ، والوقوف على مساتير كان لايتخيل أحد لها وجودا قبلهم . وقد شهد لهم كبار المؤرخين الأجانب بهذه المكانة الأدبية فى العالم ، فقال العلامة الفرنسى (جوستاف لوبون) فى كتابه تمدن العرب :

«العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع ، فقدأكسبت علومهم صنائعهم جودة عظيمة جدا . وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، فإننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأنهم برعوا جدا فى الصباغة ، ومهروا فى صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن (تأمل) » .

فالأستاذ جوستاف لوبون يشهد بأن العرب طبقوا العلوم التى اقتبسوها على العمل ، فبلغوا فى الصنائع شأوا لم يصل اليه من تقدمهم ، ويعترف بأن العلم الغربى لم يزل يجهل الطرائق التى سلكوها لذلك ، وأنهم برعوا فى بعضها براعة لم يلحق لهم شأو فيها الى اليوم .

وقد اعترف الأستاذ (درابر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) بأن المسلمين فى إبان نهضتهم كانوا آخذين بالأسلوب العملى، وذلك كما يقول: « لأنهم تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الى التقدم، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها. من هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى ».

ولا يزال الاسلام الى يومنا هذا يدعو الأمم قاطبة الى قرن العلم بالعمل، والى أن يكون منهم رقباء على أنفسهم وغيرهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيدفعون الناس الى الخير والفلاح، ويجنبونهم مزالق الشرور ومهاوى الموبقات، فلو عمل الناس بهذه الدعوة وحدها، لانقطعت عن الأرض شرور تأخذ اليوم بخنقها ولا تجد منها مخلصا، بل أقول إن العالم قد أصبح فى مأزق من الفتن لا محيص له منها إلا باقتفائهم هذا الأصل الذى نحن بسبيله.

فهذا العلم المادى البحت يقرر أن الخمر أم الخبائث، وأنها علة لأمراض عقام، وجرائم لا تحصى كثرة.

والعلم المادى ينص على ضرر الزنى، وعلى أنه أكبر موجب لفساد الأخلاق، وانحطاط الآداب، ومورث لأقتل الأمراض، ومروج للعزوبة واتخاذ الخدينات، ومن هنا كان أقوى باعث على الترف والسرف والعهارة.

والعلم المادى يحرم المقامرة ويعدها مضيعة للأموال، ومجلبة لانحلال البيوتات، وتأثيرها فى الدهماء أشد من تأثيرها فى أصحاب الثروات، ما منى بها شعب إلا حلت به النكبات المالية فلم يجد لها مصرفا. فما الذى يخلص الأمم من أوضار هذه الشرور وينتشلها من حمأة هذا الداء الوبيل؟

ألست ترى معنا أن ليس لذلك كله من علاج سوى ما دعا اليه الاسلام من قرن العلم بالعمل، وإقامة الناس رقباء على بعضهم يمنعونهم أن يقتربوا من حافة الهلاك وبؤرة العار.

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ». محمد فريد وجدى



قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

لقد رأيت فى المقال السابق فى تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » أن هذه الآية قد جمعت كل المأمورات والمنهيات على سبيل الإجمال ، وكان ذلك فى التكاليف المبتدأ بها من قبل الحكيم العليم . وفى هذه الآية تفصيل لبعض تلك الأحكام بذكر نوع منها قد يتسرب لبعض النفوس التساهل فى أدائه والوفاء به ، وذلك فى الشئون التى لم يوجبها جل شأنه ابتداء ، وإنما أوجبها بالتزام المرء بها من قبل نفسه ، وذلك هو ما يكون من العهود التى تتداول بين الناس ، ومنها الوعود والعقود والأيمان والنذور ؛ فكلها عهود أوجب الله تعالى الوفاء بها ، ورتب إيجابها على ماصدر عن المكلف من التزامها ، فهى من باب قولهم : ما يلزم بالالتزام .

وبدأ سبحانه وتعالى بأجلها قدرا وأعظمها خطرا ، وهو ما صحب التعهد فيه الحلف بالله ، وجعل العهد بين الطرفين كأنه عهد مع الله ، فلذا عبر عنه بقوله : « وأوفوا بعهد الله » .

ومن أجل هـذا التعبير الذى يراد به تأكيد الوجوب وتقوية الداعية للامتثال ، حمل بعض المفسرين العهد هنا على عهد البيعة التى جرت بين المسلمين وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، وقوى ذلك بأنها نزلت فى البيعة . وزعم بعض آخر أنها نزلت فيما كان بين الجاهلية من تعاهد على نصرة المظلوم ، وإيصال الحقوق الى ذويها ، وغير ذلك من أعمال البر .

ولكن سواء أكان سبب نزولها هذا أو ذاك فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالأمر فى الآية شامل للوفاء بكل عهد التزمه صاحبه . ومن الواضح البين أن من أهم ذلك عهد البيعة والاسلام ، فهو واجب كل الوجوب ، بل هو واجب مطلوب وإن لم يلتزمه صاحبه ؛ فهو من الواجبات ابتداء ؛ ويكون دخوله فى هذا القسم للحث على الوفاء وتربية داعية الامتثال . ولا مانع من أن يدخل الحكم الواحد تحت أوامر متعددة حسبما يوجد فيه من جهة تدعو للعناية به وتأكيد لزومه . فهو هنا مأمور به لأنه التزمه المبايع وعاهد الله عليه ؛ وفيما سبق مأمور به لأنه هو أصل الهدى والرحمة التى أنزل بها الكتاب العزيز .

واعلم أن معنا أشياء متقاربة فى أصل المعنى والحكم ، متفاوتة فى مراتبها ، فنها العهد ، ومنها الوعد ، ومنها اليمين ، ومنها النذر . فالعهد : هو ما يجرى بين طرفين من التزام متبادل بأن يقوم كل منهما لصاحبه بعمل نظير قيام الآخر له بما يقابله . وهما غالبا يتواثقان كل منهما من الآخر على وجه يربى الطمأنينة فى نفوسهما . وأكثر ما يجرى ذلك مصحوبا باليمين بالله ، أو إشهاد الله على ما يصنعون ، أو إضافة العهد لله بقولهم : هذا عهد الله ، وأمثال ذلك ، توكيدا وتوثيقا . وهذا القسم هو المتبادر فى هذه الآية الكريمة ، إذ يعبر بعهد الله ثم بقوله إذا عاهدتم مما يدل على أنه مما لزم بالالتزام لا بأصل التكليف ، ثم بقوله فيما يليه : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » الخ . والثانى الوعد وهو : ما يجرى بين الأفراد فى مخالطاتهم ومعاشراتهم ، فيعد المرء صاحبه بأن يعود إليه

أو يقضى له مصلحة أو يحل له مشكلة وعد تبرع فى أصله، ولكنه يلزمه بمقتضى إيمانه، وبمقتضى ما وضع فيه صاحبه من ثقة وطمأنينة . وهذا يلتحق بالأول . ويمكن جعل الآية شاملة له باعتبار أن هذه الثقة التى اكتسبها الواعد فى نفس الموعود مستقاة من التربية الدينية والأحكام الشرعية التى أنعم الله بها على عباده . فما وثق هذا بذاك إلا لاعتقاده أن له من دينه ما يعصمه عن الخلف، فهى ثقة مرجعها كفالة الله له، فكان بذلك هذا الوعد البسيط مكتسبا قوة عهد الله إذ قد أمر الله بالوفاء به . وثالثها اليمين : وهو حلف المرء بالله على فعل من الأفعال ليقومن به أو ليجتنبنه . ورجوع هذا الى معنى عهد الله أمر ظاهر، فإنه قد لزمه بإلزام نفسه إياه بقسمه عليه بعظمة الله، فكأنه قد صار مطالبا أمام هذه العظمة التى أقسم بها، فإذا أخل بالوفاء فقد أخل بما عظمه . ومثل ذلك النذر : وهو التزام طاعة غير واجبة بأصلها، ولكنها قربة مرغوب فيها شرعا، فيوجبها على نفسه تبرعا لا فى مقابل، أو معلقا على حصول مرغوب فيه أو نجاة من مكروه، أو مثل ذلك . وهذا أيضا إيجاب على النفس لله، وتعهد أن يؤدى حتما ما التزمه من القربات النافلة .

فتراها كلها يمكن أن تتناولها الآية الكريمة، لأنها كلها أصبحت عهد الله فى عنق ذلك المتعهد وإن كان أقربها للتناول كما قلنا هو القسم الأول .

والوفاء بالعهد من أجل آيات الإيمان، ومثله الوفاء بالوعد . كما أن الغدر بالعهد والخلف فى الوعد من أشنع آيات النفاق . قال صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » . وقال عليه السلام : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان » . وحسبك بثناء الله عز وجل على إسماعيل عليه السلام بقوله تعالى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » . وكأن تقديم صدق

الوعد على الرسالة والنبوة لأنه لا يمكن أن ينال الرسالة والنبوة من لم يتحل بهذه الصفة العظمى وهى صدق الوعد، فهى كالمقدمة لهما .

ومع عناية الشارع الحكيم بالأمر بالوفاء والحث عليه تجد له من الآثار الاجتماعية ومعاملة الناس بعضهم بعضا ما يجعله مدار الثقة ومناط التعاون الصحيح، فإن الفرد الذى يعرف بالوفاء بما تعهد به تجد كل مصالحه ميسرة، لا يكاد يدخل فى معاملة إلا ويتسابق الناس الى ترجيحه وتفضيله، ولا يكاد يحتاج الى أمر إلا وقد نجز له من غير ما واحد، ولا يكاد يقع فى ورطة إلا وقد انتشل من حيث لا يحتسب . وبعكسه من عرف بالخلف فى الوعد، والنكث للعهد، والغدر والفجور فى التزامه . تجده وقد أجدب من كل ثقة، وتوقفت مصالحه أيما توقف، فمهما صادفه من شديد كرب أو عظيم خطب ولجأ الى أقرب الناس اليه، فإنه لا يجد منه إلا محاولة التملص واختلاق المعاذير ليتخلص من الاشتباك معه، وقد يحلف الأيمان ويقيم أقوى برهان على شدة اضطراره ويكرر التعهد على نفسه بالوفاء فلا يجد إلا آذانا صما وقلوبا غلفا، وكأنه ما سمع أحد منه شكوى ولا درى له سرا ولا نجوى . فكيف حاله إذا نزلت به النوائب ولا أحد فى الدنيا يسلم من تقلب الصروف ؟ وكيف به وقد أحاطت به النوازل واشتد به الكرب وألجأته الضرورة القاسية الشديدة ولا يجد من سميع ولا بصير ؟ هنا لا يجد إلا المهالك والخسران الشديد للنفس والمال وضياع الاعتبار .

وكذلك حال الأمم التى تعرف بتفشى الغدر فيها ونكث العهود، تجدها ضائعة المصالح كاسدة التجارة عديمة المعاونة، ولا بد للناس من الناس .

يحكى أن ملكا من الملوك أمّن خارجا عليه إذا هو ألقى قياد الطاعة ، فوثق به الخارج وألقى اليه زمامه، ففتك به بعد ما أمنه، ثم قال لأحد خاصته : كيف رأيت، قد استرحنا منه ! فقال له وقد كان نصوحا : « إن ما خسرناه بضياع الثقة بكلمتنا أعظم مما كسبناه بالاستراحة من شره، فهو فرد واحد، ولكن ضياع الثقة يشمل الجميع » !

ولعظم أهمية هذا الوصف اشتملت الآية الكريمة على عدة أنواع من التأكيد عليه، وهى (١) قوله: « بعهد الله » حيث أضاف العهد الى ذاته الكريمة تنويها بشأنه وتعظيما لخطره. (٢) وقوله: « إذا عاهدتم » حيث أرجعه الى عملهم إلهابا لنخوتهم واستفزازا لحميتهم وإشارة الى أنهم ينبغى أن يصونوا كرامة أنفسهم ويربئوا بها عن الإهمال والضياع. (٣و٤) وقوله: « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » حيث نبههم الى ما يصدر منهم غالبا فى هذه الحال من الحلف والقسم المصمم المؤكد، وللقسم قيمته ولتصميمه وتوكيده بالعمد اليه عن طلب وانتظار ممن عاهدوه قيمة أعظم. (٥) وقوله: « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » فإنه يلفت نظرهم الى من التجؤا اليه ودخلوا فى كفالته وضمانته ليكتسبوا به الثقة، وأنه من القدرة عليهم بحيث لا يعجزه إهلاكهم وإسلامهم للدمار كما يسلم الكفيل مكفوله إذا دعا الحال لإسلامه، وكما هو الشأن فى الكفالة. (٦) أما قوله تعالى: « إن الله يعلم ما تفعلون » فتربية الرهبة فيها أوضح من أن يشرح، فقد تضمنت الوعد والوعيد وتربية الحياء من عظيم جلاله، وأنه لا يخفى عليه شىء منهم، وأن كل عمل مجزى به إن خيرا فخير وإن شرا فشر. ولو لم يكن فى ذلك سوى علمه بمخازيهم واطلاعه على فعالهم لكفى ذلك رادعا لهم عن أن يقع ذلك منهم.

ترى مما سبق أن الآية كلها للحث على الوفاء بالعهود، أولها للأمر وباقيها لتقريره وتوكيده. وهذا لا يمنع أن يكون قوله تعالى: « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » مفيدا معنى جديدا أزيد من الوفاء بالعهد، وهو الأمر بالبر فى اليمين وإنجاز المحلوف عليه ولو كان للمرء فى خاصة نفسه ولم يتعلق بعهد أو وعد، وهو حكم جديد، إلا أنه مخصوص بما إذا لم ير الحالف أن غير المحلوف عليه خير من التمادي فى الحلف، فقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم: « من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » أو « فليكفر عن يمينه وليأت الذى هو خير » روايتان.

والأيمان جمع يمين، وهو الحلف بالله أو باسم من أسمائه. وقوله تعالى: « بعد

توكيدها » أى بعد عقدها والتصميم عليها ، وذلك ليخرج لغو اليمين المشار اليه فى قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » وهو ما يجرى على ألسنة الناس بدون قصد الى الحلف من قولهم : لا والله ، وإى والله ، وأمثال ذلك ، فليس مما يجرى فيه هذا النهى وإن كان اللائق الابتعاد عن ذلك عملا بقوله عز وجل: «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ». واستيفاء الكلام فى الأيمان محله كتب الفقه ، فليرجع اليه من أراد .

« ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم أن تكون أُمّةٌ هى أرْبى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » :

النقض: الحل. والغزل أصله مصدر غزل. والمراد به هنا ما يغزل. والأنكاث جمع نِكث بكسر النون وهو ما يحصل من نقض المغزول، وهو أن تعمد الى الصوف أو الشعر وتبرمه وتحكم نسجه ثم تعود اليه فتقطعه وتحل ما أبرمته من خيوطه ، فهذا الذى حللته يسمى نِكثا . والدخل كالدغل : الغش وما تدخله مخبوءا من الأمر الفاسد وسط الأمر الصالح . قال أهل اللغة : كل ما دخله عيب فهو مدخول وفيه دخل . وأربى : أزيد فى العدد أو فى القوة أو الشرف . ويبلوكم : يختبركم .

جاءت هذه الآية الكريمة لتصوير ما كان يقع من بعضهم بأشنع صورة منفرة لا تصدر إلا عن حمق النساء ، حتى تشمئز نفوسهم منها ويبتعدوا عنها ، ويحتقروا من يقع فيها . والتى نقضت غزلها قيل هى امرأة من قريش كانت تسمى ريطة وكانت حمقاء تغزل الغزل هى وجواريها فإذا أبرمته أمرتهن فنقضن ما غزلن ، فضرب بها المثل فى الحمق وشناعة الفعل ، وشبه بها من يعود على فعله الذى كد فيه فيتلفه . وقيل ليس المراد بها امرأة معينة ، وإنما المراد الوصف فى ذاته بقطع النظر عمن قام به ، وذلك أن المراد التشنيع بإبراز عملهم فى مثل هذه الصورة . والتمثيل لا يستدعى أن يكون الممثل به حاصلا واقعا، بل يكفى إبرازه على الصورة الموافية بالمقصود . ولذلك تضرب العرب الأمثال بكلام تجريه على ألسنة الحيوانات وأمثالها .

والمقصود فى الآية النهى عن أن يعودوا الى ما سبق منهم من تعهد ووعد وأيمان فينقضوها لأنهم بدا لهم ما هو أحظ مما تعهدوا به . وهل يقصد بالتعهد إلا التغلب على ما عساه يطرأ على المتعهد مما ليس له فيه حظ ؟ أما إذا كانت الأحوال المستجدة موافقة للحالة التى جرى عليها التعهد فهى كافية فى بقاء التصميم الذى بنى عليه العهد . وتمثيل نقض العهد بنقض الغزل من الحمقاء بعد ماتعبت فيه ، واف بتقبيح العمل والتنفير منه . ففيه التعب المضاعف ، وضياع الفائدة ، وذهاب الثقة ، وتقطع الأوصال ، وحرمان الناس من أن يبنوا أعمالهم بعضهم على بعض مما لا بد فى الأعمال الكبرى من اللجأ إليه . وتجد فى قوله : « من بعد قوة » ما يدل على متانة العمل السابق فى ذاته ، وكثرة الجهد فى تحصيله ، ثم التعب فى نقضه .

واختيار التى بدل الذى مثلا — على أن المراد الوصف لا الذات المعينة — لتربية مزيد النفرة ، فإن الرجل ينفر من التشبه بالنساء مطلقا ، فكيف بحمقاهن ؟ وكلمة أنكاثا زيادة فى التصوير بإبراز ما نشأ عن ذلك العمل بصورة ما حل بعد غزله فأصبح لا هو بالمغزول الذى ينتفع به ولا هو بالمستعد لما يجرى عليه لبقائه على فطرته . وهل ترى الصوف أو القطن أو نحوهما وقد حل بعد غزله مثل ما يكون على أول حالته ؟

وإن هذه الآية ترينا صورة المتردد الرأى الواهى الإرادة المتقلب فى فكره فلا يستقر على حال ، وأنه يعمل كثيرا ولا ينتج لا قليلا ولا كثيرا ، فهو كما يقولون : الحجر المتدحرج لا ينبت عليه الزرع . أو كما يقول بعض الناس : كالساعة تدور ولا عقارب لها . فالحزم الصحيح لا يكون إلا مع العزم الصادق . وانظر إن شئت الى ما وقع منه صلى الله عليه وسلم وقد استشار أصحابه فى غزاة فأشار بعضهم بالمضاء فيها وبعضهم بالكف ، ثم كان الأكثر مشيرا بالمضاء ، فلما لبس صلى الله عليه وسلم لأمته[1] تراجع بعض من أشار بها فقال عليه السلام : « ما كان لنبى لبس لأمته أن يخلعها حتى يقضى الله بينه

(١) اللأمة : الدرع أو السلاح كلها من رمح ومغفر وسيف ونبل .

وبين عدوه » . فهذا هو العزم الصادق بعد الحزم الصحيح . وفى مثل ذلك يقول القائل :

إذاهم ألقى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

فكيف إذا هو دبر الأمر وذكر العواقب قبل أن يعقد عزيمته كما هو الشأن فيمن يعطى عهدا ؟ وإعراب أنكاثا إما مفعول ثان لنقضت لتضمينه معنى جعلته أنكاثا ، وإما مفعول مطلق كقولهم قطعه قطعا ويكون مصدرا مبينا للنوع . وقيل هو حال من غزلها .

وقوله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » زيادة فى تقرير ذلك النهى ، فقد جاء لليمين وهى أوثق ما يستوثق الناس به بينهم فجعلها فى عملهم دخلا ودغلا وغشا ، فإذا كانت اليمين وهى المؤكدة للثقة المربية للطمأنينة تتخذ دخلا وغشا فماذا بقى بعدها ليأمن الناس به بعضهم جانب بعض . وقد جعل بعضهم هذه الجملة حالا من الضمير فى تكونوا ، وبعضهم جعلها جملة مستقلة على معنى الاستفهام الإنكارى ، كأنه قيل : أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم ؟ أى إنكار أن ذلك ينبغى منهم ويليق بهم .

وقوله : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » مسوق للتعليل ، أى لا تتخذوا أيمانكم دخلا وغشا وتغريرا من أجل أنه بدا لكم أن أمة أقوى عدة وعددا من الأمة التى حالفتموها وعقدتم العهد معها ، فربما غلبت الأمة الأقل عددا من هم أكبر قوة وأكثر عددا . ولقد جعل الله ذلك ابتلاء لكم ليتبين من يحترم عهده ويصر على التزامه حتى يكون أهلا للثقة ومحلا للطمأنينة إليه ، وجديرا بالاعتماد عليه ، وبأن يؤمن جانبه ويوثق بكلمته ، ممن هو كالريشة فى مهب الريح لا يستقر على حال ولا يركن الى ما قال ، ولا يوثق بما أعطى من عهد أو وعد . وهل يكون الامتحان لصدق الكلمة والثبات على العهد إلا إذا رجحت الكفة فى الجانب الذى لم تحالفه ؟ أما إذا بقى الرجحان فى جانب من حالفت فذلك كاف فى استمساكك بالارتباط به ولو لم تكن أعطيته عهدا .

والخلاصة أن هذه الآية تحث على الثبات فى العهد والاستمساك بالكلمة واحترام الانسان ما صدر منه من وعد، وتبين أن المتعهد ما دخل فى العهد إلا وهو مرتكن على أنه موثوق بعهده يطمئن إليه من عاهده يفرض فيه عدم التزلزل والتقلب، وعلى هذه الصفات تم العهد بينهما، فإذا هو أخل بما يوجبه هذا العهد أزال عن نفسه الثقة على الدوام، وعسى أن يكون أحوج الى هذه الثقة منه الى الطعام والشراب.

هذا كله فى معاملة الدنيا. وأما آثار ذلك فى الآخرة فهو أعظم هولا وأكبر خطرا. ولذلك أجمله تعالى بصورة التهويل والتخويف والانذار الشديد مقسما عليه للتأكيد حيث يقول عز وجل: «وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون» أجل: إنه ما أخل قوم بعهدهم وكانوا كلهم مجمعين على الإخلال به، بل لابد أن يكون من بينهم من يخالفهم ويحاول رشدهم ويدعوهم الى الاستمساك بكلمتهم واحترام وعدهم وعهدهم وإن خفت صوته وكثر المخالفون له، ولا بد أن يكون منهم من ينظر الى مايلوح من عاجل مصلحة، ومنهم من يدقق النظر ويجيل الفكر حتى يستخلص صائب الرأى فيرى أن الصواب فى الوفاء وأن الخطأ كل الخطأ فى الفجور والغدر. يعطى هذا كله التعبير بقوله عز وجل: «تختلفون» دون تعملون ونحوه. وفى التعبير بيبين شرح لما يصحب هذا النكث غالبا من اشتباه المعالم واضطراب الأفكار، وأنهم لو اتبعوا ما أنزل عليهم من ربهم لتماسكوا وتعاضدوا وفازوا بخيرى الدنيا والآخرة.

واعلم أن هذا الوصف من أعظم ثمار الإيمان الصحيح، فقد جاء: «لا إيمان لمن لا أمانة له» وليس أحق بسلب الأمانة ممن يخون عهده. وإن من استباح أن يخون ما بينه وبين الناس وقد أكده الله لخليق أن يخون ما بينه وبين الله، ففيما بينه وبين الناس يعصى الله ويتعرض لاحتقار الناس وتفوت عليه بذلك مصالحه التى هو حريص عليها، وفيما بينه وبين الله ربما اعتمد على عفوه وسعة رحمته. ولقد قيل: حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحة. ولا تفهم أن معنى المسامحة فى حقوق الله الاجتراء على معصيته، فمن فعل ذلك فقد أودى بنفسه وخسر الدنيا والآخرة.

فلا عجب ، وقد علمت من عظم هذا الوصف ما علمت ، أن جاء التنويه به والحث على مداومته ، والتشنيع على من خالفه ونأى عنه .

قال الله تعالى : « ولو شاء الله لجعلـكم أمة واحدة ولـكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن يوم القيامة عما كنتم تعملون » :

اتصال هذه الآية بسابقتها واضح ، فهى تشير الى أن الهدى والرشد مهما وضح أمره واستبان طريقه فهو ملاق البتة من يندّ عنه ويخالف فيـه ويخرج عن حكمه ، وأنه بعد ما بين لـكم ما فى هـذا الوصف وفاء العهد من الـكرامة فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة ، وما فى مخالفته من ضياع الاعتبار فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ، فلا بد أن سيوجد من تغلبه شقوته ويستولى عليه سوء رأيه ، فيخرج عليه كما خرج على غيره من أحكام الهدى والرشاد كثير من الفاسقين . وإن هذا مقتضى الحـكمة الإلهية ، فهو الذى أراد أن يـكون فى الناس تصديق وتـكذيب ، وهدى وضلال ، وغى ورشاد ، وسعادة وشقاوة ، ولو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة فى ميولهم وإراداتهم وأفكارهم فـكانوا يتجهون كلهم الى محض الخير وإذا لـكانوا نوعا آخر كالملائكة ، أو الى محض الشر وإذا لـكانوا نوعا آخر كالشياطين ، ولـكنه قد اقتضت أن يكونوا نوعا مغايرا للنوعين مستعدا للحالين «وهديناه النجدين » « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكـفر » فـكوّن الله تعالى هذا النوع الانسانى على وجه يحوى الخيّر والشرير ، والقوى والرشيد ، والمحب للعاجلة والمتمسك بالآجلة ، فـكل يعمل على شاكلته ، وكل يسير حسب مشيئته : إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، فشيئة العبد تابعة فى الحقيقة لما شاءه الله منه أزلا ، ولـكنها ما صدرت عنه إلا تبعا لميوله ورغباته ، ولا يشعر بدافع آخر غير ما هو فى نفسه ، ولا يعلم إن كان الله أراد به الخير أو أراد به الشر ، إنما هى إرادته المنبعثة من بين جوانبه تدفع قدرته الى ما وهبها الله من تدخل فى العمل ، فيخلق الله تعالى الفعل متسببا عن ذلك . فهو الخالق وهو المدبر فى الأزل ، ولا يعلم العبد ما أراد الله به إلا بعد صدوره « اعملوا فـكل ميسر لما خلق له » .

والموضوع بسط فى كتب الكلام، وهذا غاية مايتسع له هذا المقام . وعلى هذا يكون معنى «أمة واحدة» على الاسلام ، أوعلى الهدى ، أوالضلال، بقرينة قوله بعده : «ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء » . ثم قوله بعده : « ولتسألن يوم القيامة عما كنتم تعملون » شاهد صدق على أن للمرء عملا مسئولا عنه ، ولايكون ذلك إلا وله مدخلية فيه ، فقول بعض الناس إنه كالريشة فى الهواء لا تقوى على دفع شىء ولا جلب شىء ، مخالف لنصوص الكتاب الكريم وللسنة الصحيحة ، بل لبديهة العقل التى يعرفها الأطفال البعيدون عن النظر . ألا ترى الطفل الصغير يفعل ما تكرهه وتريد أن تؤدبه عليه فتارة يقول لك : (حصل غصبا عنى) ومعناه فلا تؤاخذنى أو لا أستحق المؤاخذة ، وتارة يقول لك : (تبت) أو (حرّمت) أو ما شا كل ذلك ، ومعناه أنى أستحق ما تريد أن توقعه علىّ من التأديب لأن العمل حصل منى بقصد واختيار ولكنى ألتمس العفو والصفح وقد عزمت على ألا أعود لمثله . فهل يأتى هذا من الطفل الضعيف الإدراك إلا لأنه يميز بين ما له دخل فيه وما لا دخل له فيه ، وأنه يستحق الجزاء على الأول ولا يستحقه على الثانى ؟ وهل أحق بالبطلان مما يخالف بديهة العقل التى لا تخفى ولا على الصبيان ؟ نسأل الله أن يجعلنا ممن شاء له الهداية وأوجب له السعادة ، إنه سميع الدعاء مجيب النداء .

ابراهيم الجبالى

كلمات بليغة فى حمد الله

قال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله أحد خلفاء العباسيين :

« إن الله جل ثناؤه لا يمثل بنظير ، ولا يغلب بظهير ، جل عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطف عن ألحاظ خطرات الفكر ، لا يحمد إلا بتوفيق منه يقتضى حمدا ، فمتى تحصى نعماؤه ، ويكافأ إيلاؤه ؟ عجز أقصى الشكر عن أداء نعمته ، وتضاءل ما خلق فى سعة قدرته ، قدر فقدر ، وحكم فأحكم ، وجعل الدين جامعا لشمل عباده ، والشرائع منارا على سبيل طاعته ، يتبعها أهل اليقين به ، ويحيد عنها أهل الشك فيه » .

تنزيه الله عن المكان والجهة

جاءنا خطاب من حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد خراشى قال فيه :

كنت بمركز ملوى فاتصل بى أن بعض المتزيين بزى أهل العلم من المرتزقة الذين يجوبون البلاد يشنع على علماء الأزهر ويذكرهم بكل سوء . وهو ينادى بإثبات الجهة الحسية لله جل عن ذلك ، ويقول : إن الله يشار إليه بالإشارة الحسية ، وله من الجهات الست جهة الفوق فقط . فنرجو من فضيلتكم الإفاضة فى هذا الموضوع على صفحات مجلة نور الاسلام حرصا على العقائد ودفعا لسموم تلك الطائفة التى ليس لها هم إلا إثارة الشغب وتشويش الأفكار .

الجواب

كان يجب ألا نقيم لتلك الطائفة وزنا ، ولكننا مضطرون لتفنيد آرائهم الزائفة وأقوالهم الباطلة ، لنحفظ عقائد العامة وأشباه العامة الذين يتبعون كل ناعق ويتأثرون بكل ما يسمعون ، خصوصا عند مايتلون عليهم الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة التى وردت فى هذا الموضوع . وذكر تلك الآيات والأحاديث مجتمعة بدون تعقيب عليها يؤثر فى نفوس العامة أثرا لا يكاد يمحى . وقد شنع الغزالى على من يفعل ذلك غاية التشنيع فى كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) .

وإنا نختصر الطريق معهم فنقول على الإنصاف والوضوح : إن كانوا يأخذون آيات المتشابهات وأحاديث الصفات على ظاهرها ويثبتون معانيها التى وضعت لها فى لغة العرب ، فذلك كفر صراح ، لأنه يستلزم الجسمية والتجزء والتركيب . ولا يعقل غير

هذا ، فإن الظرفية مثلا إذا أخذت بمعناها الحقيقي في مثل قوله تعالى : « أأمنتم من في السماء » تستلزم أن يكون له مكان محيط به هو أكبر منه بالضرورة . وذلك يستلزم صفات الحوادث لا محالة . وقل مثل ذلك في الاستواء والنزول واليد والوجه الخ .

وإن قالوا : إن ذلك ليس كاستقرارنا ولا ظرفيتنا الخ فليس له لوازم الظرفية ولا الاستواء المعروفين ، قلنا لهم : فما الذى فهمتموه من تلك الظرفية إذا كنتم تجردونها عن معناها ولوازمها ؟ وما هو المعنى الحقيقي الذى تقولون إنه مراد من الاستواء مثلا ؟ وبعد تسليم هـذا فأنتم موافقون لنا ، وأصبح قولكم إن آيات المتشابه على حقيقتها لغوا من القول ، فإنه لا فرق بيننا وبينكم في المعنى حينئذ ، فما هذه الطنطنة التي أصمت الآذان وهوشت الأذهان (أسمع جعجعة ولا أرى طحنا) !

قال بعض أئمتكم المتقدمين على ما به من علم وفلسفة ما معناه « إن القول بأن الله لا جهة له ، وإنه ليس فوقا ولا تحتا الخ قول بأن الله غير موجود ، فإن هذه صفات المعدوم لا الموجود » . وغاب عنه أن هذا قياس الغائب على الشاهد ، وإلحاق المنزه بالمادى والخالق بالمخلوق ، فإن المادى هو الذى لابد أن يتصف بشيء من تلك الصفات ، أما غير المادى فترتفع عنه هـذه الصفات كلها ، بل كونه غير مادى مانع من قبوله لها . وإذا كنا لا نعرف حقيقة الذات ، ويستحيل أن نعرفها ، فكيف نتكلم في حقائق الصفات أو نقيسها على ما عرفنا من أحوال المحسوسات وأحكام الماديات ؟ وكيف نجرؤ على أن نقول : إن النزول على حقيقته وإنه استوى على عرشه بذاته حقيقة كما تقولون ؟ !

ولنقرب ذلك بعض التقريب فنقول : إن الانسان مثلا لا يتصور فيه إلا أن يكون جاهلا أو عالما ، ولا يتصور ارتفاع الجهل والعلم عنه . ولكن الحجر لا يتصف بكونه عالما ولا جاهلا فهما منتفيان عنه بل ممتنعان عليه لعدم القابلية . وكيف يثبتون الجهة والاستواء الحقيقي ثم ينفون ما يلزمهما ؟ وهل هناك عاقل يقول بثبوت الملزوم حقيقة مع نفي اللازم ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ما هذه الحقيقة التى أثبتوها ؟ فإن كانوا لا يدرون منها شيئا فماذا أثبتوا ؟ وهل هناك حقائق للأشياء عندنا غير ما وضعت له ألفاظها فى اللغة العربية مما عرفناه وحكمنا بأنها إذا استعملت فى غيره كان مجازا يحتاج الى علاقة وقرينة ؟ فهذه هى الحقيقة فى عرف العلماء . ولكن هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا .

على أنهم لو كانوا مستندين الى ظواهر النصوص ولم يكونوا على هذا الاستعداد الغريب ما كان ينبغى أن يجمدوا على أن الله فوق عرشه حقيقة ، فإنه كما يقول مثلا : « أأمنتم من فى السماء » يقول : «وهو الله فى السموات وفى الأرض» . الى غير ذلك وهو كثير . والبرهان العقلى قائم على فساد ما يقولون ونقيض ما يعتقدون .

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا

ثم نقول لهم بعد ذلك (ولعلها من الفكاهات العلمية) : كيف تقولون إن نزوله تعالى كل ليلة كما ورد فى الحديث على حقيقته ، والليل مختلف فى البلاد باختلاف المطالع والمغارب (يعلم ذلك من بحث عنه) . فإذا كان ينزل لأهل كل أفق من الآفاق فى ليلهم بمقتضى ما ورد فى الحديث فمتى يستوى على عرشه ، والأرض فى كل وقت من الأوقات بها ليل كما هو معروف ، ولا تخلو ساعة من الساعات من ذلك ، فما هو الوقت الذى يكون مستويا فيه على عرشه بذاته حقيقة كما تقولون ؟ وليت شعرى بعد ذلك كله ما الحامل لهم على إثارة تلك الموضوعات بين العامة وإلقاء الشكوك فى عقائدهم وأصول دينهم ، ولعلهم لا يعرفون من ذلك إلا ما ألفوه فيما بينهم ! (ولكن أحمق الناس من أعطى قلبا منطبقا ، ولسانا منفهقا ، فإن أراد أن يسكت لم يستطع السكوت، وإن أراد أن يتكلم لم يحسن الكلام) .

وإن هؤلاء وحقك لا يستحقون المناظرة ، وكيف يناظر من يتناقض ولا يدرى ، أو من لا يفرق بين الجائزات والمستحيلات : ولقد رأيتهم ينقلون ما لا يفهمون ، وكثيرا ما أغنونا بذلك عن المراجعة . ولكن لا نزال نكرر أننا نخاف على العامة الذين ابتلوا

بهم واعتقدوا فيهم . والأمر والله واضح لمن نور الله بصيرته وأراد هدايته « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

ومن عجيب أمر هؤلاء قولهم : إن هذا هو مذهب السلف . فإن السلف منزّهون لامشبهون . وهل قال السلف : إن الاستواء على حقيقته ، والنزول على حقيقته ، أو أنه استوى بذاته كما قالوا ذلك ؟ اللهم لا ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك !

وقد قال العلماء : إنه لا خلاف فى وجوب التأويل عند تعين شبهة لا ترتفع إلا به . وقال كثير من العلماء (وسننقل نصوصهم بعد) : إن السلف والخلف متفقون على التأويل . وهذا غير ما اشتهر من أن السلف لا يؤوّلون .

والتحقيق فى ذلك أننا إذا أردنا بالتأويل صرف المتشابه عن الظاهر ، فالسلف والخلف متفقون عليه بهذا المعنى ؛ وإن قلنا إن التأويل تعيين المعنى المراد الذى هو غير ما وضع له اللفظ من مجاز أو كناية ، كان السلف غير مؤولين بهذا المعنى . أما أخذ الآيات والأحاديث على ظاهرها والقول بأنها باقية على حقيقتها فلا ينبغى أن يكون قولا لأحد من المسلمين ، وإنما هو قول بعض الملل والمشبهة . وهل حقائق اليد والعين والنزول والاستواء شىء غير ما نعرفه فى الماديات ونعهده فى المحسوسات ؟ فما معنى بقائها على ظاهرها وإرادة حقائقها كما يقولون ؟ اللهم إن ذلك مجاف للعقل والمنطق قبل أن يكون مجافيا للدين الذى جاءت به الرسل !

ولكن ما الحيلة وقد ابتلينا بقوم لا يفقهون ولا يسكتون ، وينقلون من النصوص ما يرد عليهم ولا يشعرون !

الخلاصة

والخلاصة المختصرة المتواضعة أننا نقول لهم : إن كنتم قائلين بالتنزيه فنحن معكم ، فإنا لا نريد من كل ما نكتب إلا إثبات التنزيه . وإن قلتم : إنها صفات للبارى عز وجل

ولم تقولوا إنها باقية على حقيقتها وهى راجعة الى كمال الله تعالى ، فنحن قائلون بأعلى صوت : إن كل كمال يجب لله تعالى وإن كمالاته لا تتناهى . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

ثم نقول لكم بعد هذا : إن إثبات هذه الأشياء على ظواهرها ليس من الكمال فى شىء ، وإنما هو النقص بعينه والمحال بذاته . فإن كنتم لا تعقلون إلا الاستواء الحسى والنزول الحسى كما يدل على ذلك قولكم : إن المراد من الاستواء حقيقته (ولا حقيقة له عندنا إلا الحسى المادى) فصرحوا بما انطوت عليه قلوبكم ليعرفكم الناس ، وأريحونا من هذه المداورة التى يناقض آخرها أولها وظاهرها باطنها .

أظن أن القارئ الكريم قد تبين له غاية البيان أنهم إذا نفوا عنه تعالى صفات المحدثات وأحكام الماديات فنحن معهم . ولكن ليعلموا أنهم لم يعرفوا لها بعد ذلك معنى . فلينتهوا عن قولهم : إنه فوق عرشه بذاته حقيقة وإن له جهة الفوق الخ ، وإلا كانوا متخبطين متناقضين .

ولو أنصفوا لتركوا الآيات والأخبار على ما جاءت من غير أن يقولوا فيها شيئا أو يزيدوا عليها كلمة ، ثم يكلون علم ذلك الى الله تعالى كما فعل السلف . وحينئذ يصح قولهم إنهم سلفيون وإن هذا هو مذهب السلف . أما أن يقولوا إنه استوى على عرشه بذاته حقيقة ويشنعوا على من لا يقول بذلك ، كما فعل ابن القيم فى نونيته وابن تيمية فى كثير من كتبه ، وكما يصرحون به الآن فى كتاباتهم ودروسهم ، فغير مقبول ولا معقول .

ولنسق لك بعض النصوص استئناسا واسترواحا : قال اللقانى : أجمع الخلف — ويعبر عنهم بالمؤولة ، والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة — على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذى دل عليه الظاهر ؛ وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال ؛ وعلى الإيمان بأنه

من عند الله تعالى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما اختلفوا فى تعيين محمل له وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى : « والراسخون فى العلم » أو على قوله سبحانه : « إلا الله » . ويقال لتأويل السلف : إجمالى ، ولتأويل الخلف : تفصيلى . وقال بعضهم : إن ما عليه القائلون بالظواهر مع نفى اللوازم هو تأويل أيضا لما فيه من القول بعدم اللوازم ، مع أن ظواهر الألفاظ أنفسها تقتضيها ، ففيه إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر ، وإخراج اللفظ عن ذلك لدليل هو عين التأويل .

الكلمة الختامية

والكلمة الختامية أن من أثبت ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات ما ترك من التشبيه شيئا . وربما عرفت بعض ذلك من مقالنا هذا .

ومن التناقض البين الذى حملهم عليه خوف العامة قولهم : إنها على حقيقتها وليست على ما نعرف ، فكأنهم يقولون : إن النزول ليس نزولا ، والاستواء ليس استواءً ، والضحك ليس ضحكا . وهو بعد باق على حقيقته (فكأنهم أطفال أو يكلمون الأطفال) ! ولكنك ستسمع منهم كلاما مختلطا يرضون به العوام ، وكم لهم من تلاعب وتناقض . وليت شعرى أى فرق بينهم وبين أصحاب الملل فى الاغترار بالظواهر ؟ !

وهؤلاء يقولون : إن هذه النصوص على ظواهرها وحقيقتها ، وما ظاهر القَدَم فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه » الحديث — إلا الجارحة ، ولا الاستواء إلا الجلوس ، ولا النزول إلا الحركة المخصوصة .

ولا شك أن من قال استوى بذاته فقد أجراه مجرى الحسيات ، وأنزل النصوص على ما يعرف من صفات المخلوقات . ولو قالوا إننا نقرأ الآيات والأحاديث ثم نسكت لما أنكر أحد عليهم ، ولكنهم يقولون إننا نحملها على ظاهرها . ولا ظاهر لها عندنا

إلا ما نعـرفه فى مخاطباتنا ومألوفاتنا ، وإذا ضايقناهم قالوا إنها على حقيقتها ، وهى غير معروفة لنا ولا تشبه شيئا من صفاتنا .

فواعجبا كيف تكون محمولة على ظاهرها وغير معروفة لنا : أليس ذلك تخبطا شنيعا ؟

ثم نقول لهم بعد ذلك : هل تثبتون لله يدا واحـدة بمقتضى قوله : « يد الله فوق أيديهم » أم يدين بمقتضى قوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيـدى » أم أيديا كثيرة بمقتضى قوله : « مما عملت أيدينا » . وهل تثبتون له عينا واحدة بمقتضى قوله : « ولتصنع على عينى » أم أعينا كثيرة بمقتضى قوله : « تجرى بأعيننا » الى غير ذلك .

ثم نقول : إذا أثبتوا كونه على العرش بمقتضى قوله : « استوى على العرش فلماذا لا يقولون إنه فى الأرض بمقتضى قوله : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » وقوله : « وهو معكم أينما كنتم » وقوله : « فأينما تولوا فثم وجه الله » الخ ؟

ضاق الـــكلام بنا من عظم ما اتسعا

ولا نزال نكرر أن من أخذ بهذه الظواهر لم يدع من التشبيه شيئا .

هذا وقد ورد فى السنة أنه تعالى خمر طينة آدم بيده ، فماذا يقولون فى هذا ؟ وهل يقدمونه على قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » أم يصرون على بقاء النص على ظاهره ؟ ولعمر الله لو تكلم بمثل هذا عامى جلف لاستفظعناه منه ؟ فكيف به ممن يدعى العلم والمعرفة ؟ ولـكن الانسان مجمع العجائب والغرائب ، وقد نقل الإمام ابن الجـوزى عن ابن حامد الحنبلى أنه قال : الاستواء مماسة وصفة لذاته والمراد به القعود .

قال : « وقد ذهبت طائفة من أصحابنا الى أن الله تعالى على عرشه ما ملأه ، وأنه يقعد نبيه معه على العرش . فواعجبا من قلة العقول ويا أسفا من الخطأ فى فهم المنقول ! وأما قولهم : إنه استواء لا كما نعرف بعد أن قالوا إنه على ظاهره وإنه باق على حقيقته فهو بمنزلة من يقول : قام فلان وما هو بقائم وقعد وما هو بقاعد » اه .

كلمة للشيخ الغزالى وأخرى للشيخ محمد عبده

ولنختم هـذا المقال بعبارتين جليلتين أولاها لحجة الاسـلام الغزالى والثانية للأستاذ الشيخ محمد عبده :

قال حجة الاسلام الغزالى فى قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا) : « نقول للمتشبث بظواهر الألفاظ : إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه فما أسمعنا نداءه ، فأى فائدة فى نزوله ؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا ، فلا بد أن يكون ظاهر النزول غير مراد ، وأن المراد به شىء آخر غير ظاهره . وهل هـذا إلا مثل من يريد وهو بالمشرق إسماع شخص فى المغرب ، فتقدم الى المغرب بخطوات معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه ، فيكون نقله الأقدام عملا باطلا ، وسعيه نحو المغرب عبثا صرفا لا فائدة فيه . وكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل » ؟ .

وقال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى حاشيته على العقائد العضدية : « فإن قلت إن كلام الله وكلام النبى صلى الله عليه وسلم مؤلف من الألفاظ العربية ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة فيجب الأخذ بمدلول اللفظ كائنا ما كان ، قلت حينئذ : لا يكون ناجيا إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجوب الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأسا ، مع أنه لا يخفى ما فى آراء هذه الطائفة من الضلال والإضلال ، مع سلوكهم طريقا ليس يفيد اليقين بوجه ، فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها ، فلا سبيل إلا الاستدلال العقلى وتأويل ما يفيد بظاهره نقصا الى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل للبرهان فى شىء صح فى بقية الأشياء حيث لا فرق بين برهان وبرهان ولا لفظ ولفظ . وقال فى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات » إن الوحى من الله للنبى صلى الله عليه وسلم يسمى تنزيلا وإنزالا ونزولا لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع الى مكان منخفض . ومن الغريب أنهم

يقولون فى الرد على هـذا إن علو الله على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه فى كتابه لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية . وليت شعرى إذا لم يؤوله بعلو مرتبة الألوهية فماذا نريد منه ؟ وهل بقى بعد ذلك شىء غير العلو الحسى الذى يستلزم الجهة والتحيز ولا يمكن نفى ذلك اللازم عنه متى أردنا به العلو الحسى ، فإن نفى التحيز عن العلو الحسى غير معقول ، ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أما هم فينفون اللوازم . ولا أدرى كيف تنفى اللوازم مع فرضها لوازم ؟ هذا خلف . ولـكن القوم ليسوا أهل منطق ، والمتتبع كلامهم يجد فيه العبارات الصريحة فى إثبات الجهة لله تعالى ، وقد كفَّر العراقى وغيره مثبت الجهة لله تعالى . وهو واضح ، لأن معتقد الجهة لا يمكنه إلا أن يعتقد التحيز والجسمية . ولا يتأتى غير هذا . فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض وكلام لا معنى له » .

أبيات تناسب المقام :

ولا بأس أن نفكهك ببعض أبيات اقتبسناها من قصيدة طويلة لابن الجوزى رحمه الله فى حق هؤلاء — قال :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخا   وأكثر من أدركته ماله عقل
إذا ناظروا قاموا مقام مقاتل   فواعجبا والقوم كلهم عزل
موائدهم لا يلحق الخل بقلها   وإن شئت لا خل عليها ولا بقل

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هـذا الميدان ، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتقاه فجعل له فرقانا !

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

أحسن ما قيل فى توارث المكارم

قال زهير بن أبى سلمى :

وما يك من خير أتوه فإنما   توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتغرس إلا فى منابتها النخل

المبررات العلمية

لمبدأ تعدد الزوجات في الاسلام

صدرت كتابات كثيرة فى أوربا من جانب المستشرقين والاجتماعيين فى مسألة تعدد الزوجات فى الاسلام ، كلها ترمى الى استهجان هذه العادة ، وتنصح المسلمين بضرورة الإقلاع عنها ، بل منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغائها . وقدأثرت هذه الكتابات فى كثير من المسلمين فأصبحوا يتطلبون وجه التخلص منها ، وانقسموا هنا الى طائفتين : طائفة ، وهى قلة لا وزن لها ، ترمى الى حذفها من الشرع الاسلامى بصرف النظر عن تبعات هذا الحذف من الناحية الدينية . والطائفة الأخرى تعمل على إبطالها بالاستناد الى تأويل بعض النصوص .

يقول هؤلاء : قال الله تعالى : « فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة » ثم قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فتكون النتيجة المنطقية لهذين النصين فى نظرهم ، دعوة صريحة للاكتفاء بواحدة . وعلى هذه القاعدة يمكن إبطال تعدد الزوجات من طريق إسلامى بحت لا قدرة لأحد على الاعتراض عليه ، كما يقولون .

وقد سرى هذا الضرب من الاستنتاج حتى الى غالب الذين يلمون بمسألة تعدد الزوجات ، ولم يفطن أحد منهم الى أنه مبنى على الاقتضاب المعيب . ولو كلف الكاتبون أنفسهم إتمام قراءة الآية ، لأدركوا أنهم بالاستشهاد بها فى هذا الموطن بعيدون عن الصواب كل البعد . أما النص الكامل للآية فهو : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما » . ومعناها أنكم أيها الناس لا تستطيعون أن تراعوا

العدل المطلق بين نسائـكم ولو حرصتم على ذلك كل الحرص ، فعليـكم أن تعاشروهن بما تستطيعون من عدل ، فلا تميلوا لإحداهن كل الميل وتذروا الأخرى كالمعلقة ، أي التي لا زوج لها ، بتركها مهملة من العطف والمحبة .

فالاسلام كما ترى ، يبيح تعدد الزوجات ، ولـكنه يحيطه بأوامر مشددة في وجوب العدل فيه ، فلا يقبل أن تكون المرأة بسببه في موقف مزر بكرامتها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » .

بقي علينا أن ننظر في مسألة تعدد الزوجات من وجهة اجتماعية لنرى هل الاسلام رمى منها ، كعادته في جميع مباحاته ، الى غاية بعيدة ، إن كانت تخفى على قصار النظر فلا تنم على بعدائه ؟

الاسلام أول محرر للنساء :

لقد عهد الناس الاسلام شديد العناية بالنساء الى حـد أن خوّلهن من الحقوق ما لم تبلغه المرأة الغربية الى اليوم .

فأما من الوجهة الروحية فقد سوّى بينهن وبين الرجال ، فلم يوصد في وجوههن سبيلا الى مرتبة ، ولم يضع لهن الى السمو حـدا ، فقال تعـالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وأما من الوجهة العلمية ، فقد أباح لهن أن يتناولن ما يروق لهن من العلوم حتى يبلغن أرفع الدرجات ، وسمح للرجال أن يتلقوا عنهن العلم ، وأن يثقوا برواياتهن وكفايتهن .

وأما من جهة الحقوق المدنية ، فإن الاسلام وضع المرأة في المستوى الذى فيه الرجل ، فقرر أن ترث وأن تـكون ذات مال تتصرف فيه بجميع وجوه التصرفات ، مستقلة عن أبيها وزوجها ، وأن يسمع قولها في الأمور العامة للمجتمع ، حتى إنه ليسمح

لها أن تلى القضاء والإفتاء، واعتبرها فى بيتها سيدة حاصلة على جميع موجبات الكرامة، فلم يكلفها أن تخدم زوجها، بل ولا أن تخدم نفسها إن كان زوجها موسرا. وهى بالدخول فى تعاقد الزواج لا تقع تحت أسر زوجها، ولكن فى حياة مشتركة بينها وبينه. وقد أباح الاسلام تحقيقا لهذا المبدأ أن تشترط فى العقد أن تكون عصمتها بيدها، فتفصم عرا الزوجية فى أى وقت أرادت.

هذه حقوق منحها الاسلام للمرأة قبل أن تفطن هى للمطالبة بها، وقبل أن يتطوع رجال لطلبها لها بأكثر من ألف سنة، وليس لنساء أرقى الأمم مثل هذه الحقوق الى اليوم. فالذى قام بتحرير المرأة تحريرا لا مرمى بعده إنما هو الاسلام، لا العلم ولا المدنية الحديثة.

فهل الاسلام الذى هذا شأنه فى حماية المرأة، ورعاية حقوقها الطبيعية، يعود فيجعل من تعدد الزوجات ما يحط من كرامتها أو ينقض حقا من حقوقها؟

المسألة تحتاج لنظر، لا لأن وجه الصواب فيها يدق عن الفهم، ولكن لأن ما أحيطت به من الأهواء، وسحر التقليد الأعمى للأقوياء، يجعل الكلام فيها فى حاجة الى مقدمتين لا محيص عنهما:

المقدمة الأولى — جبل كثير من الرجال على أن لا يكتفوا بزوجة واحدة، فاذا اضطروا للاكتفاء بواحدة سعى بعضهم الى إشباع ميولهم من طريق غير مشروع، فيذيع الزنى وما يتعلق به من الإغراءات والتسويلات، وهتك الأعراض، ولست فى حاجة الى لفت الأنظار للأضرار التى يحدثها هذا النوع من العدوان على الآداب وبناء الاجتماع.

المقدمة الثانية — إن الجماعات البشرية لا تزال ملتاثة ببقايا من الحيوانية، فخير وسيلة لترقيتها أن يعترف لها بهذا الضعف، وأن توفى مقتضياته فى دائرة شرعية تناسبه، وأن يكتفى بالإشارة الى المثل العليا لتسير نحوها تدريجيا محفوزة بالارتقاء

الذى تبلغ اليه تحت نور العلم والحكمة . أما مطالبتها بالمثل العليا وهى فى هذا الدور ، فيفضى الى أنها تتخذ من عاداتها وأهوائها شريعة عملية تجرى عليها ، فتحرم بذلك من رقابة الوازع الأدبى ، وتخبط فى مطالبها الجسدانية على غير هدى ، ويستشرى أمرها فيها فلا يستطاع ردها عنها .

على هذين الأساسين الحكيمين بنيت الشريعة الاسلامية ، فإنها اعترفت بضعف الانسان أولا ، قال تعالى : « وخلق الإنسان ضعيفا » ، وجرت فى تكليفه على مقتضى هذا الضعف ، فقال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، واكتفى بالإشارة الى المثل العليا ، وحض الانسان على بلوغها بقدر ما يصل اليه جهده ، غير متغال ولا مندفع ، فقال تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو فى الدين » ، وقال : « الاسلام متين فأوغل فيه برفق » .

وغرضه من هذا الأسلوب الحكيم أن لا يجاوز بالانسان طاقته ، فيضع له ما لا يستطيع القيام عليه ، وأن يتمكن من ضبط مقتضيات هذا الضعف البشرى ، فلا يدعه يشتد بالإهمال ، حتى يصل الى درجة الإعضال ، فيسوق الجماعات الى الإسفاف فى ميولها البهيمية ، حتى تتجاوزها الى ما لا يناسب كرامة الانسانية ، ولا يتفق وتمشيها نحو المثل العليا .

فالاسلام أقر مبدأ تعدد الزوجات لا ليساير الشهوات الخسيسة فى الانسان ، ولكن ليحصر ميوله الجنسية فى دائرة لا تتعداها ، ليستطيع أن يتعهدها بالتقويم حتى لا يتفاقم شر هذه الميول فتهوى بالانسان الى درجة لا يمكن رفعه منها .

فتأمل الآن تحت هذا الضوء فى الشرائع الوضعية التى لم تأخذ بتعدد الزوجات ، تجدها اضطرت الى قبول ما هو شر منه ، لا عليها فقط باعتبار أنها شرائع ، ولكن على المحكومين بها أيضا ، إذ فتحت باب التدهور الأدبى فى وجوههم على مصراعيه .

فاضطرت أولا الى إباحة العلاقات الآثمة بين الجنسين ، بل بين آحاد الجنس

الواحد ، إن كانت عن تراض ، والى مشروعية الوساطة فى هـذه العلاقات ، فانحط الذوق الأدبى فى هذه المجتمعات حتى قبلت تحت ستار الفنون الجميلة ضروبٌ من التبرج والعرى كلها ذات آثار خطيرة على المقومات الاجتماعية ، والآداب النفسية . ثم انتهى أمر هذه الشرائع بقبول مبدأ تعدد الزوجات نفسه تحت ستار المخادنة ، فالمخادنة علاقة غير شرعية يقصد منها أن يوفى الإنسان حاجاته البهيمية دون أن يتقيد حيال المرأة بأى حق . فالغبن الذى يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط العرفى لا يقف عند حد ، لأنها تكون عرضة فى أى وقت للطرد هى وأولادها دون أن يكون لها أى حق عند الرجل الذى عاش معها السنين الطوال .

ولكن الإسلام بإقراره مبدأ تعـدد الزوجات ، سمح لهـذه الميول الجنسية البشرية أن تجـد حاجتها ، وفى مقابل ذلك استطاع أن يحصر هـذه الميول فى دائرته ، فحرم الزنى وجميع مايتصل به ويشتق منه ، وأبطل كل المحاولات التى يموهها الانسان ليصل منها الى إشباع اندفاعاته المنحطة ، وفى الوقت نفسه حمى الاسلام المرأة من عدوان الرجل ، فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها الجنسية معه إلا على حالة زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لا يستطيع الرجل التفصى منها .

فالذين يريدون إلغاء مبدأ تعـدد الزوجات فى الاسـلام ، ويظنون أنهم بذلك يخدمون مجتمعاتهم ، عليهم أن يتذكروا أن إلغاء هذا المبدأ يؤدى الى حلول المخادنة محله ، وينشر الزنى ، ويفسد العلاقات بين الجنسين ، ويحفز الى تدهور الأخـلاق ، وسقوط الآداب .

فإن قيل إن كل هذا حاصل الآن ، ويزيد عليه مبدأ تعدد الزوجات . فنقول : وما ذنب الاسلام فى هذا ؟ إنه شرع شرعا يصل بالانسان الى أرفع درجات الكمال ، وقـد برهن على صلاحيته لذلك ، فأنال الذين عملوا به خلافة الله فى الأرض ، وتوعد الذين يحيدون عنه بسوء المنقلب ، فكان ذلك مصداقا لقوله تعالى : « وعـد الله الذين

آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » أى الخارجون عن دائرته .

فإن كنا لا نعمل بالاسلام فالتبعة تقع علينا لا عليه .

وإنا فى هذا الموطن نرى أن نستنزل عجب القارىء من هـذا الأمر وهو : إن الذين يدعوننا الى تقليد الغربيين يتظاهرون بأنهم أنصار المرأة ، والمدافعون عن حقوقها ، فما بالهم يدعون قومهم الى إبطال مبدأ تعدد الزوجات ، والنتيجة المحتمة لإبطاله قيام مبدأ المخادنة مقامه ؟ فهل من الانتصار للمرأة أن يوقعوها فى هذا الحضيض لتصبح زوجة مجردة من الحقوق للرجل أن يستغل طيباتها ، حتى اذا لاح له أن يتخلص منها طردها هى وذريتها منه ، لتذهب بهم حيث شاءت تتكففف الناس ؟

إن كانوا يرون أن هذا من الانتصار للمرأة ، فان الاسـلام لا يرى ذلك ، فهو لا يقبل أن تنحط المرأة الى هذه الدركة السحيقة ، ولا يحب أن يراها إلا زوجة ذات حقوق مقررة على الرجل ، تلجأ فى الحصول عليها الى الشريعة فتنصفها ممن يريد التملص منها .

فعلى الذين تفتنهم هـذه المدنية على علاتها ، أن يروها على ما هى عليه ، لا على ما تصورها لهم أوهامهم ، فإن فعلوا ذلك تبين لهم منها ما يجب أخذه ، وما ينبغى تركه ، ولاحت لهم جهات قوتها وجهات ضعفها ، فإن انتدبوا لنصح قومهم بعـد ذلك كانوا حكماء فى كتاباتهم ، منطقيين فى أحكامهم .

سحر التقليد الاعمى للاقوياء :

لا أنكر أننا ونحن فى دور الضعف الذى نحن فيه نقع تحت سلطان قاهر من الاستهواء نرى معه كل ما عليه الأقوياء حسنا ، ونندفع لتمجيدهم عليه ، وتقليدهم فيه ،

ونحسب كل ما نخالفهم فيـه أثراً من آثار الوحشية الأولى ، ومعطلا من معطلات التقدم والارتقاء ، ولا نعدم ونحن تحت سلطان هذا الاستهواء أن نجد شبها تسوقنا الى الاعتقاد بفساد ما نحن عليه ، وننسى كل الثلم والثغرات فى الشكل الذى افتتنا به ، بل ننسى ماضيه الذى أوجب عليه ما هو فيه وما هـو بسبيله من المحو والإثبات ، والتغيير والتبديل فى أوضاعه ، ليصل الى حالة يمكنه الاستقرار عليها .

كانت المدنية الراهنة بالأمس تستنكر الطلاق وتعده هادما للأسرة ، ومدنسا لرابطة الزواج المقدسة ، ثم عادت فأباحته منذ نصف قرن ، واستهتر الناس فيه حتى صار يطلب لأتفه الأمور .

وكان أنصار المرأة يعدون عملها خارج بيتها من التجديدات التى يجب أن تشجع بإفساح المكان لهـا فى كل مجـال حتى الجنـدية وضرب النار . فلمـا جرى العمل على هذا الأصل رأى مصلحوهم أن البيوت قد أقفرت ، والأسر قد آذنت بالانحلال ، وحل محلها شكل مستنكر من أشكال الحياة ، والأعمال قد ضاقت فى وجوه الرجال لأنها لا تكفى الجنسين معا ، فشرع زعماؤهم يعالجون هذه الحـالة برد المرأة الى البيت ، والعمل على ترويج الزواج الذى منى بأزمة قاضية من جرّاء هذا الانقلاب .

ونحن ، معشر الضعفاء ، مضطرون بحكم سلطان التقليد للأقوياء ، أن نتقلب معهم فى جميع هـذه الأدوار غير مفكرين فى أن لنا نظاما مدنيا معطلا هو المثل الأعلى لأمثاله ، فلا نعيره نظرا لأننا لم ندرسه على ضوء العلم .

نحن الآن فى دور انتقال والأمر لم يخرج من يدنا بعد ، فلسنا حيال أمر واقع من أمور هذه المدنية ثبت ضرره نتلمس له الملطفات ، فالواجب الاجتماعى يقضى علينا بأن نتخير من النظم ما يكون نفعه أكثر من ضرره ، لأن النافع الذى لا تشوبه شائبة ليس بموجود فى هذه الحياة .

فأمامنا فيما يتعلق بالحياة الجنسية نظامان : أحدهما يبيح تعدد الزوجات ، ويحرم

كل ماوراءه من العلاقات الآثمة بين الجنسين، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض، الخائضين فى ضروب الفحشاء والآخر يحرم تعدد الزوجات ويبيح المخادنة والعلاقات الآثمة بين الجنسين، ولا يضرب على أية يد تمتد الى تناول أى محظور فى هذا المجال .

هذان النظامان يبيح كلاهما تعدد الزوجات، ولكن الأول يعتد فيه بحقوق المرأة وأولادها، ويعنى بأمر الفحشاء فلا يدعها تفسد النفوس، وتحط الآداب . وأما الثانى فانه لا يعتد بحقوق المرأة ولا بحقوق أولادها، ولا يبالى بالفحشاء ما دامت عن تراض .

فان كان لابد من إباحة التعدد كما ترى فليس فى الأرض نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه حظ البهائم العجماء، وإن كان لابد فى كلتا الحالتين من أولاد فلا يوجد من يسمح بأن يكون عبؤهم كله ملقى على عاتق الأمهات .

فمن كان لم يسمع بما جرّت اليه هـذه المسألة من المشاكل الاجتماعية فى أوروبا، فليطلع على محاضرات المؤتمرات التى تقيمها جمعيات الاتحاد النسوى فى العالم، فهى مما تدمى له الأفئدة، وتذوب النفوس حسرات .

التحوط لدرء بعض الاعتراضات :

قد يقال : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر آثما لأنه يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد .

فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحـداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما، لأنه لم يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد ؟ هل هذا صحيح ؟ وهل يقوى على النقد ؟

ولـكن الاسـلام قد احتاط لما قد يولده تعـدد الزوجات من عداوة بين النساء أو حقد بين أولادهن، إذ أمر الزوج بإقامة العدل بين أولاده جميعا، وأمره أن يسوى

بينهم فى التربية والتعليم والنفقة من مطعم ومسكن وكسوة ، كما أمره أن يجعل زوجاته على قدم المساواة فى ذلك كله ، وحذره أن يخص إحدى زوجاته أو أحد أولاده بأى شىء مما قد ينجم عنه بذر بذور الصغينة والبغضاء بين أفراد أسرته ، ففى هذا الجو من العدل والمساواة لا تجد العداوة مجالا للتولد والنماء والذى يتتبع الحوادث المتعلقة بتعدد الزوجات يجد أسبابها ترجع الى عصيان أوامر الشريعة فى هذا الشأن .

وقد يقال : لو سألنا أية امرأة عن تعدد الزوجات والمخادنة ، لفضلت أن يخادن زوجها ألف امرأة على أن يتزوج عليها واحدة زواجا شرعيا ، لأنه بعد خاتمة المطاف يعود اليها ، ويعطف عليها .

نقول : هـذا كلام ليس له أساس من الواقع ولا من التجارب اليومية ، فإن المرأة التى يتخذ زوجها عليها خدينات تكون أسوأ حالا من التى يتخذ عليها زوجات شرعيات ، لأن الأخير يكون معتدا بأمر الزوجية ، وقابلا ما يبتنى عليها من حقوق وواجبات ، ولـكن الأول يكون عادة خالع العذار ، يجرى فى أعقاب شهواته راكبا رأسه لا يلوى على شىء ، فينفق أكثر دخله على اللائى خلبن عقله من بنات الهوى ، ويقتر على زوجته الشرعية تقتيرا يوقعها فى الإعواز . نعم إنه يعود فى النهاية الى زوجته الأولى ، ولـكن بعد أن يكون قد نضبت ثروته ، وتصوحت زهرته ، وفسد ما بينه وبينها من العلاقات .

وقد يقال : لا يتصور أن تخلص امرأة لرجل متزوج بغيرها ، فهى تعلم أنه يغشها ، وأنه ذو وجهين ولسانين الخ .

ولـكن الواقع أن المرأة إذا رأت زوجها يعدل بينها وبين زوجته الأخرى ويسوى بينهما فى جميع حاجيات الحيـاة ولا يضن عليها بمـا يجب عليه أداؤه لها ، لا شك أنها تطمئن اليه وتخلص له وتعيش معه فى هناء وصفاء .

وبعد : فإن الذين يغمضون أعينهم عن العيوب التى تنطوى عليها حضارتهم يخيل

اليهم أن ما هم فيه هو ما تدعو اليه المدنية فلا يطلبون عنه حولا ، ولـكن التاريخ دلنا على أن الأمم إذا أوغلوا فى الإباحة معرضين عن الخلق الـكريم ومبادئ الفضيلة فلا بد أن تعصف بهم العواصف ، وتزل بهم قـدم بعد ثبوتها ، وربما تأدوا من ذلك الى الغلو والإغراق فى نقيض ما كانوا فيه من إباحة عامة .

إن المرأة فى المدنية الرومانية كانت قد بلغت الى حد من الإباحة بحيث كانت تظهر عارية على المسارح العـامة ، ونالت من السلطان على النفوس بحيث كانت تملى إرادتها على رجال الحـكم ، فلمـا انقض صرح تلك المدنية بسبب هـذه الإباحة نفسها ، سلبت المرأة حريتها هذه ، وجردت حتى من حقوقها الطبيعية ، وعاشت أكثر من ألف سنة فى أوروبا مقصورة على البيت ، ومزدراة الى حد أن حرم عليها الضحك وأكل اللحم ، ووضع على فمها قفل حديدى يمنعها الـكلام .

عود الى القضية التى نحن بصددها :

المشكلة التى نحن بصددها تنحصر فى مسألة واحدة وهى : هل الأجدى على المجتمع أن يباح فيه تعدد الزوجات لصيانة حقوق النساء كافة ، لا المتزوجات منهن فحسب ، وقطع ذرائع العلاقات الخائنة التى تعدو على حوافظ الاجتماع فتسبب لـكيانه الفساد ؟ أم أن يحرم التعدد مع ترك الباب مفتوحا لـكل ضروب العلاقات الآثمة ، وما تجر اليه من فساد الأخلاق ، وتدهور الآداب ؟

لا أظن أن عاقلا غيورا على حياة مجتمعه يختار الحالة الثانية ، لأنه لا يرى فائدة من تحريم التعدد شرعا وإباحته عرفا ، وترك نتائجه السيئة تعبث بالنفوس والآداب ، حتى تـكون سببا فى العودة الى بربرية لا مفر منها ، كما حـدث لأكبر أمبراطورية فى الأرض وهى الأمبراطورية الرومانية .

وقد يقول قائل : نمنع التعدد الشرعى والعرفى معا ، ونعمل على منع ذيوع العلاقات الآثمة بين الجنسين حتى لا تصبح خطرا على كيان الاجتماع .

نقول : هيهات هيهات ، فإن الميل للتوسع فى العلاقات الجنسية لدى كثير من الناس أمر لا يستطاع تداركه بغير الاعتراف به ، والاحتياط لنتائجه بوسائط مشروعة ، توسلا لتضييق دائرته الى أقصى حد ممكن . فإن أهمل أمره وترك طليقا من كل تقييد باسم القانون ، كسر كل سد بوضع أمامه ، وطغى حتى لا يمكن حصره فى حدود معقولة ، ولا دليل بعد الواقع المحسوس .

هذا هو الذى قصده الاسلام بإباحته التعدد شرعا ، ليتمكن من قطع الطريق عليه عرفا ، ومن السيطرة على كل ما تجر اليه فوضى الشهوات ، وطغيان الميول البهيمية .

أظنني قد وفيت الموضوع حقه من البيان ، فلأكتف بما قدمت ، والله ولى الهداية ؟

محمد فريد وجدى

البلاغة فى الطلب

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافدا عن أهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عباءة قطوانية ، وعلى الأحنف مدرعة صوف وشملة . فلما مثلا بين يدى معاوية اقتحمتهما عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها . فأومأ اليه فجاس ، ثم أقبل على الاحنف فقال : ثم مه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تتابع من المحول ، واتصال عن الذحول ، فالمكثر فيها قد أطرق ، والمقل قد أملق ، وبلغ منه المخنق ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ، ويجبر الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذحول ، ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء . وإن السيد من يعم ولا يخص ، ومن يدعو الجفلى ولا يدعو النقرى ، إن أحسن اليه شكر ، وإن أسيء اليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عمادا يرفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات .

فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ، ثم تلا قوله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » .

نقول : « قوله المحول جمع محل وهو الجدب . والذحول الضغائن . واللأواء الشدة . والجفلى الدعوة العامة للطعام . والنقرى الدعوة الخاصة ، وكلاهما بثلاث فتحات . ولحن القول فحواه وإشاراته » .

السُّنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم يلقاه ؛ وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه الى يوم يلقاه » .

حقيقة إن اللسان صغير جِرمه عظيم جُرمه ؛ فكم من كلمة داوت كلْما ؛ وكم من كلمة أوجبت ألما .

وإنك إذا فحصت الانسان وأعضاءه ، وتتبعت آثاره ، لا تجد فيه عضوا يبلغ من الخطر وعظم الأثر ما يبلغ اللسان . نعم إن للقلب على جميع الجوارح السلطان ، ولكن آثاره إنما تبدو على غيره من بقية الأعضاء ، أما هذا العضو فهو المفصل ، بل هو المقصل يقطع ويصل ، ويفيد ويبيد ، فله من كبير الآثار وعظيم الأخطار وجليل المنافع والمضار ما يقضى بالسهر على تقويمه وتهذيبه ، ولقد كثر فى السنة ما جاء فى بيان خطره وشديد نفعه وضرره ، قال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » . وقال عليه الصلاة والسلام : «من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » رواهما البخارى . وما بين اللحيين هو اللسان . وروى البخارى أيضا فى معنى هذا الحديث الذى نحن بصدده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله مايلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ،

وإن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم » . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : فيما روى « من علم أن كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه » . وقوله عليه السلام : « وهل يكب الناس فى نار جهنم على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ؟

والمثل الأعلى فى هذا الباب قوله عز وجل : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء تؤتى أُكلَها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء » . فقد ضرب عز وجل للكلمة الطيبة مثلا شجرة اجتمع فيها أربع صفات :

١ — أنها طيبة ، وذلك يجمع طيب منظرها وطيب أرجها وطيب ثمرها ، وهكذا الكلمة الطيبة تجمع بين حسن موقعها وحسن مسمعها وحسن أثرها ونضرة وجه قائلها .

٢ — أن أصلها ثابت ليست عرضة للزلزلة والاقتلاع مهما مر بها من العواصف والزوابع ، وكذلك الكلمة الطيبة لا يتراجع قائلها ولا يحيد عن التمسك بها ولا يعدل عنها ، حتى لو أنها قيلت على خلاف الواقع وكان يريد بها إصلاح ذات البين وإزالة الشر بين اثنين لكان لقائلها أن يظهر بها ولا يستحى من قولها ، بخلاف الكلمة الخبيثة ، فإنها قد تكون حقا ولكن قائلها يتوارى من سوء أثرها ، ويتنصل لو استطاع سبيلا من نسبتها اليه ، فإن ضاقت به سبل الخلاص ود لو أن الأرض ابتلعته ولم يكن قد فاه بها ، وقد يود أن يكون لسانه قطع قبل أن يفوه بها ولا يرضيه اقتطاعها وحدها واقتلاعها من جذورها . فهل بعد هذا مرتبة فى أنها كلمة لا ثبات لها وإن كانت الحقيقة تسندها والصدق يؤيدها ، نعم ولكن خبثها يجتثها .

٣ — أن فرعها فى السماء ، فهى شجرة نامية زاكية ، وكذلك الكلمة الطيبة تجد صاحبها مرفوع الرأس بها ، والمعجب بها ينقلها مباهيا بها ، والمربى ينقلها لينصبها قدوة لمن يربيه ، وهكذا لا تزال تنمو وتتزايد ، ولا يزال شأنها يعلو ويتصاعد .

٤ — أن ثمرها متجدد متكرر، وذلك فى قوله تعالى: « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » وكذلك الكلمة الطيبة تجدها تثمر فى المقام الذى قيلت فيه، وتثمر فى المقام الذى يناسبه، وتثمر بالرجوع اليها كلما تحركت العوامل التى أثارتها.

وبعد: أليس من الكلمة الطيبة بل رأس الكلم الطيب كلمة الإيمان؟ فكم لها من آثار حسان؛ أليست طيبة اللفظ، طيبة المعنى، تحدث عن أشرف مايقوله قائل؟ أليست تحدث عن وحدة الله واستحقاقه وحده أن يعبد بلا شريك ولا ند، وتحدث عن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ وكم لها من آثار فى سعادتى الدنيا والآخرة؟ وهل هنالك سعادة إلا وهى أصلها ومنشؤها؟ فهذا طيبها. وأما ثبات أصلها فحسبك منه قيام البراهين العقلية والنقلية على صدقها. وأما فرعها فهو عظم شرفها، وانتشار مدلولها، وذيوع معناها، وعدم قيام أحد لمصادرتها بحق، بل كل من ناوأها فقد باء بذل الخيبة وظهور الكذب والضلال. وأما إيتاؤها ثمرها كل حين فذلك أوضح من أن يشرح. وهل تمتع العبد الصالح بالرضوان وحسن الجزاء إلا ثمرة من ثمراتها، وهل لهذه الثمرة من انقطاع؟ هذه كلمة طيبة، بل هى أصل الكلم الطيب جميعه، بل قال بعضهم: إنها هى المقصودة فى الآية الكريمة، وإن كان العموم فيما أرى أكثر فائدة، وشأن الكلمة الطيبة دائما هو أن يكون مظهرها طيبا ومخبرها طيبا، وأن يكون أصلها ثابتا وفرعها فى السماء، وأن تكون ثمارها متجددة متكررة كما شرحناه لك، وإن كان لا كلمة تضاهى كلمة الإيمان فى منزلتها.

وقد شبهت الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. ويعرف معانى تلك الصفات بمعرفة أضدادها السابقة فى صفة الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، فخبثها خبث منظرها ومخبرها وأثرها، ويكفى فى خبثها توارى صاحبها من نسبتها اليه وتبرئة نفسه منها لو استطاع، وفى هذا محاولة لقطعها وإماتتها؛ وقد يكون موجدها أحرص الناس على إذهابها؛ وكفى هذا فى أنها اجتثت من فوق الأرض.

والتعبير بكلمة «من فوق الأرض» فى مقابلة «أصلها ثابت» لبيان أنها لا ثبات لها

ولا مفر ، حتى ولو كانت صدقا كما قدمنا . وقوله : « ما لها من قرار » زيادة فى تقرير ذلك . والسكوت عن نمو فرعها وتجدد ثمرها أبلغ من نفيهما ؛ فكأنه أشير بهذا السكوت الى أنه لا يتوهم فيها بقاء ، فضلا عن النمو ، وليس لها من أصلها وجود حتى يكون لها ثمر متكرر ، فاكتفى بذهاب أصلها عن بيان قصر فرعها . وكيف يكون لها فرع ولا أصل لها ؟

قد يقال : كيف هذا وربما كان لها من سيء الأثر وعظيم الخطر ما لا يستهان به من الشر والضرر ؟ نقول : نعم ولكن هل يسمى هذا بالثمر ؟ وهل يستحق أن يعبر عنه ببقاء الأثر ؟ وهل هذا إلا الوباء الذى يجاهد كل امرئ ليلحق به الفناء ويجعله كالهباء ؟ إن سكوت الآية الكريمة عن بيان أثره يشبه أن يكون من باب جعله فى حيز ما لا يستحق الوجود ولا بالتحدث عنه ، فهو كقولهم فى باب البلاغة : من باب صون اللسان عن ذكره أو صون السمع عن التأذى به . وأصل كلمة الاجتثات إذهاب الجثة . فهو بمعنى الاقتطاع .

أما قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فهو من ثمار الكلمة الطيبة ، فإنها موجبة لطمأنينة النفس وثبات اليقين ، وزوال الحيرة والضلالة . وهذا ثمرها فى الحياة الدنيا . وكذلك تثبتهم على ثوابه فى الحياة الآخرة وخلوده بلا انقضاء ولا انقطاع . وفسرها بعضهم بالثبات عند سؤال القبر . ووجهه أنهم لما كثر استحضارهم لكلمة الايمان فى الدنيا أثمرت ثباتها عند سؤال الملكين بعد الموت . وأما قوله : « ويضل الله الظالمين » فهو من آثار تلك الكلمة الخبيثة التى تصدر عمن ظلموا أنفسهم بها ، فهم حقيقون أن يضلوا بما اكتسبوا . والله هو المهيمن على العباد ، فهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما أراد ، لا دافع لحكمه ولا راد .

نسأله تعالى أن يقضى لنا فى الحياة الدنيا بالهدى والرشاد ، وفى الآخرة بالإسعاد وبلوغ المراد ، إنه سميع مجيب .

ابراهيم الجبالى

تعليم القرآن

جاءنا هذا السؤال من أحد تجار الغردقة :

عندنا رجل كلما ذكر بمجلسه تعليم القرآن يقول : هذا الزمن ليس زمن القرآن ، وليس فى تعليم القرآن فائدة ، إنما الفائدة كلها فى تعليم المدارس . وكلما اجتمع بمن له ابن فى المكتب الذى يعلم القرآن يقول له : هذا خطأ منك لأن القرآن ليس فيه فائدة ، والاشتغال به تضييع زمن على الأولاد . فنرجو أن تبينوا ماذا عليه شرعا فى النهى عن تعليم القرآن .

حسن مدنى أحمد
التاجر بالغردقة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

هذا الرجل الذى ينهى عن تعليم القرآن ويذم من يتعلمه قد ارتكب إثما عظيما واقترف ذنبا كبيرا هو من أكبر الكبائر ، وفى الوقت نفسه هو غاش للأمة غير ناصح لها حتى فى دنياها ، فإن الأمة ما تدهورت هذا التدهور الأدبى والمادى إلا بالتفريط فى دينها وتضييع العمل بكتابها وسنة نبيها ، والقضاء عليه بفضل تلك التعاليم الإلحادية .

وأما قوله إن الفائدة كلها فى المدارس فقول باطل ورأى جاهل . فإن الدين يغرس فى قلبك الصدق فى القول والعمل ، والاستقامة والإخلاص ، ومراقبة الله عز وجل فى كل شىء . وغير خاف عليك ما يترتب على ذلك من تقدم التاجر فى تجارته ، والزارع فى زراعته والصانع فى صناعته ، وتعلم القرآن يحث على تعلم العلوم النافعة ، وعلى الأخذ بكل مفيد صالح من الصنائع والفنون ؛ فالدين هو إكسير الحياة الطيبة ، ومنبع القوة الروحية ، والبهجة النفسية . وقد قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو

مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة » . ولم يدع مفهوم ذلك من سوء الحياة ومرارة العيش لمن لم يكن كذلك ، بل صرح به فى سورة أخرى فقال : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » وأتى بمن التى هى من صيغ العموم تنبيها على أنه لا سبيل الى الراحة ، ولا وسيلة للسعادة غير الدين . فإن السعادة الحقيقية ليست إلا فى النفوس ، ولا يصلح النفوس وينقيها من أوضارها التى تشقيها وتتعبها غير الدين .

ولنسق لك بعض ما جاء فى السنة مما يناسب هذا الموضوع :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » رواه الترمذى والحاكم . وعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شىء من كتاب الله » رواه الحاكم موقوفا وقال رفعه بعضهم .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » الحديث . رواه مسلم . وعن سهل ابن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا فما ظنكم بالذى عمل به » رواه أبو داود والحاكم . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى اليه ، لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله أهلين من الناس . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهله وخاصته » رواه النسائى

وابن ماجه والحاكم . وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير من أن تصلى مائة ركعة » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن على رضى الله عنه قال : « أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى ؛ ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ؛ وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ؛ وهو الصراط المستقيم ؛ وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛ وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : «إنا سمعنا قرآناً عجباً يَهدى الى الرُّشْد فآمنّا به » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم » . أخرجه الترمذى .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، ويحفظنا من مضلات الفتن بمنه وكرمه !

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

عداوة اللئام

قال شاعر فأحسن :

بلاء ليس يشبهه بلاء	عداوة غير ذى حسب ودين
يبيحك منه عرضا لم يصنه	ويرتع منك فى عرض مصون

سيرة سعد بن أبى وقاص

فاتح بلاد الفرس

أتينا فى العدد الماضى على سيرة أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه باعتبار أنه أول من حاولوا فتح أبواب السيادة العالمية فى وجه الإسلام ، فأراد الله أن يكون ثانى هؤلاء الفاتحين الأولين سعد بن أبى وقاص . فقد تولى الأول فتح أول باب الى غرب آسيا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث مضطرب الحركات العالمية ، وصلة الاتصال بالشعوب ذات المدنيات التاريخية ، وتولى الثانى فتح باب آخر الى قلب تلك القارة فى الهضبة الإيرانية التى تعيش عليها أمم عريقة فى المجد ، وتقوم حفافيها أخلاف شعوب ذات مدنيات متغلغلة فى أقدم العصور ، كالميديين والليديين والبابليين والكلدانيين والسريانيين والصينيين والهنديين الخ . فإذا كان الباب الأول قد وصل بين الاسلام وبين الممالك الآرية التى تعتز بأصالتها ومدنيتها الحية ، فقد وصل الباب الثانى بينه وبين الدول السامية التى تفخر بقُدْمَتها التاريخية ، وعراقتها الاجتماعية ، فتم بذلك اتصال الإسلام بالأمم الحديثة والقديمة فى وقت واحد ، ولم يقف من ذلك عند حد ، ولكنه واصل سيره فى ذينك العالمين حتى بلغ الى أسوار الصين من شرق آسيا ، والى ثلثى فرنسا من غرب أوروبا ، والى المحيط الأطلسى من مصر الى غرب إفريقيا ، فأصبح له فى أقل من قرن ملك لا تغرب عنه الشمس . ثم تابع سيره بعد ذلك على يد الفاتحين الإسلاميين حتى بلغ من شرق أوروبا الى ممالكها الوسطى بعد أن اكتسح جميع دولها الواقعة فى قسمها الشرقى .

فلنبدأ فى إيراد سيرة البطل الثانى من فاتحى الأبواب العالمية فى وجه الإسلام سعد بن أبى وقاص ، فنقول :

نسبه ونشأته وإسلامه ومناقبه :

هو سـعد بن أبى وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة القرشى . وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس . أسلم بعد أربع سنين من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وعمره سبع عشرة سنة . فهو من السابقين الأولين . وإن فى إسلامه وهو فى هذه السن لدليلا على نجـابته ، وسمو عقله . وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع المشاهد ، وحضر جميع أدوار الدعوة الاسلامية .

وهو أحد العشرة من سادات الصحابة الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وهى منزلة استحقوها بإخلاصهم للاسـلام ، وتفانيهم فى نصرته ، ووقفهم أمـوالهم وأنفسهم لإعلاء كلمته .

ثم هو أحد الستة الرجال الذين أشار عمر بن الخطاب وهو يجود بنفسه أن ينتخب للخلافة واحد منهم ، قائلا : إنهم الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم . ناهيك بمن يكون أحد ستة فى أمة برمتها يكـثر فيها الأبطال المغاوير ، والأبرار الميامين . فالذى يراه مثل الفاروق أنه يصلح لقيادة مثل هذه الأمة يكون قـد بلغ الأوج الأعلى من أصالة الرأى ، وسداد الفـكر ، ومضاء العزيمة .

حدثت عائشة بنت سعد بن أبى وقاص أن أباها قال لها : رأيت فى المنام قبل أن أسلم كأنى فى ظلمة لا أبصر شيئا ، إذ أضاء لى قمر فاتبعته ، فـكأنى أنظر الى من سبقنى الى ذلك القمر ، فأنظـر الى زيد بن حارثة ، وإلى على بن أبى طالب ، وإلى أبى بـكر ، وكأنى أسألهم : متى انتهيتم الى ها هنا ؟ قالوا : الساعة . وبلغنى بعد ذلك أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا ، فلقيته فى شعب أجياد وقد صلى العصر ، فأسـلمت فما تقدمنى أحد إلا هم .

وقد عرف عنه أنه أول من أراق دما فى سبيل الله ، وذلك أن سعدا رضى الله عنه كان مع بعض أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يصلون مستخفين فى بعض

الشعاب بمكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فنا كروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل (أى بفك جمل) فشجه ، فكان أول دم أهريق فى الاسلام .

روى جابر قال : أقبل سعد على رسول الله يوما فقال صلى الله عليه وسلم حين رآه : هذا خالى فليرنى امرؤ خاله . وإنما قال هذا لأن سعداً زهرى وأم رسول الله زهرية وهو ابن عمها ، فإنها بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، يجتمعان فى عبد مناف ، وأهل الأم أخوال .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبى وقاص ، فقد قال له يوم وقعة أحد : إرم فداك أبى وأمى ، إرم أيها الغلام الحزور (الحزور الغلام إذا اشتد) قال الزهرى : رمى سعد يوم أحد ألف سهم .

روى أبو عثمان النهدى أن سعد بن أبى وقاص قال : نزلت هذه الآية فىّ ، وهى « ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . قال سعد : كنت رجلا برا بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعنّ دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بى . فقلت : لا تفعلى يا أمه ، فإنى لا أدع دينى . قال : فمكثتْ يوما وليلة لا تأكل ، فأصبحت وقد جهدت . فقلت لها : يا أماه : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفْساً نفساً ما تركت دينى هذا الشىء . فلما رأت ذلك أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية .

وروى أبو المنهال قال : سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معدى كرب عن سعد بن أبى وقاص باعتبار أن عمرا كان فى جيش تحت إمرة سعد ، فقال : « إنه ياأمير المؤمنين

متواضع في خبائه [١] عربي في نَمِرته [٢] أسد في ناموره [٣] يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية [٤] ويعطف علينا عطف الأم البرة [٥] وينقل الينا حقنا نقل الذرة » .

كان سعد بن أبي وقاص يحب الأنصار — وهم أهل المدينة — ويكرمهم ، فقال عامر ابنه يوما : ياأبت إني أراك تصنع بهذا الحي من الأنصار شيئا لا تصنعه بغيرهم . فقال له : أي بني : هل تجد في نفسك من ذلك شيئا ؟ قال : لا ولكني أعجب من صنيعك . قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق » .

قال سعد بن أبي وقاص : « لما جال الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الجولة يوم وقعة أحد قلت : أذود عن نفسي فإما أن استشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا كذلك إذا برجل مخمر وجهه (ملثمه) ما أدرى من هو ، فأقبل عليه المشركون حتى قلت قد ركبوه ، فملأ يده من الحصى ثم رمى به وجوههم ، فتنكبوا على أعقابهم القهقرى حتى أتوا الجبل ، ففعل ذلك مرارا ولا أدرى من هو وبيني وبينه المقداد بن الأسود ، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه ، إذ قال المقداد : يا سعد : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار اليه ، فقمت وكأنه لم يصبني شيء من الأذى ، وأجلسني أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم استجب لسعد وسدد رميته ، وأجب دعوته . قال سعد : حتى إذا فرغ النبل من كنانتي نثر صلى الله عليه وسلم لي ما في كنانته . فانكشف الناس عنه » .

(١) الخباء : بيت من وبر أو صوف . (٢) النمرة : هي البردة تعمل من الصوف . (٣) النامور : الدم . (٤) السرية : هي الكتيبة من الجنود ترسل للقيام ببعض الأغراض الحربية . (٥) البرة أي البارة من البر .

تولية قيادة الجيوش لفتح فارس :

كانت بلاد الفرس عند ظهور الاسلام متفرقة الكلمة ، مفككة الأوصال ، يتنازع السلطان فيها زعماء كثيرون ، فكان في كل إقليم متغلب يستبد بشئونه ، ويستأثر بخراجه لا تجمعه وسائر الزعماء جامعة ، على نحو الحالة التي كانت عليها أوروبا أيام الحكومات الإقطاعية في القرون الوسطى . فلما ظهر الاسلام وفتح الفاروق العراق بعد أن هزمت جنوده جيوش الفرس التي تحتلها ، رأى عقلاؤهم أنهم لا يستطيعون دره خطر المسلمين عنهم إلا بتوحيد كلمتهم ، ولم متفرقهم ، فولوا عليهم يزدجرد بن شهريان من آل كسرى أنو شروان ، فالتفت القلوب حوله ، وتبارت في طاعته .

فأدرك المسلمون من ناحيتهم أن توحد كلمة الفرس تزيد بلادهم مناعة على مناعتها وقد تؤديهم الى استرداد العراق ، وتشديد الوطأة على المسلمين في عقر دارهم ، فاستنفر عمر الناس لقتال الفرس ، وخرج هو فعسكر على ماء بقرب المدينة والناس معه لا يعلمون الى من تستند القيادة العليا ، ثم أخبرهم بأنه سيتولى القيادة بنفسه ، وطلب اليهم رأيهم في هذا الأمر ، فأجمعوا على أن الأولى أن يبعث رجلا من قواده المشهورين وأن يبقى هو بعاصمة الدولة لإمداده .

فقبل عمر هذا الرأي ، ولكنه حار في انتخاب قائد لهذه المهمة الخطيرة . وبينما هو يشاور أصحابه في ذلك إذ ورد عليه كتاب من سعد بن أبي وقاص ، وكان عاملا له على صدقات هوازن .

فقال بعض الحاضرين لعمر : لقد وجدته . فقال أمير المؤمنين : فمن ؟ قالوا : الأسد عاديا . قال الفاروق : من هو ؟ قالوا : سعد بن أبي وقاص .

فشرح الله صدر عمر لتقليده القيادة ، فاستقدمه وقال له :

« يا سعد ، سعد بني وهيب : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء

بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت عليه النبى صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتى ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » .

ثم لما أراد أن يسرحه قال له :

« إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل أمر عتادا وعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس له . فلا تزهد فى التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا حببه ، وإذا أبغض عبدا بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك » .

سار سعد بن أبي وقاص قاصدا ميدان الحرب ، وتلاحقت به الجنود من كل مكان ، فما وصل القادسية إلا وكان معه ثلاثون ألف مقاتل . فخرج اليه قائد الفرس المشهور رستم فى مائة ألف وعسكر بساباط .

فرأى سعد أن يرسل الى خصمه بسفراء ليعرضوا عليه ما حداهم الى ماهم بسبيله ، فتكلم النعمان بن مقرن عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الأغراض التى يتوخونها من نشر دعوته فى الأرض ، وختم كلامه بقوله :

« فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة » .

فلما ترجم هذا الكلام ليزدجرد امتلأ غضبا ، وأظهر احتقاره للعرب ، وتعجبه من انتحالهم هذه المهمة وهم أفقر شعوب الأرض وأبعدها عن النظام .

فأجابه عضو آخر من السفراء وهو المغيرة بن زرارة بأن ما وصف به حالة العرب من الاختلال ، وسوء الحال ، قد كان صحيحا قبل الاسلام ، وأما بعده فقد صارت الحال غير الحال ، ثم دعاه الى ما دعاه اليه الخطيب الأول .

فازداد غضب عاهل الفرس وأمر بوقر من تراب فوضعه على ظهر رئيسهم ، وأشار بتسريحه على هذه الصورة الى معسكره .

فلم يجد سعد بداً من مناوأته القتال ، فأخذ يبث السرايا على الأطراف . وتقدم قائد الفرس رستم لملاقاة عدوه ، فجعل على طليعته قائدا اسمه الجالينوس ، معه أربعون ألف مقاتل ، وتبعه قائد الفرس الأكبر رستم في ستين ألفا جاعلا على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران ، وكلاهما من كبار القواد المحنكين .

فبدأ رستم بالزحف ، فلقى خيالة المسلمين من فيلة الفرس عنتا كبيرا ، إذ كانت الخيول تفر منها مذعورة الى كل وجه ، فصمدت لها فرقة من مشاة المسلمين وأخذت تضربها بالسيوف على خراطيمها وتحل أحزمتها ، ليسقط فيّالتها من فوقها ، ودام الجيشان يقتتلان قتالا مرا الى الليل دون أن يبدو على أحدهما ضعف . ثم عاد القتال من الغد واستمر الى المساء ، فلم يتغير موقف أحد الفريقين . ثم عادت الحرب في اليوم الثالث وانتهت على ما كانت عليه الحال في اليومين السابقين ، ولكن المسلمين لم يذوقوا في ليلتهم نوما ، إذ استمروا يشاغلون الفرس ليتعبوهم ، فلما أصبحوا صاح أحد قوادهم وهو القعقاع بن عمرو قائلا : أيها الجنود إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ فاثبتوا ساعة ثم احملوا فإن النصر مع الصبر .

فاجتمع اليه جماعة من أولى النجدة وحملوا على جنود الفرس ، فثبت هؤلاء الى مابعد انتصاف النهار ، ثم بدا على ميمنتهم وميسرتهم ضعف من هجمات المسلمين المتكررة ، فتأخرا الى الوراء ثم ثبتا ، ولكن هذه القهقرى منهم عرضت القلب للمهاجمين ، فمازالوا يشقون لهم طريقا فيه حتى وصل القعقاع ومن معه الى سرير رستم ، فأسرع اليه هلال ابن عقبة بضربة سيف فقتله . فلما رأى الفرس ما حل بقائدهم وبالفرق التى كانت تحيط به انهزموا شر هزيمة . فكانت هـذه الوقعة من أكبر الوقائع التاريخية ، بيعت فيها الأرواح بيع السماح ، ولا عجب فقد كان الأمر نزاعا بين أمتين إحداهما تدافع عن بيضتها وتحامى عن حوزتها ، والثانية تصدر عن مبدأ سام استوعب شعورها وهو نشر كلمة الله فى الأرض .

وقد أحصى قتلى المسلمين فبلغوا سبعة آلاف وخمسمائة ، وبلغ قتلى الفرس أكثر من ذلك .

بعد هـذا الانتصار الباهر رأى سعد بن أبى وقاص أن يريح جيوشه استجماما لقواها ، فلبث شهرين ثم سار قاصـدا عاصمة الفرس نفسها ، وكان ذلك فى شـوال سنة (١٩) هـ ، وقدم أمامه طليعة فالتقت بطليعة الفرس فقاتلتها وهزمتها . ثم وصل الجيش كله الى بابل التى كان اتخذها فلول الفرس مركزا لهم ، فقاتلهم سعد وهزمهم ، ثم تابع طريقه فلقيه جيش فارس فى كونى حاول أن يصد تدفق المسلمين ، فلم يثبت أمامهم قليلا وولى الأدبار لا يلوى على شىء ، وتقدم سعد زاحفا حتى وصل الى بهرشير وهى المدائن الغربية ، فلاح إيوان كسرى ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر : ها هو إيوان كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله . وكبر الناس معه . وكانت كلما وصلت منهم فرقة فرأت الإيوان كبرت سرورا بما تحقق لهم من إنباء رسـول الله صلى الله عليه وسلم .

فأقام سعد أياما فى بهرشير يدبر خطة للعبور بها الى العاصمة ، فلم ير وسيلة أنجع

من اجتياز نهر الدجلة سباحة على الخيول ، فقابل الفرس خيلهم بخيل مثلها فى النهر ، فأخذوا يتطاعنون ويتدافعون حتى لم يجد الفرس بدا من القهقرى ، فتركوهم يعبرون النهر وولوا هم مدبرين .

فلما انتهت جنود المسلمين الى الشاطىء شرعوا يحتلون المدينة فلم يجدوا فيها إلا حرس القصر ، فسلموا بلا قتال ، وكان كسرى يزدجرد قد فر الى حلوان ، تاركا فى القصر من التحف والذخائر والأوانى مالا يحصى ولا يقدر بثمن . ودخل سعد إيوان كسرى وهو يتلو قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » وكان أول عمل عمله فيه أن أقام الصلاة ، فصلى وائتم به جنوده ولم يأبهوا بما يحيط بهم من النصب والتماثيل .

أقام سعد بعاصمة الفرس وأخذ يرسل قواده لفتح الأقاليم ، فأرسل زهرة ابن الحيوية الى النهروان ، فسلم له أهلها وما يحيط بها من النواحى وعاهدوه على دفع الجزية . وأرسل سعد بن عبد الله بن المتم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل . وأرسل هاشم ابن عتبة الى حلوان حيث يقيم يزدجرد فاحتلها ، ثم هاجم الحمراء ففتحها . أما يزدجرد فما زالت تتدافعه البلاد حتى انتهى به المطاف الى فغفور الصين[1] ، فلجأ اليه وعاش فى بلاده حتى توفى .

فتم للمسلمين فتح مملكة من أعرق الممالك فى العلم والمدنية ، لم يتسن فتحها لمن سبقهم ممن دخلوا معها فى حرب ، فقد أغار عليها الاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد فانتقص من أطرافها ولكنه خشى أن يتوغل فيها فيصيب جيوشه الإعياء ويضيع ما حصل عليه من ثمرات الانتصار . ووقعت بين الفرس والرومانيين حروب كثيرة انتصر الأخيرون فى بعضها ولكنهم عجزوا عن احتلال عاصمتها والتوغل فى بلادها الى هذا الحد . فأتم الله على يد سعد بن أبى وقاص ما لم يتم على يد الاسكندر

(١) فغفور الصين لقب ملوكها كالميكادو لقب ملوك اليابان .

وهو فى نظر الأوربيين أكبر قادة الجيوش فى العالم ، وتم على يديه أيضا ما لم يتم على أيدى الرومانيين وكانت دولتهم تشمل جميع ما عرف من أقطار الأرض .

فنحن حيال هـذا الفتح العظيم لايسعنا إلا أن نفعل كما فعل ضرار بن الخطاب حين رأى إيوان كسرى ، فنكبر إعجابا به ، وإنه لجدير بذلك فى كل عصر .

بهذا الفتح انفتح فى وجه الاسلام باب الى قلب آسيا فلم تبق ناحية فيها إلا ووصلت إليها كلمة الله العليا ، ووجدت ملبين متحمسين لها من جميع الطبقات . فأينما حللت من آسيا وجدت أعلاما للاسلام منصوبة ، وألفيت الأفراد والجماعات تتسارع للدخول فيه ، حتى إنك لتحكم لأول وهلة أن هذا الدين سوف يعم جميع هذه الشعوب فـلا يبقى فيهم للوثنية أثرا . ولولا أن الأمية شـائعة فى تلك الأقطار لـكان الاسلام قد عمها جميعا منذ قرون مضت ، ولـكن ما بطأ به القصور يتداركه الزمن . وما دامت الوثنية محـكوما بزوالها ، فلا سبيل لأهلها غير الاسلام دينا ، كما يرى من عجـز جميع الأديان عن مجاراة الاسلام فى الانتشار فى تلك الأصقاع ؟ محمد فريد وجدى

موعظة بليغة

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : رحم الله عبدا سمع فوعى ، ودعى الى الرشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا ، وراقب ربه ، وخاف ذنبه ، وقدم خالصا وعمل صالحا ، واكتسب مذخورا ، واجتنب محـذورا ، ورمى غرضا ، وأصاب عوضا ، وكابر هواه ، وكذب مناه ، وحذر أجلا ، وأدب عملا ، وجعل الصبر رغبة حياته ، والتقى عدة وفاته ، يظهر دون ما يكتم ، ويكتفى بأقل مما يعـلم ، لزم الطريقة الغراء ، والمحجة البيضاء ، واغتنم المهل ، وبادر الأجل ، وتزود من العمل !

دائرة المعارف الاسلامية

والخلط فى التاريخ والحقائق العلمية

اطلعت على الجزء السابع من المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية التى تترجم الآن بمصر الى اللغة العربية فوجدت فيه بعض مآخذ تحتاج الى البيان والافصاح عن الحق فيها . ونحن ذاكرون بعضا منها فيما يلى :

(١)

جاء فى صفحة ٤٤٥ من العدد المذكور ما نصه :

« وقد ذهب سنوك هرجرونيه Snouck Hurgronje : Die Mekkanische Feste ص ٨٦ وما بعدها الى أن محرمات الإحرام قد غدت قاسية فى نظر النبى ، لذلك نجده أثناء مكثه فى مكة قبل الحج يتحلل من هذه المحرمات ، فلما نظر إليه صحابته نظرة عتاب واستفهام نزلت الآية : « وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » (البقرة الآية ١٩٦) . وعلى ذلك فإن ما تراءى للنبى ومعاصريه أنه إهمال يستوجب التفكير قد غدا فى نظر الأجيال اللاحقة أمراً مباحا ، والحجاج الذين يصلون مكة قبل الحج بوقت طويل يتخلصون مما حرم عليهم بالتمتع ، فهم يخلعون ملابس الإحرام عقب الانتهاء من العمرة ، ولكنهم يعودون فيرتدونها عند اقتراب موعد

الحج ، والتمتع محرم على الذين عندهم هدى للفدية (البقرة الآية ١٩٦) . وكانت العمرة فى الأصل تحدث فى شهر رجب . وتذكر بعض الروايات أن العمرة إبان الحج لم تكن معروفة فى الجاهلية » اهـ .

وفهم هذا الكلام يحتاج الى مقدمة ، وهى أنه كان فى زمن الجاهلية لا يجوز أن يؤتى بالعمرة فى أشهر الحج ، فاذا أحرم المحرم فى أشهر الحج كان عليه ألّا يتحلل من محرمات الإحرام إلا بعد انقضاء حجه .

فلما جاء الاسلام أجاز المتعة فى أشهر الحج ، فللقادم الى مكة مثلا أن يحرم بعمرة ، فإذا دخل مكة وطاف وسعى تحلل من عمرته وجاز له أن يفعل كل ما كان محرما عليه بالإحرام ، فإذا قرب يوم عرفة أحرم بالحج وأتم حجه ، ويسمى ذلك تمتعا ، وعليه لذلك هدى ، وقد وقع ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث سنذكره .

فجاء سنوك هرجرونيه وصور الواقعة على غير حقيقتها التاريخية ، فزعم أن سبب هذا التشريع الذى يبيح التحلل من محرمات الإحرام فى أشهر الحج هو أن محرمات الإحرام قد غدت قاسية فى نظر النبى صلى الله عليه وسلم فتحلل من هذه المحرمات أثناء مكثه فى مكة قبل الحج ، فنظر إليه أصحابه نظرة عتب واستفهام ، فنزلت آية البقرة التى تجيز التمتع الذى يستتبع التحلل من هذه المحرمات فى زمن الحج .

والمسألة على هذا الوجه تخالف التاريخ والروايات الصحيحة ، فالروايات تنبئنا أنه صلى الله عليه وسلم فى حجته تلك بقى على إحرامه لم يتحلل منه ، وقد أمر أصحابه بالتحلل ، وأبدى لهم الوجه فى عدم تحلله فقال : إنى لبّدت رأسى وقلّدت هديى فلا أحل حتى أنحر . فهو يخبر أنه يحرم عليه التحلل لأنه ساق الهدى ، ولا يجوز له أن يتحلل حتى ينحر هديه لقوله تعالى : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » أما من لم يسق الهدى فجائز له أن يتحلل من عمرته ثم يحرم بالحج .

ولا شك أن القارئ يرى معنا أن ذلك ليس فيه أقل مغمز فى النبى صلى الله عليه

وسلم ولا فى الشريعة الاسلامية . ومن الغريب أن الروايات فيما نعلم تكاد تكون مجمعة على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتحلل، وإنما أمر أصحابه بالتحلل، وبيّن أنه لا يجوز له التحلل لأنه ساق الهدى . فالأستاذ سنوك هرجرونيه قائل هذه المقالة على هذا يكون قد ترك ما جاءت به الروايات وما نطق به التاريخ ، واخترع سببا من عند نفسه لهذه المسألة . وهذا ما يجعلنا نرى أن صاحب هذا البحث يسيء الى الشريعة والى صاحبها صلى الله عليه وسلم بسوء نية ، لأنه لو كان حسن النية لما تجاهل هذه الروايات الصحيحة ، ولما اختلق سببا من عند نفسه يوقع فى النفس الريبة والشك . وسنذكر من الروايات تفصيلا يعلم منه فساد ما زعمه هرجرونيه ، وما يناقضه مناقضة واضحة :

أخرج ابن جرير فى تفسيره بسنده عن السدى — قوله : « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى »: أما المتعة فالرجل يحرم بحجة ثم يهدمها بعمرة ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين حاجا حتى إذا أتوا مكة قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب منكم أن يحل فليحل . قالوا : فما لك يا رسول الله ؟ قال : أنا معى هدى .

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت : يا رسول الله ما شأن الناس حلوا بعمرة ولم تحلل أنت من عمرتك ؟ قال : إنى لبدت رأسى وقلدت هديى فلا أحل حتى أنحر .

وأخرج البخارى أيضا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه حج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ساق البدن معه وقد أهلوا بالحج مفردا ، فقال لهم : أحلوا من إحرامكم بطواف البيت وبين الصفا والمروة وقصروا ثم أقيموا حلالا حتى إذا كان يوم التروية فأهلوا بالحج واجعلوا التى قدمتم بها متعة . فقالوا : كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج ؟ فقال : افعلوا ما أمرتكم فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم ولكن لا يحل منى حرام حتى يبلغ الهدى محله . ففعلوا .

فالقارئ يرى أن هذه الروايات مجمعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحلل بل بقي على إحرامه. فما ذكره أصحاب الدائرة من أن النبي صلى الله عليه وسلم تحلل استثقالا لمحرمات الإحرام يخالف هذه الروايات.

والمتتبع لكلام أصحاب دائرة المعارف في هذا الموضوع يتبين له جليا الغرض الذي يرمون اليه، وذلك أنهم ساقوا في بيان الحاج الحديث الذي رواه ابن ماجة من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الحاج من هو قال: إنه «الأشعث التفل» واقتصروا على هذا الحديث ولم يضموا اليه ما يبين الغرض من الحج، ليوقعوا في نفس السامع أن الحج ليس هو إلا شعثا وتغبير رأس وتقشفا، مع أن في القرآن ما يبين بوضوح أن الحج طهارة معنوية تهذب النفس وتزكيها، وتروضها على الطاعة والابتعاد عن المعاصي، والرفث والفسوق والمشاحنة.

قال تعالى: «الحج أشهرٌ معلوماتٌ، فمن فرَض فيهن الحجَّ فلا رفَثَ ولا فسوقَ ولا جِدالَ في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمْه الله، وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى، واتقون يا أولى الألباب».

والشريعة الاسلامية لم تطلب من الحاج أن يخرج عن حالته الاعتيادية إلا ليتوفر على الجانب المعنوي، وعلى تهذيب النفس ورياضتها.

ولعل القارئ بعد ما أطلعناه على مقدار خطئهم وعدم تحريهم للتاريخ والروايات المنقولة في هذه المسألة واختراعهم أسبابا لم يأت بها التاريخ، يقع في نفسه الارتياب في معلوماتهم، والشك فيما يأتون به، فيقف أمام ما يقولون موقف الحذر، ولا يأخذه إلا بعد التريث والتثبت بالرجوع الى المصادر الاسلامية.

(٢)

قالت دائرة المعارف الاسلامية في صفحة ٤٣٨ و ٤٣٩ في مادة إجماع من العدد المذكور:

(إجماع) : أحد الأصول الأربعة التى تقوم عليها العقيدة الاسلامية ، ويعرف بأنه اتفاق المجتهدين (هم الذين لهم الحق بفضل ما أوتوا من العلم أن يقرروا حكما برأيهم — انظر مادة اجتهاد) من الأمة بعد وفاة الرسول فى كل عصر وفى كل أمر دينى ... ...

... ...

وإذا لم يكن الإجماع فى أول أمره إلا وسيلة لتقرير المسائل التى لم تقررها الأصول الأخرى ، فإنه قد أخذ كذلك على مر الزمن يطبع المسائل التى قررتها هذه الأصول بطابع الجزم والتوكيد ، ويرجع هذا الشأن الذى للإجماع الى العصمة عن الوقوع فى الخطأ ، وهى ميزة خص الله بها المسلمين ... ...

... ...

والحديث النبوى الذى يعتبر أساس الإجماع هو : «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة» يضاف إليه الآية (١١٥) من سورة النساء التى يتوعد فيها الله من يتبع غير سبيل المؤمنين ، والآية (١٤٣) من سورة البقرة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » . (انظر شرح البيضاوى) .

ثم قالت أيضا :

وعلى هذا فإنه يكون فى مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننا لا أن يسلموا بما تلقوه عن طريق آخر فحسب . وقد أصبح بفضل الإجماع ما كان فى أول أمره بدعة (أى فعلة مخالفة للسنة ، وبذلك تكون ضلالة) أمرا مقبولا نسخ السنة الأولى ، فالتوسل بالأولياء مثلا صار عمليا جزءا من السنة . وأعجب من هذا أن الاعتقاد بعصمة النبى قد جعل الإجماع ينحرف عن نصوص واضحة فى القرآن ، فلم يقتصر الإجماع هنا على تقرير أمور لم تكن مقررة من قبل فحسب ، بل غيّر عقائد ثابتة وهامة جدا تغييرا تاما ، وعلى هذا فهو يعتبر اليوم عند الكثيرين — مسلمين وغير مسلمين — وسيلة فعالة للإصلاح ، فهم يقولون إن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا

من الاسلام ما شاءوا على شريطة أن يكونوا مجمعين . على أن الآراء غير متفقة فيما يمكن أن ينتظر للإجماع . فجولدسيهر Goldziher ص ٩٦ الذى درس تاريخ الإجماع يعتقد أنه يمكن أن يكون له شأن كبير ، على خلاف سنوك هرجرونيه الذى يرى أن الفقه قد جمد ولذلك فلا رجاء فى الإجماع . اه بنصه .

هذا هو الإجماع عند المسلمين فى نظر أصحاب دائرة المعارف ، وهو صورة مشوهة للإجماع لا حقيقة الإجماع ، وهذه الصورة المشوهة تجعل الشريعة متناقضة ، فهى تقرر أصولا ينقض بعضها بعضا ، فأصل الإجماع قد ينقض الكتاب والسنة ، فقد يجمع المسلمون على خلاف ما ورد فى الكتاب والسنة ، ويقول أصحاب الدائرة : إن ذلك قد وقع ، فالإجماع قد انحرف عن نصوص واضحة فى القرآن ، فلم يقتصر الإجماع هنا على تقرير أمور لم تكن مقررة من قبل فحسب ، بل غير عقائد ثابتة وهامة جدا تغييرا تاما . وهم يرون أن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين ، أى فالإجماع قادر على أن يغير فى العقيدة فيجعل من التوحيد تثليثا مثلا ، ويبدل فى الفرائض فيزيل ما يشاء ويبقى ما يشاء ، فله أن يبطل فرض الحج والصلاة ، وبذلك يكون عندهم وسيلة فعالة للإصلاح ، فما شرع على نحو معين يمكن الأجيال أن تغيره بإجماعها .

ولا شك فى أن هذه الصورة للإجماع تجعل الشريعة متناقضة كما قلنا ، وتجعل المسلمين غفلا أغرارا يقبلون المتناقضات ؛ فهم مع إيمانهم بعصمة الرسول يقبلون الإجماع الذى قد يبطل قول الرسول والكتاب ؛ وتجعل الرسول بالموضع الذى يقرر مبدأً ينقض قوله وقول الكتاب معاً .

وأخيرا تجعل الشريعة الاسلامية سوفسطائية ترى اعتقاد كذا حقا ودينا فى عصر ونقيضه حقا ودينا فى عصر آخر إذا رأى المسلمون أن يبدلوا الاعتقاد الأول ويحلوا محله نقيضه . ومن غريب الأمر أنهم زعموا أن ذلك قد وقع !

ونحن سنبين هنا حقيقة الإجماع ، ونوضح أن هذه الصورة مشوهة ، ونردها الى الصورة الحقيقية التى يعلمها المسلمون وقررها علماؤهم فى كتبهم . وإذا عُلمت هذه الصورة ودرست آثارها فى الاسلام لم ير فيها هذه اللوازم الفاسدة ، ولم يوجد لها هذه الآثار التى يزعمها هؤلاء المستشرقون .

فأولا — أن أصحاب الدائرة قالوا : الإجماع أحد الأصول الأربعة التى تقوم عليها العقيدة الاسلامية وهذا خطأ وخلط بين ماينبنى عليه الأحكام الفرعية العملية وماينبنى عليه الأحكام الأصلية الاعتقادية ، فالأصول الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، لم يذكرها علماء الأصول على أنها أصول للعقائد ، وإنما ذكروها أصولا للأحكام الفرعية العملية ، ولذلك لم يقل أحد إن القياس يثبت به عقيدة أصلية ، وإنما قالوا : القياس تثبت به الأحكام الفرعية العملية .

ثانيا — أن أصحاب الدائرة عرفوا المجتهدين بأنهم الذين لهم الحق بفضل ما أوتوا من علم أن يقرروا حكما برأيهم . وهذا تعريف واسع ، لأن الرأى قد يكون عن دليل من القياس على ماثبت بالكتاب والسنة ، وقد يكون عن غير دليل من ذلك . ولاشك أن المجتهد هو الذى له الحق بفضل ما أوتى من علم أن يقرر حكما باجتهاده بالقياس على ما ثبت بالكتاب أو السنة . وليس له أن يقرر حكما برأيه مجردا عما يدل عليه من أحد الأدلة الأربعة آنفة الذكر ، وهذا التوسع فى معنى المجتهدين قصد اليه أصحاب الدائرة ليتأتى لهم ما بنوه عليه من أنه يكون فى مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننا .

ثالثا — أنهم يرون أن الإجماع لم يكن فى أول أمره إلا وسيلة لتقرير المسائل التى لم تقررها الأصول الأخرى . هذا الرأى الذى اختاروه ليس مختارا عند الأصوليين ، إذ المختار عندهم أن الإجماع لا يكون إلا عن مستند من الأصول الثلاثة الأخرى . واستدلوا على ذلك بأن الإجماع عن غير مستند يستلزم الخطأ فتجتمع الأمة على الخطأ ،

وهو مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تجتمع أمتى على ضلالة» وبأن اتفاق الكل لا لداع من مستند يستحيل عادة كالاجتماع على أكل طعام واحد.

وإذا كان الإجماع لا يكون إلا عن مستند من الكتاب أو السنة أو القياس، بطل زعمهم أن فى مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننا، كما بطل قولهم: قد أصبح بفضل الإجماع ما كان فى أول أمره بدعة أمراً مقبولا نسخ السنة الأولى.

على أننا سنجاريهم ونسلم جدلا تلك الصورة المشوهة للإجماع، ونقول: إنه مع هذا التسليم لا يلزم ما ذكروه من أن فى مقدور المسلمين أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننا، وأن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا من الاسلام ما شاءوا على شريطة أن يكونوا مجمعين، وذلك لأنهم قالوا فى صفحة ٤٣٩: «وكان اجتماع الصحابة بطبيعة الحال أمرا مأخوذا به عند الأجيال اللاحقة بصفة قطعية». وهذا يشير الى ماقاله الأصوليون من أن إجماع أهل عصر على حكم ملزمٌ للعصور اللاحقة لا يجوز لهم أن يخالفوه. وإذا كان ذلك كذلك بطل ما قالوه من أن للمسلمين أن يجعلوا من الاسلام ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين، ومن أن الإجماع قد جعلهم ينحرفون عن نصوص واضحة فى القرآن، وإنما بطل ذلك لأن العقائد الاسلامية قد تقررت وأجمع عليها فى العصور السابقة، وإجماع العصور السابقة ملزم للعصور اللاحقة، فلا يجوز أن يجمعوا على خلافها.

على أن هذا اللازم الذى ذكروه وهو أنه يمكن أن يجعل المسلمون من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين إنما يتصور إذا فرض أن هؤلاء المجمعين غير مسلمين، فهم يقررون من العقائد والأحكام ما شاءوا ولو ناقضت الكتاب والسنة. ولكننا إذا راعينا شروط المجمعين وهى أن يكونوا مسلمين عارفين بالكتاب والسنة والقياس لم يتصور منهم ما ذكروه، لأنه لا يتصور من مسلم أن يناقض الكتاب والسنة

برأيه فضلا أن يجمع عليه المجتهدون . وزعمهم أن الإجماع انحرف عن نصوص واضحة في القرآن وغير عقائد ثابتة وهامة جدا تغييرا تاما، زعم لا دليل عليه ، وهم مطالبون بذكر مثال واحد من ذلك لنناقشهم فيه .

وأما زعمهم أن التوسل بالأولياء بفضل الإجماع صار عمليا جزءا من السنة فزعم غير صحيح ، لأن مسألة التوسل بالأولياء لا تزال مسألة خلافية لم يحصل فيها إجماع ، ولم يستدل أحد المخالفين بالإجماع فيها ، بل مناط الاستدلال بين الفريقين ظواهر من الكتاب والسنة .

ومن المفيد جدا أن نذكر هنا المعلومات الآتية :

قد علم الله تعالى ما يفعل الزمن وتطاول العهد بالعقائد والأديان من تغيير وتبديل ، وما تفعله الأهواء والأغراض بها من نسخ وتحوير ، فوضع من الأصول والقواعد في الشريعة الاسلامية ما يمنع وقوع مثل هذا في قواعدها وأصولها ، فبين أن أصول الدين واحدة في جميع الأديان « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ، وحذر من الابتداع ومخالفة السنة ، وإحداث شيء في دين الله لم يكن فيه ، وكتمان شيء منه ، وتغيير أو تبديل أصوله . وقد نطق الكتاب الكريم بذلك في غير ما آية والسنة النبوية طافحة بمثله ، قال تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وروى عن أبي وائل عن عبد الله قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا طويلا فقال : هذا سبيل الله . ثم خط لنا خطوطا عن يمينه ويساره وقال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم تلا هذه الآية « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وروى ابن وهب أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بكتاب فى كتف فقال : كفى بقوم حمقا — أو قال : ضلالا — أن يرغبوا عما جاء به نبيهم الى غير نبيهم ، أو كتاب الى غير كتابهم ، فنزلت « أَوَلم يكفهم أَنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الآية .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سنتى فليس منى » ثم تلا هذه الآية « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

وورد فى الصحيح من حديث عائشة رضى الله عنها «من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد» وخرّج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى خطبته : « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وروى الترمذى وصححه وأبو داود وغيرهما عن العرباض بن سارية قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله : كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد الينا» ؟ فقال :« أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لولاة الأمر وإن كان عبدا حبشيا ، فإن من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحببتَ ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث فى دين الله حدثا برأيك» .

وقال : « من اقتدى بى فهو منى، ومن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد رسخت هذه الأصول والقواعد عند الأئمة والمجتهدين ، فنطقوا بها فى أقوالهم، وآثروها فى أعمالهم ، قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا .

وكان ابراهيم التيمى يقول : « اللهم اعصمنى بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف فى الحق ، ومن اتباع الهوى ، ومن سبل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ فى الخصومات » :

ولما بايع الناس عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ! إنه ليس بعد نبيكم نبى ، ولا بعد كتابكم كتاب ، ولا بعد سنتكم سنة ، ولا بعد أمتكم أمة . ألا وإن الحلال ما أحل الله فى كتابه على لسان نبيه حلال الى يوم القيامة ، ألا وإن الحرام ما حرمه الله فى كتابه على لسان نبيه حرام الى يوم القيامة ، ألا وإنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ ، ألا وإنى لست بخازن ولكنى أضع حيث أمرت ، ألا وإنى لست بخيركم ولكنى أثقلكم حملا ، ألا ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

هذا قليل من كثير ، وغيض من فيض ، فالأمة التى حذرت من أن تحدث فى دين الله شيئا وقال الله لها : « اليوم أكملت لكم دينكم » وأشربت ذلك فى قلوبها ، واختلط بلحمها ودمها ، لا يعقل أن يجتمع مجتهدوها على أن يهدموا عقائدهم ، وأن يبتدعوا عقائد جديدة فى دين الله ، وأن يجعلوا من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين .

لعل القارئ يرى من هذا أن الإجماع الذى صوره أصحاب دائرة المعارف ليس هو إلا صورة خيالية مشوهة لا يتفق مطلقا مع ما قررته الشريعة السمحة ولا مع آراء علماء الأصول ، فجميع اللوازم والفروع التى بنوها على هذه الصورة ليس لها أى ظل من الحقيقة .

أما الإجماع على حقيقته عند المسلمين فلا يلزمه أى شىء من تلك اللوازم الباطلة وليس فيه أدنى خطر ولا أقل عيب .

وسأوافى القراء بما وجدته من مآخذ أخرى ، والله المعين .

محمد عرفه
وكيل كلية الشريعة الاسلامية

مآثر العرب فى علم الجغرافيا (١)

نشأ علم الجغرافيا بين العلوم العربية منذ بداية ظهور الاسلام ، وقد ساعد على تقدمه عوامل عديدة أصبح بفضلها فى القرن الثالث والرابع من الهجرة علما واسعا شمل كثيرا من المعلومات القيمة مثل الأبحاث والتحريات عن شكل الأرض ، وعن الجزء المغمور بالماء والجزء اليابس على سطحها ، وتقسيم المناخ الى مناطق ، وقياس خطوط الطول والعرض ؛ وكان ذلك كسائر العلوم وقفا على علماء الاغريق من قبل ، وانتهى بما وصل اليه بطليموس فى هذا الصدد من أبحاث نقلت فيما بعد الى العربية بناء على رغبة الفيلسوف الكندى الذى وضع فيما بعد رسالته عن حدود المناطق المعمورة من العالم . ولم تصل الترجمة العربية لكتاب بطليموس الى أيدينا ، إلا أنه جاء ذكرها فى ملخص الجغرافيا الذى وضعه محمد الخوارزمى عام ٤٢٨ ه أثناء الكلام عن بطليموس .

لم يقل اهتمام المؤلفين العرب بتعرف الحقائق العلمية البحتة عن شغفهم باستطلاع غرائب الشعوب الأجنبية ، كما ظهر ذلك بأجلى وضوح فى كتاب الجاحظ عن البلدان . ولقد كانت كذلك حاجتهم الى تيسير طرق المواصلات ورغبتهم فى وضع سياسة رشيدة فى تحصيل الضرائب من أهم العوامل التى حفزتهم على ارتياد مجاهل الأرض والبحث فى أحوال السكان وثرواتهم .

وأقدم الكتب التى بقيت حتى اليوم كتاب الجغرافيا الذى وضعه عبيد الله ابن خرداذبة فى عام ٢٣٠ ه عن الطرق والدول ، ويحتوى هذا الكتاب على معلومات غاية فى الأهمية من الوجهة العملية حيث ذكر فيه جميع محطات البريد وأبعادها ، ومبالغ الضرائب التى تؤديها كل ولاية . ولهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة ، ويعتبر من أهم

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

المراجع وأقوى المصادر لا عتداله وشدة تعلق مؤلفه بالحقائق ، ولو أنه لم يكن له أثر يذكر بين معاصريه ومن جاء بعده مباشرة لحكمهم عليه بما كتبه أول عهده بمدينة بغداد فى الأدب والموسيقى . وجاء فى رواية المسعودى أنه وضع كتابا قيما فى تاريخ الشعوب قبل الاسلام ، وأن أحد المتأخرين أدخل عليه جزءا خاصا بالتاريخ العام مملوءا بوقائع بعيدة كل البعد عن الحقيقة ونسبه اليه ، وربما كان ذلك سببا فى أن المؤرخ الكبير أبا الفرج الأصفهانى كان لا يثق به كثيرا .

واقتفى قدامة المتوفى سنة ٣١٠ هـ عبيد الله خرداذبة من بعده ، فألف بضعة كتب فى الأدبيات والعلوم ، ثم وضع كتابا قيما فى ضريبة الأراضى ندين له حتى اليوم بمعلومات هامة فى المالية العامة والإدارة وطرق المواصلات البريدية . وذيّل كتابه هذا بوصف دقيق للبلدان والشعوب الأجنبية ، ونقل عن أحمد البلاذرى المؤرخ الفارسى المعروف كتابه فى تاريخ الفتوحات بحذافيره .

وفى عام ٢٩٠ هـ وضع أبو بكر بن الفقيه الهمذانى كتاب البلدان ناهجا فيه طريقة الجاحظ ، فكان أهم محتوياته وصفا دقيقا للشعوب الأجنبية وتقاليدهم الغريبة . وبدأ كتابه هذا ببحث غير مستفيض فى تكوين الأرض ونشأة البحار ، أعقبه بمقارنة وافية بين الصينيين والهنود ، حتى إذا ما أتمها جال حول العالم المعروف وقتئذ جولة انتهى منها بوصف العراق .

ووضع محمد بن رُسْته فى أصفهان دائرة للمعارف حوالى هذا التاريخ أيضا ، أتى الدهر عليها جميعها إلا الجزء السابع منها الخاص بعلم تقويم البلدان ، وقد امتاز بصيغته العلمية البحتة وأبحاثه الفنية القيمة . وبه بحث مستفيض فى الجغرافيا الفلكية والرياضية ، وآخر فى وصف البحار والمناخ ، ثم انتقل الى تقويم البلدان مبتدئا بمركزى الإسلام المقدسيْن مكة والمدينة المنورة .

وفى عام ٣٠٩ هـ قام أبو زيد البلخى أحد تلامذة الفيلسوف الكندى بوضع

كتاب آخر عنى فيه بوجه خاص بالخرائط ، وقام بتنقيحه من بعده ابراهيم الإصطخرى فى عام ٣٤٠ هـ وأضاف اليه معلومات كثيرة فى الوصف ، وأخرجه فى صورته الأخيرة ابن حوقل سنة ٣٦٧ هـ .

وفى نهاية القرن الرابع من الهجرة ظهر كتاب محمد المقدسى ، فكان خاتمة المؤلفات العربية فى علم الجغرافيا لهذا العصر من تاريخ الأدب العربى . ولد محمد المقدسى فى القدس ، ودرس كل من سبقه من الكتاب ، وأولع بالسفر والارتياد ، فاتسعت معلوماته وزادت معارفه ، بعد أن جاب معظم البلاد الاسلامية حتى وصل الى السند وسجستان شرقا ، وبلاد الأندلس غربا . وامتاز كتابه بالوصف الدقيق الذى شمل جميع أنواع الحياة الاقتصادية ، إلا أن أسلوبه كان متأثرا بعض التأثر بالمحسنات اللفظية التى دخلت على فن النثر وأدت الى وضع مؤلفات وأسفار عديدة فيه فى القرن الخامس من الهجرة ، ولكنه على كل حال لم يخرج عن حد الاعتدال ولم يضح كغيره من المتأخرين بالموضوع فى سبيل الأسلوب الشكلى . وظهر كتابه فى عام ٣٧٣ هـ إلا أنه عدل فيه تعديلا واسع النطاق عقب رحلة أخرى طويلة ، وأخرجه بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات على صورته الأخيرة المعروفة .

وفى غضون القرن الرابع ظهرت عدة مؤلفات حوت تقارير فى وصف رحلاتهم اشتملت على معلومات هامة ندين لها بكثير من معارفنا عن الشعوب الأجنبية . ومن أمثلة ذلك التقرير الذى وضعه أحمد بن فضلان وكان سفيرا للخليفة المقتدر عند ملك البلغار المستوطنين حوض نهر الفولجا سنة ٣٠٩ هـ ، فلما عاد بعد ذلك بعام واحد الى موطنه وضع ذلك التقرير الذى جاء فيه معلومات قيمة جدا ، نقلها ياقوت بأكملها فى معجمه الجغرافى .

ووضع أبو دلف مسعر بن مهلهل تقريرا لرحلة يدعى أنه قام بها مع أفراد بعثة لبعض أمراء الهند كانت قدمت إلى بخارى سنة ٣٣١ هـ وهى عائدة الى مقر حكم ذلك

الأمير مخترقة بلاد التبت ، وأنه عاد من هذه الرحلة بطريق ملبار وكرمندل وكشمير فكابل ثم سجستان . وأبو دلف هذا كان شاعرا مجيدا يعيش فى بطانة السامانيين بمدينة بخارى ، وجاء فى رواية لبعض التجار الرحالة أن تقريره المذكور حوى معلومات شتى غاية فى الأهمية عن البلدان التى ذكرها .

وروى كذلك بعض التجار ورواد البحار أن كلا من زيد حسن بن يزيد وبزرج ابن شهريار الرامهرمزى وضع كتابا : الأول حوالى عام٣٠٣ ه والآخر حوالى عام٣٤٢ ه متضمنا كل منهما معلومات قيمة فى وصف البحار والشواطئ الهندية والصينية .

ووضع ابراهيم بن يعقوب أحد كبار التجار المعروفين فى ذلك العصر تقريرا هاما توخى فيه الحقائق الى أبعد حد عن رحلاته فى أواسط أوربا وألمانيا وفى البلاد السلافية ، وكان قد قدم إليها من إفريقية فى بعثة خاصة الى الأمبراطور أوتو الأكبر ، قام بعدها برحلة تجارية فى الممالك المذكورة ، ورفع تقريره هذا الى الخليفة فى قرطبة ، ولم ينشر فى ذلك الحين ، الى أن اقتبسه البكرى ضمن كتابه المشهور فى العلوم الجغرافية .

وأما محمد الهمدانى المتوفى فى صنعاء عام ٣٣٤ ه فكانت تغلب على مؤلفاته روح الوطنية والعصبية والفخر والتحمس لموطنه ومسقط رأسه ، فجاءت بعيدة عن حب الاستطلاع لعجائب البلدان الأجنبية والوقوف على أحوال سكانها . ولما كانت اليمن غنية بتاريخها المجيد وحضارتها الأثيلة ، فإن سكان هذا الإقليم كانوا يشعرون بتفوقهم على حكامهم من عرب الشمال من حيث الحضارة والعمران ، وبهذه الروح الوطنية المتقدة وضع محمد الهمدانى كتابه الكبير المسمى (الإكليل) لم يبق منه سوى الجزء الثانى وهو فى قصور اليمن ومدافنها ، ووضع كتابا آخر فى وصف شبه جزيرة العرب وبه معلومات قيمة للغاية ، ويعتبر حتى اليوم من أهم المراجع وأوثقها فى نواح شتى .

بقيت المؤلفات العربية فى علوم الجغرافيا وتقويم البلدان خلال المرحلة الثانية من تاريخ الأدب العربى محتفظة بمكانتها الأولى من الأهمية ، فأثبت المؤلفون فى هذا

العصر أبحاثا علمية قيمة، ووضعوا تقارير هامة تفيض بوصف رحلاتهم الى البلاد النائية .

وأول من ظهر من مؤلفى هـذا العصر هو محمد البيرونى ، وهو من كبار علماء المسلمين ، اشتهر أيضا بمؤلفاته التاريخية والعلمية البحتة ، ولد محمد البيرونى فى خوارزم عام ٣٦٢ ھ من أبوين إيرانيين ، وأولع بالعلوم الطبيعية ، فانكب على دراسة الرياضة والفلك واهتم بتطبيقهما عمليا ، فأثمرت جهوده فى علم التوقيت ثم فى التاريخ . وله فى هذا المضمار سفر جليل فى تاريخ الشعوب القديمة ، ووضع فى بدء حياته العلمية عدة رسائل فى الفلك ، ثم وضع كتابا عاما توج به أبحاثه الفلكية وأهداه الى السلطان مسعود بن محمود ابن سبكتجين فى عام ٤٢١ ھ وسافر الى الهند حيث أقام بها بضع سنين محترفا مهنة التدريس فى العلوم الإغريقية ، ودرس عن الهنود علومهم ، وواصل البحث والتنقيب لتعرف طبيعة البلاد وأحوال سكانها ، وأخيرا وضع مؤلفا نفيسا فى وصف الهند بعد دراسة وافية وبحث عميق ، ويعتبر هذا الكتاب بحق مفخرة الجهود الاسلامية فى هذا المضمار . وتوفى هذا العالم الجليل فى غزنة فى ٣ رجب سنة ٤٣٠ ھ .

واقتفى أثره من علماء هـذا العصر الطبيب البغدادى والعالم الطبيعى الكبير عبد اللطيف المتوفى سنة ٦٢٩ ھ فوضع كتابا فى وصف مصر ناهجا نهج البيرونى فى كتابه فى وصف الهند، ولو أنه لم يوفق توفيقه .

ولقد ساعدت رحلات المسلمين الى مكة لأداء فريضة الحج فى كثير من الأحيان على تنشيط الإنتاج فى المؤلفات الجغرافية وتعددها ، حيث كان يقصد المسلمون بيت الله من جهات مختلفة نائية ، ويضعون مؤلفات قيمة فى وصف البلاد التى اخترقوها فى طريقهم الى الحج لمساعدة إخوانهم فى المستقبل ، بل كثيرا ما كانت مؤلفاتهم تتعدى هذه الغاية الى أغراض علمية عامة . ولعل أقدم الكتب المعروفة وأعمها فائدة فى هذه الناحية كتاب الحج الذى وضعه ابن جبير المولود فى فلنسية عام ٥٤٠ ھ ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٦١٤ ھ .

وفى نهاية هذا العصر بدأت عوامل جديدة تتطرق الى هذا الضرب من التأليف كانت سببا فى ضياع كثير من معالمه وفقدان ممـيزاته العلمية الخاصة ، فأهمـل معظم الـكتاب الوصف الجغرافى ، وعمدوا الى ملء كتب رحلاتهم بتقارير ضافية عن معاصريهم من العلماء الذين تصادف أن التقوا بهم فى سياحاتهم، فجاءت بذلك موضوعات مؤلفاتهم أقرب الى تاريخ الأدب منها الى العلوم الجغرافية الوصفية ، وأول ما ظهر هذا التطور فى كتاب محمد العبدرى الذى وضعه فى وصف سياحاته بمدينة فلنسية عام ٦٨٨ هـ .

وأما فى علم تقويم البلدان فإن اسم محمد الإدريسى هو أظهر من اهتم به من مؤلفى العرب فى هذا العصر ، ولد محمد الإدريسى من أبوين علويين بمدينة سبتة من أعمال المغرب الأقصى عام ٤٩٣ هـ وطلب العلم فى قرطبة ، فانقطع لدراسة الجغرافيا وماتستلزمه من العلوم الطبيعية الأخرى ، وقام برحلة طويلة لزيادة الاطلاع والاستكشاف حتى وصل فى سياحته الى جزيرة صقلية ، وأقام فى بلاط « روجر الثانى » ملك النورمانديين لما عرف فيه من رعاية وتعضيد للعلوم والآداب العربية ، واليه أهدى كتابه فى عـلم الجغرافيا وتقويم البلدان عام ٥٤٨ هـ .

بقى كتاب الإدريسى حجة هذا العصر الى أن جاء ياقوت ووضع سفرا ضخما جمع فيه كل ما وصلت اليه العلوم الجغرافية حتى ذلك الحين ، وعنى بترتيب معجمه هـذا حسب الحروف الهجائية ، وولد ياقوت من أبوين إغريقيين بآسيا الصغرى عام ٥٧٤ هـ . واستولى عليه تجار الرقيق ، الى أن دخل فى خدمة أحد تجار بغداد ، فأحسن تربيته ، وعنى بتهذيبه عناية كبيرة ، وقام برحلات تجارية عديدة . ولما توفى ولى أمره سنة ٥٩٧ هـ أسس له عملا مستقلا فى تجارة الـكتب ، ولم يلبث أن اشتغل بالتأليف ، وقام بعد ذلك برحلات طويلة للبحث والاطلاع ، وبدأ فى وضع معجمه المعروف بمدينة نيسابور سنة ٦١٥ هـ حيث وجد فى دور كتبها الهامة أكبر مساعد له على إتمام عمله العظيم ، ولما قدم الى خوارزم سنة ٦١٧ هـ وبلغه خبر استيلاء التتر على أغلب نواحى هذه المنطقة

فر هاربا الى الموصل حيث واصل جمع مـواد معجمه هذا ، وفرغ من عمله هذا العظيم فى ٢٠ صفر سنة ٦٢١ ، ثم رحل الى الاسكندرية لزيارة مكاتبها الشهيرة ، وبدأ بوضع الصورة الأخيرة لمعجمه بمدينة حلب فى ٢١ المحرم سنة ٦٢٥ ، ولكنه لم يتمكن من إتمام عمله إذ وافته المنية قبل الانتهاء من نقله فى ٢٠ رمضان سنة ٦٢٦ ، ويعتبر معجمه فى تقويم البلدان فى مقدمة المؤلفات العربية فى ذلك العصر .

واهتم زكريا القزوينى كذلك بوضع كتاب جمع فيه كل معارف الشعوب الاسلامية عن العالم فى نواحيه الطبيعية والفلكية والجغرافية الوصفية ، وقد لاقى كتابه هـذا نجاحا كبيرا وذيوعا واسعا ، ونقل الى اللغات الفارسية والتركستانية والعثمانية م؟

مفتاح كنوز السنة

هو فهرس كبير وضع للاستهداء به الى مواطن الأحاديث من أربعة عشر كتابا من كتب السنة والسير . وضعه بالانجليزية الدكتور (فنسنك) ونقـله الى العربية الأستاذ الفاضل محمد افندى فؤاد عبد الباقى . فهذا الفهرس يسمح لطالب أى حديث أن يجده بدون عناء . وقـد عنى حضرة مترجمه الفاضل بتصديره بجداول رقم فيها أبواب الكتب لتوافق الأرقام الموضـوعة لها فى الطبعات التى اشتغل عليها المؤلف . فجاء هذا الفهرس معينا كبير القيمة للمشتغلين بالحديث . فنشكر لمؤلفه هذه الخدمة ، ونشكر لمترجمه ما عانى فى نقله الى العربية من متاعب وما أنفق فى طبعه من مال .

الفتح الربانى

ترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى

مسند الامام أحمد يحتوى على نحو خمسة وأربعين ألف حديث . فهو أشمل كتاب للأحاديث النبوية . طبع بمصر ولكنه كان يعوزه الترتيب والتبويب ، فكان الذى يريد أن يقف منه على نص حديث لا يستطيع أن يجده مهما أجهد نفسه فى هذا السبيل ، فشرح الله صدر حضرة الأستاذ المفضال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى للتصدى لترتيبه ، فأنفق من عمره اثنتى عشرة سنة فى هذا الغرض النبيل ، فأصبح يسهل على من يريد منه حديثا فى أى موضوع أن يجده فى الباب الخاص به . وهذا عمل عظيم خدم الأستاذ به السنة أجل خدمة . وقد شرع فى طبعه وإصداره أجزاء شهرية تسهيلا للراغبين فيه . ومما زاد هذا العمل فائدة ما قرنه به من كتابه (بلوغ الأمانى) وفيه بيان لغامضه ، وشرح لألفاظه ، وتجلية لأسراره ، فجاء عملا مشكورا يستحق الاعجاب والتقدير .

عنوان مؤلفه بحارة الروم بالغورية بالقاهرة .

وجهة الاسلام

هو كتاب وضعه بالانجليزية ثلاثة مستشرقين : الأستاذان (جب) و (ماسينيون) العضوان بالمجمع اللغوى الملكى المصرى ، واللفتانت كولونيل (فرار) . موضوعه نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الاسلامى ، فدرس واضعوه حالة الاسلام فى أفريقية عامة ومصر خاصة ، ثم فى آسيا الغربية والهند وأندونيسيا ، فالموا بالكثير من الشئون الاسلامية فى هذه البلاد فى لهجة معتدلة يشكرون عليها .

وقد ترجمه الى العربية حضرة الألمعى الفاضل محمد افندى عبد الهادى أبو ريدة المتخرج فى الفلسفة من الجامعة المصرية ، فجاءت ترجمة حسنة الأسلوب ، جميلة السبك . فنشكر له ماتوخاه من خدمة للاسلام ، ونرجو له زيادة التوفيق .

تصحيح خطأ

جاء فى العدد السابع من المجلد الخامس فى ذيل فتوى الطلاق المعلق صفحة ٤٨٤ سطر ١٣ العبارة الآتية : (وهذا هو المعمول به الآن فى المحاكم) وصوابه : (وهذا غير المعمول به الآن فى المحاكم) .

due weight to individual and communal interest, but it means that Islam puts 'right' above 'interest', and if 'interest' agrees with what is right, then it becomes, a 'right' to be maintained and defended. But if it does n't, then it is a falsehood to be combated and destroyed.

The Lord be praised, saith :

« كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Observe ye justice and give ye evidence as Allah's witnesses, though it be against yourselves, your parents or your kindred"

(*Baidawy's Commentary*).

In such circumstances as given in the verse, it is in one's interest not to observe justice and to refrain from giving evidence against himself, his parents or his kindred. But Islam forbids that and insists that 'truth' should be respected and upheld by its followers even against self, parents or kindred.

Nay, Islam has gone still further and ordained to observe truth even in times of trouble and stress, for thus saith The Lord:

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Fight to exalt the Religion of Allah with those who fight with you, but do not transgress; verily Allah loveth not the transgressors"

(*Baidawy's Commentary*).

Islam has considered as transgression the slaying of the wounded, the pursuit of the defeated and the killing of the non-combatants in the service of armies. These principles were not known before the advent of Islam and are still unobserved in this age of material civilisation. Some may imagine that 'interest' demands the annihilation of the enemy, but Islam teaches that true interest lies in preferring truth to all other considerations and the truth or right is to fight only him who raises a weapon against you.

(Father of Hassan)" Aly showed signs of annoyance and Omar noticing that said: "Art thou annoyed Ali because I have treated thee on an equality with the Jew?"

"No" said Ali "But I was annoyed because thou hast favoured me with a nickname while you did not nickname the Jew!"

There, we have a man who resents being favoured to his plaintiff by being called by his nickname, a practice which was prevalent at the time, but Ali was a staunch supporter of truth in himself as well as in others, even though it be against himself.

A sprinkling of such individuals who set themselves to guard the divine principles are well worthy of being made the conqurors and reformers of the world. They proved their worthiness and the world was astounded at the rapidity with which they attained ascendancy. Thinkers differ widely in accounting for this. The truth, however, is simply that they have set themselves by the urge of their religion, to be the guardians of the higher ideals hitherto unknown to the world.

Yes: I say hitherto because the final word between nations and individuals had always been and still is, for 'interest' and not for 'right'. They overlook truth in favour of their interest, and the most tactful and diplomatic of men in their estimation is he who employs all means of coercion to maintain his interest unmindful of whether he has followed what is right or not. The most diplomatic and praiseworthy of nations in their estimation, is the one which maintains its own interests by steel and fire regardless of any right. It is for this reason that people, even in the one nation, have become contending and unsympathetic and heedless of the harm they inflict on others. Nations lie in wait to get other nations at a disadvantage and this feeling of insecurity has lead to an incredible increase of armaments and resulted in the worst economic crises hitherto experienced by the world. We have already heard of the 'Hunger Marches' of unemployed workmen who invade the great cities in their tens of thousands demanding work and a decend livelihood. The history of mankind in its earlier and less advanced stages, had never known such a phenomenon.

Could such a state of thirgs then, be justified in this advanced mechanised civilisation and amidst the flourish of social and economic sciences?

This is all the result of striving for 'interest' to the exclusion of 'right'. Is not the world then, in dire need of the high teachings of Islam to establish 'right' and 'truth' and find a way out of its present troubles?

It does not follow from the preceeding that Islam does not give

"Nay, We will cause truth to overcome falsehood and it shall destroy it, and lo! it is confuted"

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Say: Truth (Islam) is come, and falsehood is destroyed for overmore"

(*Baidawy's Commentary*)

And:

« وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And say: Truth (Islam) is come, and falsehood is destroyed. Verily falsehood is weak and destructible"

(*Baidawy's Commentary*)

The Lord has further explained the reality of truth by establishing that all else is false and untrue, thus saith The Lord:

« فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And what remaineth after truth, except error?

(*Baidawy's Commentary*)

There, are two pictures of truth and falsehood the like of which no old or modern philosophy could produce. They were clearly depicted in the Holy Koran from all standpoints so that no human soul could remain unaffected thereby and had to take notice thereof in both its material and moral affairs. The ultimate goal of the social reformer is to direct people, by the urge of their own nature, to strike the happy medium in their endeavours and to avoid the mistakes which lead to the reverse of their purpose.

No reformer, though he may be the greatest philanthropist on earth, could assign a guardian to every man to restrain him from falsehood and direct him to truth. But he would like this supervision to be exercised by one's self. This self supervision has been established by Islam in the most perfect manner, and early Moslems have fully demonstrated its efficacy and have become the champions of truth not only in themselves but also in others. It is related that a Jew complained Ali to Omar Ibn Al-Khattab and when Ali presented himself before Omar, the latter said to him " Sit down Abul-Hassan

"In truth have We sent down the Koran, And with truth it was revealed unto the Prophet"

(Baidawy's Commentary).

And:

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily We have sent thee with truth, a bearer of good tidings and a warner unto men"

(Baidawy's Commentary).

And :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" O men! The Apostle hath come unto you with truth from your Lord; believe ye therefore, it is better for you"

(Baidawy's Commentary).

And :

« لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"We have revealed the truth unto you, but most of you are averse to truth"

(Baidawy's Commentary).

The Lord has proclaimed that He upholds the truth and renders it victorious over falsehood, thus He saith :

« وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"But Allah purposed to establish the truth by His revealed words and to exterminate the unbelievers, that He might exalt the truth and confute falsehood, though the wicked were averse to it"

(Baidaw'ys Commentary).

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

useless but the water and metals remain to be made use of by men.

So much indeed has The Lord exalted truth that He made it one of His names:

« فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"This is therefore your Lord, The Truth, that is worthy of worship"

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Exalted therefore be Allah, the Almighty King, The Truth"

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"This is because Allah is The Truth"

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord has so highly estimated Islam, that He called it "The Religion of Truth":

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"It is He who hath sent His Apostle with guidance and The Religion of Truth that He may exalt it above every religion"

(*Baidawy's Commentary*),

The Lord described Islam and its teachings as truth, thus He saith:

« وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

The act of creation was made a clear sign to the believers as saith The Lord:

« خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah hath created the heavens and the earth for no other end but truth. Verily herein is a sign to those who believe"

(Baidawy's Commentary).

The Lord has set a parable of truth and falsehood which presents them to the mind in such a way as to show clearly their respective distinctive qualities, The Lord saith:

« أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ، فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"He causeth rain to descend from heaven, wherefore streams flow in due measure and the flood carrieth forth a swelling foam like unto the scum which ariseth from the metals that people melt in fire to secure ornaments and utensils for their own use. Thus Allah setteth forth parables of truth and falsehood. As to the scum, it is cast off, and as to that which is useful to men, it remaineth on earth. Thus doth Allah set forth parables unto men"

(Baidawy's Commentary).

The Lord, be praised, has depicted falsehood as the foam caused by the inrush of waters flowing in the rivers and as the scum that floats on top of metals when they are melted to obtain utensils and ornaments therefrom. He depicted truth as the water which gives life to earth and men, and as the pure metals which remain after clearing them of impurities. The foam and scum are cast off being

Truth is the fundamental element underlying all existence and falsehood is a transitory form of evil which crosses its path. I would not say that they come into conflict and contend power and authority once they meet, but I here maintain that truth confutes falsehood and completely destroys it, and no matter how long it takes sometimes, truth always prevails in the end. The adherents of falsehood will either realise their folly and come back to truth, or they will be annihilated and made an example to other human communities.

We can find nothing in the sayings of old sages and modern philosophers to approach the teachings of Islam in upholding and exalting truth. Islam establishes truth as the fundamental element of the whole existence, for thus saith The Lord:

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"We have not created the heavens and the earth and whatever lieth between them but to establish the truth. Verily the hour of judgment is surely coming. Wherefore seek thou not to punish the unbelievers and forgive them with gracious forgiveness"

(Baidawy's Commentary).

Truth was then given the status of tangible objects, its influence being shown in all great and small things:

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Hast thou not seen that in wisdom and truth hath Allah created the heavens and the earth. If He please, He could destroy you and raise another creation in your stead. Nor will this be difficult for Him to accomplish"

(Baidawy's Commentary).

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

XI.

ESTABLISHMENT OF THE KINGDOM OF TRUTH ON EARTH.

Truth is the antithesis of falsehood. It is the essence of justice, the spirit of all systems and the basis of all goodness. Pure intellects are attracted to truth and hearts and conscience find peace and satisfaction in it.

Falsehood is the transient evil and gross wickedness, cause of all troubles and unrest. Minds are averse to it and it flourishes only where ignorance and passion prevail.

---

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in " Nour-El-Islam " Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ١٥ —

التوفيق بين مطالب الروح ومطالب العقل

خلق الله الانسان وجعله عالما مشتركا بين طبيعتين مختلفتين ، إحداهما روحانية والأخرى مادية ، فالأولى تنزع به الى الترفع عن عالم المادة ، والتنزه عن التورط فى تبعاتها ، والعروج بالذات المجردة الى عالمها ، والتبحر فى المعارف الخاصة بها . والثانية تدفعه للتبسط فى شهواتها ، والتوسع فى توفية حاجاتها ، والاشتغال بالماديات لاكتناه مكنوناتها ، واستخراج خيراتها ، والتوفر على العلوم الطبيعية لاستخدام وسائلها ، فى تيسير الحياة وتخفيف متاعبها . فهاتان الغريزتان تساعدان على بقاء الشخصية الانسانية وتكميلها وإعدادها لخلافة الله فى الأرض . فالأرض ليست بعالم روحانى محض حتى يمكن أن يعاش عليها بميول روحانية محضة ، والانسان ليس بروح مجردة عن المادة حتى يمكنه أن يقاطع المادة بدافع من طبيعته ، ولكنه مضطر لأن يصيب من تلك المادة لحفظ وجوده فى هذا العالم . ولو ترك الانسان على سجيته لما تغلبت إحدى الغريزتين على الأخرى ، بل كانتا تتفقان وتتعاونان على أداء حياتهما المشتركة ، ولكن القادة الذين يتنازعون السلطان عليه كثيرا ما استغلوا ناحيته الروحانية لإخضاعه الى إرادتهم ، فبالغوا فى صرفه عن العمل لدنياه وتحبيب الزهد الى نفسه ، فأنجحوا فى تسخير مئات الملايين من الناس لتعاليمهم ، فبقوا فى حالة تحجر قرونا طويلة . فهذه أوروبا التى تفتننا اليوم بعلومها وفنونها وصنائعها ، بقيت أكثر من ألف سنة تحت سلطان

الآخذين بخنقها من هذه الناحية ، تخوض فى ظلام حالك ، ولم تنجب طوال تلك المدة عالما واحدا ، حتى بعث الله المسلمين فجاسوا خلال ديارها ، فكان اختلاطهم بهم سببا فى شعورهم بتأخرهم ، فهبوا يطلبون الخلاص مما هم فيه ، وجاهدوا له قرونا متوالية حتى وصلوا الى غايتهم بعد بذل تضحيات هائلة .

وهذه مئات الملايين من النفوس تغص بهم ممالك قد لبثت ألوفا من السنين مقيدة العقول والنفوس ، لا يسمح لها أن ترى أو تسمع إلا بما يأذن به قادتهم المتسلطون عليهم ، فلم تبرح هذه الملايين مكانها الذى أوجدتها الظروف فيه ، حتى إذا حول اليهم المستعمرون وجوههم ، لم يصادفوا هنالك إلا هيا كل بشرية لا تغنى عن أنفسها شيئا .

وفى آسيا مهد الحضارة أمم عاشت ألوفا من السنين ترسف فى قيود تعاليم يدعى أنها روحانية الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، حتى أيقظتها القوارع العالمية وقد بلغ من عسف المسيطرين عليها من الناحية الروحية أن إحدى الحكومات لما مدت خطا حديديا فى بلادها تقريبا ما بين أطراف مملكتها الشاسعة ، ثار عليها حفظة التعاليم الروحانية ، وطلبوا إليها خلع تلك القضبان الحديدية بحجة أن سير القطر عليها يزعج أرواح الموتى المدفونين بالقرب من طريقها ، فاضطرت الحكومة لخلعها مشايعة للمتحكمين فى عقول رعيتها .

وكان من لوازم هذه القوامة الروحية المزعومة ، السيطرة على ثمرات العقول ، ومقررات العلوم ، فكان لا يسمح لمفكر أو فيلسوف أن يرى رأيا ، أو يضع نظرية تخالف ما يدين به أولئك القامة ، مما ورثوه عن قدمائهم ، أو استحدثوه بآرائهم ، فإن اجترأ مجترئ على عدم الاعتداد بهذا الحشو الرث من بضائعهم ، فأتى بما يناقضه صراحة أو من طريق اللزوم ، حاسبوه عليه حسابا عسيرا ، وحكموا عليه بعقوبة أقلها السجن المؤبد أو النفى ، وكثيرا ما كانت تنتهى المحاكمة بالحكم عليه بالقتل أو بالإحراق ،

أو بربط أطرافه الأربعة فى عددها من الخيول الفارهة ، ثم إلهابها بالسياط لتذهب هائمة الى كل وجه ، فتمزقه تمزيقا مريعا .

هذا الطغيان المصطبغ بصبغة روحانية زائفة كان ديدن المتحكمين فى أديان البشر عشرات من القرون ، وكان من آثاره أن حبس النظر والتفكير فى دائرة ضيقة لا يتعداها وهى الهياكل والمعابد ، فكان من نتيجة ذلك أن صبغت ثمرات النظر والتفكير فى قوالب دينية محاطة بغلف من الأساطير ، وتركت العامة فى دياجير الجهل والعماية ، يقلدون ساداتهم تقليدا ساذجا كأنهم لم يخلقوا لأنفسهم، ولكنهم خلقوا للآخذين باكظامهم ، والمستولين على إراداتهم .

من هنا تولد شعور عن هـذه الأمم بأن الدين عدو العقل ، وأصـوله مناقضة لمقررات العلم ، وكان كلما اشتد مغتصبو السلطان الروحى فى عنتهم ، ازداد هذا الشعور قوة حتى صار عقيدة راسخة ، وأكسبها رسوخا ما كان يصبه أولئك القادة على العلوم والعلماء من اللعنات ، فى كل مناسبة من المناسبات .

جاء الاسلام والعالم كله يقاسى من هول هذا الدور ما يقاسيه القاصر ، من عسف قيمه القاهر ، فكان بحكم تأسسه على العقل والنظر والفكر ، وابتنائه على عدم التقليد ، وحثه على التقاط الحكمة حيث كانت ، ومن أى وعاء خرجت ، وإطلاقه الحرية للاستنباط والاستبصار للمتأهلين لهـذه المنزلة ، كان بحكم هـذا كله كاشفا لهذه الغمة الناشرة سدفها على الأمم ، فتآخت مطالب الروح ومطالب العقل لأول مرة فى تاريخ البشر ، وجاءت تعاليم الاسـلام كلها مطبوعة بطابع هـذا التآخى حتى فى أقصى مراتب الرفعة الروحانية ، وأبعد غايات الاشتغالات المادية . فكان الزاهد فى متع الحياة الدنيا ، المتفرغ لنيل الدرجات الروحية العليا ، يجد الجادّ فى العلوم الطبيعية ، والعامل على الترقيات الصورية ، أخاً يعمل من ناحيته فى سبيل الله ، فيدعو له بالتأييد والتوفيق ، ولعمله بالنفع والذيوع .

إن الجمع بين هذين الطرفين يظهر محيرا للعقل ، عند من لا يعرف الحكمة التى بنى عليها هذا الدين ، والأصول العالية التى يقوم عليها .

فالاسلام لم يحصر الرقى الروحانى فى أعمال العبادة ، ولكنه عممه فى جميع الأعمال المعنوية والصورية ، بل رفع الأعمال التى يتعدى نفعها الى المجتمع ، فوق الأعمال التى تقتصر فوائدها على العامل وحده ، فالذى يعمل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وللتبحر فى علم يستفيد منه ويفيد غيره ، ولابتكار وسائل يدفع بها عن الناس ويلات الحاجة ، أو يسهل لهم بها وجوه التوقى من الأمراض الفتاكة ، أو ييسر بها عليهم طلاب العلوم النافعة لمعاشهم ومعادهم ، أو يكشف لهم أسرار علم يعينهم على الاضطلاع بخلافة الله فى الأرض الخ ، إن الذى يعمل لشىء من هذا كان يعتبر فى شرعة الاسلام مجاهدا فى الله حق جهاده ، ومتقربا الى حضرته بأفضل ضروب العبادة .

على هذا الوجه فهم المسلمون الأولون مرامى الاسلام ، فإنهم بعد أن تم تبليغ هذا الدين ، وانتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى حظيرة القدس ، عكف بعضهم على تدارس كتاب الله ، وبعضهم على نشر سنة رسوله ، وآخرون على جمع اللغة ، ورجال على تعميم الدعوة الاسلامية فى الأرض ، ونفر على النظر فى علوم الأوائل وترجمة كتبها ، وجماعة على التخصص فى بعض فروع العلوم ، وأفراد على السياحة لضبط تخطيط البلدان وتواريخ الأمم الخ ، فكان أثر ذلك كله قيام دولة تمثل مدنية فاضلة آخت بين الدين والعقل ، ووحّدت بين النزعات المختلفة لمصلحة الفرد والجماعة ، فمدت رواق سلطانها على العالم ، وأصبح لها ملك لا تغرب عنه الشمس .

حدث كل ذلك بسائق من الاسلام نفسه ، فإنه كما قرر الأصول الأولية لدين الفطرة الانسانية ، كسر الأغلال التى كانت على العقول والعواطف ، وسن للانسانية طرائق لبلوغ الكمال المنتظر بمجموعة من التعاليم متكافلة تكافلا حكيما فى تنبيه جميع قوى النفس ، وإيقاظ كل مواهبها الكريمة ، وملكاتها السامية ، بحيث تبعث

فى الشخصية الانسانية نزوعا قويا الى الارتقاء والتكمل ، مما لم يعهد مثله فى التعاليم الفلسفية حتى العصرية منها ، فإنها مجتمعةً ليس لها مثل قدرة الاسلام فى توجيه النفس هذا التوجيه لبلوغ هذه الغاية . أما رأيت أن المسلمين الأولين بلغوا فى سنين معدودة الى أوج من الارتقاء الصورى والمعنوى لم تبلغه الأمم فى قرون كثيرة ؟

وقد توسعنا فى بيان طائفة كبيرة من تعاليم الاسلام فى فصولنا السابقة مما له هذا الأثر الفخم فى إنهاض الأمم ، فلا نعود إليها فى هذه العجالة .

فقليل على الاسلام أن نقول إنه آخى بين مطالب الروح ومطالب العقل ، والأجدر أن نقول إنه وحّد بينهما باعتبار أنهما مظهران للطيفة الربانية التى أودعها الله فى صدر الانسان ، واستحق بها أن يشرفه بخلافته فى الأرض .

فإذا أراد المسلمون أن يدهشوا البشر بسرعة نهوضهم ، واسترداد سالف عظمتهم ، فعليهم بالعمل بما أمرهم به الاسلام جملة ، يبلغوا شأو آبائهم الأولين ، ويصبحوا مثلا للآخرين ، فالإسلام لايزال يدعوهم الى حظيرته ، ويهيب بهم الى موارده .

وإذا أراد العالم كله أن يؤوب إليه هدوؤه ، ويسلم له ما حصله من علم ومدنية ، وأن تتقلم أظفار الفتن التى تهدد وجوده ، فعليه أن يجيب داعى الله ، فقد أسمع من كانت له أذنان : «يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » م

محمد فريد وجدى

صفة العلماء العاملين

سئل خالد بن صفوان عن الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : كان أشبه الناس علانية بسريرة ، وسريرة بعلانية ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره . واستغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم ، واحتاجوا الى ما فى يديه من دينهم .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

تقدم فى الآية السابقة الأمر بالوفاء بالعهد ، والنهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، وأردف ذلك بتمثيله بحال من غزلت غزلا وتعبت فيه ثم عادت عليه بالنقض فتعبت تعبا ثانيا أضاع عليها ثمرة تعبها الأول ، وكانت نتيجة العملين فساد المادة التى تولتها بالغزل ثم النقض ، وعدم صلاحيتها لما كانت تصلح له من قبل ، فكان منها عملان ينقض أحدهما الآخر ولم تستفد من كليهما فائدة ، بل عاد العملان عليها بالضرر والإفساد لما كان صالحا . وكذلك شأن من يعاهد ويحلف ثم ينقض عهده ويمينه ، فقد عمل عملين أضاع أحدهما الآخر ، وكانت فائدته من ذلك ضياع الثقة بذمته والاطمئنان الى معاملته ؛ وضياعُ الثقة بالذمة وذهاب الطمأنينة بالمرء أكبر نكبة عليه فى حياته الاجتماعية ، وأسوأ ما يصيبه فى شرفه وكرامته ؛ والمرء بلا شرف

ولا كرامة أهون من المتاع المتداول ، فللمتاع ثمرة أنك تستخدمه فى بعض مهماتك وقد تحافظ عليه ادخارا لمهمة أخرى ، وأما هذا فقد أسقطته من الاعتبار له والاعتداد به ، بل تكره أن تراه وأن يقع نظرك عليه كراهيتك للزور والغش والخديعة والتغرير .

ولقد عاد الى هذا الموضوع ثانيا بالنص على النهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً بعد أن اندرج النهى عن ذلك ضمنا فى قوله : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم » فإنه متضمن للنهى عن اتخاذ الأيمان دخلا أى غشا وخديعة ودغلا وتغريرا . وأعاد النهى على هذه الصورة لأن النهى الصريح المنصوص المنصب على ذات الجريمة والمفسدة أقوى فى تحصيل المقصود وهو التنفير منها ؛ وكان فى الآية الأولى داخلا فى طى ذلك المثل ليفيد قبح صورته وبشاعة منظره ، فتستعد النفوس للابتعاد عنه ، فيجيء هذا النهى الصريح سادًّا فى وجه تلك الجريمة الشنيعة طريق الوجود . وهكذا الشأن فى التنفير من الجريمة التى تتوافر أسباب التعلق بها وتكثر دواعيها فتتغلغل فى النفوس ويعسر اقتلاعها منها : تجد من الحكمة أن تنوع طرق التنفير منها والإبعاد عنها ، وليس أفضل من تقبيح صورها وتبشيع مناظرها حتى تكرهها النفوس وتتصورها بما ينبغى لها ويليق بها من قبح ، فينصب النهى الجازم عليها فيقتلعها من جذورها .

إذا تأملت هذا وجدت أن لا مانع من حمل النهى فى الموقعين على التعميم لكل حال فيها اتخاذ الأيمان وسيلة للخديعة والتغرير ، سواء أكان ذلك فى العهود العامة التى تعقد بين الفئات الكبرى ، وهو ما يتبادر فى الآية الأولى من قوله تعالى : « أن تكون أمّة هى أرْبى من أمّة » أم كان فيما يجرى بين الأفراد من المعاملات ، كما يتبادر من قوله تعالى فى هذه الآية : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » فإن الغالب أن الناكث فى يمينه الخائن لمن حلف له إنما يفعل ذلك ابتغاء فائدة سيجنيها من وراء تلك الخيانة وذلك النكث .

وإنما اخترنا العموم فى الموضعين لأنه أعم فائدة ، وأعظم أثرا ، وكلما كان الحمل على معنى أعظم فائدة كان أليق بمقام القرآن الكريم ، ولا سيما فى الأمور العظيمة الشأن الكبيرة الخطر ، التى من أهمها تربية الثقة بين أفراد الأمة التى تتعاون وتتساند ، ولا يتم ذلك لها إلا إذا توطدت الثقة بين أفرادها . أما كون هذه الآية أو تلك نزلت فى قوم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان فلا يوجب التخصيص ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . نعم صورة السبب داخلة جزما ، وهذا ما لا شك فيه .

وبعض المفسرين حمل ما تقدم على النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا على الإطلاق ، وحمل ما هنا للنهى عن اتخاذ الأيمان دخلا فى البيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستدلا بما رتّبه عليه من قوله : « فتزل قدمٌ بعد ثبوتها » . قال : لأن هذا التشنيع الشديد لا يليق إلا بنكث اليمين المعقودة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ضعيف ، فإن من عُرف عنه نكث اليمين فقد سقط سقوطا لا يستطيع تداركه ، فهو كمن زلت به القدم . وبعضهم حمل الأول على نقض العهود التى تجرى بين الأمم ، والثانى على ما يجرى بين الأفراد ، استنادا الى قوله فى الآية الأولى : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » ، وفى الثانية : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » . وهو أيضا ضعيف ، فإن ترتيب ثمرة واحدة على نهى عام لا يقصره على موضعها ، فكثيرا ما يكون للنهى والأمر فوائد عدة يقتصر على بعضها . وأضعف من هذين حمل الأول على أنه خبر لأنه لم تتسلط عليه أداة النهى وإنما سلطت على ما قيد به وهو قوله : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها » الخ . ولا يخفى عليك أن تسليط النهى على مقيد بقيد يتناول كل ما وقع فى حيزه ، بل ربما كان القيد هو محط النهى .

كل هذا منهم تفاديا من توهم التكرار غير المفيد . وقد عرفت اندفاع هذا بأن الأمر العظيم الخطر المتغلغل فى النفوس يحتاج الى اقتلاعه بعدة طرق ، أهمها تصويره بالصورة البشعة ، وبيان بعض أسبابه لتقتلع ، ثم إرداف ذلك بالنهى عنه واقتلاعه

من النفوس من جذوره . وهذا ما حصل هنا ، فإن تربية الثقة بالمرء من أقوى دعائم العمران ، ولا يتحقق بدونها التعاون والتساند بين بنى الانسان ، ولا سيما أهل الايمان الذين ينبغى أن يكونوا فيما بينهم كالبنيان ؛ ولأن الدواعى لنكث اليمين كثيرا ما تتغلب على ثبات العزيمة فتخل بها ، بل لا يوجد حلف إلا حيث كان الأمر مما يترقب معه حصول تلك الدواعى القوية ، وأهمها ميل الانسان بطبيعته الى الاعتزاز بالجانب الأقوى . وهذا ما ذكر فى قوله تعالى : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » . ويليه فى الأهمية ما يتوهمه من إحراز فائدة من عرض الحياة الدنيا ، وهذا ما ذكر فى قوله : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » ، والتكرار فى هذه المواقع وأمثالها من أوجب الواجبات . يعرف ذلك علماء التربية والناصحون المعالجون لطبائع الناس فى معاملاتهم وأخلاقهم .

أما قوله تعالى : « فتزل قدم بعد ثبوتها » فمن أعظم ما ينفر من هذه الخلة البغيضة ، فكفى فى الزجر عنها أن يصور صاحبها بمن زلت قدمه فسقط على أم رأسه ، فكسر من أعضائه ما كسر ، وتلف من متعلقاته ما تلف . ومن يدرى إن كان يستطيع النهوض من هذه السقطة أم هى سقطة لا نهضة لها ؟ وإنّ زلة القدم لتجمع على صاحبها من الخزى والخجل والفساد والتلف ما يجعله يتوارى من القوم من سوء ما وقع فيه .

هذا وهى قد تكون اضطرارية ، فكيف إذا كانت منه باختياره وقاده اليها الطمع وارتكبها مصرا عليها عالما بقبحها ؟ إن خزيها حينئذ لعظيم .

وإفراد لفظ (قدم) للإشارة الى أن زلة قدم واحدة كافية فى تدهور المرء كله وسقوطه فى الهاوية ، ولا يغنى عنه أن قدمه الأخرى لم تزل ، فستسحب القدم الزالة أختها المستقيمة ، كذلك ستؤثر سقطته الواحدة على سمعته كلها فى جميع معاملاته ، أليس يكفى الكذب والخيانة مرة واحدة فى ذهاب الثقة بالمرء فى كل شئونه ؟ .

وقوله تعالى : « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » :

هذا لبيان الأثر الدائم المترتب على تلك السقطة التى حلت به أو حل فيها ؛ ذلك أن السقطة والزلة قد حصلت ، فلو اقتصر الأمر عليها لهانت واستطاع أن يصبر لها كـكل مصيبة من مصائب الحياة ، ولـكنها وياخيبة صاحبها قد لازمه أثرها ولصق به عارها ، فهى معلقة فى عنقه ، بارزة فى صدره ، سادة كل طرق الخير فى وجهه ؛ فهل بعد هذا ذوق للسوء ؟ وأى سوء أكبر من الشؤم الملازم والبؤس الدائم ؟

وقوله تعالى : « بما صددتم عن سبيل الله » : صدّ : يستعمل لازما ومتعديا ؛ يقال صد عن الشىء صدودا أعرض ، وصددت الشخص عن كذا صدا منعته . وهو هنا يصح حمله على كل من المعنيين ، فقد أعرضوا عن سبيل الله وصدوا صدودا ، وقد حالوا بين الناس وبين السير فى سبيل الله ومنعوهم وصدوهم صدا بما نصبوا من أنفسهم من القدوة السيئة ، فعليهم وزر من اقتدى بهم . والمراد بالسوء الذى يذوقونه عذاب الحياة الدنيا من خزى وعار وسقوط اعتبار ، ومن قتل وسبى فيما إذا كان نكثا لعهد الايمان والبيعة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام .

والتعبير بكلمة تذوقوا استعارة باعتبار أن ما حصل لهم من ذلك العذاب تغلغل فى دخائلهم ، وخالط أبدانهم ومشاعرهم ، فـكان كالطعام المذوق ، لا أنه لابسهم مجرد ملابسـة خارجية . وسبيل الله هو صراطه المستقيم ، وشرعه الذى شرعه للعالمين ، ليصـلوا بسلوكه الى مرضاته ، والزلفى اليه ، ويفوزوا بجنات النعيم . وقوله تعالى : « ولـكم عذاب عظيم » هو الوعيد الأعظم بالعذاب الأخروى الدائم ، بعـد توعدهم بذوق سوء العذاب الدنيوى . وتنكيره مع وصفه بالعظم لتهويل أمره وأنه لا يعـلم عظمه إلا الله .

قال تعالى : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » :

روى عن كثير من المفسرين أن المراد به نهى الذين بايعوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض بيعته ، وجعلوا هذا تأكيدا للتحـذير السابق فى قوله : « ولا

تتخذوا أيمانكم » . وقد علمت أن النهى يصح عمومه لذلك ولغيره ، وأن عظم النهى عنه يدعو لتكرير النهى لتقرير الحكم فى النفوس فضل تقرير .

وقد ضمن النهى هنا تنبيههم لذلك السبب الواهى الذى يجرهم الى تلك المهواة ، وهو إحرازهم بعض ثمرات من متاع الحياة الدنيا ، وأنهم فى ذلك مخدوعون عن مصلحتهم الحقيقية ؛ فقد استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ؛ ذلك أنهم حرصوا على أن يحرزوا الثمن القليل فأضاعوا ما عند الله مما ذخره للصالحين المتقين ، ولا شك أن ما عند الله خير لهم لو كانوا يعلمون .

وهنا نكتة ينبغى أن نسترعى نظرك اليها ، وذلك أن لفظ اشترى يتعدى بنفسه للمثمن ، وهو المأخوذ المرغوب فيه لذاته ، ويتعدى للثمن بالباء ، وهو المدفوع توصلا للمرغوب فيه ، فالعادة أن الرغبة تتعلق بالمثمن ، فهو المقصود تحصيله لذاته ، وأما الأثمان فإنها تتعلق بها الرغبات لأنها الوسيلة لتحقيق المقاصد ، وإن كان كل من العوضين يصح فى نظر العقل أن يعتبر ثمنا ومثمنا . وقد جاء لفظ لتشتروا فى الآية متعلقا بالثمن إذ قال : «ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا» . والسر فى ذلك هو النعى عليهم وتسفيه رأيهم فى تصرفهم بأنهم قد عمدوا الى ما لا يرغب فيه لذاته ولا يستحق القصد إلا لتحصيل غيره ، فاشتروه وجعلوه محط قصدهم ، ومنتهى غرضهم ، فانعكست عليهم الآية ، وأصبحوا لا مطمع لهم إلا إحراز ما حقه أن يرغب عنه ويبذل لتحصيل المقصود بالذات . ثم التنكير كما يأتى فى كلام العرب للتعظيم على حد ما جاء فى قوله : « عذاب عظيم » قد يأتى للتحقير والتقليل على حد ما جاء هنا فى قوله : « ثمنا قليلا » . وتسمع فى تخاطب الناس يقولون تارة : « إنه رجل » يريدون أنه رجل وأى رجل ، ويقولون : « ها هو رجل » تلمح من الكلام أنه رجل أى رجل كان مما لا قيمة له .

أما قوله تعالى : « إنّ ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » فهو الإرشاد الواضح ، والهداية الى الصواب ، والدلالة على ما حقه أن يلتفت اليه ، ويعض بالنواجذ

عليه ، وفى مثله فليتنافس المتنافسون ؛ فقد عبر عنه بأنه عند الله ، وكفى بذلك عظما ، فإنه وإن كان كل شىء من عند الله ، إلا أنه لا ينسب الى العظيم إلا العظيم ، بل قد يكون الشىء فى حد ذاته مما قد يستهان به ، ولكن لصدوره من عظيم يحوز قيمة معنوية عظيمة ، فكيف وهو فى ذاته خير عظيم ؟ وقد جاءت الجملة مؤكدة بإنّ ، وبضمير الفصل ، تقريرا لعظمته . وقوله : «إن كنتم تعلمون» أى إن كنتم من أهل العلم الذين يصح أن ينتظر منهم التأمل لمعرفة قيم الأشياء على حقيقتها ؛ أو إن كنتم تعلمون التفاضل الذى بين البدلين . والتعبير بإنْ التى للشك لتصويرهم بأنهم لاحتياجهم الى هذا النهى الشديد والزجر والوعيد صاروا بحالة من يشك فى أنه من ذوى العلم والمعرفة ، أو هم ممن لا يرجى منه معرفة ولا دراية .

ولقد أقام الدليل ساطعا والبرهان قاطعا على أن ما عند الله خير بقوله جل شأنه : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فلقد استقر فى النفوس أن الدائم وإن قل خير من المنقطع وإن جل ، فكيف إذا كان الدائم أجل وأكمل ؟ وينفَد (بالدال المهملة) بمعنى يفنى ويزول ، وهى غير ينفُذ (بالذال المعجمة) الذى بمعنى يخترق . تقول: نفِد المال ينفَد أى فنى ، و نفَذ السهم ينفُذ أى اخترق الهدف الذى رمى به اليه . والمعنى أن ما ترمون اليه وتخسرون ذممكم ودينكم لتحصيله عرضة للزوال والفناء مهما كثر عدده واتسع مدده وظننتم أنكم ممتعون به الى أقصى مدى ، وأما ما عند الله فهو باق أبدا لا ينقطع ولا ينقضى ، فضلا عن خيريته التى أخبر بها الحق جل وعلا .

وقوله تعالى : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» يصلح أن يكون جوابا لسؤال المتلهف بعد سماع وصف هذا الخير العظيم الدائم الذى عند الله ، فيستشرف ليعرف من هو المستحق لهذا الخير العظيم ، فجاء قوله : « ولنجزين » جوابا لهذا السؤال ؛ فهو وعد من الكريم المتعال ، جعله جزاء للصابرين وأجرا للعاملين.

والصابرون : هم الذين لم ينخدعوا بكون أمة هى أربى من أمة حتى ينقضوا يدهم من

قوم امتلأت أيديهم بأيديهم ، ولم يخذلوا من عول عليهم وربط شئونه بالانضمام اليهم . والصابرون : هم الذين ضبطوا أنفسهم فلم تخدعهم الدنيا وزخرفها ، ولم يميلوا عن دينهم الى اقتناء عرضها ، ولم يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . والصابرون : هم الذين آثروا الآجل الباقى على العاجل الفانى ثقة بما عند الله ، ولا يؤمن العبد حتى يكون بما عند الله أوثق منه بما فى يده ، فإنه لا يدرى ما فى يده أيمتع به أم هو محروم منه وسيحال بينه وبينه . وإن التصريح بالوعد العظيم بعد فهمه ضمنا فى قوله : « إنّ ما عند الله هو خير لكم » لتقرير هذا الحظ العظيم فى النفوس لتقبل عليه أيما إقبال ، كما أن الإتيان بوصف الصابرين دون أن يقول : ولنجزينكم أجركم ، لبيان ما به استحقوا هذا الجزاء العظيم ، وللتنويه بشأن الصبر لزيادة الترغيب فيه . كما أن فى تسمية ذلك جزاءً وأجراً تطييبا لنفوسهم وتشويقا لهذه النعم الهنيئة ، إذ صورها بصورة المستحَق لهم ، وإن كانت فى الحقيقة فضلا من الله ونعمة .

وقوله عز وجل : « بأحسن ما كانوا يعملون » فيه تنويه بأنه عز وجل سيجزيهم بما صبروا بأحسن أعمالهم ، وسيتجاوز عن سيئاتهم « إن الحسنات يذهبن السيئات » . ومن أولى بذلك من الصابرين والصبر نصف الايمان ، ولا تكاد تجد نوعا من التكاليف إلا وهو بحاجة الى الصبر ؟ فهو روح العمل فى أغلب التكاليف ، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة .

وذكر المفسرون فى قوله : « بأحسن ما كانوا يعملون» وجوها كلها حسن جميل ، فقالوا : إنه يجزيهم على أعمالهم الحسنة بحسب أحسنها ، فلا ينقص جزاء الحسن عما يستحقه الأحسن وإن كان يزيد فى الأحسن أضعافا مضاعفة . وقالوا : إن من أعمالهم ما هو حسن غير قبيح كالمباحات التى لا نهى عنها ، ومنها ما هو أحسن وهى الأعمال المرغب فيها من واجب ومندوب ، فهو يجزيهم على ما فعلوا من المطلوب شرعا . وقالوا : إن الصابر من شأنه أن يدركه أثناء صبره الذى هو أحسن صفاته بعض الهنات الهينات

من جزع وسآمة ، فالله تعالى يجزيه على صبره خالصا من تلك الهنات ، فقد جازاه على أحسن أعماله وصفح عما شابها . وصيغة ما كانوا يعملون تشعر بأن ذلك كان شأنهم وديدنهم ، وأن الصبر كان يسرى فى أعمالهم متكررا ، ولا يكون الصبر صبرا حتى يكون فيه الثبات والاستمرار ، فهى غير أن يقال : « بأحسن ما عملوا » مثلا .

قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » :

هذا تعميم فى جزاء كل عمل صالح بعد ذكر جزاء الصبر ، وأردفه به ليكون كالتقرير له ، إذ يدخل الصبر فى جنس العمل الصالح ، فإنه عمل قلبى . ورأى بعضهم أن يفرق بين الصبر والعمل الصالح فقال : إن المؤمن بعد دخوله فى الإيمان مطالب بأمرين : (الأول) الثبات على إيمانه والتمسك بيقينه ، وألا يدع عقيدته لعبة للأطماع وفى مهب أهوية الأهواء ، وهذا ما ذكر فى قوله : «ولنجزين الذين صبروا» . و (الثانى) أن يقوم بالعمل الذى كلف أداءه ، وهذا هو المذكور فى قوله : « من عمل صالحا » الخ . ولعل ما ذكرناه أظهر ، فإن الصبر ضبط النفس وهو من العمل الصالح بلا جدال . وقصر العمل على العمل بالجوارح لا يسلم ، كيف وتطهير النفس من الأخلاق الذميمة كالحسد والشح من أكبر أنواع العمل الصالح ؟

وقوله تعالى : « من ذكر أو أنثى » تصريح بالتعميم المستفاد من لفظ « مَن » لإدخال السرور على كل من يترقب الاندراج فى هذه القاعدة من ذكر أو أنثى ، وهو شأن عِدَة الكريم : تجد جمالها فى التنصيص فيها على التعميم .

وقوله : « وهو مؤمن » أى مصدق بالله وشرائعه ورسله وجزائه ، فهو يعمل ابتغاء رضوان الله وامتثالا لأمره . أما العامل مباهاة ورياء مع كفره بربه وعدم اعترافه بأمره ونهيه ، فلا يكون له أجر من ربه .

وربما قيل : كيف توفق بين هذا الشرط « وهو مؤمن » وبين الإطلاق فى قوله

تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ؟ والجواب أن المترتب هنا على العمل الصالح المشروط بالإيمان هو أن يحييه الله حياة طيبة ، وأن يجزيه أجره بأحسن ما كان يعمل ، وهذه مرتبة لا ينالها إلا من عمل وهو مؤمن ، وذلك لا ينفى أن من عمل خيرا من غير المؤمنين يلقى جزاءه المطلق الذى لا يصل الى هذه المرتبة ، وذلك كتخفيف العذاب عنه فى الآخرة ، وكتسهيل بعض شئونه فى الدنيا . وقد قالوا : إن أعمال الخير التى تصدر من الكافر إن كانت مما يتوقف على نية كالصلاة والصوم فإنها ذاهبة عليه ، لأن نية العبادة شرطها الإيمان ، وهذا محمل قوله تعالى : « وقَدِمْنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ، وإن لم تكن متوقفة على نية كالإحسان الى الناس ومواساة الضعفاء والعطف على اليتيم وإرشاد الضال والصدق والاستقامة فى الأعمال ، فهى داخلة فى عموم قوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» ورؤيته جزاءه بتخفيف عقاب الذنوب الصادرة منه غير الكفر ، أو بتسهيل شئون حياته فى الدنيا ، أو ماأشبه ذلك ، فلا تعارض بين الآيتين . وقد ورد أن أبا طالب يكون من أخف أهل النار عذابا بما كان منه من محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته من أعدائه مشركى قريش . وبعد فلا شك أن الإيمان أساس العمل الصالح ، وكل بناء على غير أساس فهو منهار ، وهو أصل السعادة ، وكل مالا أصل له لا وجود له .

قال تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » : قيل فى الدنيا ، وقيل فى القبر ، وقيل فى الدار الآخرة . وأولى من كل واحد من هذه أن تكون الحياة شاملة لكلها ، فإن المؤمن الذى يعمل العمل الصالح تطيب حياته فى الدنيا مهما تراكمت عليه مصاعبها ومصائبها ، ذلك أنه بإيمانه يتيقن أن كل ذلك بقضاء من ربه ، وأنه لا يفعل إلا لحكمة ، وكل ما صدر عن الحكيم العليم فهو جميل مقبول تطيب النفس به ، فبذلك يخف عليه وقع المصيبة ، بل ربما شاهد فيها جمالا ، وربما وجد فيها خيرا له ، إذ يرى فى ذلك تكفيرا لسيئاته

فى الدنيا ، وتعريضا للصبر الذى وعد الله عليه أحسن الجزاء . وقد كان بعض الصالحين يقول : المصيبة موسم خير فاغتنموه بالصبر . وكثير منهم من يفرح للمصيبة لما يرجو من ورائها من الخير أكثر مما يفرح بنيله ما يبتغى ، إذ يرى فيه تعجيلا لبعض الثواب فى الدنيا وهو يرجو أن يدخر له فى الآخرة . ولا شك أن الكافر محروم من هذه الحياة الطيبة .

وأيضا تجد المؤمن وقد أيقن أن الدنيا دار زوال لا ثبات فيها لحال ، إذا صادفته المصيبة أيقن بزوالها ، فيهون عليه أمرها ، وإذا صادفته النعمة علم أنها ظل زائل ، فلا تتعلق نفسه بها تعلق من تذهب نفسه حسرات على فقدها ، فاذا فقدها فإنه فقد أمرا مستعدا لفراقه فيهون عليه ؛ وهذا بدون شك من ثمرات الايمان .

وأيضا شأن المؤمن القناعة والزهد فى لذائذ الدنيا ، فما جاءه منها تمتع به لا على لهفة وشره ، فكان هنيئا هادئا ، وما فاته منها لم يأبه به ولم يكترث له ؛ وأى طيب فى هذه الحياة يوازى هذا الطيب ؟ إن المرء مهما عظم ما فى حوزته من المال وحطام الدنيا إذا لم يرزق القناعة والرضا بما أوتى فإنه منغص العيش دائما ، فهو ينظر الى ما حرم منه ولا ينظر الى ما أحرز ، فهو دائما فى عناء ، ولا يترك له الشره فرصة يهنأ فيها بما أوتى . وتأمل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . وقد كان بعض الناس يقول : إن من سلب الناس إيمانهم فقد سلبهم نعيم الدنيا قبل سلبهم نعيم الآخرة .

وبعد : فإن قلب المؤمن ممتلئ بالأنوار الربانية ، مستغرق فى تمجيد الإله ومشاهدة عظمته ، فهو غير مشغول بمطالعة زخارف هذه الحياة الدنيا ، وهو هادئ البال من ناحيتها ، فما جاء عفوا تقبله ، وما فات منها لا تعلق به نفسه ولا يشغل به قلبه ، وهذه منزلة الخواص ، ولكنها غير متعاصية على صحيح الايمان .

هذا وليس معنى كلامنا الدعوة الى الكسل ومجافاة العمل ، وأن يعيش المرء كَلاًّ

وعالة على الناس ، فما نعلم فى الشرع ما يعطى هذه الحياة الراكدة التى يعيشها بعض من لا خلاق لهم ، يعيشون عالة على الناس وهم أصحاء قادرون على العمل ، وباب العمل مفتوح أمامهم يناديهم ، ولا يقدمون للمجتمع شيئا نظير ما يقوم لهم به من تسهيل سبل الرزق .

نعم : الهداة المرشدون والوعاظ الناصحون قد قدموا لإخوانهم أثمن مايقدم إنسان لإنسان ، فثلهم لا يقال فيهم إن حياتهم حياة كسل ، بل تراهم يكدحون فى سبيل إصلاح المجتمع وتقويمه كدحا لا يعرفه إلا من عاناه . وقد روى فى الحياة الطيبة أنها الرزق الحلال . ووجهه أن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وروى أنها الرزق الكفاف . ووجهه أن الوفر الكثير من شأنه أن يكسب النفس الطغيان ، كما قال تعالى : « كلاّ إن الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى » وهذه كلها أمثلة من الحياة الطيبة ، وطيب الحياة ليس محصورا فى واحد منها . والغلط كل الغلط أن يتوهم أن الحياة الطيبة هى جمع المال والتراث ، فقد أرتنا المشاهدات الكثيرة أن المال كثيرا ما جلب على أهله الشقاء . ولله القائل :

ولست أرى السعادة جمعَ مال ولكن التقي هو السعيد

وأما طيب الحياة فى القبر فقد ورد ما يدل عليه : « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » . وأما طيب الحياة فى الآخرة فأظهر من أن يشرح ، وأبين من أن يوضح ، بل الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية ، كما قال عز وجل : « وإنّ الدار الآخرة لَهِى الحَيَوان لو كانوا يعلمون » .

وقوله تعالى : « ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون » فيه وعد بالجزاء الأوفى وإغداق النعيم عليهم . وكأن فى طيب الحياة إشارة الى خلوها من الألم المنغص لها على ما سبق شرحه ، وفى الجزاء إشارة الى النعيم المغدق ، فكأن الأول من باب التخلية من المنغصات والنقم ، والثانى من باب التحلية بالنعم .

هذا وليس ببعيد أن يدخل فى العمل الصالح المصحوبِ بالايمان الوفاء بالعهود ، والبر

فى الأيمان ، والثبات على الكلمة الصادرة من الانسان ، فكل هذا من العمل الصالح ولا جدال ؛ وأن يدخل فى الحياة الطيبة التمتعُ بالثقة والاحترام ، والمسارعة الى تلبية الطلب ، وتصديق القول ، والائتمان على الكثير والقليل والحقير والجليل ؛ ويكون أخذ هذا بخصوصه من إرشاد صدر الآية الأولى اليه ، ومما يعلم بالمقابلة لقوله : « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » على ما قررناه لك فى معنى السوء . وكثيرا ما يستفاد معنى اللفظ من النظر فيما يقابله .

والخلاصة أن الحياة الطيبة متسعة المناحى متعددة الجهات ، وكلما بدا ألم فى الحياة التعسة شرح لنا ناحية من الحياة الطيبة (والضد يظهر عنده الضد) .

وتكرار القسم فى « ولنجزينهم » بعد القسم فى « لنحيينه » لتقرير كل منهما تقريرا مستقلا وتثبيته على حياله . ثم الإفراد فى ضمير « لنحيينه » نظرا للفظ « من » ، والجمع فى ضمير « لنجزينهم » نظرا لمعناه ، فإنه جمع فى المعنى . ووجه الحسن فى ذلك أن لكل فرد حياته الخاصة به يتذوق لذة طيبها وصفوها من المكدرات فيما بينه وبين نفسه . أما النعم الإيجابية فالنفس تتلذذ حينما تراها قد عمت كل من له بالنفس اتصال وثيق بمحبة ومودة ، وذلك شأن أهل الجنة فى الجنة .

واعتبر بما تراه بين الأسر والأفراد المتحابة إذا صادف أحدهم نعمة وحرم من مثلها من يحبه ، تجد فى ذلك بابا من تنغيص تلك النعمة عليه ؛ وأما إذا جاءت عامة وجمعتهم كلهم فإن لذتها تتضاعف عند كل منهم : فرح بنعمته وفرح بنعمة من يحبه . وهذا سر الجمع فى ضمير هم عند إيقاع الجزاء الحسن عليهم ، حتى يفرحوا بنعمهم ونعم من يحبون .

نسأل الله تعالى أن ينعم علينا وعلى من نحب بالجزاء الدائم بأحسن ما عملنا ، وأن يتجاوز عن سيئاتنا ويعافينا ويعفو عنا ، إنه سميع النداء مجيب الدعاء ؟

ابراهيم الجبالى

الاسراء والمعراج

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الكبير الشيخ الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فعندنا فريق من أساتذة المدارس ينكرون المعراج ويقولون : إن ذلك غير ممكن . والمتدين منهم الأقرب الى الاعتدال يقول : إن الإسراء بالروح دون الجسد .

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع بالبراهين المقنعة حتى ينقطع الجدال والمراء . وها نحن أولاء فى انتظار ما يدبجه يراعك البليغ وبيانك الواسع ، كما هى عادتك . واقبل فائق احترامى وإجلالى لشخصك المحبوب ؟

عبد الرحمن محمد
أستاذ بمدرسة شبين

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ، ويسيرون وراء ما يمليه عليهم علمهم القاصر ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ووزن كل ما جاء عن الرسول بميزان فكره فقلّما يؤمن إيمانا صحيحا . وإذا راقك منه ما يشقشق به فى بعض الأحيان لم تلبث أن يسوءك منه ما يهذى به فى وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الانسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلم من صفاتها الذاتية وأعراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ، فليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله (لا بالرسول) .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا عما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التى لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعقولات الثانية مما هو راجع

إليها ومتوقف عليها ، ومقدورات الله لا نهاية لها ، وعوالمه لا حد لها ؛ ولكل عالم ناموس يخصه .

ومن الغلط البيّن الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر . وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا فى الماء ، ومن بعضها ما لومكث فى البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله الكربون كالانسان ، ومنها ما يقتله الأكسوجين ككثير من الحيوانات الدنيا (ولعلنا كنا لا نصدق بذلك قياسا على أنفسنا لو لا مشاهدتنا إياه) فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التى تحس والتى لا تحس ؟

وإنى لأعجب لهم كيف يتبجحون هذا التبجح ويحكمون فى كل شىء بالأحكام الجازمة اعتمادا على بضع نواميس وصلوا الى ظواهرها من نواميس هذا الكون التى لا يحصيها إلا الله ولا يدرى كنهها غير مبدعها الذى لا حد لقدرته ولا نهاية لعلمه !

وليت شعرى بعد ذلك كله أى عقل نحكّمه فيما ورد عن الشارع : أهو عقل الأفراد أو عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت العقول ، وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت فيما بين أفراده مثل نوع الانسان الذى هو مظهر المتناقضات ومجمع العجائب والغرائب ؟ وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله : « وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا » . ويقول فى حق الإنسان : « إنه كان ظَلُوماً جَهُولاً » . ولقد نرى فى تخبطه وتناقضه وارتباكه فى أحواله واضطرابه فى أعماله الدليلَ الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور . فعلام تلك الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه ؟!

الموضوع :

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا الى الاستبعاد العقلى ، وقياس الشاهد على الغائب ، وإرجاع مالم يعلموا الى ما علموا ؛ والجاهل لا يعرف قدر نفسه ولا قدر العلم ؛ ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فهو فى دائرة العدم « بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولَمَّا يأتِهم تأويلُه » .

ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول الى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ساكن ؛ بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف يأتى بالغرائب . ولكن إذا سمعوا أن الرسول عرج به الى السماء قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد . وسنتكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه عن ساداتهم الأوربيين (الذين لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا تقليدهم) :

أما الكلام فى الموضوع من الجهة النقلية فأظن أنه لا يعنيهم كثيرا ، ولا يقنعهم لا كثيرا ولا قليلا . ومع هذا فنقول فيه كلمة موجزة من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب للعلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤول ويحرف اغترارا ببعض الروايات ، إجابة لنزعة عنده وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ، وإن كان مذبذبا بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات مطعون فيها ، كالرواية عن عائشة التى ردها الحفاظ وقالوا إنها غير صحيحة من وجوه عديدة لا نطيل بها ؛ وكرواية شريك بن أبى نمر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه . وليس الغرض إلا أن نشير الى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك الفريق من إخواننا المتفيهقين من الشيوخ . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل مارآه أو يتشوش بكل ما رواه ، بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود ، والضعيف والصحيح ، ومن يجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ، أو يرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق .

وما أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح بعد ما يقول الله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارَكْنا حَوْلَه لِنُرِيَه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ؛ فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت « بسبحان» المشعر باستعظام ما كان من الأمر والتعجيب منه لجلالته ؛ وهو

لا يصح موقعه ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم إلا إذا كان ذلك أمرا غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان هذا الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب ، إذ لاخطورة فى إراءة النبي صلى الله عليه وسلم آيات ربه فى منامه ، فإن هذا أمر عادى يجوز أن يقع لكل أحد ، بل قد يرى الانسان فى منامه رب العزة الذى هو أكبر من كل شيء ؛ وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول : «أسرى» وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى عياض ، لأن ما يقع فى النوم إنما هو تخييل وضرب مثل لا غير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وإنما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلا سيرا حسيا على ما هو المعهود المعروف .

ثم يقول : «بعبده» وهو نص قاطع فى الموضوع ، لأن العبد لا يطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص بجملته المكون من الروح والجسد ؛ ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ؛ فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور ، كما فى قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهَى عبدا إذا صلّى » وقوله : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » الى غير ذلك .

ثم يقول : « لِنُرِيَه من آياتنا » ويقول فى سورة النجم : « أفتُمارُونه على ما يَرى ولقد رآه نَزْلة أخرى عند سِدْرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمةَ تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أُسرى به الى بيت المقدس ، وأنه عرج به الى السموات العلا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى ، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وإنى أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معى لقوله : « أفتمارونه على

ما يرى » ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى : أفيسهل عليك أن تسلم أن المراء والجدال كانا فى رؤية منامية ؟ وهل يكون فى رؤية الروح وحدها فى المنام جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل أو السامع حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك الحركات والمجادلات ، وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ؟ وهل ينكرون على أنفسهم ذلك حتى ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

لا شك أن مناكرتهم ومجادلتهم ما كانت إلا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لا مناما ، فهذا هو محل الاستبعاد والاستنكار ، فإنه غير معهود لديهم ، ولا من متناول قدرتهم .

أما منامات الأرواح فيجوز أن تقع لكل أحد حتى المشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : « أفتمارونه على ما يرى » ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم على أن صاحبهم ما ضل وما غوى ، ويقول : إنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه ، هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول: «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » وينوه بأمر هذه الرؤية ويقول إنها عند سدرة المنتهى ويجعلها مرة أخرى لرؤيا منام ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤية جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح حين رآه صلى الله عليه وسلم بحراء على صورته التى خلقه الله عليها قد سد الأفق ، هل يقولون إن ذلك كان مناما أيضا ، أم يفرقون بينهما والقرآن لم يفرق وجعل الرؤية فى المرة الأخرى عند سدرة المنتهى كالرؤية الأولى فى الأرض بلا فرق ؟

فهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين فى المنام والأخرى فى اليقظة ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » لروح النبى دون جسده وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه صلى الله عليه وسلم لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » ؟ وهل يقال ذلك فى أحلام النائمين ؟ اللهم إن ذلك لا يقال إلا فى أوهام الواهمين .

وهل يقال فى الرؤيا المنامية : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ؟ ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه من الكون ما شاء الله أن يرى ، فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ الرؤيا دون الرؤية فقد رده أهل اللغة واستشهدوا عليه :

ورؤياك أحلى فى الجفون من الغمض

على أنه جاء فى القصة ما هو قاطع فى الموضوع : فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بذلك هاج هائجهم وقامت قيامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، ومنهم القائل له : لقد كان أمرك أَمَماً (أى قريبا) قبل هذا . حتى ورد أنه ارتد بعض من دخل فى الاسلام . فهل ترى — أيدك الله — أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل فى القصة ما هو أكثر من هذا ، وهو أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن عيرهم التى كان فيها تجارتهم ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم بأنه مرّ بها ، وقد نَدّ منها بعير فانكسر ، وأنه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم ، وكان معهم قدح من الماء فشربه صلى الله عليه وسلم . وقد سألوهم عند ما قدموا مكة فصدقوا ذلك كله . وفى القصة أكثر من هذا . فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن عيرهم وعن بيت المقدس وأبوابه وكل ما يتعلق به إذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأى علاقة بين رؤيا المنام وبين عيرهم التى تجىء من الشام ، وقد رأى لهم عدة قوافل من تجارهم وأخبرهم عنها ؟

ولا نزال نقول : أى معنى لقصة قدح الماء إذا كانت الرؤيامنامية ؟ وأظن أن هذا القدر كاف المنصف . ولو شئنا لأطلنا .

الفريق الأول الذى يتمسك بالشبه العقلية :

يقول هذا الفريق : إنه يستحيل العروج الى السماء لأن بيننا وبينها كرة نارية كما قرره الفلاسفة الأقدمون . ونقول له : إن ذلك خيال لم يقم عليه برهان ؛ والفلاسفة

العصريون ينفون ذلك بتاتا . فهذا كاف فى إسقاط ذلك الزعم . وستسمع عن ذلك جوابا آخر مشتركا دافعا للشبه كلها .

ويقول العصريون فى استحالة ذلك : إن الهواء يرتفع عن الأرض مقدار بضعة آلاف من الأمتار ، فإذا وصل الانسان الى ذلك الحد لم يمكنه أن يعيش ، لأنه لا يجد من الهواء ما يتنفس به ، فلابد أن يموت ، وقد وصلوا بطياراتهم الى مايقرب من ذلك فخرج الدم منهم بهيئة منكرة لفقد الضغط الجوى .

ونقول فى دفع هذه الشبهة : إن ذلك مسلم ولا نمارى فيه ؛ ولكن هنالك قوانين أخرى لايعرفها الماديون ، ومحال أن يصل إليها الطبيعيون : ذلك أن الأرواح الانسانية من عالم آخر لا تسرى عليه قوانين هذا العالم ؛ فإذا غلبت على الانسان روحانيته كان الحكم للروح لا للجسد ، فكان السائد عليه هو النواميس الروحانية لا الجسمانية ؛ ومتى ساد سلطان الروح سلطان البدن كان الحكم للروح لا للبدن ، فيمكنه أن يطوى المسافات البعيدة فى لحظة قصيرة ، ويمكنه أن يرى المغيبات على حد محدود ، ويمكنه أن يخترق الجدران ويقتحم المهالك من غير أن يحصل له ضرر أو يلحقه ألم . ومن هنا جاءت كرامات الأولياء . وإذا كنا نصدق بذلك فى الجن ، وأرواحُ النوع الانسانى أعظم لطافة وأقوى نفوذا وأشد قربا من الملأ الأعلى ، فلماذا نستبعد ذلك فى خواص البشر الذين غلبت عليهم الروحانية حتى صاروا كأنهم من الملأ الأعلى ، وبذلك تنخرق لهم العادات ولا تحكم عليهم نواميس المادة ؟

براهين عصرية على ذلك

وما لنا نذكر كرامات الأولياء أومعجزات الأنبياء وبعض العصريين لا يقتنعون بذلك ، ولعلهم يعدونه من الخرافات والترهات ؟ فلنسق لك ما هو أقرب الى إقناعهم وأليق باستعدادهم ، فنقول :

قد ثبت ثبوتا لا شك فيه أن المنوَّم تنويما مغناطيسيا يُسأل عما فى البلاد البعيدة فيجيب عنها بأجوبة صحيحة ، فهل يمكن تعليل ذلك بالتعاليل المادية ؟

وقد قالوا : إن المنوِّم (بصيغة اسم الفاعل) إذا أمر المنوَّم (بصيغة اسم المفعول) أن يخوض النار وأفهمه أنها ليست نارا ، خاضها ولم تؤثر فيه ، لأنه تحت سلطان الروح فله حكمها ، والأرواح لا تؤثر فيها النيران ولا تحكم عليها هذه النواميس (وسلطان الروح فوق سلطان المادة) .

وقد قالوا : إنهم جاءوا للمنوَّم بالنوشادر المركز الذى إذا شمه أحد مات لوقته فلم يؤثر فيه أدنى تأثير ، فقام بعض الأطباء وقال : إن ذلك غش وخداع . فأخذ النوشادر المركز وشمه فخرّ ميتا . وأعاجيب التنويم المغناطيسى أصبحت لمس اليد ورأى العين . وسرها ماذكرنا من أن سلطان الروح فوق سلطان المادة .

وإذا ثبت هذا فلتعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم عند العروج كان على غاية ما يكون من الروحانية ، بل كانت روحانيته إذ ذاك فوق روحانية جبريل عليه السلام ، ولذلك ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدرة المنتهى وقال له : لو تقدمت أنملة لاحترقت .

فاذا وصل النبي صلى الله عليه وسلم الى ذلك الحد الذي يتخلخل فيه الهواء أو ينقطع بالكلية ، وقد غلبت عليه الروحانية من كل جهاته ، لم يكن لذلك تأثير فيه ولا ضرر عليه لما قررناه .

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما أصبح معروفا لا ينكر ، وهو أن بعض الهنود يوضع فى صندوق باختياره أو يدفن فى موضع من الأرض عشرين يوما وثلاثين يوما وأكثر من ذلك ، ثم يخرج ويعمل له ما يرجعه الى حسه ولا تفارقه الحياة مع أنه كان لا يتنفس أصلا فى تلك المدة . فكيف ينكر مثل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الروحانيين وأفضل الخلق أجمعين ؟

وهذا تنزل يقتضيه الحال وقوانين الجدال ، وإلا فلست أدرى كيف يقيسون عالم الملكوت على عالم الملك ، وأحكام الأرواح على أحكام الأشباح ، مع أنهم لم يتقنوا علومهم المادية ، وكثيرا ما تخبطوا فيها فنقضوا ما أبرموا . وهو شأن هذا النوع

الضعيف منذ خلقه الله الى أن تقوم الساعة ؛

ولقد أقام العالم ثمانية عشر قرنا يدين بنظرية (بطليموس) صاحب كتاب (الماجسطى) فى الأرض والشمس ودورتها، وغير ذلك من النظريات الفلكية، حتى جاء دور الانقلاب العلمى فى القرن السادس عشر ونادى العلامتان (كوبرنيق) و (كبلر) الألمانيان والبحاثة (غاليلى) الايطالى بعكس نظرية السابقين، وأثبتوا فرضا مخالفا لفروضهم؛ ثم جاء إينشتين فى عصرنا هذا فرد عليهم وقلب نظرياتهم رأسا على عقب. ولا ندرى ماذا يجىء به الغد. وقد بين ذلك رئيس وزراء انجلترا المسيو بلفور منذ زمان بعيد حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٤ وأطال فى ذلك حتى قضى به على معرفة كنه المادة، وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها، كما يقول الشاعر العربى :

كأن الحب دائرة بقلبى فحيث الابتداء الانتهاء

الخلاصة :

والخلاصة أن الاسراء لو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولا استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر.

ويؤكد ذلك مجىء جبريل له بالبراق، وخبرُ المعراج، واستفتاح السماء فيقال: ومن معك؟ فيقول: محمد؛ ولقائه الأنبياء فيها وترحيبهم به، وخطبهم فى بيت المقدس ورده عليهم، وصلاتهم وراءه، وتعيين محل كل واحد منهم والإخبار عنه بخبر خاص؛ وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى فى ذلك، وقوله: «ثم عُرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام» وأنه وصل الى سدرة المنتهى. الى غير ذلك مما جاء فى القصة.

وهل عهد مثل ذلك فى رؤيا المنام؟ وهل يقال فى رؤيا المنام: « ما زاغ البصر

وما طغى » أو ينوه بشأنها هذا التنويه كله ؟ وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة وهى عمود الاسلام فى المنام على حين أن غيرها كان فى اليقظة ؟ !

ولست أفهم إلا أن هذا إنكار لقدرة الله ، وإذا فُتش عن إيمان ذلك المنكر وجد ضعيفا به خلل وفيه دخل . وما أدرى ماذا يصنع فى مثل قوله تعالى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به (أى عرش بلقيس) قبل أن يرتدّ إليك طرفك » وقوله : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » وقوله : « فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » الى غير ذلك من الآيات والمعجزات ؟ ! وإن الإيمان بذلك كله سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شىء قدير ، وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا .

ولنرجع للموضوع فنقول بالاختصار :

لو كان مناما لم يكن فيه آية ، مع أن الله يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ، ولو كان المعراج فى النوم عند عائشة رضى الله عنها كما يزعمه بعضهم لما أنكرت رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه . فهى لم تنكرها إلا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا مناما ، لأن رؤية المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها .

وبعد : فقد عرج به صلى الله عليه وسلم ليستبين بذلك العروج أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ، حيث ارتفع عليهم جميعا حتى سمع صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلا على غير ميعاد ولا رياضة سابقة لكمال استعداده صلى الله عليه وسلم ، ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق فى التقريب والاصطفاء .

وكأن العلو الحسى مستتبع للعلو المعنوى ، فكلما ارتقى فى درجات السموات وما فوقها كان يرتقى فى درجات الروحانية والاستغراق فى جلال الله وعظمته . ولا غرو فالأماكن لها خصائص ومميزات . وانظر الى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات حتى استحقت أن تسمى بيت الله وحرم الله .

ولتعلم أن قصة الإسراء والمعراج قد وردت عن كثير من الصحابة ، عد منهم في المواهب اللدنية ستة وعشرين . ولنقهر القلم على الوقوف عند هذا الحد ففيه مقنع وكفاية لمن أراد الله هدايته .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

بعد الهمة وشرف النفس

قال النبي صلى الله عليه وسلم : «علو الهمة من الايمان» . ذلك لأن علو الهمة يدل على كمال الثقة بالله ، ويدفع بصاحبه الى المواقف المشرفة ، وتحقيق الأغراض البعيدة .

ومما يؤثر في هذا الباب من الكلم النوابغ ما قاله عمرو بن سعيد لمعاوية بن أبي سفيان حين سأله : من أوصى بك أبوك ؟ فأجابه عمرو قائلا : إن أبي أوصى الى ولم يوص بي . فقال معاوية وبم أوصى إليك ؟ قال عمرو : أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

وقال مالك بن مسمع لعبيد الله بن ظبيان : ما في كنانتي سهم أنا به أوثق مني بك . قال عبيد الله : وإني لفي كنانتك ، أما والله لئن كنت فيها قائما لأطولنها (أي لأفوقنها طولا) ، ولئن كنت فيها قاعدا لأخرقنها . فقال له مالك : أكثر الله مثلك في العشيرة . قال عبيد الله : لقد سألت الله شططا . أي لقد سألت الله أمرا بعيدا ، لأن مثله لا يمكن أن يكون كثيرا .

وقال يزيد بن المهلب : مارأيت أشرف نفسا من الفرزدق : هجاني ملكا ، ومدحني سوقة . أي أنه هجاه لما كان وزيرا ، ولما عزل عن الوزارة مدحه ، وهذا يدل على بعد همة الفرزدق .



الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جُنة ؛ وإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يصخب ، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم ؛ والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا دخل رمضان فتحت أبوابُ السماء وغُلِّقت أبوابُ جهنمَ وسُلسلت الشياطين » .

وعنه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . روى الأحاديث الثلاثة البخارى وغيره .

الصيام والصوم فى اللغة معناه الامساك عن أى شىء ؛ ومنه قوله تعالى : « إنى نذرت للرحمن صوما » أى إمساكا عن الكلام ؛ ويقولون : خيل صائمة أى ممسكة عن الحركة ، وريح صائمة أى راكدة ، وصامت الشمس أى استوت فى السماء ، إذ يخيل للرائى أنها أمسكت عن الحركة . ومعناه فى الشرع : الإمساك عن المفطِّرات من طلوع الفجر الى غروب الشمس مع النية . والمفطرات معروفة مفصلة فى كتب الفقه . والجنة بضم الجيم :

الستر ، ومنه المِجَنّ لأن المقاتل يستتر به عن خصمه ، والجن لا ستتارها عن الأعين ، والجنة لأن أشجارها تستر أرضها . وجَنّ الليل : أى ستر ما أحاط به . والرفث : فحش القول ، أو ما يكون منه فى مداعبة النساء . والصخب : شدة رفع الصوت حال الغضب ونحوه . وسابه أو قاتله : أى استفزه للسباب والمقاتلة بما يوجهه نحوه من دواعى ذلك . والخلوف : تغير رائحة الفم من هجر الطعام والشراب . والمسك : الطيب المعروف . والفرح : السرور وابتهاج النفس وغبطتها .

النوع الإنسانى هو أفضل ما نشاهده من أنواع العالم . قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » . ويكفيه شرفا أن كان منه أفضل الخلق على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم . وما كان فضله وامتيازه على غيره بكبر حجمه وضخامة مادته ، وإلا فالجبل أكبر منه وأضخم ؛ ولا بقوة جسمه ومتانة عضلاته ، وإلا فالبهائم والسباع أقوى منه وأمتن . وإنما فضله بما أودعه الله فيه من تلك اللطيفة الربانية ، تلك الروح الملكية ، تلك الماهية الانسانية ، ذات القوة العاقلة ، والنفس المفكرة . بها كان أفضل تلك الأنواع ، بها ميزه الله على جميع الكائنات ، بها وبما ضم اليها من هذا البدن الذى خلقه الله فسواه ، وما أودع فيه من جوارح وحواس ، جعله الله فى الأرض خليفة ؛ وهى منزلة لا يطمع مخلوق من خالقه فى أعظم منها . وحسبك فيها أنها منزلة تشوقت إليها نفوس الملائكة .

وإذ كان الانسان مفضلا على غيره بهذه الميزة ، كان كل ما يعود عليها بالنمو والتربية والترقية له دخل عظيم فى تقوية إنسانيته وترسيخ فضيلته . وقد جبلت طبيعته فى الغالب على خدمة قواه الجسمية والاهتمام بتنميتها ، لأن فائدتها أقرب الى حسه وأسرع الى إدراكه ؛ فكان بذلك عرضة للإخلال بالاعتدال اللائق به ، ومبعدا عن تجلى المظاهر الملكية التى أودعها الله فيه ، ولا سبيل الى هذا إلا بتعهد تلك الشهوات الجسمية واللذائذ البهيمية بما يوقفها عند حدها ، ويمنع طغيانها على الروح الطاهرة التى يجب أن يكون لها السلطان الأقوى والهيمنة التامة على جوارحه . ومن ذا يشك فى أن سبيل ذلك إنما هو الصيام ؟

إنا جميعا نعرف أن طغيان التخمة والإفراط فى الملاذ والمشتهيات على القوة العاقلة وتعطيلها عن أداء ما يرجى منها هـو سبب الخيبة والدمار، والهزيمة فى ميادين الأعمال التى يمتاز بها الانسان من حيث هو إنسان؛ وأن الأخـلاق الكريمة المهذبة بعيدة عمن جعل نفسه أسير الشهوتين المقوتتين، شهوتى بطنه وفرجه؛ وأن العقل النير والتفكير السليم والإدراك الصحيح لا يتفق والانغماس فى تلك الشهوات السافلة، فما بالك بتقوى الله العظيم ومراقبة جلاله، واستحضار قوته وبطشه، وملاحظة علمه واطلاعه، حتى يستحى المرء من ربه فى خلوته وجلوته، وحتى يحسن معاملته للناس وتربيته لنفسه؟ هل تظن ذلك ينقاد لمن ملكته التخمة وملأته الكظة؟ وهل الأنوار الربانية والإلهامات القدسية يصيب شعاعها نفسا انغمست فى شهواتها واستهترت فى لذائذها؟ وهل تأديب المرء لنفسه وانقيادها بالطوع له وامتثال جوارحه لأحكام الصواب الصادرة من دينه وعقله يرجى ممن جعل أكبر همه ملء بطنه؟ اللهم إن الأمر واضح جد الوضوح.

لقد قال تعالى: «يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا» وقال جل شأنه: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» فأباح لنا أن ننال مما وهب لنا ما نقيم به أودنا. ولكن لما كان ذلك يقويه ما ركب فى أصل خلقتنا من شهوة الغذاء الحافظة لوجود الشخص ومما يحفظ وجود النوع، كان ذلك مظنة لطغيانها، فجاء التشريع الإلهى والهداية الربانية لكبح جماحها على الإطلاق بقوله تعالى: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»، ثم بتنظيمها تنظيما يكسر من حدتها ويخفف على النفس العاقلة بطشها، فشرع الصيام الذى قال الله تعالى فى شأنه فى كتابه العزيز: «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون».

فانظر الى ترتيب التقوى على الصيام بقوله: «لعلكم تتقون» تجده ناطقا بما قررناه لك. وهل يمنع المرء من التحلى بحلية التقوى إلا ازدياد قوته البهيمية وطغيانها

على قوته العاقلة ؟ وهل يحرم الانسان من النور الإلهى إلا لانطماس بصيرته بغلبة بهيميته على إنسانيته ؟ وأين للمحروم من نعمة النور الربانى أن يحظى بالتقوى التى مرجعها الأعظم ضبط النفس وإيقافها عند حدها ، امتثالاً لأمر مالك ناصيتها ، والعالم بخفاياها ، والقادر على مجازاتها على ما قدمت من خير أو شر ؟ فظهر بذلك ترتيب التقـوى فى عمومها على الصيام .

ولعله ظهر لك أيضا قبس من معنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » ، ذلك أن الصيام مع كونه تركاً لشىء أو أشياء ، أو بعبارة : مع كونه عدما ونفيا ، ليس له فى نفسه صـورة تقدر بذاتها ، فلا يعلم علمها إلا هو وحـده ، فهو المجازى عليه بدون تقدير .

أقول : إن الصيام مع هذا تجده مشرقا للنور الإلهى ، ومنبعا للفيض الربانى ، وبابا عظيما للتوفيق ، فيترتب عليه من الفوائد الجليلة ما يخرج عن التقدير « فهو لى وأنا أجزى به » فيكون اختصاصه تعالى بالصوم مع أنه هو المعبود بكل العبادات وحده لاشريك له ، وإخراجه عن التقدير لأمرين : أنه ليس له صورة ظاهرة يترقب العبد تقديرها بعشر أمثالها أو سبعمائة ضعف أو أكثر ، وإنما هو إمساك وكف وترك . والثانى : أن له من الآثار المترتبة فى نورانية قلب العباد وضبط جوارحهم وحواسهم وإحرازهم بذلك التقوى ما لا يقدر أحد على تقـديره إلا عالم السر وأخفى ، المحيط بكل شىء ، والعليم بكل أمر من وجودى وعدمى من أصل وفرع . يضاف الى ذلك أن ما يعرض للصائم من مشاق ومتاعب ، وكبح شهوات ، وردع النفس عن غوايات ، أمور لا يستطيع ضبطها وحصرها وتقدير قيمتها إلا المطلع على السرائر ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . بل ربما كان من مرت عليه هـذه الشئون عاجزا هو نفسه عن حصرها وإحصائها ، فضلا عن تقديرها .

فـترى بهذا تنويها عظيما بفضيلة الصيام . وما أشبهه بأن يستأجر عظيم أجـيرا

على عمل معروف بأجر خاص يعده بالزيادة فيه إذا هو أتقن عمله ثم يقول له : « واعمل هذا العمل وهو خارج عن حـدود الإجارة ودع لى أنا تقديره فإنى أنا الذى أعرف قيمته لا أنت ولا غيرك » . فكم يكون ابتهاج الأجير وإقباله على ذلك العمل برغبة صادقة لاسيما حين يعلم سعة كرم وعطاء مؤجره وحسن تقديره وتمام علمه ، وأنه أدرى بما سيتطلبه هذا العمل من العامل نفسه ؟ إنه ليخيل للمرء أن هـذا الوعد أفخم أو من أعظم ماوجهه الله تعالى من صنوف الوعد ، فما أشبهه فى عظمته بعظم الهول الذى يتجلى فى الوعيد الوارد فى قوله تعالى : «سنفرغ لكم أيها الثقلان» ؛ وما كان ربك ممن يشغله شأن عن شأن ، وإنما هو إبراز العظمة والقدرة والغضب والانتقام فى أعظم صـورة من الهول والروعة .

قال صلى الله عليه وسلم : « والصيام جنة » :

نعم : الصيام جنة من المعاصى بما رفع الصائم عن نفسه من قوة جند الشيطان ، وهل للشيطان جند أعظم من امتلاء البطن بالطعام والشراب ، فتقوى عوامل الشر ، ويسترسل فى اقتناء المشتهيات واقتراف المنهيات ؟ « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » وهو بذلك جنة وساتر من النار والعذاب الأليم ؛ وهو كذلك جنة من الشيطان وتسلطه على النفس . وهذا معنى قوله عليه السلام : « وسلسلت الشياطين » .

قال عليه السلام : « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو خاصمه فليقل إنى امرؤ صائم » :

هذا من تفصيل الهدى وإيضاح طريق الامتثال بسهولة . وذلك أن الصائم بما حبس نفسه عن مشتهياتها وقيد حريتها التى ألفتها سيشعر بحرج فى نفسه وضيق فى صدره ، وميل الى التنفيس عن نفسه ، حتى يعوضها ما حرمت منه ، فهو يتلمس جلب التسلية لها وما يسرى به عنها ، فلا يسعفه إلا التحدث فى المشتهيات ، والترنم بذكر ما تصبو اليه النفس ، وترداد الخواطر السيئة بفتق الذهن لها وتعلق النفوس بها ، فقد يجره ذلك الى

ما لم يكن له فى حسبان ، والخواطر السيئة أول درجات العصيان . فجاء النهى سدا لهذا الباب ، ومن جهة أخرى : تنزيها للصيام ، وتطهيرا لنفس الصائم عن علائق الشهوات ، وذكريات اللذات ولو على سبيل المجون والتسلى :

فالحب أول ما يكون مجانة فإذا تمكن صار شغلا شاغلا

هذا سر قوله : « فلا يرفث » وأما قوله : «ولا يصخب» فوجهه كذلك أن النفس بهذا الكبح تكون ضعيفة الاحتمال ضائقة الصدر سريعة الانفعال والتهيج ، فلأقل السبب تثور ثائرتها ويستحكم غضبها ، فينطلق الصوت بالصخب ، وتتجلى مظاهر الغضب ، فتتساقى كؤسا متبادلة ، ويحجل بينهما الشيطان بخطى متعادلة ، فلا يلبثان أن يشتبكا ، وإذا ما كان بابا لهدايتهما ووسيلة لعلاجهما قد تطرقا منه الى حيث لا ينبغى لهما واستعملا العلاج على وجه يضرهما ولا ينفعهما ، فجاء التحذير عن ذلك بقوله عليه السلام : « ولا يصخب » أى احفظ نفسك من تلك الصيحة التى تملك من أمرها قبل انطلاقها من حنجرتك أكثر مما تملكه منها وقد أفلت زمامها من يدك ، فربما تلا ذلك الصخب ما لا قبل لك بدفعه ، ولأنك ما صمت إلا لتهذيب نفسك ورد غوايتها ، فلا تقلب الدواء داء ، فالغرض من الصوم كسر شِرَّة النفس لا إلباسها حلة الطغيان .

وقد توسع فى التفصيل واستوفى أنواع العلاج بوصف ما ينبغى أن يلجأ اليه إذا طرأ ما يستفزه لذلك بأن يسابه أحد أو يقاتله ، فقال : « فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم » ، يقولها لنفسه ليملك زمامها فيردها الى طاعة ربها ، ويقولها لخصمه ليذكره إن كان ممن يتذكر ، أو ليقطع عليه طريق الطماعية فى استفزازه إن كان من الطاغين ، فإن المساب والمشاتم لا يلبث أن يهدأ إذا لم يجد من يجاريه فى طريقه . والمشاهدة أعظم شاهد .

ناشدتك الله ألا ترى هاتين الكلمتين على وجازتهما شارحتين العلاج الشافى لما تراه مستحكما فى نفوس الصائمين فى كل حين : من الميل الى التلهى ، والتسلى بأنواع التسليات بحجة الصيام ، ومن استعذاب المجون وأحاديث اللهو بقصد التسلية ، ومن الغضب والصخب ، حتى ليقال عادة لمن احتد : « أأنت صائم ! » .

يالله : كأن ما شرع لتهذيب النفوس وكبح جماحها وإضعاف قوتى الشهوة والغضب عن محاربتها صار بالحياد عن التعليم الإلهى والإرشاد النبوى بابا لتطرق ذلك اليهـا . فالحمد لله على ما علمنا وهدانا الى صراطه المستقيم .

وقد ورد فى بعض الروايات : « فليقل إنى صائم إنى صائم » . وفائدة التكرار الاستعانة على كبح النفس ورد الخصم ، أو يقولها مرة لنفسه فى قلبه ومرة لخصمه بلسانه كما ذكره بعض شراح الحديث .

وبقولنا فى شرح كلمتى سابه وقاتله : معناه استفزه بسبه الى أن يسبه ، يندفع ما توهم من أن المسابة والمقاتلة مفاعلة لا تتحقق إلا من الجانبين فيقتضى أن يكون كل منهما قد سب الآخر . ووجه الدفع أن المفاعلة وإن كان أصلها كذلك إلا أنهم نصوا على أنها تسند لبادئها نسبة الفاعلية ، لأنه لما تسبب فيها كان كأنه هـو القائم بنصيب الطرفين منها . فالساب هنا باستفزازه للمسبوب كأنه أوجـد المسابة أى نصيبه منها وهو فتح بابها ، وإن كان الآخر قد أفسد عليه قصده وسد عليه طريقه . وبعد : فى هذا الجواب عند المسابة ما يذكر الصائم بفائدة صومه ، وينبهه على ثمرتها ليجنيها وينتفع بها .

قال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسـك » :

أعظم وجه تقع عليه العبادة أن يقبل عليها صاحبها مغتبطا بها شاكرا نعمة ربه بهدايته اليها وتوفيقه لها ، ولا يخشى على العبادة من شىء أكبر من تأذى صاحبها منها وتبرمه بها . ولما كان ترك الطعام والشراب مما يؤدى غالبا الى تغيير رائحة الفم ، فيشم المرء ذلك من نفسه ، ويعلم أن غيره قد يشمه منه فيتأثر ويتبرم ، أزال المولى تبارك وتعالى عنه هذا الشعور ، شعور السأم والكراهية ، بهذا المثل الذى هو فى غاية الحسن . ومعنى أنه أطيب عند الله من ريح المسك مع أنه جل شأنه متعال عن أن يلتذ برائحة طيبة أو يتألم لرائحة كريهة : أن ذلك يقع منه موقع الرضا والقبول ، ويقرب صاحبه الى

مرضاته ، كما يكون من أحدكم تقريب المسك من أنفه لطيب رائحته . فهو من باب التمثيل والكناية عن الرضا . وقيل إن ذلك يكون فى الآخرة : تكون أفواه المؤمنين الصائمين ذات رائحة ذكية عطرة طيبة أطيب من ريح المسك . وقيل إن هذا بالنسبة لاستطابة الملائكة . واستشهد القائلون بأنه فى الآخرة بقوله : عند الله ، فقد عُرفت هذه الكلمة فى بيان أحوال الآخرة كقوله تعالى : «وإنّ يوما عند ربك كألف سنة مما تعُدّون» ، فإن معناه فى الآخرة . واستشهد القائلون بأن ذلك فى الدنيا بقوله فى بعض الروايات : « حين يمسى » ولعمرى لم لا يكون كل ذلك مشمولا لمعنى الحديث ؟ فهذا الخلوف مرضى عند الله فى الدنيا مثاب عليه بتطييب أفواه أصحابه فى الآخرة ، تحبه الملائكة وتثنى على صاحبه . وفضل الله واسع فلا يحجر .

قال صلى الله عليه وسلم : « للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » :

هذا من تصبير النفس على ما لعلها تتكره منه . وقد قرن الفرحتين على بُعد ما بينهما فى القدر لينبه بمشاهدة الأولى فى العاجل على تحقق الثانية فى الآجل . ولكن ما عند الله خير وأبقى .

نسأله تعالى أن يوفقنا لطاعته ، وأن يرزقنا حسن مثوبته ، فالكل منه وإليه ، ولا اعتماد لنا إلا عليه . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم م؟

ابراهيم الجبالى

العمل بالعلم

قال مالك بن دينار : العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلب كما يزل الماء عن الصفا (الصفا هو الحجر الأملس) .

وقال حكيم : لولا العمل لم يطلب العلم ، ولولا العلم لم يطلب العمل .

وقال الصابئ :

ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... ولم يحمدوا من عامل غير عالم

عمرو بن العاص رضى الله عنه

أتينا فى العددين السالفين من هذه المجلة على تاريخ القائدين الكبيرين أبى عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص اللذين فتحا بابين عالميين فى وجه الدعوة الاسلامية، فانتشر الاسلام بعملهما فى أمم كان لا يعرفها العرب فى جاهليتهم، ولم تمت إليهم بصلة، وما فتىء ينتشر بعد ذلك حتى بلغ المحيط الهادى فى أقصى بلاد الصين. وفى هذه العجالة نريد أن نلم بسيرة عمرو بن العاص فاتح مصر، إذ أنه لم يوطد قدمه فى مصر حتى شاع الاسلام فى أفريقا شيوع النور فى البيداء الظلماء، فأصبحت بفضله معقلا من معاقل الاسلام المنيعة.

نسب عمرو بن العاص واسلامه ومناقبه:

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم القرشى السهمى. وأمه النابغة بنت حرملة من بنى جلان بن عتيك، سبيت أيام الجاهلية فى وقعة حربية فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت الى العاص بن وائل، فولدت له عمرا. فنشأ من صميم قريش وأصبح رجلا من رجالاتها، حتى إنه لما هاجر المسلمون الأولون الى الحبشة هربا من اضطهاد قومهم لهم، ندبته قريش رسولا منهم الى النجاشى ملك الحبشة ليفاوضه فيمن لجأ اليه من المسلمين وهم جعفر بن أبى طالب ومن معه، فلم يقبل عاهل الحبشة أن يردهم. ثم انبرى لعمرو بن العاص فقال له: كيف يغرب عنك أمر ابن عمك يا عمرو، فوالله إنه لرسول الله حقا! فقال عمرو: وإنك لتعتقد ذلك أيها الملك؟ قال: إى والله فأطعنى. فقال عمرو: فأنا أبايعك له. فبايعه له على الاسلام من ساعته.

ثم قدم مكة ولبث فيها ثمانى سنين، ثم هاجر الى النبى صلى الله عليه وسلم قبل فتح

مكة بستة أشهر ، وكان معه فى هجرته خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدرى ، فتقدم خالد وأسلم وبايع ، ثم تلاه عمرو فأسلم وبايع على أن يغفر له ما كان قبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام يجبّ ما قبله » أى يزيله ويلاشيه .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عمرو بن العاص قوله : « ابنا العاص مؤمنان : عمرو ، وهشام » .

صحب عمرو رسول الله صحبة حسنة مخلصة ، وكان محببا اليه ، حتى إنه قال: ماعدل بى رسول الله وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت .

فكان أول ما خدم به الاسلام أن جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرا على سرية الى ناحية يقال لها ذات السلاسل من أرض بنى بلى وعذرة ، ليدعوا أعرابها الى الاسلام .

ثم ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمان ، فلم يزل واليا عليها حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أرسله أبو بكر مع أبى عبيدة لفتح الشام ، فكان أحد قواده العظام ، شهد جميع معاركها .

وولاه عمر فلسطين ، ثم كلفه فتح مصر ، فلما تم له النصر فيها جعله واليا عليها ، فبقى حتى توفى عمر ، ولبث فيها أيضا أربع سنين من خلافة عثمان . فلما عزل عنها أقام بفلسطين ، وكان يتردد على المدينة .

فلما تولى الخلافة معاوية بن أبى سفيان بعد مقتل عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ولى عمرو بن العاص مصر ، فلبث واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ هـ فصلى عليه ابنه عبد الله ودفن بالمقطم .

لعمرو بن العاص شعر حسن ، فمنه ما قاله يخاطب به عمارة بن الوليد عند النجاشى وكان بينهما جفاء :

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما
قضى وطرا منه وغادر سبة إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

فتح عمرو بن العاص مصر :

لما أتم المسلمون فتح الشام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خلا عمرو بأمير المؤمنين وحسن له فتح مصر ، وحبب ذلك الى نفسه ، وهون عليه أمرها . فتردد الخليفة أولا بسبب تفرق جيوشه فى سورية والعراق وبلاد الفرس ، ولكن عمرو ابن العاص لم يزل بالفاروق حتى أذن له فى السير الى مصر على رأس أربعة آلاف رجل كلهم من بنى عك . فسار بهم عمرو قاصدا مصر سنة (١٨) للهجرة الموافقة لسنة (٦٣٩) الميلاد . فلما وصل مدينة الفَرَما ، وكانت على حدود مصر ، وجد بها جنودا رومانيين فقاتلهم شهرين متتابعين حتى هزمهم . ثم تابع زحفه حتى وصل الى البقاع التى تقوم عليها الآن القناطر والقصاصين والتل الكبير، فدافعت عنها كتائب رومانية ، ولكنها لم تثبت أمام هجمات المسلمين ، فولت مدبرة ، فانفتح الطريق أمام عمرو الى بلبيس وكانت بها حامية قوية من الرومانيين ، فحاصرها المسلمون شهرا ثم اقتحموا المدينة وقاتلوا من بها قتالا عنيفا ، فتم لهم فتحها . وفيها انضم الى المسلمين كثير من البدو ، وهم بقية العرب الذين كانوا فتحوا مصر وحكموها خمسة قرون الى القرن (الثامن عشر) قبل الميلاد .

ثم زحف بمن معه الى أم دُنَين وكانت فى مكان القاهرة اليوم ، فحدثت بينه وبين الجيوش الرومانية وقائع انتهت بفتحها .

فلم يبق أمام عمرو إلا ضرب الجيوش الرومانية مجتمعة ضربة قاضية فى معركة فاصلة ، ولكنه خشى المغبة لقلة جيوشه ، فكتب الى أمير المؤمنين يستمده ، وشعر قائد الرومانيين بذلك ، فصمم على سحق العرب قبل أن يأتيهم المدد ، فزحف على قاعدة جيشهم فى عين شمس بعشرين ألفا ، والمسلمون لا يبلغون أربعة آلاف مقاتل . هنا

ظهرت مواهب عمرو فى وضع الخطط الحربية ، وتجلت رباطة جأشه وشجاعة من معه ظهورا رائعا . فوضع عمرو كمينا من جنوده فى موضع بالقرب من الجبل الأحمر شرق العباسية ، ووضع كمينا آخر من الجنود قريبا من قرية أم دنين مكان القاهرة اليوم ، وصمد هو الى الجيش الرومانى بالجزء الأكبر من جنوده ، فلما استحر القتال أثار عمرو الكمينين على جناحى الجيش الرومانى وساقته ، فأبليا بلاء حسنا ، ولم يكن يحسب الرومانيون لهذه المداورة حسابا ، فاختلت تعبئة جيشهم ، واعتل نظامه ، وأخذ يزايل مواقفه ولا يستطيع الى ذلك سبيلا ، وأثخن المسلمون فيهم أيما إثخان .

بعد هذه المعركة لبث العرب مكانهم ينتظرون مدد أمير المؤمنين حتى وصل اليهم ومعه كتاب من الفاروق هذا نصه :

« إنى أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم أربعة كل منهم يعد بألف : الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد ، واعلم أنه صار معك اثنا عشر ألفا ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة » .

لما تلقى عمرو هذا المدد زحف بجيشه على حصن بابليون وعليه القائد (سيروس) ، وهو الذى سماه العرب بالمقوقس ، وتحت إمرته جميع الجنود الرومانية .

وحصن بابليون هذا كان قائما على الجزيرة المعروفة اليوم بجزيرة الروضة ، وهى محاطة بالماء من كل جانب . ولما زحف عليها عمرو بن العاص كان النيل عاليا ، فانتظر حتى جاء شهر أكتوبر ، وهبط منسوب النيل وأزمع مهاجمة القلعة ، فرأى المقوقس أن رد العرب عن البلاد غير متوقع ، فحاول أن يتفق معهم ، فلم يقبلوا منه غير الاسلام أو الجزية . فقبل ضرب الجزية على مصر ، وكتبت على ذلك معاهدة بينه وبينهم ، أرسل بصورتها الى الأمبراطور هيرقل بالقسطنطينية . فدهش عاهل الرومانيين من خنوع هذا العدد الضخم من الجنود الرومانية التى كانت بمصر لجيش مهاجم لا يبلغ عشرهم ، فاستدعى اليه المقوقس ليفاوضه فى الأمر ، وبقى العرب محاصرين للحصن ،

فعيل صبرهم من طول الوقت ، فاقترح الزبير بن العوام على عمرو أن يحاول فتح الحصن بعمل جرىء يقدم عليه ، فقبل منه ، فوضع سلما الى جانب الحصن وصعد عليه حتى انتهى الى أعلاه ، وكبر ، فتسارع اليه رجال من أهل النجدة والجراءة أعدهم لموافاته حيث هو ، فلما تم صعودهم كبروا ، فأجابهم المسلمون جميعا فلم يشك الذين هم داخل الحصن أن المسلمين قد فاجأوهم من كل مكان ، فتخاذلوا عن ردهم ، حتى تمكن الزبير ومن معه من فتح الأبواب ، فاقتحمه المسلمون ، فما وسع الجنود الرومانيين المحصورين فى الحصن غير التسليم ، فأسرهم الفاتحون .

فى هـذه الفترة كان قد رجع المقوقس من القسطنطينية لتولى منصبه الأصلى وهو البطريركية القبطية ، فرأى أن الأسلم لقومه وللرومانيين الاتفاق مع العرب ، فعقد معهم معاهدة تتلخص فيما يلى :

(١) أن تدفع مصر الجزية للدولة الاسلامية .

(٢) وأن تجلو الجيوش الرومانية من الاسكندرية .

(٣) وأن لا يضطهد الفاتحون المسيحيين وأن يعاملوهم برفق .

(٤) وأن يسمح لليهود بالإقامة فى الاسكندرية .

لما أعلنت هـذه المعاهدة هاج الإسكندريون وهاج جنـود الدولة الرومانية ، ولـكن المقوقس صرح لهم بأن ما فعله هو خير لهم من جميع الوجوه .

فلما كتب المقوقس الى قيصر الرومان بما فعله ، قبح فعله ورماه بالجبن ، وأمره أن يقاتل العرب معتمدا على الرومانيين وحدهم إن تخلف عنه القبط . فرد عليه المقوقس بأن ما فعـله هو الصـواب حقنا للدماء ، ومراعاة لمصلحة البـلاد ، وأنه لا يسعه نقض ما أبرمه .

وصرح لعمرو بن العاص بأن الصلح قد تم بين القبط والمسلمين ، وأنه لا يسأل عن موقف الرومانيين حياله ، فقبل عمرو هـذا الصلح ، وأخذ يتعقب الرومانيين

ليتمم إجلاءهم عن مصر . فزحف على الاسكندرية ، وكان الرومانيون قد تجمعوا بها ووافاهم فيها من الخارج عدد عظيم من الجنود ، فخرجوا لملاقاة عمرو ، فالتقى الجيشان فى قرية سلطيس فانهزم الرومانيون الى الكريون ، فدحرهم عمرو فيها أيضا ، فالجأوا الى حصون الاسكندرية وكانت من المناعة بمكان عظيم ، واعتزم القيصر نفسه أن يوافى المدافعين عنها ليشجعهم على الثبات ، فاتفق أن قتله خارج عليه قبل حضوره ، ففتّ ذلك فى عضد الرومانيين وكسر من شرتهم ، ففر منهم عدد كبير ، وأصر المسلمون على أخذ المدينة عنوة بعد أن حاصروها أربعة عشر شهرا ، فدخلوها ظافرين ، وفر بعض الرومانيين من ناحية البر وبعضهم من ناحية البحر ، فرأى عمرو أن يتعقب المنهزمين برا ، كيلا يقطعوا عليه خط الرجعة أو يحدثوا حدثا آخر ، فانتهز الذين ركبوا البحر هذه الفرصة وعادوا فاحتلوا الاسكندرية وأوغلوا فى حاميتها الاسلامية قتلا ، فاضطر عمرو الى الرجوع اليها وإعادة فتحها .

فلما أتم الله عليه نعمة هذا النصر العظيم كتب الى أمير المؤمنين الفاروق يبشره به ، ويستأذنه فى أن يجعل الاسكندرية عاصمة للملكة المصرية ، كما كانت منذ أسسها الاسكندر الأكبر . فلم يوافقه عمر على هذا الرأى ، فتحول الى معسكره عند ما كان محاصرا لحصن بابليون ، وبنى فى مكان فسطاطه (أى سرادقه) مدينة دعيت بالفسطاط لهذه المناسبة .

كان ذلك سنة ٢١ للهجرة الموافقة لسنة (٦٤١) للميلاد .

لم تقف همة عمرو بن العاص عند فتح مصر ، ولكنه زحف غربا لفتح برقة ، وكان ذلك سنة (٢٢) هـ فصالحه أهلها على الجزية ، ثم سار قاصدا طرابلس فحاصرها شهرا لم يظفر منها بشيء ، فاحتال بضعة رجال من جنوده على اقتحام أسوارها ، فلما كبروا خيل لحماتها من الرومانيين أن المسلمين قد توصلوا لكسر أبوابها ، فتداخلهم الذعر وألقوا بأنفسهم الى السفن ، وفى هذه الأثناء تسربت جنود المسلمين الى المدينة

وأعملوا السيف فيمن بقى من حماتها حتى سلموا . وكتب عمرو الى أمير المؤمنين يبشره بالفتح الجديد ويستأذنه فى المسير الى تونس ، فورد إليه جوابه بالاكتفاء بما حصله من الفتح . فجعل على برقة حكومة إسلامية وعاد هو الى مصر لينظم إدارتها ، ويصلح أحوالها بما عهد فيه من حسن السياسة ، وعظيم الكياسة .

فبقى عمرو واليا على مصر كما قدمنا مدة حياة عمر بن الخطاب ، ولما تولى عثمان أبقاه فيها أربع سنين أخرى ، ولما تولى معاوية ولاه عليها فبقى واليا عليها حتى توفى رضى الله عنه سنة (٤٣) ه .

حكمة عمرو وتقواه ووفاته :

كان عمرو بن العاص مع علمه بفنون الحرب وسياسة الشعوب حكيما أريبا . من آثاره فى الحكمة ما قاله لابنه يوما :

« يا بنى : إمام عادل ، خير من مطر وابل ، وأسد حطوم (أى شديد التحطيم) ، خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم ، خير من فتنة تدوم . يا بنى : مزاحمة الأحمق ، خير من مصالحته . يا بنى : زلة الرِّجْل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر . يابنى : استراح من لا عقل له » .

وقال : « ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرين » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص يوما :

« من أبلغ الناس » ؟ قال : « من كان عقله رادا لهواه » ، قال : « فمن أسخى الناس » ؟ قال : « من بذل دنياه فى إصلاح دينه » ، قال : « فمن أشجع الناس » ؟ قال : « من رد جهله بحلمه » .

ومن أخباره فى الورع وتقوى الله ، أنه وقع بينه وبين المغيرة بن شعبة نزاع ، فسبه المغيرة . فقال عمرو بن العاص وقد أخذ منه الغضب : يال هصيص ، يسبنى المغيرة !

وكان ابنه عبـد الله حاضرا فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، أدعوة القبائل وقـد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ؟

فندم عمرو على ما قال وكفر عن كلمته هذه بثلاثين رقبة أعتقها لله تعالى .

ويروى عن قبيصة بن ذؤيب أنه قال :

صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أقرأ لـكتاب الله منه .

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى للجزيل من غير مسألة منه .

وصحبت معاوية بن أبى سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلما منه .

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين طريقا ، ولا أكرم جليسا ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه .

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرج من باب منها إلا بالمـكر ، لخرج من أبوابها كلها .

وروى عن ربيعة بن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل وهو يبـكى ويقـول : اللهم آتيت عمْرا مالا ، فإن كان أحب اليك أن تسلب عمْرا ماله ولا تعـذبه بالنـار ، فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمْرا أولادا ، فإن كان أحب اليك أن تثـكل عمْرا ولده ولا تعذبه بالنار ، فأثـكله ولده . وإنك آتيت عمْرا سلطانا ، فإن كان أحب اليك أن تنزع عنه سلطانه ولا تعذبه بالنـار ، فانزع منه سلطانه .

روى عن عبد الرحمن بن شماسة قال : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى ، فقال له ابنه عبد الله : يا أبت لم تبكى ، أجزعا من الموت ؟ قال : لا والله ولـكن لما بعد الموت . فقال له : يا أبت إنك كنت على خير . وجعل يذكر صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن بلائه فى الشام ومصر . فقال له عمرو : لقد تركتَ أفضل من ذلك : شهادة أن لا إله إلا الله ، إنى كنت على أطباق (أى حالات) ثلاث : كنت أول شىء كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو متّ حينئذ وجبت لى

النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كنت أشد الناس حياء منه ، فلو مت لقال الناس هنيئا لعمرو ، أسلم وكان على خير ومات فترجى له الجنة ، ثم تلبست بالسلطان وأشياء ، فلا أدرى أعلى أم لى ، فإذا مت فلا تبكين على باكية ، ولا تتبعنى نائحة ولا نار ، وشدوا على إزارى فإنى مخاصم ، وشنوا على التراب فإن جنبى الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبى الأيسر ، ولا تجعلن فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جزور وتقطيعه ، أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أوامر رسل ربى » .

ولما قرب أن تفارق روحه جسده قال : « اللهم إنك أمرتنى فلم آتمر ، وزجرتنى فلم أزدجر ، ثم وضع يده على موضع الغل (أى قيد اليد) وقال : « اللهم لا قوىٌّ فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت » ، فلم يزل يرددها حتى مات رضى الله عنه .

هذه سيرة فاتح باب القارة الإفريقية فى وجه الدعوة الإسلامية ، وإنه لمن آيات البطولة ، أن ينتدب جيش لا يزيد عدده على ثمانية آلاف رجل لفتح مملكة كانت أثمن درة فى تاج الأمبراطورية الرومانية ، وكان بها من الحماة والمقاتلة ما يعد بعشرات الألوف ، غير ماورد اليهم أثناء الحرب ، وغير ما كانوا عليه من كثرة السلاح وتوفر الوسائل ، وقرب المسافة بينهم وبين قاعدة ملكهم .

وإن كانت هذه من آيات البطولة لجيش فى مثل هذا العدد فمن معجزات القيادة أن يُدفع بهذا الجيش من نصر الى نصر ، وأن يحتفظ به بعيدا عن النكبات والمفاجآت فى وسط بلاد ليس بينها وبينه آصرة من دين ولا جنس ولا لغة .

هذه حوادث اعتاد الناس أن يقرءوها فى تاريخ المسلمين معجبين بها فحسب ، ولكنها تستدعى فوق الإعجاب أن ينظر اليها كأثر حى لما تستطيع أن تقوم به العقيدة النقية ، والايمان الراسخ من الأعمال التى لا تعلل بالأسباب الظاهرية .

وإذا كان نابليون يفتخر بأنه افتتح مصر بخمسة وعشرين ألفا من الجنود على

شراذم من المماليك ، فإن عمرا قد فتحها بثلث هذا العدد ضد أمبراطورية كانت لها السلطان المطلق فى الأرض .

وإذا كان العالم يعتبر مصر اليوم أثمن درة فى عقد الممالك الاسلامية ، فإن الفضل فى ذلك يرجع الى عمرو بن العاص وبضعة الآلاف من الأبطال الذين باعوا أنفسهم فى سبيلها ، فسلام عليه وعليهم فى الفاتحين ، والحمد لله رب العالمين ؟

محمد فريد وجدى

ما قيل فى العلم والعلماء

قال الحسن البصرى رضى الله عنه :

قد يكون الرجل عالما ولا يكون عابدا ، ويكون عابدا ولا يكون عاقلا .

وقد تحقق قول الحسن هذا فى مسلم بن يسار ، فقد كان عالما عابدا عاقلا .

وقد قيل : ما قرن شيء الى شيء أفضل من حلم الى علم ، ومن عفو الى قدرة .

وقالوا : من تمام آلة العلم أن يكون شديد الهيبة ، رزين المجلس ، وقورا صموتا ، بطيء الالتفات ، قليل الاشارات ، ساكن الحركات ، لا يصخب ولا يغضب ، ولا يبهر فى كلامه ، ولا يمسح عثنونه عند كلامه فى كل حين ، فان هذه كلها من علامات العى .

ومدح العلامة عبد الله بن المبارك مالك بن أنس فقال :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... فالسائلون نواكس الاذقان
هدى الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

وقال فيه أيضا :

صموت إذا ما الصمت زين أهله ... وفتاق أبكار الكلام المختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ... وسيطت له الآداب باللحم والدم

حكمة الصيام فى الاسلام

الصيام عند الامم القديمة :

المتتبع لتاريخ الأمم من الناحية الدينية يجد أن تلك الأمم قاطبة اعتبرت الصيام ركنا من أركان عباداتها . فنصت شريعة (مانو) فى الهند على ضرورته عادّة إياه من خير الأعمال العبادية ، وقد عمل البراهمة بهذه الشريعة من أقدم عهودهم .

والمعروف أن البراهمة من أشد الأمم مراعاة للصيام ، حتى إنهم لا يعفون منه الشيوخ ولا المرضى .

والطائفة المعروفة عندهم باليوغيين وهم المنقطعون للعبادة يصومون من عشرة أيام الى خمسة عشر يوما لا يذوقون طعاما غير صبابات من الماء .

أما بوذيو التبت فلهم نوعان من الصيام ، أحدهما مدته أربع وعشرون ساعة لا يذوقون فيها شيئا حتى ولا يجوز لهم ابتلاع ريقهم ، وقد يمد بعضهم هذا الصيام الى ثلاثة أيام لا يفطر فى كل يوم إلا على قدح من الشاى .

والنوع الثانى مدته أربع وعشرون ساعة كالنوع الأول ، غير أن الصائم فيه له أن يفطر على ما يشتهى من الأطعمة دون أن يكون مقيدا بالإفطار بالشاى .

وعرف الصينيون الصيام من أقدم عصورهم ، فكانوا يقومون به تعبدا ، ويوجبونه على أنفسهم فى أوقات الفتن .

وكان المصريون القدماء يصومون فى جميع أعيادهم الدينية . وكان قساوستهم يصومون من سبعة أيام الى ستة أسابيع .

وكان الألوزينيون والتسموفوريون من قدماء اليونانيين يكلفون نساءهم بالصيام فيجلسن على الأرض فى حالة اكتئاب وكمد قياما بآدابه عندهم .

وكان اللاسيديمونيون من القبائل اليونانية القديمة يصومون أياما متوالية قبل شروعهم فى حرب .

وكان قسيسو جزيرة كريد فى ذلك العهد لا يأكلون طول حياتهم لحما ولا سمكا ولا طعاما مطبوخا .

أما الرومانيون فقد عرف عنهم أنهم كانوا يصومون ، وكانت جميع شعوب ايطاليا يصومون كذلك ، حتى لقد روى أن التارانتيين لما حاصرهم الرومانيون صاموا عشرة أيام استنزالا للنصر .

أما لدى اليهود فقد ورد فى كتابهم إشادة بذكر الصيام ، وكان قدماؤهم لا يكتفون منه بمجرد الامتناع عن الطعام من المساء الى المساء ، ولكنهم كانوا يمضون الصيام مضطجعين على الحصى والتراب ، ومستشعرين حزنا عميقا على ما أصابهم من الفتن ، حتى إنهم ما كانوا يعقدون فى أثنائه زواجا .

واليهود المعاصرون لا يصومون فى السنة أكثر من ستة أيام ، أما أتقياؤهم فيصومون شهرا كاملا ، ويفطرون كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة عند ظهور النجوم .

ويصوم اليهود اليوم التاسع من شهر آب فى كل سنة ، ذكرى لخراب هيكلى أورشليم ، وكانوا يستعدون للصيام قبل حلوله ، فكانوا يقتصرون قبله على تناول لون واحد . ويزيد أتقياؤهم على هذا أكلهم الخبز مأدوما بالتراب ، ونومهم ليلتهم على الأحجار ، وهم فى حالة عويل ونواح على ما أصابهم من تلك الكارثة العظيمة .

والنصارى يصومون فى كل سنة أربعين يوما مقتدين بعيسى عليه السلام . وكان الأصل فى صيامهم الامتناع عن الأكل بتاتا ، والإفطار فى كل أربع وعشرين ساعة مرة ، ثم قصروه على الامتناع عن أكل كل ذى روح وما ينتج منه من اللبن والزبد والجبن .

ولدى النصارى أيضا صيام الفصول الأربعة ، وهو صيام ثلاثة أيام فى كل منها . ولديهم أيضا صيام الأربعاء والجمعة تطوعا لا فرضا .

الصيام فى الاسلام :

فرض الله على المسلمين أن يصوموا شهر رمضان ، فقال تعالى : «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون» .

وللصيام عند المسلمين آداب لا بد من مراعاتها ، منها غض البصر عن كل مذموم ومكروه وما يثير الشهوة ، وحفظ اللسان من الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والخصومة والمراء ، وكف السمع عن الإصغاء الى كل مكروه ، وكف بقية الجوارح عن الآثام والشهوات ، وأن لا يستكثر من الطعام وقت الإفطار والسحور ، فيكتفى بما يحفظ عليه صحته ولا يوقعه فى التخمة ، أو سوء الهضم .

والغرض من هذا أن يتأهل المسلم للاستفادة من مزايا الصيام الروحية والجسدية ، فإن الله لم يفرض الصوم على الناس تعذيبا لهم أو انتقاما منهم ، ولكنه فرضه لمصلحة نفوسهم وجسومهم ، كما قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

الصوم من أفعل العوامل للترقى الروحانى :

الانسان جسد وروح ألف الخالق بينهما على اختلاف طبيعتيهما الى حين .

فأكثر الناس تتسلط المطالب الجثمانية عليهم فتزج بهم فى حمأة الشهوات ، فيصبحون خطرا على أنفسهم وذويهم ومجتمعاتهم .

وقد شرع الاسلام ليبلغ الانسان فى حدود الاعتدال ، ودائرة الإمكان درجة عالية فى الرفيق الأعلى ، فكلفه بآداب وأخلاق ، مراعيا فيها ضعفه ، وملاحظا قابليته ، وأوجب عليه عبادات تتكافل كلها فى إيتائه بقوة معنوية يتغلب بها على العوامل التى تدفعه لخلع العذار والمضى خلف الأهواء . فشرع له الصلاة ليستمد منها الخشية من الله ودوام مراعاة أوامره فى كل معاملاته لغيره ؛ وشرع الصوم ليؤهله للعروج فى معارج الكمال والتجرد بقدر الإمكان من عالم المادة .

نعم ، فإن الانسان فى حالة الاعتدال تتعادل فيه قوتاه الروحية والجسدية ، فإذا غلّب على نفسه صفات البهائم ، بطل تعادل قوتيه واقترب من العالم الحيوانى .

أما إذا امتنع الانسان عن الطعام والشراب ، وراعى ما ذكرناه من الآداب ، فقد اتصف بما عليه الملائكة من التجرد عن سلطان المادة فالتحق بعالمهم ، وكان وهو فى تلك الحالة آهل ما يكون للتجليات الإلهية ، والإشراقات الروحانية ، فيكتسب بذلك قدرة على مغالبة الشهوات ، وقوة على مكافحة الأهواء ، ويزداد من الله قربا ومن عوامل الشر بعدا .

أما من الناحية العبادية ، فان الصيام الاسلامى بالمكان الأرفع منها ، حتى شرفه الله بنسبته الى نفسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه من حديث قدسى : « الصوم لى وأنا أجزى به » . ذلك لأن فى كبح النفس عن أحب شهواتها اليها ، إيذانا من الصائم بكمال التسليم لأوامر مبدعه ، والتسليم غاية غايات العبودية ، بل هو معنى الاسلام وحقيقته ، والصوم مع أنه قربة من أكبر القربات فى ذاته ، يعد النفس البشرية ويؤهلها لجميع الخصال الكريمة التى أمر الله عباده بالأخذ بها : كالعطف على المساكين ، والحدب على المحرومين ، والرحمة بالضعفاء والمصابين ، وإغاثة

الملهوفين ، والتنفيس عن المكروبين ، والشعور بحاجات المحتاجين . وهذه الخصال مجتمعة تنبه القلوب لضرورة التكافل بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأثرياء والفقراء . وفى أعقاب هذه الصفات تضام الآحاد وتضافرهم على القيام بمهام الاجتماع كله ، والاضطلاع بأعبائه . وثمرة ذلك توحد الوجهة ، واجتماع الكلمة ، وقيام دولة الحق فى الأرض .

وقد عرف علماء النفس حديثا أن الصيام يقوى الإرادة الانسانية ، ويمد النفس بوسائل معنوية تتغلب بها على المطالب الجسدانية ، فيصرف وجوده المادى على ما يقتضيه عقله ، لا على ما تطبعه فيه غرائزه البهيمية .

وعلى هذا الأساس العلمى وضع الأستاذ الألمانى (جبهاردت) كتابا فى تقوية الإرادة ، جعل أساسه الصوم ، وذهب فيه الى أن الصوم هو الوسيلة الفعالة لتحقيق سلطان الروح على الجسد ، فيعيش الانسان مالكا زمام نفسه ، لا أسير ميوله المادية ، تقوده الى المهلكات وهو يعلم أنه مقود اليها لا محالة .

فحكمة الصيام لا تقدر من هذه الناحية ، وطريقته فى الاسلام أحسن الطرق ، وأكفلها لتحقيق جميع الأغراض المرجوة منه ، كما ستراه هنا .

أثر الصوم فى صحة الاجسام :

قد ثبت علميا أن مزايا الصوم لا تقتصر على الناحية الروحانية من الانسان ، ولكنها تشمل الناحية المادية منه أيضا .

تبين للمشتغلين بعلاج الأمراض منذ وجد علم الطب ، أن للأغذية دخلا عظيما فى إصابة الأجسام بالأدواء المختلفة ، لا من ناحية الإفراط فيها فحسب ، ولكن من ناحية التسمم بالعناصر الداخلة فى تركيبها أيضا .

أما تأثير الإفراط فيها فمعلوم ، ومن آثاره التخمة ، وسوء الهضم ، وأمراض المعدة والسمن ، والترهل ، وخمود الفطنة ، والبول السكرى ، وتشحم القلب الخ ، حتى قال

أبو قراط منذ نحو خمسة وعشرين قرنا : « أكل الناس أكل السباع فمرضوا ، فغذوناهم بأغذية الطيور فصحوا » .

وقد اتضح للناس كافة أن الحمية رأس الدواء ، جرى عليها الأطباء منذ أقدم عهود التاريخ . وقد جاء فى ذلك : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » .

وأما تأثير الأغذية من ناحية التسمم بها فأمره مقرر معروف ، وذلك أن الانسان باستكثاره من ألوان الطعام يدخل الى معدته ضروبا شتى من المواد المتعاكسة الطبيعة تتركب فى القناة الهضمية تركيبا جديدا ، فتتولد متحصلات ضارة بالبنية . فقد شوهد أن زيادة تناول المواد الزلالية يفضى الى استحالة ما يزيد منها عن حاجة الجسم الى بولينا ، وهذه بائتلافها بقليل من الأوكسيجين تصير حمضا بوليا ، وهو سم شديد الفعل يصيب البدن بأمراض ثقيلة ، ولا يمكن التخلص منه إلا بحمية طويلة وأدوية كثيرة . هذا مصداق لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » وقوله : « حسب الانسان من الطعام لقيمات يقمن صلبه » .

فاعتمادا على هذا الأساس العلمى يعتمد الأطباء فى معالجتهم للأمراض على الحمية ، فقد شوهد أنه بالتقليل من الطعام ، وتناول الخفيف من الأغذية ، تفرغ البنية للتخلص من السموم المنبثة فيها .

وقد ثبت أن اللجأ الى الصوم ينجى الانسان من أمراض قتالة ، أهمها البول السكرى ، فقد روت المجلة الطبية المصرية أنه عولج به ثلاثمائة شخص دفعة واحدة فشفوا جميعا . وفى الأثر : « جوعوا تصحوا » .

الصوم الاسلامى خير أنواع الصيام :

الصوم فى الاسلام عمل عبادى يقصد به مصلحة الانسان جسديا وروحيا ، لقوله تعالى : « وأن تصوموا خير لكم » وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن

يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » وقد علمت مدى تأثير الصوم فى الجسم والنفس معا ، وقد دل تاريخ المسلمين الأولين على مدى ما بلغوه فى سنين معدودة من الصحة الجسدية والسمو الروحانى ، وهو ما عجزت التربية الحديثة عن تحقيقه منذ وجودها الى اليوم .

وهنا نريد أن ندلل على أن الصيام فى الاسلام هـو خير ضروبه على الاطلاق : فقد وضع على أسلوب حكيم بحيث ينتج جميع ما ينتظر منه من فائدة جسدية وروحية ، ولا يضر بالبنية كما قد تضرها ضروبه الأخرى .

فالذين يصومون أربعا وعشرين ساعة متوالية ثم يفطرون على الشاى أو الخبز المغموس فى الماء أوالملتات بالتراب ، هؤلاء يضرون أنفسهم ضررا كثيرا ، فقد أثبت الأستاذان الفيزيولوجيان (هنريو) و (ريشيه) أن الجسم يفقـد من وزنه بالحرمان من التغذى فى أربع وعشرين ساعة مقدارا محسوسا ، ويقل طـرد حمض الـكربون من الدم ، وتبطىء تهوية الرئتين فينزل مقدار ما يدخل من الهواء فيهما من ٥٠٠ الى ٤٠٠ لتر فى تلك المدة .

فإذا كان الذى يريد الاقتصار على أكلة واحدة يعمد الى تناول كل مايحتاج اليه دفعة واحدة ، اضطر الى ملء معدته ملئا لا يتفق وسهولة الهضم ، فلا يكتسب من وراء صيامه خيرا .

والذين يجعلون صيامهم منحصرا فى الانقطاع عن أكل اللحم وما يشتق منه فان صيامهم لا يعتبر صياما ، ولا ينتج المـزايا الجسدية والروحية المنتظرة منه . فإنهم يستعيضون بالبقول والزيوت عن اللحم والسمن والجبن ، وهى أغذى من تلك ويمكن الاكتفاء بها مدى الحياة ، فان البوذيين لا يأكلون اللحوم بجميع أنواعها وهم عائشون كسائر الناس .

ولـكن الصيام فى الاسلام يحقق مزاياه من كل وجه ، فهو يأمر الانسان أن يمتنع

عن الطعام والشراب من الفجر الى غروب الشمس . وقد سن له أن يعجل الإفطار وأن يتلطف فيه ، وأن يؤخر السحور ما استطاع الى قبيل الفجر ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « دامت أمتى بخير ما أخرت السحور وعجلت الإفطار » .

وكان صيام المسلمين الأولين كما رسمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يمسكوا عن الطعام والشراب والاتصال الجنسى الى غروب الشمس ، ثم يفطرون على قليل من الماء أو التمر أو غيره ، ثم يصلون المغرب ثم يمضون هزيعا من الليل فى الطاعة ، ثم ينامون الى قبيل الفجر فيتناولون طعام السحور وينتظرون الفجر فيصلونه ، ثم ينصرفون الى أعمالهم .

فهذا النظام الحكيم يسمح للبنية أن تفرغ للتخلص من سمومها بإراحة المعدة أكثر من عشر ساعات متوالية ، ولا يدع عوامل التحليل تتسلط على الجسم ، فإذا توالى هذا التطهير الجثمانى ثلاثين يوما ، فإن البنية تخلص من جميع سمومها ، فيشعر المؤدى لهذه الفريضة على هذا النحو بصحة كاملة ، وغبطة تامة ، وبارتقاء محسوس فى نفسيته ، وقوة فى إرادته .

نعم : إن من الناس من يتوسعون فى الطعام فى شهر رمضان ويضيعون أوقاتهم فى السهر الضار بصحتهم ، ويفرطون فى السحور ثم ينامون قبل تمام الهضم ، فهؤلاء لا يتبعون النظام الذى وضعه الاسلام للصوم ، وعليهم تبعة أعمالهم . وفيهم يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » .

فنرجو الله أن يوفقنا لتفهم أسرار هذا الدين ، وأن يلهمنا العمل به ، فإن فيه خيرى الدنيا والآخرة ؟

محمد فريد وجدى

بَابُ الأَسْئِلَةِ وَالفَتَاوَى

طهارة السيدة مريم عليها السلام

ورد من السيد مرشد نور الدين بكندا السؤال عن معنى قوله تعالى : « قالوا يامريم لقد جئتِ شيئا فَرِياً » : أمرادهم رميها بالفحشاء ، أم يريدون شيئا عظيما لم يعين فنسكت عنه ؟

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ، وعلى أتباعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فإن كل مسلم يدين بدين الاسلام، ويصدق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤمن بكتاب الله الحكيم ، يؤمن إيمانا لاشك فيه بأن سيدتنا مريم عليها السلام مبرأة من كل فاحشة تشينها، طاهرة من كل وصمة تحط من قدرها ، وأنها من أفضل نساء العالمين ؛ ومن شك فى ذلك فهو كافر ؛ فقد نطق القرآن الكريم ببراءتها ونزاهتها ، وأثنى عليها بأن الله اصطفاها وطهرها ؛ قال تعالى فى سورة آل عمران : «وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاكِ وطهّركِ واصطفاكِ على نساء العالمين » فكرر الإخبار باصطفائها مرتين ، وأخبر بطهارتها فمن شك فى طهارتها فقد شك فى صدق كلام رب العالمين .

وقال عز وجل فى سورة التحريم : «ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » فإحصانها فرجها وعصمتها من الفاحشة وأن عيسى جاء بلا أب وإنما هو من نفخ الروح ، كل هذا ظاهر صريح لايشك فيه مسلم . بل لقد أخبر الله عز وجل بكرامتها من أول نشأتها ، وأنها محل

الرعاية الالهية من يوم ولادتها، فقال تعالى فى سورة آل عمران حكاية عن أمها : « قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وقال عز وجل عقب ذلك : « فتقبّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتا حسناً وكفّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنّى لكِ هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . فانظر ما فى هذا من التنويه بشأنها، وحياطتها بالكرامة من أول نشأتها . فهل يشك بعد ذلك مسلم فى طهارتها ونزاهتها ؟ وقد شنع على اليهود وندد بقبائحهم فى قوله تعالى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

هذا ما يتعلق بالسيدة مريم عليها السلام فى ذاتها . وأما ما يتعلق بالآية الكريمة الواردة فى السؤال ، وهى قوله تعالى : « فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا » فقد نقل فيه عن أئمة التفسير قولان : (أحدهما) أن معنى « فريا » فيه أنه أمر عظيم عجيب لم يسبق له مثيل . وأصله من قولهم : فرى الجلد قطعه ، كأن ذلك الأمر لغرابته قطع المعتاد من الأمور . فمعناه أنكِ جئت شيئا لا عهد لنا به ولا يعهد فى مثلك ، فهو من الغرابة والعظمة والخطورة بحيث لانعرف كيف نقبله . وعلى ذلك يكون مرادهم الاستعظام وإبداء الدهشة ، ولا يكون غرضهم التعيير . وبهذا فسره مجاهد وقتادة والسدى على ما نقله عنهم إمام المفسرين ابن جرير الطبرى فى تفسيره . و (ثانيهما) ونقل عن وهب بن منبه أن معناه : جئت أمرا منكرا ، يريدون به الفاحشة ، وذلك قبل أن يكلمهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد مظهرا براءتها . ومال الى هذا كثير من متأخرى المفسرين استنادا الى قوله تعالى حكاية عنهم : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغيا » فإنه ظاهر فى أنهم نسبوها الى المنكر وهالهم ذلك منها ، لأنها نبتت من أصل زاك ، والفروع تتبع الأصول . فنفى البغى عن أمها والسوء عن أبيها ظاهر فى أنهم كانوا قد تطرق الى أذهانهم رميها بذلك ، ولذلك استغربوا

صدوره ممن نبت منبتها. وتعبيرهم بكلمة فريا دون التصريح بذكر الفاحشة، لأن المعتاد فى ذكر الأمور القبيحة أن يعبر عنها بطريق الكناية والإجمال. وليس بمستغرب على مثلهم وقد رأوا معها ما حيرهم أن يجرءوا على رميها بما رموها به حتى يبرئها الله على لسان ابنها وهو فى المهد. والأدب مع هذا فى الوقوف عند حد ما ذكره القرآن الكريم من الإجمال. والله أعلم ؟ ابراهيم الجبالى

المعذور بالفطر فى رمضان

ورد على إدارة المجلة السؤال الآتى :

سيدة عندها نزلة شعبية وربو (ضيق فى التنفس) منذ سبع سنوات، وتضطر دائما الى ابتلاع دخان (مسحوق الحبشة) بواسطة الفم ليسهل التنفس، وبخلافه لا تستريح، ويتعذر عليها التنفس. فما الحكم أثناء صيام رمضان: هل يبطل الصوم؟ وإذا أبطله فما العمل إذا لم تجد وقتا للصوم، وإنها فقيرة ليس لها إيراد تتصدق منه، ولا يمكنها الاستغناء عن الدخان المذكور؟ عبد الله رضوان

ناظر مدرسة بنات المحلة الكبرى

الجواب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فتعاطى هذا المسحوق مبطل للصوم ولا كلام. فكل ما وصل الى الجوف عمدا فقد أبطل الصوم، وعليها القضاء متى قدرت عليه، فإن كانت لا يرجى برءها كان عليها فدية عن كل يوم مد طعام تتصدق به على الفقراء. فإن عجزت عن ذلك استقرت فى ذمتها حتى يتيسر لها أداؤها، فإن استمر عجزها حتى ماتت كانت كبقية الديون تخرج من تركتها بعد موتها، فإن لم يكن لها تركة فإن الله غفور رحيم ؟ ابراهيم الجبالى

الشافعى

السبرتو

وورد الى إدارة المجلة السؤال الآتى :

ما قول سادتنا العلماء المفتين بنور الاسلام فى الاسبرتو هل هو مسكر كما يشاع ، وإذا كان مسكرا فما حكم صلاة المدهن بالروائح العطرية الممزوجة به ؟

عمر وجدى
برواق الأكراد بالأزهر

الجواب

أجمع الأئمة على نجاسة المسكر المائع كالخمر . والمراد بالمسكر ما غيّب العقل ، سواء أكان مع نشاط فى الأعضاء أم مع فتور فيها ، فيشمل المخدر .

والمعروف فى السبرتو أنه ليس بمسكر ولا مخدر ، بل هو مفسد للبدن ، فيحرم تعاطيه للضرر ، وليس بنجس كبقية السموم المهلكة . ويجوز استعماله فى الثياب وفى ظاهر البدن .

على أن الأولى الرجوع الى الإخصائيين من المسلمين فى مثل هذا حتى يعلم بالضبط حقيقة السبرتو أهو مسكر أم لا ؟

الحسينى سلطان ، يوسف المرصفى
الشافعى الشافعى

الرضاع

وورد أيضا السؤال الآتى :

حرم الله الزواج من الإخوة فى الرضاعة :

أولا — ولد أو شقيقه رضع على بنت أو أحد أخواتها ، فهل هذا يحرم أن يتزوج أحد الأولاد الذى لم يرضع على البنت منها ؟ وما الحال إذا تم الزواج فى عدم البحث فى هذه النقطة ورزقا بمولود : فهل يفسخ عقد الزواج أم يبقيان على هذه الحالة معا ؟

ثانياً — رضع ولد على ثدى امرأة ثم أرضعت هذه المرأة طفلة من واحدة أخرى ،

فهل يصبح الثلاثة إخوة فى الرضاعة ، ولا يجوز أن يتزوج الطفل الذى لم يرضع من ثدى أم الطفلة من هذه الطفلة ؟

محمد أمين

كاتب بسكرتارية مجلس بلدى ميت غمر

الجواب

فى هذين السؤالين غموض ، ولم نفهم بالتحديد المراد منهما . لذلك نذكر ما يترتب على رضاع الولد من المرأة الأجنبية عسى أن يجد السائل فيما نذكر جوابا لسؤاليه :

مذهب الشافعى أن الولد إذا رضع من المرأة الأجنبية رضاعا محرما ترتب على هذا الرضاع ما يأتى :

١ — أن تصير هذه المرأة أمّ هذا الولد الذى رضع منها رضاعا محرما .

٢ — أن يصير صاحب اللبن أباه .

٣ — أن يصير إخوة هـذه المرأة أخوالَه ، وأخواتُها خالاتِه ، وأمُّها جدتَه ، وأبوها جدَّه .

٤ — أن يصير أبناؤها إخوته ، و بناتها أخواته ، سواء فى ذلك الصغيرة والكبيرة والتى رضعت معه والتى لم ترضع معه ، وسواء فى ذلك بناتها من بطنها و بناتها من الرضاع : كلهن يصرن أخواته .

ولا تحرم هذه المرأة ولا بناتها على أشقاء هذا الولد . والله الموفق .

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى

شرط فى الذبح

وورد الى إدارة المجلة أيضا هذا السؤال :

الى فضيلتى الأستاذين المكرمين الشيخ الحسينى سلطان والشيخ يوسف المرصفى . بعد السلام عليكما : وقفت على فتواكما فى مجلة نور الاسلام ، وهى :

١ — الذبح يكون بقطع الحلقوم والمرىء بشرط أن يبقى شىء من الجوزة نحو الرأس الخ .

فأرجوكما إفادتى عن الدليل على هـذا الشرط ، فإن كتب الفقه ذكرت قطع الحلقوم والمرىء فقط وكنت أحفظ هذه المسألة كما أفتيتما حتى سألنى بعض الإخوان عن الدليل فراجعت كتب الفقه التى بيدى فلم أجد الدليل ، فقلت : لعلى سمعت المسألة من بعض الفقهاء على غير مذهب الشافعى ، ولهـذا استبشرت بفتوا كما راجيا الدليل فى أى محل ، وأيضا إرشادى عن عدم ذكر المسألة فى معظم كتب فقه الشافعية لأنها مسألة مهمة ، فلماذا لا تذكر فى كل كتب الشافعية ؟ والسلام عليكم ؟

يوسف بن عيسى القناعى

الجواب

كتب الشيخ النبراوى فى حاشيته على الخطيب عند قول المصنف : « والمجزئ منها قطع الحلقوم والمرىء » ما نصه : « ثم لا فرق فى قطع ما ذكر بين كونه من أسفل العنق أو من أعلاه بشرط أن يبقى من الجـوزة المعروفة شىء فيما إذا كان القطع من الأعلى وإلا لم يحل » .

والدليل على هذا الاشتراط هو فعل النبى صلى الله عليه وسلم المنقول عنه ، وهو أنه كان يقطع الحلقوم والمرىء ، ولا يتحقق قطعهما إلا بهذا الشرط .

يوسف المرصفى — الحسينى سلطان
الشافعى — الشافعى

ما يجب على العوام من العقائد الدينية — القصاص ولى المقتول — الافراض

وورد أيضا الاسئلة الآتية :

١ — فى عوام المسلمين كثير من الرجال والنساء يجهلون عقائد التوحيد ، بحيث لو طولبوا بإقامة الدليل على صفة من صفات الخالق عز وجل كالقيام بالنفس مثلا ،

أو نوقشوا فى البعث أو الحساب أو الكتب السماوية أو ما شا كل ذلك ، لعجزوا عن الاجابة ، فهل هؤلاء يموتون عصاة أم كفارا كما يزعم البعض من الناس ؟ وهل أعمالهم الدينية صحيحة أم فاسدة ؟ وما هو الواجب عليهم معرفته من هذه العقائد ؟

٢ — قُتل رجل ظلما فاقتص ولى المقتول من القاتل بنفسه لعدم وجود الشهود التى تثبت الجناية أمام القضاء ، أو استأجر شاهدين لا علم لهما بالجناية فلقنهما مارآه من الحادثة وشهدا بذلك أمام القضاء : هل على الولى إثم فى ذلك ؟

٣ — اقترض رجل جنيها من صديقه ، وبعد زمن رده إليه بزيادة ، وكان الصديق لا ينتظر شيئا من هذه المقارضة سوى ثواب الآخرة : هل تعتبر هذه الزيادة من الربا ؟

البهى الحلوانى

الجواب

١ — الواجب على عوام المسلمين الجزم بالعقائد الدينية ولو عن دليل إجمالى إن قدروا عليه ، وإلا فيكفيهم التقليد ، على ما اعتمده أهل السنة . وأما إقامة الأدلة التفصيلية ودفع الشبه عنها فمن فروض الكفاية . ومن العقائد الدينية الايمان بالسمعيات كالبعث والحساب والكتب السماوية ، والايمان شرط فى صحة العبادات .

٢ — لا يجوز لمستحق القصاص أن يستوفيه بنفسه إلا بإذن الامام أو نائبه ، فمن استوفاه بنفسه بدون إذن الامام عصى واستحق التعزير ، لأن فى ذلك افتياتا على الامام . وأما تلقين الشهود الشهادة ليشهدوا على ما لم يروه فغير جائز .

٣ — الإقراض سنة لأن فيه إعانة على كشف كربة . ولو شرط المقرض على المقترض أن يرد ما اقترضه مع زيادة فسد القرض وحرم عليهما . أما لو رد المقترض زيادة بلا شرط فحسن ، ولا يكره للمقرض أخذها ، لخبر مسلم أنه صلى الله عليه وسلم اقترض بكرا ورد رباعيا وقال : إن خياركم أحسنكم قضاء .

والبكر : البعير الذى دخل فى السنة السادسة ، والرباعى : الذى دخل فى السنة السابعة .

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى

أحكام فى زكاة التجارة

وورد الى المجلة من حضرة صاحب التوقيع الاسئلة الآتية :

ما حكم الشارع فى زكاة التجارة : أيخرج الزكاة من النقد أم من غيره ؟ إذا كان لمحل التجارة ديون على موسرين وأخرى على معسرين فهل يزكى عن الدينين أم يزكى عن دين الموسرين فقط ؟ وهل يزكى مما أنفقه على نفسه وعياله أثناء الحول ؟ وهل يجزئ عن الزكاة أن يتنازل التاجر لمدينه الفقير عما عنده ؟

نرجو التكرم بإفادتنا هذه الأحكام على مذهب الشافعى رضى الله عنه ؟

محمد أحمد الاختيار

الجواب

إذا حال الحول على عروض التجارة وجب تقويمها ، ثم إذا كان فى محل التجارة نقود أو له ديون ، ضم ذلك الى قيمة البضاعة ، فاذا بلغ المجموع نصابا ، وجبت فيه الزكاة وهى ربع عشره .

وتقوّم البضاعة بالنقد الذى اشتريت به : فإن اشتريت بذهب قومت بالذهب ، وإن اشتريت بفضة قومت بالفضة . ومعلوم أن أغلب المعاملة بمصر الآن بالورق النقدى (البنكنوت) والعمل جار على أن قيمة الورق النقدى معتبرة بالفضة ، فاذا اشتريت عروض التجارة بالورق النقدى قومت به أو بقيمته من الفضة .

والمعمول به فى مذهب الشافعى أنه لا يجزئ إخراج شىء من البضاعة عن زكاة التجارة ، بل يتعين أن يكون ذلك من النقد .

وإذا كان لمحل التجارة دين على موسر غير مماطل ، وجب إخراج زكاته مع زكاة البضاعة وإن لم يقبضه صاحب المحل ، وإن كان الدين على معسر أو على موسر مماطل فلا يجب إخراج زكاته إلا بعد قبضه .

ولا زكاة على التاجر فيما أنفقه على نفسه وعياله أثناء الحول ، لأن حق الفقراء لا يتعلق بمال التجارة إلا آخر الحول .

وإذا كان بعض الفقراء مدينا بشيء من مال التجارة فلا يجزئ عن الزكاة أن يتنازل له التاجر عما عنده ، بل لا تبرأ ذمة المزكى إلا بالدفع لمستحق الزكاة . والله الموفق ؟

يوسف المرصفى الشافعى ، الحسينى سلطان الشافعى

الزواج والحج

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

شاب فى السادسة والعشرين من عمره يريد الزواج ويريد الحج ، ومعه الآن مبلغ لا يكفى إلا الزواج أو الحج ، وعلى والده ديون لو قام هو بتسديدها لمكث من غير زواج ومن غير حج ثلاثة أعوام ، وهو يخشى لو مكث تلك المدة من غير زواج أن يقع فيما لا يرضاه الشرع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يريد الحج من سويداء قلبه .

أرجو من حضرتكم أن ترسم له خطة شرعية يسير على منوالها وإفادتى ذلك .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ عبد النور أحمد

مدرس بمدرسة مشتول القاضى

الجواب

الزواج مقدم على الحج لمن يخشى الوقوع فيما لا يرضاه الشرع لو لم يتزوج ، وكذلك ينبغى لهذا الشخص أن يقدم زواجه على أداء ديون والده . والله أعلم ؟

الحسينى سلطان ، يوسف المرصفى

الشافعى الشافعى

دائرة المعارف الاسلامية

رأيها فى أبى هريرة

للمستشرق جولد سيهر رأى فى الصحابى الجليل ابى هريرة رضى الله عنه نشره فى العدد السابع من المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية .

هذا الرأى لا يستند الى بحث تاريخى ، ولا سند علمى ، ونحن نود أن ننقل ما قاله هنا ونعقب عليه بما يبين زيفه ، ويظهر دخله .

(٢)

قال جولد سيهر فى ص ٤١٨ من العدد المذكور ، فى شأن أبى هريرة ما نصه :

« وتظهرنا طريقة روايته للأحاديث التى ضمنها أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر على ما امتاز به من روح المزاح ، الأمر الذى كان سببا فى ظهور كثير من القصص (ابن قتيبة ، طبعة فستنفلد ص ١٤٢) ويظهر أن علمه الواسع بالأحاديث التى كانت تحضره دائما (تشغل الأحاديث التى رواها أبوهريرة أكثر من ٢١٣ صفحة فى مسند ابن حنبل : ج ٢ ص ٢٢٨ — ٥٤١) قد أثار الشك فى نفوس الذين أخذوا عنه مباشرة ، والذين لم يترددوا فى التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر (انظر أيضا البخارى ، فضائل الأصحاب رقم ١١) وقد اضطر أحيانا أن يدفع عن نفسه تقوّل الناس ، كل هذه الظروف تجعلنا نقف من أحاديث أبى هريرة موقف الحذر والشك ، وقد وصفه شبرنجر (بأنه المتطرف فى الاختلاق ورعا) ، ويجب أن نلاحظ هنا أن كثيراً من الأحاديث التى تنسبها الروايات إليه إنما قد نحلت عليه فى عصر متأخر » اه .

وهذا القول فى أبى هريرة يتضمن طعونا عدة ، وكلها تدور حول عدم أمانته فى نقل الأحاديث ، فقد ذكر جولد سيهر أنه مختلق ومسرف فى الاختلاق ، وأنه كان يفعل ذلك

بداعى الورع ، وأن الذين أخذوا عنه مباشرة قد شكوا فيما ينقل ، وعبروا عن هذا الشك بأسلوب ساخر ، وأنه كان يضمن أحاديثه أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر ، وذلك يدل على روح المزاح التى كانت فيه والتى كانت سببا فى ظهور كثير من القصص . وصاحب هذه المطاعن يعزو مطاعنه الى كتب إسلامية ليلقى عليها ثوبا خلابا ليوقع فى روع الناس أنها صحيحة ، وهذه طريقة فيها كثير من الخداع واللبس والتزوير . وسنميط اللثام عما فيها وبالله التوفيق :

إن أبا هريرة الذى يجرحونه هذا التجريح ويسيئون اليه هذه الإساءة ، هو من جلة الصحابة ومن أوسعهم رواية ، بل هو أوسعهم رواية لا مستثنيا أحدا إلا ابن عمر . وتجريح هذا البحر الذى ملئ علما وأداه الى من حملوه عنه وأدوه الى من بعدهم حتى وصل الينا ، تجريح لهذا العلم الغزير ، ورفع للثقة عن كل مروياته . وفى هذا فساد كبير . ولو كان لهذا الطعن وجه من الصحة لاحتمل ، ولكنه طعن باطل لاحق فيه .

هذا الإمام قد روى عنه ثمانمائة من أهل العلم كما قال البخارى ، وهذا فيه الدلالة على ثقتهم به ، لأنهم لو لم يثقوا به لما رووا عنه ، وهو ثبت ثقة عند الصحابة وأهل الحديث .

قال ابن عمر : أبو هريرة خير منى وأعلم بما يحدث .

وقال طلحة بن عبيد الله أحد العشرة : ولاشك أن أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع . وروى النسائى أن رجلا جاء الى زيد بن ثابت فسأله عن شىء ، فقال زيد : عليك أبا هريرة ، فإنى بينما أنا وأبو هريرة وفلان فى المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكره إذ خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم حتى جلس إلينا فسكتنا ، فقال عودوا للذى كنتم فيه ، قال زيد فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافق على دعائنا ، ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إنى أسألك ما سألك صاحباى وأسألك علما لا ينسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آمين . فقلنا : يارسول الله ونحن نسأل الله تعالى علما لا ينسى ، فقال : سبقكم بها الغلام الدوسى .

وكان كثير الحفظ ، شديد الضبط ، شهد له بذلك أهل العلم والثقات ، قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره .

وحدث الأعمش عن أبى صالح قال : كان أبو هريرة أحفظ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان : أرسل مروان الى أبى هريرة فجعل يحدثه وكان أجلسنى خلف السرير أكتب ما يحدث به حتى إذا كان فى رأس الحول أرسل إليه فسأله وأمرنى أن أنظر ، فما غير حرفا عن حرف . الى غير ذلك مما لا نطيل بذكره . فمن أراده فليطلع على كتب الرجال .

هذه آراء الثقات أصحاب هذا الشأن فيه ، فمن عدلوه فهو الثبت الذى لا يجرح ، ومن يهرجوه فهو الزائف الذى لا يعدل ، ومن حظى بمثل هذا الثناء من هؤلاء العلماء الأفاضل والجلة الأماثل فلا يضيره ما يقال بعد ذلك فيه .

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لئامها

وكان بحسبنا هـذا الإجمال فيه ، ولكن لا بد لنا من أن نعرض لهـذه الشبه التفصيلية التى أثاروها ونفندها :

لقد زعم أصحاب الدائرة أن علمه الواسع بالأحاديث أثار الشـك فى نفوس الذين أخـذوا عنه مباشرة فـلم يترددوا فى التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر . ثم أحالوا القارىء على البخارى فى كتاب فضائل الأصحاب رقم ١١ .

وهم يريدون بهذا ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد المقبرى أن أبا هريرة قال : إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة وإنى كنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنى حتى لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير ، ولا يخدمنى فلان ولا فلانة وكنت ألصق بطنى بالحصباء من الجوع — الى آخر الحديث .

هذا هو الأثر الذى فى البخارى ، والذى أراد أصحاب الدائرة أن يمتطوه للطعن

على أبي هريرة ، والمنصف يرى من هذا الأثر أن بعض الناس قال : أكثر أبو هريرة تعجبا من كثرة حفظه وروايته ، وحق لهم أن يعجبوا ، لأن أبا هريرة صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من ثلاث سنين فقط وأكثر الرواية عنه . والمتعجب من شيء يحتاج الى بيان السبب ، فإذا ظهر السبب بطل العجب . وقد أظهر لهم السبب في كثرة روايته وحفظه ، وهو أنه كان ألزم الناس لرسول الله ، وأنه ما كان يعنيه الغنى وإنما كان يعنيه الأخذ عن رسول الله ، وكان يلصق بطنه بالحصباء من الجوع ، وما كان يشغله عن رسول الله تجارة ولا زراعة ، فحفظ ما لم يحفظوا ، وسمع ما لم يسمعوا ، فلما بين لهم السبب سكتوا عنه .

ولنسلم ما زعمه أصحاب الدائرة من أن الناس حين قالوا أكثر أبو هريرة كانوا شاكين في روايته لا متعجبين ، ولكن المطلع على تاريخ الواقعة يرى أنهم لما أظهر لهم ما أعانه على الحفظ سكتوا عنه وتركوه يحدث وأخذوا عنه . ولو استمر شكهم لما تركوه يحدث ولما أخذوا عنه . وهذا الأثر يدل على عناية أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بحديث رسول الله وتحريهم فيه ، وما كان يمنعهم في سبيل التحري والضبط مانع ، فإنهم لما استقلوا زمن صحبة أبي هريرة واستكثروا ما يرويه على هذه المدة لم يمنعهم ذلك من أن يجاهروا أبا هريرة بما في نفوسهم ، فلما بين لهم سببا معقولا اقتنعوا بما قال ، وتركوه يروي عن رسول الله وأخذوا عنه ولم يمنعوا أحدا من الأخذ عنه ، وكان علي رضي الله عنه إذا حدثه محدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم استحلفه فإن حلف له صدقه .

فإذا كان أصحاب الدائرة أخذوا من هذا الأثر أن الذين أخذوا عن أبي هريرة مباشرة شكوا فيه وعبروا عنه بأسلوب ساخر ، أفما كان يجب أن يأخذوا من تركهم إياه يحدث بعد ذلك مدة عمره — وقد عمّر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا من خمسين سنة — أنهم اقتنعوا بتعليله ، وزالت هذه الخلجة من نفوسهم لما بين لهم من السبب

فى كثرة حفظه وحسن ضبطه ؟ ونحن نعلم من الوقائع بين أبى هريرة وبين عمر وعثمان وعلى وعائشة أكثر مما يعلمه جولد سيهر ، ولكننا نستقرى روح التاريخ فنعلم أنهم وثقوه إذ لو كانوا يرون فى حديثه بأسا لكفوه عن التحديث ولباعدوا بينه وبين الناس ، وهم من نعلم فى المحافظة على حديث رسول الله ، وفى الخوف أن يتسع الناس فيه ويدخله الشوب ويقع فيه التدليس والكذب . وأما زعمهم أن روايته ضمنها أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر ، وذلك يدل على ما امتاز به من روح المزاح ، الأمر الذى كان سببا فى ظهور كثير من القصص ، وعزوهم ذلك الى ابن قتيبة ، فليس شىء أوغل فى التضليل والإيهام من هذا .

نحن لا نعلم ابن قتيبة قد نسب الى أبى هريرة شيئا من ذلك ، ولا نعلمه إلا مدافعا عنه مبينا صدقه وأمانته ، رادا على من انحرف عن سبيل القصد فيه كالنظّام .

ولو شئنا لذكرنا ما قام به ابن قتيبة من تشييد بذكر أبى هريرة وثناء عليه وإجلال وإعظام له ، ولكن المقام لا يتسع لذلك . فنحيل القارىء على كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٤٨ وما بعدها .

ولا ندرى ما هى الأحاديث التى ضمنها أتفه الأشياء والتى كانت سببا فى ظهور كثير من القصص ، وكان يجب على أصحاب الدائرة أن يبينوها لنا لنناقشهم فيها ، وكان يجب عليهم إذ عزوا الى ابن قتيبة أن يسموا الكتاب الذى لابن قتيبة ، فإن لابن قتيبة مؤلفات كثيرة وقد طبع منها شىء كثير .

فلو عزوا الى كتاب معين لرجعنا اليه ، ويقيننا أننا كنا نبين لهم أن ما فى ابن قتيبة ليس كما فهموه ؛ إذ لا يعقل أن يثنى ابن قتيبة الثناء المستطاب على أبى هريرة ثم ينسب اليه ما ذكره أصحاب الدائرة .

وأما ما نقلوه من وصف شبرنجر لأبى هريرة بأنه المتطرف فى الاختلاق ورعا ، فلسنا ممن يؤمن بقول شبرنجر وغير شبرنجر من المتطرفين فى الاختلاق

على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تضليلا للمسلمين وتشويشا على الدين وإيذاء للحقيقة وسترا للواقع ، وكان بحسبنا أن نقول : هذا طعن لا مبرر له وتجريح لا يستند على سند .

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

ولكننا سنبين هنا طبيعة عقلية أبى هريرة ، وأنه يستحيل عادة أن يكون صاحب هذه الطبيعة كذابا ومختلقا على الرسول . وهذا بحث نفسى نراه ينفع فى مثل هذا الموضوع :

إن أبا هريرة كان من الدين والورع بمكان عظيم ؛ فقد روى عن أبى عثمان النهدى قال : تضيفت أبا هريرة سبعا فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا : يصلى هذا ، ثم يوقظ الآخر فيصلى ، ثم يوقظ الثالث . وروى أنه كان له خيط فيه ألف عقدة لا ينام حتى يسبح به .

ومن كان بهذه المكانة من الدين والورع والايمان لا يجرؤ على أن يرتكب كبيرة الكذب على رسول الله ويصر عليها الى أن يموت ، مع أنه يعلم أن الكذب عليه موجب لإفساد الدين وإدخال ما ليس منه فيه .

وقولهم إنه المتطرف فى الاختلاق ورعا كلام متهافت ، لأنا لا نعلم الورع إلا مانعا من الاختلاق على الناس فضلا عن الاختلاق على رسول الله . وكيف يختلق أبو هريرة على رسول الله وهو راوى حديث « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وكان يبدأ بهذا الحديث عند ما يريد أن يحدث ؛ فرجل سمع من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ووعاه وأداه ، وكان يستذكره ويذكر به ويقدمه أمام تحديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن ورع تقى ، يستحيل فى العادة أن يكذب على رسول الله ، فضلا عن أن يتطرف فى الكذب عليه ، وأن يرى أن الاختلاق والكذب عليه دين وورع .

وأما قولهم إن كثيرا من الأحاديث التى عزيت الى أبى هريرة نحلت عليه فى عصر

متأخر ، فنحن نسلم أن أحاديث كثيرة وضعت وعزيت زورا الى أعاظم المحدثين مثل أبى هريرة ، ولكن رجال نقد الحديث قد عنوا ببيان الموضوع منها ، وبهرجوا الزائف ، ولم يخف عليهم بطله ، وأفسدوا على الوضاعين طريقهم .

ويظهر أن رجال دائرة المعارف الاسلامية لهم غرض فى أن يشوهوا الرجال الذين للمسلمين فيهم اعتقاد حسن ، ويوقعوا الشك والارتياب فى نفوسهم منهم ، فقد عرضوا بعفة (السيد أحمد البدوى) إذ قال فولرز فيها : « وأنا الآن أميل الى الاعتقاد بأن النضال الذى ذكرناه بين أحمد البدوى وفاطمة بنت برى والذى لم يفسر بعد ، أعمق من أن يكون قاصرا على ترويض امرأة بدوية جامحة » .

وطعنوا فى شخصيته وعقله وعلمه فقالوا :

« ويؤخذ من سلوك أحمد البدوى أنه كان من طبقة الدراويش الدنيا الذين هم أشبه شىء بطائفة اليوجا فى الهند ، كما كانت شخصيته ضئيلة القدر من الوجهتين العقلية والأدبية » الى آخر ما قاله أصحاب الدائرة .

ومن قرأ تاريخ السيد أحمد البدوى علم أنه كان كثير العبادة ، كثير الصمت ، لا يفصح عما يجول فى خاطره إلا إشارة ، معتزل الناس ، كثير الصيام ؛ وكان هو وأصحابه يلزمون السطوح لعبادتهم حتى لقبوا بالسطوحية ؛ وكان دائم الوله بالله .

ومن كان فى هذه الحال من التقشف والزهد ارتدت عنه سهام المستشرقين خائبة ، ونبت عنه مضاربهم ، وكان معهم كما قال الشاعر :

وإنا وما تلقى لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

وبعد فإذا كان أصحاب دائرة المعارف قد ألفوها لغرض أن تكون صورة صحيحة للمعارف الاسلامية ، فما أبعدها عن أن تكون كذلك ، وما أبعدهم فيها عن نيل هذا الغرض ؛ وإذا كانوا قد ألفوها لغرض تقبيح حال المسلمين فى نظر الغربيين ، وتشويش عقائد المسلمين ، وفتنة الشباب فى دينهم ، فهى صالحة لهذا الغرض ، مؤدية له .

وإنى لأرتعد فرقا كلما فكرت فى أن هـذه الدائرة ستنتشر وستصبح مرجعا للشبان المتعلمين تعليما مدرسيا فيما يريدون من معلومات عن الاسلام والمسلمين.

لو أن أمام النـاس دائرة معارف إسلامية حـررها رجال يعتمد عليهم فى نقل المعارف الاسلامية الصحيحة، وكانت بلغة فى متناول الجمهور، لكان ضرر نشر هذه الدائرة أقل.

أما وليس أمام الناس مثل هذه الدائرة، والكتب الاسلامية فيها صعوبة على غير الذين لم يزاولوها، ولم تكتب بالطريقة العصرية السهلة التى توافق روح هذا العصر، وهى مفرقة غير مجتمعة، فليس أمام شبان هذا العصر والعصور الآتية مرجع عن المعلومات الاسلامية إلا هذه الدائرة (وفيها من الأغلاط ما قد ذكرنا بعضه).

وقد فكرت كثيرا فى ملافاة أو تقليل بعض هذا الضرر فهدانى البحث الى أن خير طريق تتبع الآن — إذا كان لابد من نشر هذه الدائرة — أن يضم عالم أو عالمان الى مترجمى الدائرة، فيطلع على الترجمة قبل طبعها، وكلما رأى فسادا فى المعلومات وضع المعلومات الصحيحة فى صلب دائرة المعارف معزوة الى صاحبها، فنحصل بذلك أمرين: أولهما الأمانة فى النقل. ثانيهما تصحيح المعلومات للأجيال الحاضرة والمستقبلة.

محمد عرفه
وكيل كلية الشريعة الاسلامية

الحكم البالغة فى الشعر

قال موسى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم:

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما	تكرهت منه طال عتبى على الدهر
الى الله كل الأمر فى الخلق كلهم	وليس الى المخلوق شىء من الأمر
تعودت مس الضر حتى ألفته	وأسلمنى طول البلاء الى الصبر
ووسع صدرى للأذى الأنس بالأذى	وإن كان أحيانا يضيق به صدرى
وصيرنى يأسى من الناس راجيا	لسرعة لطف الله من حيث لا أدرى

religion which sets reason as an arbiter between truth and falsehood, calls to knowledge in many of its verses and urges to reflection and contemplation of all the Lord's creation, such a religion could not be accused to be inimical to science. The critic who levels such an accusation against Islam does not only contradict logical reasoning but is also completely ignorant of the subject he treats.

Islam calls the whole world to reflection and contemplation on the lines established in its Holy Book, and should mankind follow the teachings given by it they would find a way to put an end to the abuses which threaten to disrupt the social order of the world and render its industrial progress a veritable curse in stead of being a source of peace and tranquility to mankind.

It is significant in this connection that The Koran has made the exaltation of Islam over all other religions, dependent on reflection and contemplation of self and creation and not on any other means of force or territorial aggrandisement. Thus saith The Lord:

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" We will shew the unbelievers our signs in distant climes and in their own selves by showing them the wonders wrought in the creation of man, till it becomes manifest unto them that the Koran is the truth"

(*Baidawy's Commentary*).

become the standard-bearers of science for many a century.

Nor was Islam content with the contemplation and study of creation. It went still further and urged man to the investigation of the conditions of past nations and the measure of civilisation they had attained as well as their religions and the causes which contributed to their domfall and destruction. In this connection The Lord saith :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Have they not journeyed through the earth and seen what hath been the end of those who came before them? They were far mightier and they broke up the earth for water and minerals and tilled the soil for seed and rendered the land more populous and prosperous, and their apostles came to them with evident proofs of their mission. Allah would not wrong them but they wronged themselves"

(*Baidawy's Commentary*).

A people to whom such revelation was given would not neglect undertaking scientific expeditions to investigate the state of past nations and the measure of civilisation they had attained. Such investigation will naturally lead to the study of history and sociology with all possible questions and problems arising from them.

Thus one may gather from the preceding verses and the like, that Islam urges its followers to consider all The Lord's creation in both heaven and earth as well as man himself and the human communities. Indeed the subjects of different sciences do not go beyond that sphere and so one could say that Islam has embraced all sciences.

The opponents of Islam who say that it contradicts science seem to forget the most essential quality of that Religion. For indeed a

This clearly urges man to the study and consideration of animals, earth, mountains and heaven. In each of these realms there is an infinite field of study, a science which requires investigation and research. It is not surprising, therefore, that Moslems should seek this knowledge with all means in their power. But the wonder is that they should not seek it. The Lord saith:

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »

ترجمة تفسير هذه الاية نقلا عن البيضاوى

" Do they not (the unbelievers) contemplate the kingdom of heaven and earth and all things that Allah hath created, and consider that peradventure their end may be drawing near. In what other Book will they believe if they reject the Koran"

(Baidawy's Commentary).

In another verse The Lord saith:

« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" And many are the signs of Allah's being and providence in the heavens and the earth which they will pass by and turn aside therefrom"

(Baidawy's Commentary).

There could be no stronger admonition than that contained in the verses above for neglecting the study of those sciences which leads to a clearer and more conclusive understanding of the universe. It is for this reason that Moslems did not content themselves with a mere veneer of knowledge but they sought its very essence and have thus

« فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ : أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنعَامِكُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Let man consider his food and how it is provided: We cause rain to pour down in copious measures, then We cleave the earth into clefts, and We cause grain to grow in it, and grapes and clover, and the olive and the palm, and gardens of thick trees, and fruit and herbage for your own use and for your cattle"

(*Baidaw'ys Commentary*).

From the preceding verse, one may see that The Lord has required man to know how the food he eats is provided and urged him to reflect on the way it was produced. Would not such a study lead man to the science of Botany and would it not be natural that he would pursue that study and carry out research work to further its development ?

Again The Lord saith:

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Do they not consider the camels, how they are created, and the heaven how it is raised without support, and the mountains how they are fixed, and the earth how it is spread out ?"

(*Baidawy's Commentary*).

"And in the earth there are signs for those who have conviction; and in your own selves, can't ye see?"

(Baidawy's Commentary).

And :

« فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

" Let man, therefore, consider of what he was created. He was created of poured-forth fluid, which issueth from the loins of man and breastbones of woman"

(Baidawy's Commentary).

In the two preceding verses The Lord urges man to consider and reflect on himself and his origin.

Phychology which comprises the study of the different instincts and tendencies of man, is derived from man's consideration of his soul. It is not surprising, therefore, that Moslems should go deeply into that science so long as the result of such a study will lead them to the truth.

Biology is derived from the consideration and study of the origin of man and contains wonders relating to the growth of the human germ, its development through different stages inside the womb and the changes it undergoes in the process of creation.

Again The Lord saith:

safeguard himself against moral inanimation that tends to render him amenable to misguidance and delusion.

It is for this reason that Moslems are the most unwieldy people in regard to conversion and that they hold fast to their religion more than any other people.

Human nature is predisposed to think of the origin from which it come, its own different faculties and the end which it will eventually came to. It is apt to consider and reflect upon whatever lies before it including plants, animals, metals, human communities, plains, valleys and mountains. It even soars above this to inquire into the clouds and heavenly bodies and did not even stop at that but has gone further to inquire into the mystrious powers beyond matter and the other worlds. Thus the human soul follows the path which The Lord has set for it to attain universal knowledge.

If man therefore shuts himself from reasoning and reflection, it is only on account of the casual pernicious teachings which were forced upon him and to which he had to submit, as he did in the middle ages, when ignorance and delusion prevailed and learning and arts were neglected. Humanity was undergoing its most severe ordeal and it was then that The Lord sent Mohammed (on whom be peace) to deliver mankind from the crushing burden of oppression under which they laboured and to lead them unto the straight path which The Lord has set for His creation and has rendered suitable for their nature and consistent with their interest.

It was for this reason that Islam insisted upon the necessity of contemplating the soul and reflecting on creation. It urged its followers to look for the signs and manifestations of The Lord in His creatures and His wonderful creation. The Holy Koran is replete with verses pointing to the beauty and grace of The Lord's creation as well as to its greatness and usefulness and urging at the same time to contemplating and reflecting on them and delving into their secret.

In this connection The Lord saith:

« وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

made him crave forgiveness. If he dared again to commit the same offence, he was condemned to be burnt alive or confined in dark dungeon for the rest of his life.

In that age of universal oppression the Prophet of Islam (on whom be peace) was sent with the Religion of truth to bring out mankind from darkness into light. Every one was required to use his mind and deduce things as far as his mental powers could carry him, seeking support of the learned ones around him to augment his knowledge and perfect his moral attainments.

By so doing, Islam has sought to realise one of its greatest aims, ie to stimulate the faculties of the mind to the proper discharge of their functions and to arouse them to the activity for which they were created so that the human individuality may become in full possession of its essential qualities and many gain a natural immunity against teachings which are inconsistent with science and reason.

The energies of those misleading heads of religions were directed to the restriction and even prohibition of mental speculation. They blocked the way to the freedom of thought and to independent opinion so that they may gain influence over their followers by means of superstitions and delusions. And in this manner people have accepted as true all that was given to them even such beliefs as excited surprise and ridicule. A cursory survey of the conditions of nations in this connection will show the inconceivable extent to which they submitted to such superstitions.

Islam was revealed to disperse the clouds of misguidance which hung so heavily over the minds of men and prevented them from contemplation, reasoning and deducation. The follower of Islam was removed from the darkness of ignorance into a world of light in which he could see the truth and unhesitatingly follow it impelled by his moral faculties.

The learned men of Islam have established what might be considered a logical consequence to that momenteous moral reform. They hold that the belief of the imitator is not accepted. For imitation could equally pertain to truth as much as to falsehood and Islam has censured bath imitation and imitators and has urged to contemplation and reasoning. It did not impose upon men duties beyond their power and the most ignorant of people will certainly not lack a proof to convince him of the truth of Islam. The idea is that every one should appreciate the responsibility imposed upon him and should use his mental faculties in reasoning and deduction in order to

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

XII.

CALL TO REFLECTION AND CONTEMPLATION.

At the time when Islam was revealed, the heads of religions had confined reflection and contemplation within such narrow limits prescribed by them that they did not go beyond the affairs of ordinary every-day life. Beyond that, reflection and contemplation of the soul, universe and creation which may have lead to the establishment of a science or the discovery of a new doctrine, was considered as meddling on the part of the people in what did not concern them and was met with criticism by those heads of religion. Should they find in it a departure from the restricted and stereotyped knowledge at their disposal, they brought its author to account and

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in " Nour-El-Islam " Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

- ١٦ -

دعوته الى الصراط المستقيم

لكل كائن طريق ممهد قويم يصل بالقيام عليه الى ما خلق له من الشئون حتى يبلغ كماله الخاص به . فإن لم يسلك هذا الطريق وعرج ذات اليمين أو ذات الشمال ، تقاذفته الطرق المتداخلة ، فضل فيها عن غايته ضلالا بعيدا .

فالجمادات والنباتات لحرمانها من الإرادة والاختيار ، قد تداركها الخالق بنواميس حكيمة لا تميل عن طريقها القويم ولا قدر شعرة ، فتراها تتحلل وتتركب ، وتميع وتتصلب ، ويعتريها كل مايتصور من ضروب الكون والفساد ، فيتم ذلك كله على نظم مقررة ، وسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول .

والحيوانات لضئولة القدر الممنوح لها من الإدراك والمعرفة ، وعدم كفايته فى هدايتها الى وسائل معيشتها ، جعل الله لكل نوع من أنواعها شرعة كفيلة بتربيتها وتكميلها ، وبثّها فى آحادها ، فهى تقوم بإلهام إلهى على صراط مستقيم فى جميع أمورها ، إلا هنات لا مناص منها تناسب القدر الممنوح لها من الاختيار والإرادة .

أما الإنسان فإنه مراعاة للنصيب الكبير الذى أوتيه من العقل والعلم والحكمة ، لم يطبعه الله على جبلة مستقيمة لا تعرف العوج كما طبع الحيوانات على العمل بشرائعها ، فوكله لعقله يستهدى به فى تصرفاته ، ويتخذ من مدركاته علما يسهل عليه من أسباب العيش ، ويحسّن من وسائله ، ومَنّ عليه بشرائع سماوية أوحاها الى المصطفين من خلقه

فى كل جيـل من أجيال البشرية ، ليستضىء بنورها فى قطعه مفاوز حياته ، وسلوكه الى الزلفى من مبدعه .

فالطريق القويم الذى يصل بالانسان الى كماله يكون محاطا والحالة هذه بكثير من الضلالات لا يتبينه الانسان من بينها إلا بجهد عظيم ، وقد بذلت الفلسفة والعلوم جهودها كلها فى سبيل تمييزه عن الطـرق التى تحتوشه ذات اليمين وذات الشمال ، لأن الانسان مطبوع على البحث عن الطريق المستقيم ، والإحفاء فى تطلبه ، لا يصرفه عنه إلا هوى متغلب ، أو قصور مستحكم .

عنى الاسلام عناية خاصة ببيان الصراط المستقيم وبالدعوة إليه ، ونبه الى أنه المقصود بكل ما أمر الله به ونهى عنه فى كتابه الكريم ، لأنه الطريق الموصل الى حضرته ، والوصول إليها هى غاية الغايات ، والثمرة المقصودة من جميع العبادات ، فقال تعالى : « وهُدُوا الى الطيب من القول وهُدُوا الى صراط الحميد » وقال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » وقال تعالى : « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

وقد امتن الله على رسله بأنه هداهم الى الصراط المستقيم فقال تعالى فى حق موسى وهرون : « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » . وقال فى حق خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » .

ولـكى يكون المؤمنون على ذكر من صراط الله المستقيم جعله ماثلا فى فاتحة كتابه ، وأوجبها فى الصلاة ، فترى مئات الملايين فى العالم يرددون كلمتى الصراط المستقيم فى مشارق الأرض ومغاربها مراراً عديدة فى كل يوم .

ولأن السير على الصراط المستقيم هو الغاية القصوى من الحياة الدنيا جعله الله مكافأة لهم على تفانيهم فى العبادة ، وتهالـكهم على الزلفى منه ، فقال تعالى : « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

كل أهل الملل والنحل يدعون أن ما هم عليه صُرُط موصلة الى الكمال والى الله تعالى . نعم ، إنهم على صُرُط ولكن بعضها انحرف أهلها عن الجادّة فصرفوا عن صراط الله المستقيم ، وتأدوا الى سبل تقذف بهم الى متاهات يضل فيها العقل ويحار الدليل . فالوصف المميز الوحيد لطريق الله هو أنه مستقيم لا عوج فيه ، واليه يشير الله بقوله : «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، فوصاة الله تعالى للمؤمنين أن يتحروا صراط الله من بين جميع الصرط التي تدفعهم شئون الحياة لسلوكها ، فالحائز لهذا الوصف المميز وهو الاستقامة ، هو طريق الله ، وما عداه فطرق شيطانية لا توصل الى خير .

ليست استقامة الصرط واعوجاجها من الأمور التي تعمى على الذين ينظرون بعقولهم ، وإلا لما كلف الله بها عباده . ونحن نوجز الكلام في بيان هذا الأمر فنقول :

الشرائع لا تخرج عن كونها عقائد وعبادات ومعاملات ، فاذا أردت أن تتبين أيها على الصراط المستقيم ، فتأمل في هذه الأقسام الثلاثة كل على حدة على الأسلوب الذي يشير به العقل الفطري ، تر أنها في باب العقائد قد اختلفت في ذات الله : فمنها ما عددت تعديداً صريحا ، ومنها ما جسمت ، ومنها ما شبهت ، ومنها ما وحدت المتعدد ، وكل هذا لا يستقيم في العقل ، ولا يتفق والعلم .

ولا أستطيع في هذه العجالة أن أحصي ما دُس في بعض هذه الأديان عن النبوة والأنبياء ، وعن الملائكة وكتب الله ، وعن اليوم الآخر ، فقد جمعت فيها المتناقضات وحشرت الخرافات .

وأما في قسم العبادات فقد دس فيها الى جانب عبادة الله عبادات أخرى فقديما عبد الناس أنبياء وملائكة وغيرهم يزعمونهم شركاء لله أو يقربون اليه زلفى تعالى الله عما يقول المبطلون علوّا كبيرا .

وفي قسم المعاملات تراها قد فرقت بين الطوائف وبين الآحاد على حسب ثروتهم ،

فأسرفت فى منح الامتيازات للأقوياء، ومنع الإنصاف عن الضعفاء، ولا يصدر مثل هذا الظلم عن حَكَمٍ عدل، فكيف عن الله الحق؟

فالصراط المستقيم لا يوجد فى جملة هذه الشرائع التى انحرفت عن الجادة كما تدل عليه بداهة العقل لمن يكون غير متورط فيها بحكم الوراثة، أو بحكم القومية أو المصلحة المادية.

فإن وجهت نظرك الى الاسلام ونظرت فى شريعته لم تمالك نفسك من القول بأن هذا هو صراط الله المستقيم حقيقة، لأنك تجده يأمرك بعبادة الله مطالبا إياك بالدليل على وجوده من طريق النظر فى آثاره، والتفكر فى مصنوعاته، والتأمل فى أعلام الكون وبيناته، ثم يحذرك أن تتجاوز هذا الى الطموح لاكتناه ذاته، والتطاول لتحديد صفاته، قاطعا بأن المخلوق يعجز أن يكتنه حقيقة الخالق، ولو توسل لذلك بكل مايتخيله من الوسائل: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما» «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير». «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير».

أما من ناحية العبادة فان الاسلام يمحضها للخالق لا يشرك معه أحدا من خلقه، ولو كان ملكا مقربا، أو رسولا مكرما، أو قديسا متبتلا، ويمزج فيها بين مطالب الأرواح ومصالح الأجساد بحيث يؤدى العمل بها الى ترقية الطبيعتين، وتحصيل السعادتين.

أما من ناحية المعاملات فان الاسلام فرض على أتباعه العدل المطلق والمساواة بين الأقوياء والضعفاء، وبين الشرفاء والوضعاء، لا فرق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون، أو لغة ولغة، وأمر أن يبنى على هذا الأساس كل ما يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض، وكل ما يسن لهم من النظم، ويوضع من التدابير.

ويرى الناقد البصير أن كل ما فى الاسلام مما يتعلق بالأخلاق والآداب الشخصية والاجتماعية مفرغ فى أرفع قوالب الحكمة، ومتمش مع أصوله الأولية من مراعاة العلم والعقل والحق. فهذا الصراط السوى بين تلك الصرط الملتوية المعوجة يظهر واضحا

وضوح الشمس فى ضحوة النهار ، لا يصرف الانسان عنه إلا جهل مطبق ، أو وراثة متغلبة ، أو هوى متسلط .

فى الكتاب الكريم تحضيض كبير على النظر فى الكون ، والتفكر فى مصنوعات الله فيه ، والتأمل فى آياته ، ولا مشاحة فى أن هـذا النظر والتفكير والتأمل يؤدى الى إدراك الكثير من صفات الله كالعـدالة التى لا تفلت منها الذرة فما دونها ، وكالحكمة التى أفيضت عليها ، والإبداع الذى أفرغت فى قالبه ، والرحمة التى دعت الى إيجادها ، والنظام الدقيق الذى قامت عليه ، وكل هذه الصفات يُطلب الى الانسان أن يتوخاها فى أعماله ومعاملاته ، وقد أُمرنا أن نتخلق بأخلاقه تعالى ، وأن نتخذ لأنفسنا مثلا أعلى من صفاته ، وقد سمى الحق جل وعز ما هو عليه من هذه الكمالات المطلقة بالصراط المستقيم ، فقال تعالى : « إن ربى على صراط مستقيم » .

فالاسـلام دعا الخلق الى القيام على الصراط المستقيم طلبا لترقيتهم وتكميلهم لا لتعبيدهم وتسخيرهم ، وقد قلنا إن كل كائن لا يتبع الصراط الخاص به تتخطفه السبل المضللة فترمى به الى مكان سحيق ، فيصبح مبعدا عن الغاية التى خلق لبلوغها ، محجوبا عن المثل الأعلى الذى دُعِى لاحتذاء شاكلته ، وينتهى أمره بأن يعيش حائرا ، ويموت بائرا ، لا الى غايته وصل ، ولا لطريقه الطويل تزود .

ولا يزال الاسلام يدعـو العالم الى الصراط المستقيم ، ولا أشك فى أنهم ملبون دعوته ، لأن كل شىء فى الوجـود يهيب بهم اليه ، فإن تصامّوا اليوم عن إجابته ، فستدفعهم المثلات الى تلبيته ، « أفغير دين الله يبغون وله أسـلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإلينا يرجعون » .

محمد فريد وجدى



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) .

لقد رأيت فى الآى السابقة أنه تعالى أرشد المؤمنين الى ما يدعوهم للاستمساك بعهودهم والوفاء بوعودهم ، حيث قال عز من قائل : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنّ ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . وقد أردف ذلك بوعده الكريم إذ قال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » تثبيتا لهم على الصبر على ما يجره الاستمساك بالوعد من مجاهدات ومجالدات لما يطرأ أمام المرء من دواعى الخلف والتهاون بالمواعيد ، مشيرا بقوله : « ولنجزين الذين صبروا » الى أن المحافظة على الوعد سيصادفها عوامل شديدة تصرف المرء عن احترام وعده والتمسك به والمحافظة على الوفاء ، وهى عوامل لا يتغلب عليها المؤمن إلا بالتذرع بالصبر .

وقد رغب فى الصبر بأنه تعالى هو الذى يتولى الجزاء عليه بقوله : « ولنجزين » والتنويه بشأن من قام به بقوله : « الذين صبروا » فإن فى هذا من إبراز الصبر على صورة واضحة عظيمة ما ليس فى قولك : الصابرين مثلا ، وتسمية ما ينالهم أجراً تثبيتا لاستحقاقه وأنه لن يفوتهم ، وتهنئة لهم بما نالوه وأنه حقهم ، وإن كان حين تدقق

النظر تجد الأمر من أوله الى آخره فضلا ونعمة ، فإنه بتوفيق العزيز العليم ، فالأمر كله منه وإليه ، والفضل جميعه من لديه .

وقد أردف هـذا الترغيب العظيم « إن ما عند الله هو خير لكم » « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » وهذا الوعد الكريم « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » أردفهما بقاعدة عامة فى حسن الجزاء ، إذ يقول جل شأنه : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » وناهيك بقوله : « فلنحيينه حياة طيبة » ! وأى نعيم أهنأ من طيب الحياة ؟ ثم قال : « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقد سبق القول فى تسميته هـذا أجرا ، كما أنا شرحنا لك فى المقال السابق أن كون الجزاء بأحسن ما كانوا يعملون يتضمن العفو عما عسى أن يكون منهم من هنات هينات « إن الحسنات يذهبن السيئات » . وقد بينا لك فى ذلك المقال أن هذا مما لا يكاد يخلو المرء منه فى أثناء مجاهداته ، إذ يخطر له خواطر وتتوارد عليه هواجس هى من لوازم المغالبة والمجاهدة ، فالله تعالى يجزى على الحسنات ويتجاوز عن السيئات فضلا منه ونعمة .

وإذ كانت تلك الخواطر والهواجس مما تترتب غالبا على الوساوس التى يلقيها الشيطان ، كما أن الوصول الى الهدى والتمسك بخير العمل مرجعه الى الاهتداء بهدى القرآن واتباع أوامر الرحمن ، أرشدنا الحكيم العليم الى طريق الخلاص ، والسلامة من شرور ذلك الشيطان الرجيم ، وذلك بالعوذ بالله السميع العليم ، واللجأ اليه ، والاعتصام بهديه ، والتحصن بقدرته ، فقال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » . فالتعبير بالفاء فى قوله : « فاذا » ليرشدنا الى منشأ ما يصيبنا من خواطر السوء حين سلوكنا طريق الهداية ، وأن مرجع ذلك الى الشيطان ووسوسته وخواطره السيئة التى يلقيها فى قلوب المؤمنين ، وبخاصة عند توجههم الى رضاء رب العالمين ، وتلاوتهم كتابه المبين .

ومعنى قرأت : أردت القراءة ، على حد قوله تعالى : « إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » أى إذا أردتم القيام لها ، فتكون الاستعاذة قبل القراءة ، وهو ما عليه الجمهور .

ومن الناس من يجرى الآية على ظاهرها ويرى الاستعاذة بعد القراءة ، لأن القارىء بقراءته قد استحق ثوابا عظيما ، فربما وقع فى قلبه من المباهاة والاعتماد على العمل ما يفتح فى قلبه مجارى لوسوسة الشيطان ، فتحسن الاستعاذة حينئذ تحصينا لقراءته وثوابها ، وصونا لها عن أن يبطش بها الشيطان بوسوسته فيحبطها .

والجمهور يوجهون رأيهم بأن القارئ داخل فى عبادته ، ونفسه مستعدة لأن يتحرش بها الشيطان ، لأنه سيكون مغيظا غيظا عظيما محنقا ، فهو لا يفتأ يحاوره ويداوره ليصرفه عن هذا المقام الكريم : مقام إقباله على الرحمن الرحيم ، يناجيه بكلامه القديم . فأى مقام هو أغيظ للشيطان الرجيم من هذا المقام الكريم ؟ فهو يتحفز حينئذ ويجمع كل جنوده ليصرفه عن الخير الذى استعد له ، فما أجدر المؤمن أن يتحوط ويتحصن ، ويلجأ الى الله مستعيذ به من وساوسه وشروره حين يريد القراءة !

وقد جمع بعضهم بين القولين فقال بطلب الجمع بين الاستعاذتين : يستعيذ فى الأول ، ويستعيذ فى الآخر . ولا بأس به . وقد علمت أن الجمهور على الأول .

ومعنى استعذ : اطلب العوذ بالله وقل : أعوذ بالله ، أى ألتجئ اليه وأتحصن به . وأصله من عاذ بكذا أى لصق به ، كأن الخائف يدفعه الخوف الى أن يلصق بمأمنه ، واللصق الحسى هنا محال بالضرورة . فالمعنى : ألجأ الى الاستمساك بقدرة الله وحياطته لى ، وأطلب اليه عزوجل أن يعصمنى منه ، وأن يحول بينه وبينى حتى لا يتمكن منى فيؤذينى .

وقد قالوا : إن الاستعاذة ترتكن على ثلاثة أسس : (الأول) العلم اليقينى بأن العبد عاجز عن جلب المنافع ودفع المضار دينية كانت أو دنيوية ، وأن القادر الحقيق على جميع ذلك هو الله ، وأن الأمر كله بيد الله واقع بقدرته وتدبيره ، وأن لا يقع فى الكون

إلا ما يشاء . (الثانى) انكسار النفس وذلتها أمام عزة البارى جل وعلا ، فتكون صادقة فى اللجأ حقيقة . (الثالث) الطلب بالقلب وباللسان ، فتتجه النفس بالابتهال الى الله والرغب إليه ، واستمطار فيوضاته وتوفيقه ، ويجرى ذلك على اللسان فيفيض بما يدور فى الجنان . وهذا معنى قولهم : إن الطاعات تنشأ عن علم يورث حالا تثمر عملا . فالعلم هنا هو استيقان أن الأمر كله بيد الله ؛ والحال هى الذلة التى تشمل النفس أمام عظمة خالقها ؛ والعمل هو الابتهال بالقلب واللسان . فجدير بمن بنى استعاذته على هذه الأركان أن تكون منه الاستعاذة ثابتة البنيان ؛ وما لم يعرف العبد عزة الربوبية وذلة العبودية لم يصح منه الاستعاذة الحقيقية .

واختير لفظ الجلالة فى هذا المقام ، لأنه الاسم الجامع لجميع الصفات الكمالية والتنزيهية ، فى حين أن باقى الأسماء تدل على معان خاصة كالواحد والقهار والسميع والعليم والرحمن والرحيم ، فكل اسم من هذه الأسماء يدل على معنى خاص ؛ والاسم الجامع لكل هذه المعانى هو لفظ الجلالة (الله) . فكأن المستعيذ يجمع قواه ليستحضر كل تلك الكمالات حسب استطاعته ، فيعينه ذلك على اللجأ إليه تعالى لجأ صادقا . وصدق الالتجاء معين على تحقيق الرجاء وإجابة الدعاء .

وقد ورد فى بعض أحاديث الاستعاذة « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق » . وقد فسروا الكلمات هنا بكلمات التأثير والتكوين ، وهى المشار اليها فى قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . ويرى بعضهم أنه يحسن فى الاستعاذة أن يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ملاحظا فى ذلك قوله تعالى : « وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » وفى آية أخرى إنه هو السميع العليم ، ويعلل ذلك بأن الوسوسة كلام خفى يظن معه الموسوس أن لن يطلع عليه غيره وغير من وسوس له ، فاستحضار المستعيذ أن الله سميع عليم يعلم السر وأخفى مما يعينه على صدق الاستعاذة به والاستعانة بعلمه وقدرته .

والشيطان الرجيم : هو ذاك الشرير اللعين إبليس . وأصل كلمة شيطان مأخوذة من شطن بمعنى بعد ، لأنه بعيد عن رحمة الله ، ومن ذلك قولهم : بئر شطون ، أى بعيدة القعر ؛ أو من شاط بمعنى احترق ، ومنه قولهم : استشاط غضبا أى التهب ، كأن الاحتراق شأنه وأغلب صفاته ، إما لأنه مهيأ للاحتراق بنار جهنم ، أو لأن ديدنه إحباط الأعمال وإبطال الثواب ، وذلك شأن الإحراق ، فهو ما بين محرق ومحترق .

والرجيم بمعنى المرجوم ، أى المقذوف به لأنه مقذوف مبعد عن رحمة الله ؛ أو لأنه يقذف بعذاب الله وبآثار غضب الله . فالرجيم كاللعين بمعنى المرجوم الملعون . والشياطين هم مردة الجن ، أى فساقهم المتمردون ، وإن زعم بعضهم أن الشياطين نوع آخر غير الجن . وهم مخلوقون من النار كما قال تعالى حكاية عن إبليس : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » وكما قال جل وعلا : « والجانّ خلقناه من قبلُ من نار السموم » . وليس معنى أنه مخلوق من نار أن فيه خاصية النار تماما فمن دنا منه احترق ، كما أنه ليس معنى كون آدم مخلوقا من طين أن فيه خاصيتى الطين تماما حتى إنه ليذوب فى الماء ، وإن تظرف فى ذلك بعض الشعراء فقال يعتذر عن خوفه من ركوب البحر :

طين أنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب

وكما قال بعضهم فى حسن تعليل بُعد الناس عن صفاء السريرة :

ومن يك أصله ماء وطين بعيد عن جبلته الصفاء

ولقد اعتز إبليس بخلقته وأنه مخلوق من نار فلا ينبغى أن تجرح عزة كبريائه بالسجود لآدم المخلوق من طين ، فقال : «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» متوهما أن النار أفضل من الطين ، وهو واهم فيما زعم .

ولا بأس أن نفكه القارئ ونروح عن نفسه ببعض الطرف ، فنذكر له ما أورده بعض الفضلاء فى دحض حجة إبليس هذه — والحديث ذو شجون — قال ما ملخصه : إن هذا الاحتجاج من باب التعنت ، فإن الآمر فى الحقيقة هو الله ، والامتثال إنما

هو لأمر الله ، فالمعبود بالطاعة — لو أنه أطاع — هو الله . على أنه غالط فى حجته ، واهم فى شبهته ، فإن الطين أفضل من النار من جملة وجوه : فالنار طبعها إفساد ما حل فيها وإتلاف ما تناولته ، والطين طبعه التزكية والتنمية ، فضلا عن الحفظ والصون : تضع فيه الحبة فربما أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والنار طبعها الخفة والطيش فى حين أن طبع التراب الرزانة والسكون ، ولذلك كان إبليس المخلوق من النار عرضة لتلاعب الأهواء ، وكان آدم المخلوق من الطين غالبا على هواه . والنار جافية ينبو عنها كل مميز ، وفى التراب حنان واليه اطمئنان . والنار لا تقوم إلا على أجزاء من النبات أو نحوه مما يتولد من التراب ، فهى بحاجة اليه والأرض مستغنية عن النار ، والنار وإن حصل منها بعض المنافع فإن طبيعة الشر والإفساد كامنة فيها ، فلا بد من ضبطها والتغلب عليها وإلا أهلكت الحرث والنسل ، ولكن التراب مأمون العاقبة ، فهو إن لم ينفع لا يضر . ولقد وصف الله تعالى الأرض بأنه بارك فيها وقدر فيها أقواتها وجعلها مهادا وبساطا ، ولم يصف النار بشىء من ذلك ، اللهم إلا فى قوله : « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمُقْوِين » أى تذكر بعذاب النار حتى تخيف الفجار ، ويستمتع بها المقوون أى المسافرون النازلون بالقواء وهى الأرض الخلاء . لم يبق إلا اغتراره بالقوة متوهما أن النار أقوى من الطين ، وقد أخطأ فى ذلك ، فإن الطين يوضع على النار فيطفئها ، والنار لا تعدم الطين وإن حولته فى بعض الأحيان الى بعض الحالات . فهذه الوجوه مبطلة لحجته كاشفة عن غفلته وخبث نيته ، لعنه الله !

ولنرجع الى ما قصدنا له من تفسير كلام رب العالمين ، فنقول :

قد أمرنا بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، أى أن نستدفع شره ونلجأ الى الله لدفع وسوسته ، فما هو الشيطان وما صفته المميزة له ؟ قد أطبق الكل على أن الجن والشياطين ليسوا بأصل فطرتهم من الأجسام الكثيفة المرئية تجىء وتذهب وتشاهد كالناس والبهائم ؛ واذا كانت لها قدرة على التشكل بأشكال مختلفة بحيث تصح رؤيتها فإن هذا

لا يمنع أنها لا ترى بحسب أصل خلقها ، قال تعالى : « إنه يرا كم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ، وإنما اختلفوا فقيل إنها أجسام لطيفة هوائية آتاها الله قدرة على التشكل بأشكال ترى ، وأن تبقى على حالتها الهوائية فلا ترى ، كما لم ير الهواء وإن كان جسما موجودا ، وكما لا ترى الأصوات والروائح ، فليس بلازم أن كل موجود يدرك بكل حاسة من الحواس . واللون يرى ولا يسمع ، والصوت يسمع ولا يرى ، فالحواس موزعة على الموجودات ، ومن الموجودات ما يعرف بالعقل أو بالحواس الباطنة ولا يرى ولا يسمع كالسرور والحزن والخوف والأمن . فقد طاش سهم من زعم إنكارهم بناء على عدم رؤيته إياهم ؛ وقد صغر عقل أمثال هؤلاء حتى قصروا الموجود على ما وقع عليه بصرهم ؛ وليتهم يتسلط عليهم تيار كهربائي يصعقهم وهم لا يرونه !

وقيل إنها نفوس مجردة عن المادة وأرواح غير متحيزة فى مكان ، وعلى كلا القولين فإن لهم علما وإدراكا وقدرة واختيارا ، وليس بلازم فى الاختيار والقدرة أن يكون بمزاولة الآلات والجوارح .

واعتبر إن شئت بتأثير عين الحاسد فى المحسود ، فإن خفى عليك ذلك أو كنت ممن لا يعترف به فانظر الى تأثير المهابة فى قلوب الناس حتى تملك عليهم جوارحهم وتملأ جوانحهم ، بل انظر الى الفأر كيف تضمحل قواه أمام السنور فيلقى نفسه بين يديه قبل أن يستولى عليه . وعلى الجملة فالشواهد متوافرة على أن للنفوس تأثيرا عن غير طريق الجوارح والآلات . ولعل فى التنويم المغناطيسى الذى استفاض أمره وتكررت مشاهداته ، وأصبح إنكاره كالمكابرة فى المحسوسات ، أكبر شاهد على أن النفوس لها تأثير غير متوقف على الجوارح والآلات .

ومن الغباوة والبلادة احتجاج المنكرين لوجود الجن بقولهم : لو كانت أجساما كثيفة لرأيناها ، ولو كانت لطيفة لمزقتها الرياح والزوابع . فهذا كلام جدير أن تمزقه

الرياح والزوابع ، وإلا فلِم لم نر الهواء ، ولم لم تمزق الرياح الماء ، ولم لا يكون لها على لطافتها قوة على المقاومة والالتواء ، وسرعة الانكماش والتمدد حسبما تشاء ؟

وكذلك قول قائلهم : لو كانوا موجودين بيننا لخالطونا مخالطة صداقة أو عداوة ، ولجلبوا لنا منافع أو مضار ، ولا شيء من ذلك ؛ وما يقال من هذا القبيل على ألسنة بعض الأفراد غير موثوق به . وهذا مدفوع بأنه على فرض أن مخالطتهم مستدعية وجوبا شيئا من هذا ، فقد حصل لبعض الناس ، والشواهد كثيرة على ذلك ، والوقائع المدهشة متكررة ، ومع ذلك فمن ذا الذى يقول إنه لا بد فى وجودهم من أن يتصلوا بنا اتصال عداوة أو صداقة ؟ فما المانع من أن يكون لهم فى شأنهم ما يغنيهم عنا وعن صداقتنا وعداوتنا ؟ وكفى بهم فى عدائنا ما يجلبونه علينا من مضار بالوسوسة وتزيين الشرور والسيئات . وحسبك ما حكاه الله عن إبليس بقوله : « فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » ! وهل لا يعتبر من باب المنفعة والمضرة إلا نقل الذهب والفضة ؟ إذا كان يهمنا فهو لا يهمهم ، ولكل امرئ شأن يغنيه .

وعلى الجملة فأقل ما فى شأنهم أن العقل لا يحيل وجودهم ، وقد ورد فى صادق المنقول إثبات وجودهم والتحديث عن أحوالهم ، فوجب الاعتراف بوجودهم والايمان بأنهم موجودون ، بل إذا قال قائل إنهم قد يكون لهم بطش ومس بالأذى فى بعض الأشخاص الذين يؤهلهم استعدادهم للتأثر بهم ، ويفقدون المناعة التى يعتصمون بها منهم ، كما يتأثر بعض الأشخاص بالمكروبات ويتغلب عليها البعض الآخر فينجو منها أو يهضمها ويمحقها ، لم يكن ذلك بعيدا . وعليه يحمل ظاهر قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . ولا موجب لحمل ذلك على ما كانت تتوهمه العرب فى خرافاتها كما ظن بعضهم . وغاية الأمر أن الحكمة فى التربية النفسية قد تقتضى صرف نفوس بعض الضعاف فى الأخلاق

عن التعلق بمثل هـذه العقيدة التى يتخذون منها بابا للتحايل ليصلوا الى بعض مآربهم الحقيرة ، كما تراه فى نساء الزار فى زماننا هذا ، فيكون من المعقول سد باب هذه المفاسد . ولـكن أمر الصرع والمس تتكرر مشاهداته كل حين ، ولا يمتنع فى نظر العقل أن بعض تلك الأرواح الشريرة تكمن فى بعض الأهوية المتعفنة التى تناسبها وتتسرب الى أشخاص فيهم استعداد للتأثر بها ، فتمس أخلاطهم ، فتفسد أمزجتهم ، أو تخبل عقولهم الى حين . نقول ذلك على سبيل التجويز لأن يكون ذلك أحد الأسباب ، وأنه لا يحيله العقل ، وإن كانت التربية الخلقية كما قلنا تدعو الى مقاومته اتقاء لمفاسده ، ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والجهل بمثل هذا لا يضر فى العقيدة ، والله أعلم .

أما كيفية الوسوسة فإنها غير معلومة بالضبط والوضوح التامين ، وإنما يمكن فهمها على التقريب بما نراه من إيحاء بعض الأصدقاء الى بعض بلحظات العيون وإشارات التفاهم الخاصة بهم ، بل قد تقرر عند الكثير من الناس أنه قد يتوجه المرء توجها تاما نحو نفس إنسان هو متوجه اليه كذلك ، فيلقى فى فكره مايفهمه عنه فهما مّا ؛ وقد يتكرر ذلك بينهما حتى ينقاد لهما التفاهم عن غير طريق المكالمة الشفوية . وإنّ فى توارد الخاطرين بين صاحبين وإجابة واحد آخر عما خطر فى باله دون أن يسأله عنه لتأييدا أو تقريبا لما ذكرناه .

وبعد : فإذا قلنا إن لهذا النوع من المخلوقات علما وقدرة واختيارا حتى كانوا من أجل ذلك مكلفين ، فلم لا يقدرهم الله على أن يبثوا فى نفوس الناس ويغرسوا فى قلوبهم المعانى التى يريدون إلقاءها فيزينوا لهم القبائح ويسولوا لهم أن يعملوا السيئات ، وكلما وجدوا من واحد إصغاء إليهم وانقيادا لنزغاتهم انهالوا عليه بوسوستهم إذ قد وجدوا من قلبه تربة خصبة لزرع بذورهم . فكان حقا أن يعلمنا الله كيف نعتصم به منهم ، ونعوذ بقدرته من شرهم ، ويعلل ذلك بقوله عز وجل : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

أجل من ملأ الايمان قلبه فعلم أن الله هو القادر القاهر ، وأنه بيده مفاتيح الخير والشر ، وأنه لا ينبغي التوكل إلا عليه ولا التفويض إلا إليه ، فتوكل على الله حق توكله ، واستدفع به كيد الشيطان فرده في نحره ، فهو جدير بأن يعصمه الله من شره ، ويعيذه من كيده ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا .

وهل يملك الشيطان إلا تحسين السيئات وتزيين الخطايا ، والتغرير بقلوب ضعف إيمانها ، وذهلت عن استحضار يقينها ، فلم ترجع الى ربها ليكفيها شر نفسها وشر شيطانها ؟ « إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » . سلطان الانقياد للتغرير والتلبيس ، سلطان الانسياق مع الشهوات والأهواء ، سلطان الالتذاذ بالعاجلة والوقوف عندها ، وعدم التفكر في الآجلة التي إنما خلق ليعمل لها ، سلطان التمسك بالحياة الدنيا والإعراض عن الحياة الآخرة ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون . وليس المراد بالسلطان هو الإلجاء وسلب القوى والقدرة ، كما هو المراد في السلطان المنفي في قوله لأتباعه : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » وإنما هو كوقوع الشخص فريسة في يد قرناء السوء من شياطين الإنس ، فإنك تنصحه فيقتنع ، ولكنه مع ذلك يقول لك : إني أصبحت فريسة في أيدي هؤلاء لا أستطيع التخلص منهم مع اقتناعي بأنهم أفسدوا علىّ مالي وعقلي وعرضي وشرفي ، ومع ذلك ومع أني أمقتهم من كل قلبي فإني ساعة أسمع دعاءهم أكاد أطير إليهم فرحا بهم ، بل إذا أبطأوا قلقت لغيابهم ، وتطلعت إليهم ولعاً بهم :

أحبهم وهلاكى في محبتهم كعابد النار يهواها وتحرقه

هذا هو السلطان ، وهذا هو الخضوع للشيطان ، وهذا أمر مشاهد في أغلب الإخوان ، وبخاصة في هذا الزمان ، فهو خضوع اختياري ، وهو سلطان تمكن من المهيمن عليهم باختيارهم ، وبئس الاختيار الذي يهوى بصاحبه الى النار ، وبئس القرار !

فدفع هذا السلطان والقهر عن النفس إنما يكون باللجأ الى الله ، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم . وليس معنى الاستعاذة مجرد التلفظ بهذه الكلمة ، وإنما العمل عليها باتباع التعاليم والإرشادات التى أرشده المولى الكريم الرحمن الرحيم الى اتباعها ، فإن الاختيار ما زال ممنوحا للعبد « وهديناه النجدين » . وإلا فلو كان الأمر من باب القسر والإلجاء ، فما معنى الثواب والعقاب والأجر والجزاء ؟ فالله تعالى نفى أن يكون له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وقصر سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، فالسلطان فى كلا الموضعين سلطان الخضوع والانقياد اختيارا ، وليس سلطان الجبر والقهر والإلجاء ، وهو السلطان الذى شرحناه فى الخضوع لقرناء السوء . فباب الخلوص منه إنما هو الايمان ، ولا يكون الايمان مثمراً للتخلص من هذا السلطان إلا إذا أثمر العمل الصالح ، وحينئذ يكون التوكل على الله صادقا ، إذ لا معنى لأن تتوكل على من عصيت أمره ، وارتكبت ما نهاك عنه :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فمن آمن بالله وقام بما يوجبه إيمانه من صالح الأعمال ، وعاذ بربه والتجأ اليه ، وابتغى الزلفى لديه والقرب منه ، كما يفهم من كلمة أعوذ التى فيها معنى الالتصاق ، على ما سبق بيانه أول هذه الكلمة ، ثم توكل على الله واستعان بقدرته ، وابتهل إليه بقلبه ولسانه فلا يكون للشيطان عليه سلطان ، إنما سلطانه على الذين ربطوا قلوبهم على طاعته وجعلوه وليا لهم من دون الله ، يصغون لوسوسته ، وينخدعون بما يغريهم به ، ويقبلون تزيينه لسيئاتهم لأنها وافقت أهواءهم — وهذا من قولهم : توليته أى أطعته ، ضد قولهم : توليت عنه أى أعرضت عنه — ثم هم مع هذا قد انساقوا معه الى أبعد مدى فقادهم الى الشرك فأشركوا بربهم ، وللشرك مراتب لا يزال المرء ينزلق من دركة منها الى دركة حتى يتردى فى نهايتها ، والعياذ بالله :

فضمير به عائد على الشيطان الرجيم ، أى أنهم بسببه وقعوا فى الشرك . ويجوز أن يعود الى الله ، أى إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، فيكون على نسق ما تكرر من الآيات فى استعمال مادة أشرك ، حيث تتعدى بالباء الى من هو الأصل فى اعتقاد التأثير ، وبنفسها الى من هو الطارىء ، فتكون الباء للتعدية .

ثم لا يخفى وجه التعبير بصيغة المضارع فى قوله : « وعلى ربهم يتوكلون » وقوله : « الذين يتولونه » ، وذلك لأن التوكل على الله أمر يتجدد فى كل مناسبة تدعو اليه ؛ وكذلك تولى المشركين وطاعتهم للشيطان الرجيم من الأمور التى تتجدد عند مقتضياتها . وأما الإشراك واعتقاد الشركة فهو من المعانى الثابتة المستمرة ، فلذلك عبر فيها بالجملة الاسمية .

اللهم إنى أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ؛ اللهم باعد بينى وبين كل ما يبعدنى عنك ، وقرب بينى وبين كل من يقربنى من رضاك ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

من آداب التعلم

قال بعض الحكماء : إذا جلست الى عالم فسل تفقها ، ولا تسل تعنتا .

وروى الأوزاعى عن عبد الله بن سعد عن الصنابحى عن معاوية قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات . قال الأوزاعى : يعنى صعاب المسائل .

وكان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة ، قال للسائل : أمسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس !

وسال عمرو بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نابى ثعلب ، فلم يرد عليه شيئا .

وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء والأرض ؟ فقال له : أين توجب المكان ، وكان الله عز وجل ولا مكان .

القاديانية فى الهند

القاديانية من النحل الهندية، تقول بنبوة رجل من مدينة قاديان اسمه غلام أحمد، ادعى أن الله كان يوحى إليه بكل الطرق التى كان يوحى بها الى أنبيائه، وأنه مسيح الأمة الاسلامية كما كان عيسى مسيح الأمة الموسوية، وأن رسالته عامة للناس كافة.

ولد غلام أحمد سنة (١٢٥٢) هـ فتعلم العربية وتلقى النحو والمنطق والفلسفة وقرأ القرآن واطلع على العلوم الدينية. ثم تقلد وظيفة فى إدارة نائب الملك فى بلاده مدة أربع سنين، ثم استقال ولحق بأبيه.

وفى سنة (١٨٧٦) زعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحى، فأنكر عليه علماء بلده هذه الدعوى وشددوا عليه النكير، فرحل الى لودهيانه وأذاع بيانا ادعى فيه أنه المسيح المنتظر، فأثار سخط العلماء وأخذوا يتعقبون مزاعمه بالرد.

ثم شخص الى لاهور ودهلى ناشرا مذهبه.

ولما عاد الى بلدته بنى بها مسجدا خاصا بشيعته، ومدرسة لتعليم أبنائهم ومدرسة أخرى لتخريج الدعاة الى مذهبه. وأسس جريدة سماها (الأديان) لنشر دعوته كان يكتب بعض فصولها بقلمه. ولما كان بلاهور فى سنة (١٣٢٦) أدركته الوفاة بها، فانتخب أتباعه لخلافته حكيم نور الدين، ولما توفى سنة (١٩١٤) اختير للرياسة بشير الدين محمود بن غلام أحمد نفسه، وهو القائم بأمر هذه النحلة الى اليوم.

أخذ بالقاديانية فى بعض بلاد الهند جماعة عرفوا بولوعهم الشديد لنشر مذهبهم، فلم يوفقوا فى محاولاتهم، لأن علماء الهند وقفوا لهم بالمرصاد، فأبطلوا مايدلون به الى الناس بالحجج الدامغة، فلم يقع فى حبائلهم غير من لا يعتد بهم، ووقفت القاديانية عند حد لا تتعداه، وقد مضى على تأسيسها نحو ستين سنة.

وقد تبين بعض رجالهم أن القاديانية ما دامت تصر على القول بنبوة غلام أحمد فلا تجد لها مساغا الى عقول الناس ، وينتهى أمرها بالتلاشى لامحالة ، فرأوا أن يحذفوا من تعاليمهم أمر هذه النبوة ، وأن يقتصروا على القول بأن غلام أحمد كان مصلحا لا نبيا ، فانقسمت القاديانية الى طائفتين : فطائفة قاديان بقوا على ما كانوا عليه من إثبات النبوة لغلام أحمد ، وطائفة لاهور رفضوا التسليم بهذه النبوة ، فكان عملهم هذا دليلا محسوسا على فساد مذهبهم ، فإن القاديانية إذا رفع منها القول بنبوة غلام أحمد لم يبق هنالك معنى لأن ينتسب اليها منتسب وهو يرفض القول بالأصل الأول فيها ، ففى ذلك تكذيب ضمنى لمؤسسها ، فإنه دعا الى الايمان برسالته فى كل كتاب نشره ، وماذا يكون جواب المدافع عن هذه الطائفة إذا قال لهم قائل : أى ضرب من المؤمنين أنتم ! يقول صاحبكم إنه نبى ورسالته عامة ، فتقولون أنتم : لا ، إنه كان مصلحا فحسب ولم يك نبيا ؟

وإذا كانت هذه الطائفة تتظاهر بالقول بأن زعيمها كان مصلحا فحسب هربا من مصادمة العقول ، وإعوازا من الدليل المقنع ، وكانت مع هذا تبطن العقيدة بنبوته ، فلا شك أن ذلك يعتبر من أقوى الأدلة على وهن أساسها ، وهو اعتراف ضمنى بأن القاديانية على ما دعا اليه مؤسسها لا تصلح أن يصارَح بها الناس إلا بعد هدم أساسها ، وإيتائهم بها فى صورة غير صورتها .

ولما كان غلام أحمد يدعى أنه رسول لله وأن رسالته عامة ، فلابد لنا من ذكر مقتضيات الرسالات الخاصة والرسالة العامة ومميزاتهما ليعرف الناس وجوه الضلال فى أمثال هذه المزاعم .

مقتضيات الرسالات الخاصة والرسالة العامة ومميزاتهما :

جرت سنة الله تعالى أن يرسل الى الناس رسلا لهدايتهم الى طريق الحق ، وإرشادهم الى أصول الحياة الفاضلة ، فصحبت رسالة كل واحد منهم انقلابات اجتماعية

خطيرة ، وحوادث تطورية كبيرة ، تجاوبت بأصداء حركاتها أرجاء الأرض . ولست أصعد بالقارئ الى العهود البعيدة للتاريخ فأكتفى بما يعرفه الناس جميعا منها ، وبما أصبح من المقررات التاريخية التى لا يختلف فيها اثنان ، فأقول :

أرسل الله موسى عليه السلام لإنقاذ بنى إسرائيل من أسر فراعنة مصر ، فقد كانوا استضعفوهم الى حد أن أرهقوهم فى الأعمال الشاقة ، غير مبالين بما ينالهم من عنت وهلاك ، ثم زادوهم عسفا فشرعوا يقتلون ذكورهم ويستبقون إناثهم ، فنالهم من جراء ذلك بلاء عظيم . فكان خلاص بنى إسرائيل فاتحة لحياتهم حياة دولية ، فاستعمروا الأرض المقدسة وأسسوا لهم فيها ملكا ومدنية كان لهما شأن كبير . وهذه كلها حوادث وانقلابات تقتضى إرسال رسول من أولى العزم ، ليستطيع بما أوتيه من الآيات ، وما أُيِّد به من الوحى أن يحدث حدثا اجتماعيا خطيرا ما كان ليستطيعه مصلح أو مليك .

وأرسل الله عيسى عليه السلام الى بنى إسرائيل ليدلهم على ما بدلوه من دينهم ، وما حرفوه من أصوله ، فكان مجيئه فاتحة عهد جديد ، فقد نهض أتباعه ينشرون أصول دينه فى الجماهير ، غير آبهين بما نالهم من اضطهاد وتشريد ، وعذاب شديد ، فاهتدى على أيديهم رجال كانوا نواة لانقلاب خطير فى الدولة الرومانية إذا انتقلت من وثنيتها الأولى الى المسيحية .

وأرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة عامة الى العالم كافة ، فى عهد كانت فيه الأمم فى حالة من العبودية للأقوياء ، والطاعة العمياء للأوصياء ، والتدهور المخجل فى الأخلاق والآداب ، بحيث كانوا فى حاجة الى نور ساطع من السماء يمزق ما تلبد على القلوب من كِسَف الظلام ، وما أسدل على العقول من حجب الأوهام .

فكانت الحاجة ماسة الى نزول وحى برفع الخلاف بين الشعوب ، ويحل كثيرا من القيود التى فرضتها تلك الخلافات على بعضها حيال البعض الآخر ،

وينبهها الى أن أديانها كلها أصلها واحـد ، وإنما اختلفت فيما بينها بما دسه قادتها إليها مما ليس منها ، وأن الرجوع الى ذلك الأصل لابد منه لتخليص الدين مما يشوبه من أهواء البشر ، ولأن مصلحة الأمم تقتضى وحدة الوجهة ووحدة الغاية .

فـكان ما أراده الله ، وكان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر الاسلام ما كان مما يعلمه الخاص والعام ، ولاتزال دعوة القرآن تدوى فى أرجاء الأرض يسمعها الناس فى كل مكان فيلبيها عشرات الألوف منهم فى كل سنة ، حتى قال برنارد شو الفيلسوف الانجليزى المشهور : إنه لن يمضى قرنان حتى يـكون الاسلام قد عم أوروبا من شرقها الى غربها . وإذا كان هذا مصير أوروبا وهى فى طليعة الأمم علما ومدنية ، فماذا يكون مصير القارات الأربع الباقية ، وهل يحتاج الاسلام فيها الى جهاد قرنين وهو يسرى فيها بسرعة تفوق كل تقدير ؟

فهذه رسالة عامة ، وتلك مميزاتها وآثارها ، فأين منها مايدعيه غلام أحمد لنفسه من المزاعم الباطلة ؟ وقد مضت على دعوته ستون سنة فلم يلبها إلا أفراد من السذج ، وأمثال هؤلاء كثيرون فى كل زمان ومكان ، فما ادعى النبوة أحد إلا اتبعه من هؤلاء نفر لبثوا معه حتى مات ، ثم تفرقوا أو بقوا على ضلالهم ، ثم أورثوها ذريتهم جيلا فجيلا ، وهذا هو علة وجود جميع الأديان الباطلة فى الأرض الى اليوم .

نزاع القاديانية فى ختام النبوة :

لقد تجشم غلام أحمد جهدا جهيدا لـكى يثبت أنه نبى ، فاصطدم بالنص القرآنى الدال على أن النبى صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لا نبى بعده ، وأتى فى هذا الباب بما لا يعقـل من ضروب التأويل والتحريف . فزعم أن ما جاء فى القرآن الـكريم عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه خاتم المرسلين ليس معناه أنه آخرهم ، ولـكن معناه أنه حليتهم ، فعنده أن كلمة (خاتم) ليست واردة فى الـكتاب الـكريم بمعنى آخر القوم ولـكن بمعنى حلية الأصبع المعروفة ، فيكون فى الـكلام مجاز . يقول هذا ويغفل عن

أن هذا التعبير ساقط يتنزه القرآن عن مثله . ولو قال قائل لأحد الناس يمدحه : أنت خاتم قومك ، مكان أنت حليتهم ، لعد كلامه ساقطا بل غير مفهوم على الإطلاق ، والكلام الإلهى يتنزه عن مثل هذا السقط .

هذا الى ما ثبت من السنة المتواترة من أنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقام شاهد العيان على صحة ذلك ، فلم يرسل الله فى هذه الأربعة العشر قرنا الماضية رسولا الى قوم من الأقوام ، بَلْهَ رسولا عاما للبشر كافة .

إن غلام أحمد حصر كل جهوده فى إثبات رسالته وإحاطة نفسه بالنعوت والألقاب الفخمة ، معتقدا أن هذا كاف لإدراكه الغرض الذى رمى اليه فى بيئة كبيئته ، فإن الجاذب الوحيد للدهماء التى تسارع الى قبول أية دعوة هى هذه الألقاب الفخمة والنعوت المبالغ فيها التى ينتحلها الداعى لنفسه . فكلما دخل فى روع الأتباع أن صاحبهم متناه فى السمو ، وأنه مكين فى الملأ الأعلى ، بالغ أتباعه فى التحمس له ، وزادوه سموا ومكانة حتى يبلغوا به درجة الألوهية ، غير فاحصين عما جاء به : أهو غث أم ثمين .

هذا شأن الدهماء قديما ، وحديثا وأمامنا فرق ومذاهب لا تعد ولا تحصى لو نقدتها لوجدت أكثرها يعتزى الى أصل غير أصيل ، أو قائما على أوهام اكتسبت بطول الزمن سلطانا على الجماهير . فالقاديانية تبقى ما بقيت عقلية الآخذين بها فى الحد الذى هى فيه ، فإن تجاوزته الى التبصر والاهتداء بالمنطق والحجة والبرهان، تركت هذا المذهب وراءها كحلم من أحلام طفولتها ، وألقت به الى عالم الأساطير ؟ **محمد فريد وجدى**

صلاح الاب يصلح الولد

قال بعض الحكماء : إذا كان المرء حسن المذهب تأدب بادبه جميع أهله :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم رب الفساد إذا فسد
يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

جواز التقليد
والرد على من يحرمه

حضرة خادم السنة والاسلام ، وعلامة العلماء الأعلام ، صاحب الفضيلة سيدى الشيخ يوسف الدجوى . أبقاكم الله تعالى فى سعادة وأمان ، راغمين أنف كل زائغ فتان .

وبعد : فعندنا طائفة ليس لها شغل إلا بالحط من قدر الأئمة والطعن عليهم ، وذم مقلديهم بأقبح الذنب ، حتى إن بعضهم ألّف رسالة فى ذلك ، وهى مرسلة إليكم . وهم ينادون بتحريم التقليد وأنه من الكبائر . وبعضهم يجعله كفرا مثل كفر الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، ويقولون : إن الواجب على العامى أن يطلب من العالم الذى يستفتيه ذكرَ الدليل من الكتاب أو السنة ؛ ويجب على العالم أن يذكر له ذلك وينهاه عن تقليده أو تقليد غيره ، فإنه لا يجوز اتباع آراء الرجال ، ويجب الرجوع فى كل شىء الى الكتاب والسنة .

فنسألكم بالله عز وجل أن تغيثونا ببيان الحق ، فإنهم شوشوا على العامة وآذوا الخاصة إيذاء بليغا . وليس لنا إلا الأزهر الأنور وعلماؤه الذين يرجع إليهم فى المهمات ، وتكشف بهم جميع المعضلات . أبقاكم الله حصنا للدين وملجأ للمسلمين ـ آمين ؟

عبد الله بن رابح بالجزائر

الجواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

هذه نزعة من شر النزعات التى ابتلى بها المسلمون من أولئك الذين يدّعون

الاجتهاد، ويثيرون فى الأرض الفساد، ويبذرون بذور الشقاق والانقسام، ويهونون أمر سلفنا الصالح فى نفوس العامة (شأن الخوارج الذين هم شر الطوائف) ويزجون بأولئك الجهال فيما لا يحسنونه، فيعرضونهم بذلك لكل خطر وفتنة.

وهى شنشنة نعرفها من إخوانهم عندنا بمصر «إن فى صدورهم إلا كِبْرٌ ما هُم ببالغيه». وكنا نود أن يكونوا من الذين يقولون: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا» ولكن أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيلعن آخرُ هذه الأمة أولَها، وأن ذلك من علامات الساعة، وسيتخذ الناس فى آخر الزمان رؤساء جهالا فيسألونهم فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون. وما كانوا رؤساء إلا لتلك الدعاوى الكاذبة. وقد روى عن على رضى الله عنه: «إذا أعرض الله عن العبد أورثه الإنكار على أهل الدين». وروى عنه صلى الله عليه وسلم «أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان».

أما أئمة الاسلام المتقدمون فلا يضرهم ذلك شيئا، لأن الأمة كلها على توقيرهم وإجلالهم ومعرفة فضلهم، إلا تلك الشرذمة التى لو أنفق أحدهم مثل أُحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه:

وسعى الىّ بعيب عزة نسوة   جعل المليك خدودهن نعالها

وأما اختلاف الأئمة وما يطنطنون به حوله فهو من الرحمة الكبرى بهذه الأمة. وقد قال عمر بن عبد العزيز: «ما يسرنى أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة». وقد قال يحيى بن سعيد وهو من كبار المحدثين من التابعين: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فلا يعيب هذا على هذا. على أن الناس لو أخذوا من القرآن والسنة كما يريد هؤلاء لما وقف بهم الاختلاف عند حد، ولأصبحت المذاهب أربعة آلاف بدلا من أربعة، ويومئذ يكون الويل كل الويل للمسلمين. (لا أرانا الله ذلك اليوم).

وأما دعواهم حرمة التقليد فيردها العقل والنقل (ومن العجب العاجب أنهم يحرمون التقليد ولكن يدعون الناس الى تقليدهم) :

ولو لم نسمع تلك الأصوات المنكرة ما صدّقنا أن أحدا فى الوجود يحرم التقليد ويوجب على الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت استعدادهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة . وإنه ليدل على فساد ما قالوا المعقول والمنقول ، فإن العامى مكلف بالأحكام قطعا ، ولا يمكنه أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة قطعا لما سنبينه .

وأما النقل فقد كان الصحابة والتابعون يفتون السائلين بالحكم ، فتارة يذكرون مأخذه إذا اقتضت الحال ذلك ، وتارة يقتصرون على ذكر الحكم ، وذلك معلوم على القطع من حالهم . ولو كان الأمر على ما زعم هؤلاء لا التزموا ذكر الدليل لأولئك السائلين الذين كان يمكنهم أن يفهموه ولا يضلوا فيه لأنهم من أهل اللغة . وكذلك كانت رسله صلى الله عليه وسلم الى البلدان ، كمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى : يعلمون الناس الأحكام من غير التزام ذكر الدليل . بل قال معاذ للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه إذا لم يجد الحكم فى كتاب الله ولا سنة رسول الله اجتهد رأيه ، وأقره صلى الله عليه وسلم على ذلك . وخيّر عمر شريحا فى أن يجتهد رأيه فيما اشتبه عليه وأن يراجعه فيه ، وإن كان ذلك أحب الى عمر . ويقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » أى عما اشتبه عليكم لا عن دليله . فلم يشترط القرآن غير أن يكون المسئول من أهل الذكر .

ولا شك أن الأئمة المسلمين من أهل الذكر الموثوق بأمانتهم وعدالتهم ، ودينهم وعلمهم ؛ وليس يسألهم المستفتى عن آرائهم البحتة بالضرورة ، وإنما يسألهم عن حكم الله المأخوذ من كتاب الله وسنة رسول الله ، لكونهم أعلم به منه (بخلاف الأحبار والرهبان ، فإنهم كانوا يحللون ويحرمون بأهوائهم) .

والمدار على أن يحصل للمستفتى ظن قوى بأن هذا هو حكم الله ؛ فإذا حصل له ذلك الظن بموجب ثقته بإمامه الذى اتبعه ، وجب عليه العمل به ولا يجوز له مخالفته بوجه من الوجوه .

وما أدرى كيف يبيحون لكل إنسان أن يأخذ دليل الحكم من الكتاب والسنة ؛ وكيف يأخذ الحكم من الحديث مثلا وهو لا يمكنه أن يعرف درجة الحديث ولا ماله من معارض ولا ما فيه من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو نسخ ناسخ ، ولا ما بينه وبين غيره من ترجيح الخ الخ . فاذا قالوا : إنه يسأل العالم عن ذلك كله فقد هدموا ما بنوا ، ورجعوا الى التقليد الذى فروا منه . فإن العالم إنما يتكلم فى ذلك كله برأيه ، فلم يخرجوا من تقليد آراء الرجال كما يقولون . ولو كانت الشريعة جاءت بهذا الحرج لكلفت الناس شططا ، ولم تكن شريعة سمحة تسع الأمم كلها ، وتصلح للأزمان كلها ، ولم يقل الله فى شأنها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . فعجبا لأولئك الذين يعمدون لأكبر ميزة للشريعة الاسلامية فينقمونها عليها .

وإذا تأملت بنور الله فى ذلك الموضوع بهرك ما فى تلك الشريعة من السعة والرحمة والحكمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على التخفيف على أمته غاية الحرص ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم . حتى إنه لما نزل القرآن على حرف ما زال يتشفع حتى نزل على سبعة أحرف . وكان يكره المشددين المنفرين ويغلظ القول لهم ، وينكر على من يبحث عن البواطن ، أو يشتد على عباد الله غلوا وتعمقا وجهلا بمقاصد الشريعة ؛ ولذلك اشتد على أسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله ؛ مع كون أسامة رضى الله عنه كان متأولا ، ولكن حكمته عليه السلام أعلى وأتم ، فإنه يكتفى من الناس بظواهرهم تأليفا لهم ورحمة بهم ، علما بأن ذلك أليق بضعفهم وجهلهم ، وأقرب الى إصلاحهم ؛ فهو يتدرج بهم بحكمته الكبرى حتى يوصلهم من الكمال الى ما قدر لهم عن طيب نفس من حيث يشعرون أو لا يشعرون . ولو أردنا أن نبين آثار رحمته ومزيد حكمته التى اقتضت بقاء شريعته واندراج الكافة فى سلك أمته لضاق المجال وطال المقال .

وإنى أعجب لهؤلاء كيف لا يجيزون للعامة أن يتدخلوا فى دقائق السياسة ، ولا للجاهل بصنعة من الصنائع أن يتولاها بلا تعلم ومزاولة ، ثم يجيزون بل يوجبون

عليهم أن يخوضوا فى القرآن والسنة بأفهامهم وأوهامهم التى تشبه أوهام الأطفال ولا ترتكز إلا على الخيال :

ولكنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وليت شعرى هل لهذا الجاهل الذى أباحوا له أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يخالف علماء المسلمين ، ويستظهر على سائر الأحكام التى ثبتت بالقياس فى عهد الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين حيث يجد لها دليلا من الكتاب والسنة على زعمه ؟! وما أظن أحدا من ذوى الدين والعلم يستطيع أن يقول ذلك غير تلك الفرقة المجازفة التى تخطت طورها ولم تعرف قدرها ، وهل فى الكتاب والسنة ما يدل على جميع الحوادث وأحكامها دلالة وضعية بدون حاجة الى الاستنباط والقياس المستلزم لمعرفة العلة وشروطها ومسالكها وقوادحها وغير ذلك ، أم يقولون إن العامى يمكنه أن يعرف ذلك ولا يخطئ فيه بدون علم ولا بصيرة ؟!

ولعمر الله إنى لا أرى هذا الرأى إلا فتحا لباب الأهواء التى تجعل الكتاب والسنة لعبة لأولئك المتهوسين الذين هم من ذوى الجهل المركب والخيالات الفاسدة . ومما لا شك فيه أن الأهواء تختلف جد الاختلاف ، وأن الجهال إنما يستمدون من العواطف والأوهام ، لا من العقول والأفهام . فماذا يكون الحال إذا سلطناهم على الشريعة يفهمونها بآرائهم ، ويلعبون فيها بأهوائهم ؟!

هذا ومعلوم أن المستفتى لا يسأل العالم عن رأيه ولا ما يستحسنه بمحض هواه ، ولكن يسأله عن حكم الله فى المسألة ؛ وسؤاله لأهل الذكر عن حكم الواقعة إنما هو ليجيبه المسئول بما يعلمه من الكتاب والسنة ؛ فسؤاله عن حكم الله لا عن آراء الرجال التى لم تستند الى كتاب أو سنة كما يتوهمون ثم يشنعون .

وكيف تجيئ هذه الخيالات أو تروج تلك الترهات فيمن لا يدين إلا بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله ورسوله ولا حراما إلا ما حرمه

الله ورسوله ؟ لكن لما لم يكن له علم بما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ، ولا بطريق الاستنباط من دلالة الإشارة مثلا ، سأل عالما راشدا ، معتقدا أنه مصيب فيما يقول ؛ فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته عما أفتاه به . فكيف ينكر هذا أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزالا في المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ! ومن الذى يعتقد أن هناك فقيها أوحى الله إليه ؟ فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولولا ذلك ما قلد مؤمن مجتهدا .

وعلى كل حال فمن ذهب الى هذه النزعة الحمقاء فقد أنكر على كل من فوق البسيطة من جميع المسلمين الذين قلدوا الأئمة وأخذوا بكتب الفروع ؛ وما كتب الفروع إلا شرح للكتاب والسنة ؛ فما الذى يوجب التنفير والتحذير مما مرجعه الى الكتاب والسنة ؟ وهل يمكن العامة أن يفهموا الكتاب والسنة لولا ما كان من أئمة الهدى رضى الله عنهم ، كيف وفيهما المجمل والمبين ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والمنطوق والمفهوم ، وغير ذلك ؟

وقد قال ابن عباس : « إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته » . وعرّفنا صلى الله عليه وسلم أن للقرآن ظهرا وبطنا وحداً ومطلعا ، (ولكن هؤلاء يريدون أن يطلعوا بغير مطلع ، ويجتهدوا بغير علم ، ويتكلموا بغير عقل) . وكم من سر وحكمة نبهت عليهما الإشارة ولم تبينهما العبارة .

ولعمرى إن أكثر من يدعون العلم اليوم لا يفهمون وجه الدلالة ولا مدرك الأئمة ، خصوصا إذا كان الدليل ذا مقدمات يتوقف تقريب الاستدلال بها على أمور قلما يكون لأمثالهم إلمام بها . فما أبعد ما طوحت بهم الطوائح ، وما أعجب ما بلغ بهم الإعجاب !

إن الأخذ من القرآن والسنة يحتاج الى علم واسع ونور ساطع يفرق صاحبه به بين الحق والباطل ، فضلا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وصرف ، ومعان وبيان وأصول الخ .

وقد رأينا المعتزلة يقولون إن القرآن يشهد لمذهبهم ، والخوارج يدعون أن القرآن ناطق بنحلتهم ؛ والباطنية يزعمون أن للقرآن معنى آخر غير معناه الظاهر ، والبابية يعتقدون أن له معنى غير ما فهمه الجميع ، الى آخر الفرق الضالة والنحل الزائفة . فهذه الفرق كلها كانت تستمد من القرآن على زعمها ؛ فكيف ندعه بعد ما رأينا ذلك كله لأهواء الجهلاء وآراء الأغبياء ؟ وقد كان كبار المحدثين المخلصين يقلدون الأئمة المجتهدين ، علما منهم بأن رواية الحديث لا تكفي في الاجتهاد . وقد قالوا : إن المحدث بمنزلة الصيدلي والمجتهد بمنزلة الطبيب . ولقد رأينا من الناس من ضل بظواهر المتشابهات من القرآن والأحاديث .

الخلاصة

والخلاصة أن أقوال المجتهدين المأخوذة من الكتاب والسنة ضرب من البيان والتفسير . وقد عرّفوا الاجتهاد بأنه استنفاد الجهد بالنظر في المآخذ الشرعية لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعي . أما دعوى وجوب الأخذ من الكتاب والسنة لكل أحد فباطلة بإجماع الصحابة ؛ فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد والنظر كما قلنا ؛ وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم . وأيضا الإجماع منعقد على أن العامي مكلف بالأحكام ؛ وتكليف طلب رتبة الاجتهاد تكليف بالمحال ؛ فليس عليه إلا أن يعرف حكم الله بأي طريق على مقتضى ظنه . (ووجوب العمل بالحكم عند الظن معلوم لا نزاع فيه) .

ومن المعلوم أن تقليد الأئمة ليس تركا للآيات والأحاديث ، بل هو عين التمسك بهما . فإن الآيات والأحاديث ما وصلت إلينا إلا بواسطتهم ، مع كونهم أعلم ممن بعدهم بصحيحها وحسنها وضعيفها ، ومرفوعها ومرسلها ، ومتواترها ومشهورها ، وأحاديها وغريبها ، وتأويلها ، وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، والناسخ والمنسوخ ، وأسبابها ولغاتها ، وسائر علومها ، مع تمام ضبطهم وتحريرهم لها ، وكمال

إدراكهم وقوة ديانتهم، واعتنائهم وورعهم ونور بصائرهم، فتفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد العلوم التى لابد منها فى ذلك، واستخرجوا أسرار القرآن والأحاديث، واستنبطوا منها فوائد وأحكاما، وبينوا للناس ما يخفى عليهم على مقتضى المعقول والمنقول، فيسّروا عليهم أمر الدين، وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الأصول ورد الفروع إليها، فاستقر من الدين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بسببهم الخير العميم، كما قال إمام الحرمين.

كلمة ختامية :

إن أمثال هؤلاء المتهورين لا يصح أن يكونوا من أئمة الهدى ولا علماء الدين، فإن أخص أوصاف الأئمة والعظماء : الرزانة والأناة، واحترام غيرهم من العلماء، والشفقة على الأمة، ووراثة الرسول صاحب النظر الواسع والحكمة البالغة والسماحة المتناهية.

وينبغى أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهاد يجب ألا يتنازع فيه الناس؛ فالأمر فيه واسع؛ فكم اختلف الصحابة والتابعون وتابعوهم مع محبة بعضهم لبعض، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعى ماله مرارا؛ وقد خالفه فى أشياء كثيرة وهو تلميذه. وقد قالوا : إن المنكَر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعا على إنكاره.

وإنى أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك؛ بل نتنزل قليلا ونقول لهم : أفتوجبون علينا تقليدكم وأنتم تحرمون التقليد، أم ماذا ؟ !

هذا والله غض من شأن الأمة وعلمائها وأئمتها، وهى تلك الأمة التى أدهشت التاريخ وأنطقت أعداء الاسلام بفضل الاسلام؛ وقد صورتموها يا حضرات المتفيهقين بصورة الأغنام التى تتبع كل ناعق، وهى من الحكمة والفلسفة بالمحل الذى لا ينكره منصف أوربى فضلا عن عالم إسلامى. وأما رميكم إياهم بأنهم كانوا يتبعون أئمتهم اتباعا لا مناقشة فيه ولا تبصر معه ولا حياة فى ذويه فهو غير صحيح؛ فإنهم كانوا عقلاء حكماء

مخلصين، على بصيرة من أمرهم؛ فكان كلٌّ يقف عند حده ولا يتخطاه، فإذا ظهر له الحق اتبعه لا محالة، فإن المسلمين عموما لا يريدون إلا اتباع الرسول لا غير؛ وإذا اتبعوا إماما فإنما يتبعونه فى أن هـذا هو سنة الرسول وشريعته فيما يعتقدون. ولا يتصور غير هذا.

أما كونه مخطئا فى الواقع أو مصيبا فذلك شيء لم يكلفهم الله به، ولا يخلو منه مجتهد ولا مقلد؛ والخطأ الى من يجتهد وليس أهلا للاجتهاد أقرب منه الى من يقلد المجتهد الموثوق به المشهود له بالإمامة. وهذا تنزل اقتضاه المقام، وإلا فاجتهاد من ليس أهلا للاجتهاد من أكبر الكبائر وأعظم الجنايات على الدين وأهـله. على أن أتباع الأئمة لم يكونوا من تقليدهم على ما يزعم هؤلاء، فإنا نرى أبا يوسف ومحمدا كثيرا ما يخالفان أبا حنيفة، بل لا نكاد نجد مسألة لا يذكر فيها ذلك الخلاف الذى يبين استقلالهم وشدة حرصهم على اتباع الحق متى ظهر دليله.

وهاهو ذا الامام الشافعى يقرر فى مذهبه الجديد أن المغرب لا يمتد وقته الى الشفق. ولكن أصحابه عدلوا عن قوله اتباعا للدليل. وكذلك لا يرى صوم أحـد عن الميت، وخالفه أصحابه اتباعا للدليل. وكم لابن عبد البر وأبى بكر بن العربى المالكيين من مخالفات فى مذهب مالك، وكذا غيرهما. الى آخر ما لا يسعه هذا المقال.

ولكن كانوا يعرفون درجتهم، فما يتبين لهم دليله اتبعوه وقالوا به ولو خالف الامام، وما لم يتبين لهم فيه شيء كانوا فيه على رأى الإمام، علما بأنه أعلم منهم بالسنة وأعرف بروح الشريعة. وهكذا يجب أن يلتزم كل إنسان حده ولا يتعدى درجته. فكان لكبار الأئمة الاستقلال التام، ولأكابر تابعيهم الاستقلال الجزئى من التضعيف والترجيح، وللعامة الاتباع، فإنه لا يصح فيهم غير هذا، وهو عين الحكمة. ولولا ذلك لصار الدين لعبة بيد الجهال، وهذا ما نخاف منه ونحاول القضاء عليه. وليس معنى ذلك أننا نقول بعدم جواز الاجتهاد، أو أنه أغلق بابه كما يقولون، فإن

أبواب فضل الله لا تغلق . وهل هذا إلا حجر على الله عز وجل ؟ ولـكن هناك فرق كبير بين إمكان الشيء ووقوعه ، وبين إسناده الى أهله وإسناده الى غير أهله . وقد أصبحنا فى زمان ضاعت فيه الحدود ، وتعدى كل إنسان طوره ، ولم يعرف قدره ، وهى أ كبر مصائبنا وأعظم بلايانا التى نئن منها ولا نعلم منتهاها :

ليت شعرى عواقب الأمر ماذا والى ما بنـــا المآل يؤول

وإنا نحكّم القراء الكرام بيننا وبينهم ، فنبسط وجهة نظرنا ونظرهم ، وطريقتنا وطريقتهم بالاختصار ، عسى أن ينقطع المراء والجدال :

نحن نرى أن النـاس على درجات شتى فيما وهبهم الله من الاستعداد الفطرى ، وفيما أحاط بهم من ضروب التربية المختلفة والبيئات المتنوعة ، وما قدر لهم من فنون الشواغل ، وما عنوا به مما أقامهم الله فيه . نرى أن كل طبقة لها حكم يخصها ، فمن وصل الى درجة الاجتهاد وجب عليه الاجتهاد وكان آثما بتركه ؛ ومن وصل الى درجة الترجيح وجب عليه ذلك ؛ ومن قعد به استعداده أو تربيته أو بيئته ، أوما أحاط به من شواغل المعيشة أو الوظيفة ، فعليه أن يقلد من يثق به ويعلم أنه غير جاهل بدين الله ولا غاش فيه . ومتى انقدح فى ظنه أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز له مخالفته ؛ فهو مثل المجتهد سواء بسواء متى ظن أن هـذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز أن يخالف ظنه ، بل ذلك غير معقول ، فانه إذا لم يكن يعتقد أن هـذا هو حكم الله فكيف يتبعه ؟ وقد قال العلماء : إن ذلك علم ويقين وإن كان فى طريقه ظنون . وهذا هو ما فى الوسع ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وليس من المعقول أن يظن أن حكم الشريعة هو كذا مثلا ثم يعدل عنه الى غيره .

أما إخواننا (أصحاب النهضة الحديثة والطفرة غـير المعقولة) فيرون وجوب الأخـذ من الـكتاب والسنة بلا مراعاة لشروط الاجتهاد ، ولا تفرقة بين ضروب الاستعداد . وهـذا مبدأ خطر جدا ، إذا جرينا عليه عمت الفوضى وفسد أمر الدنيا

والآخرة ؛ فمن المحتم لصلاح المجتمع وتمام النظام أن يعرف كل إنسان قدره ولا يتعدى طوره ، وأن توزع الأعمال : فهذا للتجارة وهذا للزراعة ، وهذا للعلم وذاك للاجتهاد ، وغيره للتقليد ، وهلم جرا . وعلى هذا بناء الوجود وصلاح العالم ، والقاعدة واحدة فى أمور الدين والدنيا ، وقد خلق الانسان ضعيفا « ولكل وجهة هو موليها » « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » .

وإنى أعجب لهؤلاء كيف يجعلون أمر الاجتهاد أقل من جميع الصنائع التى لا يجتهد صاحبها إلا اذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر ، حتى يعرف أسرارها ودقائقها ، ويصبح من ذوى التبريز فيها . وكأن مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا !

وقد رأيت لبعضهم ردا يحمل سقوطه فى طياته فلم أعبأ به ولم ألتفت إليه . وماقامت قيامة هذه الطائفة إلا من قولنا لهم : إنه يجب إعطاء المراتب حقها . ثم بالغنا فى التصريح ولم نستعمل السياسة ولا المواربة فقلنالهم : إنكم لا تصلحون للاجتهاد ولا بلغتم درجته ، واجتهادكم لا يأتى إلا بشر الغايات وأعظم الآفات ؛ فاعرفوا قدر أنفسكم واتقوا الله فيها .

ثم نقول لمزيد الإيضاح بعد ذلك كله : إن من المقرر أنه لا يجوز خرق الإجماع ؛ ومن الذى يستطيع ذلك إلا من عرف أقوال العلماء وأحاط بمواقع الخلاف والاتفاق ، الى غير ذلك من المهامه الفيحاء التى تنقطع فيها أعناق المطى ويضل فيها الخريت . وقد ذكروا أن المرجحات التى توجب تقديم بعض الأحاديث على بعض عند التعارض تزيد على الخمسين ، فكيف نلزم الناس بالاجتهاد ونحرم عليهم التقليد بعد ذلك كله ؟

أسأل الله أن يرزقنا الإنصاف ، ويجنبنا الاعتساف ، ويجعلنا من أهل الرحمة والحكمة ، بمنه وكرمه !

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

سيرة قتيبة بن مسلم

أتينا فى أعداد ماضية على سير القواد الاسلاميين الذين تولوا فتح الأبواب العالمية فى وجه الاسلام ، واليوم نأتى على سيرة قتيبة بن مسلم فاتح السند والطالقان وسمرقند وغز وكش و نَسف والشاش وفرغانة وبخارى وخوارزم وطخارستان وأفغانستان حتى انتهى الى أسوار الصين فضرب عليها الجزية ، فكانت فتوحا تزرى بفتوح الاسكندر المقدونى ، وترفع من شأن القيادة الاسلامية على القيادة المقدونية اليونانية ، وتشهد للجنود الاسلاميين بصلابة العود ، وتحمل المشاق ، والتفانى للوصول الى الغايات البعيدة . وليس لهذا كله من سبب سوى ما بعثه الدين الاسلامى فى قلوب المسلمين من الروح المعنوية ، روح الإخاء والتساند ، والعقيدة التى غرسها فى نفوسهم من أن من يعمل على جعل كلمة الله هى العليا ويموت فى ذلك السبيل يكون شهيدا ليس له جزاء إلا الجنة. ولقد تأصلت هذه العقيدة حتى امتزجت بدمائهم وسرت فيها سريان الماء فى العود الأخضر ، ولم يكن لواحد منهم همٌّ ولا غاية من جهاده إلا أحد أمرين : إما أن ينتصر الدين ، أو يموت المجاهد فى سبيله .

ميلاد قتيبة بن مسلم ونسبه ومناقبه :

هو قتيبة بن أبى صالح مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلى . ولد سنة (٤٩) هـ . كان أبوه مسلم كبير القدر مقربا من يزيد بن معاوية . ومسلم هذا هو صاحب الحرون وهو من فحول الخيول ذوات الشهرة ، كان يضرب به المثل فى الأصالة . وقد نشأ قتيبة فى هذه البيئة نشأة صالحة ، وظهرت عليه سمات النجابة ، وما زال يتقلب فى أدوار الحياة حتى بلغ سن الرجولة ، فلفت نظر الحجاج بن يوسف وتوقع فيه الكفاية لأعلى

المناصب ، فولاه خراسان ، وهى ولاية فارسية كان الحجاج مولى عليها هى والعراق من قبل عبد الملك بن مروان .

يلاحظ القارىء أن قتيبة المذكور كان من بنى باهلة ، وهذه القبيلة كانت محتقرة فى نظر بقية العرب فى مستوى بنى غنى وبنى سلول ، ولكن الاسلام قد سوى بين الناس وعمهم بالعدل المطلق ، فاستطاع مسلم بن عمرو أن يرتفع على من سواه فى نظر يزيد بن معاوية ، ولم تمنع ابنه قتيبة هذه النسبة من أن يرتفع الى درجة أكبر القواد . وقد روى أن الأشعث بن قيس الكندى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « أتتكافأ دماؤنا ؟ فقال : نعم ، ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك به » .

وأوجه ما ذكره أئمة الأدب عن سبب اتضاع بنى غنى وبنى باهلة ماذكره حسين ابن بكر الكلابى النسابة فقال : « لقد كان فيهما غناء وشرف ولم يضعهما إلا إشراف أخويهما فزارة وذبيان عليهما بالمآثر فـدنئوا بالاضافة اليهما » أى أنهما فى نفسيهما ليسا بوضيعين كما يتوهمه البعض .

لما أخذت أخبار الفتوحات تترى على الحجاج من ناحية قتيبة بن مسلم قال : بعثت قتيبة فتى غرا فما زدته ذراعا إلا زادنى باعا .

ولما تمت لقتيبة هذه الفتوحات العظيمة استدعى اليه نهار بن توسعة شاعر المهلب ابن أبى صفرة وقال له : أين قولك فى المهلب لما مات :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يانهار ؟ قال : لا بل أحسن . ثم قال نهار : وأنا القائل :

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الشرك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ولايته على خراسان وفتوحه البلدان :

ولى الحجاج بن يوسف قتيبة بن مسلم خراسان سنة (٨٦) هـ . وهو ابن

سبع وثلاثين سنة . فلما وصل اليها عرض جيوشها ، ونظم شئونها ، ثم شمر للجهاد على رأس جيش جرار ، بعد أن جعل على المهمات الحربية بمرو إياس بن عبد الله بن عمرو من مهرة القواد ، وجعل على الخراج عثمان بن السعدى ، وسار هو ليعبر النهر الى أرمينية وبخارى والتركستان ، فتسامع ملوك تلك الأقطار النائية بهذه الحركة ، فمنهم من أدرك أنه لا قبل لهم بقتال المسلمين فأضمروا التسليم ، ومنهم من اعتزموا المقاومة والاستبسال دفاعا عن أوطانهم ، وذيادا عن حياضهم . كان من الفريق الأول ملك الصغانيان ، فإنه أقبل على قتيبة بعد اجتيازه النهر مقدما اليه الهدايا والتحف وطالبا اليه أن يحتل بلاده ليتخلص بذلك من غارات مملكة أخرون ومملكة سومان عليه (١) . ثم زحف قتيبة على هاتين المملكتين ، وهما من طخارستان ، فصالحه ملكهما على جزية أداها اليه . ثم عاد الى مرو وهى قاعدة معسكره واستخلف على الجند أخاه صالحا ، ففتح هذا كاشان وأورشت من فرغانة ، ثم أخسيكت وهى فرغانة القديمة ، وكان معه القائد المحنك ابن يسار ، فأبليا بلاء حسنا .

لما صالح قتيبة ملك سومان كتب الى البطريق طرخان صاحب باذغيس ليسلم اليه ماعنده من أسرى المسلمين وهدده ، فبعث بهم اليه . ثم كتب الى البطريق يستقدمه على الأمان ، فتثاقل خوفا ثم قدم وصالح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتيبة .

ثم زحف قتيبة على بيكنداد من مدائن بخارى فاستغاث أهلها بالصغد من شعوب التركستان البواسل ، فخفوا لإغاثتهم فى جموع كثيفة ، وتقصدوا قتيبة ، فحاصروه حصارا محكما ، فانقطعت أخباره عن بلاد المسلمين شهرين متتابعين ، وظن الناس به وبجنوده الظنون . وكان هو فى هذه الآونة يدافع عن نفسه ويقلق العدو بمناوشاته المتوالية ، ثم حمل عليهم حملة صادقة فاخترق صفوفهم وأثخن فيهم ، فطلبوا اليه الصلح فقبله منهم

(١) هذان الاسمان وما يرد فى هذه المقالة من اسماء الممالك كلها كانت قائمة فى الحيز الذى تشغله الآن السند وبلوخستان وبخارى والتركستان الروسى والتركستان الصينى . وقد تغيرت حدودها مرارا حتى آلت الى ما آلت اليه اليوم .

وجعل عليهم عاملا من قبله ، فما كاد يسير قليلا حتى حسّنت لهم أهواؤهم الغدر ، فقتلوا عامله واستولوا ثانية على حكومتهم ، فلما بلغ قتيبة ذلك اشتد غضبه عليهم ، فعاد اليهم وهدم سورهم ودخل المدينة فقتل مقاتلتها كلهم ، وسبى من سبى ، وغنم كل ما فيها من السلاح والأواني الذهبية والفضية ، فكانت غنيمة لم يصيبوا مثلها قط .

وفي سنة ثمان وثمانين زحف على نومكشت فصالحه أهلها على الجزية ، ثم قصد رامسة فصالحه أهلها على شروط صلح نومكشت .

فلما رأت الشعوب التي تقيم في تلك الأصقاع هذه الفتوحات العظيمة أجمعت أمرها على التفاني في الذود عن بيضتها والدفاع عن كرامتها ، فأجمع الترك والصُغْد وأهل فرغانة على منازلة جيوش المسلمين ، فصمدوا اليها في مائتي ألف رجل تحت قيادة الملك كور بغابور ابن أخت ملك الصين ، فكانت حروب بين الطرفين يشيب لهولها الولدان ، وتتحدث بها الركبان ، ثم تمكن المسلمون من هزيمة أعدائهم بتفانيهم في الدفاع عن أنفسهم وبحسن قيادة أميرهم ، وبعد أن أزال الخطر عن الحاميات الاسلامية الموجودة في تلك البلاد ، وأمن على فتوحاته من شر الانتقاض ، عاد الى مرو .

وفي سنة (٨٩) صدر اليه أمر الحجاج بن يوسف الثقفي بغزو بخارى ، فعبر اليها النهر من مدينة زم ، فلقيه هنالك الصغد وأهل كش ونسف في مفازة لا ماء فيها ولا قوت ، فدارت بين الفريقين حروب من أشد ما يعرف عن أمثالها ، وانتهت بفوز قتيبة بن مسلم على أعدائه ، فسار قاصدا بخارى فحاصرها ، وهم باقتحامها فالتوى عليه أمرها ، فتركها ورجع ليعاود فتحها بعد حين .

وفي سنة (٩٠) أمره الحجاج بالعود الى محاولة فتح بخارى ، فسار اليها فشدد الحصار عليها ، فاستنجد ملكها بمن حوله من الصُغْد ، والترك ، فلما وصل مددهم خرجوا جميعا الى المسلمين ، فانهزموا أولا ثم كروا وقاتلوا الترك حتى ردوهم على أعقابهم

الى موقفهم الأول ، ثم قذف اليهم قتيبة بفرقة من جنوده فتقدمت حتى خالطت الترك وأزالتهم عنه ، وكان بين بخارى وبين المسلمين نهر فعبروه ، واضطر خاقان بخارى وولى عهده أن يخرجوا فى جيوش جرارة ليقاتلوا المسلمين ، فحدثت معارك من أشد ما شهد الناس من أمثالها انتهت بهزيمة البخاريين وضياع مملكتهم .

فلما بلغ هذا الفتح طرخون ملك الصغد حضر الى معسكر قتيبة طالبا الصلح ، فمنحه إياه قائد المسلمين ، وكان فى معسكر المسلمين الملك نيزك صاحب باذغيس من التركستان بعد أن سلم واحتلوا بلاده ، فهاله ما رأى من حركات قتيبة ونجاحه الباهر ، فاستأذنه فى الرجوع الى بلده فأذن له ، فقصد طخارستان يريد التأليب على المسلمين ، فبعث قتيبة اليه من يقبض عليه فلم يدركه . أما هو فأظهر العصيان فى بلاده وأغرى به الأصبهند ملك بلخ وباذان ملك مرو والروز ملك الطالقان وملك القاريات وملك الجوزجان ، فاجتمعت كلمتهم على صد زحف قتيبة بن مسلم وإرغامه على الرجوع الى بلاده ، فلم تنثن عزيمة هذا القائد العظيم ، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم فى اثنى عشر ألفا الى البروقان وأمره أن يقيم هنالك حتى ينقضى الشتاء ولا يحدث شيئا ، وقال له : إذا انقضى الشتاء فتقدم الى طخارستان وأنا قريب منك .

واستقدم قتيبة جنودا من نيسابور وغيرها ، فقدموا فسار بهم نحو الطالقان وهى من الممالك الثائرة ، ففتحها وأثخن فى أهلها ، ثم استخلف عليها أخاه محمد بن مسلم وسار هو الى القاريات ، فخشى ملكها أن يحل ببلاده ما حل بالطالقان فسلم ، فعين عليها قتيبة واليا من رجاله ، وسار قاصدا الجوزجان فلقيه أهلها بالطاعة على الرغم من ملكهم ، فاضطر الى الهرب ، فعين قائد المسلمين عليهم واحدا من قواده وهو عامر بن مالك ، ثم سار الى بلخ فخضع له أهلها وصالحوه على الطاعة .

ثم قصد قتيبة نيزك موجد هذه الفتنة ، فوجده قد جعل مقاتلته على فم الشعب المؤدى الى بلاده ، فأقام المسلمون أياما يقاتلونهم ولا يهتدون الى مكان يقتحمونه منه ،

حتى دلهم بعض العجم على طريق يتسرب منه الى حصنهم ، فسلكوه حتى وصلوا الى معسكر العدو ، فحدثت بين الفريقين موقعة عنيفة انتهت بفرار المدافعين . فانتقل نيزك الى وادى فرغانة وبعث أثقاله وأمواله الى كابل (عاصمة أفغانستان اليوم) ، ومضى الى الكون فتحصن به ، وهو من أمنع المعاقل ، فحاصره قتيبة بن مسلم شهرين متتابعين ثم استولى عليه .

بعد هذا النصر أرسل اليه ملك الجوزجان يستأمنه ، فأمنه على أن يأتى اليه ، فطلب اليه ملك الجوزجان رهنا فأعطاه ، وقدم عليه مقدما الطاعة ، ثم عاد الى بلاده ، وكان ذلك سنة (٩١) هـ

ثم سار الى شومان وكان ملكها قد طرد عامل قتيبة ، فأرسل اليه رسولا ينصحه بأن يعيد العامل الى عمله ، فأبى فساق اليه قتيبة الجنود وحاصره وأخذ يضرب حصنه بالمجانيق حتى هدمه ، فخرج الملك ومن معه من المقاتلة ودافعوا عن أنفسهم حتى قتلوا .

ولما انتهى من هذه بعث أخاه الى الصُغْد وملكهم طرخون ، فأعطى ما كان صالح المسلمين عليه من الجزية . وسار قتيبة الى كش ونسف فصالحه أهلهما .

وفى سنة (٩٢) قصد سجستان فصالحه أهلها . وكان ملك خُوَارَزْم قد غلبه أخوه الأصغر على أمره وعاث فى المملكة فسادا ، فكتب الى قتيبة يستقدمه ليسلمه بلاده على شرط أن يسلمه أخاه والذين يشايعونه ، فقبل منه وسار على رأس جيش موهما أنه يقصد الصغد ، فلم يأبه أهل خُوَارَزْم لحركاته ، ولكنهم ما عتموا أن رأوا أنه نزل هزارسب وهى قريبة من قاعدة ملكهم ، فثاروا الى ملكهم طالبين منه أن يأذن لهم فى محاربته ، فقال لهم : لا طاقة لنابه فلنصالحه كما فعل غيرنا ، فقبلوا منه ذلك وفاوضوا قتيبة فى هذا الأمر فقبله ، وسار الى الغيد وضرب عليها الجزية .

وانتقل قتيبه بعد ذلك الى خام جرد ، أحد ملوك تلك الأصقاع ، فقاتله وقتله واستولى على أرضه .

ثم وجه جيوشه صوب بلاد الصُغْد . وكانت على مسافة عشرة أيام من خوارزم فقدم أخاه فى الفرسان والرماة وبعث بالأثقال الى مرو ، وخطب جنوده وحثهم على الثبات والصبر ، ثم سار قاصدا الحرب فلحق بأخيه بعد ثلاث ، فحاصر الصغد بسمرقند شهرا ، وكانوا قد أثاروا أهل الشاش وأخشاد صادقان وفرغانة ، فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والأساورة ، وهذه رتب عسكرية عندهم ، وولوا عليهم ابن خاقان قائدا عاما لصد تيار المسلمين ، فانتخب قتيبة لقتالهم أنجب رجاله تحت قيادة أخيه صالح ابن مسلم ، فقاتلوهم حتى هزموهم ولم يفلت منهم إلا القليل ، وكان فى القتلى ابن خاقان نفسه . ونصب قتيبة المجانيق على سور سمرقند ، ومازال يضربها بها حتى ثلم سورها ، واشتد القتال بين الفريقين ، فطلبوا الصلح فلم يضن به عليهم ، وحدث الاتفاق على دفع بلاد الصغد جزية سنوية ألفى ألف ومائتى ألف مثقال من الذهب فى كل عام ، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ، وأن يمكنوه من بناء مسجد بسمرقند ، وأن يخلوها حتى يدخلها ويصلى فيها فقبلوا ، فدخلها وصلى بمسجدها ، ثم جعل رجلا من قواده عاملا له عليها ، وولى المغيرة ابن عبد الله على نيسابور .

وفى سنة (٩٤) هـ فرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عددا من الجنود ، فأرسلوا اليه بعشرين ألفا فبعث بهم الى الشاش ، وسار هو الى خجندة فقاتله أهلها مرارا ثم سلموا له ودخلوا فى طاعته .

ثمرة هذه الفتوح العظيمة :

إن هذه الفتوح لا يفى بالإشادة بها أى تعبير ، فإن المسافة بين الفرس وحدود الصين شرقا وبين سيبريا وحدود الهند جنوبا يكاد يعجز السائح المخف عن قطعها والتجوال فيها ، فكيف بالجيوش الجرارة وما تستدعيه من أثقال ومؤن وذخائر وعلف للخيول ؟ وإذا كان مجرد الجولان فيها من الصعوبة بمكان ، فكيف بالقتال فيها ومحاصرة المدن والقلاع ؟

وإذا كان هذا كله قد تيسر له ، فكيف يعقل أن يغامر قائد بعدد محصور من الرجال فيلقى بنفسه فى وسط أمم كلها حربية شديدة البأس ، فينتصر عليهم هذه الانتصارات الباهرة ، أو تدرى ما حدث بعد هذه الانتصارات مما يهم حياة الدين الاسلامى ؟ حدث أن هؤلاء الأقوام رأوا من مدنية المسلمين وعطفهم على الضعفاء والمقهورين ، مالفتهم لدراسة دينهم ، فدخلوا فيه أفواجا أفواجا ، مع أن الجزية التى كانت تؤخذ منهم ما كانت لتبلغ ربع ما كانوا يدفعونه لحكوماتهم الوطنية ، وما مضى عليهم فى الاسلام سنون معدودة حتى أصبحوا من أنجب أهله علما وعملا ، وقد نبغ منهم أئمة رفعوا علم الاسلام عاليا ، وبنوا له مجدا باذخا ، فمن الذى يصدق أن البلد الذى يفتحه قتيبة بن مسلم فى سنة (٩٢) يُنْجِب بعد هذا التاريخ بنحو خمسين سنة إمام المحدثين ، وشيخ شيوخه أجمعين ، وهو الامام البخارى رضى الله عنه ؟ ولا أذكر لك من يدعى منهم بالنيسابورى والسمرقندى والنسفى والخوارزمى والأربلى والترمذى الخ الخ ، وكلهم من تلك الجهات المباركة التى لا تزال معاقل الاسلام الحصينة . فلقتيبة بن مسلم يد فى بناء صرح الاسلام تضعه فى مصاف كبار القادة الاسلاميين الذين فتحوا الأبواب العالمية فى وجه الاسلام ، وسهلوا له الجولان فى الأرض .

قتل فى سنة (٩٦) هـ رحمه الله رحمة واسعة .

محمد فريد وجدى

نحوط القضاة فى الاسلام

قال الشعبى : كنت جالسا عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكى زوجها وهو غائب ، وتبكى بكاء شديدا . فقلت : أصلحك الله ما أراها إلا مظلومة .

قال شريك : وما علمك ؟

قال الشعبى : قلت لبكائها .

فقال شريك : لا تفعل فان إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وهم ظالمون !

كيف تخلص العلم من النظريات المادية

أثبتنا هنا فى بحوث منوعة أن المادية قد انجابت غياهبها عن العلوم الطبيعية فى هذا العصر، ونريد اليوم أن نمد هذه البحوث ببراهين جديدة لزيادة مادة هذه الدلائل القاطعة التى لا غنى لكل مشتغل بإصلاح القلوب والعقول عن اللجأ إليها :

تناول الأستاذ (باريت) Barrett مدرس الطبيعة بجامعة أدمبره هذا الموضوع فى كتابه (على عتبة العالم الآخر) فقال :

« إن المادى قد حبس نفسه فى سجن حواسه الخمس ، ولذلك هو يتوهم أن كل ما لا يدركه بواحدة منها غير موجود ، وتراه يحاول أن يثبت أن الحياة لا تقوم بدون المادة ، وأن الجواهر الفردة لهذه المادة تنطوى على الاستعداد لقبول كل صورة وكل حياة كما يقول الأستاذ (تندل) Tyndall » .

قال الأستاذ باريت : « ولكن كثيراً من علماء الطبيعة يرفضون هذا القول ، فقد كتب لى الأستاذ (بلفور ستوارت) سنة ١٨٨١ يقول : « لقد اتضح وضوحا تاما أن اعتراف العلم بوجود العالم الروحانى أمر لا بد منه لتقويم التعليم العقلى للنوع البشرى ، ولا أشك فى أننا واصلون الى هذه الغاية » .

« وقد تحققت ثقته برأيه هذا ، لأن علم النفس العصرى يؤيد المباحث الروحية . وأصبح الطبيعيون اليوم لا يعتقدون بوجود الجوهر الفرد المادى الذى افترضه (لوكريس) . وصارت نظرية قيام العالم بمحض القوانين الميكانيكية داحضة بعد أن كانت رائجة فى العقلية الألمانية . وجميع المقررات التى كان يلوكها المذهب المادى قد هوجمت مهاجمة عنيفة من الناحية الفلسفية منذ زمان طويل» .

« قال الفيلسوف الانجليزى المشهور (هربرت) :

« إن الافتراض الشائع القائل بأن الوجود المادى والكائنات الحية التى تحيط بنا يمكن أن نحيط بها علما مباشرا لاشك فيه ، وأن هذا العلم يؤلف مجموعة من الحوادث المحققة يمكن العقل أن يصدر عليها حكما صحيحا بدون الاستعانة بالايمان ، إن هذا الافتراض ضلال بعيد مؤسس على جهالة مدهشة بحقيقة القصور الطبيعى لخاصة المعرفة الانسانية التى أدركها المفكرون تمام الإدراك حتى فى العصور الأولى للفلسفة . والحقيقة أننا مضطرون لأن نجاوز حدود الظواهر ، وأن نؤمن بوجود قوى وحقائق لا نراها بأعيننا ، وذلك حين ندرس ماضى الخليقة والأشياء البعيدة والوجود المادى والروح الانسانية » .

نقول : يريد الأستاذ (هربرت) من قوله هذا أننا إذا لم نعتمد فى تكوين معارفنا على الايمان بضرورة وجود حقائق غير مرئية لنا ، فإنا لا نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة علمية عن الطبيعة وظواهرها .

وإذا اعترض علينا باحث سطحى بقوله إن العلوم الطبيعية مؤسسة على الأمور المحسوسة بواسطة المشاهدات والتجارب فما شأن الايمان بوجود حقائق غير مرئية لنا هنا ، أجبناه بقول الأستاذ (ا . ج . بلفور) الانجليزى فى كتابه أصول الاعتقاد ، وهو من أعلام العلم الطبيعى ، قال :

« ماذا نقول فى هذه التجارب العلمية ونحن نرى أنها لا تسلم من الخطأ ، بل لم يك فيها قط ما هو صحيح صحة مطلقة ، فإن تسعة أعشار مدركاتنا تأتينا من طريق حاسة البصر ، ويقول العلم إن كل ما يأتينا من طريق هذه الحاسة بلا استثناء خادع لا يصح الوقوف عند ظاهره » ؟

قال الأستاذ (باريت) شارحا هذا القول فى كتابه المتقدم ذكره :

« يعنى الأستاذ (بلفور) بما يقول أن صور الكائنات التى تقع تحت بصرنا وبريقها ولونها ، ليست هى خصائص لهذه الكائنات ، ولكنها مقتضى شعورات منا

تولدها الأمواج الأثيرية المنبعثة منها . هذا ما قررته لنا المباحث البصرية . لذلك يمكننا أن نقول مع الأستاذ بلفور بأن مدركاتنا باعتبار أنها مصادر معلوماتنا ليست هي وهمية فحسب ، ولكنها مضللة أيضا . مثال ذلك أن كل تأثر للعصب البصرى سواء أكان واقعا عليه من النور أو الضغط أو الكهرباء أو أى مؤثر كيمائى فهو يحدث على صورة برق لامع ، وقد اعتدنا أن نسميه بهذا الاسم . أليس فى هذا دلالة على أن إبصار العين للأضواء حتى مع تهييج عصبها بالمؤثرات المعتمة خداع بصرى محض لا يعبر عن حقيقة المؤثر فيها ؟ وقس على هذا كل المدركات التى تأتينا من بقية الحواس .

« فما أشد ما يكون الخلاف بين ما ندركه من الوجود الآن وبين ما ندركه منها لو حرمنا من بعض حواسنا الخمس ! وما أكبر ما يكون الفرق بين ما ندركه الآن بحواسنا هذه وما ندركه لو منحنا حواس أخرى تزيد اتصالنا بالعالم الخارج عنا ! ! !

« فجُلهنا أو تجاهلنا لهذه الحقائق ، وعدم اكتراثنا بالفرق العظيم بين مدركاتنا وبين الواقع ، هو السبب فى ترددنا والعلة فى وقوع المنازعات القائمة بين العلم والدين .

« إن من أوليات التعاليم فى فلسفة التعقل هى أن كل ما نعرفه عن الكائنات وعن الظواهر الخارجية يتألف من شعورات باطنية لنا ، ولكن كنه تلك الكائنات فى ذاتها محجوب عنا لا نعلم عنه شيئا على الإطلاق . فكل ما نعلمه يرجع الى حالات وجدانية أو رموز أوعلامات تثيرها فى عقولنا الحوادث الواقعة فى الخارج . أما الوجود المادى الحقيقى فإنا لا ندركه على ما هو عليه ولا على ما يشبه أن يكون عليه ، وليس عندنا أقل علم بالشىء الذى نسميه بالمادة » (راجع ما كتبه الدكتور ستونى Stoney فى المجلد السابع من محاضر الجمعية العلمية الملكية بدبلين صفحة ٤٧٥) .

هـذا ما قاله الأستاذ باريت شرحا لكلام الأستاذ بلفور . ثم زاد هذا الأمر الخطير تجلية بقوله :

« إننا نرى حركات إبرة الآلة التلغرافية ، ونتعلم قراءة الرسائل التى تحملها الينا ، ولكن هذه الإبرة المتحركة لا ترينا الانسان الذى يجعلها تتحرك ، ولا يوجد بينها وبينه

أقل شبه . فإذا كانت العلامات التلغرافية التى ترسمها الإبرة تعطينا رسائل ندركها بعقولنا ، فذلك لأن عقل المرسل لها هو من نوع عقولنا . إن الموجودات المعقولة التى تدركها مخاخنا وأعصابنا فى العالم المادى الخارجى ليست هى الكائنات الخارجية فى ذاتها ولا شيئا يشبهها ، لأن كنه العالم الخارجى محجوب عنا فلا نستطيع إدراكه على حقيقته كما قدمنا ، فإذا كنا نستطيع أن نفهم تلك الموجودات بعقولنا فما ذلك إلا لأن وراء الوجود الصورى عقلا كليا يناجينا بوساطتها .

« ولكن الوجود فى نظر المادى القح قائم بنفسه ، ولا مغزى له إلا ذلك المظهر الذى يؤثر به على حواسنا ، فذلك المظهر فى نظره هو الحقيقة التى ليس وراءها شىء . فإذا كان هذا المادى يبتنى لنفسه مذهبا ميكانيكيا محضا عن الطبيعة ، بمنحه للجواهر الفردة المادية قدرة خفية وضميرا خاصا بها ، فإنه يكون بذلك مانحا إياها خواص يعجز عن تعليلها . فنحن لذلك مضطرون للاعتقاد بوجود تدبير إلهى علوى ، كما نحن مضطرون الى أن ننظر الى الوجود باعتبار أنه مظهر لذلك التدبير وقائم بإرادته الإلهية . هذا فى الواقع هو أبسط وأصدق بيان لحقيقة الطبيعة » .

نقول : لقد ضاق الحصار على الماديين فأصبحوا لا يجدون لهم حيلة فى غير التسليم ، وقد ألقى أكثر قادتهم السلاح ، واعترفوا بضلالهم القديم ، وكل يوم يرد الينا من فلولهم العدد العديد .

مما تجب ملاحظته أن انهيار صرح المادية هذه المرة لم يأت من غلبة الجهل على الناس ، أو طغيان العامية على الشعوب ، فلا تطيق النظر الحر والقول الصريح ، كما كان يدعيه قادة هذا المذهب فى كل دور من أدوار الصراع بين المادية والدين ، ولكن أصاب الانهيار صرح المادية فى هذه المرة من ناحية العلم المادى نفسه ، فجاء تدهوره ذاتيا لا يرجى تلافيه بحال من الأحوال ، وبذلك أصبحت العقول بنجوة من تضليل هذا المذهب ، وخلص ما بين النفوس ومراميها الروحانية ، واتجهت الميول الى وجهة موصلة الى الكمال

المنشود مما يجعلنا نأمل صلاح الأحوال العالمية ، واستقرار الأمن والنظام فى الأرض وقيام المدنية على أصول أرفع مما هى عليه الآن تقف بها فوضى الأخلاق عند حدها ، وتصان الأموال والأعراض والعقول مما يدنسها أو يحط من كرامتها . وهذا هو العهد الذهبي المنتظر ، والله غالب على أمره واليه المصير ☾

محمد فريد وجدى

البيان فى حضرة أهل السلطان

دخل المامون يوما بيت الديوان ، فرأى غلاما جميلا على أذنه قلم . فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا الناشىء فى دولتك ، والمتقلب فى نعمتك ، والمؤمل لخدمتك ، الحسن بن رجاء .

قال المامون : بالاحسان فى البديهة تفاضلت العقول ، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته .

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمامون : لو لم أشكر الله إلا على حسن ما أبلانى فى أمير المؤمنين : من قصده الى بحديثه ، وإشارته الى بطرفه ، لكان ذلك من أعظم ما توجبه النعمة ، وتفرضه الصنيعة .

قال المامون : ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الافهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، ما لا يجده عند غيرك .

ودخل رجل على عبد الله بن خالد القسرى فقال : أيها الأمير إنك لتبذل ما جل ، وتجبر ما اعتل ، وتكثر ما قل ، فضلك بديع ، ورأيك جميع .

وقال رجل للحسن بن سهل : لقد صرت لا أستكثر كثيرك ، ولا أستقل قليلك .

قال الحسن : وكيف ذلك ؟

قال الرجل : لأنك أكثر من كثيرك ، وإن قليلك أكثر من كثير غيرك .

وقال خالد بن صفوان لوال دخل عليه : قدمت فأعطيت كلا بقسطه من نظرك ومجلسك وصلاتك وعداتك ، حتى كأنك من كل أحد ، وكأنك لست من أحد .

باب الأسئلة والفتاوى

اغلاق المحال التجارية يوم الاحد

ورد الى إدارة المجلة من أحد قرائها ما يأتى :

العرب فى مدينة سربايا شرعوا منذ شهر تقريبا يتتابعون فى إقفال دكاكينهم يوم الأحد ، ولا أبالغ — شهد الله — إذا قلت إن هذه المدينة الكبيرة خالية من عالم يوثق به أو يؤثر فى الجمهور كلامه ، ونظرا الى تفاقم الخطب وإجماعهم على تعطيل يوم الأحد لم أر بدا من اللجوء الى فتوى نور الاسلام الغراء وتبيينها حكم تعطيل يوم الأحد فى الشريعة الاسلامية الحنيفة .

الجواب

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على تحريم البيع وقت نداء الجمعة ، وألحقوا بالبيع غيره من سائر المعاملات ، فكان واجبا على كل من لزمته الجمعة أن يترك محل تجارته ويسعى لسماع الخطبة وأداء الصلاة . وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم فى غسل الجمعة والتطييب وقلم الأظفار والتبكير الى الصلاة . وكان كثير من السلف الصالح يغلقون محال بياعاتهم اشتغالا بهذه السنن المطلوبة قبل الصلاة ، حتى إذا قضوا صلاتهم عادوا الى عملهم ، كما قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

أما اتخاذ يوم الجمعة كله يوم عطلة ، فإنه ليس من الدين فى شىء . بل هذا العمل بدعة لعلها سرت الى المسلمين من مخالطيهم من اليهود والنصارى ؛ فلما كان النصارى

يتخذون يوم الأحد عطلة ، واليهود يتخذون يوم السبت عطلة ، رأى بعض المسلمين أن يتخذ يوم الجمعة كله عطلة . وهذا العمل من المسلمين لا يعطى العطلة فى يوم الجمعة كله صبغة دينية .

أما إغلاق المحال يوم الأحد ، فإن كان تشبها بالنصارى فهو حرام ؛ وإن كان لغرض الراحة فقط ولم يقصد به التشبه فهو مكروه أشد الكراهة سدا للذريعة ، لأن فى هذا العمل شبهة تعظيم اليوم . والله الموفق ؟ الحسينى سلطان ، يوسف المرصفى

هل مرض الزهرى يفسخ النكاح

وورد أيضا :

سئلت : هل يجوز فسخ النكاح من طرف الزوج أو الزوجة بالمرض المعروف الآن بالزهرى ؟ فبذلت الجهد فى مراجعة هذه المسألة فيما وصلت اليه يدى من كتب الشافعية فلم أجد ما يدلنى صريحا على ما أردت . وكل ما عرفت أنهم صرحوا بعدم جواز الفسخ بالمرض المبارك . فهل المرض المبارك هو الزهرى ؟ وإذا كان هو هو فهل هاتان اللفظتان عربيتان فصيحتان ؟ ومن أطلقهما عليه ؟ وما اسمه فى العربية الفصحى ؟ وأيضا إذا صدق ظننا فى عدم تجويز الشريعة السمحة الفسخ بهذا المرض الفتاك ، أرجو أن تبينوا الحكمة فيه ، لأن هذا المرض فيما يقرر الأطباء معد شديد الفتك والضرر بصاحبه ، بل كثيرا ما يعدى ويضر الجيل الأول ، وقد تصل عدواه وضرره الى الجيل الثانى والثالث ، وقد يختفى هذا الداء مدة فيظن المريض أنه قد شفى منه ثم يظهر مرة أخرى ، والشواهد على ضحايا من أعداء هذا الداء الوبيل كثيرة معروفة .

الجواب

اقتصر أصحاب الشافعى فى عد العيوب المثبتة للخيار فى فسخ النكاح على سبعة وهى : الجنون ، والجذام ، والبرص ، والجب ، والعنة ، والرتق ، والقرن . واقتصارهم

على ذكر هذه العيوب يقتضى أنه لا خيار فيما عداها . قال فى الروضة : «وهو الصحيح الذى قطع به الجمهور ، فلا خيار بالبخر ، والصنان ، والاستحاضة ، والقروح السيالة ، والعمى ، والزمانة ، والبله ، والخصاء ، والإفضاء » اه

هذا ما قطع به الجمهور من أصحاب الشافعى . ومقتضاه أنه لا خيار بالزهرى والجدرى ونحوهما من الأمراض ولو كانت معدية . ولكنا إذا رجعنا الى عبارة الشافعى فى الأم وجدناها تعلل ثبوت الخيار بالجذام والبرص بأنهما معديان منفران ، فإنه قال فى الأم : « وأما الجذام والبرص فإنه — أى كلا منهما — يعدى الزوج ويعدى الولد » . وقال فى موضع آخر : « الجذام والبرص مما يزعم أهل العلم بالطب والتجارب أنه يعدى كثيرا ، وهو مانع للجماع لا تكاد نفس أحد تطيب أن يجامع من هو به ، والولد قلما يسلم منه ، فإن سلم أدرك نسله » اه

فظاهر هذا التعليل أنه يسوغ إلحاق كل مرض معد مانع للجماع ويتعدى ضرره الى النسل بالجذام والبرص .

ولعل أصحاب الشافعى الذين لم يستعملوا القياس هنا نظروا الى أن الزهرى والجدرى والسل وسائر الأمراض المعدية المنفرة — وإن شاركت الجذام والبرص فى العدوى وعدم التمكن من الاستمتاع — يمكن مداواتها والبرء منها فى مدة قريبة ، بخلاف الجذام والبرص فإن مداواتهما نادرة جدا ؛ وإذا أمكنت المداواة على ندرة فإنها تحتاج الى مدة طويلة . لذلك لم يلحقوا شيئا من الأمراض المعدية بالجذام والبرص فى ثبوت الخيار فى فسخ النكاح .

ومع هذا فللحاكم من ناحية السياسة الشرعية أن يحول بين الصحيح والمريض بمرض معد من الزوجين : بعزل المريض أو إخراج الصحيح من مسكنه حتى يتم برؤه إزالة للضرر الذى يلحق الصحيح . والله الموفق .

هذا ، ومرض الزهرى لم يكن معروفا عند المتقدمين بهذا الاسم ، ولعلهم كانوا

يعتبرونه نوعا من الحصبة أو الجـدرى . وعامة المصريين يسمون الزهرى بالتشويش أو المرض الزفر . وقد اشتهر فى لسان المتأخرين من المصريين إطلاق كلمة (المرض المبارك) على الجدرى ، ومنهم من كان يطلقها على الحصبة .؟

الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفى الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

الذبح

وورد من حضرة الفاضل الشيخ سالم بن عقيل العلوى من مدينة سربايا أن الفقهاء من الشافعية نصوا على أن الذبيحة إذا فصلت رأسها عند الذبح يحل أكلها مع أن المجلة نشرت فى باب الفتاوى من الجزء الخامس من المجلد الخامس ما يفيد خلاف ذلك . فما وجه الجمع بين النصين فى مذهب الشافعى ؟

الجواب

إن فتوى المجلة كانت فى شأن الغلصمة وهى التى ذبحت من أعلى العنق فوق الحلقوم والمرىء من محـل الغلصمة . والغلصمة لحم بين الرأس والعنق كما فى القاموس . فكل ذبيحة فصلت رأسها من العنق من محل الغلصمة تكون ميتة ولا يحل أكلها ، إذ لا يتحقق قطع الحلقوم والمرىء إلا إذا نزل محـل الذبح عن الغلصمة وأبقى الذابح من الجوزة المعروفة شيئا . هذا أمر ظاهر عند الشافعية لم يختلف فيه أحد . وإليك بعض نصوصهم :

قال فى المجموع «شرح المهذب» ص ٨٧ ج ٩ : «ولو أمر السكين ملتصقا باللحيين فوق الحلقوم والمرىء وأبان الرأس فليس هو بذبح لأنه لم يقطع الحلقوم والمرىء» اه

وقال النـبراوى على الخطيب عند قول المصنف : والمجزئ منها قطع الحلقوم

والمرىء الخ : «ثم لا فرق فى قطع ما ذكر بين كونه من أسفل العنق أو من أعلاه بشرط أن يبقى من الجوزة المعروفة شىء فيما إذا كان القطع من الأعلى وإلا لم يحل » اه

وأما قول أبى اسحق صاحب المهذب : « ويكره أن يبين الرأس » وقول الشيخ ابراهيم الباجورى : « لو قطع الرأس كله كفى وإن حرم » فمعناه أنه لو أبان الذابح الرأس بعد قطع الحلقوم والمرىء كره ذلك أو حرم ، لأن قطع الحلقوم والمرىء كاف فى حل الذبيحة ، فإبانة الرأس بعد ذلك تعذيب للحيوان دون غرض شرعى ، فيكون حراما أو مكروها . وعبارة البرماوى صريحة فى ذلك ، وهى : « قوله : «قطع الحلقوم والمرىء » ولو مع بقية العنق فيكفى قطع الرأس كله وإن حرم للتعذيب » اه .

والخلاصة أن المغلصمة لا تحل باتفاق ، لأنها لم يقطع حلقومها ولا مريئها ، إذ لا يمكن قطعهما إذا ذبحت من الغلصمة ، فلا بد من النزول عن الغلصمة وهو المعبر عنه بقولهم : يشترط أن يبقى الذابح شيئا من الجوزة المعروفة نحو الرأس . وأن التى ذبحت من محل الذبح الشرعى فقطع حلقومها ومريئها وبالغ الذابح حتى قطع عنقها أو بلغ نخاعها يحل أكلها وإن كان هذا الفعل محرما أو مكروها للتعذيب دون غرض شرعى . وهذا ظاهر فى المذهب . ونحن نشكر لحضرة الأستاذ عنايته بالأمور الدينية ، وحبه للتوفيق بين عبارات الفقهاء . والله الموفق ؟ الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفى الشافعى بكلية الشريعة الاسلامية

مجاورة قبور النصارى

وورد ايضا :

جبانة تجمع جبانة مسلمين وجبانة نصارى لا يفصلهما سوى الحائط بينهما . أفيدونا من جهة المجاورة من الجهة الشرعية ولكم الثواب ؟ شبل محمد محمد بخيت

الجواب

لا يجوز دفن المسلم فى قبور النصارى ولا العكس ، لأن فيه إهانة للمسلم. فالواجب التمييز بين مقابر المسلمين ومقابر غيرهم بأى مميز ، ولا تضر المجاورة ، وإن كان الأفضل فى الدفن مجاورة الصالحين .

الحسينى سلطان الشافعى ، يوسف المرصفى الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

وقت العشاء

وورد ايضا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

يوجد فى بعض كتب الشافعية أنه يجوز صلاة العشاء قبل الميقات المنصوص عليه فى النتائج الفلكية بنحو ٢٠ دقيقة ، ويعللون ذلك بأن الوقت المضروب لصلاة العشاء شرعا هو مغيب الشفق الأحمر ، وأصحاب النتائج يقررون الوقت بعد مغيب الشفق بـ ٢٠ دقيقة ، فينبنى على هذا أنه يجوز عند الشافعية صلاة العشاء قبل ميقاتها المنصوص عليه فى النتيجة بعشرين دقيقة كما ذكرت ، وهذا أمر اقتنع به جمهور كبير من المسلمين .

فنرجوا إيقافنا على الحقيقة من السادة الشافعية على صفحات المجلة ، فإن هذا الأمر ليس بالصغير لتعلقه بأقدس العبادات ، وأولاها بمراعاة المحدود شرعا . وقد كنت من المقتنعين بصحة هذا لولا أنه بلغنى من أثق أنه رأى نشرة فى الصحف اليومية منذ سنة عن رجل من رجال علم الفلك أن مواقيت النتائج مضبوطة وأن وقت العشاء المقرر فيها هو وقت مغيب الشفق . فعلى هذا تكون صلاة العشاء قبل الوقت المضروب باطلة .

عبد الجليل أبو عزام — بشال

الجواب

مذهب الأئمة الثلاثة والصاحبين أن وقت المغرب ينتهى عند مغيب الشفق الأحمر . ومذهب الإمام أبى حنيفة أن وقتها لا يخرج إلا عند مغيب الشفق الأبيض

بعد الأحمر. وبخروج وقت المغرب يدخل وقت العشاء على المذهبين. ومعلوم أنه بعد الغروب تتعاقب الحمرة والصفرة والبياض والسواد. والخلاف إنما هو فى وقت الصفرة والبياض: فعند الإمام هو من وقت المغرب، وعند غيره من وقت العشاء. وفى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذى اعتمدته وزارة الأوقاف ليدرس فى المساجد أن الذى عليه العمل فى المساجد هو مغيب الشفق الأبيض. وعليه فيجوز للشافعى ومن يوافقه أن يصلى العشاء قبل الوقت المحدود فى التنائج متى تحقق مغيب الشفق الأحمر. وإذا صلى المغرب فى ذلك الوقت كانت قضاء. ويرجع للفلكيين فى مقدار الزمن بين مغيب الأحمر ومغيب الأبيض. وكان الأحسن أن يبين الفلكيون الوقتين فى النتائج كما فعلوا ذلك فى وقت العصر. والله الموفق والهادى للصواب.

يوسف المرصفى الشافعى، الحسينى سلطان الشافعى
بكلية الشريعة الاسلامية

التلطف فى طلب المعونة

دخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده ذا منزلة، فرآه خائر القوى، فقال له: يا أبا الريان: مالك خائرا؟

قال أبو الريان: أشكو اليك الشرف يا أمير المؤمنين.

قال عبد الملك: كيف ذلك؟

قال أبو الريان: نسأل ما لا نقدر عليه، ونعتذر فلا نعذر.

قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت يا أبا الريان! أعطوه كذا وكذا.

نقول: أين هذا التلطف فى المسألة مما حدث من قوم من بنى أمية وفدوا على عبد الملك هذا فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن من تعرف، وحقنا ما لا تنكر، وجئناك من بعيد، ونمت اليك بقريب، ومهما تعطنا فنحن أهله!

الاسبرتو مسكر

جاءتنا هذه الكلمة من حضرة الدكتور المفضال ننشرها شاكرين له :

ورد بمجلة نور الاسلام الغراء جزء (٩) مجلد (٥) بتاريخ رمضان سنة ١٣٥٣ صفحة ٦٣٣ فتوى بشأن (الاسبرتو) جاء فيها أن هذه المادة غير مسكرة ، وأحيل فيها السائل على إخصائى مسلم لتوضيح الأمر بشأنها . وبما أن هذه المسألة يتعلق بها أحكام شرعية ومصالح كثيرة رأيت من باب الواجب الدينى والمصلحة العامة أن أبين ما يتعلق بالاسبرتو من حيث طبيعة مادته ومنشأ استخراجه ، ولحضرات المفتين بيان الأحكام الشرعية التى تنبنى على ذلك :

الاسبرتو : لفظ محرف عن الافرنجية ، وترجمته الحرفية « الروح » ، واسمه العلمى « الكحول » هو مادة مسكرة قوية ، بل هو العنصر المسكر فى كل ما يسمى خمرا على وجه الاطلاق ، ولذلك يسمون الخمور المشروبات الروحية نسبة الى الروح أو الاسبرتو . وهو يستخرج من عملية تخمير السكر ، أو أى نبات يحتوى على السكر ، مثل القصب والعنب وغيرهما من الفواكه والحبوب . فهو غير مجهول الأصل كما يدعى البعض .

وإذا أخذنا أى خمر وعالجناها بالتقطير وانتزعنا منها بذلك الاسبرتو ، أصبحت مادة بريئة ليس لها أى تأثير مسكر . وقوة الخمور تقدر بنسبة ما تحتويه من الاسبرتو ، وكلما ارتفعت هذه النسبة قوى المفعول المسكر والعكس بالعكس .

والخمور القوية مثل الوسكى والكونياك والروم والعرق تحتوى على الاسبرتو بنسبة تتراوح ما بين ٣٠ و ٦٠ فى المائة . والخمور الخفيفة مثل النبيذ والشمبانيا والبيرة والبوظة تحتوى على الاسبرتو بنسبة تتراوح ما بين ٥ و ٢٠ فى المائة .

وكثير من المدمنين يستعملون الاسبرتو العادى مسكرا لأنه أقوى مفعولا

وأرخص ثمنا من الخمور المحضرة . وقد شاهدت شخصيا بعض حالات من المدمنين الفقراء يستعملون لهذا الغرض الاسبرتو الأحمر الذى نستعمله للحريق .

وشرب ماء الكلونيا كمسكر خفى أمر متداول فى أوربا وأمريكا خاصة بين النساء.

والخلاصة أن الاسبرتو هو الأصل فى جميع المسكرات ، وكل مادة تحتوى عليه بنسبة كافية ، وكانت خالية من السموم العنيفة ، وكان طعمها مقبولا ، أمكن تناولها كمسكر فعال مهما كان الوجه الذى تستعمل فيه عادة ؟

الدكتور أحمدشفيق حماده
طبيب أول مستشفى رعاية الطفل ببنها

***

وجاءنا أيضا من حضرة الأستاذ محمد حفظى مفتش إنتاج الكحول سابقا مقالا ضافيا فى هذا الصدد باعتبار أنه خبير بأصل هذه المادة ، وقد صدرها بالأحكام الشرعية فى المسكرات على اختلاف أصنافها . ونحن طلبا للإيجاز نكتفى بإيراد الجزء الخاص بالكحول منها :

قال حضرته نقلا عن بعض المؤلفين :

استخرج عرب الأندلس الكحول واستعملوه . والسبب فى تسميته بالكحول تشبيه فعله السام بمادة الكحل (الأفتيمون) التى كانت تستعمل للتسميم . وقد عرف الفرنج هذه المادة عن العرب فأطلقوا عليها اسمها العربى فكتبوها هكذا Alcohol ثم رأى المجمع العلمى الفرنسى أن يحذف منها حرف H فصارت Alcool .

الكحول سائل صاف لا لون له ، طيار يلتهب بسهولة ، طعمه كاو ، ورائحته حادة نفاذة ، يستحضر باستقطار المواد المختمرة لبعض المواد السكرية أو النشائية كالشعير والبطاطة والأرز وقصب السكر والعنب ، ومن الخشب أيضا . وزنه النوعى يختلف بحسب مقدار الماء الذى يخالطه . والنقى لا يحتوى على الماء أصلا ، ولكن التجارى يشتمل على نحو ٤٩ منه فى المائة .

الكحول أساس عمل جميع المشروبات المسكرة بإضافة مياه عليه مع تلوينه وتنويع

طعمه ، كالكونياك والروم والوسكى الخ . فأضعفها يكون فيه نحو ثلاثين فى المائة من الكحول ، وأقواها يبلغ فيه الى نحو خمسين . أما الكحول الذى يبيعه الباعة المتجولون فإنه مخلوط عادة بعشر حجمه من الماء ، ولكنهم لا يكتفون بذلك فيضيفون اليه ماء كثيرا حتى تصبح درجته ٣٠ بعد أن كانت ٩٠

ولما كانت الحكومة تحصل رسوما عن إنتاج الكحول عشرين قرشا لكل لتر منه ، معفية كحول الحريق ، اضطرت الى مزج هذا الأخير بسائل كريه الرائحة سام لا يمكن استخلاصه منه ، ومع ذلك يتعاطاه فقراء المدمنين من المصريين .

أما تأثير الكحول من النواحى الفيزيولوجية والباتولوجية فإن النقى منه إذا وضع على الجلد نبه أوعيته الشعرية تنبيها شديدا وأحدث احمرارا وحرارة . وإذا وضع قليل منه فى الفم يحس فيه بحرقة شديدة . وهذا التأثير ينشأ من التقاط الكحول ماء الأنسجة الحية بشراهة . وإذا أدخل الى المعدة منه نحو ثلاثة دراهم أو ستة أحدث فيها التهابا شديدا واحتراقا وتنبها يمتد الى الأعضاء الأخر بسرعة ، وبخاصة المخ والمخيخ . وإذا زاد المقدار عن هذا الحد اشتد الالتهاب وأصبح خطرا . وأما إذا تعوطى الكحول مخلوطا من الماء فإنه يحدث الإسكار .

وقبل الحكم بنجاسة الكحول يجب التأمل فى الأمور الآتية ، وهى :

(١) الخمر نجسة نجاسة عينية ، ولكن بعد أن تفسد وتتخلل تصير طاهرة .

(٢) إن عملية التقطير تعمل بواسطة الحرارة ، فتحلل عناصر الأجسام الداخلة فى تركيب المادة ، ويتبخر العنصر المراد استخلاصه ويتصاعد ، ثم يرد الى السيولة بواسطة البرودة .

(٣) الكحول لا يستقطر من سوائل نجسة ، ولكن من عصير نباتى عسلى مختمر يعامل بالحرارة لتنحل عناصره ، ويتبخر الكحول الذى تكون فيه ، فيجنى ويحول الى سائل بواسطة البرودة .

(٤) لقد شاع استعمال الكحول فى الدور والمعامل والصيدلات حتى قد لا يخلو منه علاج باطنى ولا مروخ ولا مرهم ولا عطر . وهو كثير الاستعمال أيضا فى أمور التحوطات الصحية ، وفى الوقاية من عفونات الأمراض .

فنرجو بعد إجالة الروية فى كل هذه الاعتبارات افتاءنا بحكم الدين فى هذه المادة ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ؟

محمد حفظى
مفتش إنتاج الكحول سابقا

(مجلة نور الإسلام) يبدى حضرات العلماء مفتى المجلة آراءهم فى هذا الموضوع فى العدد المقبل إن شاء الله .

المرء بأصغريه قلبه ولسانه

قال محمد بن الغار : دخل رجل على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين فتكلم عنده بكلام أعجب به سليمان ، فاراد أن يختبره لينظر عقله أهو على قدر كلامه أم لا . فاختبره فوجده مضعوفا ، فقال : فضل العقل على المنطق حكمة ، وفضل المنطق على العقل هجنة (أى عيب) وخير الأمور ما صدق بعضها بعضا وأنشد :

وما المرء إلا الأصغران : لسانه ... ومعقوله ، والجسم خلق مصور
فان تر منه ما يروق فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر

وأحسن ما قيل فى هذا المعنى قول زهير :

وكائن ترى من معجب لك صامت ... زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

كائن : لغة فى كأين بمعنى كم . والمراد : كم ترى من معجب لك ساكت ، وإنما يحكم عليه بالكمال أو النقص من كلامه .

الحـــج

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) . وقال تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) . وقال تعالى : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » بخارى ، ومسلم بلفظ «من أتى هذا البيت » . وقال صلى الله عليه وسلم: « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » ترمذى . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . رواهما مسلم .

الحج : أحد أركان الاسلام الخمسة الواردة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » . وكذلك هو الوارد فى تفسيره صلى الله عليه وسلم للاسلام حين سأله جبريل : ما الاسلام ؟ فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

والحج فرض عين بإجماع المسلمين يجب على كل من قدر عليه ، فإن حج وهو

غير مستطيع وتكلف من المشقة فوق طاقته ، أجزأه ذلك ، وكان له من الثواب ما الله به عليم .

وأصل معنى الحج فى اللغة : القصد ، وقيل إنما يستعمل فى قصد الأمر العظيم أو الرجل الخطير الشأن . ومعناه فى الشرع قصد البيت الحرام للنسك .

والعمرة فرض عين عند الشافعى وأحمد . وكما أوجب الله تعالى الحج أوجب العمرة لقوله تعالى : «وأتموا الحج والعمرة لله» . وهى سنة عند مالك وأبى حنيفة لقوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس » المتقدم ، فقد عد الحج ولم يعد العمرة . وأيضا لما جاءه السائل يسأله ما الاسلام قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، فلم يقل : وأن تعتمر . وأجابوا عن استدلال الشافعى بالآية بأن فى الآية الأمر بإتمامها ، وهذا شأن العبادة متى شرع فيها .

واستند الشافعى أيضا فى فرضية العمرة الى ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » قال : اثنان : حجة ، وعمرة ، فمن قضاهما فقد قضى الفريضة . وروى كذلك فى بعض طرق رواية سؤال جبريل عليه السلام عن الاسلام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الجواب : وتحج وتعتمر .

وأعمال العمرة هى : الإحرام ، والطواف ، والسعى كالحج ، وليس فيها وقوف بعرفة ، ولا تختص بوقت من السنة بل كل السنة وقت لها .

وللحج شروط صحة ، وشروط وجوب ، وشروط وقوعه عن حجة الاسلام . فشروط صحته هى الاسلام والوقت ، فلا يصح من غير مسلم ولا فى غير وقته . وأما البلوغ والعقل فلا يشترطان فى صحة الحج ، بل يصح الحج ولو من مجنون وصبى وإن لم يبلغ درجة التمييز ، ويحرم عنهما وليهما ، فإن كان الصبى مميزا أحرم بنفسه — ومعنى أحرم أى نوى

الحج – وهذا مذهب الشافعي . وحجته أن امرأة رفعت صبيا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله : ألهـذا حج ؟ فقال : نعم ولك أجر . ومنعه بعض الأئمة قياسا من جهة أن أصل العبادات أنها لا تصح إلا من مميز ، فهذا يكون مما تعارض فيه الأثر والقياس . وينبغي ألا يختلف في صحته من الصبي المميز .

وأما شروط وجوبه : فالإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، وأمن الطريق . فلا تجب على صبي ، ولا مجنون ، ولا عبد ، ولا عاجز غير مستطيع . والاستطاعة معناها القدرة على السفر مع وجـود الزاد والراحلة زائدا عن نفقة من تلزمه نفقته . ولا يجب عليه الاستدانة لأداء الحج . واختلف الأئمـة فيمن يستطيع التكسب في الطريق وليس معه مال : فقال بعضهم : يجب عليه متى وثق بذلك . وقال آخرون : لا يجب . وكذلك إذا كان الطريق غير مأمون بأن كان الغالب على المسافر فيه العطب فلا وجوب . أما مجرد احتمال العطب نادرا فلا يقدح في الاستطاعة ، فإنَّ تعرض المرء للعطب محتمل في كل زمان وفي كل مكان ؛ فالمخل بالاستطاعة هو غلبة العطب .

ومتى توافرت شروط الوجوب استقر الحج في الذمة ، فقال بعضهم : يجب أداؤه على الفور . وقال بعضهم : بل يجب وجوبا موسعا ، فله تأخيره الى عام قابل . وحجة القائلين بالفورية أن وقته يشبه آخر وقت الصلاة في أنه لو أخره لخرج الى وقت لا يمكن فيه العبادة . ولا شك أن تأخير الصلاة عن وقتها حتى يخرج محرّم ، فكذلك هـذا . وحجة الفريق الثاني أن الحج فُرض قبل حجة الوداع بمدة طويلة وأخره صلى الله عليه وسلم الى عام حجة الوداع ، ولو كان التأخير لعـذر لبيّنه . وأجابوا عن حجة الأولين بأن الفرق بين وقت الحج ووقت الصلاة أن الصلاة تتكرر بتكرر الأوقات ، فلكل وقت صلاته ، وأما الحج فلا تـكرر فيه بتكرر الوقت ، بل هو حج واحد يأتي في زمنه من أي سنة كانت . وعند من يرى وجوبه على التراخي لو استطاع في سنة ولم يحج ثم فقد الاستطاعة حتى مات ، مات عاصيا . ولذا ينبغي المبادرة به لمن استطاع .

وعليه يحمل ما ورد : حجوا قبل أن لا تحجوا . أى من استطاع فليبادر بالحج قبل أن يفجأه ما ليس له فى حسبان فيمنعه من الحج . وورود تفسير لها بأن يقعد أعرابها على أفواه طرقها ، من باب التمثيل لا من باب الحصر . والمرء لا يدرى هل يدوم له ما أنعم الله به عليه من نعمة الاستطاعة لأداء هذه الفريضة ؟ فلا ضمان لحال أن يبقى على ما هو عليه .

وناهيك بما ورد فى شأنه مما سبق لنا ذكره . وقد قال بعض السلف عند تلاوة قوله تعالى : « ليشهدوا منافعَ لهم » : « غفر لهم ورب الكعبة » : أى والله فأى منفعة تضاهى منفعة المغفرة ، فإنها هى مجمع المنافع ! ولو لم يظفر الحاج بمنفعة سوى المغفرة والرجوع الى بيته كيوم ولدته أمه لكفاه مقابلا لما تكبد من مشاق ، فكيف وقد جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ؟

وإنك لتجد فى الحج من تقوية الروابط بين الأمم الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، واستفادة بعضهم من بعض فى شئونهم الدينية والدنيوية ، وتقوية روح التساند والتساعد ، ما يشرح لك منافع الحج التى ذكرها الله فى قوله : « ليشهدوا منافع لهم » . وإن أبيت إلا أن تستشهد بما يجرى بين يديك فانظر الى ما ابتكرته الأمم المتمدينة من إنشاء المعارض والمؤتمرات العامة ، يدعى إليها أفراد من جميع الأمم والملل يجتمعون فى صعيد واحد ، تعرض كل أمة منهم أفضل ما امتازت به ، فتستفيد دعاية لنفسها ، ومجدا لقومها ، ورواجا لمصنوعاتها ، وتنويها بشرفها ، واحتراما لمكانتها . ثم تستفيد مما عرضه غيرها ، فتضم ما استفادته الى ما أفادته ، وهكذا كل أمة تفيد وتستفيد ، وتعلم وتتعلم ، وتفتخر أو تتألم ، فيكون الجميع عونا للجميع ، ويكمل الإحساس بالألم ، والمساعدة على العمل ، والسعى لبلوغ الأمل . وهنا يكون الجميع كأعضاء الجسد الواحد يحس بالإحساس الواحد . فهل فى هذا زيادة على ما دعا إليه الدين الاسلامى من توحيد القلوب وتوحيد الوجهة وتوحيد الجهود حتى يتعاون الجميع على نفع الجميع ، وحتى يكونوا موحدين لخالقهم متحدين فى مصالحهم ؟

انظر الى مشروعية صلاة الجماعة لأهل الحي الواحد في اليوم خمس مرات، ثم الى مشروعية الجمعة لأهل البلد الواحد في الأسبوع مرة، وقد جعلت جمعة البلد الواحد واحدة لاتعدد فيها لتكون أعون على اجتماع الكلمة، واجتماع القلوب، وتمام التعارف.

ثم انظر الى الحج الأعظم يدعى فيه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليجتمعوا في السنة مرة في مكان واحد في ساعة واحدة، فانه يجب عليهم فوق وجوبه على كل فرد أن يحيوا هذا الاجتماع كل سنة، وأن يحج من المسلمين جمع يكون فيه إحياء لهذه الشعيرة، بل لهذه الفريضة المقدسة، حتى لو قصروا في ذلك لأثموا جميعا ولو سبق لهم حج فريضة الإسلام.

وتأمل في أن جعل الله مكان الحج واديا غير ذي زرع، ليكون القصد فيه الى النسك والعبادة، ولكيلا يكون محل التكالب على عرض الحياة الدنيا. ثم تأمل جعل شعائره للرجال ثيابا غير مخيطة، ليذكر الناس بيوم عرضهم على ربهم كأنهم في ثياب أكفانهم قد تجردوا عن الدنيا وزخرفها، ولكيلا ينكسر قلب الفقير إذا بدا ذلك الغني في زينته وأبهته، فقرّب بينهم ما أمكن، حتى يكون اقتراب الزى مدعاة لاقتراب الأرواح والقلوب.

ولنرجع الى ذكر الأحكام الفقهية المتعلقة بالحج وقد ذكرنا شيئا منها أول المقال، فنقول: وللحج شروط لوقوعه عن حجة الاسلام المفروضة، وهي: الاسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية. ولا تشترط الاستطاعة، فمن حج وهو عاجز ولكنه تكبد من المشاق ما لا يلزمه، أجزأه حجه.

ثم من مات ولم يؤد الحج وكان قد استطاع أداءه، وجب على ورثته إنابة من يحج عنه من تركته، ويقدم على نصيب الورثة كأداء الديون. ومثل الميت المريض الذي لا يرجى له برء، فإنه يجب عليه أن ينيب من يحج عنه إذا كان قد جاءه وقت كان فيه مستطيعا ولم يحج. ويسمى هذا النوع من الاستطاعة استطاعة بالغير، وهي إنما توجب

الحج إذا سبق له استقرار فى الذمة : بأن استطاع بنفسه ولم يحج . أما إذا كان كل زمنه عاجزا عن السفر فلا يجب عليه وإن كان يمكنه أن ينيب عنه بماله . ومع ذلك فلو مضى وقته كله لا يستطيع السفر بنفسه وهو قادر على أن ينيب غيره عنه ، صح له الإنابة وأجزأت عن حجة الاسلام إذا لم يطرأ له الاقتدار على السفر بنفسه بعد ذلك .

والأصل فى الحج عن الغير وهو حى ما رواه الشيخان أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله : إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال : نعم . وروى الترمذى أن أبا رزين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن . قال : حج عن أبيك واعتمر .

والأصل فى الحج عن الميت أن امرأة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أمى ماتت ولم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : حجى عنها . وروى الشيخان أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : إن أختى نذرت أن تحج وماتت قبل أن تحج أفأحج عنها ؟ فقال : صلى الله عليه وسلم : لو كان على أختك دين أ كنت قاضيه ؟ قال : نعم . قال : فاقضوا حق الله فهو أحق بالقضاء .

فترى من مجموع هذا مبلغ اهتمام الشارع الحكيم بأداء فريضة الحج .

وأما أركانه فهى : الإحرام ، والوقوف بعرفة ، والطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، وترتيب معظم الأفعال . وزاد بعضهم حلق الرأس أو تقصير الشعر . وأركان العمرة هى أركان الحج ما عدا الوقوف بعرفة . وللحج واجبات غير الأركان . والفرق بين الركن والواجب فى باب الحج أن الركن إذا تركه بطل الحج ، والواجب إذا تركه لا يبطل الحج ، وإنما يجب عليه دم ، على ما فصل فى كتب الفقه .

وللحج مع العمرة كيفيات ثلاث : الإفراد ، والتمتع ، والقران . فالإفراد أن يحرم بالحج ، وبعد أدائه يخرج الى الحل فيحرم بالعمرة ويؤدى أركانها . وذلك أفضل الكيفيات

عند الشافعى . والتمتع أن يحرم بالعمرة ثم يؤدى أعمالها ويتحلل ، ثم يحرم بالحج ويؤدى أعماله : من وقوف بعرفة ، وطواف بعده ، وسعى بين الصفا والمروة ، وحلق أو تقصير . والقران أن يحـرم بهما معا ، فيطوف ، ويسعى ، ويقف بعرفة . فتندرج أعمـال العمرة فى أعمال الحج . والتمتع أفضـل من القران ، لأن فيه تكرارا للأركان ، وفى القران اندراج أحد النسكين فى الآخر .

وأما المبيت بالمزدلفة وبمنى ورمى الجمار ، فمن الواجبات لا من الأركان . وعلى ذكر رمى الجمار والمبيت بهذه الأماكن نشرح لك معنى طالما تحير فيه الكثير من الناس ، وهو أن الحج يحتوى على أفعال تعبدية ، أى لا يظهر لها فى بادئ الرأى حكمة مشروعية ، وذلك كرمى الجمار ، وتحديدها بسبع ، وأمثال ذلك .

هذه الأفعال قد أمر بهـا الشارع فنؤديها كما أمرنا بها ، وكما رأيناه صلى الله عليه وسلم يفعلها وإن لم تصل عقولنا الى حـكمة مشروعيتها . وأداء هـذه الأفعال وأمثالها هو الذى يظهر به التعبد حقا والامتثال لأمر الشارع لأنه أمر الشارع ، فإن المرء إذا كان لا يمتثل إلا ما فهم وجه الحـكمة فيه لم يظهر معنى العبودية الصحيحة ، بل يكون كأن له فى كل عبادة غرضا ، فيفعل الزكاة مثلا لأن فيها جبرا للمسكين ، وجمعا للقلوب حوله بالمحبة ؛ ويفعل الصيام لأن فيه تطهيرا لنفسه ، وتنقية لبدنه من الأدران ؛ ويفعل الطهارة لأن فيها تطييبا لبدنه ، وتنزيها عن الأنجاس والأقذار ؛ ويصلى لأن فيها مناجاة للواحد القهار ، وإحياء للقلوب بهذه المناجاة ، وإشعارا للنفوس بعزة الوقوف بين يدى العزيز الجبار . فهى أعمال ترى النفس فيها حظًّا لها ، فتسارع الى امتثالها ، لما تعرف من حكمتها وفوائدها . ولـكن العبودية الحقيقية إنمـا تظهر فى امتثال ما لم يظهر له حكمة سوى امتثال الأمر والخضوع للتشريع ؛ ولذلك جاء أنه صلى الله عليه وسـلم قال فى إحرامه : « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » إظهارا للعبودية الخالصة ، وانقيادا لمجرد الأمر ، وامتثالا له خالصا كما أمر من غير أن يستأنس العقل منه بما يميل اليه ويحث عليه . فهو تعبد محض

لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه . فقصود الشارع فيه الابتلاء بالعمل ، ليظهر العبد رقه وعبوديته ، وكمال خضوعه ، بامتثال ما لا يفهم له معنى .

وإن أردت استيضاح ذلك فانظر الى قول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهانا

والى قول بعضهم فى وصف عظيم : « هذا الذى إذا غضب غضب له ألف سيف لا يسألون فيم غضب » . فالعبودية الحقة لا تظهر إلا فى امتثال ما لم يظهر سره للعقول ، وإن كان فى الواقع لابد له من سر . وهذا لا ينفى أن الحج فى جملته وفى كثير من أفعاله معقول المعنى . فقد سمعت جملة من حكمة مشروعيته فى جملته . ويزيد على ذلك أن فيه تعظيما للمشاهد التى قدسها الله تعالى ، وجعل التوجه اليها رمزا لوحدة الوجهة عند الأمة الاسلامية ، حتى تتوحد وجهة قلوبهم المعنوية تبعا لاتحاد وجهتهم الحسية ، فليس فى هذا عبادة مكان . ولا اختصاص للحق جل وعلا بجهة ، فقد قال تعالى : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله » فقد قال عمر رضى الله عنه حين قبل الحجر الأسود : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » . ولقد قال له قائل : بل يضر وينفع ، فقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه يشهد لمن قبّله يوم القيامة » .

ولا تعارض بين هذا وبين ما قاله عمر ، فعمر رضى الله عنه ينفى الضرر والنفع اللذين كان يعتقدهما الجاهلية فى أوثانهم . والرادُّ يريد النفع الذى ناطه الله بأمره بتعظيم هـذا الحجر وتقبيله ابتلاء وتعبدا كما سمعت ، وامتثال ما لم يعقل معناه أدل على العبودية الخالصة .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين ، وأن يرزقنا التوفيق لما يرضاه رب العالمين . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين م؟

ابراهيم الجبالى

بدائع الطبيعة

يرى المتأملون فى آيات الكتاب الكريم أن عددا عديدا منها ورد فى الحث على النظر فى الكون والكائنات ، وفى التفكر فيها ، وفى تعرف وجوه الإبداع منها ، وما ذلك إلا لأنها تلفت النفس الى مبدعها ، وتسمو بالروح الى عالمها ، وتغذو العقل والقلب بما أفيض عليها من حكمة الخالق فى بناء وجودها ، وتقدير خصائصها ، وتوفيتها بالوسائل الضرورية لحياتها وبقائها واستمرار نوعها .

وقد عنى علماء الكون من القدم الى اليوم بالنظر فى أحوال هذه الكائنات وطبائعها وأطوارها ، فهُدوا الى علم غزير من أسرار تركيبها ، وأدوار حياتها ، وعجائب شئونها ، مما لا يرى السالك الى الحق بدا من الإلمام به إجمالا ، فإنه من أخص ما يتزود منه من القوى المعنوية التى تعينه على ما هو بصدده .

وقد قرأنا للعلامة المشهور (كاميل فلامريون) فصلا فى هذا الموضوع جزيل الفائدة ، نرى أن ننقله للعربية فى طليعة ما سنأتى عليه من الإبداعات الإلهية ، فقد قال تحت عنوان حياة الحشرات :

« إذا كان عالم النباتات ، وعالم الحيوانات الميكروسكوبية ، قد أمدا ميلنا الشديد للاطلاع بكشف نوع من الحياة تخالف حياتنا الخاصة بنا ، فإنه يوجد فى العالم الحيوانى طبقة من الكائنات العجيبة تؤاتينا بمعارف عنها ليست بأقل إدهاشا لنا من تلك ، لأنها تمثل لنا شكلا من الحياة تخالف حياتنا كل المخالفة .

« هذه هى طبقة الحشرات ، تلك الكائنات التى هى بتركيبها الطبيعى وبشكلها الظاهرى يمكن وضعها خارج نطاق العالم الحيوانى ، والقرب بها الى العالم النباتى . فهى كالنباتات تتبع فى أدوار حياتها فصول السنة ، وتكابد استحالات ذريعة . أما غذاؤها

فى دور البلوغ فتستمده من باطن الأزهار التى تعيش هى مصاحبة لها ، وأما مُقامها الليلى فهو الهواء على مثال الروائح الذكية . ولقد سميت بسبب الألوان الماثلة فى أجنحتها بالزهرات ذات الحياة ، فإذا حَرمتَ فراشة من عينيها رأيت كأن منها بين يديك زهرة ذات حراك . وإذا أمكنك أن تهب زهرة حواس وحركات ، كنت كأنك قد حولتها الى فراشة تطير فى الهواء .

« إننا نعرض لهذا الموضوع من وجهة خاصة هى وجهة تاريخ هذه الكائنات ، وهى وجهة ترينا ناحية جديدة من نواحى الحياة المفاضة على الأكوان .

« فلنسمح لعقلنا أن يتبع طريقة النظر فى الكائنات التى هى بين النباتات والإنسان لنحظى بسياحة أدبية فى خلال هذا العالم المشحون بالأعاجيب .

« نعم : إن عالم الحشرات مشحون بالأعاجيب ، وكل ما فيه يلفت النظر ويثير الدهش العظيم . وقد جرت سنة الله فى الطبيعة أننا كلما أوغلنا فى البحث فيها ازدادت فى نظرنا اتساعا ، واستعصت على السبر والتقدير . هذا على عكس ما عليه المصنوعات البشرية ، فإن أرق منسوج من الحرير لو فحصته بالمنظار المعظم لرأيته من الغلظ بحيث يشبه الأقمشة الخشنة التى تلف فيها البضائع المرسلة الى مكان بعيد ، ثم لا تحظى بعد التدقيق فى تلك المصنوعات البشرية باكتشاف جديد .

« ولكننا لو دققنا النظر فى جناح الحشرة المسماة (بومبيكس) أو فى عينيها أو قرنيها ، اعترانا الدهش من رؤيتنا مظاهر جديدة لها كلما ازدادت قوة المنظار الذى يسلط عليها . ولاحظْ أنى لا أختار هنا دودة الحرير باعتبار أنها هى الحشرة الثرية المشرقة ، لأن هذه العاملة الجادّة النشطة ليست كاسية بغير بذلة العمل المتواضعة السنجابية ، فهى تعيش بعيدة عن كل زينة ، على حين أنها تستخرج من باطنها ما يزهو به الإنسان ويختال من الأنسجة الحريرية .

« ما أكبر الدافع المعنوى الذى يدفعنا لارتياد عالم الحشرات الحافل بالحياة والعظمة ،

الذى يفوق فى عدد آحاده جميع آحاد المملكة الحيوانية مجتمعة : عالم محير للعقل باستحالاته الخفية المدهشة التى ترينا الكائن الواحد عائشا فى صور متباينة تتلو إحداها الأخرى بعد أن تمر بين كل دورين على حال يشبه الموت من كل وجه . (ألا ترى دودة القطن مثلا بعد أن تجتاز دورا من حياتها تنسج على نفسها بواسطة الخيوط التى تنفرز منها مسكنا مساويا لحجمها ، فتستحيل فيه الى سائل لا صورة له ، فلا يلبث هذا السائل أن يتشكل بصورة أخرى ، فيصير على هيئة فراشة مخالفة فى التركيب للدودة من كل وجه ، فتثقب ذلك المسكن المنسوج الذى يسمونه بالشرنقة وتخرج منه طائرة مختالة بجمال شكلها ، فتتزاوج وتبيض على الأوراق الخضراء ، ثم تفارقها الحياة تاركة الوجود لذريتها) ؟

« إن هذه الحشرات التى نحن بصددها تملأ المياه والجواء والأرض ، عاملة ناصبة ، محيطة بنا ، أو مقيمة فى أجسادنا ومتسلطة علينا بعددها وبنشاطها .

« إن فى أعمال هذه الكائنات وطبائعها ولهجاتها ومجتمعاتها وجمهورياتها وتحابها وتباغضها ، مواضيع للدرس ، وأحيانا عبرا للمفكرين . وإن لديها لجماعات ومدنا وأمما تامة التركيب مقودة بمبادئ حيوية تابعة لقانون واحد ، وإنك لتجد فيه تمايزا بينا فى الحقوق الاجتماعية كما تجده فى نوعنا الإنسانى سواء بسواء . فتأمل فى أحوال النمل وأرقائها وحروبها ومهاجراتها من مدنها تحت الأرض ، وفى لهجاتها التى تؤديها بواسطة قرونها وفى دقة عقولها ، ثم تأمل فى النحل وصنائعها وعمارتها وهندستها وأغراضها ومبانيها ، وتأمل أيضا فى صبر العنكبوت وصناعته ، وهو الحيوان الذى يظهر أنه خلق ليموت جائعا ، وتدبر فى الأدوات التى تستخدمها الحشرات ، وفى عواملها الكيمائية ، وفى استحالاتها العجيبة ، تأمل وتدبر فى هذا كله ثم قل لى أليس عالم الحشرات بجدير أن يلفت نظرنا اليه بقوة ، وأن يملأ الإلمام به أوقات فراغنا بهجة ، وأن ينبه أفكارنا الى هذه البداءات الحيوانية التى تنتهى فى آخر سلسلتها الى الانسان نفسه ؟

«هذا المظهر الكبير من الحياة يتولاه ناموس ينظم شئونه من رتبة الناموس الذى

ينظم سير الكواكب والشموس، وإذا كان الموت يجتاح فى الساعة الواحدة ألوف الألوف من هذه الكائنات، فإنه فى كل ساعة أيضا يتولد منها ألوف الألوف لتحل محلها وتستبق آحادها وأجناسها، فهى كزوبعة حياة مستمرة، أو كسلسلة لا آخر لحلقاتها.

«أكثر الصناعات الانسانية معروفة كل المعرفة عند العالم الحيوانى، فإنك لتجد من طوائفها البنائين والنجارين وصناع الورق والنساجين، ويمكن أن يقال وحاكة الدانتلا أيضا، وهؤلاء جميعا يشتغلون لمصلحتهم الذاتية أولا ثم لمصلحة ذراريهم من بعدهم. ومنهم حَفَرَة الأرض، ورفَعَة القباب، ومخصبة الأراضى القاحلة، وموطدة الأعمال المختلفة. ومنهم مقيمة الأكواخ، أو مشيدة القصور على مقتضى أدق الأصول المعمارية. ومنهم أيضا العارفون بجميع أسرار صناعة الورق الرقيق والصفيق وصنوف الأقمشة والدانتلا، حتى إنك لو قارنت مصنوعاتهم من هذه الأنواع بمصنوعات فنيزيا أو بروكسل، لا تجد بين الصناعتين فارقا يذكر. ومن الذى لم يعجب بصناعة النحل الدقيقة القائمة على الأصول الفنية، وبأعمال النمل فى بناء مساكنه الأرضية، وبدقة الشباك التى يقوم بصنعها العنكبوت لإيقاع فرائسه فيها؟

« إن الدقة التى تشاهد فى نسيج بعض هذه الحيوانات تبلغ من الكمال بحيث إذا احتاج الفلكى لخيط دقيق لمصلحة منظاره، فلا يلجأ الى صناع باريز أو لوندرة، ولكن الى هذه الفابريقة الحية الممثلة فى عنكبوت ضعيف. ومتى احتاج العالم الطبيعى أن يختبر درجة الدقة فى ميكروسكوبه أو لقياس قدرته فى تجلية الأشياء الدقيقة فانه لا يعمد الى المليمتر المقسم الى مائة أو ألف درجة، ولكنه يعمد الى قشرة الحشرة المسماة (دياتوميه) البالغة حدا بعيدا من الصغر والتميز، بحيث يقتضى أن يوضع ملايين منها بعضها بجانب بعض لتصير مرئية للعين المجردة. هذا وأدق الميكروسكوبات تعجز عن أن تكشف كل تفاصيل الصور التى تزين هذه الأجساد العجيبة. وأقوى

هذه الميكروسكوبات تكاد لا تكفى لمشاهدة النقوش البديعة الدقيقة التى تزين قشور الدياتوميه المتناهية فى الدقة والأناقة » .

النظر فى الكائنات يؤدى الى الاعتقاد بالله :

لما انتهى الأستاذ كاميل فلامريون من عرض هذه النظرة العامة على عالم الحشرات ، أورد هذا السؤال ، وهو :

« من أين نشأت هذه الكائنات التى تعيش على نفقتنا ؟ وما فائدة هذا البرغوث الجميل الشكل ، المسلح أعجب تسليح ، ولأى غرض هو موجود ؟ »

ثم قال ما مؤداه :

« يستطيع كل باحث أن يفكر ليصل الى حل هذه المسألة الخطيرة ، وعلى أية حال كان الجواب فإنه لا يخلو من أمر يستوقف النظر ، ولكن الانسان إذا رأى المهر الحديث الولادة يقفز وراء أمه ليلتقم ضرعها ، والفرّوج عند ما يخرج من البيضة يبحث عن الغذاء فى الأرض ، والبطة عند ما تشم الهواء بعد الفقس تبحث عن ضحضاح ماء لتسبح فيه ، إذا رأى الانسان كل هذه المحاولات من الحيوانات الحديثة العهد بالحياة أيتمالك نفسه من عزوها الى الإلهام الذى يتولاها بالعناية والإرشاد ؟ وهل هذا الإلهام إلا أثر من آثار رحمة الله بهذه الكائنات الضعيفة ، ودليل محسوس على أنه لا يخلق خلقا ويتركه مجردا من الإرشاد ؟

« وإذا كان المثَّال عند ما يعجن الجبس ليصنع منه تمثالا يصدر فى عمله عن تقدير لكل ما يستدعيه كمال ذلك التمثال ، فإن الخالق جل وعز قد قدَّر كل ما أراد أن يبرزه الى عالم الشهادة من الكائنات ، ووهب لكل منها حاجته من القوى والذرائع ، وسواء برأه فى يوم واحد أو فى ألف قرن فإنه لم يغفل صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج اليه فى بقائه وتخليد نوعه ، وأعد له العمل الذى يقوم به فى الحياة ، وقد تغم علينا الحكمة فى وجوده أو فى المهمة التى يقوم بها ، ولكن ذلك لا يمنع أنه قد أعده لمصلحة الخليقة من جميع الوجوه . فأفعاله تخلو من العبث ، وتتنزه عن الجزاف .

« هذا هو الله الحق الذى لا تدرك العقول كنه ذاته ، ولكنها تدرك أنه لا يصدر فى جميع مصنوعاته إلا عن حكمة لا تحد بحد ، وعلم لا يبلغ مداه إلا هو » .

انتهى ما نقلناه عن الأستاذ (كاميل فلامريون) . وفى تفصيل ما أجمله عجب عجاب . فلا بد لنا من إلمامة به للتمتع باجتلاء صنع الله القدير : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » محمد فريد وجدى

رفق الاسلام حتى فى مواطن البأس

كان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، والزموا الحق والصبر ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات .

ولما وجه أبو بكر يزيد بن أبى سفيان الى الشام شيعه راجلا . فقال له يزيد : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازل وما أنا براكب ، إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله . ثم قال له :

إنى موصيك بعشر : لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرما ، ولا امرأة ، ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيرا إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تغل ، ولا تجبن .

وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص قائده الذى وجهه لفتح فارس :

أما بعد ، فانى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ؛ فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله ، وأنتم فى سبيل الله ، الخ .

الفتح الرباني

ترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني

بعد أن قرظنا هذا الكتاب الممتع هنا صدرت منه أربعة أقسام شهرية، وبذلك انتهى الجزء الأول منه، وسيليه الجزء الثاني، وهو لحضرة الأستاذ المفضال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، وعنوانه بمصر بحارة الروم بالغورية .

بحث تحليلي في قضية المرأة

ومكانها الطبيعي من المجتمع

ألف هـذا الكتاب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمـد عبد الحليم الرمالي من علماء الأزهر المفتش بوزارة الأوقاف، وهـو كتاب جليل القـدر عنى فيه مؤلفه المحقق بدرس المسالة النسوية من جميع الوجوه، فجاء كما سماه بحثا تحليليا قائما على الأسلوب العلمي الصحيح، ومستوعبا جميع ماله عـلاقة بهذه المسألة الخطيرة من الشئون الاجتماعية والحياة البيتية، ولم يغفل حتى الاستشهاد بأقوال علماء الفرنجة، فكان في عمله هـذا موفقا كل التوفيق . ولسنا نشك في أن هذا الكتاب سيكون أثره بالغا في هذه القضية، وسيحل مكانه الجدير به في كل مكتبة .

سلسلة المعارف التاريخية الاسلامية

هذا اسم رسالة ممتعة وضعها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد حسين النجار المحامي الشرعي بأسيوط ضمنها تاريخ أربعين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سماهم بحق بناة الاسلام ووصفهم بأنهم محطمو الوثنية، ومسقطو عروش الأكاسرة والقياصرة، ومغيرو وجه التاريخ الخ .

فلا جرم أن يعنى بقراءة سير هؤلاء الأبطال كل الذين يهمهم أن يعرفوا آثار الذين عملوا على توطيد أسسه، وإقامة صرحه .

found they had been closed. So Heraclius seeing their resentment and despairing of their conversion[1] to the Faith, ordered them to be brought back before him and said: 'The speech I have just made to you was to test your staunchness to your religion. Now I am convinced of it.' Accordingly they prostrated themselves before him and showed their approval of him.

This is the end of the account of Heraclius."

This tradition was also related by Sâlih b. Kaisân, Yûnus and Ma'mar through Az-Zuhri.

فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ .

فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ .

رَوَاهُ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ وَيُونُسُ وَمَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

(1) Ibn Hajar's commentary suggests that he despaired not only of bringing them to the Faith, but of his own conversion when he realised that the cost would be the loss of his throne.

circumcision. At this Heraclius said: '*What I saw in the stars has come true.* It is this nation[1] that hath come to power.'[2]

Heraclius then wrote to a friend of his in Rome whose learning was equal to his own, and then proceeded to Emessa.

He did not leave it until he received a letter from his friend agreeing with his opinion on the coming to power of the Prophet (Peace be upon him) and his prophethood.

Thereupon Heraclius summoned the Greek notables to a palace of his at Emessa, and ordering the doors to be closed, he stood in a high place and said: 'O Greek people! Do ye desire prosperity and true guidance?

Do ye desire your empire to be maintained?

Then swear allegiance to this Prophet.'

Upon this they rushed madly like wild asses to the doors, but

مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ قَالُوا لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ هُمْ يَخْتَتِنُونَ فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ .

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَّهُ نَبِيٌّ .

(1) The Arabs.

(2) Or — It is this Prophet who shall rule over this nation (Heraclius' people), and he shall come to power.

Az-Zuhrî adds: "Ibn-en-Nâzûr, governor of Iliâ', a friend of Haraclius, and bishop over the Christians of Syria, relating this, said that when Heraclius came to Iliâ', he rose one morning troubled in spirit.

Some of his patriarchs remarked that they were distressed at his change of countenance. Ibn-en-Nâzûr went on to say that Heraclius was a diviner who observed the stars. In answer to their remark he said: 'Last night as I was considering the stars, I saw the king of the circumcised coming to power. Which of the nations practise circumcision?'

'None but the Jews,' replied they, 'let them not trouble thee; write to the cities of thy empire and order them to be slain.' While they were thus engaged, a man was brought before Heraclius sent by the King of Ghassân to bring the news about the Prophet (Peace be upon him). When Heraclius had questioned him, he said to those around him: 'Go and examine this man to see whether he is circumcised or not.' They did so, and reported to him that he was circumcised. *The Emperor* then asked him about the Arabs, and he replied that they practised

وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا «لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ» فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ ، قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ : وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ

O ye people of the Book,[1] come to the call of a word which is common[2] to us and you, namely that we should worship none but Allâh, nor associate aught with Him, that none of us should take others as lords over them beside Allâh. If they turn away *from this appeal,* say: 'Bear witness that we are Muslims'. "[3]

Abu Sufiân (continuing his narrative) said: "When Heraclius had said this and ended the reading of the letter, there arose in his presence a great tumult, and voices were raised; we were sent out, and as we were going out, I said to my companions: 'Ibn-Abu-Kabshah's[4] position has become important, since the king of the sallow-faces[5] fears him.' And I remained convinced that Muhammad would come to power, until Allâh brought Islâm into my heart."

لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ .

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الَّذِي بَعَثَ بِهِ مَعَ دِحْيَةَ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ

---

(1) "The people to whom the Scriptures are given". As the term is here applied to Christians, both the Old and New Testaments are implied, thus including both Jews and Christians.

(2) A "word" accepted equally by the Prophets and Scriptures of the three Faiths (Al-Baidâwi) ; or a "word" that puts all men on an equality (Al-Fakhr-er-Râzi).

(3) Or true believers.

(4) This name can be taken as referring to the Prophet himself. Abu Kabshah may have been an ancestor of his, or the husband of his foster-mother. An ancestor of the Prophet of this name worshipped the Dog-star, after renouncing the idols of Mecca, and so the term "Son of Abu Kabshah" may have been contemptuously applied to the Prophet.

(5) The Byzantines. It is said that Rûm b. Ais, their ancestor, married the daughter of the king of Abyssinia and produced a sallow-faced race.

He then called for the letter of the Prophet of Allâh (Peace be upon him) which he had sent by Dihiah[1] to the governor of Busrâ[2] who had forwarded it to Heraclius. When he read it, he saw in it the words: " In the Name of Allâh the All-Loving the Most Merciful. From Muhammad, the Servant and Apostle of Allâh to Heraclius the Ruler[3] of the Greeks. Peace be upon him who followeth the Guidance! To proceed — I invite thee to answer the call to Islâm. Embrace Islâm and thou shalt be saved, and Allâh shall give thee a double[4] reward; and if thou turnest away, then the sin of thy subjects[5] shall be upon thy head.

وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ
عَمَّا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ
أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ
وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ،
فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ
مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ
أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ،
فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ
لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ

---

(1) One of the earliest of the "Companions", who was extremely handsome and of high family.

(2) Identified with Haurân — which was famous for its citadel, and which was the first town in Syria to fall to the Muslims in 13 A.H.

(3) Ruler or Chief. The Prophet avoided using any of the usual imperial titles, as he considered the Emperor deposed by the law of Islam. His use of of the word عظيم however, shows his readiness to acknowledge his dignity.

Ibn Hajar quotes Al-Bazzâr who states in his Musnad on the authority of Dihiah that the Emperor's nephew urged him not to read the letter, as it began with " Muhammad ", ignoring the Emperor's official titles. But the Emperor insisted on reading the letter.

(4) One reward for the conversion, and one for constancy in the faith; or — one for believing in his own Prophet (Jesus), and one for accepting Muhammad; or — one for his own conversion to Islâm, and one for being instrumental in that of his followers.

(5) Plural of أريس (farm-labourers) hence "Subjects" — Heraclius' subjects being mostly engaged in agriculture, and peasants remaining " heathen " long after the establishment of Christianity. The passage means that his refusal to embrace Islâm would involve his own sin and theirs, as they would naturally follow him. The rendering "publicans" as being typical of sinners is unlikely. Another possibility is "princes" رياسة — through Kirâ'. The word is possibly of Syriac origin.

increasing. Such is *the course of* faith until it reacheth its perfection.

I have asked thee whether any one hath renounced his faith out of aversion to it after having adopted it, and thou hast said 'No'. So it is with faith when its joy penetrateth the heart.

I have asked thee whether he betrayeth his trust, and thou hast said 'No'. So it is with the Prophets, who betray not their trust.

I have asked thee what he commandeth you to do, and thou hast replied that he commanded you to worship Allâh and not to associate aught with Him, and forbade you to worship idols, and enjoined upon you prayer, truthfulness and purity; and if what thou sayest is true, he will take possession of the very spot[1] beneath these two feet of mine. I have known he was to appear, but I did not think that he would be one of you. If I knew that I should be able to attain to him, I should take the risk[2] of meeting[3] him, and if I were in his presence, I should wash his feet.

قلتُ فلو كان من آبائه من ملك قلتُ رجلٌ يطلب ملكَ أبيه .
وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل
وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم
وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .
وسألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ،

(1) Jerusalem, or perhaps the whole of Syria.

(2) i. e. would have taken the risk of being killed by the Christians (At-Tabarâni)

(3) I should have become a follower of his. (Ibn Ishâq)

Heraclius then told the interpreter to say to Abu Sufiân: 'I asked thee about his lineage and thou hast stated that he was of high standing amongst you. So also the Prophets, who were sent, were of high lineage among their people.

And I have asked thee whether any of you hath ever made this claim and thou hast answered 'No'. I replied: If any one had made this claim before him I should have said it was a man following an example that had been set before; and I have asked thee whether any of his forefathers were kings, to which thou hast replied 'No.' I say now that if any of his forefathers had been kings, I should have thought he was a man seeking his father's throne. I have asked thee whether ye had accused him of falsehood before he made this claim and thou hast replied 'No'. I gather from this that he is not a man to abstain from lying to men and then to lie about God. I have also asked thee whether his followers were the mighty or the humble, and thou hast replied the humble, and these are they who are the followers of the Prophets.

I have asked thee whether they are increasing or decreasing, and thou hast replied that they are

قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟

قُلْتُ نَعَمْ

قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟

قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ

قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟

قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا . وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا .

"Are they on the increase or the decrease?"

"Indeed on the increase.

"Hath any of them renounced his faith in abhorrence to it after having embraced it?"

"No".

"Did you ever accuse him of falsehood before he made that claim?"

"No".

"Doth he betray his trust?"

"No; but there is now a truce between us and him, and we know not what he will do in regard to it. (Here Abu Sufiân remarks: "I was not able to make any other insinuation against him".)

"Have you fought against him?"

"Yes".

"And how was *the issue of* your fight with him?"

"The tide of war between us was fluctuating, some times against us and sometimes against him".

"What doth he command you to do?"

"He telleth us to worship Allâh alone and to associate naught else with Him; to abandon our fathers' beliefs, and he enjoineth upon us prayer, truthfulness, purity and charity *to kinsfolk*".

قَطُّ قَبْلَهُ ؟

قُلْتُ لَا

قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟

قُلْتُ لَا

قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟

قُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ

قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟

قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ

قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟

قُلْتُ لَا

قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟

قُلْتُ لَا

قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ ؟

قُلْتُ لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ

"Which of you is nearest related to this man who claimeth to be a prophet"? " I ", replied Abu Sufiân, "am his nearest relation among those present".

"Bring him nearer to me." said Heraclius, "and likewise his companions. Place them behind him". [1] He then said to his interpreter: "Tell them that I shall ask this *man* about the *supposed* prophet, and if he speaketh false to me they must give him the lie".

(Abu-Sufiân remarks in relating this incident: "By Allâh, but for my shame at having mendacity attached to my name, I should have lied about him".)

Then the first question he asked me about him was: "What family standing hath he amongst you?

"He hath a high family standing amongst us", said I.

"Hath any one of you ever made this claim before him ?" asked Heraclius.

"No", replied I .

"Was any of his forefathers a king ? "

"No".

"Do the mighty follow him or the humble ? "

"Nay, the humble".

الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ

فَقَالَ :

أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ

الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ

نَسَبًا

فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ

فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ

هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي

فَكَذِّبُوهُ

فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا

عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ :

كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟

قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ

قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ

---

(1) Heraclius placed Abu-Sufiân's party behind him in order that they might not be afraid to contradict him if he spoke falsely.

generous in good works than the wind that is sent in blessing."

مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ .

6 — We are informed by Abul-Yamân Al-Hakam b. Nâfiʿ, who had it from Shuʿaib, through Az-Zuhrî, who received it from ʿUbaidullâh b. ʿAbdullâh b. ʿUtbah, b. Masʿûd that he was told by ʿAbdullâh b. ʿAbbâs that Abu Sufiân b. Harb related to him that Heraclius[1] sent for him while he was in a caravan of Quraish, who were trading in Syria during the time when the Apostle of Allâh (Peace be upon him) had made a truce[2] with Abu Sufiân[3] and the unbelievers of the Quraish. So they went to him while they were at Iliâ'[4] and he accordingly summoned them to his court where he was surrounded by Greek notables. He then called them before him, and called upon his interpreter to say:

٦ — حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فى رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تجَارًا بالشَّأْمِ فى الْمُدَّةِ التى كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَادَّ فِيهَا أَبَا سفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فأَتَوْهُ وَهُمْ بإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فى مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عظَمَاءُ

(1) Heraclius (575-642 A.D.) Emperor of the Eastern Roman Empire proclaimed in the year 610 A. D. In 629 A.D. the Arabs made their first incursion into his domains. In 636 A. D. they won a notable victory on the "Yermuk" (Hieromax), and in the following year conquered all Syria, Palestine and Egypt.

(2) The truce of Hudaibiyyah in the year 6 A. H.

(3) A cousin of the Prophet's.

(4) Iliâ', meaning 'God's House', is probably a Hebrew version of Jerusalem, or an Arabic transcription of Aelia (Capitolina) as it was then called. Ibn Hajar states that Heraclius was on his way from Emessa to Aelia, to which he was going on foot as a gesture of thanksgiving to God for his success in his dealings with the Persians.

part to expound it *to thee,*" Ibn ‘Abbâs explained them as meaning: "Afterwards it shall be Our part to teach thee the recital thereof". So the Apostle of Allâh (Peace be upon him) after that, when Gabriel came to him, listened; and when Gabriel had departed, the Prophet (Peace be upon him) recited the Revelation just as *the Angel* had recited it.

أَنْ نَقْرَأَهُ ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كَمَا قَرَأَهُ .

5 — We are informed by Abdân who had it from ‘Abdullâh, who received it from Yûnus through Az-Zuhri;[1] we are also informed by Bishr b. Muhammad, who had it from Yûnus and likewise from Ma‘mar through Az-Zuhri, who stated that it was related to him by ‘Ubaidullâh b. ‘Abdullâh through Ibn ‘Abbâs, who said: "The Apostle of Allâh (Peace be upon him) was the most generous of men, and most of all in Ramadân, when Gabriel used to meet him — which he used to do every night in Ramadân — and recite the Qur'ân together with him.[2] Indeed the Apostle of Allâh (Peace be upon him) is more

٥ — حدثنا عبدان قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا يونس عن الزهري ح وحدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا يونس ومعمر عن الزهري نحوه قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كان رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ

(1) letter ح [for تحويل] is here inserted in the text to indicate that a second *isnâd* follows.

(2) يدارسه The form فاعل suggests participation, the Angel reciting one part, & the Prophet another.

4 — We are informed by Mûsa b. Ismâʿîl, who stated that he had it from Abu ʿAwânah who received it from Mûsa b. Abu ʿA'ishah, to whom it was related by Saʿid b. Jubair through Ibn ʿAbbâs, who, commenting on the Qur'ânic verse: "O Muhammad! Move not thy tongue during the Revelation, repeating it, in order to hasten its committal to memory", said: "The Apostle of Allâh (Peace be upon him) used to suffer sorely from the Revelation, and it was for this reason that he moved his lips."

"I *now* move my lips for you", said Ibn ʿAbbâs, "just as the Apostle of Allâh (Peace be upon him) used to do." Saʿid, reporting this tradition, said: "I am moving *my lips* just as I saw Ibn ʿAbbâs do", and moved his lips in that way. So Allâh (Be he exalted) sent down *the verse* "O Muhammad! Move not thy tongue during the Revelation, repeating it, in order to hasten its committal to memory, for the collection and the recital of the Revelation are Our part." Ibn ʿAbbâs explained this by saying: "Allâh's collection of the Book shall be in thy heart, and thou shalt recite it". The verse "And when We recite it, follow thou its recitation" he explained as "Hearken to it and give heed." As for the words "Afterwards it shall be Our

٤ ـ حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا أبو عوانة قال حدثنا موسى بن أبي عائشة قال حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً وكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فقال ابن عَبَّاسٍ فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّكُهُمَا وقال سعيد أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالى « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » قال جَمْعُهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ « فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » قال فاستَمِعْ لَهُ وأَنْصِتْ « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » ثُمَّ إِنَّ علينا

informed me that Jâbir b. ‹Abdullâh Al-Ansârî, speaking about the intermission [1] of the Revelation, said in his narration: " While I was walking behold ! I heard a voice from Heaven. I raised my eyes and lo ! the Angel who came to me in Hirâ' was sitting upon athrone between Heaven and Earth.

I was filled with fear and went home saying, "Wrap me up". Then Allâh (Be He exalted) sent down the verse: "O thou that art enfolded, arise and proclaim the warning — as far as the words "Flee the abominations *of idolatry*". Then the Revelations became more powerful and frequent."

‹Abdullâh b. Yûsuf and Abu Sâleh have confirmed Yahya b. Bukair's narration as did Hilâl b. Raddâd through Az-Zuhri, while Yûnus and Ma‹mar used the word « بوادره » instead of « فؤاده »

قال وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الْوَحْيِ فقال فى حديثه : بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فرَفَعْتُ بَصَرِي فإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنه فَرَجَعْتُ فقُلْتُ زَمِّلُونِي فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى « يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ. إِلَى قَولِهِ وَالرُّجْزَ فاهْجُرْ » فَحَمِيَ الْوَحْيُ وتَتَابَعَ (تَابَعَهُ عبدالله ابن يوسف وأبو صالح وتابعه هلال ابن ردّاد عن الزهرى وقال يونس ومعمر: بَوَادِرُهُ)

[1] An interruption lasting about 3 years between " اقرأ " and " يأيها المدثر "

[2] These two sanads (authorities) support the reading of " فؤاده " for " بوادره " meaning " deltoid muscles or withers ". Those who accept this variant will read "his shoulders quivering" for "his heart beating"

"Cousin, hear from thy nephew."[1] Waraqah then said: "Nephew, what is it that thou seest ?" The Apostle of Allâh (Peace be upon him) gave him an account of what he had seen. Waraqah answered and said: "This is the "Nomos"[2] which was sent down by Allâh to Moses.[3] O that I were a young man *at the call to Islâm!* O that I might be living when thy people drive thee out !" The Apostle of Allâh (Peace be upon him) answered: "Shall they drive me out ?" "Yes", replied Waraqah, "no man hath ever yet brought anything like what thou hast brought but hath made enemies, and if I live to see thy day *of trial*, I shall succour thee with all my power". It was not long before Waraqah died and the Revelation was delayed *for a span.*

Ibn Shihâb said, and also Abu Salamah b. ‘Abdur-Rahmân

كبيراً قد عمي فقالت له خديجة
يابن عم اسمع من ابن أخيك
فقال له ورقة يابن أخي ماذا
ترى؟ فأخبره رسول الله صلى
الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال
له ورقة : هذا الناموس الذي
نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعاً
ليتني أكون حياً إذ يخرجك
قومك » فقال رسول الله صلى الله
صلى الله عليه وسلم «أو مخرجي هم ؟
قال نعم لم يأت رجل قط بمثل
ما جئت به إلا عودي وإن
يدركني يومك أنصرك نصراً
مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن
توفي وفتر الوحي » قال ابن شهاب
وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن
أن جابر بن عبد الله الأنصاري

(1) A conventional term.

(2) "Nomos" or confidential Angel of God, first sent to Moses, i. e. Gabriel.

(3) Moses is referred to in preference to Jesus, because the Law was known as the Law of Moses, and both Christians and Jews recognised Moses, while the Jews do not acknowledge Jesus.

with the Revelation, his heart beating with fear, and went home to Khadîjah, the daughter of Khuwailid, saying: "Wrap me up! Wrap me up!" They did so until his fear left him. Then he spoke to Khadîjah and told her the news saying: "I have been sore afraid for my life." Khadîjah said to him: "Nay, by Allâh! Allâh shall never put thee to shame, for truly thou art a man that linkest the ties of kinship, supportest the dependent, givest to the needy[1], showest hospitality to the guest, and assuagest the sorrows of the afflicted."[2] Khadîjah then went forth with him until she brought him to Waraqah b. Nawfal b. Asad b. ʿAbdul-ʿUzzâ, Khadîjah's paternal cousin. He was a man who had become a Christian during the "Ignorance" and he used to write in the Hebrew tongue, writing in Hebrew as much of the Gospel as it pleased Allâh[3] that he should write. He was a very old man who had become blind, so Khadîjah said to him,

يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضى الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ » فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخاً

(1) Or-givest what others refuse; or-art ready to give what is rare.
(2) Either those afflicted in the cause of righteousness; or the righteous.
(3) The Arabic idiom " ما شاء الله " implies here that Waraqah's learning enabled him to write whatever he liked.

return to Khādījah and prepare provisions for a similar spell, until the Truth came to him while he was in the cave of Hirâ' (1), when the Angel came to him and said, "Read", and he said "I am in no wise a reader(2)." The Apostle said: "He seized me and clasped me with such force that my strength left me. Then he released me saying, 'Read'. I said, 'I am in no wise a reader.' Again he seized me and clasped me until my strength left me, and then released me saying, 'Read'. Again I said, 'I am in no wise a reader'. He seized me and clasped me a third time and then releasing me he said, 'Read in the Name of Thy Lord, who created *all things*, created man from clotted blood. Read for Thy Lord is most Gracious'." The Apostle of Allâh (Peace be upon him) returned

لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ
فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ
فَقَالَ « اقْرَأْ » قَالَ « مَا أَنَا
بِقَارِىءٍ » قَالَ « فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي
حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي
فَقَالَ « اقْرَأْ » قُلْتُ « مَا أَنَا
بِقَارِىءٍ » فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي
الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ
أَرْسَلَنِي فَقَالَ « اقْرَأْ » فَقُلْتُ
« مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » فَأَخَذَنِي
فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ
« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » فَرَجَعَ بِهَا
رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم

---

(1) A mountain three miles from Mecca.

(2) The words : " ما أنا بقارىء " may be diversely rendered on the three occasions :
1 st. I am not able to read, 2nd. I am in no wise a reader, 3rd. How (or what) am I to read ?
These three interpretations are suggested by Abu Shâmah, confirmed by Abul-Aswad and quoted by Ibn Hajar.

his utterance."

‹Ayishah (Allâh be pleased with her) said, "I have seen *the Prophet* when the Revelation came down on him on a very cold day, and it hath left him with his brow pouring down with sweat".

يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْبَرْدِ فَيَنْفَصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»

3 — We are informed by Yahia b. Bukair who had it from Al-Laith through ‹Uqail through Ibn Shihâb through ‹Urwah b. Az-Zubair through ‹Ayishah, the Mother of the Faithful, that she said, "The first sign of Revelation that was shown to the Apostle of Allâh (Peace be upon him) was a true vision in sleep, so that he saw no vision but came like morning light; then he was filled with a desire for seclusion, and used to withdraw to the Cave of Hirâ,' in which he prayed[1] after the manner of Abraham, namely worshipping for many nights before returning to his kinsfolk, taking provisions for this purpose. Then he would

٣ـ حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من ٱلْوَحْيِ ٱلرُّؤْيَا ٱلصَّالِحَةُ فِي ٱلنَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ ٱلصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ ٱلْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ ٱلتَّعَبُّدُ ٱللَّيَالِيَ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ ـ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ

(1) The Arabs sometimes changed ف to ث making تحنث for تحنف. The former means "casting away sin" and the latter "following the Hanifiyyah i. e. religion of Abraham or the true religion.

his flight is accounted to him according to its motive."

2 — We are informed by ʿAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik, through Hishâm b. ʿUrwah, through his father, through ʿAyishah, the Mother of the Faithful (Allâh be pleased with her) that Al-Hârith b. Hishâm (Allâh be pleased with him) asked the Apostle of Allâh (Peace be upon him) saying: "O Apostle of Allâh! How doth the Revelation come to thee?"

The Apostle of Allâh (Peace be upon him) replied, "At times it cometh to me like the ringing of a bell,[1] which kind is the most sore upon me; then it leaveth me after I have given heed to the utterance; and sometimes the Angel seemeth to me like a man speaking to me, and I give heed unto

يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»

٢ـ حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحرث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » قالت عائشة رضى الله عنها « وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ

(1) Probably a bell such as those tied round the necks of animals, which were familiar to the Arabs. Some commentators have suggested the sound of rustling of the Angel's wings, and they maintain that bells are condemned by Muslims; but there is no reason why the sound of bells should not be intended here, especially as bells were not condemned until after the establishment of Islâm; and in any case, the words of the text suggest the power of the sound rather than its source, and the condemnation of bells only referred to church-bells.

باب * كَيْفَ كَانَ بَدْءُ ٱلْوَحْيِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقولُ الله جَلَّ ذِكْرُهُ «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ»

was first manifested to the Apostle of Allâh (Peace be upon him) and *the meaning of* the words of Allâh (Glorified be His Name) " We have sent down to thee a Revelation as We did to Noah and the Prophets after him."

١ ـ حدثنا الحميدى عبد الله بن الزبير قال حدثنا سفيان قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال أخبرنى محمد بن ابراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص الليثى يقول سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّمَا ٱلْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى ٱمْرَأَةٍ

1 — We are informed by Al-Humaidî ‹Abdullah b. Az-Zubair, who had it from Sufiân, who was told it by Yahia b. Sa‹îd Al-Ansârî, who received it from Muhammad b. Ibrâhîm At-Taimî, who heard ‹Alqamah b. Waqqâs Al-Laithî, who heard ‹Umar b. Al-Khattâb (Allâh be pleased with him) say from the pulpit: I heard the Apostle of Allâh (Peace be upon him) say, "Actions are judged only by intentions, and every man is requited only in accordance with what he intendeth; and if any man flee to attain a worldly goal, or unto a woman [1] to marry her, then

---

(1) Before Islâm, slaves were not allowed to marry Arab women of better standing than themselves; but when Islâm brought social equality, many embraced it and fled to Medina in order to enjoy the pirvilege. This hadith refers to the story of an emigrant who fled to Medina to marry Umm Qais, who had refused to accept him unless he joined the Prophet in his flight. He is known as "Muhâjir Umm Qais."

The purpose of this hadith was to commend sincerity of motive to those who sought after the title of Muhâjir, which was much esteemed by early Muslims.

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

جامع صحيح البخارى

ترجمه الى الانجليزية

الاستاذ ابراهيم حسن الموجى

الاستاذ فى الآداب وعضو الجمعيه الاسيوية الملكية ببريطانيا العظمى
والمحاضر بمدرسة التجارة العليا بمانشستر

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS.

Translated into English

BY

I. H. EI-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

LECTURER, HIGH SCHOOL OF COMMERCE, MANCHESTER.

BOOK I.

CHAPTER I.

IN THE NAME OF ALLAH THE ALL-LOVING THE MOST MERCIFUL.

The Shaikh,[1] Imâm[2] and Hâfez[3], Abu ‹Abdulâh Muhammad b. Ismâ‹îl b. Ibrâhîm b. Al-Mughîrah Al-Bukhâri (Allâh, be He exalted, have mercy on him, Amen) stated:—

CHAPTER. How the Revelation[4]

الـكتاب الأول

الباب الأول



قال الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة البخارى رحمه الله تعالى آمين.

(1) Professor.

(2) Doctor of Islâm.

(3) A Traditionist who has committed at least 100,000 traditions to memory.

(4) Written or verbal inspiration — the words of God to the Prophet; also the bearer of the same, in this case Gabriel.